من تفسير وتأملات
الآباء الأولين

الإنجيل بحسب لوقا

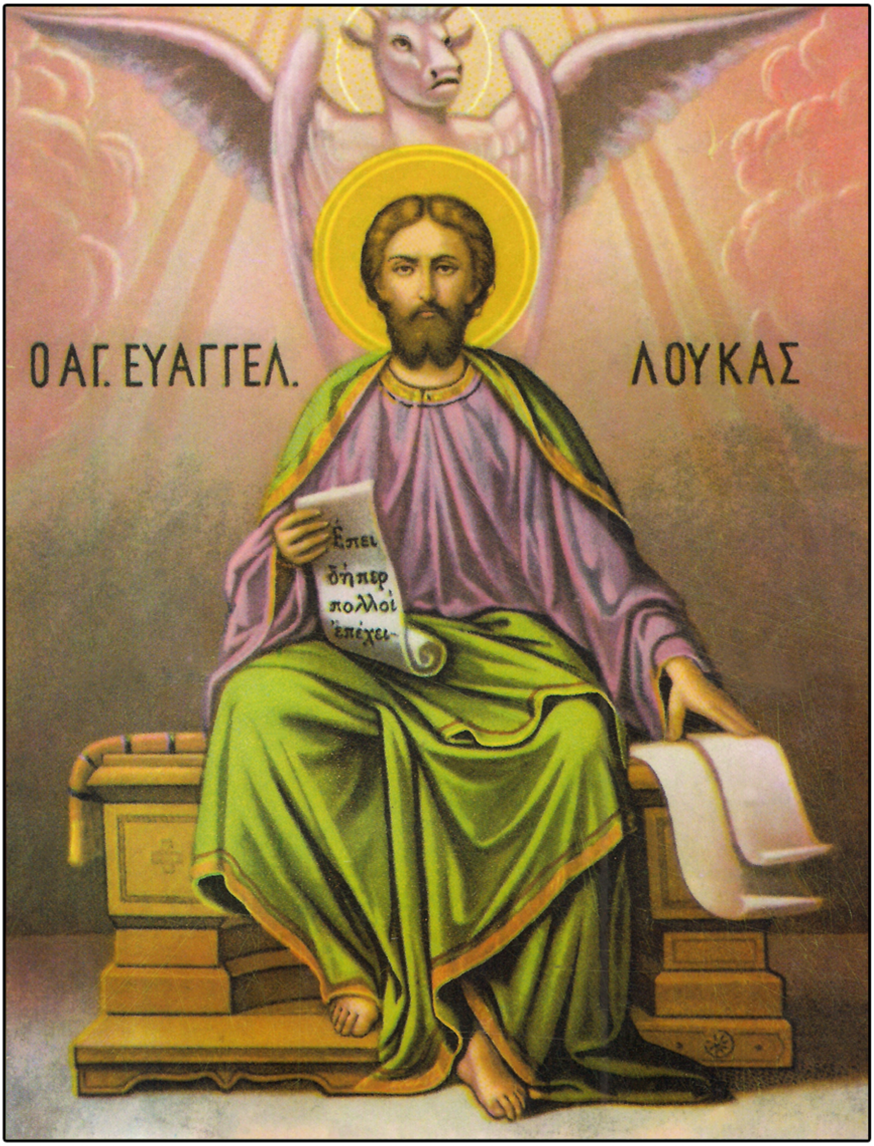

القمص تادرس يعقوب ملطي

من تفسير وتأمُّلات

الآباء الأولين

الإنجيل بحسب لوقا

القمص تادرس يعقوب ملطي

كنيسة الشهيد مار جرجس بسبورتنج

بسم الآب والابن والروح القدس

الله الواحد. آمين.

اسم الكتاب: الإنجيل بحسب لوقا

المؤلف: القمص تادرس يعقوب ملطي

رقم الإيداع بدار الكتب: ٥٧٦٥ / ١٩٨٥م

إنجيل لوقا

لوقا البشير

- كلمة "لوقا" غالبًا اختصار للكلمة اللاتينية "لوقانوس *Lucanus*" أو "لوكيوس" وتعني "حامل النور[١]"، أو "المستنير[٢]". غير أنه يجب التمييز بين لوقا الإنجيلي ولوكيوس المذكور في (أع ١٣: ١)، وأيضًا لوكيوس المذكور في (رو ٦: ٢١)[٣].

- هو الوحيد بين كتَّاب العهد الجديد الذي كان أمميًا ولم يكن يهوديًا بل، غالبًا من إنطاكية سوريًا؛ قَبِل الإيمان المسيحي دون أن يتهوّد. ويعلّل الدارسون ذلك بأن الرسول بولس حين أشار إليه في رسالته إلى كولوسى (كو ٤: ١٤). لم يضمُّه إلى من هم من أهل الختان (٤: ١٠-١١) مثل أرسترخس ومرقس ابن أخت برنابا ويسوع المدعو يسطس.

- رأى البعض أنه كان أحد السبعين رسولاً، بل وأحد التلميذين اللذين ظهر لهما السيد بعد قيامته في طريقهما إلى عمواس (لو ٢٤: ١٢)، وأن الرسول لم يذكر اسمه بروح التواضع؛ غير أن الرأي الغالب بين الدارسين المحدثين أنه لم يكن من الرسل، بل قَبِل الإيمان على يديّ الرسول بولس، مدلّلين على ذلك أولاً بافتقار السند التاريخي، وثانيًا لأن هذا الفكر يبدو متعارضًا مع مقدمة الإنجيل، إذ يقول الكاتب عن الأمور المختصة بالسيد المسيح: "**كما سلّمها إلينا الذين كانوا من البدء معاينين وخدامًا للكلمة**" (لو ١: ٢)، وكأن الكاتب لم ينظر السيد المسيح بل سجّل ما تسلمه خلال التقليد بتدقيقٍ شديدٍ وتحقق من الذين عاينوا بأنفسهم. ولعلّه لهذا السبب يُعلق أحد الدارسين على هذا الإنجيل بقوله: "إنه عمل وليد إيمان الجماعة، قام على التقليد، وليس عملاً فرديًا[٤]".

- كان القديس لوقا طبيبًا (كو ٤: ١٤)، ورسّامًا، جاء في التقليد أنه رسم أيقونة السيدة العذراء.

- ارتبط القديس لوقا بالقديس بولس رسول الأمم بصداقة قوية، ففي سفر الأعمال أقلع الإنجيلي لوقا مع الرسول بولس من تراوس إلى ساموتراكي ثم إلى نيابوليس، ومن هناك إلى فيلبي (أع ١٦: ١٠-٣٩ الرحلة التبشيرية الثانية). مرة أخرى في رحلة الرسول بولس التبشيرية الثالثة عند رجوعه

---

[1] *Catena Aurea (Luke Ch 1).*
[2] *J. Strong: Greek Dick. Of the N. T., art 3065, 3066.*
[3] *New Westminster Dictionary of the Bible, p570.*
[4] *Oscar Cullmann : The N.T..., 1968, P 41.*

تبعه الإنجيلي لوقا من فيلبى إلى أورشليم (أع ٢٠: ٥–٢١: ١٨). كما نراه مرافقًا له في روما عند الأسر (٢٨: ٣٠). وكان معه في لحظاته الأخيرة، إذ يقول في رسالته الوداعية: "**لوقا وحده معي**" (٢ تي ٤: ١١).

❖ هكذا ارتبط الاثنان معًا، فسجل لنا الإنجيلي لوقا الكثير من عمل الله الكرازي خلال الرسول بولس في سفر الأعمال؛ ودعاه الرسول بولس: "الطبيب الحبيب" (كو ٤: ١٤)، كما دعاه بالعامل معه (فل ٢٤).

❖ قيل أنه عاش بتولاً، عمل في أخائية (باليونان)، استشهد في الرابعة والثمانين من عمره وأن الإمبراطور قسطنطينوس الثاني نقل رفاته إلي القسطنطينية عام ٣٥٧م، وفي عام ١١٧٧م نقلت إلى *Padau* بإيطاليا[١].

نسبة السِّفْر إليه

١. جاءت شهادة الكنيسة في القرون الأولى واضحة أن الكاتب هو لوقا البشير، كاتب سفر الأعمال ورفيق الرسول بولس، كما يظهر من كتابات الآباء **يوستين الشهيد وإيريناؤس**[٢] **وأوريجينوس**[٣] **وترتليان**[٤].

٢. بجانب هذه الأدلة الخارجية، السفر نفسه يحمل دلائل على أن كاتبه هو معلمنا لوقا. فمنها أن هذا السفر موجّه إلى "ثيؤفيلس" نفس الشخص الذي وُجِّه إليه سفر أعمال الرسل، بل وجاءت مقدمة سفر الأعمال تكمل خاتمة إنجيل لوقا، فالكاتب واحد. والسفران متشابهان في اللغة والأسلوب والأفكار[٥]. هذا والتعبيرات الدقيقة التي استخدمها في وصف الأمراض التي شفاها السيد المسيح تدل على أن الكاتب طبيب[٦]، فكطبيب احترامًا منه لمهنة الطب لم يقل ما ذكره مرقس الرسول عن نازفة الدم: "قد تألمت كثيرًا من أطباء كثيرين وأنفقت كل ما عندها، ولم تنتفع شيئًا، بل صارت إلى حال

---

[1] *Jerome Bid. Comm.., p. 116, Oxford Dictionary. of the Christian Church , p. 844.*

[2] *Eusebius, H. E. 5:8.*

[3] *Eusebius, H. E. 3: 4: 7, 8.*

[4] *Adv. Marc.*

[5] *The Interpreter's one-volume Commentary, 1980, p. 672.*

الدكتور موريس تاوضروس في مقدمته لكتاب: إنجيل القديس لوقا (تعليقات القديس كيرلس بطريرك الإسكندرية عليه) تعريب المرحوم كامل جرجس، ص ٦–٩. قام بترجمة ٤١ عظة، نشرت بمجلة الكرمة استصوبت عدم إعادة ترجمتها، وقد قمت بترجمة بقية العظات للقديس كيرلس.

[٦] المراجع السابق، ص ٣، ٤.

أردأ" (مر ٥: ٢٦)، إنما اكتفى بالقول: "قد أنفقت كل معيشتها للأطباء، ولم تقدر أن تُشفي من أحد" (لو ٨: ٤٣).

تاريخ كتابته

لا يوجد تقليد ثابت بخصوص تاريخ كتابته أو مكان كتابه، **فالقديس إيريناؤس** يرى أنه كُتب قبل استشهاد القديس بولس، بينما **القديس جيروم** معتمدًا على المؤرخ يوسابيوس القيصري يراه كتب بعد استشهاد الرسول بولس[1].

لما كان هذا الإنجيل قد كُتب قبل سفر الأعمال، وكُتب الأعمال قبل استشهاد الرسول بولس حتى أنه لم يشر إلى هذا الحدث، لهذا اعتقد كثير من الدارسين أنه كتب ما بين عام ٦٣ و٦٧م. كتبه غالبًا في روما، وإن كان قد رأى البعض أنه كُتب في أخائية أو في الإسكندرية.

غايته

إن كان معلمنا متى البشير كيهودي كتب لليهود ليعلن أن يسوع هو المسّيا الملك، الذي طالما ترقّب الآباء والأنبياء مجيئه، ليكون لهم نصيب في ملكوته الروحي الأبدي، فإن مار مرقس كتب للرومان ليُعلن أن يسوع هذا هو الخادم العامل، لا بروح السلطة الزمنية والتشامخ والعنف، بل بروح البذل، فيخلص بأعمال محبته لا بجيوش وقوات زمنية. أما معلمنا لوقا البشير فكأممى طبيب مثقف أراد أن يخدم أصحاب الفكر الهيليني، فكتب لليونان عن السيد المسيح بكونه "صديق البشرية كلها"، يقدم لها أعماله الإلهية الخلاصية، لتحقيق ما عجزت عنه الفلسفة اليونانية والحكمة البشرية.

لهذا يُدعى هذا الإنجيل: "**إنجيل الصداقة الإلهية**" أو "**إنجيل المسيح المخلص**". كما دُعي بالإنجيل المسكوني بكونه يمثّل دعوة للبشرية كلها لتقبل نداء صديقها السماوي، لتتجاوب مع عمله الخلاصي خلال الحب. هذه الغاية سنراها واضحة خلال حديثنا عن سمات هذا السفر.

كتب القديس لوقا هذا الإنجيل لصديقه العزيز ثاؤفيلس (١: ٣). لقَب "العزيز" وهو لقب شرف، لهذا جاء الرأي الغالب أنه أحد أشراف الإسكندرية، من أصل إنطاكي كلوقا البشير نفسه، فكتب إليه كأممى مثله، لا لينتفع منه وحده، وإنما كما قال **العلامة أوريجينوس** لينتفع به المنتصرون من الأمم بوجه عام[2].

---

[1] *J. McKenzie: Dictionary of the Bible, P 524.*
[2] *Eusebius. H. E. 6: 25: 6 .*

لقد ظن البعض أن لوقا هذا كان عبدًا لسيده ثاؤفيلس الأممي، وإذ عالجه كطبيب وشُفي كافأه بالعتق من العبودية، فبعث إليه الطبيب لوقا هذا الإنجيل علامة امتنانه وشكره. وآخرون قالوا أن كلمة "ثاؤفيلس" وهي تعني "المحب لله" إنما هو اسم استتكاري لأحد أشراف الإسكندرية لم يفصح عنه الإنجيلي حتى لا يتعرض لمتاعب بسبب مسيحيته. على أي الأحوال، فإن هذا السفر موجه للأمم بوجه عام ليتمتعوا بصديقهم السماوي كمخلص لنفوسهم.

سماته

١. إذ قدّم لنا الإنجيلي السيد المسيح بكونه "**المخلص صديق البشرية**"، كثيرًا ما حدثنا عن "ابن الإنسان" جاء إلينا يحمل إنسانيتنا لكي يهبنا شركة الطبيعة الإلهية. فإن كانت الفلسفات اليونانية قدمت أفكارًا مجردة، لكنها لا تستطيع أن تحتل القلب وتُغير الأعماق، أما ابن الإنسان فجاء صديقًا للإنسان حتى يقبله في داخله، فيهبه خلال هذه الصداقة الفريدة إمكانيات فائقة تعمل في أعماقه وتنعكس على تصرفاته. دعوته للسيد "ابن الإنسان" تحطّم شعورنا بغربتنا عن الله، أو غربته عنّا إذ نزل إلينا ليرافقنا طريقنا.

٢. أهم سمة لهذا الإنجيل إنه إذ يقدم "المخلص الصديق" يقدمه للبشرية كلها، فهو إنجيل مسكوني. هو دعوة للجميع وليس لليهود فقط. لهذا نلاحظ فيه الآتي:

أ. إذ كان اليهود يتطلعون إلى أنفسهم أنهم أبرار وبقية الشعوب خطاة، يعلن الإنجيلي أن السيد المسيح هو "صديق الخطاة[1]"، فانفرد بقوله أن ابن الإنسان، قد جاء يطلب ويخلص ما قد هلك (١٩: ١٠)، كما قدّم لنا مجموعة كبيرة من أقوال السيد وأمثاله توضح صداقة يسوع المسيح وحنوّه على الخطاة، مثل المثل الخاص بطول الأناة على شجرة التين العقيمة (١٣: ٦-٩)، مثل الخروف الضال، والدرهم المفقود، والابن الضال (١٥)؛ كما قدّم لنا قصة المرأة الخاطئة (٧: ٣٦-٥٠)، وتوبة زكا العشار (١٩: ١-١٠)، والوعد للّص التائب على الصليب (٢٣: ٤٠-٤٣) الخ.

ب. اقتبس العبارات والأحداث التي تفتح أبواب الرجاء للأمم، كقول إشعياء النبي: "كل جسد يرى خلاص الرب"، ورسالة إيليا النبي إلى أرملة صرفة صيدا الأممية (٤: ٢٥)، ورسالة أليشع إلى نعمان السرياني الوثني الأممي (٤: ٢٧).

---

[1] *McKenzie, P 526.*

ج. ذكر إرسالية السبعين رسولاً، فإن كان الاثنا عشر تلميذًا يمثلون دعوة اليهود (الاثني عشر سبطًا) فإن رقم ٧٠ يشير إلى ملء الأمم.

د. في نسب السيد المسيح لم يبدأ بإبراهيم بل بآدم أب كل البشرية (٣: ٣٨).

٣. إذ هو سفر الصداقة الإلهية المتّجهة نحو الإنسان، فإن هذه الصداقة مقدّمة أيضًا للأطفال والنساء، مقدسًا الطفولة، ورافعًا من شأن المرأة ودورها الإيجابي، كما أعطى اهتمامًا خاصًا بالفقراء والمعوزين والمطرودين والمنفيين:

من جهة الأطفال انفرد بذكر ميلاد يوحنا المعمدان وطفولته، وأيضًا بشارة العذراء بميلاد الطفل يسوع في شيء من التفصيل، وابتهاج الجنين في أحشاء أليصابات عند دخول القديسة مريم وسلامها على اليصابات، وختان الطفل يسوع، ودخوله الهيكل مع القديسة مريم في يوم الأربعين، وذهابه الهيكل في الثانية عشر من عمره الخ.

من جهة المرأة فقد لاحظ بعض الدارسين[١] أن لوقا البشير إذ قدّم إنجيله المسكوني (الجامعي) أعطى اهتمامًا خاصًا بالمرأة أكثر من بقية الإنجيليين. ففي العالم الهيليني يبدو أن مركز المرأة اجتماعيًا وقانونيًا أفضل منه عند اليهود في ذلك الحين، لذلك أراد الإنجيلي إظهار أن الرسالة الإنجيلية لا تحدّها التقاليد اليهودية. انفرد الإنجيلي بذكر حنّة الأرملة المتعبدة في الهيكل (٢: ٣٦)، كما سجّل لنا خدمة مرثا وجلوس مريم أختها عند قدميّ المخلص تنعم بكلماته.

اهتم الإنجيلي بالفقراء والمعوزين والمطرودين والمنفيين. فأُرسلت البشارة إلى فتاة الناصرة الفقيرة، واهتمت الملائكة بالرعاة البسطاء، وحدّثنا السيد عن الغني ولعازر المسكين، ووليمة العُرج والعُمي والعُسم، ومثل السامري لصالح، ومثل العشار، وقصة الزانية في بيت سمعان الفريسي، ومثل الابن الضال، وقصة مريم المجدلية، وقبول اللص التائب على الصليب الخ. يقول أحد الدارسين: [لقد ظهر اهتمامًا بالأقلّيات والجماعات المعزولة والمنبوذة، مثل السامريين والبرص والعشارين والجنود، وعامة الخطاة الذين في خزي، والرعاة الأمميين والفقراء، وهؤلاء جميعًا يجدون تشجيعًا في هذا الإنجيل[٢]].

---

[1] *Mckenzie, P 526.*
[2] *Jerome Bib. Com. 116.*

٤. يرى البعض مثل *Leon–Dufour*[1] أنه يمكن إطلاق تعبير "**الإنجيل الاجتماعي**" على إنجيل معلمنا لوقا البشير في شيء من التحفظ، معلّلاً ذلك بأنه قد عرض الكثير عن الالتزام بالعطاء للفقراء (٣: ١٠؛ ١٤: ١٢–١٤)، معلنًا عقوبة من لا يساهم في احتياجاتهم (١٦: ٢٥)، كما أبرز الالتزام بعدم الظلم أو الوشاية (٣: ١٠–١٤).

يصعب أن ندعو إنجيلاً بأنه اجتماعي وآخر أنه روحي، فإن الحياة الإيمانية وحدة واحدة لا تتجزأ. إن قُدّم العمل الروحي فلا يتجاهل الجانب الاجتماعي، والعكس إن قُدّم عمل اجتماعي فمن واقع روحي. فما أبرزه الإنجيل بخصوص الاهتمام بالفقراء والمعوزين والمتألمين والمظلومين، إنما هو ثمر طبيعي لتذوقنا صداقة السيد المسيح لنا، بكونه الصديق المهتم بالجميع خاصة المحتاجين روحيًّا أو ماديًّا أو اجتماعيًّا أو نفسيًّا. فيليق بنا كأصدقاء للسيد المسيح أن نردّ حبه بالحب، ونحمل سماته فينا، فما يُقدمه لنا يحملنا أن نقدّمه بصورة أو بأخرى لإخوتنا.

٥. كصديقٍ لنا ليس فقط يقدم لنا السيد المسيح الخلاص على الصليب، إنما خلال هذا الحب الذي يدخل إلى حياتنا اليومية، نراه يشاركنا حتى في ولائمنا ويدخل بيوتنا. فنجده يتناول العشاء في بيت سمعان الفريسي، ويقبل وليمة زكا العشار، ويستجيب لدعوة تلميذي عمواس واستضافتهما له.

وكصديق لنا لا يطلب العنف ولا يقبل التعصب، فنراه يوبِّخ يوحنا لأنه طلب نارًا تأكل أهل السامرة (٩: ٥٤)، وزجر التلاميذ قائلاً: "من ليس علينا فهو معنا" (٩: ٥٠). إنه "**إنجيل الرحمة**" أي "**إنجيل الغفران العظيم**[2]".

وكصديق لنا يشتاق أن نقبل صداقته ونتجاوب مع حبه، لذا كثيرًا ما يثيرنا لقبول هذه الصداقة بتقديم مقارنات مثل:

* سمعان الفريسي والمرأة الخاطئة، فقد قدّم الأول بيته ومائدته دون قلبه، أما المرأة بالرغم من عطاياها الكثيرة لكنها عرفت بالحب أن تتمتع بالصداقة والغفران.
* الفريسي والعشار، الأول دخل الهيكل وله أعمال ناموسية يعتز بها، لكن في كبريائه لم يقدر أن يصادق الرب، بينما استطاع العشّار وهو في آخر صف أن يدخل إلى قلب الصديق الأعظم خلال التواضع.

[1] *Mckenzie 526.*
[2] *Jerome Bible Com . 117 .*

* السامري الصالح واللاوي والكاهن، تمتع الأول بالدخول في هذه الصداقة والتجاوب معها خلال اتساع قلبه للبشرية، بينما خسر رجلي الدين الصداقة خلال ضيق قلبيهما.
* الابن الضال والابن الأكبر، نال الأول البركة وتمتع بالصداقة خلال التوبة والرجوع، بينما فقد الابن الأكبر علاقته بالأب بسبب كبريائه.
* اللص التائب واللص الهالك، اغتصب الأول الملكوت في اللحظات الأخيرة.
* التطويبات والويلات.

٦. إن كان الفكر اليوناني قد ساد العالم في ذلك الحين، لكنه لم يقدّم للبشرية شعبًا صادقًا، وفرحًا حقيقيًا، وعاش الإنسان يطلب كل يوم فلسفة جديدة أو فكرًا لم يُسمع عنه من قبل. لذلك كتب الإنجيلي لوقا هذا السفر ليعلن أن المسيح صديق البشرية، هو واهب الفرح الداخلي والتسبيح. فقد ضمّ الكثير من التسابيح التي تعتز بها الكنيسة وتستخدمها في عبادتها وليتورجياتها، مثل تسبحة الميلاد الملائكية (٢: ١٤)، وتسبحة زكريا (١: ٦٨-٧٩)، وتسبحة القديسة مريم (١: ٤٦-٥٥)، وتسبحة سمعان الشيخ (٢: ٢٩-٣٢).

مجيء الصديق المخلص **خلق جوًا من الفرح**. فقد افتتح السفر بحديث الملاك لزكريا الكاهن عن القديس يوحنا السابق لهذا الصديق المخلص، قائلاً: "ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته" (١: ١٤). كما يروي أن ولادته قد أصبغت فرحًا على الكثيرين (١: ٥٨). أما ميلاد السيد فرافقه انفتاح السماء على الأرض للكرازة بها: "ها أنا أبشركم بفرحٍ عظيمٍ يكون لجميع الشعب" (٢: ١٠). وعندما عاد الرسل السبعين من كرازتهم يقول: "فرجع السبعون بفرح قائلين: يا رب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك" (١٠: ١٧)، بل قيل: "وفي تلك الساعة تهلل يسوع بالروح، وقال: أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء وأعلنتها للأطفال، نعم أيها الآب هكذا صارت المسرة أمامك" (١٠: ٢١). وكأن الكرازة بهذا الصديق الفريد قد هلّلت قلب المخلص نفسه من أجل البسطاء، وهي موضع سرور الآب، بل أعلن أنه يكون فرح حتى في السماء عند توبة الخطاة (١٥: ٧، ١٠، ٣٢).

إنه فرح داخلي يملأ قلب الخاطئ التائب، عندما يجد في صديقه كل الشبع، إذ قيل عن زكا: "فأسرع ونزل وقبله فرحًا" (١٩: ٦). وفرح للجماعة كلها، إذ قيل: "وفرح كل الجمع بجميع الأعمال المجيدة الكائنة منه" (١٣: ٧). كما قيل عن دخوله أورشليم: "ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم لأجل جميع القوات التي نظروا" (١٩: ٣٧). وقد ختم السفر بالفرح

بالصديق القائم من الأموات والصاعد إلى السماوات، إذ قيل عن التلاميذ حين ظهر لهم صديقهم العجيب: "وبينما هم غير مصدّقين من الفرح ومتعجبون..." (٢٤: ٤١). وأيضًا بعد صعوده مباشرة: "رجعوا إلى أورشليم بفرحٍ عظيمٍ" (٢٤: ٥١).

هكذا جاء السيد المسيح يحقق سرور الآب، ويفرح هو بالبشرية المخلَّصة بدمه، وتفرح معه السماء، كما ملأ تلاميذه ورسله فرحًا وسكب على كنيسته بهجته، وأيضًا على الخطاة التائبين. ولكي يميز بين هذا الفرح وفرح العالم المؤقت ضرب لنا مثل الغني الغبي الذي قال لنفسه: "استريحي وكلي واشربي وافرحي" (١٢: ١٩)؛ لكنه لم يستطع أن يفرح، إذ سمع الصوت الإلهي: "يا غبي هذه الليلة تُطلب نفسك منك" (١٢: ٢٠). هذا كله دفع البعض إلى تلقيبه "**إنجيل الفرح المسيحاني**[1]".

٧. إذ جاء السيد المسيح صديقًا لنا، قدّم لنا نفسه مثالاً، فظهر كمصلّي في مواقف كثيرة منها عند عماده (٣: ٢١)، وبعد تطهير الأبرص، وقبل دعوة الإثني عشر تلميذًا (٦: ١٢)، وعند التجلي (٩: ٢٨)، وعلى الصليب من أجل صالبيه، وفي اللحظات الأخيرة من حياته على الأرض. لقد أراد أن يعلن "**الصلاة**" كسِرّ لصلتنا بالله وصداقتنا معه. ظهور السيد كمصلّي إنما يعني أيضًا أنه حملنا فيه لننعم بالاتصال بالآب.

في هذا السفر يحدثنا السيد عن الصلاة أكثر من بقية الأسفار، فوَرد فيه الصلاة الربانية، وشدّد على ضرورة الاستمرار في الصلاة والمثابرة فيها، مقدمًا مثَل الصديق المحتاج لثلاثة أرغفة يذهب إلى صديقه ويطلب بلجاجة، ومثَل قاضي الظلم الذي استمع للأرملة من أجل لجاجتها.

٨. يرى البعض أن الأناجيل بوجه عام، وإنجيل لوقا بوجه خاص، لم تهدف إلى مجرد عرض لحياة السيد المسيح أو تاريخه، قدر ما هدفت إلى تقديم الكنيسة التي عاش فيها السيد المسيح حيًّا يعمل لأجلها. فهي تتحدث عن مسيح الكنيسة كما تتذوقه بالتفافها حوله وثبوتها فيه. فالقديس لوقا في إنجيله يعرض بوحي الروح القدس حياة الكنيسة خلال وجوده على الأرض بالجسد، بينما في سفر الأعمال يعرض حياتها بعريسها خلال وجوده عن يمين الآب بعد الصعود، واهبًا إيّاها روحه القدوس. إنه الصديق العامل بلا انقطاع، كان يعمل حين وُجد بالجسد هنا، ولا يزال يعمل بعد صعوده حتى يلتقي بنا على السحاب.

ساد في الكنيسة الأولى إحساس بأن قدوم السيد المسيح اقترب جدًا، وأنه يتحقق في العصر الرسولي، الأمر الذي عالجه الرسول بولس في رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي، مؤكدًا أن السيد لن

[1] *Jerome Bible Com . 117 .*

يأتي إلا بعد ظهور إنسان الخطية، وتحقق حركة الارتداد. فإن معلمنا لوقا حمل ذات الاتجاه معلنًا في هذا السفر كما في سفر الأعمال أن موت السيد وقيامته وصعوده المجيد، لا يعني مجيئه الثاني في الحال. ولا بعد خراب أورشليم مباشرة، إذ أساء البعض فهم كلمات الإنجيلي مرقس (١٤: ٦٢؛ ٩: ١)، فقد أعلن أن ملكوت المسيا حقيقة واقعة تتم أولاً في الكنيسة هنا، وتتحقق في القلب، وينضم إلى الكنيسة كل يوم الذين يخلصون. كأن مجيء السيد يتحقق أولاً بحلوله في قلوب المختارين، وإذ يكمل عمله هنا في العالم يأتي على السحاب.

٩. يرى بعض الدارسين أن إنجيل لوقا جاء مطابقًا للأسفار الستة الأولى من العهد القديم هكذا:

ا. **سفر التكوين الجديد** يصف ميلاد السيد المسيح وطفولته، هذا الذي به تتحقق الخليقة الجديدة، فبظهور آدم الثاني انطلقت البشرية إلى عالم جديد.

ب. **الخروج الجديد** تحقق بتجربة السيد المسيح في البرية أربعين يومًا، حيث غلب لحسابنا، مقابل تيه شعب إسرائيل أربعين سنة بعد خروجهم وسقوطهم المستمر في التذمر.

ج. **سفر اللاويين الجديد** هو إقامة الاثني عشر تلميذًا، وتقديم العظة الخاصة بسيامتهم كسفر اللاويين آخر (٦: ٢٠).

د. **سفر العدد الجديد** هو إرسالية السبعين رسولاً.

هـ. القسم الخاص **بسفر التثنية** يمثل النصيب الأكبر من الإنجيل حيث يضم أجزاء كثيرة من تعاليم السيد خاصة في (٩: ٥١– ١٨: ١٤).

و. **سفر يشوع** الذي قدمه معلمنا لوقا هو قصة آلام السيد المسيح وقيامته، فقبول راحاب الزانية يقابله زكا العشار (لو ١٩: ١–٢).

١٠. أبرز الإنجيلي لوقا **دور الروح القدس،** فأعلن الملاك عن يوحنا المعمدان أنه يمتلئ من الروح القدس من بطن أمه (١: ١٥). كما أبرز عمل الروح القدس في التجسد الإلهي (١: ٣٥)، وعمله أيضًا في الأحاديث النبوية (١: ٦٧؛ ٢: ٢٥–٢٧)، وفي المعمودية (٣: ١٦)، وظهوره في عماد السيد (٣: ٢٢). هكذا يربط عمل السيد المسيح بعمل روحه القدوس (٤: ١، ١٤، ١٨؛ ١٠: ٢١؛ ١١: ١٣؛ ١٠: ١٢).

١١. دُعي هذا السفر **بإنجيل الشمول**، إذا حوى الكثير من القصص التي لم ترد في الأناجيل الأخرى وأيضًا الأمثال، يسنده في هذا علاقته الوثيقة بالقديسة مريم.

انفرد بذكر **المعجزات التالية:** صيد الأسماك (٥: ٤–١١)، إقامة ابن أرملة نايين (٧: ١١)، المرأة التي بها روح الضعف (١٣: ١١–١٧)، الرجل الأبرص (١٤: ١–٦)، العشرة برص (١٧: ١١–١٩)، شفاء أذن ملخس (٢٢: ٥٠–٥١).

انفرد أيضًا بذكر **الأمثال التالية:** المديونان (٧: ٤١–٤٣)، السامري الصالح (١٤: ٢٥–٣٧)، الصديق اللجوج (١١: ٥–٨)، الغني الغبي (١٢: ١٦–٢٠)، شجرة التين غير المثمرة (١٣: ٦–٩)، الدرهم المفقود (١٥: ٨–١٠)، الابن الضال (١٥: ١١–٣٢)، الوكيل الخائن (١٦: ١–١٣)، الغني ولعازر (١٦: ١٩–٣١)، الفريسي والعشار (١٨: ١٠–١٤).

كما انفرد بذكر **أحداث معينة** مثل إجابة يوحنا المعمدان على الشعب، بكاء المسيح على أورشليم، موضوع حديثه مع موسى وإيليا عند التجلي، العرق الذي نزل من جبينه كقطرات الدم، خطابه لبنات أورشليم، لقاء السيد مع تلميذيّ عمواس، وأيضًا تفاصيل خاصة بصعوده.

١٢. من جهة الأسلوب فكما سبق فتحدثنا في أكثر من موضع أن الروح القدس إذ يعمل في الكاتب ويلهمه بالكتابة لا يفقده شخصيته، بل يستغل قدراته ويلهمه ويحصّنه من الخطأ. وقد ظهرت قدرات معلمنا لوقا البشير من جهة الأسلوب، فكطبيبٍ اتسم بالفحص الدقيق، فجاء محققًا للأمور. وأيضًا كطبيبٍ ورسام في نفس الوقت جاء رقيقًا في أسلوبه، يحمل لمسات شعرية لطيفة وعذبة، حتى صار إنجيله مصدرًا للفنانين يستوحون منه أيقوناتهم.

وأيضًا كصديق ورفيق للقديس بولس في كثير من أسفاره أوجد شيئًا من التشابه بين كتاباتهما، مما جعل **العلامة ترتليان**[1] يقول بأن الإنجيلي لوقا قد استنار بالرسول بولس.

(راجع لو ٤: ٢٢ مع كو ٤ : ٦؛ لو ٤: ٣٢ مع ١ كو ٢: ٤؛ لو ٦: ٣٦ مع ٢ كو ١: ٣؛ لو ٦: ٣٩ مع رو ١٢: ١٩؛ لو ٩: ٥٦ مع ٢ كو ١٠: ١٨؛ لو ١٠: ٨ مع ١ كو ١٠: ٢٣؛ لو ١١: ٤١ مع تي ١: ١٥؛ لو ١٨: ١ مع ٢ تس ١: ١١؛ لو ٢١: ٣٦ مع أف ٦: ١٨؛ لو ٢٢: ١٩–٢٠ مع ١ كو ١١: ٢٣–٢٩؛ لو٢٤: ٣٤ مع ١ كو ١٥: ٥[2]).

[1] *Adv . Marc. 4: 2 .*

[2] راجع في شيء من التفصيل مقدمة الدكتور موريس تاوضروس ص ١٠–١٣.

أقسامه

١. صديقنا صار مثلنا ١–٣.

٢. صديقنا يجرَّب مثلنا ٤.

٣. صديقنا يشعر بآلامنا ٥–١٨.

٤. صديقنا المخلص ١٩–٢٣.

٥. صديقنا القائم من الأموات ٢٤.

الباب الأول

صديقنا صار مثلنا

ص ١ – ص ٣

❖ البشارة بالتجسُّد ص ١.

❖ ميلاد الصديق السماوي ص ٢.

❖ الإعلان عن الصديق ص ٣.

الأصحاح الأول

البشارة بالتجسُّد

جاء الأصحاح الأول من هذا السفر أشبه بمقدَّمة له تكشف عن غاية السفر كله ألا وهو الإعلان عن شخص المسيَّا بكونه صديق البشريّة الحقيقي، الذي يهبها البهجة، ويحول حياتها إلى أنشودة تسبيحٍ مفرحٍ. ففي هذا الأصحاح نجد الإعداد لمجيء هذا الصديق الفريد الذي يهب أليصابات ابنًا في شيخوختها ينزع عارها، ويفتح لسان زكريَّا الكاهن بالتسبيح عند ولادة السابق للمسيح، وتنعم فتاة الناصرة الفقيرة والبتول بشارة سماويّة فائقة، حتى الجنين في أحشاء أليصابات يَتهلَّل ويرقص مبتهجًا. هذه جميعها صور تمهيديّة تكشف عن شخص السيِّد المسيح نفسه، وعمله في حياتنا كصديقٍ سماويٍ، قادر أن ينزع عقرنا ويفتح لساننا، ويردّ لنا بهجتنا.

١. مقدَّمة السفر ١–٤.
٢. البشارة لزكريَّا بميلاد يوحنا ٥–١٧.
٣. صمت زكريَّا ١٨–٢٥.
٤. البشارة بالتجسّد الإلـهي ٢٦–٣٨.
٥. لقاء مريم بأليصابات ٣٩–٤٥.
٦. تسبحة العذراء ٤٦–٥٦.
٧. ميلاد يوحنا وختانه ٥٧–٦٦.
٨. نبوَّة زكريَّا الكاهن ٦٧–٨٠.

١. مقدَّمة السفر

افتتح معلِّمنا لوقا إنجيله بالعبارات التالية:

"**إذ كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصّة في الأمور المتيقِّنة عندنا.**
كما سلّمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخدَّامًا للكلمة.
رأيت أنا أيضًا إذ قد تتبَّعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب إليك أيها العزيز ثاؤفيلس.
لتعرف صحة الكلام الذي عُلِّمت به" [١–٤].

في هذه المقدَّمة كتبت باليُّونانيّة في أسلوب بليغ نلاحظ الآتي:

ا. ظروف الكتابة هي وجود كثيرين ممَّن كتبوا عن الأمور المتيقِّنة الخاصة بالسيِّد المسيح وأعماله الخلاصيّة. يرى قلَّة من الدارسين أنه يقصد بهذا الإنجيليِّين مرقس ومتّى، لكن الرأي الغالب أنه يقصد أناسًا غير مخلِّصين حاولوا الكتابة عن شخص السيِّد المسيح بفكرٍ خاطئٍ... لكن أعمالهم لم تقبلها الكنيسة الأولى كأسفار قانونيّة. ويميز **العلامة أوريجينوس** بين إنجيل معلِّمنا لوقا (وأيضًا بقيّة الأناجيل) التي كُتبت بوحي الروح القدس وتسلّمتها الكنيسة، وبين المحاولات البشريّة لكتابة أناجيل، فيقول: [معني كلمة "**أخذوا**" أنهم حاولوا، وفي هذا اتهام موجَّه ضدَّهم ضمنيًا، إذ حاولوا كتابة الأناجيل دون إرشاد الروح القدس، أما البشيرون متَّى ومرقس ولوقا ويوحنا فلم يحاولوا التأليف، إنما امتلأوا بالروح القدس، فكتبوا الأناجيل... أربعة أناجيل هي القانونيّة، منها وحدها نستقي إيماننا بربِّنا ومخلِّصنا[1].]

يقول **القدّيس البابا أثناسيوس الرسولي:** [ينتهر لوقا الطوباوي ما هو من صنع الناس مسلِّمًا إيَّانا ما هو مُرْوٍ من القدّيسين... فكل قدّيس يتسلَّم التقاليد يساهم بغير تحريف أن يثبت تعاليم الأسرار. لذلك تطالبنا الكلمة الإلهيَّة بالتلمذة على أيدي هؤلاء. إذ هم معلِّمون لنا بالحق، ولهؤلاء وحدهم يلزمنا أن نصغي، لأن لهم وحدهم "صادقة هي الكلمة ومستحقَّة كل قبول" (١ تي ١: ١٥). هؤلاء ليسوا تلاميذ سمعوا من الآخرين بل هم شهود عيان وخدَّام للكلمة إذ سمعوا منه ما قد سلَّموه[2].]

ب. يكتب معلِّمنا لوقا "**الأمور المتيقِّنة**" والأكيدة، لذلك يشبِّه **القدّيس أمبروسيوس**[3] هذا السفر بالبيت الذي يُبنى علي الصخر، المرتبط بالإيمان الكامل الثابت غير المتزعزع، هذا الإيمان يقوم على الفهم الروحي والإدراك والتمييز بين الحق والباطل، وليس على المعجزات المجرّدة.

بنفس المعنى يقول **العلامة أوريجينوس:** [يعبِّر القدّيس لوقا عن مشاعره بقوله: "**الأمور المتيقِّنة عندنا**". لقد عرف القصّة **بكل يقين الإيمان** والعقل فلم يتردّد في تصديقها، وهذا حال المؤمن. لقد بلغ قمَّة الإيمان كقول النبي: "ثبِّت كلامك في قلبي" (مز ١١٩). لذلك يقول الرسول عن المؤمنين الأقوياء الأشدَّاء أنهم متأصِّلون ومتأسِّسون في الإيمان (أف ٣: ١٨). الإنسان المتأصِّل والمؤسّس في الإيمان لا يمكن أن ينهدم أو يسقط بُناؤه حتى إن هبَّت العاصفة وهاجت الرياح ونزلت الأمطار كالسيول عليه، لأن بِناءه مؤسّس ومتين. هذا ويليق بنا ألا نعتقد بأن قوّة إيماننا تقوم على الرؤيّة

---

[1] *In Luc. hom 1: 1.*

[2] *Fest. Iett.2: 7.*

[3] تفسير لو ١: ٤ (ترجمة مدام عايدة حنا بسطا).

الملموسة أو هي ثمرة ذكاء أو عقل. **لنترك غير المؤمنين يؤمنون خلال العلامات والمعجزات الظاهرة،** أما المؤمن المحنَّك القوي فيسلك ويفكِّر بالروح مميِّزًا الحق من الباطل[1].]

ج. ما يسجله لنا معلِّمنا لوقا البشير إنما قبِله خلال "التسليم" أو ما نسميه "التقليد"، وهو الوديعة المُعاشة في حياة الكنيسة بالروح القدس تتسلّمها الأجيال خلال التسليم الشفوي والكتابي وخلال العبادة والسلوك... هذا ما أكَّده الإنجيلي بقوله "**كما سلَّمها إلينا الذين كانوا من البدء معاينين وخدَّاما للكلمة**".

علّق **العلامة أوريجينوس** علي العبارة السابقة مبرزًا نقطتين رئيسيَّتين في التسليم الكنسي: أولاً أن قوله "معاينين" لا يعني مجرد الرؤيا الجسديّة، إذ كثيرون رأوا السيِّد المسيح حسب الجسد ولم يدركوا شخصه ولا تمتَّعوا بعمله الخلاصي. ثانيًا أن المعاينة الروحيّة أو الإدراك الروحي تلتحم بالعمل، لذا قال "**خدَّامًا للكلمة**"، فلا انفصال بين الحياة الروحيّة التأمَّليّة والعمل، إذ يقول: [تأمَّل الرسل الله الكلمة لا بكونهم قد أبصروا المسيح المخلِّص المتجسّد، بل رأوا الله الكلمة (هنا لا يقصد انفصال المسيح إلى شخصين إنما يؤكِّد التزامنا إدراك حقيقة المخلِّص المتجسّد). لو كانت رؤيّة المسيح بالجسد (مجردًا) يعني رؤيّة الله الكلمة، لكان هذا يعني أن بيلاطس الذي أسلم يسوع قد رأى الكلمة، وكذا يهوذا الذي أسلمه وكل الذين صرخوا: "اصلبه اصلبه" (يو ١٩: ١٥). هذا الفكر بعيدًا عنه تمامًا، إذ لا يستطيع غير المؤمن أن يرى كلمة الله. رؤيّة الله الكلمة أوضحها المخلِّص بقوله: "الذي رآني فقد رأى الآب" (يو ١٤: ٩)[2].] كما يعلِّق على قوله: "**كانوا منذ البدء معاينين وخدَّاما للكلمة**" بقوله: [نستخلص من هذه الكلمات أن المعرفة قد تكون غاية في ذاتها، لكنه يتوِّجها العمل بمضمونها... فالاكتفاء بالمعرفة دون تطبيقها هو علم بلا نفع. وكما يرتبط العلم بالتطبيق العملي هكذا ترتبط المعرفة بخدمة الكلمة... فكلمة "**معاينين**" تعني المعرفة النظريّة، بينما تشير كلمة "**خدَّام**" للمعرفة التطبيقيّة[3].]

ظهر هذان الفكران **للعلامة أوريجينوس** بوضوح في كتابات **القدّيس كيرلس الكبير والقدّيس أمبروسيوس.** يقول **القدّيس كيرلس الكبير:** [يصف القدّيس لوقا رسل المسيح بأنهم عاينوا الرب، وفي ذلك يتّفق لوقا مع يوحنا، فقد كتب: "والكلمة صار جسدًا وحل بيننا، ورأينا مجده مجدًا كما لوحيد من الآب مملوءًا نعمة وحقًا" (يو ١: ١٤). كان لابد أن يظهر المسيح بالجسد، حتى نراه ونحس به، لأنه

---

[1] *In Luc. hom 1: 3.*

[2] *In Luc. hom 1: 4.*

[3] *In Luc. hom 1: 5.*

جلّ اسمه بطبيعته لا يُرى ولا يُلمس، فإنَّ يوحنا يقول أيضًا: "الذي كان من البدء، الذي سمعناه الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة، فإنَّ الحياة أُظهرت لنا" (١ يو ١: ١). أتسمعون كيف أن الحياة ظهرت لنا فلمسناها بأيدينا ورأيناها بعيُّوننا؟ ظهر المسيح حتى ندرك أن الابن صار جسدًا، فرأيناه بصفته إنسانًا، وقبلاً لم نره باِعتباره إلهًا[١].]

بنفس المعنى يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [رأى التلاميذ كلمة الرب وسمعوه... هؤلاء الذين شاهدوا مجد الكلمة مع موسى وإيليَّا (مت ١٦: ٣) رأوا الرب يسوع، إذ شاهدوه في مجده، أما الآخرون (اليهود) فلم يروه هؤلاء الذين عرفوه حسب الجسد، إذ أُعطي للبصيرة الروحيّة لا للعيُّون الجسديّة أن ترى يسوع. لم يره اليهود مع أنهم أبصروه (جسديًا). أما إبراهيم فقد رآه كما هو مكتوب: "أبوكم إبراهيم تهلَّل بأن يرى يومي، فرأى وفرح" (يو ٨: ٥٦) مع أنه بالتأكيد لم يره حسب الجسد... غير أن اليهود لم يروه، إذ "اِظلم قلبهم الغبي" (رو ١: ٢١)... عندما نرى الرب نرى عمانوئيل، فندرك أن الله معنا، أما من لا يبصر الله معه فإنَّه لا يعرف بعد مولود العذراء.]

إذن يكتب معلِّمنا لوقا البشير خلال التسليم الذي وُهب للذين عاينوا الرب ليس حسب الجسد فحسب، وإنما عاينوه في أعماقهم وأدركوا سرّ حلوله فيهم وعمله في داخلهم. ونحن أيضًا إن أردنا أن نتفهَّم الإنجيل يلزمنا أن نتسلّم معاينة الرب فينا وتلاقينا معه، على صعيد الإيمان الحّي العملي، حتى لا نسمع كلمات التوبيخ التي وجهها السيِّد لفيلبس: "أنا معكم زمانًا هذه مدَّته ولم تعرفني يا فيلبس؟!" (يو ١٤: ٩).

د. لم يلقِّب الإنجيلي الرسل بمعاينى الكلمة فحسب، وإنما دعاهم أيضًا "**خدَّامًا للكلمة**" [٢]. فإنَّ كان العمل الرسولي يقوم على معاينة الرب ببصيرة روحيّة فتدرك أسراره الإلهيّة، لكن دون انفصال عن العمل. وهكذا تلتحم المعرفة بالخبرة الروحيّة، والإيمان بالجهاد، والتأمَّل بالخدمة. يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [نال الرسل هذه النعمة... لقد عاينوا، ويُفهم من هذا جهادهم للتعرُّف على الرب، وخدموا، ويفهم منه ظهور ثمار جهادهم.]

هـ. وُجه هذا الإنجيل للعزيز ثاؤفيلس، وقد سبق لنا في المقدِّمة الحديث عن هذا الشخص. فكلمة "عزيز" هو لقب يُطلق على أصحاب المراكز الكبرى في الدولة الرومانيّة، لُقب به فيلكس (أع ٢٣: ٢٦؛ ٢٤: ١٣)، وأيضًا فستوس (أع ٢٦: ٢٥). أما كلمة "**ثاؤفيلس**" فتعني "محب الله"، لذلك يعلِّق

---

[١] عظة ١ (ترجمة المرحوم كامل جرجس).

القدّيس أمبروسيوس بقوله: [إن كنت تحب الله فهذه البشارة هي مكتوبة لك، وإن كانت قد كُتبت لأجلك، فاقبلها من الإنجيلي وديعة واحتفظ بها في أعماق نفسك: "احفظ الوديعة الصالحة بالروح القدس الساكن فينا" (٢ تي ١: ١٤). تأمَّلها في كل حين، وتحصن فيها على الدوام... فإنَّ أولى واجباتك هي الأمانة في هذه الوديعة التي لا يبليها سوس (هرطقة) ولا يفسدها صدأ.] ويقول **العلامة أوريجينوس**: [ربَّما يظن البعض أن الإنجيل قد كُتب لشخص يُدعى ثاؤفيلس، لكن إن كنتم أيها السامعون جميعكم محبو الرب، فأنتم ثاؤفيلس. ثاؤفيلس هو شخص صالح جدًا وقوي... فلا يوجد ثاؤفيلس ضعيف. أقول إن كل "**ثاؤفيلس**" هو قوي، مصدر قوَّته وقدرته هو كلمة الله[1].]

٢. البشارة لزكريَّا بميلاد يوحنا

جاء السيِّد المسيح مخلِّصًا للعالم، يهبه شبعًا داخليًا وفرحًا سماويًا، لذلك ففي الإعداد لمجيئه تمتَّعت أليصابات العاقر بإنجاب "**يوحنا**" الذي يعني "الله يتحنَّن أو يُنعم"، وانفتح لسان زكريَّا الصامت بالتسبيح. فإنَّ كانت أليصابات كامرأة تشير إلى الجسد، فبحنان الله ونعمته نُزع عن الجسد عاره، وتمتَّع بثمر روحي عجيب، بينما زكريَّا يمثِّل النفس وقد انطلقت في الداخل بروح التسبيح والفرح عِوَض الصمت القائم على العجز.

يحدّثنا القدّيس لوقا عن قصّة البشارة لزكريَّا بميلاد يوحنا بلغة العابد المتخشِّع، فيقول:

"**كان في أيام هيرودس ملك اليهوديّة كاهن اسمه زكريَّا من فرقة أبيَّا،**
وامرأته من بنات هرون واسمها أليصابات.
وكانا كلاهما بارين أمام الله،
سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم.
ولم يكن لهما ولد، إذ كانت أليصابات عاقرًا،
وكان كلاهما متقدِّميْن في أيَّامهما" [٥-٧].

ويلاحظ في عرضه للقصّة الآتي:

ا. إذ كان القدّيس لوقا رجلاً علميًا كطبيبٍ، حدَّد بدقة تاريخ الحدَّث، أنه في أيام هيرودس الكبير ملك اليهوديّة، الابن الثاني لأنتيباس، الأدومي الأصل. تزوَّج عشر نساء، قتل اثنتين منهنَّ، وكان له أبناء كثيرون، أعدم أحدهم. وقتل أطفال بيت لحم، وفي فراش الموت طالب بقتل شرفاء القدس حتى

---

[1] *In Luc hom 1: 6.*

لا يجد أحد مجالاً للبهجة بعد موته، لكنه مات قبل تحقيق أمنيَّته.

على أي الأحوال وسط هذا الجو القاتم سياسيًا ودينيًا، إذ توقَّفت النبوَّة أكثر من ثلاثة قرون، وعاش الكل في جوٍ من الفساد، ظهر إنسانان بارَّان أمام الله، هما "**زكريَّا**" ويعني "الله يذكر"، و"**أليصابات**" وهي الصيغة اليُّونانيّة للكلمة العبريّة "اليشبع" وتعني "الله يُقْسِم" أو "يمين الله". أنجب الاثنان "**يوحنا**" أي "الله حنَّان" أو "الله يُنعم". وكأنه وسط فساد هذا العالم، إذ نذكر الله ونلتحم بقسمه ومواعيده الصادقة ننعم بحنانه ونعمته الإلهيّة عاملة فينا.

يعلِّق **القدّيس أمبروسيوس** على التعبير: "**كانا كلاهما بارَّيْن أمام الله، سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم**" بقوله: [عبارة "**بارّيْن أمام الله**" لها مغزاها، فالأبرار أمام الناس ليسوا بالضرورة أبرارًا أمام الله. نظرة الإنسان تختلف عن نظرة الله، "لأن الإنسان ينظر إلى العينين، وأما الرب فينظر إلى القلب" (١ صم ١٦: ٧). فقد يبدو لي أن إنسانًا ما يستحق أن يُدعى بارًا، لكنه عند الرب ليس هكذا، لأن الدافع لقداسته هو التملُّق لا القلب البسيط. إذن فالإنسان لا يقدر أن يميِّز الخفيَّات، والمكافأة الكاملة هي أن نُحسب أبرارًا أمام الله، وكما يقول الرسول: "الذي مدحه ليس من الناس بل من الله" (رو ٢: ٢٩). مطوّب بحق ذاك الذي يتبرَّر أمام الله! مطوّب بحق ذاك الذي يتأهَّل أن يسمع الرب يقول عنه: "هوذا إسرائيلي حقًا لا غشَّ فيه" (يو ١: ٤٧). فالإسرائيلي الحقيقي هو الذي يرى الله ويُدرك أن الله يراه، كاشفًا خبايا قلبه.]

يوضِّح **العلامة أوريجينوس** معنى تعبير "**بارّيْن أمام الله**" بقوله: [قد لا يجد إنسان ما يشتكي به عليَّ بعد فحصه إيّاي، فإني بار أمام الناس... ولكن حكم الناس غير صحيح، فهم يجهلون إني يومًا ما أخطأت في الخفاء في داخل قلبي، ويجهلون إن كنت قد نظرت إلى امرأة واشتهيَّتها وعشت في زنا القلب. قد يراني الناس أتصدّق بحسب إمكانيَّاتي لكنهم يجهلون إن كنت أفعل ذلك لأجل وصيّة الله أم لطلب مديح الناس... طوبى للإنسان البار أمام الله، والذي مدْحه من الله، فالإنسان عاجز لا يقدر أن يحكم بعدل ووضوح. قد يمجِّد الناس من لا يستحق التمجيد، ويدينون من لا يستحق الإدانة. الله وحده عادل في المدح والإدانة[1].]

ويعلِّق **العلامة أوريجينوس** أيضًا على تعبير "**بلا لوم**" قائلاً: [قيل عن الكنيسة بأنها "مجيدة لا دنس فيها ولا غضَن" (أف ٧: ٢٥). ليس معنى هذا أن ابن الكنيسة لم يُخطئ قط، إنما يعيش في حياة التوبة. تعبير "بلا غضَن" يعني بغضه للإنسان العتيق وكفِّه عن الخطيّة، لذلك يكمِّل العبارة

---

[1] *In Luc. hom 2: 3.*

"لتكون مقدَّسة بلا عيب"، فقد ورثت النفس الخطيّة، لكنها تصير طاهرة بلا لوم إن زال عنها وسخ الخطيّة[1].]

هذا ويُعلن الإنجيل برِّهما أمام الله وأنهما بلا لوم بالسلوك العملي في جميع وصايا الرب وأحكامه، وكأن البرّ الخفي يرتبط بطاعة الوصيّة وقبول أحكام الله؛ هذا هو طريق برّنا بالروح القدس الذي يهبنا في استحقاقات الدم أن ندخل إلى الوصيّة ونعيشها بالطاعة في فرح، ونتفهّم أحكام الله وتدابيره فنحمل روح التمييز فينا.

إذ عالج **القدّيس أغسطينوس** موضوع "البرّ في المسيح" حدَّثنا عن برّ زكريَّا وأليصابات معلنًا أن رجال العهد القديم حُسبوا أبرارًا أيضًا في المسيح، خلال رجائهم في المسيَّا المنتظر الذي يقدِّم حياته مبذولة ثمنًا لبرّنا. ففي حديثه عن "الطبيعة والنعمة" يورد كلمات **القدّيس أمبروسيوس،** قائلاً: [بلا شك عاش رجال العهد القديم بمثل هذا الإيمان في المسيح حتى قبل موته (على الصليب). فالمسيح وحده يرسل الروح القدس المعطَى لنا، خلاله تنسكب المحبَّة في قلوبنا، وبها وحدها يُحسب الأبرار أبرارًا[2].] وفي موضع آخر يؤكِّد **القدّيس أغسطينوس** أن برّ زكريَّا قائم على عمل السيِّد المسيح الذبيحي خلال ممَّارسته الكهنوتيّة وتقديمه الذبائح الحيوانيّة كرمز لذبيحة المسيح، قائلاً: [اِعتاد زكريَّا بلا شك أن يقدِّم ذبائح عن خطاياه[3].]

إن كان زكريَّا يُحسب بارًا، لكن هذا لا يعني أنه لم يصنع خطيّة، فقد كرّر **القدّيس أغسطينوس** في مواضع كثيرة قول **القدّيس أمبروسيوس:** [ليس أحد في العالم بلا خطيّة[4].]

ب. كان "**زكريَّا من فرقة أبيَّا**" [٥]، كلمة "**أبيَّا**" تعني "أبي هو يهو". هذه الفرقة من نسل أليعازر الكاهن، تعتبر الثامنة من الأربعة والعشرين فرقة التي قُسِّمت إليها طائفة الكهنة منذ وقت داود، كل فرقة تقوم بالعمل أسبوعًا كل ستة أشهر حسب قرعتها. وكانوا يلقون قرعة أيضًا ليعرفوا من يقع عليه اختيار الله للقيام بخدمة البخور من وسط الفرقة، وكان اليهود عادة يقدِّمون البخور صباحًا ومساءً فقط.

يرى **القدّيس أمبروسيوس** أن زكريَّا وقد "**أصابته القرعة أن يدخل الهيكل ويبخِّر**" [٩] إنما يشير إلى السيِّد المسيح بكونه رئيس الكهنة الذي وحده يدخل إلى الأقداس السماويّة، يكْهِن لحسابنا ويشفع

[1] *In Luc. hom 2: 12.*
[2] *On Nature & Grace 74.*
[3] *St. Augustine: On man's perfection in Righteousness.*
[4] *St. Augustine: On the Grace of Christ 54.*

فينا بدمه، وأن إصابة القرعة تشير إلى إرساليته التي لم تكن من الناس بل من قِبل الآب.

ج. يعلِّق **العلامة أوريجينوس**[1] على تعبير الإنجيلي: "**فظهر له ملاك الرب واقفًا عن يمين مذبح البخور**" [١١] بقوله أن الإنسان إذ له جسد كثيف لا يقدر أن يُعاين الكائنات الروحيّة والإلهيّة، ولا أن يشعر بها ما لم تظهر له. كأن ظهورات الله وملائكته تتوقَّف علي إرادة الله ورغبته أن نرى، فالله حاضر معنا، وأيضًا ملائكته ومع ذلك لا نراهم. فمن كلماته:

[ظهر الرب لإبراهيم ولأنبياء آخرين حسب نعمة الله، فليست عين إبراهيم الروحيّة (الداخليّة) هي علَّة الرؤيا للرب، إنما نعمة الله هي التي وهبت له ذلك.]

[يمكن أن يوجد ملاك بجوارنا الآن ونحن نتكلَّم، لكننا لا نستطيع أن نعاينه بسبب عدم استحقاقنا. قد تبذل العين المجرّدة أو الداخليَّة مجهودًا لتبلغ هذه الرؤيا، لكن إن لم يُظهِر الملاك نفسه لنا لا يقدر أن يراه المشتاقون إلى رؤيته.]

[هذه الحقيقة لا تخص رؤيتنا لله في هذا الزمان الحاضر فحسب، وإنما حتى حينما نترك هذا العالم، لا يظهر الله وملائكته لجميع الناس بعد الانتقال مباشرة... إنما تُمنح هذه الهبة لمن له القلب النقي الذي تأهَّل لرؤيّة الله. أما صاحب القلب المثقل بالأوحال، فقد يوجد مع صاحب القلب النقي في مكان واحد، لكن يعاين صاحب القلب النقي الله، وأما صاحب القلب غير النقي فلا يرى ما يشاهده الآخر.]

[اِعتقد أن هذا حدث بالنسبة للسيِّد المسيح حين كان بالجسد على الأرض، فإنَّه ليس كل من نظره عاين الله... فبيلاطس رأى يسوع وهيرودس الوالي رآه ومع ذلك لم ينظراه كما هو إذ لم يستحقَّا ذلك.]

وجاء تفسير **القدّيس أمبروسيوس** يحمل ذات الفكرتين أن الله وملائكته يظهرون حينما يريد الله كعطيّة إلهيّة، وأن القلب النقي يعاين الله... فمن كلماته:

[إننا نرى الرب عندما يريد ذلك، لكننا لا نستطيع أن نراه بطبيعته كما هو... ظهر لإبراهيم لأنه أراد ذلك. لكن إن لم يردّ الإنسان فلا يظهر له الرب. رأى القدّيس إسطفانوس السماوات مفتوحة وابن الإنسان قائمًا عن يمين الله، بينما كان الشعب يرجمه (أع ٧: ٩)، ولم ينظر الشعب الله. أيضًا أبصر إشعياء السيِّد رب الجنود (إش ٦: ١)، لكن أحدًا غيره لم يستطع أن ينظره.]

[ما الذي يدهشنا إن كان لا يرى أحد الله في هذا العالم إذ هو غير منظور، فلا يُرى ما لم يكشف هو عن ذاته؟ إنما في القيامة لا يراه غير أنقياء القلب، لأنه "طوبى للأنقياء القلب لأنهم يعاينون الله"

[1] *In Luc. hom 3.*

(مت ٥: ٨). لقد طوَّب الرب الكثيرين، لكنه لم يعد بمعاينة الله إلا لأنقياء القلب.]

[لا نعاين الله في مكان ما بل في القلب النقي، لا تبحث عن الله بالعين الجسديّة... بل من يستطيع أن يدرك ما هو العرض والطول والعمق والعلو، ويعرف محبَّة المسيح الفائقة المعرفة (أف ٤: ٢٠)، فبرأفة الله علينا ورحمته يبلغ بنا إلى ملء قامة المسيح حتى نستطيع أن نعاينه.]

وقد سبق لنا الحديث عن "رؤيّة الله" في كتابنا عن القدّيس يوحنا الذهبي الفم[١]، لكن ما يجب تأكيده أن الله وهو غير منظور يود أن يُعلن ذاته ويشتاق أن نراه، هذه عطيَّته المجانيّة يقدَّمها للقلب النقي؛ فهو يعمل فينا بلا انقطاع بروحه القدُّوس لكي تتنقّى قلوبنا فيه، وترتفع لمشاهدته، والتمتُّع بأحضانه الأبويّة، وشركة الأمجاد السماويّة.

د. ظهر ملاك الرب عن يمين مذبح البخور، أي ما بين المذبح الذهبي (الصلاة) ومائدة خبز الوجوه (سّر الإفخارستيا). وكأن من يريد أن يلتقي مع القوات السمائيّة يلزمه أن يبسط يديه بالصلاة، فيقدَّم ذبيحة حب وبخور طيب قدام الله، وأن يدخل إلى مائدة الرب، يلتقي برب السمائيِّين ويحمله في داخله.

فمن جهة الصلاة يقول **القدّيس أوغريس:** [اِعلم أن الملائكة القدّيسين يدفعوننا إلى الصلاة، ويقفون إذ ذاك إلى جانبنا فرحين مصلِّين من أجلنا، فإذا تكاسلنا متقبِّلين أفكارًا غريبة نغيظهم كثيرًا، لأننا بينما هم يحاربون عنَّا بهذه القوّة، لا نريد نحن حتى التضرع إلى الله من أجل أنفسنا، بل نعرض عن خدماتهم، ونبتعد عن الرب إلهِهم لنذهب إلى الشيَّاطين الأدناس[٢].]

أما بخصوص الاقتراب من المائدة المقدَّسة، فيتحدَّث عنه **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** قائلاً: [كأن الإنسان قد أُخذ إلى السماء عينها، يقف بجوار عرش المجد، يطير مع السيرافيم، يترنَّم بالتسبحة المقدَّسة[٣].]

هـ. "**فلما رآه زكريَّا اضطرب، ووقع عليه خوف، فقال له الملاك: لا تخف يا زكريَّا...**" [١٢-١٣]. إن كانت رؤية السمائيِّين تجعل القلب مضطربًا لأنه ينظر أمرًا غريبًا، لكنه لا يبقى في اضطرابه، بل يجد السماء عينها تهتم به وتناديه باسمه، وتهتم به شخصيًا، وتشبعه بالسلام الداخلي مع عطايا وخيرات إلهيّة فائقة.

---

[١] للمؤلف: القدّيس يوحنا الذهبي الفم، ١٩٨.

[٢] منشورات النور: فصول في الصلاة والحياة الروحية: في الصلاة ٨١ (نُسبت للقدّيس نيلس السينائي).

[٣] للمؤلف: المسيح في سرّ الإفخارستيا، ١٩٧٣، ص ٤٤١.

يقدِّم لنا **القدّيس أنطونيوس الكبير** تمييزًا بين الرُؤى السماويّة والمناظر المخادعة، فالأولى حتى إن بدأت بخوف أو اضطراب لأن الإنسان لم يعتَد رؤيتها لكنها تبعث سلامًا حقيقيًا في النفس، أما الأخرى فتفقد النفس سلامها؛ الأولي تلهب القلب بالسمائيَّات أما الثانية فتشعل الذهن وتربكه بالزمنيَّات، إذ يقول: [ظهور هذه الأرواح (الملائكة) هادئ وصامت يخلق فرحًا في النفس وشجاعة، لأن الرب فرحنا. الأفكار التي تخلقها هذه الظهورات تجعل النفس غير متزعزعة حتى تُنيرها بهذا الفرح، فتعرف ما هي الأرواح التي تظهر لها، إذ أن الشوق الإلهي وشوق الخيرات العتيدة يدخلان النفس ويتَّحدان بها. إن كان يوجد من يخاف من ظهور الأرواح الشرِّيرة فهذه الأرواح (الصالحة) تطرح عنهم الخوف جانبًا بالمحبَّة التي تظهرها كما فعل جبرائيل مع زكريَّا (لو ١: ٣)، وكما فعل الملاك الذي ظهر للنسوة عند قبر الرب (مت ٢٨: ٥)، وعندما ظهر للرعاة قال لهم: لا تخافوا (لو ٢: ١٠). إن خوف هؤلاء لم يكن نتيجة الخوف بل نتيجة اليقين بظهور الملائكة الصالحين؛ هذا هو ظهور الملائكة القدّيسين[١].] كما يقول: [إذا ما رأينا أرواحًا وأثارت اضطرابًا وضربات خارجيّة وتخيُّلات دنيويّة وتهديدًا بالموت وكل ما ذكرناه، فلنعرف أن هذا هو هجوم أرواح شرِّيرة[٢].]

و. لعل زكريًّا قد نسيَ طلبته من الله أو فقد الرجاء في الإنجاب، لكن اسمه "**زكريَّا**" يعني "الله يذكُر"، فقد ذكر الله له ولامرأته طلباتهما ووهبهما لا من يُفرح قلبيهما وحدهما، وإنما من يُبهج قلوب الكثيرين. إنه يعطي ما طلبناه بالرغم من نسياننا، ويعطينا أكثر ممَّا نسأل وفوق ما نطلب، يعطي مؤكِّدًا عطيَّته، فقد عيَّن له اسمه.

أما من جهة "يوحنا" كعطيّة الله لزكريَّا وأليصابات، فقد أعلن الملاك الآتي:

أولاً: سرّ فرح للكثيرين: "**ويكون لك فرح وابتهاج، وكثيرين سيفرحون بولادته**" [١٤]. قلنا أن إنجيل لوقا البشير هو "إنجيل الفرح"، فقد أرسل الله يوحنا السابق لينادي بالتوبة مهيِّئًا الطريق للرب في قلوب الكثيرين، فيفرح السمائيُّون كما يفرح المؤمنون. غاية الله أن يردّنا إلى فرحه الأبدي، ونُوجد في سلامٍ سماويٍ لا يشوبه ضيق أو مرارة، وها هو يُعد لهذا الفرح حتى بالبشارة بميلاد السابق له.

في دراستنا لسفر اللاويِّين (ص ١٢) رأينا في شريعة المرأة التي تلد كيف تبدأ فترة الميلاد للطفل بفترة تُحسب فيها الوالدة كمن في نجاسة، إذ التصقت الخطيّة بنا حتى في ميلادنا وموتنا، والآن إذ بدأ يُشرق شمس البرّ علي البشريّة ويصالحها مع السمائيِّين تحوّلت حياتنا فيه إلى فرح، وصار الميلاد

---

[1] *Vita Antonii 35.*

[2] *Vita Antonii 36.*

مُفرحًا، وكما يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [يوجد فرح خاص في بداية الحمل بالقدّيسين وعند ميلادهم، فالقدّيس لا يُفرِّح عائلته فحسب، وإنما يكون سببًا في خلاص الكثيرين. إن هذه العبارة تعلِّمنا أن نتهلَّل بميلاد القدّيسين.]

أقول ليتنا نحن أيضًا إن كنا قد عشنا زمانًا هذا مقداره بنفسٍ عاقرةٍ وجسدٍ بلا ثمر روحي، فلنتقبَّل وعود الله السمائيّة، ونحمل حنان الله ونعمته أي "**يوحنا**" في داخلنا، فنبتهج ونتهلَّل بالله، ويفرح معنا كثيرون بل والسماء عينها تشترك معنا في فرحنا (لو ١٥: ٧).

لتكن حياتنا مثمرة في الرب فتبهج الكثيرين، ولا تكن عقيمة أو ثمرها قاتل أو مميت. يقول **الأب تادرس:** [الحياة والموت ليسا في ذاتهما صالحين أو شرِّيرين، ويؤكِّد هذا ميلاد يوحنا ويَّهوذا. أحدهما كانت حياته نافعة ويظهر ذلك ممَّا قيل عنه: "**وكثيرون سيفرحون بولادته**" (لو ١: ١٤). والآخر قيل عنه: "**كان خيرًا لذلك الرجل لم يولد**" (مت ٢٦: ٢٤)[1].]

ثانيًا: "**لأنه يكون عظيمًا أمام الرب**" [١٥]. لم يكن بعد قد وُلد يوحنا، ولا حبلت به في أحشائها، يدعوه الملاك "**عظيمًا أمام الرب**". فالعظمة لا بكثرة الأيام والسنين، ولا بقوّة الجسد والأعمال الظاهرة، إنما بالحياة الداخليّة القويّة.

كان العالم في ذلك الحين يحتقر الأطفال بوجه عام ولا يقدِّم لهم حقًا إنسانية. لكن إنجيل السيِّد المسيح يكشف عن صداقته للأطفال، فيتطلَّع إليهم كعظماء في عينه، الأمر الذي أكده السيِّد المسيح فيما بعد لتلاميذه حين قدَّم لهم طفلًا ليمتثلوا به من أجل بلوغ العظمة السماويَّة (مت ١٨: ٢-٣؛ لو ١٨: ١٥).

لنكن أطفالاً في الشرِّ فنحسب عُظماء وناضجين في الرب، لكن لا نسلك في ضعف الطفولة غير الناضجة، وإلا حُسبنا مُستعبَّدين تحت أركان العالم (غلا ٤: ٣)، وكما يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [الإنسان الناضج (روحيًا) وحده يتخطَّى أركان هذا العالم.] لنكن ناضجين روحيًا في الرب فلا نحتقر الصغار كقول الرب: "**أُنظروا لا تحتقروا أحد هؤلاء الأصاغر**" (مت ١٨: ١٠).

يحدّثنا **القدّيس أمبروسيوس** في تفسيره لإنجيل لوقا عن عظمة يوحنا المعمدان قائلاً: [حياتنا لا تُقيَّم حسب الزمن وإنما حسب درجات الفضيلة... فقد دُعي يوحنا عظيمًا لا بسبب قوَّته الجسديّة بل الروحيّة، فإنَّه لم يقهر إمبراطوريَّات ولا وضع في برنامجه أن تكون له غنائم ونصرات، بل تطلَّع إلى ما هو أفضَّل جدًا، إذ كان الصوت الصارخ في البريّة الذي صرع الملذَات الجسديّة وتراخي الجسد

---

[1] *Cassian: Confer. 6: 3.*

بسمو روحه وقوَّتها. كان صغيرًا في الأمور العالميّة، عظيمًا في الروحيات. أخيرًا فإنَّ سر عظمته هو عدم سيطرة حب هذه الحياة الزمنيّة عليه الأمر الذي لم يعقه عن إدانة الخطيّة.]

ثالثًا: "**ومن بطن أمه يمتلئ من الروح القدس**" [١٥]. بعد أن حدَّد اسمه وأعلن فاعليته كمُفرّح للقلوب أوضح إمكانيَّاته، فمن الجانب السلبي "**خمرًا ومسكرًا لا يشرب**"، كنذير للرب لا يكون لملذَات العالم أو بهجته موضع في قلبه أو في جسده، أما من الجانب الإيجابي فإنَّه لا يعيش محرومًا بل يمتلئ من الروح القدس من بطن أمه. يُحرم من الخمر المادي المسكر ويرتوي بالخمر السماوي المفرح!

يقول **العلامة أوريجينوس:** [جاء رئيس ملائكة يعلن عن ميلاد يوحنا الذي يمتلئ من الروح القدس من بطن أمه...، ففي بطن أمه تهلَّل يوحنا من الفرح، ولم يستطِع أن يتوقَّف عندما جاءت أم يسوع، بل كان يحاول أن يخرج من بطن أمه... "**هوذا حين صار صوت سلامك في أذني اِرتكض الجنين بابتهاج في بطني**" [٤٤] [1].]

ويقول **القدّيس أمبروسيوس:** [كان يفتقر لروح الحياة (كجنين) ونال روح النعمة، فإنَّ حقيقة الحياة تسبقها النعمة للتقديس، إذ يقول الرب: "**قبلما صوَّرتك في البطن عرفتك، وقبلما خرجت من الرحم قدَّستك، جعلتك نبيًا للشعوب**" (إر ١: ٥). شتَّان بين روح العالم وروح النعمة، فالأولى تبدأ بالميلاد وتنتهي بالموت، أما الثانية فلا يحدّها الزمن ولا السنين، ولا يطفئ الموت شعلتها، ولا يغلق عليها رحم الأمومة... إن من يمتلك روح النعمة لا يعود يفتقر إلى شيء، ومن نال الروح القدس بلغ قمة الفضائل.]

رابعًا: "**ويردّ كثيرون من بني إسرائيل إلى الرب إلههم**" [١٦]. هنا يؤكِّد رسالته وهي ردْ الكثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم بتمهيد الطريق بالتوبة لقبول السيِّد المسيح مخلِّص العالم. يرى **العلامة أوريجينوس** أن العالم في حاجة مستمرَّة إلى عمل يوحنا الذي يسمِّيه "سرّ يوحنا" ليدخل بكل نفس إلى الثبوت في المسيح، إذ يقول: [اِعتقد من جانبي أن سّر يوحنا لا يزال يتحقّق إلى يومنا هذا، فيستطيع الإنسان أن يؤمن بيسوع المسيح إن كان له روح يوحنا وقوَّته في نفسه، هذا لكي يعد شعبًا كاملاً لربِّنا، وإن كان له الخشونة ويسلك الطريق الضيق... إلى اليوم روح يوحنا وقوَّته يسبقان مجيء الرب يسوع[2].]

---

[1] *In Luc. Hom 4: 4.*

[2] *In Luc. hom 4: 6.*

خامسًا: "ويتقدَّم أمامه بروح إيليَّا وقوَّته" [١٧]. يعلِّق **العلامة أوريجينوس** على هذه العبارة هكذا: [لم يقل بنفس إيليَّا بل "بروح إيليَّا وقوَّته"، فكان لإيليَّا روح وقوّة كسائر الأنبياء... الروح الذي سكن في إيليَّا سكن يوحنا، والقوّة التي في إيليَّا كانت في يوحنا[1].]

ويقدَّم لنا **القديس أمبروسيوس** مقارنة لطيفة بين إيليَّا ويوحنا المعمدان، جاء فيها:

[عاش إيليَّا في البريّة وكذا يوحنا،

وكانت الغربان تعول الأول أما الثاني ففي طريق البريّة قد داس كل إغراءات الملاهي، وأحبَّ الفقر مبغضًا الترف. الواحد لم يسَعَ لكسب رضاء آخاب الملك، والثاني اِحتقر رضا هيرودس الملك.

رداء الأول مزَّق مياه الأردن، بينما الثاني جعل من هذه المياه مغسلاً يهب خلاصًا.

الأول ظهر مع الرب في المجد (عند التجلِّي)، والثاني يحيا مع الرب في الأرض.

واحد يسبق مجيء الرب الأول والآخر يسبق مجيئه الثاني.

الأول أنزل الأمطار على الأرض بعد أن جفَّت ثلاث سنوات والثاني غسل تراب أجسادنا في مياه الإيمان خلال ثلاث سنوات (سنة عهد الآباء وسنة عهد موسى والأنبياء؛ ثم سنة مجيء الرب إلهنا ومخلِّصنا).]

إن سّر القوّة في القدّيس يوحنا أنه حمل روح إيليَّا، لا بمعنى روحه كشخص، إنما روح القوّة التي وُهبت له من قِبل الله، أو الإمكانيَّات التي قُدَّمت له، لهذا يقول **القدّيس أغسطينوس:** [يقصد بروح إيليَّا الروح القدس الذي تقبله إيليَّا[2].]

٣. صمت زكريَّا

"فقال زكريَّا للملاك:

كيف أعلم هذا، لأني أنا شيخ، وامرأتي متقدَّمة في أيامها؟

فأجاب الملاك وقال له:

أنا جبرائيل الواقف قدام الله،

وأُرسلت لأكلِّمك وأُبشرك بهذا.

وها أنت تكون صامتًا، ولا تقدر أن تتكلَّم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا،

لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته" [١٨-٢٠].

---

[1] *In Luc. hom 4: 5.*

[2] *On the Trinity 5: 14: 5.*

في هذا الحوار الذي تم بين رئيس الملائكة جبرائيل وزكريَّا الكاهن داخل الهيكل نلاحظ الآتي:

أولاً: لم يصدِّق زكريَّا الكاهن كلمات الملاك، بالرغم من رؤيته للملاك وسماعه للصوت الملائكي بطريقة ملموسة، في النهار، داخل الهيكل، الأمر الذي جعله يُلام عليه، خاصة وأن التاريخ المقدَّس يذكر أمثلة حيّة لأُناس شيوخ أنجبوا بينما كانت نساؤهم عاقرات كسارة امرأة إبراهيم. لكن زكريَّا كان بارًا، لم يلقِ باللوم على زوجته في عدم الإنجاب، ولم يذكر حتى بينه وبين الملاك أنها عاقر، إنما بدأ بنفسه قائلاً: "أنا شيخ وامرأتي متقدَّمة في أيامها". أقول ما أجمل النفس البارة الرقيقة في أحاسيسها، لا تجرح مشاعر الآخرين حتى في غيبتهم! إنه لا يشكو حتى للسماء من أجل عُقر زوجته!

ثانيًا: أعلن رئيس الملائكة عن نفسه أنه "**جبرائيل**" ويعني "جبروت الله"، أما سرّ قوَّته أو جبروته فهو كما قال "**الواقف قدام الله**". جاء يحمل الوعد الإلهي وليبشِّر، لكنه التزم أيضًا أن يؤدَّب بالصمت كأمر الله!

ثالثًا: في محبَّته وهب زكريَّا الكاهن البشارة المُفرحة بميلاد يوحنا كهبة مجَّانيَّة قُدَّمت له، بل وللبشريّة كلها، والآن إذ تمتَّع الكاهن بهذا الوعد الأكيد، وحدَّد له الرب على فم رئيس ملائكته اسم المولود وسِماته ورسالته وإمكانيَّاته، ومع ذلك لم يصدِّق، لذلك سمح الله في محبَّته أيضًا أن يؤدِّبه إلى حين. الله في أبوَّته لنا يهب كما في أبوَّته يؤدِّب لبنياننا.

والعجيب حتى الأخطاء التي نرتكبها يستخدمها الله للخير، فما حدث لزكريَّا بسبب شكِّه صار رمزًا لما يحدث للشعب اليهودي الذي لم يصدِّق السماء ولا مواعيد الله، فلم يقبل ربِّنا يسوع ملِكًا روحيًا ومخلِّصًا. لهذا سقط تحت تأديب الصمت، حتى يقبلوا الإيمان في أواخر الدهور. سقطوا تحت الصمت إذ رفضوا كلمة الله المتجسّد، فنزع عنهم الأنبياء وتوقَّفت العبادة الهيكليّة.

يقول **العلامة أوريجينوس:** [صمت زكريَّا هو صمت الأنبياء عند شعب إسرائيل، فلا يتكلَّم الله بعد مع اليهود بينما جاء الله الكلمة الذي من البدء. لقد صار معنا المسيح الذي لا يصمت، لكنه صامت حتى يومنا هذا بالنسبة لليهود[1].]

ويقول **القدّيس أمبروسيوس:** [الصمت هو الكف عن تقديم الذبائح وسكوت الأنبياء، فقد توقَّف صوت النبي والكاهن، إذ يقول الله "سأنزع الجبار والنبي والقاضي" (إش ١: ٣١)... أما بالنسبة لنا، فقد جاء إلينا كلمة الله الذي لا يمكن أن يسكت فينا، لذا لا يستطيع اليهودي أن يحاور المسيحي: "إذ

[1] *In Luc. hom 5: 1.*

أنتم تطلبون برهان المسيح المتكلِّم فيّ" (١ كو ١٣: ٣).]

إن كان زكريًّا في صمته كان يومئ بالإشارات والحركات الجسديّة لحرمانه من موهبة الكلام، ففي هذا كان أيضًا يرمز لليهود الذين اهتموا بأعمال الناموس الجسديّة بلا فهم روحي، وكما يقول **العلامة أوريجينوس:** [في اِعتقادي توجد أفعال بدون أقوال أو معنى، لا تختلف عن الإيماءات التي بلا معنى... فإذا اعتبرنا الشرائع اليهوديّة كما بدون كلام لعدم فهمها وتفسيرها... يمكننا أن نفهم ما حدث لزكريًّا صورة لما يحدث مع اليهود حتى أيامنا هذه. التطهير عندهم أشْبه بحركة بسيطة دون معنى، فإنَّ نظرنا إليه يمكننا اِعتباره إيماءة بسيطة وعملاً صامتًا. أيضًا الفصح والأعياد الأخرى ما هي إلا حركات بسيطة لا حقائق. وحتى يومنا هذا الشعب الإسرائيلي أصم وأبكم، فإنَّه إذ رفض "الكلمة" وابتعد عنه صار هكذا [1].]

إن كان زكريًّا الكاهن قد صمت، إنما لكي بصمته أعلن عن الحاجة إلى "الكلمة" الإلهي الذي فقده إسرائيل... وكأنه حتى بالصمت مهَّد الطريق للإعلان عن السيِّد المسيح. هذا ومن جانب آخر، فقد سمح له بالصمت كفرصة رائعة يتوقَّف فيها الكلام مع الناس لكي ينشغل قلبه بالحديث مع الله، يتأمَّل أعماله ويتلمَّس أسراره ويتفهَّم النبوَّات.

كما اعتزل زكريًّا كلام الناس بسبب صمته، اِعتزلت أليصابات زوجته الناس بسبب خجلها، إذ يقول الإنجيلي: "**وبعد تلك الأيام حبلت أليصابات امرأته، وأخفت نفسها خمسة أشهر، قائلة: هكذا قد فعل بي الرب...**" كانت لهما فرصة روحيّة للحديث مع الله وحده، يتأمَّلان عمله معهما، وينتظران عطيَّته لهما.

استنتج **العلامة أوريجينوس والقدِّيس أمبروسيوس** من خجل أليصابات أنها إذ لم تنجب زمانًا توقَّفت عن العلاقات الجسديّة بينها وبين رجلها، إذ كان رجال الله يلتقون بزوجاتهم جسديًا من أجل الإنجاب، فإن تحقَّقوا من عدم الإنجاب بقيت علاقاتهم مرتبطة بالحب الزوجي دون علاقات جسديّة... هكذا إذ حملت أليصابات خجلت من الظهور أمام الناس، حتى التقت بالسيِّدة العذراء الحاملة لكلمة الله المتجسّد في أحشائها، وإذ ابتهج الجنين في أحشائها لم تعد أليصابات تخجل... إنها تحمل ثمرًا فائقًا؛ تحمل من هو أعظم مواليد النساء، يوحنا السابق.

ونحن يمكننا أن نقول بأن العلاقات الجسديّة بين الزوجين مقدَّسة وطاهرة مادامت باعتدال، لا يغلب عليها روح الشهوة والأنانيّة خلال طلب لذَّة الجسد، بل روح الحب الزوجي والعطاء. في المسيح

---

[1] *In Luc. hom 5: 3.*

يسوع كلمة الله المتجسّد – يجد الزوجان أنهما قد صارا جسدًا واحدًا، يعيشان بالروح حتى في لحظات لقائهما معًا، يظللهما روح الله بلا انقطاع، فيكونا مقدَّسين على الدوام في كل تصرفاتهما.

٤. البشارة بالتجسّد الإلهي

"وفي الشهر السادس أُرسل جبرائيل الملاك من الله

إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة،

إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف

واسم العذراء مريم..." [٢٦-٢٧].

أولاً: منذ خمسة أشهر سبق فبشَّر الملاك زكريًّا الكاهن، والآن مع بداية الشهر السادس جاء يبشِّر القدّيسة مريم، لكن شتَّان بين البشارتين. حقًّا إن البشارة الأولى تمَّت داخل الهيكل أثناء العبادة الجماعيّة، رافقها زكريًّا أمام الجميع وتحدَّث عنها الكهنة، إذ تمَّت مع زميلهم الكاهن، لكن كانت بشارة بميلاد أعظم مواليد النساء يوحنا السابق خادم الكلمة؛ أما البشارة الثانية فتمَّت في بيت مجهول في قريّة فقيرة بطريقة سريّة لم يلمسها حتى صاحب البيت نفسه "يوسف النجار"، وقد كانت بشارة بتجسّد الكلمة ذاته! لقد أخلى الابن ذاته، حتى في البشارة به لم تتم به بين كهنة، ولا في داخل الهيكل، ولا على مستوى الجماعة، إنما تمَّت مع فتاة فقيرة في مكان بسيط.

ثانيًا: أُرسل الملاك إلى "**عذراء مخطوبة لرجل**"، لماذا لم يُرسل إلى عذراء غير مخطوبة؟

ا. يجيب **العلامة أوريجينوس** بأن وجود الخاطب أو رجل مريم ينزع كل شكٍ من جهتها عندما تظهر علامات الحمل عليها[1]، ويقول **القدّيس أمبروسيوس: [**ربَّما لكي لا يُظن أنها زانية. ولقد وصفها الكتاب بصفتين في آن واحد، أنها زوجة وعذراء. فهي عذراء لأنها لم تعرف رجلاً، وزوجة حتى تُحفظ ممَّا قد يشوب سمعتها، فانتفاخ بطنها يشير إلى فقدان البتوليّة (في نظر الناس). هذا وقد اِختار الرب أن يشك البعض في نسبه الحقيقي عن أن يشكُّوا في طهارة والدته... لم يجد داعيًا للكشف عن شخصه على حساب سمعة والدته.]

سبق لنا دراسة الخطبة والزواج حسب التقليد اليهودي، وكيف كانت الخطبة تعادل الزواج حاليًا في كل شيء ماخلا العلاقات الجسديّة، لهذا دعيت القدّيسة مريم "امرأة يوسف[2]".

---

[1] *In Luc. Hom 6: 3.*

[2] للمؤلف: القدّيسة مريم في المفهوم الأرثوذكسي، ص ٢٠، ٢١.

W.L. Strack & P.l. Billenck: Kommentar Zum Neuen

ب. يرى **العلامة أوريجينوس**[١] نقلاً عن **القدّيس أغناطيوس**[٢] أن وجود يوسف يشكِّك الشيطان في أمر المولود ويُربكه من جهة التجسّد الإلهي. وقد قدَّم لنا **القدّيس أمبروسيوس** ذات الفكر حين قال: [هناك سبب آخر لا يمكن إغفاله وهو أن رئيس هذا العالم لم يكتشف بتوليّة العذراء، فهو إذ رآها مع رجلها لم يشك في المولود منها، وقد شاء الرب أن ينزع عن رئيس هذا العالم معرفته. هذا ظهر عندما أوصى السيِّد تلاميذه ألا يقولوا لأحد أنه المسيح (مت ١٦: ٢٢)، كما منع الذين شفاهم من إظهار اسمه (مت ٥: ٤) وأمر الشيَّاطين ألا تتكلَّم عن ابن الله (لو ٤: ٣٥). يؤيِّد ما ذكره الرسول أيضًا: "بل نتكلَّم بحكمة الله في سرّ، الحكمة المكتومة التي سبق الله فعيَّنها قبل الدهور لمجدنا، التي لم يعملها أحد من عظماء هذا الدهر، لأن لو عرفوا لما صلبوا رب المجد" (١ كو ٢: ٧-٨)... إذن لقد توارى الرب عن إبليس لأجل خلاصنا. توارى لكي ينتصر عليه، توارى عنه في التجربة، وحين كان يصرخ إليه ويلقبِّه "ابن الله" لم يؤكِّد له حقيقة لاهوته. توارى الرب أيضًا عن رؤساء البشر. وبالرغم من تردّد إبليس حين قال: "إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل" (مت ٤: ٦) إلا أن الأمر قد انتهى بمعرفته إيَّاه، فقد عرفتْهُ الشيَّاطين حين صرخت: "ما لنا ولك يا يسوع ابن الله أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذِّبنا؟!" (مت ٨: ٢٩). لقد عرفتْه الشيَّاطين إذ كانت تترقَّب مجيئه، أما رؤساء العالم فلم يعرفوه... استطاع الشيطان بمكر أن يكشف الأمور المكتوبة أما الذين اقتنصتهم كرامات هذا العالم فلم يستطيعوا أن يعرفوا أعمال الله.]

ثالثًا: كرَّر الإنجيلي كلمة "**عذراء**" وكأنه أراد تأكيد عذراويَّتها ليعلن أن السيِّد المسيح ليس من زرع بشر. هذا ما أعلنه حزقيال النبي بقوله عن الباب الشرقي: "هذا الباب يكون مغلقًا لا يُفتح، ولا يدخل منه إنسان، لأن الرب إله إسرائيل دخل منه فيكون مغلقًا، الرئيس، الرئيس هو يجلس فيه" (حز ٤٤: ٢-٣). ولذلك جاء في الطقس البيزنطي عن السيِّدة العذراء: [السلام لك، أيها الباب الفريد الذي عبر منه الكلمة وحده[٣].]

إنها عذراء وزوجة (عروس) في نفس الوقت، إذ تمثِّل العضو الأول في الكنيسة العذراء عروس المسيح، وكما يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [كانت مريم الزوجة العذراء تمثِّل في آن واحد الكنيسة العروس التي بلا عيب. فالكنيسة عروس المسيح البتول، حبلت بنا بالروح القدس وولدتنا بغير ألم،

Testamentus Talmud und Midrash, Munchen, 1924, vil 2, p 377-394.

[1] *In Luc. Hom 6: 4,5.*

[2] *St. Igntius: Ep. Adephes 19: 1.*

[٣] لحن أكاسيستوس، يقال في السبت الخامس من الصوم الكبير.

ومريم حبلت بالروح لا بالزواج، وهكذا صارت تمثِّل كل الكنائس التي تثمر بالروح والنعمة، وإن كانت تتَّحد ظاهريًا تحت لواء راعٍ بشري.]

يقول **القدّيس أغسطينوس:** [كما ولدت مريم ذاك الذي هو رأسكم، هكذا ولدتكم الكنيسة، لأن الكنيسة هي أيضًا أم وعذارء، أم في أحشاء حبنا، وعذراء في إيمانها غير المزعزع. هي أم لأمم كثيرة الذين يمثِّلون جسدًا واحدًا، وذلك على مثال العذراء أُم الكثيرين وفي نفس الوقت هي أُم للواحد[١].]

يقول **القدّيس كيرلس الكبير:** [لنُطوِّب مريم دائمة البتوليّة بتسابيح الفرح، التي هي نفسها الكنيسة المقدَّسة[٢].]

رابعًا: يحدّد الإنجيل اسم المدينة التي جاء إليها الملاك ليلتقي بالقدّيسة العذراء مريم، وهى "**ناصرة**". مدينة في الجليل بشمال فلسطين، تبعد ٨٨ ميلاً شمال أورشليم، و١٥ ميلاً جنوب غربي طبريّة[٣]. عاش فيها القدّيس يوسف والقدّيسة العذراء مريم، وقد قضى السيِّد المسيح القسط الأوفر من الثلاثين عامًا الأولى في حياته فيها (لو ٣: ٢٣؛ مر ١: ٩)، فدُعيَ بالناصري (مت ١٢: ١١؛ مر ١: ٢٤). إذ بَدَأ رسالته رفضَهُ أهلها مرّتيْن (لو ٤: ٢٨-٣١؛ مت ٤: ١٣؛ ١٣: ٥٤-٥٨؛ مر ٦: ١-٦). تقع على تل (لو ٤: ٢٩)، ولم يكن لها أهميّة تُذكر، فلم ترد في العهد القديم، ولا في وثائق الدول العظمى قبل مجيء المسيح، ولا في كتابات المؤرِّخ اليهودي يوسيفوس. لعلَّ كلمة "**ناصرة**" تعني "قضيب" أو "غصن"... ولهذا السبب كثيرًا ما دُعي السيِّد المسيح بالغُصن[٤].

خامسًا: جاءت تحيّة الملاك: "**سلامٌ لكِ أيَّتها الممتلئة نعمة، الرب معك، مباركة أنت في النساء**" [٢٨]. لم تكن بالتحيّة العاديّة وإنما جاءت تحيَّة فريدة، حملت كل معنى الفرح، فالكلمة اليُونانيّة "**شيريه**" التي تُرجمت هنا "سلام" ورد فعلها حوالي ٨٠ مرة في الترجمة السبعينيّة للعهد القديم، تُرجم نصفها "يفرح" والنصف الآخر استخدم للتعبير عن فرح شعب الله بعمل مثير يمس خلاصهم[٥]. وكأن القدّيسة مريم قد نالت باسم الكنيسة كلها التي هي عضو فيها فرحًا فائقًا خلال تجسّد الله الكلمة وحلوله فيها.

---

[1] *Ser. 25: 8.*

[2] *Ser. 4, addressed at the Council of Ephesus. PG 77: 996.*

[3] *New Westminster Dict. of the Bible, p 653.*

[٤] المقدمة، وتفسير زك ٦: ١٢ – راجع كتابنا: زكريا.

[٥] راجع: القدّيسة مريم في المفهوم الأرثوذكسي، ص ٤٠-٤١.

J. Mchaugh: The Mother of Jesus in the N.T., N. Y. 1975, p. 39.

فيما يلي بعض التعليقات للآباء على هذه التحيّة الفريدة:

❖ انفردت بدعوتها "**الممتلئة نعمة**"، إذ وحدها نالت النعمة التي لم يقتنيها أحد آخر غيرها، إذ امتلأت بمواهب النعمة.

القدّيس أمبروسيوس

❖ هذا الميلاد مطلقًا هو **نعمة**، فيه تمَّ الاتِّحاد، اتِّحاد الإنسان بالله، والجسد بالكلمة... لم تكن الأعمال الصالحة هي الاستحقاق لتحقيقه[١].

القدّيس أغسطينوس

❖ التحفت بالنعمة الإلهيّة كثوب،
امتلأت نفسها بالحكمة الإلهيّة،
في القلب تنعَّمت بالزيجة مع الله،
وتسلَّمت الله في أحشائها[٢]!

الأب ثيؤدسيوس أسقف أنقرة

سمعت القدّيسة مريم الملاك يقول لها: "**الرب معكِ**"، وكان لهذا التعبير مفهومه الخاص بالنسبة لها، فقد ذاقت معيّة الله على مستوى فريد، إذ حملت كلمة الله في أحشائها، وقدَّمت له من جسدها ودمها!

"**مباركة أنت في النساء**"... وكما يقول **العلامة أوريجينوس**: [الفرح الذي بوَّق به جبرائيل لمريم نزع حكم الحزن الصادر من الله ضد حواء[٣]]، [كما بدأت الخطيّة بالمرأة وبعد ذلك عبرت إلى الرجل، هكذا بدأت البشارة بالنسوة (مريم وأليصابات[٤]).]

سادسًا: "فلما رأتهُ اضطربت من كلامه وفكَّرت ما عسى أن تكون هذه التحيّة. فقال لها الملاك: لا تخافي يا مريم، لأنك قد وجدت نعمة عند الله" [٢٩-٣٠].

يقول القدّيس جيروم: [لقد اضطربت ولم تستطِع أن تجاوبه، إذ لم يسبق لها أن قدَمت تحيّة لرجلٍ

---

1 *On Reduke & Grace 30.*

2 *On the Holy Nativity of Christ 11 PG 77: 1427.*

3 *In Luc. hom 6.*

4 *In Luc. hom 8.*

من قبل، لكنها إذ عرفته من هو أجابته، هذه هي التي كانت تخاف الحديث مع رجل، صارت تتحدَّث مع ملاك بلا خوف[1].]

هكذا يرى كثير من الآباء أن السيِّدة العذراء كنموذج حيّ للعذارى اللواتي تكرَّسن للعبادة يسلُكن بحياءٍ شديدٍ، ولا يلتقين برجالٍ، بل يقضين حياتهنَّ في بيوتهنَّ أو في بيوت العذارى، لا يتعاملْن مع الرجال. لكننا لا نستطيع أن ننكر أن مع ما اتَّسَمت به العذراء من حياء شديد وتكريس كامل لحساب الرب، وعدم رغبتها في الزواج، كما يظهر من قولها للملاك: "كيف يكون لي هذا وأنا لست أعرف رجلاً" لكنها كانت الإنسانة الفعّالة في الجماعة المقدَّسة. فعّالة بصلواتها وتقواها، وفعّالة أيضًا بقبولها عطيّة الله الفائقة (تجسّد الكلمة في أحشائها)، وفعّالة في الخدمة، ففي أول معجزة للسيِّد المسيح طلبت منه "ليس لهم خمر" (يو ٢: ٣)، ورافقت السيِّد حتى الصليب، وبعد الصعود كانت مع التلاميذ تسندهم. فالبتوليّة لا تعني السلبيّة، إنما إيجابيّة الحّب الباذل المُعلن خلال العبادة والعمل، في حدود مواهب الإنسان التي يتسلّمها من الرب نفسه. لذلك يقول **القدّيس أغسطينوس:** [لا تكرم البتوليّة من أجل ذاتها، وإنما لانتسابها لله[2].]

سابعًا: جاء الوعد الإلهي للقدّيسة مريم على لسان الملاك:

"**وها أنت ستحبلين وتلدين ابنًا وتسمِّينه يسوع.**
هذا يكون عظيمًا وابن العلي يُدعى،
ويعطيه الرب الإله كرسي داود أبيه،
ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد،
ولا يكون لمُلكه نهاية" [٣١-٣٣].

تمتَّعت القدّيسة مريم بهذا الحبل الإلهي، إذ تجسّد ابن العلي فيها، هذا الذي ترقبه رجال العهد القديم كملكٍ يجلس على كرسي داود ويملك أبديًا، وكمخلِّصٍ لذا يدعى "يسوع" الذي يعني "يهوه خلاصي".

❖ ليس من يشبه والدة الإله، فإنَّك وأنت تسكنين الأرض صرتِ أُمًا للخالق.

(بارالكس) لحن البركة

---

[1] *Ep 22: 38.*

[2] *De Sacr. Virg. 8.*

❖ إن كان ابن الله قد صار ابنًا لداود، فلا تشك يا ابن آدم أنك تصير ابنًا لله.

إن كان الله قد نزل أعماقًا كهذه، فإنَّه لم يفعل هذا باطلاً، إنما ليرفعنا للأعالي!

وُلد بالجسد، لكي تولد أنت ثانية حسب الروح.

وُلد من امرأة، لكي تصير أنت ابنًا لله[١].

القدّيس يوحنا ذهبي الفم

ثامنًا: إذ سمعت القدّيسة مريم الوعد الإلهي بروح التواضع وفي إيمان، دُهشت إذ كان الوعد فريدًا لم يُسمع في الكتب المقدَّسة إنسانًا ناله، لهذا تساءلت:

"**كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً؟!**

فأجاب الملاك، وقال لها:

الروح القدس يحلُّ عليكِ، وقوّة العليّ تظلِّلك،

فلذلك أيضًا القدِّوس المولود منك يُدعى ابن الله" [٣٤-٣٥].

أ. يظهر من حديث العذراء أنها قد نذرت البتوليّة، فلو أنها كانت تود الزواج لما قالت هكذا، بل تقول: "متى يكون هذا؟!" منتظرة تحقيق الوعد خلال الزواج. لقد وضعت في قلبها أن تكون بتولاً للرب، فحلّ البتول فيها، ليُقدّس فيها بتوليّة الكنيسة الروحيّة. وكما يقول **القدّيس أغسطينوس:** [اليوم تحتفل الكنيسة البتول بالميلاد البتولي... فقد أكّد السيِّد المسيح بتوليّة القلب التي يريدها للكنيسة أولاً خلال بتوليّة جسد مريم. فالكنيسة وحدها هي التي تستطيع أن تكون بتولاً فقط حين ترتبط بعريس، ألا وهو ابن البتول، إذ تقدِّم له ذاتها تمامًا[٢].]

ب. يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [لم ترفض مريم الإيمان بكلام الملاك، ولا اعتذرت عن قبوله، بل أبدت استعدادها له، أما عبارة: "كيف يكون هذا؟" فلن تنم عن الشك في الأمر قط، إنما هو تساؤل عن كيفيّة إتمام الأمر... إنها تحاول أن تجد حلاً للقضيّة... فمن حقِّها أن تعرف كيف تتم الولادة الإعجازيّة العجيبة.] لذلك جاءت إجابة الملاك لها تكشف عن سرّ عمل الله فيها لتحقيق هذه الولادة: "**الروح القدس يحلُّ عليك، وقوّة العليِّ تظلِّلك، فلذلك أيضًا القدِّوس المولود منك يُدعى ابن الله**".

الروح القدس يحلُّ عليها لتقديسها، روحًا وجسدًا، فتتهيَّأ لعمل الآب الذي يُرسل ابنه في أحشائها

---

[1] *In Matt. hom 2: 2.*

[2] *Ser. 178: 4. PL 38: 1005.*

يتجسّد منها. حقًا يا له من سرّ إلهي فائق فيه يُعلن الله حبُّه العجيب للإنسان وتكريمه له!

أما هذا الإعلان أحنت رأسها بالطاعة لتقول: "**هوذا أنا أَمَة الرب ليكن لي كقولك**" [٣٨]. شك زكريًا الكاهن في إنجاب زوجته، والبتول آمنت، وفي طاعتها قبِلت عمل الله، وكما يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [لقد سَمت بإيمانها على الكاهن؛ فالكاهن أخطأ وتوارى، والعذراء قامت بإصلاح الخطأ.] هكذا صمت زكريًا بسبب شكِّه وحملت العذراء بالكلمة المتجسّد أو النطق الإلهي الذي لن يصمت.

يرى **القدّيس إيريناؤس** أن طاعة القدّيسة مريم قد حلَّت موضع عِصيان أُمِّها حواء؛ الأخيرة بعِصيانها عقَّدت الأمر، وجاءت ابنتها تحِل العقدة بالطاعة.

ويرى اللاهوتيون أنه في هذه اللحظات التي قدَّمت الطاعة لله والخضوع قبلت التجسُّد، إذ لم يكن ممكنًا أن يتم التجسّد بغير إرادتها وقبولها للعمل، إذ يقدِّس الله الحريّة الإنسانيّة.

يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [إنها تصف نفسها أَمَة للرب مع أنها أُختيرت أُمًا له، فإنَّ الوعد الذي تحقّق لم يُسقطها في الكبرياء.] ويقول **القدّيس أغسطينوس** إن السيِّد المسيح المتواضع لا يُعلِّم أُمه – في الحبل به– الكبرياء بل التواضع!

٥. لقاء مريم بأليصابات

إن كانت القدّيسة مريم قد صارت ممثِّلة للبشريّة المؤمنة، أو ممثِّلة للكنيسة بكونها قبلت الإيمان بوعد الله وانحنت ليحل كلمة الله فيها، فإنَّها إذ تمتَّعت بالكلمة داخلها لم تستطع إلا أن تنطلق "**بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا**" [٣٩]، لتلتقي بنسيبتها أليصابات... صورة حيّة للكنيسة الحاملة للعريس فيها، والتي لن تستريح، بل تنطلق عَبر الأجيال كما على الجبال لكي تقدّم عريسها لكل نفس في العالم.

حسب المنطق البشري كان يلزمها أن تتوارى، وتبحث الأمر في نفسها كما مع خطيبها، لتدبير أمر الحبل والميلاد، لكنها وقد حملت ذاك الذي يحمل هموم العالم ويدبِّر كل الأمور لم تفكر فيما هو لنفسها، بل بروح الخدمة انطلقت إلى الجبال إلى مدينة يهوذا تخدم أليصابات.

إن حملنا مسيحنا في داخلنا ننطلق بقلب منفتح ونخرج عن "الأنا" متَّسعة قلوبنا بالحب للجميع، مشتهين خدمة الجميع!

يلاحظ في هذا اللقاء المبارك الآتي:

أولاً: حسب المنطق البشري يبحث الفقير عن الغَني، والمحتاج عمن يسد له احتياجه، والتلميذ عن

معلِّم، أما حسب المنطق الإلهي فالكبير يطلب الصغير ويبحث عنه، لكي يضمُّه بالحب ويحمله على منكبيه. هكذا "الله أحبَّنا أولاً"، لقد بادر بالحب ونزل إلينا، إذ لا نقدر نحن أن نرتفع إليه. هو ينحني ليحملنا من التراب وينتشلنا من الأعماق ليدخل بنا إلى أحضان الآب ويرفعنا إلى سماواته. وهكذا إذ يحل فينا نجرى نحو الضعفاء ونبحث عن الكل لخدمتهم.

يقول **العلامة أوريجينوس**: [الممتازون يتقدَّمون إلى من هم أقل امتيازًا لمنحهم بعض المزايا. هكذا جاء المخلِّص إلى يوحنا ليقدِّس المعموديّة. وبمجرد أن سمعت مريم رسالة الملاك أنها ستحبل بالمخلِّص، وأن ابنة خالتها أليصابات حُبلى "**قامت وذهبت بسرعة إلى الجبال ودخلت بيت أليصابات**" [٣٩-٤٠]. يسوع وهو في بطن العذراء يُسرع بتقديس يوحنا المعمدان الذي كان لم يزل بعد في بطن أُمّه[1].] ويقول **القدّيس أمبروسيوس**: [من كان أرفع منزِلة يزور الأقل؛ مريم ذهبت إلى أليصابات، ويسوع ذهب إلى يوحنا إذ أراد يسوع أن يقدِّس معموديّة يوحنا بنفسه ليعتمد.]

إن حملنا مسيحنا القدّوس نتقدَّس فننطلق إلى كل موضع مشتاقين أن يقدِّس الكل معنا!

ثانيًا: يقول **العلامة أوريجينوس**: **[**استحقَّت مريم أن تكون والدة الإله، فصار عليها أن تصعد الجبال وتبقى في المرتفعات[2].] وأيضًا يقول **القدّيس أمبروسيوس**: [أغريب على تلك التي امتلأت بالله أن ترتفع سريعًا إلى أعلى؟!]

ثالثًا: إذ حملت القدّيسة مريم كلمة الله محب البشر، جاء لقاؤها مع أليصابات رقيقًا للغاية، تحمل روح الخدمة في تواضع، لذلك يطالب **القدّيس أمبروسيوس** في تفسيره لإنجيل متى أن تتعلَّم العذارى من القدّيسة مريم رقتها وتواضعها وتكريمها للكبار. ما أحوجنا اليوم إلى إدراك أن نوالنا نعم الله، خاصة الرتب الكهنوتيّة، يلزم أن يدفعنا للخدمة المتواضعة بلا حب للكرامة أو التسلُّط، إنما بشوق لغسل الأقدام برقَّة!

رابعًا: دخلت مريم بيت أليصابات تحمل عريسها في أحشائها، لذلك إذ سلَّمت عليها يقول الإنجيلي: "**فلما سمعت أليصابات سلام مريم ارتكض الجنين في بطنها، وامتلأت أليصابات من الروح القدس**" [٤١].

أقول ليتنا في زياراتنا ولقاءاتنا مع الآخرين نحمل إليهم مسيحنا القدّوس الذي يبهج أحشاءهم

---

[1] *In luc. hom 7: 1.*

[2] *In Luc. hom 7: 2.*

الداخليّة، ويلهب روحه القدّوس فيهم، عوض أن نحمل معنا أفكارًا شرّيرة وكلمات إدانة فنملأهم غمًا ونطفئ الروح في داخلهم.

وقد لاحظ الدارسون أن كلمة "**ارتكَض**" بالعبريّة جاءت بمعنى "رقص"، هي ذات الكلمة التي استخدمت حين رقص داود النبي أمام التابوت.

❖ أسألك أن تقبل الحبل به وأن ترقص أمامه، إن لم يكن في الرحم كيوحنا فعند استقرار التابوت كما فعل داود[١].

القدّيس غريغوريوس النزينزي

❖ بدون شك إذ امتلأت أليصابات من الروح القدس، إنما ذلك لأجل ابنها يوحنا، الذي كان لا يزال في بطن أمه امتلأ من الروح القدس. وإذا تقدَّس الابن بعد ذلك امتلأت أليصابات أيضًا من الروح القدس[٢].

العلامة أوريجينوس

❖ ظهرت في الحال بركات زيارة مريم ووجود الرب، لأنه عندما سمعت أليصابات صوت سلام مريم ارتكَض الجنين بابتهاج في بطنها وامتلأت من الروح القدس.

كانت أليصابات أول من سمع صوت مريم، لكن يوحنا كان أول من تأثر بالنعمة...

عرفت أليصابات قدوم مريم، وشعر يوحنا بوجود المسيح،

المرأة شعرت بوجود المرأة، والجنين شعر بوجود الجنين،

وبينما كانتا تتحدَّثان عن النعمة، كان الجنينان يحقّقان في الداخل عمل المراحم الإلهيّة.

الطفل ارتكَض ثم امتلأت الأم، إذ لم تمتلئ قبل الطفل...

القدّيس أمبروسيوس

❖ إذ امتلأ يوحنا من الروح القدس تقدَّس وهو في بطن أُمِّه لكي يعمد الرب.

إنه لم يكن يمنح الروح لكنه كان يبشِّر بالذي يمنحه، إذ كان يقول: "أنا أعمِّدكم بماء للتوبة، ولكن الذي يأتي بعدي... هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار" (مت ٣: ١١). لماذا بالنار؟ لأن الروح القدس نزل على شكل ألسنة كأنها من نار (أع ٢: ٣). بهذا الخصوص قال الرب بفرح: "جئت لأُلقى نارًا

---

[1] *Oration on the Holy lights 17.*

[2] *In Luc. hom 7: 3.*

على الأرض، فماذا أريد لو اضطربت؟!" (لو ١٢: ٤٩).

❖ عمل هذا الروح في أليصابات. أنه يعرف العذارى وصديق المتزوِّجين أيضًا إن كان زواجهم شرعيًا[١].

القدّيس كيرلس الأورشليمي

خامسًا: إن كان ابتهاج الجنين في الأحشاء يشير إلى الثمر الروحي الداخلي في النفس، فإنَّ الجسد أيضًا يشترك مع النفس في هذا الثمر، لذلك انطلق لسان القدّيسة أليصابات يُعلن عمَّا في داخلها منسجمًا ومتناغمًا معه، إذ "**صرخت بصوتٍ عظيمٍ، وقالت: مباركة أنتِ في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك. فمن أين لي هذا أن تأتي أُم ربِّي إليّ؟! فهوذا حين صار صوت سلامك في أذني ارتكض الجنين بابتهاج في بطني. فطوبى للتي آمنت أن يتم ما قيل لها من قبل الرب**" [٤٢-٤٥].

بينما كان العالم كله يجهل كل شيء عن البشارة للقدّيسة مريم، إذ بالقدّيسة أليصابات تُعلن أُمومة مريم لربِّها، بالرغم من عدم وجود أيّة ظاهرة لهذا الحدث الإلهي. والأمر المُدهش أن هذه الأحداث العجيبة من ارتكاض الجنين مبتهجًا وامتلاء أليصابات بالروح القدس وشهادتها لأمومتها لربِّها تمَّت بمجرد إصغاء أليصابات لسلام مريم، وكأن ابن الله الساكن في أحشاء القدّيسة مريم قد تكلَّم بنفسه على لسان أُمِّه، وعمل خلال تصرُّفاتها[٢].

لقد طوَّبت أليصابات مريم لأنها صارت أُمًّا لله خلال تجسّد الكلمة، وقد بقيت الكنيسة عبر الأجيال تطوِّبها، فقد وقف **القدّيس كيرلس الكبير** يتحدَّث أمام آباء مجمع أفسس، قائلاً: [السلام لمريم والدة الإله، الكنز الملوكي للعالم كله، المصباح غير المنطفئ، إكليل البتوليّة، صولجان الأرثوذكسيّة، الهيكل غير المفهوم، مسكن غير المحدود، الأم وعذراء. السلام لك يا من حملتِ غير المُحوى في أحشائك البتوليّة المقدَّسة[٣].]

يعلِّق **العلامة أوريجينوس** على كلمات أليصابات وعلى لسانها، قائلاً:

[أيُّ عمل حسن قمْتُ به؟ أو ما هي أهميّة الأعمال التي مارِسْتُها حتى تأتي أم ربي لرؤيتي؟! هل أنا قدّيسة؟! أيُّ كمال أو أيَّة أمانة داخليّة بموجبها استحقّقتُ نيل هذا الامتياز: زيارة أم ربِّي

---

[1] *Cat. Iect. 17: 8,7.*

[٢] القدّيسة مريم في المفهوم الأرثوذكسي، ص٢٤.

[٣] القدّيسة مريم في المفهوم الأرثوذكسي، ص ٢٨.

إليَّ[1]؟!]

ويعلِّق **القدّيس أمبروسيوس** قائلاً على لسانها:

["من أين لي"، بمعنى أنها لفرصة عظيمة أن تأتي أم ربِّي إليَّ، أعترف إني لا استحقُّها.

"من أين لي"، أي فضَّل لي، أو أيّ عمل قمتُ به، أو أيّ حق هو لي... فإنِّي أشعر بالمعجزة وأتلمَّس السرّ.]

٦. تسبحة العذراء

إذ انطلق لسان أليصابات يطوّب العذراء لأنها آمنت بالمواعيد، وحملت كلمة الله في أحشائها، انطلق أيضًا لسان العذراء بالتسبيح لله. وهكذا تحوّل اللقاء إلى مُمارسة لحياة تعبُّديّة على مستوى تسبيحي ملائكي، يمجِّد الله ويُعلن أسراره الفائقة بفرح.

"**فقالت مريم: تعظِّم نفسي الرب،**

وتبتهج روحي بالله مخلِّصي" [٤٦-٤٧].

يقول **العلامة أوريجينوس:** [قبل ميلاد يوحنا تنبَّأت أليصابات، وقبل ميلاد الرب مخلِّصنا تنبَّأت مريم. وكما بدأت الخطيّة بالمرأة ثم بلغت إلى الرجل، هكذا بدأ الخلاص في العالم بواسطة نساء العالم، تغلَّبْن على ضعف جنسهن. لننظر الآن نبوَّة العذراء وهي تقول: "**تُعظِّم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلِّصي**"، فإنَّ النفس والروح يشتركان في التعظيم[2].]

لقد أساءت حواء إلى خالقها حين شوَّهت روحها بالعصيان، وأفسدت خليقة الله الصالحة، فلم تعد حياتها تمجّد الخالق ولا أعماقها تُعلن عن بهائه. وقد جاءت القدّيسة مريم تحمل كلمة الله في أحشائها، يردّ لنفسها جمالها الأول، وتصير روحها مبتهجة بكونها صورة الله ومثاله.

يقول **العلامة أوريجينوس:** [يحدّث تساؤل: كيف تعظِّم نفسي الرب؟ حقًا إن كان الرب لا يقبل الزيادة ولا النقصان إنما بلا تغيير، فإلى أي مدى يمكن لمريم أن تقول هذا؟: "تعظِّم نفسي الرب"؟... كلما كبرت صورة (المسيح فيَّ) وصارت بهيّة بأعمالي وأفكاري وأقوالي، تكون قد كبرت صورة الرب وتمجّد... وكما أن صورة الرب تزداد بهاءً فينا، فإنَّنا إذ نخطئ تصغر الصورة وتبهت[3]...]

أما قول العذراء "**تبتهج روحي بالله مخلِّصي**" فيحمل مفهومًا لاهوتيًا هامًا أن القدّيسة مريم مع

---

[1] *In Luc. 7: 5.*

[2] *In Luc. hom 8: 1.*

[3] *In Luc. hom 8: 2.*

سموّها العظيم تحتاج إلى "الخلاص" كسائر البشر، وتبتهج به، إذ وُلدت تحمل الخطيّة الأصليّة (الجديّة) التي ورثناها عن أبوينا الأوَّلين. لقد أدركت القدّيسة سرّ تمتُّعها بالنعمة الإلهيّة، إذ قالت: "**نظر إلى تواضع أمته**". لم تقل أن الله نظر إلى صلواتها أو أصوامها أو سهرها أو عدلها أو حكمتها، لكنة "نظر إلى تواضع أَمَتِه". لقد عرفت الطريق الذي به تنطلق إلى مراحم الله وتغتصب عطاياه وهو "التواضع". فإن كان عدو الخير قد فقد مركزه خلال الكبرياء، فقد جعل الكبرياء فخًا يقتنص به كل بشر إلى ملكوت ظلمته، حارمًا إيَّاه من خالقه مصدر حياته وعلَّة بهجته.

"**فهوذا منذ الآن جميع الأجيال تطوّبني، لأن القدير صنع بي عظائم واسمه قدّوس، ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتَّقونه**" [٤٨-٥٠]. لقد أدركت القدّيسة مريم عظمة العطيّة التي نالتها إذ تمتَّعت بواهِب العطايا نفسه، تحمله في أحشائها، لذا جميع الأجيال (جميع المؤمنين عبر العصور) يطوّبونها من أجل عمل الله معها. وها هي الكنيسة قد امتلأت ليتورجياتها بتطويبها، مُعلنه عمل الله فيها ومعها بتجسُّد الكلمة مخلِّص العالم.

إننا نطوِّبها عبر العصور، لا كعذراءٍ عاشت ثم ماتت، وإنما كعذراء تجلّى في حياتها عمل الله الخلاصي الفائق. فكل مؤمن يتطلَّع إليها فيرى فيها نعمة الله الفائقة التي وُهبت للبشريّة. إن كانت العذراء قد تمتَّعت بأمومة للسيِّد المسيح، إذ حملته متجسِّدا في أحشائها كما حملته بالإيمان في قلبها، فإنَّ النفس التي تتمتَّع بالشركة مع الله تنعم أيضًا بنوع من الأمومة، لذلك يقول **الأب ميثودوسيوس:** [الكنيسة في حالة تمخُّض إلى أن يتشكَّل المسيح ويولد داخلنا. فكل قدّيس يتمتَّع بشركة مع المسيح كأنما يولد المسيح فيه من جديد[1]!]

ويقول **القدّيس أمبروسيوس:** [احرص أن تتمِّم مشيئة الآب لكي تكون أُمًا للمسيح (مر ٣: ٣٥)[2].]

يعلِّق **القدّيس كيرلس الكبير** على بقيّة تسبحة العذراء، قائلاً: "**صنع قوّة بذراعه، شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم**" [٥١]:

تشير مريم "**بالذراع**" إلى الرب يسوع المسيح الذي ولدَته، "**وبالمستكبرين**" إلى إبليس وجنوده الذين أغواهم الكبرياء فسقطوا في حضيض الذُل والمسكَنة، بل وتشير مريم أيضًا بالمستكبرين إلى حكماء الإغريق الذين أبوا أن يقبلوا جهالة المسيحيّة كما اِدَّعوا، وإلى جمهور اليهود الذين لم يؤمنوا بيسوع

---

[1] *Symposion 8: 8.*

[2] *PL 15: 1810.*

المسيح فتفرَّقوا في أطراف الأرض.

أنزل المسيح الأعزَّاء عن الكراسي، فقد تضعضع سلطان إبليس وجنوده فلم يعودوا يملكون العالم بأن يحفظوا في أسرهم جمهور الجنس البشري. وسقط الكتبة والفرِّيسيُّون اليهود من مجدهم العالي، لأنهم تكبَّروا عن قبول السيِّد المسيح.

"**أنزل الأعزاء عن الكراسي، ورفع المتَّضعين**" [٥٢].

غرق جنود إبليس وحكماء الإغريق وكتبة اليهود وفريسيهم في بحر العظمة الفارغة والخيلاء الكاذبة، فأذلَّهم الله ورفع عليهم قومًا اِتَّضعت قلوبهم وخلُصت ضمائرهم، فقد أُعطوا "سلطانًا ليدوسوا الحيَّات والعقارب وكل قوّة العدو ولا يضرُّهم شيء" (لو ١٠: ١٩)، ولا تؤثِّر فينا المؤامرات الدنيئة التي يحرِّك أطرافها أولئك المتكبِّرون الغادرون.

ألم تكن لليهود يومًا ما دولة واسعة الأطراف، ونظرًا لعدم إيمانهم انكمشوا حيث هم الآن، أما الأمم فقد ساعدهم إيمانهم على تبوُّء منزلة عالية ومكانة سامية.

"**أشبع الجياع خيرات، وصرف الأغنياء فارغين**" [٥٣].

يقصد بالجياع الجُبْلة البشريّة، فإنَّ جميع الناس ماعدا اليهود أعوزهم مجد الله، وذاقوا مرارة الجوع. لم يكن هناك من بين الناس سوى اليهود الذين استمتعوا بلذَّة الناموس، وتثقَّفت عقولهم بتعاليم الرسل والأنبياء، إذ "**لهم التبنِّي والمجد والعهود والمواعيد**" (رو ٩: ٤). ولكن قادهم غرورهم إلى هاوية الشموخ والكبرياء، فرفضوا السجود للإله المتجسِّد، فلا عجب أن عادوا بلا إيمان ولا علم ولا رجاء ولا نعمة، فقد نُبذوا من أورشليم الأرضيّة، وطُردوا من حياة المجد والنعمة التي ظهرت، لأنهم لم يقبلوا سلطان الحياة وصلبوا رب المجد، وهجروا ينبوع الماء الحي، ولم يقدِّروا قيمة الخبز الحّي النازل من السماء. فلا غرابة بعد ذلك إن ذاقوا مرارة جوع لا يضارعه جوع آخر، ويحرق لسانهم عطش دونه أي عطش آخر، لأن جوعهم وعطشهم لم يكونا بماديِّين ملموسين، ولكنهما معنويَّان روحيَّان، أو كما يقول عاموس: "هوذا أيام تأتي يقول السيِّد الرب أُرسل جوعًا في الأرض لا جوعًا للخبز ولا عطشًا للماء بل لِإستماع كلمات الرب" (عا ٨: ١١).

أما الوثنيُّون الذين آمنوا فكثيرًا ما آلمهم الظمأ الروحي وتملَّك أفئدتهم سلطان البؤس والشقاء، فقد أُشبِعت نفوسهم من دسم الكلمة الإلهيّة وارتوت قلوبهم بالماء الحيّ الشافي، لأنهم قبلوا الرب يسوع المسيح، فحظوا بالمواعيد التي كانت لليهود قبلاً.

"**عضَّد إسرائيل فتاة ليذكر رحمة**" [٥٤].

لم يُعضِّد إسرائيل حسب الجسد وهو الذي امتاز بالكبرياء والخيلاء، وشمَخ بأنفه معتمدًا على حسَبه ونسبِه، بل عضَّد إسرائيل حسب الروح، ذلك الذي يُقدِّر قيمة هذا الاسم فيعمل على رِفعته وإكرامه، وذلك بالثقة بالله وبالإيمان بابنه والحصول على نعمه التبني من الرب يسوع، طبقًا لمواعيد الله مع أنبياء العهد القديم وبطاركته.

وتُشير الآية أيضًا إلى جمهور اليهود بالجسد، وهم أولئك الذين آمنوا بالرب يسوع المسيح، فإنَّ الله جلّ شأنه وعد إبراهيم قائلاً: "ويتبارك في نسلك جميع قبائل الأرض"، لأنه حقًّا "ليس يمسك الملائكة بل يمسك نسل إبراهيم" (عب ٢: ١٦)[١].]

أخيرًا إذ أورد التسبحة قال: "**فمكثت مريم عندها ثلاثة أشهر، ثم رجعت إلى بيتها**" [٥٦].

يعلِّق **العلامة أوريجينوس** على هذا القول الإنجيلي هكذا: [إن كان حضور مريم عند أليصابات وسلامها لها كافيان أن يجعلا الجنين يرتكِض مبتهجًا، وأليصابات تتنبَّأ بعد أن امتلأت بالروح القدس... إن كان هذا قد تّم في ساعة واحدة، يمكننا أن نتخيَّل التقدَّم العظيم الذي أحرزه يوحنا خلال الثلاثة شهور التي مكثتهم مريم عند أليصابات. فإن كان في لحظة واحدة أو على الفور ركض الطفل في أحشاء أُمه، أو بمعنى آخر قفز متهلِّلاً وامتلأت أليصابات من الروح القدس، أفليس من المعقول أن أليصابات ويوحنا قد ازدادا في النمو خلال الثلاثة أشهر، وهما بالقرب من والدة الإله، والمخلِّص نفسه حاضر! في هذه الأشهر الثلاثة كان يوحنا يتقوَّى في حلبة الأبطال، ويُعِّد وهو في بطن أُمه لميلاد عجيب وتثقيف أعجب!... إذ عاش في البريّة إلى أن حان وقت ظهوره لإسرائيل[2].]

بنفس المعنى يقول **القدّيس أمبروسيوس**: [أيّة قامة في تقديرنا يستطيع أن يبلغها الجنين من وجود مريم في بيته هذه الفترة الطويلة؟!... هكذا كان النبي يأخذ المسحة المقدَّسة ويتهيَّأ للمعركة الكبرى.]

٧. ميلاد يوحنا وخِتانه

"**وأما أليصابات فتمَّ زمانها لتلد، فولدت ابنًا.**

وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظَّم رحمته لها،

ففرحوا معها" [٥٧-٥٨].

إذ تمتَّعت أليصابات بحنان الله ونعمته (يوحنا) في أحشائها وامتلأت بالروح القدس، تُرجِم ذلك

---

[١] ترجمة المرحوم كامل جرجس.

[2] *In Luc. hom 9: 1,2.*

عمليًا بظهور الطفل يوحنا في الزمن المحدَّد، الذي فرَّح قلوب الكثيرين. وهكذا يلزمنا نحن أيضًا أن نترجم ما نحمله من نِعم إلهيَّة في أعماقنا إلى ثمر خارجي يُفرِّح السمائيِّين والأرضيِّين.

ميلاد القدّيس يوحنا فرَّح القلوب وأطلقها نحو تمجيد الله ببهجة صادقة. يقول **القدّيس أمبروسيوس:** [في ميلاد القدّيسين يعُمْ الفرح بين الجميع، إذ هو بركة للكل.]

إذ جاء وقت الختان أرادوا تسمية "زكريَّا" على اسم والده، أما والدته التي امتلأت من الروح القدس فقالت: "يوحنا"، وزكريَّا نفسه إذ طلب لوحًا من الشمع وكتب الاسم "يوحنا" دون اتِّفاق سابق مع امرأته، انفتح لسانه في الحال ليتنبَّأ. وكأنه إذ تسلّم روح الله قيادة الموقف لم يَصر للزوجين – زكريَّا وأليصابات – ثمرًا مشتركًا هو يوحنا، وإنما أيضًا صار لهم الفكر الواحد في الرب.

ويمكننا أيضًا أن نقول حين يتسلَّم روح الرب قيادة حياتنا تنسجم فينا أليصابات مع زكريَّا في الفكر والعمل، أي ينسجم الجسد (أليصابات) مع النفس (زكريَّا) ليعملا معًا بفكرٍ واحدٍ مقدَّسٍ.

الآن إذ تمتَّع زكريَّا بعطيّة الله له "يوحنا"،

"**في الحال اِنفتح فمه ولسانه وتكلَّم وبارك الله.**

فوقع خوف على كل جيرانهم،

وتحدَّث بهذه الأمور جميعها في كل جبل اليهوديّة.

فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين:

أترى ماذا يكون هذا الصبي؟!

وكانت يد الرب معه" [٦٤-٦٦].

حينما ننعم بحنان الله ينفتح فمنا الداخلي، وينطق لساننا بتهليل. نبارك الرب لا بكلمات بشريّة إنما بقوّة الله، حتى يقع خوف الله على من هم حولنا. المؤمن الحقيقي خلال تلامسه مع الله يحمل فرحًا وبهجةٍ، وتتحوّل حياته كلها إلى فم داخلي مسبِّح، هذا التسبيح يهز السمائيِّين طرَبًا ويحطِّم عدو الخير، وكأن قوّة الله تتجلّى فيه.

صار ميلاد يوحنا كرازة، وإن كانت قد بدأت في غموض لكن "يد الرب" أي الابن الكلمة صار مرافقًا له يسنده، إذ ينطلق به إلى البريَّة، وهناك يعوله ويهتم به حتى يظهر لإسرائيل في الزمن المحدَّد.

٨. نبوَّة زكريَّا الكاهن

تمتَّع زكريَّا الكاهن بحنان الله ونعمته (يوحنا)، فانطلق بلسانه يبارك الرب تحت قيادة الروح

القدس، إذ رأى خطة الله الخلاصيَّة لا تشمله وحده، ولا عشيرته بل تضم الكل.

"**وامتلأ زكريَّا أبوه من الروح القدس وتنبَّأ قائلاً:**

مبارك الرب إله إسرائيل،

لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه" [٦٨].

يعلِّق **العلامة أوريجينوس** هكذا: [عندما امتلأ زكريَّا من الروح القدس تنبَّأ نبوَّتين عامِّتين: الأولى خاصة بالمسيح، والثانية خاصة بيوحنا المعمدان وظهوره. ويظهر من كلماته أنه يتحدَّث عن المخلِّص كقائم فعلاً وموجود في العالم، يليه الحديث عن يوحنا[1].]

ويقول **أمبروسيوس**: [الرجل الصامت زمانًا طويًلا يتنبَّأ! هذا هو ملء نعمة الله التي جعلت من الناكرين (المتشكِّكين) ممجِّدين له! ليته لا يفقد أي إنسان ثقته، ولا ييأس بتأمَّله في خطاياه السابقة، متذكرًا البركات الإلهيّة.]

يتنبَّأ عن السيِّد المسيح، قائلاً:

"**وأقام لنا قرن خلاص في بيت داود فتاة.**

كما تكلَّم بفم أنبيائه الذين من الدهر" [٦٩-٧٠].

يقول **القدّيس چيروم**: [القرن في الكتاب المقدَّس يعني مملكة أو سلطانًا[2].] ويقول **القدّيس غريغوريوس النزينزي**: [عندما انطرحنا إلى أسفل، رُفع قرن خلاصنا لأجلنا[3].]

ويقول **القدّيس كيرلس الكبير**: [لا تشير كلمة "**قرن**" إلى القوّة فحسب، بل وإلى السلطان الملكي، فإنَّ المسيح مخلِّصنا الذي ظهر من أسرة داود الملك هو ملك الملوك وقوّة الآب العظيمة.] ويقول **العلامة أوريجينوس**: [بالحقيقة جاء قمَّة الخلاص من بيت داود، فقد جاءت النبوَّة صدى للقول بأن الكرامة قد زُرعت على القمَّة. وأيّة قمِّة. يسوع المسيح الذي كُتب عنه: "أقام قرن خلاص في بيت داود فتاة، كما تكلَّم بفم أنبيائه القدّيسين"[4].]

"**خلاص من أعدائنا، ومن أيدي جميع مبغضينا**" [٧١].

يقول **العلامة أوريجينوس**: [ليس المقصود هنا الأعداء الجسديِّين، بل الأعداء الروحيِّين، وبالفعل

---

[1] *In Luc. hom 10: 1.*

[2] *In Ps. hom 25.*

[3] *On the Great Athan.*

[4] *In Luc. hom 10: 2.*

جاء يسوع قويًا في المعركة ليُهلك جميع أعدائنا وينقذنا من حبائلهم، ويحرِّرنا من أعدائنا وجميع مبغضينا[1].]

"**ليصنع رحمة مع آبائنا، ويذكر عهده المقدَّس**" [٧٢].

يقول **القدّيس كيرلس الكبير**: [المسيح هو الرحمة والعدل، لأننا نلنا به الرحمة، فتبرِّرنا بأن محا خطايانا بإيماننا به.] ويقول **العلامة أوريجينوس**: [أظن أن مجيء الرب المخلِّص قد أفاد إبراهيم وإسحق ويعقوب (آبائنا) بغفران الله لهم، إذ لا يمكن بأن هؤلاء الرجال الذين تنبَّأوا عن هذا اليوم وفرحوا به لم يستفيدوا بمجيء المخلِّص والميلاد الإعجازي... لماذا نخشى من القول بأن مجيئه قد أفاد آباءنا[2]؟!]

مجيء المخلِّص يُعلن رحمة الله مع آبائنا ويحقّق مواعيده المستمرَّة، والتي ظهرت بوضوح في أيام إبراهيم الذي دخل مع الله في عهدٍ مقدَّسٍ وبقسَم، إذ يقول:

"**القسَم الذي حلف لإبراهيم أبينا.**
أن يعطينا إننا بلا خوف مُنقذين من أيدي أعدائنا نعبده.
بقداسة وبرّ قدَّامه جميع أيام حياتنا" [٧٣-٧٥].

هذا العهد الذي تحقّق بمجيء المسيح يحمل شقَّين: الشِق الأول هو الغلبة على أعدائنا الروحيِّين، أي قوَّات الظلمة بدون خوفٍ، فقد حطَّم السيِّد فِخاخهم وحطَّم سلطانهم تحت أقدامنا، إن حملناه في داخلنا. والشِق الثاني والملازم للأول فهو دخولنا في الميراث، نعبد الرب بقداسةٍ وبرٍّ، أي نحمل طبيعة جديدة نعيشها كل أيام حياتنا.

هذا بخصوص النبوَّة عن السيِّد المسيح، أما عن القدّيس يوحنا المعمدان، فقال:

"**وأنتَ أيها الصبي نبيّ العليّ تُدعى،**
لأنك تتقدَّم أمام وجه الرب لتُعد طرقة.
لتعطي شعبَه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم.
بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المُشرق من العلاء.
ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت،

---

[1] *In Luc. hom 10: 3.*

[2] *In Luc. hom 10: 3.*

لكي يُهدي أقدامنا في طريق السلام" [٧٦-٧٩].

وفيما يلي تعليقات بعض الآباء على هذه النبوَّة:

❖ "**وأنت أيها الصبيّ نبيّ العليّ تُدعى**" [٧٦]. أرجو أن تلاحظوا أيضًا أن المسيح هو العليّ، وأن يوحنا المعمدان يتقدَّم المسيح بميلاده وعمله، فلماذا إذن ينكرون لاهوت المسيح؟ (يعني الأريوسيين).

"**ليُضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت**" [٧٩].

كان يوحنا المعمدان نورًا ساطعًا وسط اليهوديّة، فقد ورد "رتَّبْت سراجًا لمسيحي" (مز ١٣٢: ١٧١).

وفي شريعة موسى أُضيءَ أحد الأسرجة في خيمة الاجتماع على الدوام كرمزٍ ليوحنا.

ولكن اليهود بعد أن اجتمعوا حول معموديّة يوحنا ردْحًا من الزمن هجروه وتركوه... وبذلوا ما في وسعهم في إطفاء السراج المنير الساطع. فلا غرابة إن كان المسيح يصف يوحنا المعمدان بالقول: "كان هو السراج الموقَد المُنير، وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة" (يو ٥: ٣٥).

"**لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام**" [٧٩].

كان العالم يتخبَّط في دياجير الظلام الحالك والجهل الفاضح، ومنعت سحابة الجهل جمهور الناس من رؤية السيِّد المسيح الفادي، إله الحق والعدل، إلا أن رب الجميع ظهر للإسرائيليِّين نورًا لهم وشمسًا لنفوسهم[١].

القدّيس كيرلس الكبير

❖ اِعتقد أن زكريَّا أسرع بتوجيه الكلام إلى الطفل، لأنه كان يعلم أن يوحنا سوف يذهب ليعيش في البراري، وأنه لن يتمتَّع بعد ذلك بوجوده، وبالفعل "**كان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل**" [٨٠].

موسى أيضًا عاش في البراري، لكن بعد هروبه من مصر وكان عمره أربعين عامًا... أما يوحنا فمنذ ولادته ذهب إلى البراري، هذا الذي قيل عنه أنه أعظم مواليد النساء، وقد استحق أن يُثقَّف بتربية ممتازة[٢].

العلامة أوريجينوس

---

[١] ترجمة المرحوم كامل جرجس.

[2] *In Luc. Hom 10: 6,7.*

❖ قد يظن البعض أن في هذا مبالغة، إذ يوجَّه الحديث إلى طفلٍ ابن ثمانية أيام، لكننا نستطيع أن نُدرك أن هذا في الإمكان، إذ سمع الجنين صوت مريم قبْل ولادته. ولما كان يوحنا نبيًا فإنَّ للأنبياء آذانًا أُخر يفتحها روح الله ولا يفتحها نُموّ الجسد. كان يوحنا قادرًا على الفهم إذ سبق فركض بابتهاج في بطن أُمّه.

القدّيس أمبروسيوس

الأصحاح الثاني

ميلاد الصديق السماوي

لم يجد الصديق السماوي له موضعًا في منزل يُولد فيه، فجاءنا في مزود، لكنه فتح أبواب السماء ليسمع البسطاء الصوت الملائكي يهنِّئهم بالفرح العظيم الذي يعّم الشعب. يُدخل به كطفل إلى الهيكل فيفتح عينيّ سمعان الشيخ الذي اشتهى بفرح أن ينطلق إلى الفردوس بعد إدراكه للنور الذي يُعلن للأمم؛ ويفتح لسان حَنَّة النبيّة بالتسابيح. وفي سن الثانية عشر دخل الهيكل يُبهت الشيوخ بتعاليمه.

١. ميلاد صديقنا	١–٧.
٢. البشارة للرعاة	٨–٢٠.
٣. ختان السيِّد	٢١.
٤. تقديم الذبيحة	٢٢–٢٤.
٥. تسبحة سمعان الشيخ	٢٥–٣٥.
٦. تسبحة حَنَّة بنت فنوئيل	٣٦–٣٨.
٧. العودة إلى الناصرة	٣٩–٤٠.
٨. يسوع في الهيكل	٤١–٥٢.

١. ميلاد صديقنا

في الأصحاح السابق رأينا خِطة الله العجيبة بالإعداد لميلاد صديقنا السماوي، فقد انفتحت السماء لتُرسل رئيس الملائكة جبرائيل يبشِّر زكريًا بميلاد يوحنا السابق للسيِّد، ويبشِّر فتاة الناصرة العذراء بالحبل المقدَّس. امتلأت اليصابات من الروح القدس عند سماعها سلام مريم وابتهج الجنين في أحشائها راكضًا، وانفتح لسان زكريًا بالتسبيح شاكرًا لله ومباركًا إله إسرائيل، لا من أجل ميلاد يوحنا بل من أجل من جاء يوحنا ليهيئ له الطريق، فقد رأى الآباء والأنبياء الذين رقدوا يتهلَّلون لتحقيق الله وعده المقدَّس بمجيء المسيَّا المخلِّص، والآن يحدّثنا في بساطة عن ميلاد السيِّد، موضّحا كيف استخدم الله حتى الوسائل البشريّة مثل "الاكتتاب الروماني المصطبغ بالصبغة اليهوديّة"، لتحقيق أهدافه الإلهيّة وإتمام النبوات، إذ يقول الإنجيلي:

"وفي تلك الأيام صدر أمر من أوغسطس قيصر بأن يُكتتب كل المسكونة.

وهذا الاكتتاب الأول جرى إذ كان كيرينيوس والي سوريّة.
فذهب الجميع ليُكتَتبوا كل واحد إلى مدينته.
فصعد يوسف أيضًا من مدينة الناصرة إلى اليهوديّة
إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم،
لكونه من بيت داود وعشيرته" [١-٤].

في أيام الإمبراطور كايس أو اكتافيوس كايبياس الذي وهبه مجلس الأعيان لقب "أوغسطس" ويعني باللاتينية "المبجّل" صدر الأمر باكتتاب "كل المسكونة"، أي جميع الدول الخاضعة للدولة الرومانيّة التي كانت تسيطر على العالم المتمدِّن في ذلك الحين. كان هذا أمر لإشباع شهوة عظمة الإمبراطور، ليبرز امتداد نفوذه وسلطته لكي يسنده في جمع الجزيّة. وكان الاكتتاب حسب النظام الروماني يمكن أن يتم في أي موضع دون حاجة لانتقال كل إنسان إلى مدينته التي نشأ فيها. لكن الرومان وقد أرادوا مجاملة اليهود أمروا بإجرائه حسب النظام اليهودي، حيث يسجِّل كل إنسان اسمه في موطنه الأصلي. وهكذا التزم يوسف ومريم أن يذهبا إلى "بيت لحم" في اليهوديّة لتسجيل اسميهما لكونهما من بيت داود وعشيرته.

كان تنفيذ الأمر شاقًا على يوسف الشيخ ومريم الحامل، خاصة وأن المدينة قد اكتظَّت بالقادمين فلم يجدوا موضعًا في فندق، واضطرا أن يبيتا في مذود لتلد القدِّيسة مريم هناك. تحقَّق ذلك حسب الظاهر بناء على الأمر الإمبراطوري بالاكتتاب مع حمل سِمة يهوديّة في طريقة تنفيذه، لكن الحقيقة الخفيّة أن ما تم كان بخطة إلهيّة سبق فأعلنها الأنبياء، إذ قيل: "أما أنتِ يا بيت لحم أفراتَة وأنتِ صغيرة أن تكوني بين ألوف يهوذا فمنك يخرج لي الذي يكون متسلطًا على إسرائيل ومخارجه منذ القديم منذ أيام الأزل" (مي ٥: ٢).

فيما يلي تعليقات بعض الآباء إلى العبارات السابقة:

❖ "**وفي تلك الأيام صدر أمر أوغسطس قيصر بأن يكتتب المسكونة**"... [١-٣]. وُلد المسيح إذن في بيت لحم في حكم أوغسطس قيصر وكان قد أصدر أمرًا بإحصاء دولته. ولكن قد يسأل سائل: لِم أتى الكاتب الحكيم على ذكر هذه المسائل؟ والجواب على ذلك أنه كان لابد من تعيين الزمن الذي وُلد فيه المخلِّص، فقد ورد "ولا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب" (تك ٤٩: ١٠)، بل وكان يجب تعليمنا أنه لم يكن على بني

إسرائيل عند ميلاد الفادي ملك من بيت داود، فقد خضعت اليهوديّة في ذلك العصر لصوْلجان الحكم الروماني.

"**لكونه من بيت داود وعشيرته**" [٤].

أشار الإنجيل المقدَّس إلى نسب يوسف لنقف على تسلسله من داود الملك جدُّه الأعلى، بل وأن هذه الأشياء الجليلة تُثبت أيضًا أن مريم العذراء من سبط يهوذا وإليه ينتسب بيت داود، لأن الشريعة الإلهيّة حصرت الزواج في السبط الواحد بمعنى أن الزوج والزوجة لا يُعقد زواجهما إلا إذا كانا من سبط واحد. ومفسر الحقائق السمائيّة الرسول العظيم بولس يعلن هذا العرف، إذ شهد أن السيِّد "طلع من سبط يهوذا" (عب ٧: ١٤).

"**مع مريم امرأته المخطوبة وهي حُبلى**" [٥].

يقول الإنجيليُّون المقدَّسون أن مريم كانت مخطوبة ليوسف وهذا يدل على أن الحبل تم خلال مدة الخطوبة، وأن عمانوئيل وُلد بمعجزة لا تتَّفق مع النواميس الطبيعيّة المعروفة، لأن مريم العذراء لم تحبل من زرعٍ بشريٍ. وسبب ذلك أن المسيح هو "باكورة الجميع"، هو آدم الثاني، كما ورد في الأسفار المقدَّسة، فقد وُلد بالروح القدس حتى ينقل إلينا بميلاده الروحي النعمة والحق، إذ شاء الله ألا نُسمى بعد أبناء الإنسان بل أبناء الله مخلِّصنا حسب الميلاد الروحي الجديد بالمسيح أولاً، لأنه يتقدَّمنا في كل شيء، كما يقول الحكيم بولس في كو ١: ١٥[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ماذا يفيدني هذا الأمر الذي يرويه بخصوص "**الاكتتاب الأول**" للمسكونة كلها في عهد أوغسطس قيصر، حيث أخذ يوسف مريم زوجته الحامل وذهبا وسط كل العالم ليُسجِّلا في هذا السجل الخاص بالاكتتاب عن مجيء يسوع إلى العالم؟

كان مجيئه يدل على سرٍّ، إذ كان يجب أن يُسجِّل اسم يسوع في هذا الاكتتاب، يسجل مع الكل لكي يخلِّص كل البشريّة ويقدِّسها واهبًا إيَّاهم أن يعيشوا معه في حياة واحدة! كان يريد بهذا السجل أن تُسجَّل أسماء الكل معه في سفر الحياة (في ٤: ٣)؛ كل الذين يؤمنون به يكتب أسماءهم في السماوات (لو ١٠: ٢٠) مع القدِّيسين[٢].

---

[١] عظة ١ (ترجمة المرحوم كامل جرجس).

[2] *In Luc. Hom 11: 6.* (ترجمة السيدة تريز سعد)

العلامة أوريجينوس

❖ ما هي العلاقة بين صدور أمر من سلطة بشريّة وميلاد المسيح إلا الإعلان عن التدبير الإلهي، فقد كان الأمر البشري مصدره المشيئة الإلهيّة، وكان يجب أن ينفذ باسم الملك السماوي لا الأرضي.

هنا يكمن عمل الإيمان باكتتاب النفس... إذ يليق بكل إنسان أن يُكتتب كل أيام حياته في المسيح... هذا الأمر بالاكتتاب لا يصدر عن أوغسطس بل عن المسيح للمسكونة كلها... إذ "للرب الأرض وملؤها، المسكونة وكل الساكنين فيها" (مز ٢٣: ١). أوغسطس لم يحكم قبائل الغوط ولا الشعب الأرمني، أما المسيح فيملك على الجميع.

القدِّيس أمبروسيوس

انتقل القدِّيس يوسف مع القدِّيسة مريم إلى "**بيت لحم**" الذي يعني "بيت الخبز"، ليُولد هناك "خبز الحياة". وقد سُجِّلَ اسمه مع البشر في الاكتتاب ليشاركنا كل شيء حتى في التعداد يُحسب كواحدٍ منا، إذ قيل: "وأُحصيَ مع أثمة" (إش ٥٣: ١٢)، فنُحصَى نحن في كتابِه الإلهي، ونُحسب أصدقاؤه. هناك في بيت لحم ولدت العذراء، إذ قيل:

"**وبينما هما هناك تمَّت أيامها لتلد.**
فولدت ابنها البكر وقمّطته وأضجعته في المذود،
إذ لم يكن لهما موضع في المنزل" [٦-٧].

فيما يلي تعليقات بعض الآباء على تعبير "**ابنها البكر**"، وعلى ولادته في مذود.

❖ هنا نقول إن **كل ابن وحيد هو بكر**. ولكن ليس كل بكر هو وحيد. فنحن نفهم أن كلمة بكر لا تعني فقط من يتبعه آخرون، ولكنها تعني عمومًا كل من لم يسبقه أحد في الميلاد. فالرب يقول لهرون "كل فاتح رحم من كل جسد يقدِّمونه للرب من الناس ومن البهائم يكون لك. غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكر البهيمة النجسة تقبل فداءه" (عد ١٨: ١٥). فإنَّ كلام الله يحدّد أن البكر هو كل فاتح رحم. وإلا فإذا كان اللفظ يعني فقط من له إنسانًا أصغر منه فإنَّه يتعذَّر إذن على الكهنة تحديد من هو البكر حتى يولد بعده إنسان آخر، لئلا لا يولد بعده أحد، فلا يُدعى بعد بكر لأنه وحيد!

ويقول الكتاب أيضًا: "وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقويمك فضة خمسة شواقل على شاقل القدس. هو عشرون جيرة. ولكن بكر البقر أو بكر الضأن أو بكر المعز لا تقبل فداءه. أنه قدسٌ. بل ترش دمه على المذبح..." (عد ١٨: ١٦-١٧). وهكذا تقضي الوصيّة بأن نقدِّس لله كل فاتح رحم من الحيوانات الطاهرة، أما الحيوانات النجسة فإنَّها تُفدى ويُعطى ثمنها إلى الكاهن. فكيف أميز الحيوان البكر؟ أم لعلي أقول للكاهن: من أدراك أن هذا الذي بكر؟! فربَّما يولد بعده آخرون، وربَّما لا يُولد. انتظر حتى يأتي الثاني، وإلا فليس لك عليّ شيء! أليست هذه حماقة يرفضها الجميع، لأن من البداهة أن البكر هو كل فاتح رحم سواء كان له أخوة أم لا؟![1]

القدِّيس جيروم

❖ معنى ابنها البكر أي أول مولود، فلا يقصد به أنه أخ من بين عدة إخوة، ولكن واحد من بين الأبكار، فإنَّ الأسفار الإلهيّة تستعمل كلمة بكر أو أول في مواضع شتَّى، ولم يقصد بالكلمة إلا واحد فقط، فقد ورد "**أنا الأول والآخر ولا إله غيري**" (إش ٤٤: ٦).

فأُضيفت كلمة أول إلى المولود للدلالة على أن العذراء لم يكن لها ابن سوى يسوع ابن الله على حد قول الوحي "أنا أيضًا أجعله بكرًا أعلى من ملوك الأرض" (مز ٨٩: ٢٧)، ويقول أيضًا الحكيم بولس "وأيضًا متى أُدخل البكر إلى العالم يقول: فلتسجد له كل ملائكة الله" (عب ١: ٦).

وكيف دخل المسيح البكر إلى العالم وهو بعيد عن العالم بطبيعته، ويختلف عن الجُبْلة البشريّة بطبيعتها؟

دخله بأن الله صار إنسانًا، ومع أنه ابن الله الوحيد إلا أنه بكر لنا، لأننا جميعنا اخوة له وبذلك أصبحنا أبناء الله.

لاحظوا أن المسيح يُدعى بكرًا بالنسبة لنا. وابن الله الوحيد بالنسبة للإله الواحد، فالمسيح ابن الله الوحيد لأنه كلمة الآب، فليس له إخوة يشاركونه هذه البنوَّة، لأن الابن متَّحد مع الآب، إله واحد لا غيره ولكن المسيح بكر لنا لأنه شاء فنزل إلى مستوى المخلوقات الطبيعيّة، ولذلك تجدون الأسفار الإلهيّة تشير إلى المسيح ابن الله بالقول: "الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب" (يو ١: ١٨). أما إذا استعمل الكتاب المقدَّس كلمة البكر فإنَّ الوحي يفسِّرها بما يبيِّن مضمونها فورد "ليكون هو بكرًا بين إخوة كثيرين" (رو ٨: ٢٩)، وورد أيضًا "بكر من الأموات" (كو ١: ١٨).

[1] العذراء كل حين ١٢ (ترجمة القمص متياس فريد).

المسيح بكر من الأموات لأنه شاركنا في كل شيء ما عدا الخطيّة ولأنه أقام جسده من فساد الموت.

أضف إلى ذلك أن المسيح بطبيعته هو ابن الله الوحيد، إله من إله، ووحيد من وحيد، ونور من نور، ولكنه بكر بالنسبة لنا حتى أن كل من يشبهه يخلص به فهو البكر ونحن إخوته[١].

❖ وجد الله الإنسان قد انحطَّ إلى مستوى الحيوان ولذلك وضع نفسه كطعام في المذود حتى إذا نبذنا الطبيعة الحيوانيّة ارتفعنا إلى درجة الفهم والإدراك التي تليق بالطبيعة الإنسانيّة، فباقترابنا إلى المذود، إلى مائدته الخاصة لا نجد طعامًا ماديًا بل خبزًا سمائيًا هو الجسد الحيّ[٢].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ كرّم المذود، فإنَّك وإن كنت قد فقدت الحس (صار الإنسان كحيوانٍ) تجد في المذود الكلمة طعامًا لك[٣].

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ وُلد في مذود ليرفعكم إلى المذبح،

جاء إلى الأرض ليرفعكم إلى السماء،

لم يجد له موضعًا إلا في مذود البقر، لكي يعد لكم منازل في السماء (يو ١٤: ٢)، وكما يقول الرسول: "**إنه من أجلكم افتقر وهو الغني لكي تستغنوا أنتم بفقره**" (٢ كو ٨: ٩). فميراثي هو فقر المسيح، وقوَّتي هي ضعف المسيح.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ أيها الرهبان، لقد وُلد الرب على الأرض ولم يكن له حتى قلاية يُولد فيها، ولا موضع في الفندق. الجنس البشري كله له موضع، والرب عند ميلاده ليس له موضع.

لم يجد له موضعًا بين البشر، لا في أفلاطون ولا في أرسطو، إنما وجد له موضعًا بين البسطاء والأبرياء في المذود... لهذا قال الرب في الإنجيل: "للثعالب أوْجِرة ولطيور السماء أوْكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه[٤]".

---

[١] عظة ١.

[٢] عظة ١.

[3] *Orat. on hom 11:6.*

[4] *In Ps. hom 44.*

القدِّيس جيروم

٢. البشارة للرعاة

تمَّت ولادة السيِّد المسيح في المذود بعيدًا عن الأنظار، لم يسمع عنها الملوك والعظماء، ولا أدركها الكهنة ورؤساء الكهنة وجماعات الكتبة والفرِّيسيين والناموسيِّين والصدِّوقيِّين. هكذا استقبلت الأرض خالقها في صمتٍ رهيبٍ، لكن لم يكن ممكنًا للسماء أن تصمت، فقد جاء ملاك الرب إلى جماعة من الرعاة الساهرين الأمناء في عملهم، وربَّما كانوا في بساطة قلوبهم منشغلين بخلاصهم، جاءهم ووقف بهم ومجد الرب أضاء حولهم [٩]، فخافوا خوفًا عظيمًا.

"**فقال لهم الملاك: لا تخافوا،**

فها أنا أبشركم بفرحٍ عظيمٍ يكون لجميع الشعب.

إنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب.

وهذه لكم العلامة تجدون طفلا مقمَّطًا مُضجعًا في مذود" [١٠-١٢].

فيما يلي بعض تعليقات الآباء على هذه البشارة المفرحة:

❖ أعلن جمهور الأنبياء ولادة المسيح بالجسد وأخذ صورة إنسان في ملء الأزمنة، وأنشدت جماهير السماء أنشودة الفرح والتهليل بميلاد المخلِّص الفادي، وكان الرعاة في بيت لحم أول من بُشِّروا بهذا النبأ السار. هؤلاء الرعاة هم رمز للرعاة الروحيِّين الذين يظهر لهم الرب يسوع المسيح فيبشِّرون باسمه في كل مكان كما بشَّر رعاة بيت لحم بالمسيح في بلدتهم هذه علي أثر سماعهم أنشودة الفرح والابتهاج من الملائكة الأطهار، فكان الملائكة كما ترى أول من أعلنوا ميلاد المسيح للعالم، ونادوا بمجد المسيح، وهو الإله المتأنِّس من امرأة بحالة عجيبة.

وقد يسأل أحد فيقول: كان المسيح طفلاً ملفوفًا بقماطٍ وضيعٍ، وموضوعًا في مذود، فلِمَ القوَّات السمائيّة تبجِّلُه إلهًا وربًّا؟

أيها الإنسان تعمَّق في فهم السرّ العظيم. لقد ظهر الله كما تظهر أنت، واِتَّخذ جسم عبد من الرقيق، ولكن لم تنفصل عنه أُلوهيَّته بحال من الأحوال. ألا تفهم أن ابن الله الوحيد تجسّد ورضيَ أن يولد من امرأة حبًا فينا ليَطرح اللعنة التي حلَّت على المرأة الأولي، فقد قيل لها "بالوجع تلدين أولادًا" (تك ٣: ١٦)؟! بولادة المرأة عمانوئيل المتجسّد اِنحلَّ رباط اللعنة عنها!

وليس ذلك فحسب، ولكن يقول الحكيم بولس "لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطيّة والموت، لأنه ما كان الناموس عاجزًا عنه فيما كان ضعيفًا بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شِبه جسد الخطيّة، ولأجل الخطيّة دان الخطيّة في الجسد، لكي يتم حُكم الناموس فينا نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" (رو ٨: ٣-٤).

وما هو المُراد بالقول "شِبه جسد الخطيّة" ؟

يُراد به أن ناموس الخطيّة كامن في الجسد مع الأهواء الباطلة والميول الفاسدة، ولكن ما أن تجسّد المسيح واتَّخذ صورتنا أصبح جسده مقدَّسًا وطاهرًا. إذن أصبح المسيح مثلنا، ولكن ليس فيه ميولنا الباطلة، إذ تحرَّر المسيح من جميع الرغبات والنزعات الفاسدة التي تقودنا إلى فعل المُحرَّم المرذول والدنيء الممقوت. فكلما رأيت الطفل يسوع ملفوفًا بالأقمطة فلا تنظره وهو بالجسد، بل دقِّق النظر في مجده الإلهي. وارتفع بعقلك إلى سماء السماوات لتشاهد مجده الفائق "وهو جالس علي كرسي عالٍ ومرتفعٍ" (إش ٦: ١)، وتسمع أناشيد السيرافيم مقدِّمين المجد والإكرام والسجود والعبادة للرب يسوع المسيح الذي يملأ الأرض بمجده وعظمته.

انظر مجد المسيح على الأرض وقد تلألأ بالنور، وسطع على الرعاة، وجمهور الملائكة ينشدون أناشيد الفرح والسرور. فقد تنبَّأ موسى منذ قرون عديدة فقال: "تهلَّلوا أيها الأمم شعبه".

ألم يولد أنبياء كثيرون ولكن لن تتهلَّل الملائكة في ميلاد أحدهم كما تهلَّلت عند ميلاد المسيح لأن هؤلاء الأنبياء كانوا من البشر مثلنا خُدامًا لله وحاملين الكلمة، ولكن لم يكن هذا شأن المسيح لأنه إله ورب مُرسل الأنبياء والقدِّيسين. أو كما يقول المرنِّم: "لأنه من في السماء يعادل الرب بين أبناء الله" (مز ٨٩: ٦). فإنَّ المسيح شاء ومنحنا البنوَّة نحن الذين تحت نير العالم وبطبيعتنا أرِقَّاء، أما المسيح فهو الابن الحقيقي، فهو بطبيعته ابن الله الآب حتى بعد تجسّده، فقد ظلَّ كما قلت لكم كما كان قبلاً رغمًا عن أخذه جسدًا لم يكن له قبلاً. وما أقوله هو عين الصِدق فإنَّ إشعياء يؤكِّد متنبِّئًا: "ها العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل. زِبدًا وعسلاً يأكل، متى عرف أن يرفض الشرّ ويختار الخير، لأنه قبل أن يَعرف الصبي أن يَرفض الشرّ يختار الخير" (إش ٧: ١٤-١٥).

وما معنى هذا كله؟ معناه أن المسيح وهو بعد طفل رضيع أكل زبدًا وعسلاً، ولأنه هو الله المتجسّد، عرف فقط الخير وتجرَّد من خطيّة الإنسان، وهذه الصفة لا تلازم إلا الله العليّ فقد ورد "ليس أحد صالحًا إلا واحد وهو الله" (لو ١٨: ١٠)، أو كما تنبَّأ إشعياء "فاقتربت إلى النبيّة فحبلت وولدت ابنًا، فقال لي الرب ادع اسمه مهير شلال حاش بز (أي اَسرع واْسِر أسرًا واَغنم غنيمة) لأنه

قبل أن يعرف الصبي أن يدعو يا أبي ويا أمي تحمل ثروة دمشق" (إش ٨: ٣). وبولادة المسيح كُسرت شوكة إبليس ونُهبت محلَّته، وقد صار له أنصار كثيرون في دمشق يعبدونه ويسجدون له، ولكن لما ولدت العذراء يسوع المسيح اضمحلَّت قوّة إبليس وتلاشى حُكمة الظالم الغشوم، فإنَّ الوثنيِّين أنفسهم علموا بظهور كوكب الصبح الرب يسوع، وسافر رسلهم "المجوس" من الشرق إلى أورشليم، ولم يكن لهم معلِّم سوى السماء، ولا مهذِّب سوى النجم. فلا تنظروا إذن إلى الطفل المولود في المزود كأنه رضيع فقط، بل انظروا إليه إلهًا غنيًا قديرًا وفاديًا، مخلِّصا عظيمًا يفوق الأجناد السمائيّة قوّة واِقتدارًا، فحقَّ له أن تنادي الملائكة بولادته في فرح وسرور وابتهاج وحبور، فما أجمل تحيَّات الملائكة للطفل يسوع وهم ينشدون[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ لاحظوا جذور ميلاد الكنيسة، فقد وُلد المسيح والرعاة يسهرون، هؤلاء الذين يحرسون الخراف التي جاءت من الأمم في حظيرة الرب فلا تهاجمها الوحوش... يستطيع الرعاة أن يسهروا كما علَّمهم الراعي الصالح. الرعيّة هي الشعوب، والليل هو العالم، والرعاة هم الكهنة.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ نزل ملاك الرب من السماء وأعلن عن ميلاده.

ها نحن نرى ملاك الرب قد دُعي ليُبشر بميلاد المسيح،

فلم يذهب إلى أورشليم، ولا بحث عن الكتبة والفرِّيسيين، ولا دخل مجمع اليهود، لكنه بحث عن رعاة يحرسون حراسة الليل للقطيع...

❖ جاء ملاك الرب للرعاة وكلَّمهم: اسمعوا يا ملائكة الكنائس فإنَّ ملاك الرب لا يزال ينزل من السماء ليُعلن لكم: "إنه وُلد لكم اليوم مخلِّص هو المسيح الرب". حقًا لو لم يأتِ هذا المخلِّص لما استطاع رعاة الكنائس أن يعتنوا برعيَّتهم من أنفسهم. فاشلة هي رعايتهم إن لم يرعها المسيح معهم! ها نحن بصدد قراءة ما جاء عن الرسل: "نحن فلاحة الله"، فالراعي الصالح هو ذاك الذي يتبع سيِّده الراعي الصالح، فيعمل مع الله (الآب) ومع المسيح[٢].

العلامة أوريجينوس

---

[١] عظة ٢ (ترجمة المرحوم كامل جرجس).

[2] *In Luc. hom 12:1, 2.* (ترجمة مدام وديعة حنا)

❖ هوذا الملائكة ترتِّل، ورؤساء الملائكة تغنِّي في انسجام وتوافق...

الشاروبيم يسبِّحون تسابيحهم المفرحة، والسيرافيم يمجِّدونه.

الكل اتَّحد معًا لتكريم ذلك العيد المجيد، ناظرين الإله على الأرض، والإنسان في السماء؛ الذي من فوق يسكن هنا على الأرض لأجل خلاصنا، والإنسان الذي هو تحت يرتفع إلى فوق بالمراحم الإلهيّة!

هوذا "بيت لحم" تضاهي السماء، فتسمع فيها أصوات تسبيح الملائكة من الكواكب، وبدلاً من الشمس أشرق شمس البر في كل جانب[1].

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

❖ اليوم ابتهج الحرَّاس، لأن الساهر (دا ٤: ١٣) جاء لإيقاظنا.

من يستطيع أن ينام الليلة التي فيها العالم كله ساهرًا؟!

لقد جلب آدم النُعاس على العالم بالخطيّة، لكن الساهر نزل لإيقاظنا من نوم الخطيّة العميق.

❖ الليلة اتَّحد الحرَّاس العلويُّون مع الحرَّاس الساهرين (الأرضيِّين)، فقد جاء "الحارس" ليخلق حُرَّاسًا وسط الخليقة!

هوذا، فإنَّ الحرَّاس الساهرين قد صاروا زملاء الحرَّاس العلويِّين. انشدوا بالتسبيح مع السيرافيم!

طوبى لمن يصير قيثارة لتسبيحك، فإنَّ نعمتك تكون هي مكافأته!

❖ لقد نطق الحراس العلويُّون بالسلام للحراس الساهرين.

لقد جاء الحراس العلويُّون يعلنون البشائر المفرحة للساهرين!...

لقد امتزج الحرَّاس بالحرَّاس، وفرح الكل لأن العالم جاء إلى الحياة![2]

القدِّيس مار أفرآم السرياني

هكذا أرسل الرب ملاكه يبشِّر الرعاة الحارسين بالفرح العظيم، "**لجميع الشعب**"، ولم يكن هذا الملاك ناقلاً للرسالة فحسب، إنما كان شريكًا مع البشريّة في فرحهم هو وجميع الطغمات السمائيّة، إذ انفتحت السماء لتنزل جوقة من الملائكة تشاركنا بهجتنا الروحيّة. يقول الإنجيل:

"**وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي**

---

[1] *Sunday Sermons of the Great Fathers, vo.l 1, p 110.*

[2] *On Nativity 1,14.*

مسبِّحين الله وقائلين:

المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام

وبالناس المسرة (الإرادة الصالحة)" [١٣-١٤].

❖ "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبالناس الإرادة الصالحة". في السماء (الأعالي) لا توجد خطيّة إنما يوجد تمجيد وتسبيح دائم وترنُّم بغير ملل، أما على الأرض حيث ملك العصيان وتسلَّط النزاع والانقسام، فصارت الحاجة ماسة إلى السلام الذي يُقتنى بالصلاة، هذا الذي لا يحل بكل الناس وإنما بذوي الإرادة الصالحة[1].

القدِّيس جيروم

❖ ذكر ظهور الجند السماوي الذين تبعوا رئيس الجند؛ ولمن يرسل الملائكة الكرامة إلا لربِّهم كما قيل: "سبِّحوا الرب من الأعالي"؟!

القدِّيس أمبروسيوس

❖ إن أردت أن تتعلَّم شيئًا من الشاروبيم أو السيرافيم فلتسمع أنشودة قداسته السريّة، فإنَّ السماء والأرض مملوءتان من مجده (إش ٦: ٣)[2].

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

لقد سحبت هذه الأنشودة الملائكيّة نظر الكنيسة فاشتاقت أن تسبِّح بها مع الجند السماوي، لهذا استخدمت في صلاة باكر كما جاء في "**دساتير الرسل**[3]"، ولا زلنا نستخدمها في تسبحة باكر، فنبدأ يومنا بالتهليل مع الملائكة من أجل عمله الفائق خلال تجسّده الإلهي.

علّق **القدِّيس أغسطينوس** كثيرًا على تعبير "**وبالناس الإرادة الصالحة**"، مؤكدًا تقديس الله للحرِّية الإنسانيّة، ليكون لنا الإرادة الصالحة عن اختيار لا عن قسْرٍ[4]، وفي موضع آخر يقول: [البرّ ينتمي للإرادة الصالحة[5].]

إذ مضت الملائكة تشاور الرجال معًا منطلقين بشوق وبسرعة [١٦] ليلتقوا بهذا المولود العجيب. جاءوا يشهدون بما قيل لهم عنه، فصاروا كارزين به، إذ قيل:

---

[1] *EP. 75:1.*
[2] *On Ioan. hom 15:1.*
[3] *Const. Apost. 7:5.*
[4] *On Grace &Free will 4.*
[5] *On Trinity 13:13:17.*

"**وكل الذين سمعوا تعجَّبوا ممَّا قيل لهم من الرعاة**" [١٨].

يقول **القدِّيس أمبروسيوس**: [أسرع الرعاة في البحث عن يسوع بلا تراخٍ، فقد آمن الرعاة بكلمات الملاك...] ويقدَّم لنا **القدِّيس مار أفرآم** صورة مُبهجة للقاء الرعاة بالطفل الراعي، إذ يقول:

[جاء الرعاة حاملين أفضل الهدايا من قطعانهم: لبنًا لذيذًا ولحمًا طازجًا وتسبيحًا لائقًا... أعطوا اللحم ليوسف، واللبن لمريم، والتسبيح للابن!

أحضروا حملاً رضيعًا، وقدَّموه لخروف الفصح!

قدَّموا بكرًا للابن البكر، وضحيّة للضحيّة، وحملاً زمنيًا للحمل الحقيقي.

إنه لمنظر جميل أن ترى الحمل يُقدَّم إليه الحمل!...

اقترب الرعاة منه وسجدوا له ومعهم عصِيِّهم. حيُّوه بالسلام، قائلين: السلام يا رئيس السلام. هوذا عصا موسى تسبِّح عصاك يا راعي الجميع، لأن موسى يسبِّح لك. مع أن خرافه قد صارت ذئابًا، وقطيعه كما لو صار تنِّينًا!

أنت الذي يسبِّحك الرعاة، إذ صالحت الذئاب والحملان في الحظيرة[1]!]

تأثَّرت جدًا القدِّيسة مريم بهذا اللقاء، وكما يقول الإنجيلي: "**وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذه الكلمات متفكِّرة به في قلبها**" [١٩]. ويعلّق **القدِّيس أمبروسيوس** على ذلك بقول: [من كلمات الرعاة تحصد مريم عناصر إيمانها.] كما يقول: [إن كانت مريم قد تعلَّمت في مدرسة الرعاة، فلماذا ترفض أنت أن تتعلَّم في مدرسة الكهنة، وإن كانت مريم قد حفظت السرّ... فلماذا تريد أنت التعليم أكثر من الصمت؟]

٣. ختان السيِّد

في دراستنا لسفر التكوين رأينا التزام كل ذكر ابن لإبراهيم أن يُختتن، علامة العهد المقدَّس مع الله ودخوله إلى العضويّة في الجماعة المقدَّسة (تك ١٥). وكل من لا يُختتن تُنزع نفسه من وسط الشعب المقدَّس. لكن إذ جاء كلمة الله متجسّدًا لم يكن محتاجًا للختان لنفعٍ خاص به، وإنما وقد قبِل أن ينحني بإرادته كصديقٍ حقيقيٍ لنا، خاضعًا مثلنا تحت الناموس (غل ٤: ٤) يرفعنا من تحت الناموس، إذ هو وحده غير الكاسر للناموس. إذن ختان السيِّد هو خطوة جديدة يسلكها الرب في طريق الصليب والإخلاء، بخضوعه للناموس من أجلنا، مكمِّلاً كل برٍّ (مت ٣: ١٥).

فيما يلي تعليقات بعض الآباء على ختان السيِّد:

---

[1] *On Nativity 5.*

❖ خُتن الطفل الذي تكلَّم عنه إشعياء: "لأنه يولد لنا ولد ونُعطى ابنًا" (إش ٩: ٦)، وقد صار تحت الناموس ليعتق الذين تحت الناموس (١ كو ٩: ٥).

القدِّيس أمبروسيوس

❖ الآن نجده مطيعًا لناموس موسى، وبعبارة أخرى نجد الله المشرِّع ينفِّذ القانون الذي شاء فسنَّه! أو كما يقول الحكيم بولس: "لما كنَّا قاصرين كنَّا مُستعبَدين تحت أركان العالم، ولكن لما جاء مِلء الزمان أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة تحت الناموس ليفتدي الذين تحت الناموس لننال التبنِّي" (غل ٤: ٣-٥).

فالمسيح إذن افتدانا من لعنة الناموس نحن الذين كنَّا عبيدًا للناموس، وأظهرنا عجزًا تامًا في العمل بشرائعه.

وكيف افتدانا؟... بحفظه وصايا الناموس. وبعبارة أخرى أطاع المسيح الفادي عِوضًا عنَّا الله الآب، إطاعة تامة، كما هو مكتوب: "لأنه كما بمعصيّة الإنسان الواحد جُعل الكثيرون خطاة، هكذا أيضًا بإطاعة الواحد سيُجعل الكثيرون أبرارًا" (رو ٥: ١٩).

سلَّم المسيح نفسه للناموس أُسوَة بنا، لأنه يليق به أن يكمِّل كل برّ، واتَّخذ صورة عبدٍ وأصبح واحدًا منَّا نحن الذين بطبيعتنا تحت نير الناموس، بل دفع نصف الشاقل، وهو المقدار الذي فرضته الحكومة الرومانيّة على أفراد الشعب...

مع أن المسيح هو ابن الله، ولكن لا مفر من دفع هذا المبلغ، لأنه رضيَ أن يتَّخذ صورتنا...

فإذا ما رأيت المسيح يُطيع الناموس فلا تتألّم ولا تضع المسيح الحُر في زمرة العبيد الأرِقَّاء، بل فكّر في عمق السرّ العظيم، سرّ الفداء والخلاص!

ترون أنه خُتن في اليوم الثامن، وهو اليوم الذي عُيِّن للاختتان الجسدي طبقًا للناموس، وقد سُمِّيَ الفادي "يسوع"، ومعنى هذه الكلمة "مخلِّص" الشعب[1]!

القدِّيس كيرلس الكبير

٤. تقديم ذبيحة

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:**

[1] الحب الإلهي، ١٩٦٧، ص ٢٦٩، ٢٧٠.

[وبعد ختان المسيح انتظرت مريم يوم تطهيرها، وعند تمام الأربعين يومًا من الميلاد حملت أورشليم السيِّد المسيح، الله الكلمة، الذي يجلس عن يمين الآب. وهناك مثَّل في الحضرة الإلهيّة على صورة إنسان كما نمثل نحن، وطبقًا للناموس أُعتبِر بكرًا، فقد اعترف الناموس حتى قبل تجسّد الفادي بمركز البكر الممتاز فكان يُعتبر مقدَّسًا ويُكرَّس لله ويقدِّم ذبيحة للعزَّة الإلهيّة. حقًا ما أعظم وأعجب سرّ الخلاص والفداء: "يا لعمق غِنى الله وحكمته وعلمه" (رو ١١: ٣٣). إن الذي في حضن الآب، ذلك الابن القدّوس الذي يشارك الآب في العرش السمائي والذي به خُلقت الأشياء بأسرها، يخضع لما تتطلَّبه الطبيعة البشريّة، ويقدَّم الذبيحة لأبيه الإله العظيم، وهو الذي تعبده الخليقة طُرًا، وتمجّده مع أبيه السماوي كل حين!

وماذا كانت تقدمة المسيح؟ قضى الناموس أن كل بكر يقدِّم ذبيحة هي "زوج يمام أو فرخا حمام". وما الذي يشير إليه اليمام والحمام؟ تعالوا معي ندرس هذه الإشارة.

إن اليمام أكثر طيور الحقل جلبة وضوضاء، بينما الحمام طائر وديع هادئ. كان الفادي كذلك، فقد أظهر لنا منتهى اللطف والرحمة، وكان أيضًا كيمامة يسير في كل مكان ليملأه عطفًا ورقَّة وبركة وعزاء، فإنَّه مكتوب في سفر نشيد الأناشيد "صوت اليمامة سُمع في أرضنا" (نش ٢: ١٢). فالمسيح اسمعنا كلمة الإنجيل وهي كلمة الخلاص للعالم أجمع.

قُدِّم اليمام والحمام ذبيحة إذن كما أن المسيح الابن مثَّل أمام الله الآب في الهيكل، فكنت ترى في موضع واحد الرمز والحقيقة.

قدَّم المسيح نفسه رائحة زكيّة عطرة لكي يقدِّمنا نحن إلى الله الآب، وبذلك محا العداء الذي استُحكِمَت حلقاته بين الإنسان والخالق على أثر تعدِّي آدم على شريعة الله العظيم، ونزع سلطان الخطيّة الذي استعبدنا جميعًا، فإنَّنا نحن الذين كنَّا نصرخ في الزمن القديم، كل منَّا ينادي الله قائلاً: "التفت إليَّ وارحمني"[١] (مز ٢٥: ١٦).]

ويقول **القدِّيس يعقوب السروجي:**

[أُعطيَ الناموس لموسى على الجبل مع أبيه، وأتى ليكمِّل الترتيب الذي علم بأقنومه.

أتى للختان لكي لا يكفُر أحد بتأنُّسِه، وأتى بالذبيحة ليُري أنه ليس غريبًا عنَّا.

تقدَّم باليمام الذي صاغ رمزه!

[١] عظة ٣.

حملت مريم قابل الكل مع قربانه، ليأتي بالذبيحة لهيكل القدس حسب الناموس. حمل يوسف الفراخ، وجاء من أجل الصبي، ولبيت القدس صعد ليقدِّم كالناموسي[1].]

ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:**

[هذا هو معنى المكتوب: "إن كل ذكر فاتح رحم يدعى قدِّوسًا للرب" (خر ١٣: ١٢). لقد كانت كلمات الشريعة رمزًا لثمرة بطن العذراء القدِّوس الحقيقي الذي بلا دنس، يؤيِّد ذلك كلمات الملاك: "القدِّوس المولود منك يُدعى ابن الله" (لو ١: ٣٥). فالعذراء لم تحبل بزرعٍ بشريٍ، بل من الروح القدس الذي حلّ فيها وقدّسها. والرب يسوع هو الوحيد الكُلي القداسة بين المولودين من النساء...

ولكن كيف يمكننا أن ندعو كل ذكر قدِّوسًا بينما نلاحظ أن كثيرين منهم كانوا أشرارًا؟! هل كان آخاب قدِّوسًا؟... لكن هذا هو القدِّوس الذي فيه تتحقَّق الأسرار التي رمزت إليها الشريعة، ألا وهو المخلِّص المنتظر الذي به وحده يمكن للكنيسة المقدَّسة البتول أن تلد شعبًا لله برحم مفتوح ولميراث بلا دنس، هذا الذي وحده خرج من أحشاء العذراء.]

إذن إذ قدَّمت العذراء الابن البكر قدِّوسًا للرب، إنما قدَّمت ذاك الذي من أجله جعلت الشريعة كل ذَكَر فاتح رحم قدِّوسًا كرمزٍ له.

٥. تسبحة سمعان الشيخ

تتلخَّص قصَّة سمعان الشيخ كما وردت في التقليد الكنسي في أنه كان أحد الاثنين وسبعين شيخًا من اليهود الذي طلب منهم بطليموس ترجمة التوراة إلى اليونانيّة، والتي سُمِّيت بالترجمة السبعينيّة. قيل أنه أثناء الترجمة أراد أن يستعيض كلمة "عذراء" في نبوَّة إشعياء النبي: "ها العذراء تحبل..." بكلمة "فتاة"، إذ تشكَّك في الأمر، فظهر له ملاك الرب وأكّد له أنه لن يموت حتى يرى مولود العذراء هذا. وبالفعل إذ أُوحى له الروح القدس حمل الطفل يسوع على يديه وانفتح لسانه بالتسبيح، مشتهيًا أن ينطلق من هذا العالم بعد معاينته بالروح خلاص جميع الشعوب والأمم.

قَدَّمت لنا أحداث الميلاد بالحقيقة صورة مفرحة لصداقة ربنا يسوع مع الجميع، فها عذراء فقيرة تحبل وتلد رمزًا للكنيسة التي تنعم بالعذراويّة الروحيّة خلال اتِّحادها بالعريس البتول فتُنجب أولادًا بتوليِّين روحيًا، والعاقر الشيخة تلد، والكاهن الصامت يسبِّح، والجنين في الأحشاء يرتكض وحَنَّة

[1] ميمر على دخول ربنا الهيكل.

الأرملة تمجِّد الله وسمعان الشيخ البار المتوقِّع تعزيّة إسرائيل يقوده الروح ليحمل صديقه السماوي بين ذراعيه...

اسم "سمعان" يعني "المُستمع" أو "المُطيع" فيشير إلى المؤمنين الطائعين من اليهود الذين طال بهم الزمن مترقِّبين تحقيق النبوّات، والتمتّع بذاك الذي هو مشتهى الأمم. وإذ قادهم الروح القدس إلى الهيكل حملوا السيِّد بين أذرعتهم واشتهوا بصدق أن يخرجوا من العالم بعد ما استراحت قلوبهم من جهة خلاص الشعوب وإعلان مجد الله بين الأمم.

❖ إن كانت امرأة قد لمست ملابسه الخارجيّة (هُدب ثوبه) فشُفيت في الحال، فأي نفع ناله سمعان الذي حمله على ذراعيه وتهلَّل بالفرح؟!

إنه يحمل الطفل الآتي ليحرِّر المأسورين ويخلِّصهم من رباطات الجسد. إنه يعلم أنه لا يوجد من يُخرجه من سجن الجسد مع الوعد بالحياة الأبديّة إلا هذا الطفل الذي بين يديه. إليه وجّه الحديث: "الآن يا سيِّد تطلق عبدك حسب قولك بسلام". لأنه منذ زمان طويل لم أحمل السيِّد المسيح، لم أضمُّه بين ذراعيّ. كنت مسجونًا ولم أستطع أن أفك رباطاتي.

هذه الكلمات لا تخص سمعان وحده، إنما تخص كل البشريّة التي تنتظره...

❖ لم يدخل سمعان الهيكل اِعتباطًا أو محض الصدفة، إنما ذهب منقادًا بروح الله... وأنت أيضًا إن أردت أن تأخذ المسيح وتضمُّه بين ذراعيك وتتأهَّل للانطلاق من السجن جاهد أن يقودك الروح ويدخل بك في هيكل الله. هناك يوجد يسوع، داخل الكنيسة في الهيكل المقام من الحجارة الحيّة[١].

العلامة أوريجينوس

❖ بالتأكيد أكّد برهانًا وحمل شهادة أن لخدام الله سلامًا وحرِّيَّة وراحة هادئة، فعندما ننسحب من زوابع هذا العالم نبلغ ميناء مدينتنا وأمننا الأبدي، عندما يتحقَّق هذا الموت نبلغ الخلود[٢].

الشهيد كبريانوس

❖ سمعان انطلق؛ لقد تحرَّر من عبوديّة الجسد. الفخ انكسر والطير انطلق[٣].

القدِّيس غريغوريوس النيسي

---

[1] *In Luc. hom 15:2,3.*
[2] *On mortality 3.*
[3] *Funeral Oration on Meletius.*

❖ الآن إذ حمله سمعان الكاهن على ذراعيه ليقدَّمه أمام الله أدرك أنه ليس هو الذي يقدَّمه، بل سمعان يُقدِّم لله بواسطته. فالابن لا يقدِّمه العبد لأبيه، إنما بالحري الابن يقدِّم العبد لربِّه... الذي ينطلق لله بسلام إنما يُقدِّم تقدِمة للرب[1]!

القدِّيس مار أفرآم السرياني

❖ حُمل المسيح إذن إلى الهيكل وهو بعد طفل يُحضَن، وما وقع نظر سمعان المغبوط على الطفل يسوع حتى أخذه على ذراعيه، وبارك الله وقال: "**الآن تطلق عبدك يا سيِّد حسب قولك بسلام لأن عينيّ قد أبصرت خلاصَك الذي أعددته قدَّام وجه جميع الشعوب، نور إعلان للأمم، ومجدًا لشعبك إسرائيل**". فإنَّ سرّ الفداء كان منذ القدَّم وقبل تكوين العالمين، ولكن لم يُعلن إلا في آخر الزمان فكان نورًا للساكنين في الظلمة، أولئك الذين تملكهم يد الشيطان القويّة "الذين عبدوا المخلوق دون الخالق" (رو ١: ٢٥)، الذين ألّهوا التنِّين مصدر الشرّ والإثم وأطاعوا طغمة الشيَّاطين النجسة وسجدوا لها كما يسجدون للإله الواحد، رغمًا عن كل هذا دعا الله هؤلاء الأقوام إلى نور ابنه الحقيقي، إذ يقول النبي: "أُصفِّر لهم وأجمعهم لأني قد فديتهم ويكثرون كما كثروا، وأزرعهم بين الشعوب فيذكرونني في الأراضي البعيدة" (زك ١٠: ٨). حقًا إن الذين ضلَّوا هم شعب كثير إلا أن الله دعاهم وقبلهم وافتداهم ونالوا كضمان للسلام نعمة التبنِّي بيسوع المسيح.

زُرع الرسل الأطهار بين الشعوب وماذا كانت النتيجة؟ اقترب كل من كان بعيدًا إلى العرش الإلهي، حتى أن بولس الرسول يبعث برسالة إليهم يقول فيها: "الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح" (أف ٢: ١٣). وباقتراب هؤلاء الناس إلى المسيح سيتمجَّدون به كما وعدهم الله الآب.

يقول: "وأقوِّيهم بالرب فيسلكون باسمه" (زك ١٠: ١٢)، ويقول المرنِّم المغبوط في هذا الصدد: "يارب بنور وجهك يسلكون، باسمك يبتهجون اليوم كله، وبعد ذلك يرتفعون" (مز ٨٩: ١٥-١٦) ويتضرَّع النبي إرميا إلى الرب، فيقول: "يا رب عزِّي وحصْني وملجأي في يوم الضيق. إليك تأتي الأمم من أطراف الأرض ويقولون إنما ورث آباؤنا كذبًا وأباطيل وما لا منفعة فيه" (إر ١٦: ١٩).

كان المسيح إذن نورًا ومجدًا لإسرائيل، ومع أن بعض اليهود ضلُّوا الطريق وجهلوا الكتب وأنكروا المسيح، إلا أن قومًا منهم خلصوا وتمجَّدوا بيسوع وكان على رأسهم الرسل المقدَّسون الذين أضاءوا بنورهم مصباح الإنجيل في أقاصي الأرض.

---

[1] *On Our Lord 48.*

والمسيح مجد إسرائيل أيضًا لأنه يُنسب إليهم حسب الجسد مع أنه "على الكل إلهًا مباركًا إلى الأبد[1]" (رو ٩: ٥).

القدِّيس كيرلس الكبير

ويلاحظ في تسبحة سمعان الشيخ الآتي:

أولاً: يعلن عموميّة الخلاص وجامعيّة الكنيسة، فإنّ كان شعبه إسرائيل الذي تجسّد منه وحلّ في وسطه قد تمجَّد، وقبِل بعض اليهود الإيمان به خاصة الاثنى عشر رسولاً، لكن إسرائيل الجديد ضم من كل الأمم، إذ أعلن انفتاح ذراعيّ الله بالحب العملي على الصليب لأجل كل الأمم، إذ يقول:

"لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك (صليبك)،

الذي أعددته قدَّام وجه جميع الشعوب.

نور إعلان للأمم" [٣٠-٣٢].

هذه النظرة الروحيّة تلقَّفتها الكنيسة بفرح، فقد قيل:

❖ علّق على الشجرة ذاك الذي يجمع الكل فيه.

❖ إذ فقدناه خلال شجرة، فبالشجرة أيضًا أُعلن للجميع، مظهرًا نفسه الارتفاع والطول والعرض والعمق، وكما أخبرنا أحد السالفين أنه أعاد الاتِّحاد بين الشعبين في الله خلال انبساط يديه. فقد كانت هناك يدان إذ وُجد شعبان منتشران إلى أقاصي الأرض، ووُجدت رأس واحدة، إذ يوجد إله واحد[2].

القدِّيس إيريناؤس

❖ الصليب هو طريق رباط المسكونة.

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ الصليب هو سُلم يعقوب، هذه الشجرة ذات الأبعاد السماويّة ارتفعت من الأرض إلى السماء، أقامت ذاتها غرسًا أبديًا بين السماء والأرض، لكي ترفع المسكونة... وتضم معًا أنواع مختلفة من الطبيعة البشريّة.

القدِّيس هيبوليتس

---

[1] عظة ٤.

[2] *Daniélou: A Hist. of Early Christian Doctrine, ch 19; Adv. Haer. 5:1.*

إن كانت الكنيسة في بهجتها بالتسبحة الملائكيّة (المجد لله في الأعالي...) صارت تترنَّم بها كل صباح، فإنَّ في فرحها بهذه التسبحة التي لسمعان الشيخ (الآن يا سيِّد تُطلق عبدك...) صارت تتغنَّى بها في تسبحة نصف الليل كما في تسبحة النوم.

ثانيًا: إذ سمع يوسف والقدِّيسة مريم هذه التسبحة كانا يتعجَّبان، لأنه ما أعلنه لهما الله عند البشارة صار معلنًا لسمعان الكاهن والشيخ بصورة واضحة. وإذ تمتَّعا ببركة سمعان الكاهن، وجَّه هذا الشيخ حديثه للقدِّيسة مريم، قائلاً: "**ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل ولعلامة تقاوم**" [٣٤].

إن كان الله الآب قد أرسل ابنه لخلاص العالم (يو ٣: ١٦) خلال علامة الصليب، لكن ليس الكل يقبل هذه العلامة ويتجاوب مع محبَّة الله الفائقة، بل يقاوم البعض الصليب ويتعثَّرون فيه. هذا ومن ناحية أخرى فإنَّ سقوط وقيام الكثيرين يشير إلى سقوط ما هو شرّ في حياتنا لقيام ملكوت الله فينا، فعمل السيِّد المسيح أن يهدم الإنسان القديم ليُقيم الإنسان الجديد؛ يقتلع الشوك ليغرس في داخلنا شجرة الحياة.

هذا الفكر من جهة سقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، أي سقوط الجاحدين وقيام المؤمنين، وسقوط الشرّ فينا لقيام برّ الله داخلنا قد وضَّح في كتابات الآباء، إذ جاء فيها:

❖ "لأننا رائحة المسيح الزكيّة لله في الذين يخلُصون وفي الذين يهلكون" (٢ كو ٢: ١٥). يقول سواء في الذين يخلُصون أو الذين يهلِكون يستمر الإنجيل في عمله اللائق؛ وكما أن النور وإن كان يحسب عَمَى بالنسبة للضعيف لكنه يبقى نورًا... والعسل في فم المرضى مُرّ لكنه في طبعه حلو؛ هكذا للإنجيل رائحته الزكيّة حتى وإن كان البعض يهلك بسبب عدم إيمانهم به، لأنه ليس هو السبب في هلاكهم إنما ضلالهم هو السبب... بالمخلِّص يسقط ويقوم كثيرون لكنه يبقى هو المخلِّص حتى وإن هلك ربوات... فهو لا يزال مستمرًا في تقديم الشفاء[1].

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

❖ هوذا سمعان يتنبَّأ بدوره أن ربَّنا يسوع المسيح قد جاء لسقوط وقيام كثيرين حتى يجازي أعمال الأبرار والأشرار، ويعطي كل واحد حسب أعماله كديّان حقيقي وعادل، إما بالعذاب أو بالحياة.

القدِّيس أمبروسيوس

---

[1] *In 2 Cor. hom 5:2.*

❖ في رأيي أن الرب هو لسقوط وقيام الكثيرين (لو ١: ٣٤)، ليس لأن البعض يسقط والبعض الآخر يقوم، إنما يسقط فينا ما هو شرّ ويقيم فينا ما هو أفضل. مجيء الرب محطَّم للشهوات الجسديّة ومقيم لسمات النفس الصالحة، وكما يقول بولس: "حينما أنا ضعيف فحينئذٍ أنا قوي" (٢ كو ١٢: ١٠). في الشخص نفسه يوجد ما هو ضعيف وما هو قوي، إذ يكون ضعيفًا في الجسد وقويًا في الروح...

الذي يقوم تسقط خطيَّته وتموت بينما يحيا في البرّ ويقوم، هذا هو ما تمنحه إيَّانا النِعم الخاصة بإيماننا بالمسيح.

ليسقط فينا ما هو شرِّير لكي يجد ما هو أفضل الفرصة ليقوم! فإن لم يسقط الزنا عنَّا لا تقوم الطهارة فينا. وإن لم يتحطَّم فينا ما هو مخالف للعقل لن يبلغ عقلنا إلى الكمال. هذا هو معنى "لسقوط وقيام كثيرين"[١].

القدِّيس باسيليوس الكبير

إذن السيِّد المسيح الذي هو حجر الزاويّة المختار الكريم الذي أقامه الآب في صهيون، لكي من يؤمن به لن يخزى (رو ٢: ٩)، إذ سقط علي غير المؤمن سحقه، وإن سقط غير المؤمن عليه يترضَّض (لو ٢٠: ١٨). هذا الحجر الكريم يُعلن في صهيوننا الداخليّة، فيحطِّم فينا كل فسادٍ ويسحق كل شرٍ، لكي يقوم بناء الله الداخلي في استقامة وبرّ. إنه الحجر الذي لا يقوم علي أساس خاطئ، لذلك به "يسقط ويقوم كثيرون"!

وحينما نتحدّث عن السيِّد المسيح إنما نتحدّث عنه بكونه "المصلوب"، إذ يكمل سمعان الشيخ حديثه قائلاً: "**لعلامة تقاوم**"، وكما يقول **القدِّيس باسيليوس الكبير**: [نفهم بلياقة العلامة في الكتاب المقدَّس أنها الصليب[٢].] **ويقول القدِّيس كيرلس الكبير**: [أما العلامة التي تُقاوم فيقصد بها علامة الصليب، إذ يقول الحكيم بولس: "لكننا نحن نكرز بالمسيح مصلوبًا لليهود ولليونانيِّين جهالة، وأما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوّة الله" (١ كو ١: ١٨)، فترون أن علامة الصليب عند قوم جهالة وعند آخرين رحمة وحياة.]

---

[1] *Epistle, 260:7.*
[2] *Epistle, 260:8.*

مرة أخرى يرى **القدِّيس باسيليوس الكبير**[1] أن العلامة التي قاومها الهراطقة هي "حقيقة تجسُّد المسيح" فالبعض قالوا أنه جسد سماوي منكرين حقيقة التجسُّد وذلك كالغنوسيِّين[2]، والبعض قال أنه جسد موجود قبل كل الدهور، وآخرون قالوا أن المسيح بدأ وجوده من مريم، أي أنكروا لاهوته.

ثالثًا: إن كان السيِّد المسيح الذي جاء لخلاص العالم قد صار موضع مقاومة، فإنَّ القدِّيسة مريم تشارك ابنها الصليب بكونها تمثِّل الكنيسة، التي تحمل صورة عريسها المصلوب المقاوَم. إذ يقول: "**وأنتِ أيضًا يجوز في نفسك سيف. لتعلَن أفكار من قلوب كثيرين**" [٣٥]. وكما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [يُراد بالسيف الألم الشديد الذي لحق بمريم وهي ترى مولودها مصلوبًا، ولا تعلم بالكليّة أن ابنها أقوى من الموت، وأنه لابد من قيامته من القبر، ولا عجب أن جهلت العذراء هذه الحقيقة فقد جهلها أيضًا التلاميذ المقدَّسون، فلو لم يضع توما يده في جنب المسيح بعد قيامته، ويجس بآثار المسامير في جسم يسوع لما صدق أن سيِّده قام بعد الموت.] وجاء في قطع الساعة التاسعة: [عندما نظرت الوالدة الحمل والراعي مخلِّص العالم علي الصليب معلَّقا، قالت وهي باكية: أما العالم فيفرح لقبوله الخلاص، وأما أحشائي فتلتهب عند نظري إلى صلبوتك الذي أنت صابر عليه من أجل الكل يا ابني وإلهي.]

يقدَّم لنا **القدِّيس أمبروسيوس** مفهومًا آخر للسيف الذي يجوز في نفس القدِّيسة مريم، ألا وهو "كلمة الله" التي يليق بنا أن نتقبَّلها في أعماقنا كسيفٍ ذي حدين (عب ٤: ١٢)، تفصل الشرّ عن الخير الذي يقوم... [لم يذكر الكتاب ولا التاريخ أن مريم استشهدت، غير أن السيف المادي لا يجوز في الروح بل في الجسد، إنما كلمة الله قويّة وفعّالة وأمضى من كل سيف ذي حدِّين، وخارقة إلى النفس والروح (عب ٤: ١٢).]

رابعًا: ماذا يعني بقوله "**لتُعلن أفكار من قلوب كثيرة**" [٣٥]؟ إن كان السيف – سواء الألم أو كلمة الله – يجتاز نفس القدِّيسة مريم، فإنَّ هذا يفضح فكر الكثيرين وقلوبهم، مثل الكتبة والفرِّيسيِّين الذين يتظاهروا بحفظ الناموس والغيرة علي الشريعة، فإنَّهم أمام الله مع القدِّيسة مريم تتفضح حقيقتهم الداخليّة، ويظهر رياءهم الباطل.

٦. تسبحة حنة بنت فنوئيل

[1] *Epistle, 260:8.*
[2] *Fr. Malaty. St. Mary in the Orthodox Concept.*

كان يلزم أن تفرح كل الفئات بالطفل العجيب، فيقدِّم لنا الإنجيلي لوقا حنَّة الأرملة كنبيَّة تسبِّح له، وكأنها تقوم بهذا الدور نيابة عن فئة الأرامل.

إن كان سمعان يحضر إلى الهيكل ككاهنٍ ليخدم في نوبته، فإنَّ هذه الأرملة كانت ملازمة للهيكل لا تفارقه "**عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهارًا**" [٣٧]، حوالي ٨٤ عامًا. إذ رأت الطفل "**وقفت**" [٣٨] بالرغم من شيخوختها إذ ناهزت المائة عام، وانطلق لسانها بالتسبيح، وانفتح فمها بروح النبوَّة.

كتب **القدِّيس جيروم** إلى الأرملة فيوريا *Furia*، مقدِّما لها حنَّة مثلاً حيًا، إذ يقول:

[أتريدين أن تعرفي ما يجب أن تكون عليه الأرامل؟ لنقرأ الإنجيل بحسب لوقا، فإنَّه يقول: "**وكانت نبيّة حنَّة بنت فنوئيل من سبط أشير**". فإنَّ كلمة "حنَّة" تعني "نعمة (حنان الله)"، وفنوئيل في لساننا يعني "وجه الله"، "وأشير" يمكن ترجمتها "غنى" أو "طوباويّة"، وكانت منذ صباها قد تحمَّلت الترمُّل لمدة ٨٤ عامًا لا تفارق الهيكل، عابدة بأصوام وطلبات ليلاً ونهارًا لذلك نالت النعمة روحيًا وتقبَّلت لقب "ابنة وجه الله" وتمتَّعت بنصيب في "الطوباويّة والغنى" إذ تنسب له[١].]

٧.العودة إلى الناصرة

"ولما أكملوا كل شيء حسب ناموس الرب،
رجعوا إلى الجليل إلى مدينتهم الناصرة.
وكان الصبي ينمو ويتقوَّى بالروح ممتلئًا حكمة،
وكانت نعمة الله عليه" [٣٩-٤٠].

إن كان الحبل بالسيِّد المسيح وميلاده قد أفرح السماء والأرض؛ ابتهج السمائيُّون وانطلقوا إلى الأرض يطوِّبونها، وفرح البشر من بسطاء كالرعاة وحكماء كالمجوس وكهنة كزكريَّا وسمعان الشيخ، ونساء متزوِّجات كأليصابات وعذارى كمريم وأرامل كحنَّة بنت فنوئيل وأطفال كيوحنا المعمدان الخ. فإنَّه بعد دخوله الهيكل في سن الأربعين يومًا عاد إلى الناصرة في جوّ من الهدوء الشديد ليُمارس الحياة البشريّة كواحدٍ منَّا؛ وكما يقول **القدِّيس يوحنا ذهبي الفم**[٢] لم يردْ أن يُظهر معجزات في طفولته وصبوَّته حتى بدأ الخدمة لكي يمارس حياتنا معلنًا حقيقة إخلائه. يؤكِّد هذا ما قاله الإنجيلي يوحنا في تحويل الماء خمرًا في عرس قانا الجليل، معلنًا أنها أول آية صنعها يسوع (يو ٣).

---

[1] *Ep. 54:16.*
[2] *In Ioan. hom 21:1.*

لقد حمل ناسوتنا، فصار مثلنا بالرغم من عدم انفصاله قط عن لاهوته. بسبب هذا الناسوت قيل: "**وكان الصبي ينمو ويتقوّى بالروح ممتلئًا حكمة، وكانت نعمة الله عليه**" [٤٠]. وفيما يلي بعض التعليقات للآباء علي هذه العبارة وأيضًا علي قوله: "**وأما يسوع فكان يتقدَّم في الحكمة والنعمة عند الله والناس**" [٥٢].

❖ يشير القول "**يتقدَّم الصبي في الحكمة والقامة والنعمة**" إلى طبيعته البشريّة، ولذلك فإنَّي أرجو أن تفكِّروا في عمق نظريّة الفداء، فقد تحمَّل الله الكلمة أن يولد إنسانًا، مع أنه بطبيعته الإلهيّة لا بداية له ولا يحدّه زمان، فهو الإله الكامل الذي قبل أن يخضع لقانون النمو الجسماني، ويتقدَّم في الحكمة وهو إله الحكمة، فانظر إلى المسيح الآن وقد أصبح مثلنا فصار الله إنسانًا والغني فقيرًا والعالي ذليلاً. إن الله الكلمة أخلى ما فيه بقبوله الطبيعة البشريّة. كان لله الكلمة أن يتَّخذ جسدًا من امرأة، فيصبح بمجرد ولادته رجلاً نامي الأعضاء كامل الأنسجة، ولكن لو حدث ذلك لكان من قبيل اللعب التخيُّلي، ولذلك سار الصبي علي قوانين الطبيعة البشريّة فكان يتقدَّم في الحكمة والقامة والنعمة.

ولكن لا تتألّموا إذ سُئلت: "**كيف يتقدَّم الله وينمو؟** وكيف يمكن الله الذي يهب الملائكة والناس نعمة يُمنح حكمة ونعمة؟

أرجو أن تفكِّروا في العبارات التي وردت في الإنجيل توضيحًا لهذا السرّ العجيب، فإنَّ الإنجيلي الحكيم لم يُشر بآيتيه السابقتين إلى الكلمة وهي الطبيعة الإلهيّة، بل أشار في غير لبس أو غموض إلى المسيح، وقد وُلد إنسانًا من امرأة، واتَّخذ صورتنا، وصار صبيًا بشريًا. في هذه الحالة يقول الإنجيلي عنه "**إنه كان يتقدَّم في الحكمة والقامة والنعمة**"، فترون أن جسم الصبي نما طبقًا للنواميس الطبيعيّة، وعقله تقدَّم ماشيًا مع النمو الجسماني.

نما الجسم في القامة، وتقدَّمت النفس في الحكمة، أما الله فبطبيعته الإلهيّة كامل لأنه مصدر الحكمة والكمال[1].]

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ كلمات الإنجيل تصف بوضوح ربَّنا أنه ينمو بخصوص إنسانيَّته[2].

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

---

[1] عظة ٥.

[2] *Adv. Eunomius 6:4.*

❖ لقد حّل اللاهوت في جسم بشري... بل وفي نفس بشريّة أيضًا... "كان ينمو"... لقد أخلي ذاته وأخذ شكل العبد (في ٢: ٧) ...

وبالقدرة التي بها أخلى ذاته نما أيضًا... فظهر ضعيفًا لأنه استطاع في حبه أن يأخذ جسدًا ضعيفًا واستطاع أيضًا أن ينمو ويتقوّى...

أخلى ابن الله ذاته، وبنفس القُدرة امتلأ حكمة وكانت نعمة الله عليه...

امتلأ نعمة لا في شبابه، إنما كان يُعلِّم الجموع وهو بعد صبي... كان عجيبًا في كل شيء، عجيبًا في صبُوَّته فامتلأ بملء حكمة الله[١].

العلامة أوريجينوس

❖ يضيف النص: "**وكانت أُمُّه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها**" [٥١]. لقد عرفت مريم أن هناك أشياء تفوق ما للإنسان الطبيعي فحفِظت في قلبها كل كلمات ابنها... كانت تراه ينمو ويتقوّى في النعمة أمام الله والناس... كان يسوع ينمو في الحكمة، وكان يظهر أكثر حكمة من سنة إلى أخرى[٢]...

العلامة أوريجينوس

❖ التقدَّم هنا خاص بالجسد، إذ هو يتقدَّم، فيه يتقدَّم إعلان اللاهوت للذين يرونه، وإذ كان اللاهوت يُعلن أكثر فأكثر لذلك كانت نعمته تتزايد في أعين كل البشر. كطفلٍ حُمل إلى الهيكل، إذ صار صبيًا بقي هناك يناقش الكهنة في الشريعة، وإذ نما جسده أعلن الكلمة ذاته فيه. لذلك اعترف به بطرس ثم البقيّة: "أنت هو ابن الله" (مت ١٦: ١٦؛ ٢٧: ٥٤)... نمو الحكمة هنا لا يعني نمو "الحكمة" ذاته إنما تقدَّم ناسوت في الحكمة (بإعلانها)... لذلك قيل: "الحكمة بَنَت بيتها" (أم ١٩: ١) وأعطت لذاتها نموًا لبيتها[٣].

القديس أثناسيوس الرسولي

٨. يسوع في الهيكل

لم ترو لنا الأناجيل المقدَّسة شيئًا عن شخص السيِّد المسيح منذ عودته من مصر وهو طفل، ربَّما في الثالثة من عمره وحتى بدء الخدمة في سن الثلاثين سوى قصَّة دخوله الهيكل في سن الثانية عشر

---

[1] *In Luc , hom. 19:2.*
[2] *In Luc , hom. 20:6.*
[3] *Disc. against Arians 3:52.*

من عمره. هذه القصة الفريدة تكشف لنا عن صبُوَّة السيِّد المسيح وتقدِّم لنا الكلمات الأولى التي نطق بها السيِّد المسيح في الأناجيل: "**أَلَم تعلَّما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي**"، وهي تكشف لنا عن طاعته وخضوعه لأُمّه القدِّيسة مريم.

ويلاحظ في هذه القصَّة الآتي:

أولاً: أمرت الشريعة أن يذهب كل الرجال اليهود إلى أورشليم في كل سنة ليحتفلوا بعيد الفصح (خر ١٣: ١٧، تث ١٦: ١٦) يقضون هناك ثمانية أيام (عيد الفصح وعيد الفطير معًا)، وكان المسافرون يسيرون على قافلتين، احداهما للنساء في المقدِّمة والثانية للرجال في المؤخِّرة، وكان الصِبيَّان يسيرون إما مع الرجال أو النساء. لذلك فإنَّه إذ اِنقضى اليوم الأول في العودة اِقتربت القافلتان واِلتقى يوسف بمريم كل منهما يسأل الآخر عن الصبي، إذ حسب كل منهما أنه مع الآخر، وقد بقيا يومًا كاملاً يسألان عنه بين الرجال والنساء، وإذ لم يجداه قرَّرا العودة إلى أورشليم حيث قضيا يومًا ثالثًا، لذا يقول النجيلي: "**وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل جالسًا في وسط المعلِّمين، يسمعهم ويسألهم**" [٤٦].

لا نعرف شيئًا عن حديث السيِّد المسيح مع المعلِّمين وهو في الثانية عشر من عمره، لكننا نعرف أن "**كل الذين سمعوا بُهتوا من فهمه وأجوبته**" [٤٧]، وأن القدِّيسة مريم والقدِّيس يوسف إذ "**أبصراه اِندهشا**" [٤٨]. لعلَّه كان يتحدَّث معهم بخصوص الفصح الحقيقي، فيكشف لهم عن الحاجة للانطلاق من خروف الفصح الرمزي إلى الحقيقي، أو كان يحدّثهم عن "العبور" لا من أرض مصر إلى كنعان، بل من الجحيم إلى الفردوس، أو لعلَّه كان يحدّثهم عن الحاجة إلى المسيَّا ويكشف لهم النبوَّات... على أي الأحوال كان يتحدَّث بسلطانٍ، فيُبهت السامعين. بلا شك رأت القدِّيسة مريم عجبًا، حتى يقول الإنجيلي: "**وكانت أُمّة تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها**" [٥١].

حدَّد الإنجيلي أنهما وجداه بعد ثلاثة أيام في الهيكل جالسًا في وسط المعلِّمين [٤٦]، فإنَّ كان رقم ٣ كما رأينا في دراستنا لسفر يشوع تُشير للإيمان بالثالوث القدُّوس، كما تشير لقيامة المسيَّا من الأموات، فإنَّه لا يمكن للكنيسة أن تُلقي بعريسها في هيكله المقدَّس إلا خلال الإيمان الثالوثي، أو التلامس مع عمل الثالوث القدُّوس في حياتها، وخلال خبرة الحياة المُقامة مع المسيَّا. بمعنى آخر لن نستطيع أن نلتقي بالسيِّد وننعم بصداقته الفائقة في مقدَّساته ما لم نتقدَّس بالإيمان الثالوثي، ونحيا بحياته المُقامة فينا!

إن قبِلنا الإيمان الثالوثي عمليًا، فتمعُنًا بأبوَّة الآب، وانفتح قلبنا لفداء الابن، ونلنا شركة روحه القدِّوس، إن صارت لنا الحياة السماويّة المقامة في المسيح نرى السيِّد نفسه في قلبنا كما في هيكله يقود كل مناقشاتنا الداخليّة، يعلمنا ويدربَّنا كمعلمٍ صاحب سلطان، يقود القلب بكل عواطفه، والفكر بكل أبعاده، والجسد بكل أحاسيسه! لنبصره مع أُمّه القدّيسة مريم ونندهش معها من أجل عمله فينا!

ثانيًا: يعلّق **العلامة أوريجينوس** على بحث القدّيسة مريم والقدّيس يوسف عن الصبي يسوع، قائلاً:

[وفي الثانية عشر من عمره بقيَ في أورشليم ولم يعلم أبواه إذ ظنَّاه بين الرفقة... وكانا يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ولكنهما لم يجداه... بحث عنه أبواه، يوسف الذي نزل معه إلى مصر، لم يجده... فإنَّنا لا نجد يسوع ونحن بين الأهل والمعارف حسب الجسد، لا نجده في العائلة الجسديّة... يسوعي لن أجده بين الجموع.

انظر أين وُجد يسوع حتى تأخذ مريم ويوسف معك في البحث عنه فتجده. يقول لنا الإنجيل: وبعد ثلاثة أيام وجداه في الهيكل، لم يجداه إلا في الهيكل، كان جالسًا في وسط المعلِّمين يسمعهم ويسألهم. وأنت أيضًا اِبحث عن يسوع في هيكل الله. اِبحث عنه في الكنيسة. اِبحث عنه عند المعلِّمين الذين لا يبرحون الهيكل. اِبحث عنه هناك فستجده. لكن إن اِدَّعى أحد موهبة التعليم وليس له يسوع فهو معلِّم بالاسم فقط، لا تجد عنده يسوع... إننا نجد يسوع عند المعلِّمين الحقيقيِّين كقول البشير...

الرب يسوع كان يسأل أحيانًا ويجيب أحيانًا، فكان عظيمًا في أسئلته. ونحن نتضرَّع إليه حتى نسمعه يسألنا ويجيبنا...

لنبحث عنه بجهد عظيم مقترنًا بالعذاب، عندئذ نجده، إذ يقول الكتاب: "**هوذا أبوك وأنا كنَّا نطلبك معذَّبين**". لا تبحث عن يسوع في تراخٍ وفتور وتردّد كما يفعل البعض، فإنَّ هؤلاء لا يجدوه[١].]

كما يقول أيضًا:

[لا أعتقد أنهما كانا معذَّبين لاعتقادهم أن الصبي قد فُقد أو مات، فلم يكن ممكنًا لمريم أن تشك هكذا، وهو الذي حُبل به من الروح القدس، وبشَّر به الملاك، وسجد له الرعاة، وحمله سمعان، ولا يمكن أن تنتاب نفس يوسف هذا الفكر، وهو الذي أمره الملاك أن يأخذ الطفل ويهرب به إلى مصر وسمع هذه الكلمات: "لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حُبل به فيها من الروح القدس" (مت ١:

---

[1] *In Luc. Hom 18:3,4.*

٢٠). لا يمكن أن يخَف يوسف على الطفل وهو متيقِّن أنه الله (الكلمة). إذن فعذاب الأبوين وسؤالهما له مغزى آخر قد لا يستتشفُّه القارئ العادي...

لقد بحثا عن يسوع وذُهلا لمجرَّد التفكير أنه ابتعد عنهما، أو تركهما وذهب إلى موضع آخر، أو ربَّما صعد إلى السماء لينزل في الوقت المناسب...

أنت أيضًا إن فقدت ابن الله يومًا ما اِبحث عنه أولاً في الهيكل... اِسرع واِسرع إلى الهيكل هناك تجد يسوع الكلمة والحكمة، أي ابن الله[١]

ثالثًا: يعلّق **القدِّيس أغسطينوس** على كلمات القدِّيسة مريم: "**هوذا أبوك وأنا**" [٤٨]، معلنًا أنها مع ما نالته من كرامة بتجسُّد كلمة الله في أحشائها سلكت بروح التواضع أمام يوسف فقدَّمته عنها قائلة: "**أبوك وأنا**". وهي تعلم أنه ليس من زرعه، لكنها خلال الحب الروحي الذي ملأ العائلة المقدَّسة حسبته أباه وقدَّمته عن نفسها.

رابعًا: أول كلمات نطق بها السيِّد كما جاء في الأناجيل المقدَّسة هي: "**لماذا كنتما تطلباني، ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟!**" [٤٩]. هذه الكلمات تكشف عن طبيعة السيِّد المسيح وعن رسالته كما تحدَّد لنا ملامح السلوك اللائق:

أ. فمن جهة طبيعة السيِّد المسيح، فهو وإن كان لا يتعرَّض على نسبِهِ لمريم ويوسف، إذ قالت له أُمّه: "**هوذا أبوك وأنا كنَّا نطلبك معذَّبين**" [٤٨]، إذ كان يوسف أبًا له حسب الشريعة من أجل التبنِّي وان كان ليس من زرعه، وكانت مريم أُمَّه حسب الجسد، لكنه هو الذي العلي... يؤكِّد علاقته بالآب "ينبغي أن أكون فيما لأبي" معلمنا أنه ابن الله الآب!

من جهة ناسوته ينسب للقدِّيسة مريم لأنها حملته، أخذ منها جسدًا، لكنه لا ينسب جسديًا ليوسف إنما من أجل خدمته له وارتباطه المملوء محبَّة للقدِّيسة مريم إذ قيل:

❖ أطلق الإنجيل لقب "أبواه" على العذراء لأنها حملته ويوسف الذي خدمه[٢].

العلامة أوريجينوس

❖ كما أن مريم دُعيت أمًا ليوحنا في المحبَّة وليس لأنها أنجبته، هكذا دُعي يوسف أبًا للمسيح لا لأنه أنجبه، وإنما لاهتمامه بإعالته وتربيته[٣].

---

[1] *In Luc , hom. 19:4.*
[2] *In Luc , hom. 19:3.*
[3] *Cat. Lect.7:9.*

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ بسبب الأمانة الزوجيّة استحق الاثنان أن يُلقبَّا "والديّ يسوع"، إذ كانا هكذا حسب الذهن والهدف وليس حسب الجسد. فإن كان أحدهما والده في الهدف لكن الآخر أي أُمّه كانت والدته بالجسد أيضًا، وقد دعي الاثنان أبواه حسب تواضعه لا سموُّه، حسب ضعفه (ناسوته) لا حسب لاهوته[١].

القدِّيس أغسطينوس

لكن كلماته مع القدِّيسة مريم تؤكِّد لاهوته، إذ يقول: "**ينبغي أن أكون فيما لأبي**" [٤٩].

❖ هنا يشير المسيح إلى أبيه الحقيقي ويكشف عن ألوهيَّته[٢].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ للمسيح بنوَّتان، واحدة من الآب والأخرى من مريم، الأولى إلهيّة مرتبطة بأبيه، والثانية تمَّت بولادته من مريم إذ تنازل إلينا.

القدِّيس أمبروسيوس

ب. يرى علماء التربية وعلم النفس أن كلمات السيِّد هذه: "**لماذا كنتما تطلباني، ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟**" بمثابة ثورة جديدة في عالم الطفولة، فقد كان يسوع "**خاضعًا لهما**" [٥١]، علامة الطاعة الكاملة لوالديه وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [هل كان يمكن لمعلِّم الفضيلة أن لا يقوم بوجباته لهما؟! فإنَّه لم يخضع عن ضعف وإنما عن حب.] هكذا قدَّم هذا الصبي الفريد مثلاً حيًا لطاعة الأولاد لوالديهم... وكما كتب **القدِّيس جيروم** للراهبة أوستخيوم: [أطيعي والديك ممتثلة بعريسك[٣].] ويقول **العلامة أوريجينوس:** [لنتعلَّم يا أبنائي الخضوع لوالدينا.... خضع يسوع وصار قدوة لكل الأبناء في الخضوع لوالديهم أو لأولياء أمورهم إن كانوا أيتام... إن كان يسوع ابن الله قد خضع لمريم ويوسف أفلا أخضع أنا للأسقف الذي عيَّنه لي الله أبًا؟!... ألا أخضع للكاهن المختار بإرادة الله[٤]؟] إن كان السيِّد المسيح قد قدَّم درسًا علميًا ومثلاً حيًا للخضوع والطاعة للوالدين، فقد أعلن بكلماته "لماذا كنتما تطلبانني ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون فيما لأبي؟ أنه من حق الطفل أو الصبي أن يسلك في رسالته حسب مواهبه وإمكانيَّاته ولا يكون آلة بلا تفكير في يديّ الوالدين. بمعنى آخر

[1] *On Marriage& Concupiscence 12.*
[2] *Ser.5.*
[3] *Ep. 22:17.*
[4] *In Luc. Hom 20:5.*

يليق بالوالدين أن يتعاملا مع ابنهما لا كامتداد لحياتهما يشكِّلانه حسب هواهما وأمنيَّاتهما، وإنما يوجِّهانه لتنمية مواهبه وقدراته... يعاملانه كشخص له مقوّمات الشخصيّة المستقلَّة وليس تابعًا لهما.

لم تكن القوانين والشرائع الدينيّة أو المدنيّة حتى اليهوديّة في ذلك الحين تُعطي الطفولة حقًا للحياة بما لكلمة "حياة" من معنى إنساني حُر، إنما كانت بعض القوانين تبيح للوالدين أن يقتلا الطفل أو يقدَّماه محرقة للآلهة، كما كان يفعل عابدي الإله ملوك أو ملوخ... وقد جاء السيِّد يُعلن أن الطفل من حقُّه ممارسة الحياة حسب ما يناسب شخصه ومواهبه وإمكانيَّاته. وإنني أُرجئ الحديث في هذا الأمر إلى بحث خاص يُنشر في كتاب "الحب العائلي" إن شاء الرب وعشنا.

خامسًا: يعلّق **العلامة أوريجينوس** على قول الإنجيلي: "**فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما، ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة**" [٥٠-٥١]، قائلاً:

[لم يدركا مغزى كلمات يسوع: "ينبغي أن أكون فيما (لبيت) أبي"، أي أن أكون في الهيكل...

بيت يسوع هو الأعالي، لذا فيوسف ومريم إذ لم يكونا بعد قد بلغا كمال الإيمان لم يستطيعا بعد أن يحلِّقا معه في الأعالي، لذلك يقول الكتاب: "ثم نزل معهما" [٥١]. كثيرًا ما ينزل يسوع مع تلاميذه ولا يبقى على الدوام على الجبل[1]...]

أخيرًا نختم حديثنا عن السيِّد المسيح في الهيكل بالكلمات التي سجَّلها **القدِّيس چيروم** للتيَّته *Laeta* بخصوص تربيتها لابنتها بأولاً *Paula*:

[ليتها تنمو مع عريسها في الحكمة والقامة أمام الله والناس (٢: ٥٢)! لتذهب مع والديها إلى هيكل أبيها الحقيقي، ولا تخرج معهما من الهيكل. ليطلبانها بين طرق العالم وسط الجماهير والأقرباء فلا يجدانها هناك، بل يجدانها في مقادس (هيكل) الكتاب المقدَّس، تسأل الأنبياء والرسل عن مفاهيم الزواج الروحي الذي تكرَّست له[2]!]

---

[1] *In Luc. hom 20:4.*
[2] *Ep. 107:7.*

الأصحاح الثالث

الإعلان عن الصديق السماوي

قبل أن يحدّثنا عن عمل هذا الصديق السماوي خاصة مع الفئات المرذولة والمنبوذة حدّثنا عن طبيعة هذا الصديق، معلنًا عنها خلال السابق له "يوحنا المعمدان"، وخلال شهادة السماء نفسها "العماد"...

١. ظهور يوحنا المعمدان ١-٦.

٢. الحث على التوبة ٧-١٤.

٣. شهادة عن المسيح ١٥-٢٠.

٤. عماد السيِّد ٢١-٢٢.

٥. نسب السيِّد المسيح ٢٣-٢٧.

١. ظهور يوحنا المعمدان

نظرًا لأهميّة الدور الذي يقوم به القدِّيس يوحنا المعمدان، حتى اهتم رجال العهد القديم بالتنبؤ عنه، يحدّثنا الإنجيلي لوقا عن تاريخ ظهوره كحقيقة واقعة تمت، وعن طبيعة عمله، وعن شهادته عن السيِّد المسيح. فمن جهة تاريخ ظهوره قال:

"وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر،
إذ كان بيلاطس بنطس واليًا على اليهودية،
وهيرودس رئيس ربع على الجليل،
وفيلبس أخوه رئيس ربع على إيطوريَّة وكورة تراخونيتس،
وليسانيوس رئيس ربع على الأبليّة.
في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا
كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريَّا في البرِّيَّة" [١-٢].

عند البشارة بالحبل به حدَّد الوحي الإلهي التاريخ بإعلان اسم ملك اليهوديَّة الذي تم فيه ذلك الحدث (١: ٥)، أما في بداية ظهوره للعمل فأعلن اسم الإمبراطور الروماني، والوالي الروماني وثلاثة رؤساء كل منهم رئيس ربع (حيث قُسِّمت اليهوديَّة إلى أربعة أقسام) واسمي رئيس الكهنة... بين هؤلاء

جميعًا من رؤساء زمنيِّين ودينيِّين لم يوجد من تأهَّل لتكون عليه كلمة الله إلا يوحنا الذي تربَّى في البرِّيَّة.

ولعلَّه ذكر هذه الأسماء ليظهر ما بلغ إليه إسرائيل من مذلَّة، فلم يعد فقط خاضعًا للإمبراطور الروماني، إنما تقسَّمت مملكة إسرائيل إلى أربعة أقسام يحكمها ولاة رومانيُّون، حتى رئيس الكهنة كان الحاكم الروماني هو الذي يقيمه! هذا الذل المرير هو أحد علامات مجيئ المسيح، إذ قيل: "لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون" (تك ٤٩: ١٠). وسط هذا الجو القاتم ظهر يوحنا يهيىء الطريق للسيِّد المسيح، وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس** ظهر الصوت يهيىء الطريق للكلمة.

يعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على كلمات الإنجيلي لوقا: "**كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريَّا في البرِّيَّة**" **[٢]**، قائلاً بأن كلمة الله، أي السيِّد المسيح، كان يعمل سرِّيًا في يوحنا وهو في البرِّيَّة قبل أن يعمل في كنيسته، التي كانت برِّيَّة مقفرة، فغرسها بأشجار مقدَّسة جاء بها من وسط الشعوب، كانت قبلاً عاقرًا فصار لها أولاد (إش ٥٤: ١).

يمكننا أن نقول بينما كان الرومان يسيطرون على اليهود حتى في الأمور الدينيّة إذ أقال الحاكم الروماني رئيس الكهنة "**حنَّان**" وأقام " **قيافا**" عِوَضًا عنه كان الله يدبر لهم ما هو أعظم، لا أن يحطِّم المملكة الرومانيّة ويقيم إسرائيل من مذلَّة زمنيّة، إنما يعد يوحنا في وسط البرِّيَّة بطريقة خفيّة ليهيء الطريق لإسرائيل كما للرومان لكي يقبلا العضويّة في جسد المسيح المقدَّس، يرتبطان معًا بالرأس الواحد على مستوى فائق، على صعيد الأبديّة التي لا تنتهي.

قد تسوَدْ الحياة في وجهك وتظن أن الشرّ قد ساد وحطَّم المؤمنين، لكن في كل زمان يعمل الله في وسط البرِّيَّة القاحلة ليقيم منها فردوسًا مقدَّسا يضم أشجارًا من كل أُمَّة وشعب ولسان!

من جهة منطقة عمله وطبيعة خدمته يقول:

"**فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن**

يكرز بمعموديّة التوبة لمغفرة الخطايا" [٣].

منطقة عمله "**الكورة المحيطة بالأردن**"، ولعلَّ كلمة "كورة" تعني منطقة مستديرة، وهي محيطة بالأردن، لأن جوهر رسالته هو "العماد"، المرتبط بالتوبة، جاء يوحنا بمعموديَّته يهيئ الطريق لمعموديّة السيِّد المسيح لا لمغفرة الخطايا فحسب، وإنما للتمتَّع بروح البنوَّة لله وحلول الروح القدس فينا، حتى ننعم بصداقة مع السيِّد على مستوى الاتِّحاد الحق وشركة أمجاده.

هذا العمل الذي قام به المعمدان لم يتحقَّق بطريقة عشوائيّة، لكنه جاء جزءًا من خطة الله الخلاصيّة، سبق فنظرها الأنبياء من بعيد وتحدّثوا عنها، إذ يقول الإنجيلي:

"كما هو مكتوب في سفر أقوال إشعياء النبي القائل:
صوت صارخ في البرِّيَّة،
أعدُّوا طريق الرب،
اِصنعوا سبله مستقيمة.
كل وادٍ يمتلئ وكل جبل وأكَمَة ينخفض،
وتصير المُعوجَّات مستقيمة، والشِعاب طرقًا سهلة.
ويبصر كل بشرٍ خلاص الله" [٤-٦].

أولاً: إن كان السيِّد المسيح هو "كلمة الله"، فإن يوحنا مجرَّد الصوت الذي يعد الطريق للكلمة. إن كان السيِّد المسيح هو "الحق" عينه، فيوحنا صوت يدوي في البرية لقبول الحق خلال "السبل" أو الطرق المستقيمة. إنه ينادى للنفوس اليائسة التي تشبه الوديان المنخفضة أن تمتلئ رجاءً، والنفوس المتشامخة كالجبل أو الأكَمَة أن تتَّواضع... بهذا يتمتَّع الكل بالخلاص. ولعلَّه يقصد بالوديان "**الأمم**" التي حطَّمتها الوثنيّة وأفقدتها كل رجاء في الرب، بالجبل والأكَمَة "شعب إسرائيل ويهوذا" الذي تعجرف، فالدعوة موجَّهة للجميع... "يبصر كل بشر خلاص الله".

ثانيًا: كانت الدعوة متَّجهة إلى التوبة العمليّة والسلوك: "**تصير المعوجَّات مستقيمة والشِعاب طرقًا سهلة**"، دعوة لترك كل طريق معْوج أو مُلتو، فإنه لن يبصر أحد الخلاص وهو قابع في شرِّه واعوجاج حياته،

ثالثًا: جاءت كلمة "بشَرْ" هنا في الأصل اليوناني "جسد"، وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [اعتاد الكتاب المقدَّس أن يصف الطبيعة البشريّة بقوله "كل جسد"[1].] وأيضًا: [لا يعني جسدًا بدون نفس ولا عقل، بل "كل جسد" تعني "كل إنسان[2]".]

[1] *On the Soul and its origin , 31.*
[2] *On the Triniy 2:6:11.*

رابعًا: إن دعوة يوحنا لا تزال قائمة في كل نفس، فإن أعماقنا لن تبصر خلاص الله ما لم نسمع صوت يوحنا في داخلنا يملأ قلوبنا المنسحقة بالرجاء، ويحطِّم كل عجرفة وكبرياء، ويحول مشاعرنا الداخليّة عن المعوجَّات ويجعل شِعابنا العميقة سهلة!

خامسًا: لما كان إنجيل لوقا موجَّهًا لليونان، فقد اقتبس كلمات إشعياء النبي هنا التي تفتح أبواب الرجاء لكل الأمم، إذ يقول: "ويَبصر كل بشر خلاص الله". وكما يعلِّق **القدِّيس كيرلس الكبير**، قائلاً: [وكل إنسان أبصر خلاص الله الآب، لأنه أرسل ابنه فاديًا ومخلِّصًا، ولم يقتصر الأمر على قومٍ دون آخرين، فإن عبارة "**كل بشَر**" تُطلق على جميع شعوب العالم بأسره، فلا يراد بها شعب بني إسرائيل فحسب، بل جميع الناس في أقاصي الأرض قاطبة، لأن رحمة المخلِّص غير محدودة، فلم تخلِّص أُمَّة دون أخرى بل اِفتدى المسيح جميع الأمم، وأضاء بنوره على كل الذين في الظلمة. وهذا هو الذي قصد إليه المرنِّم: "كل الأمم الذين صنعتهم يأتون ويسجدون أمامك يا رب ويمجِّدون اسمك" (مز ٨٦: ٩)، بينما في الوقت نفسه تخْلص البقيّة الباقية من الشعب الإسرائيلي كما أعلن موسى، إذ قال: "تهلَّلوا أيها الأمم شعبه" (تث ٣٢: ٤٣)[١].]

٢. الحث على التوبة

"وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعتمدوا منه:
يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي.
فاصنعوا ثمارًا تليق بالتوبة،
ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا،
لأني أقول لكم أن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم.
والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر،
فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار" [٧-٩].

ويلاحظ في هذا النص الآتي:

أولاً: خروج الجموع بأعدادٍ وفيرةٍ للمعموديّة لم يكن في ذاته يُفرِّح قلب القدِّيس يوحنا المعمدان، ولا يحسبه نجاحًا للخدمة، إنما كان يلزم أن ترتبط المعموديّة بالتوبة العمليّة النابعة عن الإيمان الحق،

---

[١] عظة ٦.

وفي المسيحيّة يرتبط العماد بالإيمان العملي، وإن قُدِّمت للأطفال فيتعهَّد الإشْبين، وغالبًا ما يكون أحد أو كلا الوالدين هما الإشْبينين، يتعهدان بتربية الطفل في الإيمان المسيحي العملي.

جاء في مقالات **القدِّيس كيرلس الأورشليمي** لطالبي العماد: [هل دخلتَ لأن الحارس لم يمنعك... أم لأنك تجهل الزي اللائق بدخولك الوليمة؟!... اُخرج الآن بلياقة وادُخل غدًا وأنت أكثر استعدادًا[١].] [حقًا أن العريس يدعو الجميع بغير تمييز لأن نعمة الله غنيّة، وصوت الرسل يعلو صارخًا لكي يجمع الكل؛ لكن العريس نفسه يقوم بفرز من دخلوا معه في علاقة زوجيّة رمزيّة. آه! ليته لا يسمع أحد ممَّن سُجِّلت أسماءهم هذه الكلمات: يا صاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لِباس العرس[٢] (مت ٢٢: ١٢).]

ثانيًا: دعاهم "**أولاد الأفاعي**"، قائلاً: "**يا أولاد الأفاعي، من أراكم تهربوا من الغضب الآتي؟!**" [٧]. وقد أخذ هذا التشبيه من واقع البيئة التي عاش فيها، إذ تكثر الأفاعي في البراري. ولعلَّه يقصد بالأفاعي هنا اِتِّسامهم بثلاث سِمات: الأولى: حب الأذيَّة للآخرين، فالأفعى سامة وقاتلة للإنسان. حب الأذى حتى للمقرَّبين فيقال أن بعض الأنواع من الأفعى تأكل الصِغار الأم. كما تزحف الأفعى على بطنها فتُمثِّل الفكر الترابي الأرضي.

❖ يُقصد بهذه الكلمات شرور اليهود الذين تدنَّسوا بسِموم قلوبهم الشرِّيرة، هؤلاء الذين أحبُّوا معوجَّات الأفاعي وجحورها المُختفية في باطن الأرض، عوضًا عن محبَّتهم لأسرار معرفة الله، ومع ذلك فإن الكلمات: "**من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي**" تشير إلى رحمة الله التي وهبتهم فرصة للتوبة عن خطاياهم، متوسِّلاً إليهم موضِّحًا لهم بأمانة كاملة الدنيويّة الرهيبة العتيدة.

يقصد يوحنا بـ "أولاد الأفاعي" اليهود كجنس لا كأفراد، فقد قيل: "**كونوا حكماء كالحيَّات**" (مت ١٠: ١٦)، فقد وُهبت لهم الحكمة الطبيعيّة، لكنهم اِستغلُّوها لذواتهم دون التفكير في ترك خطاياهم.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ حسنًا دعاهم أولاد الأفاعي، إذ يُقال أن ذلك الحيوان عند ولادته تأكل الصغار بطن أُمِّها وتُهلكها فيخرجون إلى النور، هكذا يفعل هذا النوع من الناس، إذ هم قتلة آباء وقتلة أُمَّهات (١ تي ١: ٩) يبيدون معلِّميهم بأيديهم[٣].

---

[1] *Cat . lect . 3:4 .*
[2] *Cat . lect . 3:2.*
[3] *In Matt . hom 11.*

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

ثالثًا: يسألهم ألا يتَّكلوا على نسبهم الجسدي لإبراهيم: "**لا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا**"، إنما يليق بهم أن يحملوا البنوَّة لإبراهيم خلال السلوك العملي فكأبناء حقيقيِّين يتمثِلون بإيمانه كما بسلوكه، وإلا فإن الله قادر أن يُقيم من الحجارة أولادًا لإبراهيم، وقد أقام بالفعل، ويبقى على الدوام يقيم من الحجارة أولادًا لإبراهيم، أقام في العهد القديم من أحشاء سارة العاقر والتي تشبه الحجر إسحق ونسله غير المُحصى أولادًا لإبراهيم، ولا يزال يُقيم من القلوب المتحجِّرة قلوبًا مؤمنة تحمل البنوَّة لإبراهيم أب المؤمنين.

- أنذرهم أن يتأيَّدوا لا بنُبل جنسهم بل ببريق أعمالهم، فالمولد لا يُعطي أي اِمتياز ما لم يزكِّيه ميراث الإيمان.
- كان الله يستعد لتليين قسوة قلوبنا ليصنع من هذه الحجارة شعبًا مؤمنًا.

القدِّيس أمبروسيوس

- ما فائدة الحسب والنسب إذا كان الأبناء لا يسيرون في طريق الشرف والنبل كما يسير أجدادهم وأسلافهم؟! لذلك يقول المخلِّص: "**لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم**" (لو ٨: ٣٩)، يريد الله أن تكون القرابة مؤسَّسة على الأخلاق والأعمال، لأنه من العبث أن تفتخر بالوالدين الصالحين المقدَّسين، وأنت قاصر عن بلوغ شأنهم في الصلاح والفضيلة.
- يطلق يوحنا المعمدان المغبوط لفظة الحجارة على الأمم، لأنهم لم يعرفوا المسيح الذي بطبيعته إله، فجنحوا عن عبادة الله وسجدوا للخليقة لا الخالق، ولكن المسيح دعاهم فلبُّوا دعوته، وأصبحوا أبناء لإبراهيم، واعترفوا بإيمانهم بيسوع بأُلوهيّة المخلِّص يسوع المسيح[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

- يستطيع الله أن يجعل من الحجارة أولادًا لإبراهيم؛ يشير هنا إلى الأمم، إذ هم حجارة بسبب قسوة قلوبهم، لنقرأ: "وأنزع قلب الحجر عن لحمك وأعطيكم قلب لحم" (خر ٣٦: ٢٦)، فالحجر صورة القسوة، واللحم رمز اللطف. لقد أراد أن يظهر قوّة الله القادر أن يخلق من الحجارة الجامدة شعبًا مؤمنًا[٢].

---

[١] عظة ٦.

[2] *In Matt 3:9.* (ترجمة الآنسة/ تريز سعد)

القدِّيس چيروم

رابعًا: يستخدم أسلوب التهديد بالعقوبة: "**والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر، فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تُقطع وتُلقى في النار**" [٩].

❖ لنتمثل بالأشجار المثمرة، فتنمو فضائلنا تسندها جذور التواضع المستمر، ولنرتفع عن الأرضيَّات ونحمل في القمَّة أعمال التوبة المثمرة، فلا يأتي فأس المزارع ليقطع الغُصن البرِّي (غير المُثمر)، إذ "ويل لي إن كنتُ لا أبشِّر" (١كو ٥: ٦)، هذا ما نطق به الرسول، أما أنا فأقول: ويلٌ لي إن كنت لا أبكي على خطاياي؛ ويلٌ لي إن كنت لا "أقوم في نصف الليل لأشكرك على أحكام عدلك" (مز١١٨: ١٢)؛ ويلٌ لي إن وشيْت بقريبي؛ ويلٌ لي إن كنت لا أنطق بالحق.

هوذا الفأس على أصل الشجرة، فليْتها تنمو وتقدِّم ثمر الشكر وثمرة التوبة.

هوذا الرب يقف يجني الثمار ويَهب الحياة عِوض الثمر، ويكتشف الشجرة التي لم تثمر ولها ثلاث سنوات (لو ١٣: ٧). إنه لم يجد ثمرًا لليهود، لعلَّه يجد فينا ثمرًا، إذ هو مزمع أن يقطع من لا ثمار لهم حتى لا يشغلوا الأرض باطلاً.

ليجاهد من هم بلا ثمر أن يكون لهم في المستقبل ثمر، فإن زارع الأرض الطيِّب يشفع فينا نحن الذين بلا ثمر وبلا نفع لكي تُترك لنا فرصة، ويطيل الله أناته علينا لعلَّنا نقدر أن نقدِّم بعضًا من الثمار.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ وتشير الفأس إلى سخط الله وغضبه من جراء تعدِّي اليهود على المسيح وعِظَم جرمهم ضد السيِّد، فيقول زكريَّا في هذا الصدد: "في ذلك اليوم يعظم النوح في أورشليم كنوح **هدد رمون...**" (زكريَّا ١٢: ١١) ويخاطب إرميا أورشليم أيضًا فيقول: "زيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة دعا الرب اسمك، بصوت ضجَّة عظيمة أوقد نارًا عليها فانكسرت أغصانها ورب الجنود غارِسك قد تكلَّم شرًا" (إر ١١: ١٦)، ويمكنكم فوق ذلك أن تضيفوا إلى هذا القول مثَل التينة في الأناجيل المقدَّسة، لأنه لمَّا كانت شجرة التينة غير مثمرة فإن الله شاء فجفَّت جذورها،

راجع أيضًا أقوال الآباء الواردة في كتابنا "الإنجيل بحسب متى". ١٩٨٣، ص ٧١، ٧٢.

ولاحظوا أن المعمدان لا يقول "إن الفأس" وُضعت في "داخل" أصل الشجرة بل على أصل الجذور، ويراد بذلك أن الأغصان ذبُلت وهوَت، أما النبات فلم يُستأصل من جذوره، لأنه توجد بقيّة من شعب إسرائيل تابت إلى الله فخلُصت ولم تهلك هلاكًا أبديًا[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

ما هي هذه الفأس التي توضع على أصل الشجرة لتقطعها وتُلقيها في النار إلاّ كما يقول **القدِّيس چيروم**[2] "السيف ذي الحدِّين"، كلمة الله التي تقطع كل ما هو غير مُثمر فينا، كلمة الله قويَّة وفعّالة قادرة أن تحطِّم فينا كل عُقْم لتُقيم فينا بالدم الطاهر ثمارًا حيَّة.

خامسًا: إذ هدَّد بقطع الشجرة التي بلا ثمر من جذورها والإلقاء بها في النار، أوضح أن الثمر هو "الحب العملي" أو الرحمة، إذ يقول:

"**وسأله الجموع قائلين: فماذا نفعل؟**

فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليُعطِ من ليس له،

ومن له طعام فليُفعل هكذا" [١٠-١١].

لقد سأله عشَّارون وجند أيضًا، وكانت وصيَّته لهم تتركَّز في الرحمة والحب العملي، إذ طلب من العشَّارين لا أن يتركوا عملهم، بل في أمانة لا يستغلُّوا مركزهم، فيجمعوا ضرائب أكثر ممَّا يجب لحسابهم الخاص، كما لم يطلب من الجند أن يتركوا عملهم، بل لا يستغلُّوا وظيفتهم فيظلموا الآخرين، أو يَشُوا بأحدٍ، إنما يكتفون بالعمل بأمانة، ولا يطلبوا سِوى أجرتهم (اِكتفوا بعلائفكم).

❖ أجاب يوحنا المعمدان إجابة واحدة تناسب كل عمل بشري... الرحمة هي فضيلة عامة، والمبدأ الأساسي الذي يجب أن يُعمل به في كل مكان ويمارسه كل سن، فلا يستثني منه الفرِّيسي ولا الجندي ولا الفلاح... لا الغني ولا الفقير، إذ الجميع مدعوُّون أن يُعطوا من ليس معهم، لأن الرحمة هي كمال الفضائل.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ حقًا لم يمنعهم من الخدمة كجنودٍ عندما أمرهم أن يكتفوا بأجورهم حسب الخدمة[3].

---

[1] عظة ٧.

[2] *In Matt. hom 3:16.*

[3] *Ep .169:5.*

القدِّيس أغسطينوس

٣. شهادته عن المسيح

كان الشعب اليهودي غريبًا، فبينما نجده قد رفض السيِّد المسيح، ولم يكن قادرًا على قبوله مخلِّصًا وفاديًا نراه يظن في يوحنا أنه "المسيح"، إذ يقول الإنجيلي: "**وإذ كان الشعب ينتظر، والجميع يفكِّرون في قلوبهم عن يوحنا لعلَّه المسيح...**" [١٥] ولعل السبب في ذلك ما رأوه في يوحنا من تقشُّف شديد في أكلِه وشُربه وملبسه وحزمه في تبكيته الخطاة، فظنُّوه أنه قادر أن يخلِّصهم من الرومان متى قام بدور قيادي حاسم.

عجيب هو الإنسان فإنه كثيرًا ما يرفض حب الله الفائق ويستهين بطول أناته منجذبًا للمخلوق دون الخالق! لكن يوحنا في أمانته لم يقبل أن يسلب مجد المسيح، رافضًا بشدَّة التكريم الزائد غير اللائق به، شاهدًا عن المسيح الحقيقي، معلنًا أنه ليس هناك مجال مقارنة بين السيِّد المسيح وبينه، وبين معموديَّة السيِّد ومعموديَّته، إذ "**أجاب يوحنا الجميع قائلاً: أنا أعمِّدكم بماء، ولكن يأتي من هو أقوى منِّي، الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه، هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار. الذي رفْشُه في يده وسينقِّي بيدَره، ويجمع القمح إلى مخزنه، وأما التِبن فيحرِقه بنارٍ لا تُطفأ**" [١٦-١٧].

يقول **القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:** [هذا هو دور الخادم الأمين ليس فقط لا ينسب لنفسه كرامة سيِّده، بل يمقت ذلك عندما يقدِّمها له كثيرون[1].]

يقول **العلامة أوريجينوس:** [كان كل الشعب معجبًا به ويحبُّه، فمن المؤكَّد أن يوحنا كان إنسانًا غريبًا يستحق إعجابًا شديدًا من كل الناس، فقد كانت حياته مختلفة تمامًا عن بقيّة الناس... فمحبَّتهم له كان لها ما يبرِّرها، لكنهم تجاوزوا الحد المعقول في محبَّتهم، إذ تساءلوا إن كان هو المسيح. والرسول بولس كان يخشى مثل هذا الحب غير الروحي الذي غيَّر موضعه، إذ يقول عن نفسه: "ولكن أتحاشى لئلاّ يظن أحد من جهتي فوق ما يراني أو يسمع منِّي، ولئلاّ أرتفع من فرط الإعلانات" (٢ كو ١٢: ٦-٧)... وأنا نفسي أتألّم من هذه المغالاة في كنيستنا، فالغالبيّة يحبُّونني أكثر ممَّا أستحق ويمدحون أحاديثي وتعاليمي... وإن كان البعض على العكس ينتقد وعظنا وينسبوا إليَّ آراء ليست لي... فإن الذين يبالغون في حبِّنا والذين يبغضوننا كلاهما لا يحتفظون بقانون الحق، هؤلاء يكذبون في حبِّهم المُبالغ وأولئك في كراهيَّتهم، لذلك يجب أن نضع ضوابط للحب ولا نتركه في حريّة يحملنا هنا وهناك... فقد جاء في سفر الجامعة: "لا تكن بارًا كثيرًا ولا تكن حكيمًا بزيادة، لماذا تخرب

[1] *In Incan 5:2.*

نفسك؟!" (جا ٧: ١٦).... فلا تحب إنسانًا "من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوَّتك"، ولا تحب ملاكًا هكذا من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوَّتك، إنما أتبع كلام الرب واحفظ تعليمه: "تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك" (لو ١٠: ٢٧).]

ويقول **القدِّيس أمبروسيوس**: [لم يقصد يوحنا بهذه المقارنة إثبات أن المسيح أعظم منه، فليس من وجه للمقارنة بين الله وإنسان... يوحنا لم يشأ أن يقارن نفسه بالمسيح إذ قال: "لست مستحقًا أن أحل سِيور حذائه"... ربَّما أراد القدِّيس يوحنا أن ينقص من شأن الشعب اليهودي بقوله: "ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص" (يو ٣: ٣٠)، كان ينبغي أن ينقص الشعب اليهودي حتى يزداد الشعب المسيحي في المسيح.]

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**:

[دُهش الناس لما رأوا من الجلال الرائع في عيشة يوحنا الهادئة، عظمة أخلاق وسِمو تقوى وصلاح، فقد هال الشعب اليهودي سِمو يوحنا ورُقيِّه في عيشته وتعاليمه، حتى ظنُّوا أنه لابد وأن يكون المسيح الذي أشار إليه الناموس بمختلف الرموز، ووصفه كثير من الأنبياء والرسل، إلا أن يوحنا سرعان ما لاحظ ظنونهم حتى وقف يبدِّدها بحزمٍ وعزمٍ، فأعلن في غير لبس أنه ما هو إلا خادم لسيِّده، وأن المجد والكرامة والسجود والعظمة لا تليق إلا بالمسيح الذي اسمه يفوق كل اسم.

عَلَم يوحنا أن المسيح أمين لكل من يخدمه، فما على الخادم إلاّ أن يعلن الحق والصدق، إذ الفرق شاسع بين الخادم وسيِّده، أي بين يوحنا والمسيح ولذلك يقول: "أنتم أنفسكم تشهدون لي أني قلت لست أنا المسيح بل أني مرسل أمامه" (يو ٣: ٢٨)، فحقًا أن يوحنا عظيم في رسالته وعظيم في شهادته، فقد كان رائع الجلال ككوكب الصباح الذي يعلن شروق الشمس من وراء الأفق.

أراد يوحنا أن يثبت للملأ أنه دون سيِّده مرتبة ومقامًا، فقال: "أنا أعمِّدكم بماء، ولكن يأتي من هو أقوى منِّي الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه" (٣: ١٦).

حقًا أن الفرق شاسع بين المسيح ويوحنا، بل لا تصح المقارنة بينهما، ولذلك صدَق المعمدان المغبوط رغمًا عن سِمو فضيلته وكريم خلقه بأنه "غير أهل لأن يحل سِيور حذائه"، لأنه إذا كانت القوَّات السمائيّة والعروش والسيرافيم المقدَّسة تقف حول عرش المسيح الإلهي مقدِّمة له المجد والتسبيح، فمن ذا الذي يستطيع من سكان الأرض أن يقترب من الله؟! نعم يحب الله الإنسان فهو

رؤوف به رحوم عليه، ولكن يجب ألا ننكر بأي حال من الأحوال بأننا لا شيء بالنسبة له فنحن بشر ضعفاء جهلاء[١].]

ويقول **القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:** [إنه عالٍ جدًا ولا أستحق أن أُحسب أقل عبد عنده، فإن حلْ سيور الحذاء هو أكثر الأعمال وضاعة[٢].]

ويقدَّم لنا **الأب غريغوريوس (الكبير)** تفسيرًا رمزيًا لكلمات القدِّيس يوحنا المعمدان: فيرى في حذاء السيِّد إشارة إلى الجسد الذي اِلتحف به، فإن حلْ سيوره إنما يعني فكْ أسرار التجسُّد، إذ يشعر نفسه عاجزًا عن إدراك هذا السرْ الإلهي وبحثه[٣]، بينما يقدِّم لنا **القدِّيس چيروم**[٤] تفسيرًا آخر وهو أن يوحنا المعمدان لا يتجاسر أن يمد يده ليحل سيور حذاء سيِّده، لأن السيِّد يريد عروسه المترمِّلة ولا يرفضها، إذ جاء في الشريعة أن الوليّ الذي يرفض الأرملة كزوجة ليُقيم منها نسلاً للميِّت يخلع نعليْه أمام شيوخ المدينة ويُعطيه لمن يَقبل الزواج منها، كما فعل وليّ راعوث (را ٤: ٧-٨). مسيحنا لن يخلع نعليْه ليعطيهما لأحد، إذ يوَد أن يقتنينا عروسًا له، ويشترينا بحبُّه ودمه المبذول.

لم يجد القدِّيس يوحنا وجهًا للمقارنة بينه وبين سيِّده، ولا بين معموديَّته ومعموديّة سيِّده، إذ قال: "**أنا أعمِّدكم بماء... هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار**" [١٦].

- ❖ الماء يطهِّر الجسد، والروح يطهِّر القلب من الخطايا، نحن نقوم بالعمل الأول ونصلِّي لكي يتم العمل الثاني حيث ينفخ الروح في الماء فيقدِّسه، الماء وحده ليس دليلاً على التطهير وإن كان الاثنان لا ينفصلان: الماء والروح، لذلك اِختلفت معموديّة التوبة (ليوحنا) عن معموديّة النعمة التي تشمل العنصرين، أما الأولى فتشمل عنصرًا واحدًا. إن كان كل من الجسد والروح يشتركان في الخطيّة فالتطهير لازم لكليهما.

القدِّيس أمبروسيوس

- ❖ المعموديّة هي الكُور العظيم الممتلئ نارًا، فيها يُسبك الناس ليصيروا غير أموات[٥].

---

[١] عظة ١٠.

[2] *Catena Aurea (John 1) .*
[3] *PL 74:1099-1103.*
[4] *In Matt .8:11.*

[٥] ميمر عن المعمودية المقدسة ، مخطوط بدير الأنبا انطونيوس، نسخ عام ١٤٨٨.

القدِّيس يعقوب السروجي

❖ الروح القدس هو نار كما جاء في أعمال الرسل، إذ حلّ على المؤمنين على شكل ألسنة ناريّة. وهكذا تحقَّقت كلمة المسيح: "جئت لأُلقي نارًا على الأرض، فماذا أريد لو اضطرَمَت؟!" (لو ١٢: ٤٩). يوجد تفسير آخر وهو أننا نعتمد حاليًا بالروح، وبعد ذلك (في يوم الرب) بالنار كقول الرسول: "**ستمتَحِن النار عمل كل واحد ما هو**" (١ كو ٣: ١٣)[١].

القدِّيس چيروم

❖ يقول يوحنا ذلك ثانية للدلالة على ضعفه وجهله "**أنا أعمِّدكم بماء ولكن هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار**" (لو ٣: ١٦)، وهذا برهان جليل على أُلوهيّة المسيح، لأنه من خاصيَّات يسوع الذي يفوق الكل قوَّته على منح الناس الروح القدس حتى أن كل من يقبله يتمتَّع بالطبيعة الإلهيَّة، ولكن لاحظوا أن هذه القوّة في يسوع المسيح لم يمنحها ولم يرسلها أحد بل هي له وفيه، وخاصة به، إذ ورد "يعمِّدكم بالروح القدس". فالله الكلمة المتأنِّس هو ثمرة الله الآب، فلا يعترض أحد بأن الذي يُعمِّد بالروح القدس هو الله الكلمة، وليس ذاك الذي أتى من ذُرِّيَّة داود، فلم يشاء أن يقسِم المسيح ابنين، فقد وصف الكتاب المقدَّس هؤلاء الناس بأنهم: "**حيوانات ومعتزلون بأنفسهم ولا روح لهم**" (يه ١٩).

وما معنى ذلك كله؟ **يجب أن نؤكِّد تمام التأكيد غيرَ مكترَثين بنقض أو اعتراض بأن الله الكلمة يَمنح الروح القدس الذي له، لكل من كان جديرًا بهذه الهِبة**

وحتى لما تأنَّس الله الكلمة وهبنا الروح القدس، لأنه ابن الله الوحيد الذي صار جسدًا، فهو والآب واحد بطريقة لا يدركها العقل ولا يحدَّها الوصف، يقول المعمدان "لست أهلاً أن أحلْ سِيور حذائه" ثم يعطف على ذلك قوله "هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار"، فمن الواضح أنه كانت هناك قدمان للبس الحذاء، ولا يمكن للإنسان العاقل أن يفترض أن المسيح كان يلبس قبل تجسُّده حذاء فلم يحدث ذلك إلا عند تجسُّده، **ولما كان المسيح بتجسُّده لم يكُف عن أن يكون إلهًا، وجب أن يعمل أعمالاً تليق بأُلوهيَّته، فأعطى الروح القدس لكل الذين آمنوا، لأنه هو واحد وشخص واحد** وفي الوقت نفسه إله وإنسان أيضًا[٢]...

---

[1] *In Matt. 3:11.*

[٢] عظة ١٠.

القدِّيس كيرلس الكبير

إذ أعلن عن معموديّة المخلِّص، تحدّث كديَّان: "**الذي رفْشُه في يده، وسينقِّي بيدَره، ويجمع القمح إلى مخزنه، وأما التبن فيحرقه بنار لا تُطفأ**" [١٧].

❖ تكشف الإشارة إلى رفْشْ المسيح إلى سلطانه في تمييز عمل كل واحد. حينما يُذَرِّي القمح يفصل الفارغ عن الملآن، المثمر عن الذي بلا ثمر بفضل نسمة الهواء... سيميِّز الرب في يوم الدينونة بين الأعمال المثمرة بفضائل ممتلئة وبين الأعمال الفارغة، فيدعو الكاملين إلى الوطن السماوي... بينما يمقُت القَشْ ولا يحب الأعمال العقيمة، لذلك: "**قدَّامه تذهب نار**" (مز ٩٧: ٣)، [لكنها نار من طبيعة غير مؤذيّة تحرق أيضًا أعمال الظلمة وتُظهر بريق أعمال النور.]

القدِّيس أمبروسيوس

❖ أريد أن أكشف عن السبب الذي لأجله يمسك ربَّنا الرفْشْ وعن النفخة التي ترفع التِبن ليتطاير هنا وهناك، بينما القمح الأكثر ثقْلاً يبقى في مكانه...

الهواء على ما أظن يعني التجارب التي تكشف المؤمنين، إن كانوا تِبنًا أو قمحًا، لأنه عندما تحل بنفسك بعض التجارب، فليست التجربة هي التي تجعل المؤمنين تبنًا أو قمحًا، إنما إن كنتم تبنًا خفيفًا بلا إيمان تكشف التجارب عن طبيعتك المختفية؛ وعلى العكس إن واجَهْتُم التجربة بشجاعةٍ فليست التجربة هي التي تجعلكم أوفياء صابرين، إنما تكشف عن فضيلة الصبر والقوّة التي فيكم وكانت مختفية.

❖ عندما تهبْ العاصفة لا يمكنها أن تزعزع المبنى المُقام على الصخر، إنما تكشف عن ضعف حجارة المبنى المزعزع المُقام على الرمل[١].

العلامة أوريجينوس

❖ يشبِّه يوحنا سكان الأرض بسنابل الحنطة وبالأحرى يقارنهم بقمح في حقل دَرَّاس. فإن كُلاً منَّا ينمو كسُنبلة قمح، وقد بين ربَّنا مرَّة وهو يخاطب الرسل المقدَّسين هذه الحقيقة، فقال لهم: "إن الحصاد كثير، ولكن الفعَلَة قليلون، فأطلبوا من رب الحصاد أن يُرسل فعَلَة إلى حصاده" (لو ١٠: ٢). نحن الذين نعيش على الأرض نُسمَّى سنابل الحنطة وقمحًا وحصادًا، وهذا الحصاد يملك عليه الله لأنه رب الجميع. لكن تأمَّلوا في كلام المعمدان المغبوط فإنه يصف حقل الدَرَّاس بأنه

---

[1] *In Luc. 26:4.* (ترجمة الآنسة/ تريز سعد)

ملك المسيح، فهو الذي ينقِّي بيدَرِه ويجمع القمح إلى منزله ويحرق التبن بنار لا تُطفأ. فالقمح هو رمز للأخيار الذين ثبتوا في إيمانهم ورسخوا في عقيدتهم، أما التِبن فُيشير إلى أولئك الناس الذين ضعُفت عقولهم وسقُمَت قلوبهم، فأصبحوا قلقين تهب عليهم الرياح فتفرِّقهم...، فلا غرابة بعد ذلك إن جُمع القمح في مخزنه لأنه جدير بأن يُحفظ في مكان أمين بعناية الله له ورحمته ونعمته، ولكن التِبن يُحرق بنار لا تُطفأ إذ لا يساوي قلامة ظفر[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ هذا التِبن لا يُهلك من هم حنطة الرب، والذين هم قليلون، إن قورنوا بالآخرين، لكنهم هم جمع عظيم[٢].

القدِّيس أغسطينوس

أبرز الإنجيلي لوقا عمل القدِّيس يوحنا المعمدان الرئيسي، وهو الشهادة للسيِّد المسيح وعمله الخلاصي، ومعموديَّته بالروح القدس، وقد جاءت هذه الشهادة ممتزجة بكلمة التبكيت للتوبة مع بث روح الرجاء، مبشِّرًا إيَّاهم برحمة الله، إذ يقول: "**وبأشياء أُخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشِّرهم**" [١٨].

لم تكن كرازته وعظاته خاصة بالعامة فحسب، إنما اِمتدَّت إلى الرؤساء بلا مُداهنة ولا مُجاملة. يقول:

"**أما هيرودس رئيس الرُبع فإذ توبَّخ منه لسبب هيروديَّا امرأة فيلبس أخيه،**
ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودس يفعلها.
زاد هذا أيضًا على الجميع أنه حبس يوحنا في السجن" [١٩-٢٠].

لقد سبق فدرسنا قصَّة سجن يوحنا بواسطة هيرودس، الذي أراد أن يكتم أنفاس الحق، ويقيِّد الكلمة والوصيّة بالسجن والقيود والسيف، فكان الصوت يزداد علوًّا خلال الضيق، وكيف صار هذا رمزًا لمحاولة اليهود تقييد الكلمة النبويّة (يوحنا النبي) ومنعها من الإعلان عن المسيَّا[٣].

٤. عماد السيِّد

إن كان يوحنا قد شهد للسيِّد ولمعموديَّته، فإنه إذ قبل الجموع القادمة إليه لتعتمد جاء السيِّد نفسه يعتمد:

---

[١] عظة ١٠.

[2] *Ep. 93: 33.*

[٣] الإنجيل بحسب متى, ص ٣٢٦، ٣٢٧.

"ولما اعتمد جميع الشعب اِعتمد يسوع أيضًا،

وإذ كان يصلِّي اِنفتحت السماء.

ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسميّة مثل حمامة،

وكان صوت من السماء قائلاً:

أنت ابني الحبيب بك سُررت" [٢١-٢٢].

فيما يلي بعض تعليقات الآباء على معموديّة السيِّد:

❖ جاء إلى المعموديّة بدون خطيّة تمامًا، وهكذا لم يكن بدون الروح القدس، لقد كُتب عن خادمه وسابقه يوحنا نفسه أنه من بطن أمه يمتلئ من الروح القدس (لو ١: ١٥)، فإن كان وقد وُلد من أبيه (من زرع بشر) تقبَّل الروح القدس وهو يتشكَّل في الرحم، فماذا يمكننا أن نفهم ونعتقد بالنسبة للمسيح نفسه الذي حبل به، لا بطريقة جسدانيّة بل بالروح القدس؟![1]

القدِّيس أغسطينوس

❖ لم يّحلْ الروح القدس على جموع اليهود بل على يسوع وحده، إن أردت أن تقبل الروح القدس أيها اليهودي آمن بيسوع، فإن الروح القدس حالْ فيه[2].

القدِّيس جيروم

❖ المسيح يوُلد، والروح هو المهيئ له!

إنه يعتمد، والروح يشهد له!

إنه يُجرب، والروح يقوده (٤: ١، ١٨)!

إنه يصنع معجزات، والروح يرافقها!

إنه يصعد إلى السماء، والروح يحل محلُّه![3]

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ لم يعتمد الرب ليتطهَّر... الذي لم يعرف خطيّة له سلطان على التطهير، بهذا كل من يدفن في جرن المسيح يترك فيه خطاياه...

---

[1] *On the Trinity 15:26:46.*

[2] *On Ps. hom 1 .*

[3] *On the Holy Spirit, 29.*

❖ شرح الرب نفسه سبب عماده: "اسمح الآن لأنه ينبغي لنا أن نكمِّل كل برْ" (مت ٣: ١٥). من بين مراحمه الكثيرة بناؤه الكنيسة، فبعد الآباء والأنبياء نزل الابن الوحيد وجاء ليعتمد، هنا تظهر بوضوح الحقيقة الإلهيّة التي ذُكرت بخصوص "الكنيسة"، وهي إن لم يبنِ الرب البيت فباطلاً تعب البنَّاؤون". إذ لا يستطيع الإنسان أن يبني ولا أن يحرس: "إن لم يحرُس الرب المدينة، فباطل سهِر الحُرَّاس" (مز ١٢٦: ١). إني أتجاسر فأقول أنه لا يستطيع الإنسان أن يسلك في طريق ما لم يكن الرب معه يقوده فيه، كما هو مكتوب: "وراء الرب إلهكم تسيرون وإيَّاه تتَّقون" (تث ١٣: ٤)، "الرب يقود خُطى الإنسان" (حك ٢٠: ٢٤)... الآن تُخلق الكنيسة... يقول "اسمح الآن"، أي لكي تُبني الكنيسة، إذ يليق بنا أن نكمِّل كل برْ.

❖ اغتسل المسيح لأجلنا، أو بالحرى غسلنا نحن في جسده، لذا يليق بنا أن نُسرع لغسل خطايانا...

❖ دُفن وحده ولكنه أقام الجميع،

نزل وحده ليرفعنا جميعًا،

حمل خطايا العالم وحده ليطهِّر الكل في شخصه، وكما يقول الرسول: "نقُّوا أيديكم إذن وتطهَّروا" (يع ٤: ٨)، فالمسيح غير محتاج إلى التطهير، تطهَّر لأجلنا.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ هل كان المسيح في حاجة إلى العماد المقدَّس؟ وأية فائدة تعود عليه من ممارسة هذه الفريضة؟ فالمسيح كلمة الله، قدُّوس من قدُّوس كما يصفه السيرافيم في مختلف التسبيحات (إش ٣: ٦)، وكما يصفه الناموس في كل موضع، ويتَّفق جمهور الأنبياء مع موسى في هذا الصدد.

وما الذي نستفيده نحن من العماد المقدَّس؟ لا شك محو خطايانا، ولكن لم يكن شيء من هذا في المسيح، فقد ورد: "الذي لم يفعل خطيَّة ولا وُجد في فمِه مكْر" (١ بط ٢: ٢٢)، "قدُّوس بلا شرْ ولا دنَس قد اِنفصل عن الخطاة وصار أعلى من السماوات" (عب ٧: ٢٦).

ولكن رُبَّ سائل ضعُف إيمانه يقول: هل اعتمد الله الكلمة وهل كان المسيح في حاجة إلى موهبة الروح القدس؟ كلاَّ لم يكن شيء من ذلك. ما اعتمد المسيح إلا لتعليمنا بأن الإنسان الذي من ذرِّيّة داود وهو المتَّحد بالله الابن عُمد وقبِل الروح القدس. فلماذا تقسِمون غير المقسُوم إلى ابنين وتقولون أنه عُمد في سن الثلاثين فأصبح مقدَّسًا.

ألم يكن المسيح مقدَّسًا حتى بلغ الثلاثين من عمره؟ من هو الذي يرضى بقولكم هذا، وأنتم تُلبِسون الحق بالباطل، وتزيِّفون العقيدة بالزيغ والريب إذ يوجد "رب واحد يسوع المسيح" (١ كو ٨: ٦)، ولذلك

نُعلن على رؤوس الأشهاد: إنه لم ينفصل من روحه لمَّا اعتمد[1]، لأن الروح القدس وإن كان ينبثق من الله الآب فإنه يخُص أيضًا الله الابن، إذ "من مِلئِه نحن جميعًا أخذنا" (يو ١: ١٦). بل وكثيرًا ما سُميَ الروح القدس روح المسيح، مع أنه منبثق من الله الآب على حد قول الرسول بولس: "فالذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يُرضوا الله، وأما أنتم فلستم في الجسد بل في الروح، إن كان روح الله ساكنًا فيكم... يهب الروح القدس لكل من كان جديرًا به، إذ قال: "**بما أنكم أبناء الله أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا يا أبَا الآب**" (راجع غل ٤: ٦)، فبالرغم من أن الروح القدس ينبثق من الله الآب، فإن المسيح الكلمة ابن الله الوحيد الذي يشترك مع الآب في العظمة والسلطان لأنه بطبيعته ابن حقيقي يرسل الروح القدس إلى الخليقة ويهبه لكل من كان جديرًا به، إذ قال: "حقًا كل ما للآب هو لي" (١٦: ١٥)...

كان من الضروري إذن أن الله الكلمة وقد أفرغ نفسه بتواضعه بأن يتَّخذ صورتنا ويكون شبهنا، فهو بِكرُنا في كل شيء، ومثالُنا الذي نحتذي به في كل أمر، وعليه فلكي يعلِّمنا قيمة العماد وما فيه من نعمة وقوّة بدأ بنفسه وتعمَّد، ولما تعمَّد صلَّى، لنتعلَّم يا أحبائي أن الصلاة ضروريّة، فيصلِّي كل حين من أصبح جديرًا بنعمة العِماد المقدَّس.

ويصف الإنجيلي السماء بأنها اِنفتحت كما لو كانت مُغلقة، فإن المسيح يقول: "مِن الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزِلون على ابن الإنسان" (يو ١: ٥١)، لأن طغمة الملائكة في السماء، وبني الإنسان على الأرض يظلِّلهم جميعًا علَم واحد، ويخضعون لراعٍ واحد هو السيِّد المسيح. اِنفتحت السماء فاقترب الإنسان من الملائكة المقدَّسين. نزل الروح القدس إشعارًا منه بأنه وُجدت خليقته ثانية. حلّ أولاً على المسيح الذي قبِل الروح القدس لا من أجل نفسه بل من أجلنا نحن البشر، لأننا به وفيه ننال نعمة فوق نعمة.

فترون أن المسيح حبًا في خلاصنا وفدائنا أخذ صورتنا، وفي هذه الصورة إخلاء ما بعده إخلاء للطبيعة الإلهيّة، وكيف يمكن أن يكون فقيرًا إن لم ينزل إلى درجة فقرنا وعوْزنا، وكيف كان يمكن أن يُخلي نفسه إذا لم يقبل اِحتمال الطبيعة البشريّة؟!

والآن وقد أخذْنا المسيح مثلْنا الأعلى فلِنقترب إلى نعمة العماد الأقدس، وبذلك نجرُؤ على الصلاة بجِدٍ وحرارة، ونرفع أيدينا المقدَّسة إلى الله الآب، فيفتح لنا كُوَى السماوات[2]...

---

[1] يشير إلى بدعة نسطور التي نادت بأن الذي اعتمد هو يسوع في طبيعته البشرية ولم يكن بعد قد حلّ فيه اللاهوت .

[2] عظة ١١.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ هؤلاء ظهروا كمنفصلين لفهمنا، لكنهم بالحقيقة ثالوث غير منفصل[1].

القدِّيس أغسطينوس

❖ لنتأمَّل الآن في سر التثليث، فإذ نقول أن الله واحد لكننا نعترف بالآب والابن... الذي أعلن أنه ليس وحده بقوله: "وأنا لست وحدي لأن الآب معي" (١٦: ٣٢)... والروح القدس حاضر، الثالوث القدُّوس لن ينفصل قط.

القدِّيس أمبروسيوس

٥. نسب السيِّد المسيح

في دراستنا للإنجيل بحسب متَّى (الأصحاح الأول) سبق لنا المقارنة بين نسب السيِّد المسيح كما ورد في إنجيل متَّى مع ما ورد في إنجيل لوقا، لذلك نكتفي بتقديم ملخَّص مع إبراز جوانب أخرى:

أولاً: القديس متَّى كيهودي يكتب لإخوته اليهود اِهتم بإبراز السيِّد المسيح بكونه "ابن داود"، المسيَّا الملك المنتظر، وأنه ابن إبراهيم الذي به تحقَّقت العهود والمواعيد الإلهيّة، أما القديس لوقا وهو يكتب للأمم فيهتم بإبراز أنه أب كل البشريّة.

ثانيًا: قلنا أن القديس متَّى الإنجيلي إذ يقدِّم لنا النسب قبل أحداث الميلاد، حيث أخلى كلمة الله ذاته بالتجسُّد، جاء النسب تنازليًّا من إبراهيم حتى يوسف خطيب مريم، أما في إنجيل القديس لوقا فجاء النسب بعد عماد السيِّد حيث فيه رفعنا إلى البنوَّة لله لذلك جاء النسب تصاعديًا من يوسف حتى آدم "ابن الله".

يقول العلامة أوريجينوس: [اِبتدأ متَّى بذكر الأنساب مبتدئًا بإبراهيم ليصل إلى القول: "أمَّا ولادة يسوع فكانت هكذا" لأنه يهتم ويفرح بذلك الذي جاء إلى العالم... أما لوقا فيصعد بالأنساب ولا ينزل بها، فإنه إذ تحدَّث عن عِماده اِرتفع (بنا) إلى الله نفسه[2].]

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [لم يذكر لوقا الأنساب في البداية، بل بعد حادثة العماد، إذ أراد أن يُظهر بذلك أن الله هو أبونا جميعًا بالمعموديّة، كما أكَّد أن المسيح أتى من قِبَل الله (الآب) بحسب

---

[1] *Ep .169:5.*

[2] *In Luc. Hom .28:1.* (ترجمة الآنسة/ تريز سعد)

نسبه، مُظهِرًا أنه ابنًا للآب بالطبيعة وبالنعمة وبالجسد (إذ جاء من نسل آدم ابن الله)، وقد أوضح البُنوَّة الإلهيّة بشهادة الآب: "هذا هو ابني الحبيب الذي به سُررت".]

لنفس السبب يكرِّر القديس متَّى البشير كلمة "وُلد"، قائلاً مثلاً "إبراهيم وَلد" إسحق... أما الإنجيلي لوقا فيكرِّر كلمة "ابن"...، فالأول يُعلن تسلُّل الخطيّة إلينا خلال الولادات البشريّة، وقد جاء السيِّد الذي بلا خطيّة يحمل خطايا الأجيال كلها، أما القديس لوقا فيرفعنا إلى البُنوَّة لنبلغ "البُنوَّة لله".

ثالثًا: الاختلاف بين الأسماء المذكورة في الإنجيلين يرجع إلى استخدام أحدهم النسب الطبيعي حسب الجسد، والآخر حسب الناموس، كأن ينسب الطفل لوالدين أحدهما أبوه حسب الطبيعة والآخر حسب الشريعة. ففي الشريعة إن مات رجل بلا أولاد تتزوَّج امرأته ولِيَّها، ويكون الولد الأول منسوبًا للميِّت حسب الشريعة.

كما أوضح **القدِّيس أمبروسيوس** أن الإنجيلي متَّى ذكر النسب من جهة سليمان أما الإنجيلي لوقا فمن جهة ناثان، الأول أراد تأكيد نسبه الملوكي والثاني نسبه الكهنوتي: [فهو مَلِك بالملوك وكاهن بالكهنة، لكن مُلكه إلهي وكهنوته فائق، ولهذا السبب أيضًا صار الثور رمز الإنجيلي لوقا لأنه تكلَّم كثيرًا عن الكهنوت.

رابعًا: يرى **العلامة أوريجينوس**[1] أن القديس متَّى أورد أسماء نساء خاطئات وأمميَّات في الأنساب، لأنه جاء يحمل خطايانا ولا يستنكف من نسبه لأحد، أما القديس لوقا فإذ ذكر الأنساب بعد العماد لا نجد أسماء نساء خاطئات، إذ يريد أن يرفع الكل فوق مستوى الضعف.

تحدّثنا قبلاً كيف يريد الله في الكل "رجال ونساء" أن يكونوا رجالاً لا من جهة الجنس، وإنما من جهة الرجولة أو النُضج الروحي، بلا تدليل النساء ولا ضعف الأطفال.

خامسًا: يرى **العلامة أوريجينوس** أن قول الإنجيلي "**ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن ابن يوسف**" [٢٣]. يذكرنا بيوسف بن يعقوب حينما بلغ حوالي الثلاثين من عمره (تك ١٢: ٢) حيث تحرَّر من السجن وصار وكيلاً لفرعون على مخازن القمح يقوم بتوزيعها في وقت الجوع، هكذا السيِّد المسيح إذ يحمل مخازن القمح الروحي من كلمة الشريعة وكتابات الأنبياء، يفيض على تلاميذه الجائعين ليُشبعهم روحيًا من القمح الجديد بلا خمير عتيق!

[1] *In Luc. Hom .28:1.*

الباب الثاني

صديقتا جُرِّب مثلنا

ص ٤

الأصحاح الرابع

صديقنا يُجَرَّب مثلنا

تمثل الأصحاحات الثلاثة السابقة "سفر التكوين الجديد"، إذ حلَّ كلمة الله المتجسِّد في أحشاء البتول كجنين، ثم صار طفلاً فصبيًا يبارِك الطفولة بحلوله في وسط الأطفال، ويهب حلقة جديدة للبشريَّة فيه. والأصحاح الرابع يمثِّل سفر الخروج الجديد، فلا ينطلق بالشعب إلى البرِّيَّة ٤٠ عامًا، إنما يدخل بنفسه إليها ليُجَرَّب واهبًا النصرة لشعبه فيه. في القديم تعثَّر الشعب، وهلك في البرِّيَّة بسبب السقطات المستمرَّة، أما الآن، فقدَّم لنا بتجربته قوَّة وخلاصًا.

١. التجربة في البرِّيَّة ١–١٣.

٢. يسوع في الجليل ١٤–١٥.

٣. يسوع المرفوض من خاصَّته ١٦–٣٠.

٤. يسوع العامل بسلطان ٣١–٣٧.

٥. شفاء حماة بطرس ٣٨–٤١.

٦. كرازته في مجامع الجليل ٤٢–٤٤.

١. التجربة في البرِّيَّة

في الأصحاحات الثلاثة السابقة رأينا صديقنا السماوي ينزل إلينا يشاركنا كل شيء، صار جنينًا في الأحشاء مثلنا، وخضع للناموس، وانطلق مع الجموع إلى المعموديَّة، وإذ ليس له خطيَّة يعترف بها، حملنا فيه خليقة جديدة تتمتَّع بالبنوَّة للآب، وتحمل فيها روحه القدُّوس. فما أُعلن في نهر الأردن من أمجاد كان لحسابنا وباسمنا، فيه استرددنا طبيعتنا الأولى الصالحة، وصار لنا حق التمتَّع بالفردوس المفقود واللقاء مع الآب في دالة البنوَّة. الآن إذ صار مثلنا أكَّد هذه الصداقة على صعيد العمل، فانطلق بالروح إلى البرِّيَّة يُجَرَّب أربعين يومًا. عِوَض البرِّيَّة التي انطلق إليها إسرائيل يحمل روح التذمر المستمر، حملنا هو في جسده إلى البرِّيَّة بطبيعته الغالبة والمنتصرة.

❖ تعالوا نسبِّح للرب، ونرتِّل أناشيد الفرح لله مخلِّصنا، ولِندُس الشيطان تحت أقدامنا، ونهلِّل بسقوطه في المذلَّة والمهانة. لنخاطبه بعبارة إرميا النبي: "كيف قُطعتْ وتحطَّمتْ مطرقة كل الأرض... قد وُجدت وأُمسكت لأنك قد خاصمت الرب" (إر ٥٠: ٢٣–٢٤).

منذ قديم الزمان وقبل مجيء المسيح مخلِّص العالم أجمع والشيطان عدوُّنا الكبير يفكِّر إثمًا وينضح شرًا، ويشمخ بأنفه على ضعف الجبلة البشريَّة، صارخًا "أصابت يدي ثروة الشعوب كعشٍ، وكما يُجمع بيض مهجور جمعت أنا كل الأرض ولم يكن مرفرف جناح ولا فاتح فم ولا مصفِّف" (إش ١٠: ١٤).

والحق يُقال لم يجرؤ أحد على مقاومة إبليس، إلا الابن يسوع المسيح الذي سكن المغارة، كافحه كفاحًا شديدًا وهو على صورتنا، ولذلك انتصرت الطبيعة البشريَّة... في يسوع المسيح، ونالت إكليل الظفر والغلبة، ومنذ القِدم يخاطب الابن على لسان أنبيائه عدوُّنا اللدود إبليس بالقول المشهور: "هأنذا عليك أيها الجبل المُهلك، (يقول الرب) المُهلك كل الأرض" (إر ٥١: ٢٥).

والآن تعالوا معي لنرى كيف يصف الإنجيلي المغبوط يسوع المسيح وهو يقاتل بالنيابة عنَّا مهلك الأرض بأسرها. "**أما يسوع فرجع من الأردن ممتلئًا من الروح القدس**" (لو ٤: ١).

انظروا طبيعة الإنسان في المسيح وقد دهنتها نعمة الروح القدس، وتوَّجتها بالإجلال والإكرام، فإن الله سبق أن وعد قائلاً: "إنّي أسكب روحي على كل بشر" (يوئيل ٢: ٢٨). وقد تمَّت هذه النبوَّة لأول مرَّة في يسوع المسيح، لأن الله لم يهب روحه للناس قديمًا، وكانوا ضعاف العقول صغار النفوس، فقد ورد: "لا يدين روحي في الإنسان لزيغانه، وهو بشر" (تك ٦: ٣). ولكن في المسيح وُجدت خليقة جديدة تقدَّست بالماء والروح، فلم نصبح أولاد لحم ودم، بل أبناء الله الآب، فلنا الآن نعمة التبنِّي، وبهذا العطف الأبوي صرنا شركاء في الطبيعة الإلهيَّة.

فلم يكن بمستغربٍ إذن أن يكون بِكْرنا أول من يتسلَّم الروح القدس، مع أنه هو مانح الروح القدس حتى يهبه لنا نحن إخوته الأعزَّاء. وأشار إلى ذلك بولس الرسول بالقول: "لأن المقدَّس والمقدَّسين جميعهم من واحد، فلهذا السبب لا يستحي أن يدعوهم إخوة قائلاً: "أُخبر باسمك إخوتي" (عب ٢: ١٢).

لذلك يصف الإنجيلي المسيح: "**رجع من الأردن ممتلئًا من الروح القدس**" (لو ٤: ١) وأرجو ألا تنحرفوا عن جادة الحق ولا يُسيئكم القول بأن المسيح الكلمة تقدَّس، بل فكَّروا بالأولى في حكمة الفداء والخلاص، فإن المسيح تأنَّس وتجسَّد لا حبًا في تجنُّب ما اِختصَّ به الإنسان، بل شاركنا في إنسانيَّتنا حتى يزيدنا من غناه، ويشرِّفنا بعظمة مكانته فإن المسيح شاركنا في كل شيء ما عدا الخطيَّة.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ كان هدف ربَّنا يسوع المسيح في صومه وخلوته هو شفاؤنا من جاذبيَّة الشهوة، فلأجل الجميع قَبِل أن يُجَرَّب من إبليس لنعرف كيف ننتصر نحن فيه.

❖ جاء الرب ليعتمد لأنه صار للكل كل شيء (١ كو ٩: ٢٠). خضع للناموس لأجل الذين هم تحت الناموس، فاختتن ليكسب الذين تحت الناموس، وشارك الذين بلا ناموس في أكلهم ليربح الذين بلا ناموس. صار للضعفاء كضعيفٍ بالآلام التي تحمَّلها في جسده ليربحهم (٢ كو ٨: ٩). فرحًا مع الفرحين، بكاءً مع الباكين (رو ١٢: ١٥)، جاع مع الجياع... كريمًا مع الأغنياء وسجينًا مع الفقير (إش ٢٦: ٢٠)، عطش مع السامريَّة (يو ٤: ٧)، وجاع في البرِّيَّة (مت ٤: ٦) ليُكفِّر بصومه عن سقوط آدم الأول الذي سبَّبه شهوة الطعام والتلذُّذ به، فشبع آدم من معرفة الخير والشر لضررنا، وجاع المسيح لفائدتنا.

القدِّيس أمبروسيوس

"**وكان يُقتاد بالروح في البرِّيَّة،**
أربعين يومًا يجُرَّب من إبليس،
ولم يأكل شيئًا في تلك الأيام،
ولما تمَّت جاع أخيرًا" [١-٢].

❖ سكن المسيح البرِّيَّة بالروح، أي روحيًا، وصام فلم يهب الجسم حاجاته الضروريَّة. قد يسأل أحدكم: وأي ضرر ينشأ إن سكن المسيح المدن على الدوام؟ وكيف استفاد المسيح من عيشته في البرِّيَّة، وهو لم يكن في حاجة إلى صلاح؟ ولمَ صام المسيح مع أنه لم يكن في حاجة إلى الصوم؟ فقد وُضعت هذه الفريضة لقتل اللذَّات والشهوات وإخضاع ناموس الخطيَّة الذي في داخلنا والمتملُّك على مختلف الانفعالات التي تبعث فينا شهوة الجسد الدنيئة؟ فهل كان المسيح في حاجة إلى الصوم، وهو الذي به قَتل الآب الخطيَّة في الجسد، حتى أن بولس الرسول الحكيم يقول: "لأنه ما كان الناموس عاجزًا عنه فيما كان ضعيفًا بالجسد، فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطيَّة، ولأجل الخطيَّة دان الخطيَّة في الجسد، لكي يتم حكم الناموس فينا، نحن السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح" (رو ٨: ٣)؟

فالمسيح إذن دان الخطيَّة في الجسد ومحا الإثم الذي تمَلَّك الطبيعة البشريَّة رِدحًا من الزمن؟ مارس المسيح الصوم وهو مقدَّس ونقي بطبيعته لا عيب فيه ولا نقص ولا تغيير ولا ظل دوران! لمَ صام المسيح فاعتزل عيشة المدن وسكن البرِّيَّة وتحمَّل تعب الصوم؟ أن هذا العمل العظيم الذي قام

به المسيح هو لتعليمنا يا أحبائي. فقد رسم لنا المسيح الخُطَّة التي يجب علينا انتهاجها، ومهَّد لنا طريقًا قويمًا نسير عليه، هذا الطريق الذي يسير فيه جماعة الرهبان المقدَّسين؟ وإلا كيف كان الناس يعشقون عيشة البراري، ويستفيدون من حياة العُزلة والانفراد ويرون فيها خلاصًا لنفوسهم وسلامًا لأرواحهم؟ إن جماعة الرهبان يهجرون العالم ليبتعدوا عن أمواجه الهائجة وعواصفه الثائرة، ويحرَّروا نفوسهم من الفوضى والاضطراب والغرور والشهوات، أو كما قال يوسف المغبوط يخلع الناس عنهم ما عليهم ليقدِّموا للعالم مقتنياته وممتلكاته. ويشير بولس الرسول إلى أولئك الذين تعوَّدوا العيشة مع المسيح: "ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات" (غل ٥: ٢٤). ويُضيف إلى ذلك قوله بأن عيشة الزهد لابد منها، وأن ثمار هذه العيشة الصوم والتحمُّل ونبذ الأطعمة قليلاً أو كثيرًا فإنه بذلك يمكن قهر الشيطان، ولكن لاحظوا أن المسيح عُمِّد أولاً ثم امتلأ بالروح القدس، وبعد ذلك سكن البرِّيَّة واتَّخذ الصوم سلاحًا له في محاربة إبليس وجنوده، وكل هذا لتعليمنا، حتى ننسج على منواله، ونحتذي منهجه، فعليكم بادئ ذي بدء أن تلبسوا خوذة الله، وتتمنطقوا بدِرعِ الإيمان، وتتمسَّكوا بصولجان الخلاص. يجب في بداية الأمر أن تُمنحوا قوَّة من الأعالي، وذلك عن طريق العماد المقدَّس، فيمكنكم بهذه أن تسلكوا حياة شريفة مع الله العظيم، ثم بشجاعة روحيَّة تعتزلون الناس للسكن في البراري، ثم تصومون صومًا مقدَّسا، فتقمعون أهواء الجسم، وتهزمون إبليس إذا ما أراد تجريبكم، ففي المسيح إذن نجد كل سلاح نتقوَّى به.

نعم يظهر المسيح بين المقاتلين فيَمنح الجائزة ويتوِّج المنتصرين بإكليل الفوز والغلبة. والآن فلنتأمَّل مصارعات المسيح مع إبليس؟ "**صام أربعين يومًا، وجاع أخيرًا**".

كيف يجوع المسيح وهو الذي يُشبعنا من دسم نعمته؟ أليس المسيح هو الخبز السماوي الذي نزل من السماء حتى لا يجوع من يتغذى منه؟ صام المسيح "**وجاع**" لأنه قَبِلَ أن يكون مثلنا، فكان لابد أن يتحمَّل ما يجب أن يتحمَّله إنسان بشري.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ [يقدِّم لنا مقارنة بين تجرِبة آدم في الفردوس، وتجرِبة آدم الثاني في البرِّيَّة] لنتأمَّل كيف طُرد آدم الأول من الفردوس، ولنعرف كيف رجع آدم الثاني من البرِّيَّة إلى الفردوس، ولنتأمَّل أيضًا كيف تمَّ الإصلاح وبأي ترتيب حدث. وُلد آدم من أرض بكر، ووُلد المسيح من العذراء (البكر)، خُلق آدم على صورة الله، أما المسيح فهو صورة الله (الجوهريَّة). كان للأول سلطان على كل الحيوانات غير العاقلة، أما الثاني فله سلطان على كل شيء.

اتَّصفَت حواء بالتردُّد، واتَّصفت العذراء بالحكمة.

جاءت الشجرة بالموت، وجاء الصليب بالحياة.

كان الأول في الفردوس، أما المسيح فكان في البرِّيَّة، لكنه جاء ليبدِّد ضلال المحكوم عليه ويردُّه للفردوس...

لم يكن ممكنًا أن يتراجع الله عن حُكمه، فتمَّ حُكم الموت في واحد عوض الآخر.

إن كان آدم قد سقط وهو في الفردوس لعدم وجود الراعي، فكيف كان يمكنه أن يجد الطريق وهو في البرِّيَّة بلا راعٍ يقوده؟ ففي البرِّيَّة تكثر التجارب... ويسهل الانحدار نحو الخطيَّة...

أي راع يستطيع أن يعيننا أمام فِخاخ هذه الحياة وخِداعات إبليس "لكي نجاهد ليس ضد لحم ودم، بل ضد الرؤساء والسلاطين وأجناد الشر الروحيَّة في الهواء" (أف ٦: ١١)؟! هل يُرسل الله ملاكًا وقد سقط بعض الملائكة؟!... هل يرسل ساروفًا، هذا الذي نزل على الأرض وسط شعب نجِس الشِفتين (إش ٦: ٦)، لم يُطهِّر سوى شَفتيّ نبي واحد بجمرَّة من نار؟! إذن كان يلزم البحث عن راعٍ آخر نتبعه جميعنا؛ فمن هو هذا الراعي العظيم الذي يستطيع أن يهيئ الخير للجميع إلا ذاك الذي هو أعلى من الكل؟! من يرفعني فوق هذا العالم إلا مَن هو فوق العالم؟! من هو هذا الراعي العظيم الذي يستطيع بقيادة واحدة يرعى الرجل والمرأة، اليهودي واليوناني، أهل الختان وأهل الغُرلة، البربري والسكِّيثي (كو ٣: ١١)، العبد والحر، إلا ذاك الذي هو الكل في الكل؟!

الفخاخ كثيرة أينما ذهبنا، فخاخ الجسد، وفخاخ الناموس (حرفيَّته)، والفخاخ التي ينصبها إبليس على جناح الهيكل وعلى قمَّة الجبل، وفخاخ الفلسفات، وفِخاخ الشهوات، لأن العين الزانية هي فخْ الخاطئ (أم ٧: ٢٢)، وفِخاخ محبَّة العالم، وفِخاخ التديُّن (الرياء)، وفِخاخ في حياة الطهارة (احتقار سرّ الزواج)... غير أن أفضل طريقة تحطِّم هذه الفِخاخ هو عرض طُعم لإبليس لينقَضْ على فريسته فينطبق الفخْ عليه، عندئذٍ نستطيع أن نردِّد: "نصبوا لرجلي فخاخًا فسقطوا فيها" (مز ٥٦: ٧). ما هذا الطُعم إلا الجسد... فقد أخذ الرب جسد تواضعنا وضعفنا، ليُعطي فرصة للعدو أن يحاربه فينهزم العدو إبليس...

الآن المسيح في البرِّيَّة يقود الإنسان ويعلِّمه ويشكِّله ويدرِّبه ويدهنه بالمسحة المقدَّسة، وعندما يراه قويًا يقوده إلى المراعي الخضراء المخصبة... أخيرًا يقوده إلى البستان أثناء الآلام، كما هو مكتوب: "تكلَّم يسوع بهذا ثم خرج مع تلاميذه إلى جبل الزيتون، حيث كان بستان دخله مع تلاميذه" (يو ١٨:

١)... أخيرًا فإن إرجاع الإنسان بقوّة الرب تؤكِّد لنا هذه الحقيقة التي أبرزها القدّيس لوقا بين كل البشريِّين، بتلك الكلمات التي قالها الرب للِّص: "أنك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٤).

❖ رجع يسوع ممتلئًا من الروح القدس إلى البرِّيَّة يتحدَّى إبليس، فلو لم يجَرِّبه إبليس لما انتصر الرب لأجلي بطريقة سِرِّيَّة، محرِّرا آدم من السبي.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ "لقد أُصعد يسوع إلى البرِّيَّة من الروح"، بلا شك من الروح القدس، ليس كمن هو مُلزم أو من هو أسير، إنما أُقتيد باشتياق إلى المعركة ليُصارع[1].

القدِّيس جيروم

❖ يسوع قائدنا سمح لنفسه بالتجربة حتى يُعلِّم أولاده كيف يحاربون[2].

القدِّيس أغسطينوس

أ. تجربة الخبز

إذ دخل السيِّد المسيح المعركة نيابة عنا، ليغلب باسمنا ولحسابنا، بدأت التجارب بتجربة الخبز، فقد طلب الشيطان من السيِّد المسيح أن يحول الحجر إلى خبز ليأكله في جوعه. من جانب فإن هذه التجربة تقابل تجربة آدم الأول الذي سقط في العصيان خلال الأكل من شجرة معرفة الخير والشر. فجاء السيِّد صائمًا يقاوم العدُو ويغلبه رافضًا السماع له رغم إمكانيَّته من تحويل الحجر إلى خبز، كما حوّل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل. ومن جانب آخر فإن هذه التجربة سمح بها الرب ليُعلن أُبوَّة الشيطان المخادعة للخطاة، فإن الآب الحقيقي لا يقدِّم حجرًا إن طلب منه ابنه خبزًا كقول السيِّد المسيح (لو ١١: ١١)، أما هذا العدو فيقدِّم حجرًا عوض الخبز ليأكله الإنسان، فيحمل في أحشائه حجرًا قاسيًا!

ليتنا نرفض كل حجر يقدِّمه العدو فلا نأكله كخبز لننمو قساة القلب بلا حب ولا حنو!

يرى **العلامة أوريجينوس أن** الحجر الذي يقدِّمه العدو هو الهرطقات التي يقدِّمها العدُو كخبزٍ غاشٍ، فنظنَّها كلمة الله المشبعة.

"وقال له إبليس:

---

[1] *In Matt. Hom 4:1.*
[2] *Sermons on N.T. Lessons 1.*

إن كنتَ ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزًا.
فأجابه يسوع، قائلاً:
"**مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان،**
بل بكل كلمة تخرج من فم الله" [٣-٤].

❖ قفز إبليس إلى حيث كان المسيح، ونظر إلى الحجر وخاطب المسيح، قائلاً: "**إن كنت ابن الله، فقلْ لهذا الحجر أن يصير خبزًا**" (لو ٤: ٣). ترون أن إبليس يدنو من المسيح كإنسانٍ، كأحد القدّيسين، ومع ذلك يرتاب في المسيح. لكن كيف سعى الشيطان ليتحقَّق من لاهوت المسيح؟ كان يعلم أنه لا يمكن تغيير طبيعة المادة إلى طبيعة أخرى تغايرها في الجوهر إلا بقوَّة إلهيَّة، فإما المسيح يُغيِّر المادة فيرتبك إبليس في أمره، أو يعجز عن القيام بهذا العمل، فيُسَر الشيطان لأنه لم يجد أمامه سوى إنسانًا ضعيفًا يمكن مقاومته.

علم السيِّد المسيح ما كان يجول بخُلد إبليس، فلم يغيِّر الخبز ولم يعلن عجزه عن تغييره. اِنتهر المسيح الشيطان بالقول: "**ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان**" (لو ٤: ٥). ومعنى ذلك أنه إذا منح الله الإنسان القوَّة أمكنه أن يحيا بدون أكل، وعاش كما عاش موسى وإيليَّا بقوَّة أربعين يومًا ولم يذوقا شيئًا، فإذًا استطاع المسيح أن يعيش بدون طعام، فلم يحوِّل الحجر خبزًا إلا أن المسيح لم يقل قط أنه "لا يستطيع ذلك" حتى لا يتطرَّق الشك بأنه إنسان لا إله، ولم يقل أستطيع ذلك لئلا يتركه الشيطان وشأنه، وكان المسيح يريد تعليمنا دروسًا أخرى.

لاحظوا يا أحبائي كيف أن طبيعة المسيح نبذَت شراهة آدم ونهمه، فبأكل آدم غُلبنا، وبزهد المسيح انتصرنا.

الجسم يأكل ما تُخرجه الأرض من دسم، أما النفس العاقلة فطعامها كلمة الله الخالدة. فإن الخبز الذي تجود به الأرض يُغذي جسمًا عناصره هي عناصر الخبز الأرضي، أما الخبز السماوي الذي يبعث به الله من فوق يُغذِّي النفس الباقية. هذا هو الخبز السماوي الذي يتغذَّى به جمهور الملائكة.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ينكشف لنا من هذه التجربة أن لإبليس ثلاثة سهام اعتاد أن يستخدمها ليجْرح قلب الإنسان: شهوة الأكل، المجد الباطل، الطمع! (يبدأ من حيث اِنتصر إبليس) هكذا تبدأ نُصرتي في المسيح من حيث غلبني إبليس في آدم...

يقول: "**إن كنتَ ابن الله**"، فقد كان إبليس يعلم تمامًا أنه ينبغي أن يأتي ابن الله، لكنه لم يكن يعتقد أنه يأتي في ضعف، لهذا أراد أن يتأكَّد ثم يُجرِّبه بعد ذلك...

انظروا أسلحة المسيح التي بها انتصر من أجلكم وليس لأجل نفسه، فإنه قادر أن يحوِّل العناصر (كما في عرس قانا الجليل)، لكنه يعلِّمنا ألا نطيع إبليس في شيء، ولا لإظهار قوَّتك. لنعرف أيضًا من هذه التجربة مهارة إبليس الخادعة فهو يجرِّب ليتأكَّد من الحقيقة ليخترق الإنسان ويُجرِّبه... ولم يستخدم الرب سلطانه كإله وإلا فإننا لم نكن نجني فائدة، إنما استخدم الإمكانيَّة العامة وهي استخدام كلام الله.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ قل لهذا "**الحجر**"، أي حجر هو هذا؟ بلا شك الحجر الذي كان إبليس يريه إيّاه طالبًا أن يحوِّله إلى خبز. إذن ما هي التجربة؟...

الشيطان العدو المخادع يقدِّم حجرًا عِوَض الخبز (لو ١١: ١١). هذا ما يريده الشيطان أن يتحوَّل الحجر إلى خبز، فينمو الناس لا على الخبز، وإنما على الحجر الذي يُريه الشيطان على شكل خبز. وإنني أعتقد أن الشيطان لا يزال يُرينا الحجر ويقول لكل أحد: "قل لهذا الحجر أن يصير خبزًا..." فإن رأيت الهراطقة يأكلون تعاليمهم الكاذبة كخبزٍ، فاعلم أن مناقشاتهم وتعاليمهم هي الحجر الذي يُظهره الشيطان لنأكله كخبز...

لنسهر إذن ولا نأكل حجارة الشيطان ظانِّين أننا ننمو بخبز الرب[1]...

العلامة أوريجينوس

❖ يخضع الجسد لتجربة الجوع لتُعطى فرصة لإبليس كي يجرِّبه[2].

القدِّيس جيروم

❖ تأكَّد تمامًا أن العدو يهاجم القلب عن طريق امتلاء البطن.

الأب يوحنا من كرونستادت

ب. تجربة الصليب

---

[1] *In Luc. hom 29:3,4.*
[2] *In Matt 4:2.*

في التجربة السابقة أراد إبليس أن يقدِّم للسيِّد الحجر خبزًا، لكن السيِّد رفض تحويل الحجر خبزًا، مقدَّما نفسه "**الخبز الحيّ النازل من السماء**" شبعًا لمؤمنيه. والآن إذ كان إبليس يعلم أن المسّيا القادم يملك إلى الأبد خلال الصليب والألم. أراه ممالك العالم ليملُك، لكن ليس خلال الصليب، وإنما خلال الطريق السهل والباب الواسع وهو "السجود لإبليس نفسه". رفض المسيح بهذا الطريق الواسع الرحب بقوَّة، فتح لنا الباب لنملُك نحن أيضًا معه خلال آلامه لا خلال الشر.

❖ يريد ابن الله كما ضد المسيح أن يملُكا، لكن ضد المسيح يريد أن يملك ليُهلك من له، أما المسيح فيملُك ليخلِّص (بالصليب). فمن كان فينا أمينًا يملُك المسيح عليه بكلمته وبالحكمة والعدل والحق؛ أما إذا فضَّلنا الشهوة عن الله فتملُك الخطيَّة علينا، حيث يقول الرسول: "إذًا لا تملُكنَّ الخطيَّة في جسدكم المائت" (رو ٦: ١٢).

إذن ملِكان يبادران لكي يملُكا، تملُك الخطيَّة أو الشيطان على الأشرار، ويملُك العدل أو المسيح على الأبرار.

إذ كان إبليس يعلم أن المسيح جاء ليغتصب ملكوته، ويُخضع لقوته وسلطانه أولئك الذي كانوا قبلاً خاضعين للمخادع، "**أراه جميع ممالك المسكونة**" وكل سكان العالم، أراه كيف يملك على الواحد بالشهوة، وعلى الآخر بالبُخل، وثالث بحب المجد الباطل، ويأسِر آخرين خلال جاذبيَّة الجمال... وكأن الشيطان يقول له: أتريد أن تملك على كل الخليقة؟! وأراه الجموع غير المحصية التي تخضع له، والحق يُقال لو قبلنا أن نعرف في بساطة بؤسنا ونُدرك مصيبتنا لوجدنا الشيطان يملك في معظم العالم، لذلك يسمِّيه الرب "**رئيس هذا العالم**" (يو ١٢: ٣١؛ ١٦: ١١). وعندما يقول إبليس ليسوع: أترى جميع الشعب الخاضع لسلطاني؟ يكون قد أراه ذلك "في لحظة من الزمان"، إذ يحسب الوقت الحالي لحظة أن قورن بالأبديَّة... حينئذ قال إبليس للرب: أجئت لتصارع ضدِّي، وتنزع عنِّي كل الذين هم تحت سلطاني؟ لا، لا تحاول أن تقارن نفسك بي، ولا تعرض نفسك لصعاب هذه المعركة. انظر كل ما أطلبه منك، "إن سجدت أمامي يكون لك الجميع".

بدون شك يريد ربَّنا ومخلِّصنا أن يملك، لكن بالعدل والحق وكل فضيلة... لا يريد أن يكلَّل كملكٍ بدون تعب (الصليب)...

أجابه الرب قائلاً: "**مكتوب للرب إلهك تسجد، وإيّاه وحده تعبد**" (تث ٦: ١٣). إرادتي هي أن يكون الكل لي يعبدونني، ولا يسجدون لغيري. هذه هي الرغبة الملوكيَّة. أتريدني أن أخطئ أنا الذي جئت لأبيد الخطيَّة وأُحرَّر الناس منها؟!

لنفرح ولنبتهج نحن إذ صرنا له، ولنُصَلِ إليه ليقتل الخطيَّة التي ملَكت في أجسادنا (رو ٦: ٦) فيملك وحده علينا[1].

العلامة أوريجينوس

❖ "**وأراه جميع ممالك المسكونة**" [٥] كيف تجرؤ أيها الشيطان المارد اللعين فتُري السيِّد ممالك العالم وتخاطبه بالقول: "لك **أعطي هذا السلطان كله ومجدهن... إن سجدتَ أمامي**" (لو ٤: ٦)؟ كيف تعد بأن تهب ما ليس لك؟! من الذي نصَّبك وارثًا على مملكة الله؟! ؟إنك اِغتصبت هذه الممالك غشًا وزورًا، فرُد ما اغتصبته إلى الابن المتجسِّد رب العالم بأسره، واسمع ما يصرح به النبي إشعياء ضد إبليس وجنوده: "لأن تُفتة مرتَّبة منذ الأمس مهيَّأة، هي أيضًا للملِكِ عميقة واسعة، كومتها نار وحطب بكثرة، نفخة الرب كنهر كبريت توقدها" (إش ٣٠: ٣٣).

فكيف تتقدَّم أيها الشيطان، ونصيبك الهاويَّة السحيقة مِلكًا؟... وكيف يسجد السيِّد لك، والسيرافيم وجميع طغمات الملائكة لا يغفلون طرفة عين عن التسبيح لاسمه لأنه مكتوب: "للرب إلهك تسجد وإيّاه وحده تعبد" (لو ٤: ٨)؟!

حقًا لقد أصابت هذه الآية مقتلاً من إبليس لأنه كان قبل نزول المسيح ومجيئه يخدع كل الذين تظلِّلهم القبَّة الزرقاء، فتجثو له كل ركبة، أما وقد جاء المسيح فقد شاءت رحمته أن يرجع الناس عن غلوائهم ويقدِّموا له السجود والعبادة والإكرام.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ليس العيب في السلطان في ذاته، وإنما في الطمع الباطل، وعلى هذا فإن تأسيس السلطان يأتي من قِبَل الله، ومن يستعمله يكون سفيرًا لله بكونه خادم الله للصلاح (رو ١٣: ٣-٤). العمل في ذاته ليس خطيَّة، لكن العيب في الذي ينفِّذه... يجب أن نميِّز بين الاستخدام الصالح للسلطان والاستخدام الطالح...

القدِّيس أمبروسيوس

❖ أراه مجد العالم على قمَّة جبل، هذا الذي يزول، أما المخلِّص فنزل إلى الأماكن السفليَّة ليهزم إبليس بالتواضع.

القدِّيس جيروم

---

[1] *In Luc. Hom 30:1-4.*

❖ أعلن الرب أن الشيطان كذَّاب من البدء، وليس فيه الحق (يو ٨: ٤٤)، وبكونه كذَّابًا وليس فيه الحق فإنه لا ينطق بالحق بل بالكذب، عندما قال: "**إليّ قد دُفع وأنا أعطيه لمن يريد**[1]" (لو ٤: ٦).

❖ لقد كذب الشيطان في البداية وبقي في كذبه حتى النهاية، فإنه ليس هو الذي يقيم ممالك هذا العالم بل الله إذ "**قلْب الملك في يد الله**" (أم ٢١: ١). كما يقول الكلمة خلال سليمان: "**بي تملك الملوك وتقضي العظماء عدلاً، بي تترآس الرؤساء والشرفاء وكل قضاة (ملوك) الأرض**" (أم ٨: ١٥)[2].

❖ لقد فضحه الرب كاشفًا حقيقة شخصيَّته، إذ قال له: "**اذهب يا شيطان**" [٨]... مُظهرًا ذلك من ذات اسمه، فإن كلمة "شيطان" في العبريَّة تعني "مرتد[3]".

القدِّيس إيريناؤس

ج. تجربة في المقدَّسات

إن كان عدو الخير إبليس قد حاول أن يُجرِّب "يسوع" في لقمة العيش بتحويل الحجر إلى خبزٍ، وقد فشل إذ قدَّم السيِّد المسيح نفسه خبزًا حقيقيًا يُنعش النفس وينزع عنها طبيعتها الحجريَّة، وفي التجربة السابقة أراد تحطيم هدفه بفتح طريق سهل وقصير لكي يملك دون الحاجة إلى صليب، لكن الرب أصرَّ ألا يقبل إلا أن يدخل دائرة الصليب. أما التجربة التي بين أيدينا فتمس العبادة ذاتها، إذ تمّت في أورشليم على جناح الهيكل، وقدَّم الشيطان عبارة من الكتاب المقدَّس: "**لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك، وأنهم على أياديهم يحملونك، لكي لا تصدم بحجر رجلك**" [١٠-١١]، سائلاً إيّاه أن يطرح نفسه من جناح الهيكل إلى أسفل.

هذه التجربة يتعرَّض لها بالأكثر الرعاة والخدَّام والمتديِّنون، فإن عدو الخير يحاربهم في أورشليم في هيكل الرب، يقدِّم لهم كلمات الكتاب المقدَّس مشوَّهة سواء في بعض كلماتها أو في فهمها ليحوِّل عبادتهم إلى شكليَّات واستعراضات ورياء، طالبًا منهم عِوَض أن يصعدوا منطلقين نحو السماويَّات أن ينطرحوا من جناح الهيكل إلى أسفل، إذ **يحدرهم** الشكل أو الرياء عن غايتهم الحقَّة.

---

[1] *Adv . Haer 5:22:2.*
[2] *Adv . Haer 5:24:1.*
[3] *Adv . Haer 5:21:2.*

❖ لنلاحظ بداية هذا الإنجيل الذي سمعناه اليوم، ولنضع في النور الأمور المخفية فيه "**جاء (إبليس) به إلى أورشليم**"، الأمر الذي يبدو غير مُصدق أن إبليس يقود ابن الله، وهو يتبعه؛ فإنه يشبه المصارع الذي يذهب إلى التجربة ولا يخشاها، ولا يرهب مصيدة العدو المخادع للغاية وغير المحتملة، وكأنه يقول: ستجدني أقوى منك.

قاده إلى قمَّة الهيكل وطلب منه أن يطرح نفسه من فوق، وكان هذا العرض تحت ستار أنه يتم لمجد الله...

يتكلَّم الشيطان ويستند على الكتاب المقدَّس... لكن ليته لا يخدعني الشيطان حتى وإن استخدم الكتاب المقدَّس...

تأمَّل العبارة التي يعرضها إبليس على الرب: "**مكتوب أن يوصي ملائكته بك لكي يحفظونك وعلى أيديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك**". انظر كم هو مخادع حتى في اختياره للعبارات، فإنه يريد أن يقلِّل من مجد الرب، كما لو كان يسوع محتاجًا إلى معونة الملائكة؛ كما لو كان يمارس عملاً خاطئًا ما لم تسنده الملائكة. هكذا يقتبس إبليس عبارة من الكتاب لا تناسب المسيح ويطبِّقها عليه، إنما تناسب القدِّيسين بوجهٍ عام... المسيح ليس بمحتاج لمعونة الملائكة، إذ هو أعظم منهم، ويرث اسمًا أعظم وأسمى: "لأنه لمن من الملائكة قال قط أنت ابني أنا اليوم ولدتك؟!" (عب ١: ٥-٧؛ مز ٢: ٧)...

بعد ما قال: "إنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك، وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصطدم بحجر رجليك"، يصمت إبليس عن التكملة وهي: "على الأسد والصل تطأ، الشبل والثعبان تدوس" (مز ٩١: ١٣). فلماذا تعبر على هذه العبارة بصمت أيها الشيطان؟! لأنك أنت هو الصل وملك كل الحيَّات. أنت تعرف أنك تحمل على جانبيك قوَّة عدوانيَّة أخرى تسمى "الأسد"، تخضع للأبرار تحت أقدامهم، لذلك لا تتكلَّم عن هذا الأمر.

أنت هو الشِبل والثعبان، حيث مكتوب: "على الأسد والصل تطأ، الشِبل والثعبان تدوس". إن كنت تصمت ولا تذكر شيئًا ضدَّك، لكننا نحن إذ نقرأ الكتاب باستقامة ندرك تمامًا أن لدينا سلطانًا أن نطأك بالأقدام، هذا السلطان لم يوهب لنا في العهد القديم حيث كان المزمور يرنِّم به، وإنما أيضًا في العهد الجديد. ألم يقل المخلِّص: "ها أنا أعطيكم السلطان أن تدوسوا الحيَّات والعقارب وكل قوَّة العدو

ولا يضرُّكم شيء؟!" (لو ١٠: ١٩). لنستند على هذا السلطان ونأخذ سلاحنا، ونطأ بسلوكنا الشِبل والثعبان[1]...

العلامة أوريجينوس

❖ "**إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل**" [٩]. أما التجربة الثالثة فكان محورها الزَهْو والخيلاء "**اطرح نفسك من هنا**" حتى تثبت أمام الملأ لاهوتك، إلا أن المسيح أجابه: "**لا تجرِّب الرب إلهك**" (لو ٤: ١٢) فإن الله لا يساعد من يجرؤ على تجربته ولم يُعطِ المسيح قط آية لمن جاءه بقصد تجربته، إذ ورد: "فأجاب وقال لهم جيل شرِّير وفاسق يطلب آية ولا يُعطى له آية إلا آية يونان النبي" (مت ١٢: ٣٩).

لا غرابة أن يتقهقر أمام المسيح بعد هذه الثلاث تجارب، فيقدِّم لنا المسيح المنتصر إكليل الفوز والغلبة على حد قول الصادق: "ها أنا أعطيكم سلطانًا لتدوسوا الحيَّات والعقارب وكل قوَّة العدو ولا يضرُّكم شيء" (لو ١٠: ١٩).

"**لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظونك**" [١٠]

وانظروا كيف يقتبس إبليس من الأسفار الإلهيَّة ليستعين بها على تصويب سهمه الدنيء، لأن هذه الآية التي وردت في المزامير لا تشير إلى المسيح، لأن المسيح ليس في حاجة إلى ملائكة. أما جناح الهيكل فقصد به البناء المرتفع الذي أقيم بجوار الهيكل.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ هذا هو شيطان المجد الباطل، فعندما يظن الإنسان أنه قد ارتفع عاليًا ويشتهي القيام بالأعمال العظيمة يسقط في الهاوية.

قال له: "**إن كنتَ ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل**" لا ينطق بهذه الكلمات إلا الشيطان الذي يحاول أن يُحدر الروح الإنسانيَّة إلى أسفل من حيث سمت بفضائلها؟! هل شيء يوافق الشيطان إلا النصح بالانحدار إلى أسفل؟!...

لا يستطيع إبليس أن يؤذي إلا من يدفع نفسه إلى أسفل، أي يترك السماء ليختار الأرض...

القدِّيس أمبروسيوس

❖ هذه هي كلمات إبليس دائمًا إذ يتمنَّى السقوط للجميع[1].

---

[1] *In Luc hom 31:1-7.*

القدِّيس جيروم

ختم حديثه عن التجربة "**ولما أكمل إبليس كل تجاربه فارقه إلى حين**" [١٣]. إن كان الشيطان لا يمِلّ عن المصارعة بالرغم من هزيمته المُرَّة في كل التجارب، إذ يقول "**فارقه إلى حين**"... فقد جاء بقيَّة السفر عبارة عن صراع مستمر بين السيِّد المسيح وإبليس بكل طريقة، سواء مباشرة أو خلال خدَّامه، لهذا يليق بنا ألا ننخدع إن تركنا العدو، فإنه يفارقنا إلى حين لكي يعود فيصارعنا.

❖ لما سمع إبليس اسم "الله" فارقه إلى حين، إذ جاء بعد ذلك لا ليُجربه وإنما ليُحاربه علانيَّة. والكتاب المقدَّس يُعرِّفك أنك في حرب ليس مع لحم ودم بل مع السلاطين والرؤساء مع أجناد الشر الروحيَّة (أف ٦: ١٢).

انظر رِفعة المسيحي الذي يُحارب رؤساء العالم (الشياطين)، فمع أنه يعيش على الأرض لكنه يبسط قوَّته الروحيَّة أمام أرواح الشرّ في السماويَّات. ونحن لا نُكافأ بأمور أرضيَّة في حربنا من أجله إنما مكافآتنا روحيَّة هي ملكوت السماوات وميراث المسيح.

يليق بنا أن نجاهد بكل مقاومة لإبليس، فالإكليل مقدَّم لنا، ويلزمنا أن نقبل الدخول معه في حرب. لا يكلَّل أحد ما لم يَغلب، ولا يمكن له أن يغلب ما لم يحارِب (٢ تي ٢: ٥). والإكليل يعظُم كلما كثر الألم، لأنه ضيق وكرب هو الطريق المؤدِّي للحياة، وقليلون هم الذين يجدونه، وواسع هو الطريق المؤدِّي للموت (مت ٧: ١٣).

يليق بنا ألا نخشى تجارب هذه الحياة قط، فهي فرصة مقدَّمة للغلبة ومادة للنصرة...

المُضل يُكثر من جرح المجاهد، ومع ذلك فالمُجاهد في شجاعته لا يضطرب قلبه...

إن تعرَّضت للتجارب فاعلم أن الأكاليل تُعَد!....

أُلقي يوسف في السجن كثمرة لطهارته، لكنه ما كان يشارك في حكم مصر لو لم يبِعه إخوته.

القدِّيس أمبروسيوس

٢. يسوع في الجليل

"ورجع يسوع بقوَّة الروح إلى الجليل،

وخرج خبر عنه في جميع الكورة المحيطة،

وكان يعلِّم في مجامعهم ممجَّدًا من الجميع".

[1] *In Matt 4:6.*

لم يحمل السيِّد المسيح "**قوَّة الروح**" كقوَّة جديدة لم تكن فيه من قبل، وإنما إذ ترك المدن واعتزل في البرِّيَّة وصام هناك وجُرِّب من إبليس وغلبه بعدما اعتمد، عاد إلى مدن الجليل ليُقدِّم ما فعله باسم البشريَّة، فتحمل به "قوَّة الروح". بمعنى آخر ما صنعه ربَّنا يسوع من انطلاق إلى البرِّيَّة وممارسة للصوم وغلبة على إبليس، هو رصيد يتمتَّع به كل من يوَد التلمذة له، فلا يليق أن ينطلق أحد للخدمة بغير هذا الرصيد من الغلبة والنصرة في الرب.

يعلِّق **العلامة أوريجينوس** على العبارة: "**كان يعلِّم في مجامعهم، ممجَّدا من الجميع**"، قائلاً: [احذروا من تطويب هؤلاء الذين كانوا يسمعون كلمات المسيح، وتحكموا على أنفسكم كأنكم محرومون من تعاليمه... فالرب لم يتكلَّم قديمًا فحسب في جماعة اليهود، وإنما إلى اليوم يتكلَّم في جماعتنا، ليس فقط عندنا، وإنما في الاجتماعات الأخرى في العالم أجمع. يسوع يُعلِّم ويطلب آلات يستخدمها لنقل تعليمه، صلُّوا لعلَّه يجدني مستعدًا لذلك وأترنَّم له... اليوم يسوع يتمجَّد من الجميع بالأكثر لأنه لم يعد معروفًا في مكان واحد فقط (الشعب اليهودي)![1]]

٣. يسوع المرفوض من خاصته

قدَّم لنا لوقا البشير صورة حيَّة لعمل هذا الصديق العجيب، فقد جاء إلى الناصرة حيث تربَّى ليخدِم، ومع أن الجميع كانوا يشهدون له ويتعجَّبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه لكنهم تعثَّروا فيه لأنهم حسبوه ابن يوسف. وحين بدأ يحدِّثهم عن انفتاح صداقته على الجميع – حتى الأمم – قرَّروا طرحه من حافة الجبل، أما هو فجاز في وسطهم ومضى.

نشأ السيِّد المسيح في الناصرة، ذاك الذي وهب العالم الخلاص والحياة، بينما حكمت مدينته على نفسها بالهلاك والموت. ما فعله أهل الناصرة هو جزء لا يتجزَّأ من خُطَّة الصليب.

"**وجاء إلى الناصرة حيث كان قد تربَّى،**

ودخل المجمع حسب عادته يوم السبت، وقام ليقرأ" [١٦].

❖ لما كان من الضروري ظهور المسيح للإسرائيليِّين حتى يعرفوا حقيقة التجسَّد إذ كانوا يجهلونه، وبما أن المسيح مسحه الله الآب مخلِّصًا للعالم بأسره، لزم من أجل كل ذلك أن يظهر المسيح نفسه للشعب اليهودي وغيره من الشعوب الأخرى ويكشف عن عمله الفدائي للشعوب قاطبة. إلا أن السيِّد المسيح أوْلى يهود الناصرة فضلاً عظيمًا بأن زارهم، وكان قد تربَّى كإنسانٍ في وسطهم.

---

[1] *In Luc hom 32:2.*

وما أن دخل المسيح بلدة الناصرة أخذ مجلسه في مجمعها، وفتح السفر وقرأ فصلاً يشير إلى الفداء، وكيف أن المسيح الكلمة يظهر للعالم كإنسانٍ بقصد امتلائه وتخليصه. وإننا نعتقد بحقٍ أنه لم يكن هناك طريقة بها يمسح المسيح المسحة المقدَّسة سوى أن يأتي إلى العالم كإنسانٍ ويتَّخذ طبيعة إنسان.

كان المسيح إلهًا متأنِّسًا، وبصفته إلهًا يهب الروح القدس للخليقة بأسرها، وبصفته إنسانًا يتسلَّم الروح القدس من الله أبيه. بينما المسيح يقدِّس الخليقة قاطبة سواء كان ذلك بإشراق طلعته البهيَّة من المسكن الأعلى مسكن الله الآب، أم يمنح الروح القدس للعالم السماوي الذي يَدين به، وللعالم الأرضي الذي يعترف بتجسُّده.

القدِّيس كيرلس الكبير

"**فدُفع إليه سفر إشعياء،**

ولما فتح السفر وجد الموضع الذي كان مكتوبًا فيه:

روح الرب عليّ، لأنه مسحني لأُبشِّر المساكين" [١٧-١٨].

❖ لم يحدُث هذا على سبيل الصدفة، وإنما بتدخُّل النعمة الإلهيَّة، إذ بسط يسوع الكتاب ووجد الأصحاح الذي يتنبأ عنه... قرأ النص الذي يخص "سرّ المسيح": بدقَّة: "**روح الرب عليّ، لأنه مسحني لأُبشِّر المساكين**". فالنص يتحدَّث عن المسيح، وقد جاء ليس صدفة، بل حسب المشيئة الإلهيَّة والنعمة.

بهذه المناسبة لاحظوا هذه الكلمات وكيف طبَّقها يسوع على نفسه في المجمع.

"**مسحني لأبشِّر المساكين**" بالحق كانوا هم المساكين الذين لا يملكون قط لا الله ولا نبي ولا العدل ولا أية فضيلة، قد أُرسل لهذا السبب يسوع من أجل المساكين[١].

العلامة أوريجينوس

❖ يؤكِّد الرب نفسه أنه هو الذي تكلَّم في النبوَّات. لقد أخذ المسحة المقدَّسة والقوَّة السماويَّة... ليحل سبي الروح وينير ظلمة الفكر، ويكرز بسَنة الرب التي تمتد عبر السنين اللانهائيَّة، وتهب البشر استمراريَّة الحصاد والراحة الأبديَّة. لقد أغنى كل المهن واحتضنها، ولم يحتقر مهنة ما، بينما نحن الجنس الوضيع نرى جسده ونرفض الإيمان بلاهوته الذي يُعلن خلال معجزاته.

[1] *In Luc hom 32:3,4 .*

القدِّيس أمبروسيوس

❖ "**وروح الرب علي، لأنه مسَحني لأبشِّر المساكين**" [١٨]. يستنتج من هذه الكلمات أن المسيح أخلى نفسه من الأمجاد السماويَّة حبًا في خلاصنا، لأن الروح القدس بطبيعته في المسيح، فكيف ينزل على السيِّد من أعلى؟! كذلك في نهر الأردن نزل الروح القدس ليمسح يسوع، لا لسبب إلا لأن المسيح وطَّد نفسه على إسداء نعمة الخلاص لنا وتقديم الروح القدس لنا، فإننا كنا خالين من نعمة الروح القدس على حد قول الوحي: "فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد" (تك ٦: ٣). نطق المسيح المتجسِّد بهذه الكلمات لأنه إله حق من إله حق، وتجسَّد بدون أن يتغيَّر أي تغيير ومُسِح بدُهن الفرح والابتهاج، ونزل عليه الروح القدس على شكل حمامة. وإننا نعلم أن الملوك والكهنة مُسِحوا في الزمن القديم حتى تقدَّسوا بعض التقديس، أما المسيح فدُهِن بزيت التقديس الروحي، متسلِّمًا هذه المسْحة ليس من أجل نفسه، بل من أجلنا لأنه سبق أن حُرِم الناس من الروح القدس، فخيَّمت سحابة الحزن والكآبة على وجّه الأرض.

القدِّيس كيرلس الكبير

"**أرسلني لأشفي المنكسري القلوب،**
لأُنادي للمأسورين بالإطلاق،
وللعُمي بالبَصَر،
وأرسل المنسحقين في الحريَّة.
وأكرز بسَنة الرب المقبولة" [١٨-١٩].

❖ كنا مأسورين في أسر إبليس وسجنه، وجاء يسوع ينادي للمأسورين بالإطلاق، وللعُمي بالبصر، إذ كلماته وبشارته تجعل العُمي يبصرون...

كان الإنسان مذنبًا وقاتلاً ومأسورًا قبلما يحصل على الحريَّة ويشفيه يسوع[١].

العلامة أوريجينوس

❖ نادى المسيح بإطلاق سراح الأسرى بأن قيَّد قدميّ الشيطان بالأغلال، وكان طاغية باغية يتسلَّط على رِقاب الناس، وسرق من المسيح رعيَّته وخليقته، فرَدَّ السيِّد ما نهبه إبليس ظُلْمًا وعُدوانًا. أرسل المسيح ليهدي قلوبًا غواها الشيطان، فأسدل ستارة من الظلام الدامس، أما المسيح فبدَّد

[1] *In Luc hom 32:4.*

غشاوة الليل الحالك، وأصبحت رعيَّته تسير في الضوء الوهَّاج والنور الساطع، كما ورد في رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل تسالونيكي: "جميعكم أبناء نور وأبناء نهار، لسنا من ليل ولا من ظلمة" (١ تس ٥: ٥).

لقد أبصر العميان، وأُنيرت الطرق، ومُهِّدت المرتفعات، وذلك بمجيء المسيح المخلِّص الفادي: "أنا الرب دعوتك بالبر فأمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدًا للشعب ونورًا للأمم" (إش ٤٢: ٦).

جاء المسيح فأعلن عهدًا جديدًا لإخوته الإسرائيليِّين، ولكن لم يحتكر اليهود هذا الضوء الوهَّاج، بل سطع نور المسيح البهي على الأمم، فأطلق المأسورين وحرَّر المنسحقين، وكل ذلك يدل على أن المسيح إله بطبيعته فهو إله حق من إله حق.

وما المراد بالقول: "**أنادي المأسورين بالإطلاق**"؟ تُشير هذه الآية إلى جمهور البؤساء التُعساء الذين أوقعهم الشيطان في حبائله.

وما معنى القول: "**أكرز بسَنة الله المقبولة**"؟ تُشير هذه الآية إلى جلال الأخبار المُفرحة التي تُعلن قدوم السيِّد المسيح، هذه هي السَنة المقبولة التي شاء المسيح فصُلب فيها نيابة عنَّا، لأن بصلبِهِ قبِلَنا الله الآب وكنَّا بعيدين عنه، إذ ورد: "وأنا إن اِرتفعت من الأرض أجذب إليّ الجميع" (يو ١٢: ٣٢). حقًا قام المسيح في اليوم الثالث، منتصرًا على قوَّة الموت، ولذلك يقول: "دُفع إليّ كل سلطان في السماء وعلى الأرض" (مت ٢٨: ١٨).

أليست هذه السَنة سنَة مقبولة، وقد انضممنا إلى أسرة المسيح، وخفق علينا علم يسوع، وتطهَّرنا بالعِماد المقدَّس، واشتركنا في طبيعة المسيح الإلهيَّة، بنيْلنا الروح القدس؟!

إنها السَنة مقبولة تلك التي أَظهر فيها المسيح مجده بمعجزات باهرة، وقبِلْنا بفرح وابتهاج نعمة الخلاص والفداء على حد قول بولس الحكيم: "هوذا الآن وقت مقبول، هوذا الآن يوم خلاص" (٢ كو ٦: ٢). حقًا أنه مقبول إذ فيه فازت الأمم بكنز الإنجيل السمائي، ونالت رسالة السماء المُفرحة، وكانت في الماضي بعيدة عن نعمة الخلاص، لا أمل لها بالنجاة، وليس إله تقصد إليه في العالم. أما الآن فنحن أعضاء في المملكة المسيحيَّة، وشركاء طغمة القدِّيسين الصالحة، وورثة نعم وبركات يقصُر عن تصوُّرِها العقل وعن وصفها اللسان: "ما لم ترَ عين ولم تسمع به إذن ولم يخطر على بال إنسان، ما أعده الله للذين يحبونه" (١ كو ٢: ٩).

وتشير عبارة: "**المُنكسري القلوب**" إلى ضعاف القلوب مزعزعي العقيدة، هؤلاء الذين لا يُمكنهم مقاومة الميول والشهوات، فيرخون العنان لعواطفهم الدنيئة، فيشتدْ الخِناق عليهم ويضيق بهم مكان

الأسر. أما المسيح فيعد مثل هؤلاء المأسورين بالإطلاق ويناشدهم قائلاً: إرجعوا إليّ فأشفيكم، وأغفر لكم إثمكم وخطيَّتكم.

أما الذين عمَت بصائرهم فإن المسيح يهبهم الضوء والنور؛ هم عميان لأنهم عبدوا المخلوق دون الخالق: "قائلين للعود أنت أبي وللحجر أنت ولدتني" (إر ٢: ٢٧). هؤلاء الناس جهلوا طبيعة المسيح الإلهيَّة فحُرم عقلهم من النور الروحي الحقيقي.

وليس هناك من معترضٍ على نسبة هذه الأمور كلها إلى جماعة الإسرائيليِّين، فقد كانوا فقراء ومنكسري القلوب وأسرى، يهيمون في دُجى الليل الحالك "الكل قد زاغوا معًا وفسدوا، ليس من يعمل صلاحًا ليس ولا واحد" (مز ١٤: ٣).

نزل المسيح فبُشِّر الإسرائيليِّين قبل غيرهم من الشعوب، أما الأمم الأخرى فلم تكن دون الإسرائيليِّين عُمي وجُهلاء، ولكن المسيح أغناها بحكمته وهذبها بعلمه، فلم تظل ضعيفة العقل سقيمة الرأي، بل أصبحت سليمة المذهب قويَّة الحجة.

القدِّيس كيرلس الكبير

"ثم طوى السفر وسلَّمه إلى الخادم وجلس.

وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه.

فابتدأ يقول لهم:

إنه اليوم قد تمَّ هذا المكتوب في مسامعكم" [٢٠-٢١].

جاءت كلمات السيِّد المسيح مفسِّرة لهذه النبوَّة جذَّابة، لأنها لم تكن مجرَّدة، وإنما كانت عملاً إلهيًا تحقَّق بمجيئه، لذلك يقول: "**كانت عيونهم شاخصة إليه**".

❖ لما نطق المسيح بهذه الآيات البيِّنات دُهش سامعوه، وتساءلوا فيما بينهم من أين له هذه الحكمة البليغة، ولم يدرس الآداب اليهوديَّة؟! لأنه كان عادة اليهود أن يفسِّروا النبوَّات الخاصة بالمسيح بأنها تمَّت، إما في ملوكهم أو في أنبيائهم، لأنهم جنحوا عن طريق السداد والرشاد واتَّخذوا مسلكًا ملتويًا مرذولاً.

وتجنبًا للخطأ الذي طالما سقط فيه اليهود، ومنعًا لكل غموض قد يقعون فيه، خاطبهم المسيح في صراحة تامة: "**أنه اليوم قد تمّ هذا المكتوب في مسامعكم**" (لو ٤: ٢١). صارحهم المسيح بأنه هو الذي تُشير إليه النبوَّة، لأن المسيح هو الذي بشَّر بكلمة الخلاص للشعوب الوثنيَّة، وكانوا مساكين معدمين لا إله ولا شريعة ولا أنبياء. وبالأولى بشَّر قومًا حُرموا زمانًا طويلاً من المواهب الروحيَّة،

وأطلق سراح مأسورين، تحمّلوا مرارة الأغلال والأصفاد. وأنار سبيل الحق والفضيلة، وكانت سحابة الظلام الحالك تسُد عليهم المنافذ والطرق، ولذلك قال السيد: "قد جئت نورًا إلى العالم" (يو ١٢: ٤٦). حطَّم المسيح أغلال الإثم، وأعلن قضاء العدل وأخيرًا نادى بسَنة مقبولة، هي علامة مجيئه الأول، وراية خلاصه وشعار الجنس البشري أجمع.

"**وكان الجميع يشهدون له ويُعجبون**" (لو ٤: ٢٢).

لم يُدرك الإسرائيليُّون مكانة المسيح، ولم يعرفوا أنه مسيح الرب إله القوَّات والمعجزات، فزاغوا عن تعاليمه وتكلَّموا بالباطل ضِدُّه، ومع أنهم قدَّروا كلمات الحكمة التي نطق بها السيِّد المسيح إلا أنهم سعوا بروح الشك والغموض فقالوا: "أليس هذا ابن يوسف؟!" (٤: ٢٢). وهل حجب هذا السؤال نور المعجزات الساطع، ولِمَ لا يُقابَل المسيح بالاحترام والإجلال رغمًا عن كونه ابن يوسف؟ ألم ير الإسرائيليُّون المعجزات؟! وألم تُقبَر الخطيئة في لحْدِها ويُسجن الشيطان في الهاوية، وتُهزَم جيوشه هزيمة منكَرة؟!

أثنى اليهود على سيل النعمة الذي جرى على لسان المسيح، ولكن غمروه حِقدًا، لأنه ينتسب إلى يوسف. إنه لجهلٍ ليس بعده جهل، فحق عليهم قول الوحي: "اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يُبصرون، لهم آذان ولا يَسمعون" (إر ٥: ٢١).

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ "**وجميع الذين في المجمع كانت عيونهم شاخصة إليه**" [٢٠].

حتى وقتنا الحاضر يحدث هذا، ففي مجمعنا واجتماعاتنا يمكن أن تشخص عيوننا إلى المخلِّص، توجَّه نظرات أكثر عمقًا، فنتأمَّل في ابن الله الوحيد، الحكمة والحق... كم اشتاق في هذه الجماعة أن يكون للكل من موعوظين ومؤمنين ورجال ونساء وأطفال عيون للنفس لا الجسد مشغولة بالنظر إلى يسوع. فإن النظر إليه يجعل نوره ينعكس فتصير وجوهكم أكثر ضياء[1].

العلامة أوريجينوس

"**فقال لهم: على كل حال تقولون لي هذا المثل:**

"**أيها الطبيب اشفِ نفسك.**

كم سمعنا أنه جرى في كفر ناحوم فافعل ذلك هنا أيضًا في وطنك.

---

[1] *In Luc hom 32:6.*

وقال: الحق أقول لكم أنه ليس نبي مقبولاً في وطنه" [٢٣-٢٤].

كأنهم يقولون له: يا من رفعت نفسك في البلد الغريب خلال عمل المعجزات، اِصنع معجزات بين أهلك وأقاربك في بلدك، إذ ظنُّوا أن السيِّد المسيح يطلب مجدًا زمنيًا أو كرامة من البشر.

❖ "**على كل حال تقولون لي هذا المثل اشفِ نفسك**" (لو ٤: ٢٣).

كان هذا المثل مألوفًا لدى اليهود وأُطلق على جماعة الأطبَّاء والحُكماء، فإذا أصاب طبيبًا مرضًا ما قالوا له: "أيها الطبيب اشفِ نفسك" بيّن المسيح لليهود بأنهم يطلبون إليه أن يجري أمامهم مختلف المعجزات، خصوصًا وأن بلدته التي تربَّى فيها أحَق من غيرها بهذه القوَّات والعجائب، إلاّ أن المسيح أفهمهم أن المألوف منبوذ، بدليل أنه بعد سماعهم كلمات الحكمة والنعمة التي نطق بها امتهنوه بالقول: أليس هذا ابن يوسف؟! فليس بعيدًا إذن أن يتمادوا في حجب عيونهم عن النظر إلى تعاليمه "**الحق الحق أقول لكم أنه ليس نبي مقبولاً في وطنه**" (٤: ٢٤).

القدِّيس كيرلس الكبير

لم يرفض السيِّد المسيح هذا المثل، إذ يليق بكل معلِّم أن يُعلن تعاليمه خلال حياته قبل كلماته، وإلا انطبق عليه هذا المثل بكونه يقوم بدور الطبيب الذي يدَّعي قدرته على شفاء المرضى، بينما يُعاني هو نفسه من المرض. إنما أوضح أنه لا ينطبق عليه. إذ كانت أعماله تشهد بالأكثر عن أقواله... إنما سِرّ تعثُّرِهم في السيِّد إنما ينبع عن رفضهم له لمجرد أنه من موطنهم، فينطبق عليهم المثل الآخر "**ليس نبي مقبولاً في وطنه**" [٢٤].

يقول **القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:** [بهذا وضع السيِّد نفسه العمل قبل التعليم... فمن لا يقدر أن يعلِّم نفسه ويحاول أن يصلح من شأن الآخرين يجد الكثيرون يسخرون منه. بالحري مثل هذا لا يكون له القدرة على التعليم مطلقًا، لأن أعماله تنطق بعكس أقواله[١].]

❖ "**ليس نبي مقبولاً في وطنه**".

إذ كانت عناثوت وطن إرميا (إر ١١: ٢١) لم تُحسن استقباله؛ وأيضًا إشعياء وبقيَّة الأنبياء رفضهم وطنهم أي أهل الختان... أما نحن الذين لا ننتسب للعهد بل كنَّا غرباء عن الوعد، فقد استقبلنا موسى والأنبياء الذين يعلنون عن المسيح، استقبلناهم من كل قلوبنا أكثر من اليهود الذين رفضوا المسيح، ولم يقبلوا الشهادة له[٢].

---

[1] *In Matt. Hom 16.*
[2] *In Luc. hom 33:3.*

العلامة أوريجينوس

استغلَّ السيِّد المسيح مقاومة أهل بلدته له فرصة لإعلان صداقته على مستوى البشريَّة كلها، مؤكدًا أن جامعية العمل الإلهي أمر له جذوره حتى في العهد القديم، إذ قال:

"وبالحق أقول لكم إن أرامل كثيرة كنَّ في إسرائيل،
في أيام إيليَّا حين أغلقت السماء مدَّة ثلاث سنين وستَّة أشهر،
لما كان جوع عظيم في الأرض كلها.
ولم يُرسل إيليَّا إلى واحدة منها،
إلاَّ إلى امرأة أرملة إلى صرفة صيداء.
وبرْص كثيرون كانوا في إسرائيل في زمان إليشع النبي،
ولم يَطْهر واحد منهم إلاَّ نعمان السرياني" [٢٥-٢٧].

كانت هذه الكلمات قاسية على الأذن اليهوديَّة، فقد ظنَّ اليهودي أنه الشخص المدلَّل لِدى الله، صاحب الناموس والعُهود والمواعيد والنبوَّات ومن جنسه يأتي المسيَّا. لكن كشف السيِّد المسيح عن حقيقة حبُّه للبشر بلا تمييز، ففي أيام إيليَّا تمتَّعت أرملة صيداء بما لم تتمتَّع به نساء يهوديَّات كثيرات، ونال الأممي نعمان السرياني الأبرص ما لم ينله البرص من اليهود (١ مل ١٧ ؛ ٢ مل ٥).

- ❖ إننا نرى النبي لم يشفِ إخوته ولا مواطنيه ولا خاصته بل الشعب الغريب (نعمان السرياني الأبرص ١ مل ١٧ ؛ ٢ مل ٥)، الذي بلا ناموس ولا يدين بديانته، أفلا يدل ذلك على أن الدواء يتوقَّف على الإرادة وليس على جنس الإنسان، وإن البركات الإلهيَّة ننعم بها حسب اشتياقات قلوبنا، ولا تعطي لنا حسب مولدنا؟ فنتعلم الصلاة بلجاجة طالبين ما نشتهيه، فإن ثمر البركات الإلهيَّة لا يُعطى للفاترين.

الأرملة التي أُرسِلَ إليها إيليَّا كانت رمزًا للكنيسة، التي جاء شعبها وقد جُمع من الأمم. وهذا الذي كان قبلاً نجسًا قبل عماده في النهر المقدَّس، وقد اغتسل من نجاسات الجسد والروح، ولم يعد بعد أبرصًا، صار عذراء عفيفة طاهرة بلا دنس ولا لوم (أف ٥: ٢٦). لهذا السبب عَظُم نعمان في عينيّ سيِّده، إذ كشف لنا عن صورة خلاص الأمم، وقد نصحته خادمة بارة أَسَرَها العدُو بعد هزيمة بلادها في الحرب، بأن يَطلب خلاصه من النبي، فشُفي نعمان لا بأمر ملك أرضي، وإنما حسب سخاء الرحمة الإلهيَّة...

لقد رفض إليشع الهديَّة، وكان له إيمان تعلَّمه في مدرسة أصول الأعمال، فسِرْ أنت على ما تعلَّمته من مبادئ الرب مقتديًا بالنبي: "مجانًا أخذتم، مجانًا أُعطوا" (مت ١٠: ٨). لا تتأخر في الخدمة بل قدِّمها مجانًا، فلا يجوز لك أن تقيِّم نعمة الله بمالٍ، ولا يليق بالكاهن في عمل الأسرار أن يفكِّر في الغنى بل في الخدمة... علِّم عبيدك ذلك وحثُّهم، فإن خدَمَك أحد وضبطته هكذا محبًّا للمال (كجيحزي) فاطرده كما فعل النبي، ولتحسب الأموال التي حصل عليها بطريقة خاطئة تُدنِّس النفس والجسد، قائلاً: "أهوَ وقت لأخذ الفضَّة ولأخذ ثياب وزيتون وكروم وغنم وبقر وعبيد وجوارٍ؟! فبَرَص نُعمان يلصق بك وبنسلك إلى الأبد" (٢ مل ٥: ٢٦-٢٧).

القدِّيس أمبروسيوس

على أي الأحوال يقدِّم السيِّد المسيح هذه الأرملة لليهود بكونها تمتَّعت بما لم تتمتَّع به أرامل كثيرات في أيام إيليَّا. وقد جذبت هذه الأرملة قلوب الكثير من الآباء، فقال عنها **القدِّيس يوحنا ذهبي الفم:** [قدَّمت هذه المرأة كرمًا أكثر من أبينا إبراهيم[1].] فإن كان إبراهيم قد قدَّم وليمة للغرباء فاستضاف الرب وملاكيْه، لكنه قدَّم من فيض غِناه، أما هذه فقد قدَّمت أعوازها لنبي الله وعرَّضَت حياتها وحياة ابنها لخطر الموت. لسنا بهذا نقلِّل من شأن عمل أبينا إبراهيم لكننا لا ننكر سمو عمل هذه المرأة الأمميَّة، التي أفاض **القدِّيس أمبروسيوس** في الحديث عنها، خاصة في مقاله عن الأرامل، إذ رأى فيها رمزًا للكنيسة التي لم تتمتَّع بعطايا إيليَّا، ببركات المسّيا فاتح السماء ليُمطر فيض أسراره الإلهيَّة.

❖ كانت المجاعة في كل موضع، ومع هذا لم تكن هذه الأرملة في عَوَز. ما هذه السنوات الثلاثة! أليست تلك التي فيها جاء الرب إلى الأرض ولم يجد في التينة ثمرًا، كما هو مكتوب: "هوذا ثلاث سنين آتي أطلب ثمرًا في هذه التينة ولم أجد" (لو ١٣: ٧).

هذه الأرملة بالتأكيد هي التي قيل عنها: "ترنَّمي أيتها العاقر التي لم تلد، أشيدي بالترنُّم أيتها التي لم تتمخَّضْ، لأن بني المُسْتوْحِشة أكثر من بني ذات البَعْل" (إش ٥٤: ١). إنها الأرملة التي قيل عنها: "تنسين خِزيْ صِباكِ وعار ترمُّلِك لا تذكُرينه بعد، لأن أنا هو الرب صانعك" (إش ٥٤: ٤).

ربَّما هي "أرملة" لأنها فقدت بالحق رجلها عند آلام جسده، لكنها تتقبَّله في يوم الدينونة ابن الإنسان الذي ظهر كأنها قد فقدته، فيقول: "لُحيْظَة تركتُكِ"، فإنه يتركها لكي يتزكَّى إيمانها في أكثر مجد...

---

[1] *In 2Cor. Hom 19.*

الكنيسة هي عذراء وزوجة وأرملة، الثلاثة معًا في جسد واحد في المسيح. إنها إذن تلك الأرملة التي من أجلها كانت توجد مجاعة للكلمة السماوي على الأرض، الأمر الذي أشار إليه الأنبياء. كانت أرملة عاقرًا لكنها حُفظت لتُنجب في الوقت المناسب...

من الذي فتح لها السماوات إلا المسيح الذي يُخرج من الخطاة طعامًا لنُمُو الكنيسة؟! فإنه ليس من سلطان إنسان أن يقول: "إن كوار الدقيق لا يفرغ وكوز الزيت لا ينقص إلى اليوم الذي فيه يعطي الرب مطرًا على وجه الأرض" (١ مل ١٧: ١٤)... الرب الذي هو يهِب الأسرار السماويَّة على الدوام، والذي يُعد بنعمته الفرح الروحي الذي لا يبطل، مقدِّمًا مقوِّمات الحياة وأختام الإيمان وعطايا الفضائل[1].

القدِّيس أمبروسيوس

لقد امتلأ اليهود غضبًا إذ رأوه يكسر تشامخهم، فأخرجوه من المدينة ليُلقوه من حافة الجبل الذي يُقام عليه المدينة. وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس:**

[هذه هي خطيَّة اليهود التي سبق فتنبَّأ عنها النبي... فكان الرب يبسط مراحمه على الجموع، وكانوا هم يَكيلون له اللعنات. فليس عجيبًا أن يفقدوا الخلاص ويطردوا الرب الذي خضع لمشيئتهم (مسلِّمًا نفسه لهم)... فقد تألَّم بإرادته، إذ لم يقبض عليه اليهود بل سلَّم نفسه لهم عندما شاء هو أن يقبضوا عليه. عندما أراد سقط تحت الصليب وصُلب، لم يعوقه شيء عن إتمام العمل.

لقد صعد على الجبل وها هو يجوز في وسطهم ويمضي، لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد...، ولأنه أيضًا كان يريد شفاءهم لا هلاكهم، حتى متى رأوه في وسطهم وفشلوا في دفعه إلى أسفل يتوبون. لقد جاز المسيح في وسطهم بقوَّة لاهوته، فهل كان يمكن لأحد أن يُمسك به هذا الذي لم تستطع الجموع أن تقبض عليه؟!]

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [جاز المسيح في وسطهم ومضى إلى سبيله، ليس خوفًا من الألم، وإنما لأن ساعته لم تكن قد أتت بعد. كان المسيح في بدء عمله التبشيري، ولا يُعقل أن يترك ميدان العمل قبل نشر كلمة الخلاص والحق.]

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [عندما جاءوا للقبض عليه بعد ما باعه يهوذا الخائن، الذي تصوَّر أنه قادر على تسليم سيِّده وربُّه، أظهر الرب أنه يتألَّم بإرادته وليس قسرًا. فعندما أراد اليهود القبض

[1] *Conc. Widows 3.*

عليه قال: "من تطلبون؟" أجابوه: يسوع الناصري، قال لهم يسوع: أنا هو، وإذ سمعوا ذلك "رجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض[1]" (يو ١٨: ٤-٦).]

٤. يسوع العامل بسلطان

"وانحدر إلى كفرناحوم مدينة من الجليل،

وكان يعلِّمهم في السِبوت.

فبُهِتوا من تعليمه لأن كلامه كان بسلطان" [٣١-٣٢].

مدّ الصديق يده لأهله وأقاربه في مدينة الناصرة، لكنها إذ كانت قائمة على تلال عالية، هي تلال الأنا والذات ولم تقبل صداقته، وأراد سكَّانها أن يُلقوه من حافة الجبل حيث توجد المدينة. فانحدر السيِّد إلى كفر ناحوم أي "مدينة النِياح أو الراحة"، أما سِر راحتها فهي أنها كانت منخفضة تحت سطح البحر، تحمل روح التواضع فتقبل صداقة عريسها، وعمله الخلاصي فيها.

❖ خاطب المسيح الشعب في يوم السبت، فبُهِتوا من تعاليمه، لأنه كان يتكلَّم كمن له سلطان وليس كالكتبة. غُلب اليهود في أمره وبُهتوا لأنهم رأوا أمامهم معلِّمًا لا يخاطبهم كنبي فحسب، بل كإله عظيم تجثو له الروح قبل الجسد، ربّ الناموس. ولذلك نطق بمبادئ تسمو عن الناموس. طبقًا لقول الوحي: "وأقطع لكم عهدًا أبديًا مراحم داود الصادقة؛ هوذا قد جعلته شارعًا للشعوب رئيسًا وموصيًا للشعوب" (إش ٥٥: ٣، أع ١٣: ٣٤).

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ تأمَّلوا رحمة مخلِّصنا المسيح فإنه لم يغضب بسبب الإهانة ولا تأثَّر بالظُلم ليترك اليهوديَّة، وإنما نسى آثامها ولم يفكِّر إلا في رحمته، لذلك صار تارة يُعلِّم، وأخرى يُنقِذ من الروح الشرِّير، وثالثة يشفي، باحثًا كيف يُلَيِّن قلب هذا الشعب الغليظ.

القدِّيس أمبروسيوس

يقدِّم لنا **العلامة ترتليان** مفاهيم كثيرة للتعبير الإنجيلي **"لأن كلامه كان بسلطان"** [٣٢]. فمن ناحيَة أنه لم يكن مجرَّد كلام، لكنه يحوي قوَّة العمل وفاعليَّته، لذا يقول لأتباع مرقيون: [اسحبوا اسحبوا كل أقوال مسيحي، فإن أعماله تتكلَّم[2].] وكما قال السيِّد المسيح نفسه: "صدِّقوني إني في الآب

---

[1] *In Ioan. Tr 11: 2.*
[2] *Adv. Marcon 4:7.*

والآب فيّ، وإلاَّ فصدِّقوني لسبب الأعمال نفسها، الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضًا ويعمل أعظم منها" (يو ١٤: ١١-١٢). فسلطانه لا بإظهار وحدانيَّته مع الآب خلال معجزات يقيمها بسلطان، وإنما خلال عمله فينا وسلطان العامل في حياتنا.

ومن ناحية أخرى فإن كلامه كان بسلطان إذ تمَّم الناموس والأنبياء، وكما يقول **العلامة ترتليان** في نفس الحديث: [حديثه الإلهي قدَّم سلطانًا ونعمة، بالحري كان يبني جوهر الناموس والأنبياء ولا يهدِمه[١].]

ومن ناحية ثالثة فقد ظهر سلطانه في حديثه من رعب الشيطان الذي لا يطيق حتى كلماته: [لقد عرف تمامًا أن يسوع هو ابن الله الذي يدين وينتقم وقاسي (على الشيطان) وليس مجرد شخص صالح[٢].]

جاء السيِّد المسيح صديقًا عمليًا للإنسان ليس فقط يعلِّمه بسلطان، وليس كالكتبة والفرِّيسيِّين، وإنما يعمل لحسابه بسلطان، لهذا نجد إنسانًا به روح شيطان في المجمع لم يستطع الروح كعدو للبشر أن يحتمل وجود هذا الصديق بل قال: "**آه ما لنا ولك يا يسوع الناصري؟! أتيتَ لتُهلكنا، أنا أعرفك من أنت قدُّوس الله!**" [٣٤].

فزع الروح النجس من القدُّوس وشعر أنه يعمل بقوَّة وسلطان، إذ أحس بمملكته المُظلمة تنهار أمامه. أما السيِّد المسيح فلم يقبل شهادة الشيطان بل انتهره قائلاً: "**اخرس واخرج منه**" [٣٥]. فأدرك الحاضرون كيف يأمر حتى الأرواح النجسة بسلطان وقوَّة فتخرج!

- ❖ أَخرج المسيح الأرواح النجسة، وشعرت بعِظَم قوَّة المسيح، ولم تجد مناصًا وقد أصابها الفشل والهزيمة إلا أن تطلب من السيِّد بمكر ودهاء أن يتركها وشأنها، فليس ثِمة علاقة بين السيِّد والأرواح النجسة، إنما هذه لغة التملُّق والكذب. فقد اعترفت الأرواح الشرِّيرة بأن المسيح هو "**قدُّوس الله**" (٤: ٣٤)، ظنًّا منها أن ذلك يبعث فيه الغرور والخيلاء، فيرتدي السيِّد أثواب العظمة الفارغة، والأماني الباطلة، ويكف عن انتهارها وتأديبها. نعم إن الشيطان كثير المكر والدهاء، ولكنه يقع بلا شك فريسة خداعه، لأن الرب لا يُخدع أبدًا، ولذلك أخرسها المسيح وأمرها ألاَّ تنطق ببنت شِفَّة.

---

[1] *Adv. Marccon 4:7.*
[2] *Adv. Marcon 4:7.*

لا غرابة بعد ذلك أن دُهش الجمع، لأن المسيح يقوم بصنع المعجزات من غير أن يطلب بالصلاة قوَّة من الأعالي، لأنه هو الله نفسه، هو كلمة الله الآب الذي به كون كل شيء، وبواسطته حُطِّمت شوْكة الشيطان، وخرَست ألسِنة الأرواح النجسة.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ [تعليقة على إتمام أول الأشفية وإخراج الشيَّاطين في يوم السبت.]

بدأ الرب معجزات الشفاء في يوم السبت ليُعلن أن الخليقة الجديدة تبدأ حيث تنتهي القديمة، ولكي يُشير منذ البداية أن ابن الله لا يخضع للناموس، بل هو رب الناموس، جاء لا لينقُضه بل ليُكمِّله. فالعالم لم يُخلق بواسطة الناموس، بل بالكلمة كما هو مكتوب: "**بكلمة الرب صُنعت السماوات**" (مز ٣٢: ٦). إذن لم يقصد المسيح أن ينقض الناموس بل يكمِّله حتى يجدِّد الإنسان الساقط، لذلك يقول الرسول: "اِخلعوا الإنسان العتيق واِلبسوا الجديد الذي يتجدَّد حسب صورة خالقه" (كو ٣: ٥). وبدأ الرب بالعمل في السبت ليُظهر أنه الخالق يربط بين الأعمال ويكمل العمل الذي بدأه بنفسه، ذلك كالعامل الذي يستعد لإصلاح البيت فيبدأ بالأجزاء المتآكلة؛ يبدأ بالصغير ليصل إلى الكبير.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ [تعليقه على اعتراف الشيطان: أنا أعرفك من أنت قدُّوس الله؟!]

يليق أن يوجد فارق بين إيماننا وإيمان الشيطان، فإن إيماننا يُنقِّي القلب، أما إيمانهم فيجعلهم يُخطئون ويصنعون الشرّ، إذ يقولون للرب: ما لنا ولك؟![1]

القدِّيس أغسطينوس

٥. شفاء حماة بطرس

كان شفاء الرجل الذي به روح شيطان نجس في داخل المجمع علانيَّة، والآن يشفي حماة بطرس في بيتها عندما دعاه بطرس ليأكل. فهو صديق عامل لحسابنا، أينما وُجد وتحت كل الظروف، يعمل في المجمع العام كما في البيت الخاص. وقد سبق لنا الحديث عن هذا الشفاء في دراستنا لإنجيلي متى (٨: ٥) ومرقس (١: ٣١). ورأينا كيف لم يطلب سمعان بطرس شيئًا لنفسه إذ لم يدعه لشفاء حماته، بل ليأكل فأعطاه الرب ما لم يسأله.

---

[1] *Ser. on N.T. 3:11.*

لم يسأل بطرس شيئًا لنفسه أو عائلته لكن المحيطين بالسيِّد "**سألوه من أجلها**"؛ صورة حيَّة لوحدة الحب العامل، وشفاعة الأعضاء لبعضها عن البعض أمام الرأس الواحد ربَّنا يسوع!

❖ ربَّما كانت حماة سمعان تُصوِّر جسدنا الذي أصابته حُمى الخطايا المختلفة ودفعته نحو الشهوات الكثيرة. هذه الحُمى ليست أقل من التي تصيب الجسد، إذ تحرق القلب، بينما الأخرى تحرق الجسد...

القدِّيس أمبروسيوس

يعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على هذه الزيارة لحماة سمعان بالقول: [أنه لم يستنكف من زيارة الأرامل ودخول الحُجرات الضيِّقة في الأكواخ الفقيرة[1].]

سمع الكثيرون عمّا يفعله السيِّد المسيح، لكنهم لم يجسروا أن يحملوا المرضى إليه إلاَّ عند الغروب [٤٠]، حيث ينتهي يوم السبت ويبدأ الأحد، فقد خشوا لئلاَّ يكسروا السبت بتصرُّفهم هذا. وكأن حفظ السبت في أعينهم أهم من الإنسان ومن شفائه! على أي الأحوال لم يعاتبهم في شيء، بل أعلن سلطان محبَّته، فكان يضع يده (غالبًا على شكل صليب) على كل واحد منهم وشفاهم [٤٠].

❖ أرجو أيضًا أن تلاحظوا قوَّة جسده المقدَّس إذا ما مسَّ أحدًا، فإن هذه القوَّة تقضي على مختلف الأسقام والأمراض، وتهزم الشيطان وأعوانه، وتشفي جماهير الناس في لحظة من الزمن. ومع أن المسيح كان في مقدوره أن يُجري المعجزات بكلمة منه، بمجرَّد إشارة منه، إلا أنه وضع يديه على المرضى، ليعلِّمنا أن الجسد المقدَّس الذي اتَّخذه هيكلاً له كان قوَّة الكلمة الإلهيَّة. فليربطنا الله الكلمة به، ولنرتبط نحن معه بشركة جسد المسيح السرِّيَّة، فبذلك يمكن النفس أن تُشفى من أمراضها وتتقوَّى على هجمات الشيّاطين وعدائها.

القدِّيس كيرلس الكبير

إذ دعا سمعان بطرس السيِّد المسيح إلى بيته لم تُشفَ حماته وحدها، وإنما صار بيته مركزًا حيًا يأتي إليه المرضى والمتعبين من الأرواح النجسة، لينعموا بعمل السيِّد المسيح فيهم. هكذا إذ يدخل الرب قلوبنا ينعم الكثيرون معنا براحته وسلامه.

ويرى **القدِّيس كيرلس الكبير أن** هذه الجماهير التي تمتَّعت بعمله تشير إلى حياة الإنسان بكل طاقتها وعواطفها وإمكانيَّاتها إذ تتمتَّع بالشفاء والراحة فيه.

---

[1] *Conc. Widows 10.*

على أي الأحوال كانت الشيَّاطين تصرخ: **أنت المسيح ابن الله**" [٤١]. أما هو فكان ينتهرهم ولا يدعهم ينطقون. يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [لم يدع المسيح الشيَّاطين أن يعترفوا به لأنه لا يليق أن يغتصبوا حق الوظيفة الرسوليَّة. كذلك لا يجوز أن يتكلَّموا بألسِنة نجسة عن سرّ المسيح الفدائي. نعم يجب ألا تصدِّق هذه الأرواح الشرِّيرة حتى لو تكلَّمَت صدْقًا. لأن النور لا يُكشف بمساعدة الظلام الدامس، كما أشار إلى ذلك رسول المسيح بالقول: "وأية شركة للنور مع الظلمة، وأي اتفاق للمسيح مع بليعال؟!" (٢ كو ٦: ١٤-١٥).] ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [طبيعة الشيطان يعترف بالمسيح، لكنه يُنكره بأعماله.]

ويرى **القدِّيس ذهبي الفم**[1] في منع السيِّد الشيَّاطين من النطق أنه هو المسيح، وهو يشفي أجساد المرضى ومن بهم أرواح شرِّيرة، أراد أن يشفي أرواحهم فعلَّمهم أنه لا يصنع هذا للاستعراض وطلبْ المجد الزمني. هكذا يليق بهم ألاَّ يطلبوا المجد الزمني.

٦. كرازته في مجامع الجليل

إذ صنع السيِّد المسيح أشفية كثيرة عند غروب الشمس، مع بداية يوم الأحد، ولا ندري كم من الساعات قضاها السيِّد مع الجموع القادمة تلتمس الشفاء، إنما يُخبرنا الإنجيلي أنه إذ صار النهار [٤٢]، أي في الصباح المبكِّر ذهب إلى موضع خلاء، ساحبًا قلوب الخدَّام الأمناء إلى اللقاءات الخفيَّة مع الآب حتى لا يضيع الهدف منهم.

على أي الأحوال لم تتركه الجموع وحده فانطلقت تفتِّش عليه وقد أمسكوه لئلاَّ يذهب عنهم. وفي حب شديد أعلن: "**ينبغي لي أن أبشر المدن الأخرى أيضًا بملكوت الله**" [٤٣]. ويمكننا أن نقول كلما اختلى الخادم مع الله اِلتهب قلبه بالأكثر نحو خلاص العالم، فالحياة التأمُّليَّة الصادقة هي التي تفتح القلب بالأكثر وتُلهبه نحو الشوق لخلاص الكل.

[1] *See In Matt. Hom 27:3.*

الباب الثالث

صديقنا يشعر بآلامنا

ص ٥ – ص ١٨

الأصحاح الخامس

يسوع يسند المُتعبين

انطلق السيِّد المسيح في خدمته يسند المُتعبين، فيملأ شباك من تعبوا الليل كله بلا صيْد، ويطهِّر إنسانًا مملوءً برصًا، ويصحِّح الأفكار الداخليّة للفرِّيسيِّين ومعلِّمي الناموس، ويجتذب العشارين من مكان الجباية، ويُعلن عن الحياة الجديدة التي يهبها لتلاميذه. إنه يسند كل من يقبَله، يهبْه ثمرًا وطهارةً وتقديسًا للفكر والسلوك خلال الحياة الجديدة.

١. صيد السمك ١–١١.

٢. تطهير أبرص ١٢–١٦.

٣. شفاء المفلوج ١٧–٢٦.

٤. دعوة لاوي العشّار ٢٧–٣٢.

٥. الإعلان عن الخمر الجديدة ٣٣–٣٩.

١. صيد السمك

في دراستنا لإنجيليّ القدِّيسين متّى (٤: ١٨) ومرقس (١: ١٦–٢٠) رأينا السيِّد المسيح في اختياره للتلاميذ يبدأ بهؤلاء الرجال الأربعة صيَّادي السمك الأممين: سمعان بطرس ممثِّل صخرة الإيمان، وأندراوس ممثِّل الجِدِّية والرجولة، ويعقوب ممثِّل الجهاد والتعقب المستمر، ويوحنا ممثِّل حنان الله ونعمته. اختارهم السيِّد ليكرزوا، لا بفلسفة العالم وحكمة هذا الدهر، وإنما بنعمة الله العاملة فيهم. قلنا أن هؤلاء الأربعة يمثِّلون الفرس الحاملة للكنيسة كمركبة الله المنطلقة نحو السماء، ألا وهي الإيمان مع الجدية، والجهاد المرتبط بنعمة الله وحنانه.

ورأينا أنه على ما يبدو أن هؤلاء الرجال كانوا في البداية يتبعون السيِّد، لكنهم على فترات متقطِّعة خلالها يعودون للصيد حتى صدر الأمر لهم نهائيًا بتبعيَّته، فتركوا كل شيء وتبعوه.

على أي الأحوال يقدِّم لنا معلِّمنا لوقا البشير لقاء السيِّد معهم وهم في غاية الإرهاق النفسي والجسدي، فقد تعبوا الليل كله ولم يأخذوا شيئًا [٥]، وكأنه قد صدر أمرًا فائقًا ألا تدخل سمكة واحدة في شباك السفينتين طوال الليل حتى يأتي شمس البرّ، ربنا يسوع، ويدخل سفينة منهما، ويصدر أمره بالدخول إلى العمق في وسط النهار لتلقى شبكة كفيلة بصيدها أن تملأ السفينتين.

إن تتبعنا هذا الحدّث كما ورد في إنجيل لوقا ندرك الآتي:

أولاً: "**رأي سفينتين واقفتين عند البحيرة والصيَّادون قد خرجوا منهما وغسلوا الشباك**" [٢].

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [كان يوجد سفينتان، منهما دُعي تلاميذه (الأربعة)، وهما تشيران إلى الشعبين عندما ألقوا شباكهم وجاءوا بصيدٍ كثيرٍ، بسمكٍ كثيرٍ جدًا حتى كادت الشباك تتخرَّق... تشير السفينتان إلى كنيسة واحدة من شعبين اتَّحدا معًا في المسيح بالرغم من أنهما من مصدرين مختلفين. عن هذا الأمر نجد زوجتين لهما رجل واحد هو يعقوب، وأما هما فليئة وراحيل كانتا رمزين (تك ٢٩: ٢٣، ٢٨). وأيضًا لذات السبب وُجد أعميان كرمزين، جلسا بجوار الطريق وهبهما السيِّد البصيرة (مت ٢٠: ٣). وإن تأمَّلت في الكتاب المقدَّس تجد الكنيستين اللتين هما بالحقيقة كنيسة واحدة قد رُمز إليهما في مواضعٍ كثيرةٍ، جاء لخدمتهما حجر الزاويّة (يربطهما معًا) ويجعلهما واحدًا[١].]

ثانيًا: غسل الرجال شباكهم إذا انقضى الليل كله بلا صيد، فيبقون نهارهم في مرارة ليعاودوا الصيد من جديد في الليلة الجديدة، ولم يدرك هؤلاء الصيَّادون أن فشلهم هذا كان بسماحٍ من الله لأجل نجاح أبدي وزمني أيضًا. فإنَّ كانت السفينتان قد فرغتا تمامًا من السمك، إنما لكي لا ينشغل الصيَّادون بجمعه وفرزه وبيعه بل يستقبلون السيِّد في السفينة ليستخدمها منبرًا للتعليم، يصطاد خلاله الصيَّادين وجمهورًا من الشعب، وعندئذ لا يحرمهم حتى من السمك، إذ يسألهم أن يلقوا شباكهم للصيد فتمتلئ السفينتان حتى أخذتا في الغرق.

حينما تُغلق الأبواب في وجوهنا ونظن أن حظنا سيئ، هذا التعبير الذي لا يليق بالمؤمن، فلننفتح بالقلب أمام السيِّد ونقدِّم له سفينة حياتنا يدبرها حسب مشيئته الصالحة، فيردّ لنا "بهجة خلاصنا"، مقدِّما لنا ثمارًا روحيّة دون حرمان حتى من ضرورات الحياة الزمنيّة.

ثالثًا: اختبر التلاميذ لذَّة صيد السمك، الأمر الذي يعرفه هواة الصيد، والآن يرفعهم إلى لذَّة أعمق، وهي لذَّة صيد النفوس ليخرجوها من بحر هذا العالم فتعيش؛ هذه الخبرة ما كان يمكنهم أن يتذوقوها ما لم يصطادهم السيِّد نفسه في شبكته ويدخل بهم إلى سفينته، الكنيسة المقدَّسة. في هذا يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [فلنمدح الطريقة التي أصبح بها التلاميذ صيَّادي العالم قاطبة، خاضعين للمسيح خالق السماوات والأرض، فبالرغم من أنه طُلب من تلاميذ المسيح أن يصطادوا الشعوب الأخرى، فقد وقعوا في شبكة المسيح المطمئنة، حتى إذا ما ألقوا بدورهم شباكهم أتوا بجماهير

---

[1] *Ser. On N.T. 87: 6.*

المؤمنين إلى حظيرة المسيح الحقيقيّة. ولقد تنبَّأ أحد الأنبياء القدِّيسين بذلك، إذ ورد: "هأنذا أرسل إلى جزَّافين كثيرين يقول الرب، فيصطادونهم ثم بعد أرسل إلى كثيرين من القانصين فيقتنصونهم" (إر ١٦: ١٦). ويراد بالجزافين في الآية السابقة الرسل الأطهار وتشير كلمة "القانصين" إلى ولاة الكنائس ومعلميه.]

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [ما هي شباك الرسول التي أُمر بإلقائها في العمق إلا العظة وقوّة الحجة التي لا تسمح بهروب من اقتنصتهم؟! من الجميل أن تكون الشباك هي الأدوات التي يستخدمها التلاميذ، هذه التي لا تُهلك من تصطادهم بل تحفظهم وتخرجهم من الهاويّة إلى النور، وترتفع بمن في الأعماق إلى المرتفعات العاليّة.]

هذه الخبرة عاشها معلِّمنا بولس الرسول الذي اصطادته شبكة مراحم الرب فلا يكف عن إلقاء الشبكة ليصطاد هو بنعمة الله، إذ يقول: "لنا هذه الخدمة كما رُحمنا لا نفشل" (٢ كو ٤: ١).

رابعًا: صدر الأمر الإلهي: "**ابعد إلى العمق، وألقوا شباككم للصيد**" **[٤].**

لو أن هذا الأمر قد صدر من إنسان عادي لحسبه الصيَّادون تجريحًا لكرامتهم إذ هم أصحاب خبرة في الصيد لسنوات طويلة، ويعلمون أن الصيد يكون بالأكثر في الليل، ويكاد ينقطع في الظهيرة، كما أن الصيد يكون على الشاطئ لا في الأعماق!

كانت إجابة سمعان تحمل نغمتين: نغمة الخبرة البشريّة القديمة بما حملته من فشل ويأس، ونغمة جديدة تفصلها عن السابقة كلمة "ولكن"، إذ يدخل من الخبرة البشريّة البحتة إلى خبرة الإيمان بكلمة الرب الفعّالة.

لاحظ **القدِّيس أغسطينوس**[1] أن السيِّد المسيح لم يقل للصيَّادين أن يلقوا شباكهم على الجانب الأيمن ليدخل فيها الصالحون وحدهم ولا الأيسر ليدخلها الأردياء إنما يلقونها في الأعماق لتحمل الاثنين معًا، فالدعوة موجهة للجميع أن يدخلوا شباك الكنيسة لعلهم يتمتَّعون بالحياة الإنجيليّة. كما لاحظ أن الصيَّادين لم يأتوا بالسمك إلى الشاطئ بل فرغوا الشباك في السفينتين، إذ أراد أن ينعم الكل بالحياة داخل الكنيسة لا خارجها.

خامسًا: "**فأجاب سمعان، وقال له: يا معلم قد تعبنا الليل كله ولم نأخذ شيِّئًا، ولكن على كلمتك ألقى الشبكة**" **[٥].** لقد حسب الرسول بطرس أن ما يمارسه الإنسان من جهاد في الخدمة دون

---

[1] *In Ioan. tr 122: 7.*

الاتكال على الله والتمسك بكلمة الرب ومواعيده تعبًا خلال ظلمة الليل بلا ثمر، لكن على كلمة الرب يلقي الإنسان شباكه فيأتي بالثمر. في هذا يقول **القدّيس أمبروسيوس** على لسان سمعان بطرس: [أنا أيضًا يا رب أعلم تمامًا أن ظلام (الليل) يكتنفني عندما لا تكون أنت قائدي، فيحيط بي الظلام عندما ألقى ببذار الكلمة الباطلة (التي من عندي).]

يكمل **القدِّيس أمبروسيوس** حديثه معلنًا أن جهاد سمعان بطرس طول الليل الذي بلا ثمر يمثِّل من يكرز ببلاغة بشريّة وفلسفات مجردة، لذا صارت الحاجة ملحة أن تكون الكرازة في النهار حيث يشرق المسيح شمس البرّ مقدَّمًا كلمته الفعّالة التي تملأ شباك الكنيسة بالسمك الحيّ، إذ يقول: [لم يصطادوا شيئًا حتى الآن، لكن على كلمة الله نالوا سمكًا كثيرًا جدًا، ليس هو ثمرة البلاغة البشريّة بل من فعل بذار السماء. لنترك إذن الإقناع البشري ولنتمسك بعمل الإيمان الذي به تؤمن الشعوب.]

سادسًا: الصيد الكثير "ولما فعلوا ذلك أمسكوا سمكًا كثيرًا جدًا فصارت شباكهم تتخرق. فأشاروا إلى شركائهم الذين في السفينة الأخرى أن يأتوا ويساعدوهم، فأتوا وملأوا السفينتين حتى أخذتا في الغرق" [٦-٧]. اعتدنا في السيِّد المسيح يصنع المعجزات ترفُّقا بمريضٍ أو تحننًا على من ساده روح شرير، أو يقيم إنسانًا لأرملة متألّمة، أو ليشبع الجموع الجائعة. لكن هذه المعجزة جاءت، لا لتشبع احتياجًا جسديًا أو تُعلن ترفُّقا بنفس محطَّمة، وإنما تعلن عن عمل السيِّد المسيح في كنيسته القادمة من اليهود والأمم ليملأها بالسمك المتمتَّع بالحياة.

في دراستنا للرموز رأينا "السمكة" ترمز للسيِّد المسيح نفسه كما ترمز لمؤمنيه[١]، وكأن الكنيسة تمتلئ بالمختارين، السمك الذي يعيش دومًا في مياه المعموديّة ملتصقًا بالسمكة واهبة الحياة!

يعلّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على هذا الصيد الكثير، بالقول:

[امتلأت شباكهم سمكًا عن طريق المعجزة، وذلك ليثق التلاميذ بأن عملهم التبشيري لا يضيع سدى وهم يلقون شباكهم على جمهور الوثنيِّين والضالين. ولكن لاحظوا عجز سمعان ورفاقه عن جذب الشبكة، فوقفوا مبهوتين مذعورين صامتين، وأشاروا بأيديهم إلى إخوانهم على الشاطئ ليمدوا إليهم يد المساعدة. ومعنى ذلك أن كثيرين ساعدوا الرسل القدِّيسين في ميدان عملهم التبشيري، ولا زالوا يعملون بجدٍ ونشاط وخصوصًا في استيعاب معاني آيات الإنجيل الساميّة، بينما آخرون من معلمي الشعب ورعاته وولاته برزوا في فهم تعاليم الحق الصحيحة. لا زالت الشبكة مطروحة والمسيح

---

[١] راجع كتابنا: الكنيسة بيت الله – فصل: الرموز.

يملأها بمن يخدمه من أولئك الغارقين في بحار العالم العاصفة والثائرة، فقد ورد في المزامير: "تجني من الطين فلا أغرق، نجني من مبغضي ومن أعماق المياه" (مز ٦٩: ١٤)].

سابعًا: استجابة بطرس للعمل الإلهي

رأى معلّمنا بطرس الرسول الصيد الكثير، فلم يهتم بالصيد في ذاته، إنما بالأكثر استنارت أعماقه منجذبًا لشخص المسيَّا صاحب السلطان على السماء والأرض والبحار (مز ٨: ٨)، فسجد له على ركبتيه، وشعر بمهابة تملأ أعماقه مكتشفًا خطاياه الداخليّة أمام رب السماء والأرض، فصرخ، قائلاً: "**أخرج من سفينتي يا رب، لأني رجل خاطئ**" **[٨]**. لم يقوَ على إدراك هذا النور الفائق، وشعر بالعجز عن الدنو من هذا القدّوس معترفًا بخطاياه.

لقد صرخ "**اخرج من سفينتي**" إحساسًا بالمهابة الشديدة، فاستحق في تواضعه وإدراكه لضعفه أن يدخل الرب أعماق قلبه ويقيم فيه مملكته! وكما يقول **القدّيس يوحنا الذهبي الفم:** [ليس شيء مقبولاً لدى الله مثل أن يحسب الإنسان نفسه آخر الكل. هذا هو الأساس الأول لكل الحكمة العمليّة[١].]

لم يكن تواضع بطرس الرسول كلامًا أو عاطفة بل هو تفاعل مع العمل الحيّ الإيجابي، إذ قيل عنه وعن زملائه: "**ولما جاءوا بالسفينتين إلى البر، تركوا كل شيء وتبعوه**" **[١١]**... تركوا كل شيء ليكرّسوا كل القلب لمن أحبوه، بالعبادة الحقيقية والكرازة. وكأن التواضع ليس مجرد شعور بالضعف، إنما هو الارتماء في حضن العريس السماوي ليعيش الإنسان بكل قلبه وطاقاته لحساب العريس وبإمكانيَّاته.

ويعلّق **القدّيس يوحنا الذهبي الفم** على هذا الترك بالقول: [اخبرني أي شيء عظيم تركه بطرس؟ أليست مجرد شبكة ممزقة (٥: ١١) وعصا وصنارة؟! ومع ذلك فقد فتح له الرب بيوت العالم، وبسط أمامه الأرض والبحر، ودعاه الكل إلى ممتلكاتهم، بل باعوا ما كان لهم ووضعوه عند قدَّميه وليس حتى في يديه[٢].]

ويعلّق **القدّيس أمبروسيوس** على تواضع بطرس هذا الممتزج بالعمل والترك، فيقول: [تعجب بطرس من البركات الإلهيّة التي تدفقت عليه، فكلما أخذ ازداد انسحاقًا. وأنت أيضًا قل: "**أخرج يا رب من سفينتي، لأني رجل خاطئ**" فيجيبك المسيح: "لا تخف". اعترف للرب الذي يغفر لك خطاياك. لا

---

[1] *In Matt. hom 3: 8.*
[2] *In Rom. hom 7.*

تتردّد في أن ترد إليه مالك (أترك كل شيء) لأنه هو أيضًا وهبك ما له... تأمَّل محبَّة الله التي وهبت الإنسان السلطان ليأخذ الحياة.]

٢. تطهير أبرص

إن كان السيِّد المسيح كصديقٍ للبشريّة جاء إلينا نحن الذين تعبنا الليل كله بلا صيد فوهبنا بكلمته صيدًا كثيرًا جدًا قادمًا من الأعماق يملأ السفينتين، أي الروح والجسد، فنحمل، لا سمكًا ماديًا، بل ثمرًا روحيًا متكاثرًا للروح والجسد معًا، الآن نراه يمد يده بلا استنكاف ليشفي رجلاً أبرصًا يخشى الكل من لمسه أو لمس ثيابه أو متاعه لئلا يتنجسوا حسب الشريعة (لا ١٣).

سبق لنا فرأينا في دراستنا لإنجيل متى (أصحاح ٨) وإنجيل مرقس (الأصحاح الأول) أن هذا الأبرص يمثِّل صورة صادقة لمن يقدِّم صلاة حقيقيّة، فينعم بلمسة يدّي سيِّده ليطهر، كما رأينا الأسباب التي لأجلها أرسله السيِّد إلى الكاهن ليقدِّم القربان حسب ناموس موسى؛ ورأينا في دراستنا لسفر اللاويِّين (أصحاح ١٤) المفاهيم الحقيقيّة لطقس تطهير الأبرص.

يرى **القدِّيس أمبروسيوس** في تطهير الأبرص رمزًا لتطهير البشريّة المؤمنة التي لم يشمئز السيِّد من لمسها: [لم يطهر الرب أبرصًا واحدًا بل جميع الذين قال لهم: "أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به" (١٥: ٢). إن كان تطهير الأبرص قد تم بكلمة الرب، فإنَّ احتقار كلمة الرب هو البرص الذي يصيب الروح.]

ويعلّق على لمس السيِّد المسيح للأبرص عند شفائه، هكذا: [لمسه لا لأنه لا يقدر أن يشفيه (بدون اللمس) بل ليثبت أنه ليس أسير الناموس، وأنه لا يخشى انتقال العدوى، إذ لا يمكن أن تمسك به.]

في الوقت الذي فيه لمس الأبرص دون أن يخشى نجاسة البرص (حسب الشريعة)، إذا به يطالب الأبرص أن يتمم ما جاء في الناموس بعد شفائه ليعلن أنه ليس بكاسرٍ للناموس.

يحدّثنا **العلامة ترتليان** عن إرسال السيِّد المسيح الأبرص للكاهن في طاعة للناموس، قائلاً: [إذ كان يجحد كل مجد بشري أمره ألا يخبر أحدًا عن الشفاء، لكن لأجل تكريم الشريعة سأله أن يسلك ما هو متبع فيها... فقد أراد أن تتم العلاقة الرمزيّة للشريعة من أجل دورها النبوي. هذه الرموز تعني أن الإنسان الذي كان خاطئًا وقد تطّهر من الأدناس بكلمة الله يلتزم بتقديم تقدَّمه لله في الهيكل، أي صلاة وشكر في الكنيسة بالمسيح يسوع الذي هو كاهن الآب المسكوني. لقد أضاف: "**شهادة لهم**"،

فإنَّه بهذا شهد أنه لم يكن محطَّما للناموس بل مكملاً له، وبه أيضًا يشهد أنه ذاك الذي سبق فتُنبىء عنه أنه يحمل أمراضنا وضعفاتنا[1].]

ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [يأمر الناموس بأن يتقدَّم الأبرص للكاهن لا ليقدِّم ذبيحة خارجيّة، بل يقدِّم نفسه لله ذبيحة روحيّة، فتُمحى نجاسات أعماله السابقة، ويصير مكرَّسا للرب كذبيحة مرضيّة... "**فأطلب إليكم أيها الإخوة برأفة الله أن تقدِّموا أجسادكم ذبيحة حيّة مقدَّسة مرضيّة عند الله**" (رو ١٢: ١).]

إن كان الأبرص قد التجأ بالصلاة والطلبة إلى السيِّد المسيح لينعم بالطهارة، فالإنجيلي لوقا يود أن يسحبنا من حين إلى آخر لحياة الصلاة كينبوع للحياة المقدَّسة، مقدَّما لنا السيِّد المسيح نفسه، ممثِّلنا ونائبنا، مصليًا... وهو قابل الصلوات، إذ يقول: "**وأما هو فكان يعتزل في البراري ويصلي**" [١٦].

مع أن الجموع كانت عطشى للقاء معه، وكثيرون تمتَّعوا بالشفاء خلال التلامس معه أو سماع كلمة من فيه، لكنه كان "**يعتزل ليصلي**" ليعلن عن حاجتنا إلى الحياة العاملة المتأمَّلة بلا انفصال. بالحب يتسع قلبنا للعمل لحساب إخوتنا وبذات الحب نلتقي مع الله سريًا لننعم بعمله فينا. بمعنى آخر لا انفصال بين العمل والتأمَّل، الكرازة أو الخدمة والعبادة!

يعلّق **القدِّيس كبريانوس** على صلاة السيِّد المسيح، قائلاً:

[إن كان الذي بلا خطيّة صلى فكم بالأكثر – يليق بالخطاة أن يصلوا؟! وإن كان السيِّد يصلي على الدوام ساهرًا الليل كله بطلبات غير منقطعة فكم بالحري يليق بنا أن نسهر نحن كل ليل في صلاة مستمرَّة متكررة؟!

لا يصلى الرب أو يطلب عن نفسه، إذ ماذا يطلب ذاك الذي بلا خطيّة؟! إنه يطلب عن خطايانا كما أعلن عندما قال لبطرس: "... طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (لو٢٢: ٣١)[2].]

[إن كان قد تعب وسهر وصلى من أجلنا ومن أجل خطايانا، فكم بالحري يلزمنا نحن أن نصلي على الدوام، نصلي ونتوسل إلى الرب نفسه وخلاله لنرضي الآب. لنا الرب يسوع المسيح إلهنا محامٍ وشفيع من أجل خطايانا، إن كنا نتوب عن خطايانا الماضيّة ونعترف مدركين خطايانا التي بها عصينا الرب، وننشغل بالسلوك في طرقه ومخافة وصايّاه[3].]

---

[1] *Adv. Marc. 4: 9.*
[2] *On Lord`s Prayer 29 ,30.*
[3] *Ep. 7: 6.*

٣. شفاء المفلوج

الآن إذ يجتمع السيِّد المسيح في بيت وقد أحاط به فرِّيسيون ومعلمو الناموس جاءوا من كل قريّة من الجليل واليهوديّة وأورشليم [١٧]، كان يعلمهم. وإذ رأى مفلوجًا يدليه أربعة رجال من السقف قطع حديثه ليهب غفرانًا للمفلوج وشفاءً لجسده، وكأنه في صداقته معنا لا يحب التعليم في ذاته كما يحدّث في كثير من المعلمين، وإنما يطلب راحة البشريّة على صعيد الروح والجسد معًا.

سبق لنا الحديث عن هذا المفلوج من واقع كتابات بعض الآباء (إنجيل متى ٩، مرقس ٢)، ولذا أود الكتابة هنا في شيء من الإيجاز.

تمَّت هذه المعجزة في مدينة السيِّد، أي "كفرناحوم" (مر ٢: ١)، أي كفر النياح أو الراحة، لأنه حيث يوجد السيِّد المسيح حالاً في موضع يهب نياحًا للنفس كما للجسد.

اجتمع به جماعة من الفرِّيسيين. "والفرِّيسيون" كلمة آراميّة معناها "المفروزون"، لكن للأسف فرزوا أنفسهم عن عامة الشعب لا لخدمتهم في الرب، بل ليعيشوا في أرستقراطيّة دينيّة عمادها العجرفة والكبرياء؛ هذا هو داءهم الذي أفسد حياتهم وحجبهم عن اللقاء الحقيقي مع السيِّد المسيح بالرغم من صحة عقيدتهم. أما معلمو الناموس فهم "الحاخامات" الذين ركزوا اهتمامهم على "التلمود"، يعيشون في حرفيّة قاتلة.

جاء الفرِّيسيون والحاخامات يتكئون في عجرفة على معلوماتهم الدينيّة وحكمتهم البشريّة، أما ربنا يسوع فكان في وسطهم يعلم ويشفي بقوّة وسلطان!

إذ كان الجمع يزحم البيت انطلق الرجال حاملو المفلوج على السلم الخارجي للبيت حتى بلغوا السطح، فكشفوه ودلوا المريض مع الفراش من بين الأجر إلى الوسط قدام يسوع [١٩]. وإذ كشفوا السطح بنزع الأجر (الطوب) دلوا المريض في الوسط أمام السيِّد المسيح. وكأنهم يمثِّلون الكنيسة بكل طغماتها وأعضائها (أساقفة – قسوس – شمامسة – شعب)، ينزعون الأجر أي الفكر الترابي والارتباكات الأرضيّة ليكشفوا السقف، فيروا السيِّد جالسًا كما في المساء يهب بركاته بلا حدود.

لم يحتمل الفرِّيسيون أن يروا هذا المنظر. الكنيسة متمثِّلة في هؤلاء الرجال يقدِّمون المفلوج ليسوع دونهم، فأحسوا بانهيار سلطانهم وفقدانهم الكرامة، لذا أرادوا اصطياد خطأ للسيِّد. فلما قال للمفلوج: "مغفورة لك خطاياك" اتهموه بالتجديف، وقد إهتم السيِّد لا بإفحامهم فحسب، إنما بالإعلان عن نفسه، لعلهم يقبلونه ويؤمنون به.

وإذ سبق لنا عرض الكثير من كتابات الآباء في أمر هذا المفلوج (مت ٩؛ مر ٢) أكتفي هنا بالمقتطفات التاليّة:

❖ إذ قال المسيح للمفلوج: "أيها الإنسان مغفورة لك خطاياك" قصد السيِّد بذلك أن يخاطب الإنسانيّة بأسرها، كل الذين يؤمنون بالمسيح تُشفى نفوسهم من أسقام الخطيّة وتُغفر لهم آثامهم التي ارتكبوها، وبعبارة أخرى يخاطب المسيح المفلوج قائلاً: لابد وأن أشفي روحك قبل جسدك، أما إذا لم أقم بذلك فإنَّك بقوّة الجسم تمشي على قدَّميك وتعود إلى حياة الإثم والرذيلة، ولو أنك لم تطلب أيها المريض شفاء الروح، فإنِّي أنا إله ورب أرى أمراض النفس وأسقامها، وكيف أتت بك إلى هذا المرض الوبيل.

ولما كان هناك جمع كبير من الكتبة والفرِّيسيين وكان لابد من صنع آيّة لتعليمهم، نظرًا لامتهانهم السيِّد فإنَّ المسيح قام بعمل فائق غريب.

انطرح أمام المسيح على فراش المرض رجل أنهكه الفالج وأعياه ولم ينفع فيه علاج أو دواء واعترف نفس الأطباء بقصورهم عن شفاء رجل دكه المرض دكًا، فيئس أقاربه منه، إلا أنهم رأوا إشعاع الأمل يبدو عن كثب، فأسرعوا إلى حيث المسيح الطبيب العظيم الذي أتى من فوق من السماء، وقدَّموا له مريضهم، وقبل المسيح إيمانه، فبدد الإيمان سحابة المرض، إذ أن المسيح يخاطب المفلوج بالعبارة المشهورة: "مغفورة لك خطاياك".

قد يسأل إنسان: "كان المفلوج في حاجة إلى شفاء جسمه، فلماذا يعلن المسيح له مغفرة الخطايا؟" ليعلمنا بأن الله يشاهد سكون أعمال الإنسان ويرى الطريق الذي يسلكه في حياته، إذ أنه مكتوب "لأن طرق الإنسان أمام عيني الرب وهو يزن كل سبله" (أم ٥: ٢١). ولما كان الله صالحًا ويريد أن كل الناس يخلصون وإلى معرفته يقبلون، فكثيرًا ما يطهر الإنسان الذي يرتكب الإثم والشر بتعذيب جسمه بمرض ينهكه داء يقعده، على حد قول الوحيّ: "تأدبي يا أورشليم... أمامي دائمًا مرض وضرب" (إر ٦: ٨). وورد في سفر الأمثال: "يا ابني لا تحتقر تأديب الرب ولا تكره توبيخه، لأن الذي يحبه الرب يؤدبه وكأب بابن يُسّر به" (أم ٣: ١٠). فحسنًا يعلن المسيح محو الخطايا والآثام فإنَّ في هذه جميعها منبع المرض وجرثومة الداء، فإذا ما مُحيت الخطيّة شُفي الإنسان من مرض الجسم الذي اتصل بها واستبشعها.

"فابتدأ الكتبة والفرِّيسيون يفكرون قائلين: من هذا الذي يتكلَّم بتجاديف" [٢١].

أعلن المسيح (كما أشرنا إلى ذلك آنفًا) مغفرة الخطايا بسلطان إلهي، ولكن هذا الإعلان أثار الفرِّيسيين وكانوا طغمة جهل وحسد، فتخاطبوا فيما بينهم: "من هذا الذي يتكلَّم بتجاديف؟"

ما كان يمكنكم أن تسألوا أيها الفرِّيسيون هذا السؤال لو كنتم وقفتم على معاني الأسفار المقدَّسة، وطالعتم نبوات الكتاب المقدَّس، وفهمتم سّر التجسد العظيم القدر والفائق الوصف. فبدلاً من درس النبوات اتهمتم السيِّد برذيلة التجديف وحكمتم عليه بالموت، لأن شريعة موسى أعدمت كل إباحي مجدّف، فقد ورد: "ومن جدف على اسم الرب فإنَّه يقتل" (لا ٢٤: ١٦).

خاطب المسيح الفرِّيسيين قائلاً: "ماذا تفكرون في قلوبكم" [٢٣]، والمعنى الصريح من هذه العبارة "إنكم أيها الفرِّيسيون تعترفون بأنه لا يمكن لغير الله غفران الخطايا؟ ولكن اعلموا أيضًا أنه لا يمكن لغير الله معرفة ما يدور في خلد الإنسان فهو وحده الذي يكشف عن أعماق القلب فيقف على أسراره ونيَّاته، إذ ورد على لسان النبوَّة "أنا الرب فاحص القلب مختبر الكلى" (إر ١٧: ١٠)، ويشير داود إلى ذلك بالقول: "المصور قلوبهم جميعًا المنتبه إلى كل أعمالهم" (مز ٣٣: ١٥)، فالله الذي يصور القلوب والكلى هو الله الذي يغفر الخطيّة والإثم.

"ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطانًا" [٢٤].

حتى يبدد المسيح سحابة الشك والريب التي تظلل بها الكتبة والفرِّيسيون، لم يغفر السيِّد خطايا الرجل المفلوج فحسب لأن الإنسان يعجز عن رؤيّة الخطايا المغفورة بعيني رأسه، بل أمر المرض فزال عن جسم المفلوج، فقام الرجل يمشي سليمًا صحيحًا، مشيرًا إلى عظمة القوّة الإلهيّة التي شفته من مرضه. فلم يؤجل كلمات المسيح للمفلوج: "**قم وأحمل فراشك واذهب إلى بيتك" [٢٥]**، فقد قام الرجل لساعته وعاد إلى بيته سليمًا معافي. حقا أن لابن الإنسان سلطانًا على الأرض أن يغفر الخطايا.

ولكن إلى من تشير هذه الآية؟ هل تكلَّم المسيح عن نفسه أو عنا؟ الواقع أن هذه الآية تطلق على المسيح وعلينا، لأن السيِّد يغفر الخطايا بصفته الإله المتجسد رب الناموس وواضعه، وقد تسلمنا نحن هذه القوّة الفائقة، وذلك بتتويج طبيعة الإنسان بشرفٍ عظيم القدر، حيث خاطب المسيح رسله المقدَّسين بالقول "الحق أقول لكم أن كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطًا في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولا في السماء" (مت ١٨: ١٨)، وورد في موضع آخر "من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم خطاياه أمسكت" (يو ٢٠: ٢٣).

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ "**فلما رأى إيمانهم" [٢٠].** عظيم هو الرب الذي يغفر للبعض من أجل طلبة الآخرين، ويقبل تضرعات البعض من أجل غفران خطايا الغير!...

خادم الله له الحق أن يطلب عنك، وله دالة فُيستجاب له!...

تعلَّم أيها المريض كيف تتضرع، وإن كنت لا ترجو غفرانًا لخطاياك فالجأ لمن يشفع عنك، إلى الكنيسة التي تصلي من أجلك، ومن أجلها يهبك الرب الغفران...

القدِّيس أمبروسيوس

❖ يقول البعض بأن هذا الرجل قد شُفي لمجرد إيمان الحاملين له، ولكن هذه ليست الحقيقة، لأن القول: "فلما رأى يسوع إيمانهم" لا يشير إلى إيمانهم وحدهم بل وإيمان الذي كان يحملونه، لماذا؟

تقول: ألم يشفِ أحدًا لأجل إيمان آخر؟ في رأيي ما أظن هذا إلا في حالة عدم نضج السن (القاصر) أو الضعف الشديد لدرجة عدم القدرة على الإيمان...

لا تصغي بلا اهتمام إلى العبارة القائلة أنهم دلوه من السقف، بل تأمَّل كيف أن مريضًا يمكن أن يكون له الثبات على مكابدة إنزاله مدليًا من السقف. أنت تعلَّم أن المرضى قلوبهم واهيّة حتى أنهم غالبًا ما يرفضون المعاملة التي يلاقونها وهم على أسرة مرضهم، غير راغبين في احتمال آلام العلاج، مفضَّلين احتمال آلام المرض عنها. أما هذا الرجل فكان له من العزم أن يخرج من المنزل، ويُحمل وسط السوق، ويصير منظرًا وسط الجماهير، مع أنه عادة يُفضَّل المرضى الموت على أسرة مرضهم عن أن تنفضح مصائبهم الخاصة. هذا المريض لم يفعل هذا فحسب، بل وعندما رأى أن مكان الاجتماع مزدحم والمقتربين متكتلين وميناء الأمان معاق خضع للتدليّة من السقف... لقد نظر أنها كرامة له أن يشهد كثيرون شفاءه.

ونحن نتفطن إلى إيمانه لا من هذا فحسب، بل ومن كلمات السيِّد المسيح أيضًا، لأنه بعدما ألقوا به وقدَّموه للسيِّد، قال له: "ثق يا بني مغفورة لك خطاياك". وعندما سمع هذه الكلمة لم يغتظ ولا تذمر، ولا قال للطبيب: ماذا تقصد بهذه الكلمات؟ أنا أتيت لتشفيني من شيء، وها أنت تشفيني من شيء آخر... إنه لم يفكر في هذا ولا نطق به، بل انتظر تاركًا للطبيب أن يتبنى طريقة الشفاء التي يريدها.

لهذا السبب أيضًا لم يذهب السيِّد المسيح إليه، بل انتظره حتى يأتي إليه، لكي يعلن إيمانه أمام الجميع[١].

[١] للمؤلف: يسوع والمفلوجان للقديس يوحنا الذهبي الفم، ١٩٦٦، ص٤٧-٤٩.

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لماذا لم يقدِّم للمفلوج الشفاء بل قال له: "**ثق يا بني مغفورة لك خطاياك**"؟ لقد صنع هذا بحكمة، لأن هذه هي عادة الأطباء أن ينزعوا أصل المرض قبل أن ينزعوا (أعراض) المرض نفسه...

أكد بولس هذا عندما وبخ أهل كورنثوس على خطيّة معينة، قائلاً: "من أجل هذا فيكم كثيرون ضعفاء ومرضى" (١كو ١١: ٣٠).

لهذا أزال السيِّد المسيح سبب الشر، وقال: "**ثق يا بني مغفورة لك خطاياك**". لقد رفع الروح، وأقام النفس المطروحة، لأن قوله هذا كان كافيًا... فلا شيء يخلق السرور ويعيد الثقة قدر التحرر من العذاب الداخلي، وحيث توجد مغفرة الخطايا توجد البنوة، لذلك لا نقدر أن ندعو الله الآب إلا بعدما تُزال خطايانا في بركة الماء المقدَّس (المعموديّة)... فنقول: "أبانا الذي في السماوات[١]".

القدِّيس يوحنا ذهبي الفم

٤. دعوة لاوي العشّار

يقدِّم لنا الإنجيلي لوقا جانبًا حيًا من جوانب صداقة السيِّد المسيح للبشريّة، فإنَّه عند اختياره لخواصه اجتذبهم من أماكنٍ متعددةٍ، تارة من بين الصيَّادين البسطاء، وأخرى من بين العشّارين الذين يحتقرهم اليهود ويتّهمونهم بالخيانة والعمل لحساب الدولة الرومانيّة.

دعا السيِّد المسيح لاوي العشّار الذي صار فيما بعد "الإنجيلي متى"، وكانت الدعوة مختصرة للغاية: "**اتبعني**" [٢٧]، لكنها قويّة وفعّالة، إذ "**ترك كل شيء وقام وتبعه**" [٢٨]، وأقام له وليمة ضيافة ليتذوق إخوته العشّارون اللقاء العذب مع السيِّد المسيح.

يقول **القدِّيس جيروم**[٢] أن بعض المقاومين للمسيحيّة استخفوا بأتباع المخلِّص إذ ساروا وراءه بمجرد دعوته لهم خلال النداء الأول لهم، فقبلوه في سذاجة دون تفكير. ويُرد على ذلك بأمرين، الأول أن هؤلاء قد سمعوا وربَّما شاهدوا العلامات والعجائب الكثيرة التي صنعها السيِّد قبل دعوته لهم، والثاني أن السيِّد يحمل جاذبيّة خاصة بكونه رب الخليقة يجتذب الكل حوله.

---

[١] للمؤلف: يسوع والمفلوجان للقديس يوحنا الذهبي الفم، ١٩٦٦، ص ٥٢، ٥٣.

[2] *In Matt 9: 9.* (ترجمة الآنسة تريز سعد)

كما لاحظ **القدِّيس جيروم** أيضًا أن متى البشير وحده هو الذي ذُكر اسمه "متى" عند دعوة الرب له (مت ٩: ٩) أما الإنجيليان الآخران فلم يذكرا اسمه، مكتفيِّين بذكر اسمه القديم "لاوي" احتشامًا من زميلهما الإنجيلي متى (مت ٩: ٩، مر ٢: ١٣-١٤).

❖ اتبع متى مبدأ سليمان: العادل يبدأ بمعاتبه نفسه، فدعا نفسه عشّارًا، ليظهر للقارئ أنه لا يجب أن ييأس أحد من خلاص نفسه مادام يرجع إلى حياة أفضَّل، فقد تغير هو من عشّار إلى رسول[1].

القدِّيس جيروم

❖ كان لاوي عشارًا يهيم وراء الكسب المرذول لا حدّ لجشعه الممقوت، يزدري بقانون العدل والإنصاف، حبًا في تملك ما ليس له. فبهذه الخلق الذميمة اشتهر العشّارون، إلا أن المسيح اختطف أحدهم وهو غارق في بحر الإثم والرذيلة ودعاه إليه وأنقذه وخلصه، إذ ورد: "**فقال له اتبعني فترك كل شيء وقام وتبعه**" [٢٧-٢٨]. فما أصدق بولس المغبوط وهو يصف المسيح بأنه "جاء إلى العالم ليخلص الخطاة" (١ تي ١: ١٥). أفلا ترون كيف أن كلمة الله الابن الوحيد وقد أخذ لنفسه جسدًا يردّ إلى نفسه عبيد إبليس وممتلكاته؟!

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ عندما اختار رسله الخواص ليكرزوا بإنجيله، اختارهم من بين الخطاة... ليظهر أنه جاء لا ليدعوا أبرارًا بل خطاة إلى التوبة[2].

الأب برناباس

لم يحتمل الكتبة والفرِّيسيون لقاء السيِّد المسيح مع العشّارين، فقالوا لتلاميذه:
"**لماذا تأكلون وتشربون مع عشّارين وخطاة؟**
فأجاب يسوع، وقال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى.
لم آتِ لأدعو أبرارًا، بل خطاة إلى التوبة" [٣٠-٣٢].

❖ لماذا يلوم الفرِّيسيون المخلِّص لتناوله الطعام مع الخطاة؟ لأن الناموس فرق بين المقدَّس والمحلل، وميّز بين النجس والطاهر (لا ١٠: ١٠). اِعتقد الفرِّيسيون أنه لا يصح الجمع بين المقدَّس والنجس، فقاموا يطالبون المسيح بحفظ شريعة موسى، ولكن لم يكن تهجمهم على السيِّد ناشئًا عن

---

[1] *In Matt 9: 9.* (ترجمة الآنسة تريز سعد)
[2] *Ep. Of Barnabas, 5.*

غيرة على الشريعة، بل عن حسدٍ وخبثٍ، فكثيرًا ما هبوا في وجه المسيح لإسقاطه في شركٍ منصوبٍ، إلا أن المسيح أفلت منهم رادًا السيئة بالحسنى، إذ أعلمهم أنه ما جاء الآن قاضيًا للحكم، بل طبيبًا للشفاء، ولذلك كان لزامًا عليه وهو طبيب أن يقرب المرضى لشفائهم من أسقامهم.

القدِّيس كيرلس الكبير

وللعلامة ترتليان تعليق جميل على كلمات السيِّد المسيح: "**لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، لم آتِ لأدعو أبرارًا بل خطاة إلى التوبة**" **[٢١-٢٢]**. فإنَّه إذ ظهر في القرن الثاني بعض البدع تُدنِس الجسد وتحقر من شأنه وتحسبه عدوًا يلزم تحطيمه، يعلن **العلامة ترتليان** أن الجسد مع ما بلغه من فساد لكنه قريب لنا، يشارك النفس حياتها، يلزم أن نحبه كما نحب قريبنا، خاصة وأن السيِّد المسيح حمل جسدنا الذي في شبه الخطيّة فصار قريبًا له... بارك طبيعته فيه. هذا وإن كان جسدنا قد تلوث بمرض الخطيّة فإنَّ السيِّد المسيح جاء لا كديان بل كطبيب يشفي الجسد والنفس معًا.

نستطيع أن نتلمس قدسيّة نظرة الكنيسة الأولى للجسد، من كلمات **العلامة ترتليان:** [يطالبنا (المسيح) أن نحب قريبنا بعد حبنا له، وها هو يمارس ما يأمرنا به إذ يحب الجسد الذي هو ملاصق له جدًا وبطرقٍ كثيرةٍ، والذي هو قريبه، يحبه بالرغم من ضعفه، فإنَّ قوَّته تكمل في الضعف (٢ كو ١٢: ٩)، يحبه بالرغم من ارتباك جسدنا، إذ لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى، وبالرغم ممَّا يبدو أنه (جسدنا) غير مكرم، إذ تُعطي كرامة أفضَّل للأعضاء ناقصة الكرامة (١ كو ١٢: ٢٣). يكرمه مع أنه محطَّم، إذ يقول: جئت لأخلص ما قد هلك (١٩: ١٠)؛ يكرمه مع أنه خاطئ، إذ يقول: أريد خلاص الخاطئ لا موته؛ وأيضًا بالرغم من كونه تحت الحكم فإنَّه يجرح ويعصب (تث ٣٢: ٣٩)[1].]

٥. الإعلان عن الخمر الجديدة

لم يستطِع الفرِّيسيون مقاومة السيِّد في صداقته للبشريّة، فحين اعترضوا عليه لأنه يأكل مع عشّارين وخطاة بينما يميز الناموس بين المقدَّس والنجس أكَّد أنه لا يكسر الناموس بل يحققه في أعماق جوهره بحبه للإنسانيّة وترفُّقه بالضعفاء، فقد جاء طبيبًا للمرضى لا ديانًا للخطاة... الآن يهاجمونه في تلاميذه، قائلين: "**لماذا يصوم تلاميذ يوحنا كثيرًا ويقدِّمون طلبات، كذلك تلاميذ الفرِّيسيين أيضًا، وأما تلاميذك فيأكلون ويشربون؟**" **[٣٣]**.

[1] *On the Resurrection of the Flesh, 9.*

جاءت إجابة السيِّد لا ترد على التساؤل فحسب، وإنما تكشف عن رسالته التي تتركز في أمرين:

أولاً: أنه جاء عريسًا يخطب البشريّة كعروسٍ له... فالوقت الآن ليس مناسبًا للصوم، بل للإعلان عن العريس والفرح به، فمتى ارتفع إلى السماء يطلبونه بأصوام وطلبات... وكأن غاية العبادة ليست الأصوام والنسكيات بل التمتَّع بالاتحاد مع العريس السماوي، خلال هذه الأصوام والنسكيات إن قدَّمت بالروح والحق.

ثانيًا: أنه ما جاء ليقدِّم ثقلاً في العبادات، إنما جاء أولاً لينزع ما هو قديم ويقيم ما هو جديد، يصلب الإنسان العتيق ويَّهب الإنسان الروحي الجديد.

لقد سبق لنا أن أوردنا بعض تعليقات للآباء على إجابة السيِّد المسيح في تفسيرنا لإنجيلي متى (٩: ١٤) ومرقس (٢: ٢١).

الأصحاح السادس

الصديق المعلِّم

كان اليونانيُّون يحبُّون أن يسمعوا على الدوام شيئًا جديدًا لإشباع الفكر لكن بدون جدوى، أما المعلِّم السماوي فقبْلَ أن يقدِّم التعليم الجديد قدَّم الإمكانيّة الجديدة، فرفع الإنسان فوق الحرف القاتل بإعلانه عن نفسه أنه رب السبت، فيه لا ينحني المؤمن لحرفيَّة حفظ السبت بطريقة جافة، بل يحمل قوَّة الروح؛ كما شفى صاحب اليد اليُمنى اليابسة ليُطلِقها للعمل الروحي، واختار الاثني عشر تلميذًا للكرازة والعمل، عندئذٍ قدَّم عظاته وتعاليمه.

١. **المسيح رب السبت** ١–٥.

٢. **شفاء اليد اليُمنى** ٦–١١.

٣. **دعوة التلاميذ** ١٢–١٦.

٤. **تعاليمه:**

أ. **حديث شخصي للمتألِّمين** ١٧–٢٦.

ب. **دعوة حب فائق** ٢٧–٤٦.

ج. **الحاجة للبناء على الصخر** ٤٧–٤٩.

١. المسيح رب السبت

ذكر الإنجيليُّون الثلاثة: متَّى (١٢: ١)، ومرقس (٢: ٤٣) ولوقا كيف كان قوم من الفرِّيسيِّين يمثِّلون جوًا من المعارضة للسيِّد، فإنَّهم إذ رأوا التلاميذ في جوعهم يقطفون السنابل ويأكلونها وهم يفركونها بأيديهم حسبوا ذلك كسرًا للناموس، إذ حسبوهم كمن قاموا بعمليَّتيّ الحصاد والدرْس بطريقة مصغَّرة. لذلك احتجُّوا قائلين: لماذا تفعلون ما لا يحل فعله في السبوت؟ وإذ سبق لنا الحديث عن ذلك في دراستنا لإنجيلي متى ومرقس، لنا هنا بعض الملاحظات التاليّة:

أولاً: يذكر الإنجيلي لوقا: "**وفي السبت الثاني بعد الأول**" [١]، ماذا يعني بهذا؟

اختلف الدارسون في تفسير هذه العبارة، ويمكن تلخيص آرائهم في الآتي:

أ. يقصد بالسبت الأول عيد الفصح اليهودي، والثاني بعده يقصد به عيد الباكورات أو الخمسين، عيد الأسابيع (سبعة أسابيع من بدء الفصح)، والذي يوافق السادس من شهر سيوان (حزيران).

ب. إذ جاءت الترجمة عن اليونانيّة: "**السبت الثاني بعد الأول**"، لهذا يرى البعض أنه يقصد السبت الثاني بعد الفصح، وبالتالي يكون السبت الأول بعد عيد الفطير[١]، ويُعرف بسبت "العومر" أو سبت "الأغمار".

ج. ربَّما يعني بالسبت الأول هو سبت الشهر الأول من السنة اليهوديّة، بينما السبت الثاني هو سبت الشهر الثاني. أو أن السبت الأول هو السبت الذي يقع فيه رأس السنة المدنيّة (شهر تشري، أو تشرين الأول أو ليثانيم) بينما السبت الثاني هو الذي يقع فيه رأس السنة الدينيّة (نيسان[٢]).

د. يري البعض أن السبت الثاني يعني أول سبت يقع في السنة الحوليّة، أي في السنة السابقة بعد سنة اليوبيل.

هـ. الرأي الأرجح لدى كثير من المسيحيِّين هو السبت الثاني بعد عيد الفصح مباشرة.

و. يرى بعض الآباء المهتمِّين بالتفسير الروحي أن السبت الأول يشير إلى السبت الناموسي بمفهومه الحرفي اليهودي، وأن السبت الثاني هنا إنما هو السبت الجديد، حيث انطلق بنا السيِّد من الراحة الحرفيّة الجسديّة إلى الراحة الحقيقية فيه خلال إنجيله. لذلك ما فعله تلاميذه حيث اجتاز بهم إلى الحقول، إنما يشير إلى الدخول بهم إلى حقول أسفار العهد القديم ليقتطفوا سنابل الرموز والنبوات، ويفركونها بروحه القدّوس، ليجدوا فيها طعام الروح الإنجيلي واهب الشبع الحق.

يمكننا أيضًا أن نقول بأن ما فعله التلاميذ كان باسم الكنيسة كلها حيث تدخل بالروح القدس إلى المذبح الإلهي، لتتقبَّل سنبلة "الإفخارستيا" كعطيّة إلهيّة تقتات بها، لكي تبلغ إلى الكمال، فتتهيَّأ للمسيح يسوع عريسها الأبدي[٣]. ويرى **القدِّيس أمبروسيوس**[٤] أن السيِّد المسيح قاد تلاميذه كما إلى حقل هذا العالم الحاضر لينعموا بثمار الكنيسة التي هي من عمل روحه القدّوس خلال الخدمة الرسوليّة. فقد جاع التلاميذ إلى خلاص البشر وأرادوا التمتَّع بحصاد الروح، الأمر الذي رفضه اليهود.

ثانيًا: كان تساؤل الفرِّيسيِّين "**لماذا تفعلون ما لا يحلْ فعله في السبوت؟**" [٢]، كما قلنا ليس عن غيرة على الشريعة، وإنما بدافع النقد وتشويه خدمة السيِّد المسيح، وكانت إجابة السيِّد المسيح لهم لا

---

[1] *Jerome Biblica Comm. p 135.*

[٢] راجع الأعياد والأصوام عند اليهود في كتابنا: سفر اللاويين، ١٩٨٤م، ص٢٢٧-٢٢٩.

[٣] للمؤلف: الإنجيل بحسب متّى, ١٩٨٣م، ص ٢٧٠.

[4] *In Luc 6:1-6.*

لإفحامهم، إنما بالحري للكشف عن أسرار العهد الجديد، لعلَّهم يُدركون الحق ويرجعون إليه. أراد السيِّد بإجابته أن يرفعهم إلى العهد الجديد الروحي عِوض حرف الناموس القديم، وكما يقول الرسول بولس: "**لأنه يقول لهم لائمًا: أيام تأتي يقول الرب حين أُكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا... فإذ قال جديدًا عتق الأول، وأما ما عتق وشاخ فهو قريب من الاضمحلال**" (عب ٨: ٨، ١٣)، وقد اقتبس الرسول هذه النُبوَّة عن سفر إرميا الذي بين أيديهم (إر ٣١: ٣١).

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**:

[لكننا نرى أن الكتبة والفرِّيسيِّين جهلوا هذا العهد الجديد كل الجهل، لأنهم حجبوا عيونهم عن رؤية الأسفار المقدَّسة، وهم يحدّقون النظر في تعاليم المسيح السماويّة لعلَّهم يجدون فيها نقصًا أو عيبًا للإيقاع به. لذلك تربَّصوا لتلاميذ المخلِّص، وخاطبوه قائلين: "ألا ترى كيف أن تلاميذك يفعلون ما لا يحلْ فعْلة في السبوت، فبينما الناموس يفرض على الناس الراحة في السبت، نجد تلاميذك يقطفون السنابل ويفركونها بأيديهم ويأكلون؟" ولكن قل لي أيها المعترض ألا تكسر خبزك وأنت تتناول طعامك يوم السبت، فلماذا تعيب على غيرك ما تقوم به أنت؟ وحتى نكون على بيِّنة بجهلهم الكتب المقدَّسة قرع المسيح حجَّتهم بما يأتي:

فأجاب المسيح: "**وقال لهم أما قرأتم ولا هذا الذي فعله داود حين جاع**" [٣]. فمع أن داود سلك مسلكًا مغايرًا للناموس، ولكن له في نفوسنا كل إكبار وإجلال، فهو قدِّيس ونبي. وحيث أن شريعة موسى توصينا بالقضاء بالحق بين الإنسان وأخيه، فلماذا تعتبرون إذن داود نبيًا وقدِّيسا بينما تبكِّتون تلاميذي وتسلقونهم بألسنة حداد ولم يفعلوا أمرًا أردأ؟

يجب أن نلاحظ أن خبز التقدِّمة الوارد ذكره في رواية داود يشير إلى الخبز النازل من السماء الذي نراه على موائد الكنائس المقدَّسة، وأن جميع أمتعة المائدة التي نستعملها في خدمة المائدة السرِّيَّة لهي رمز للكنوز الإلهيّة الفائقة[١].]

إن كان قد جاز لداود أن يكسر حرف الناموس ويأكل مع رجاله خبز التقدِّمة الذي يُرفع يوم السبت ليأكله الكهنة وحدهم ويوضع عوضه خبزًا جديدًا، وقد أكله داود ورجاله في السبت كما يظهر من قول الكتاب: "**فأعطاه الكاهن المقدَّس لأنه لم يكن هناك خبز إلا خبز الوجوه المرفوع من أمام الرب، لكي يوضع خبز سخن في يوم أخذه**" (١ صم ٢١: ٦)، فكم بالحري يليق برب داود أن يسمح لتلاميذه أن يأكلوا من السنبلة الجديدة في السبت؟! حقًا لقد ثار شاول الملك ضد الكاهن أخيمالك

[١] عظة ٢٢ ترجمة المرحوم كامل جرجس.

الذي قدَّم خبز الوجوه لداود ورجاله وأرسل ليقتله مع الكهنة، وها هو عدو الخير يثير الفريسيِّين ضد السيِّد المسيح رب داود وتلاميذه، لأن السيِّد سمح لتلاميذه أن يتمتَّعوا بطعام جديد!

ثالثًا: "وقال لهم: إن ابن الإنسان هو رب السبت أيضًا" [٥].

بينما أرادوا إتمامه بكسْر السبت أعلن أنه "**ابن الإنسان، رب السبت**"، فمن جهة دعا نفسه "**ابن الإنسان**"، لأنه وهو واضع ناموس السبت وشريعته إنما من أجل الإنسان، لا الإنسان من أجل السبت (مر ٢: ٢٧). إن كان "كلمة الله" قد صار ابنًا للإنسان من أجل الإنسان وهو ربه، فكم بالحري يليق أن يكون السبت لخدمة الإنسان؟!

لم يُحقِّر السيِّد المسيح من الشريعة ولا حطَّمها، بل بالحري رفعها بالأكثر بدعوة نفسه "**رب السبت**". حقًا إنه هو "**رب السبت**" المسئول عن هذه الشريعة أو هذا العيد الأسبوعي، وضعه لا ليهدمه أو يحطِّمه، وإنما لكي يدخل بنا إلى مفاهيم أعمق لهذا العيد، بتحريرنا من حرفيّة السبت القاتلة إلى عيد الأحد المُفرح للنفس.

لقد قدَّم السيِّد نفسه "سبتًا" لنا، إذ هو سرْ راحتنا، وهو عيدنا، فيه ننعم بالحياة المُقامة ونتمتَّع بالمصالحة مع الآب.

٢. شفاء اليدْ اليُمنى

في السبت الجديد انطلق السيِّد المسيح بتلاميذه وسط الزروع لكي يهبهم السنبلة الجديدة سِرْ شبع روحي لهم، مقدِّما فهمًا جديدًا للسبت، بكونه سِرْ راحة داخليّة وشبع عميق، يملأ النفس خلال التقائها بالله واتِّحادها معه. والآن إذ يدخل المجمع في سبت آخر أراد أن يكشف عن السبت أنه ليس يومًا للخمول والكسل، إنما هو راحة خلال العمل الروحي الحق، لذا التقى بصاحب اليدّ اليُمنى اليابسة ليردّ لها الحياة لكي تكون عاملة في الرب.

يرى **القدِّيس أغسطينوس** أن اليد اليُسرى تشير للعمل المادي، أما اليُمنى فتُشير للعمل الروحي. فالرجل ذو اليد اليمنى اليابسة يشير إلى المجمع اليهودي نفسه، وقد يبست يمينه عن العمل الروحي، إذ تحوَّل السبت إلى توقُّف عن العمل وممارسة حرفيَّات جامدة. وقد جاء السيِّد لينزع هذه اليبوسة، واهبًا للسبت فهمًا جديدًا روحيًا.

في تفسيرنا لإنجيل مرقس (٣: ١-٦) رأينا **القدِّيس أمبروسيوس** يتحدَّث عن هذا الرجل بكونه يمثِّل آدم الأول الذي مدّ يده على الشجرة في عصيان لخالقه، فيبِست بالخطيّة واحتاجت إلى السيِّد أن

يأتي ليشفيها، لتمتدْ سليمة تمارس الحياة الفاضلة، خلال محبَّة القريب وإنقاذ المظلوم. لقد يبست يدّ يربعام عندما أراد التبخير للأوثان وبسطها عندما صلَّي (١مل ١٣: ٤-٦). ورأينا **القدّيس كيرلس الكبير** في تعليقه على المعجزة كيف اِهتم السيِّد المسيح ليس فقط أن يشفي اليد اليابسة، وإنما أن يحاور الفريسيِّين في أمر السبت لعلَّهم يقبلون شفاء يُبوسِة فكرهم الحرفي.

يقول الإنجيلي: "**ثم نظر حوله إلى جميعهم، وقال للرجل: مدّ يدك**"، نظر إليهم السيِّد وهو يئن في داخله من أجل قسوة قلوبهم، فعِوض الاهتمام بشفاء أخيهم من يُبوسة يده والتمتَّع بالحياة العاملة اهتموا بالنقد، متربِّصين للسيِّد ليشتكوا عليه. فإنَّه حتى بعد تمتَّع الرجل بالشفاء عوض مشاركته فرحته "**امتلأوا حمقًا، وصاروا يتكلَّمون فيما بينهم ماذا يفعلون بيسوع**" [١١]. وكما يقول **القدّيس كيرلس الكبير**: [ألم تكن المعجزة كافية لغرس روح الإيمان؟ ينظرون المسيح يعمل بسلطانٍ إلهيٍ، فيشفي المريض بقوّة فائقة، ومع ذلك يقابلون رحمته بغلظة وقسوة بسبب الحسد والنميمة؟!][١]

٣. دعوة التلاميذ

إن كان السيِّد المسيح قد جاء صديقًا للبشريّة، لا تقوم صداقته على العاطفة المجرَّدة، إنما خلال الحب العامل، فإنَّنا رأيناه يدخل بنا إلى الحقول ليقدِّم لنا ذاته السنبلة الجديدة المبذولة على الصليب، نتناولها سِرْ شبع لنا في سبت الراحة الحقيقية. كما نراه يدخل بنا إلى مقدَّساته "المجمع" بكونه رب السبت، يشفي يميننا اليابسة، محولاً حياتنا من الحرف الناموسي الجامد إلى الحياة الإنجيليّة العاملة به وفيه. والآن نراه باسمنا ولحسابنا يخرج إلى الجبل ليصلي، ويقضي الليل كله في حديث ودّي مع الآب. كصديق لنا يعلن عن "الصلاة" طريقًا للصداقة وانفتاحًا على رب السماء!

في مقدِّمة هذا السفر قلنا أنه سفر "الصداقة الإلهيّة" التي تقوم خلال الصلاة، لذلك يظهر السيِّد نفسه كمعلم لنا عن الصلاة، لا بالوصايا الخاصة بممارسة الصلاة الدائمة واللجاجة فيها، وإنما أيضًا بظهوره في أكثر من موضع مصلِّيًا. وقد رأينا الفارق بين صلاة ذاك الذي بلا خطيّة وصلواتنا نحن الخطاة، إذ هو يصلِّي ويشفع بدمه لغفران خطايانا (راجع تفسير لو ٥: ١٦).

يعلّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على قول الإنجيلي: "**خرج إلى الجبل ليصلِّي**" [١٢]، قائلاً: [كل ما عمله المسيح لبنياننا ولفائدة المؤمنين باسمه. فلم يقم المسيح بشيء ما، إلا ليقدِّم نموذجًا ساميًا للحياة الروحيّة حتى نعبده عبادة حقيقيّة. والآن فلندرس المثال الحيّ الذي قدَّمه المسيح لنا عند التماس أمر

[١] عظة ٢٢.

من الإله العلي. يجب أن نصلِّي في الخفاء، فلا يرانا أحد. "فمتى صلَّيت فادخل إلى مخدعك" (مت ٦: ٦). ليس الغرض من الصلاة طلب المجد والظهور، بل يجب عندما نقف "رافعين أيادي طاهرة" (١ تي ٢: ٦) أن نصعد إلى السماء إلى مسكن الله متَّخذين مكانًا هادئًا لنكون في معزل عن ضوضاء العالم وهمومه ومتاعبه، ولنعمل كل هذا بنشاطٍ وسرورٍ، لا بقلقٍ وتعبٍ. لنقم بذلك بشوقٍ وغيرةٍ وصبرٍ جديرٍ بالثناء والإعجاب لأنكم تقرأون أن المسيح لم يصلِ فحسب بل مضى الليل كله في الصلاة... مع أنه مولود من الله الآب وتواضع إلى حدِ إخلاء نفسه من أمور عدة، حتى يكون أخًا وشبيهًا بنا في كل شيء ما عدا الخطيّة. شاركنا المسيح في الطبيعة البشريّة ولطَف بنا، فهو لا يزدرى بنا وبطبيعتنا، بل أخذ شبهنا لنقتفي خطواته وننسج على منواله[١].]

ويعلّق **القدّيس أمبروسيوس** قائلاً: [لا يتسلَّق الجبال كل مُصلٍّ إذ توجد صلاة تحسب خطيّة (مز ١٠٨: ٧). من تعلَّم الصلاة يسمو فوق الغنى الأرضي إلى السماوي، ويظل متسلِّقًا حتى يبلغ قمَّة الخلوَة العُليا، أما الذي يهتم بغنَى العالم فلا يتسلَّق الجبال إنما يشتهي ما لقريبه (من السُفليَّات). من يتطلَّع إلى رفقة الله يطلب الله فيصعد، هكذا النفوس القويّة تتسلَّق الجبال. لم ينصح النبي أي شخص أن يتسلَّق الجبال إنما يقول: "علي جبلٍ عالٍ اصعدي يا مُبشِّرة صهيُّون، ارفعي صوتك بقوّة يا مُبشِّرة أورشليم" (إش ٤٠: ٩). تسلُّق الجبال لا يكون بالأقدام إنما بسِموّ الأعمال، فإنَّك إذ تتبَّع المسيح تصير أنت نفسك أحد الجبال التي تحيط بك (مز ١٢٤: ٢).]

ويكمل **القدّيس أمبروسيوس** حديثه، فيقول: [الرب يصلِّي لا ليطلب لنفسه، وإنما لأجلنا... فهو شفيعنا... لا تظن أن المسيح يطلب عن ضعف ليأخذ أمرًا يعجز عن تحقيقه، فهو مؤسِّس كل سلطة... إنما يشكِّلنا بقدوتِه في الفضيلة. أيضًا لنا شفيع واحد عند الآب (١ يو ٢: ١)، يشفع في خطايانا، ومن ثم فهو لا يطلب عن ضعف وإنما عن حب... لقد قضي الليل كلُّه في الصلاة، مقدِّما لك مثالاً ورسمًا كقدوة نمتثل بها[٢].]

إذ قضى السيِّد المسيح الليل كله في الصلاة، دعا تلاميذه واختار اثنى عشر في النهار، ويلاحظ في هذا الاختيار:

---

[١] عظة ٢٣.

[2] *In Luc 6:12-49.* ترجمة مدام عايدة حنا

أولاً: يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [اختار التلاميذ من أصل وضيع وبلا كرامات، أُميِّون، حتى إذ يصيروا عظماء ويمارسون أعمالاً عظيمة يكون ذلك بحلوله فيهم وعمله داخلهم[1].] وكما يقول الرسول بولس: "اختار الله جُهال العالم ليخزي الحكماء، واختار الله ضعفاء العالم ليخزي الأقوياء، واختار الله أدنياء العالم والمُزدرَى وغير الموجود ليُبطل الموجود، لكي لا يفتخر كل ذي جسد أمامه" (١ كو ١: ٢٧-٢٩). لم يختارهم فقط من بين الطبقات الفقيرة، وإنما أيضًا من بين الخطاة ليترفَّقوا بإخوتهم الخطاة.

ثانيًا: شعر التلاميذ بفضل السيِّد عليهم، وكما قال لهم: "لستم أنتم اخترتموني، بل أنا اخترتكم وأقمتكم، لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم، لكي يُعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمي" (يو ١٥: ١٦). ليس لهم فضل في الاختيار، إنما الفضل لله الذي اِختارهم. فهو ملتزم بهم، يسندهم ويثمر بروحه فيهم حتى يتمِّموا رسالته، لكن دون سلبيَّة من جانبهم، إنما يجب عليهم التجاوب مع عمل نعمته، والعمل به ومعه لحسابه. هذا ما يؤكِّده الرسول بولس الذي يدرك أنه قد أُفرِز للعمل وهو في الأحشاء في بطن أُمّه (غل ١: ١٥)، يلتزم بالعمل الإلهي، إذ يقول: "فإذ نحن عاملون معه نطلب أن لا تقبلوا نعمة الله باطلاً" (٢ كو ٦: ١).

يعلِّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على اختيار التلاميذ بقوله: [أخذوا من المسيح قوّة، فأَدهشوا العالم بأعمالهم، ولكن يجب أن نلاحظ تواضع الإنجيلي ووداعته، فلم يقل: "إن الرسل القدِّيسين أُنتخِبوا"، ولكن مضى في ذكر أسمائهم ببساطة ما بعدها من بساطة حتى لا يعمل أحد على الانخراط في جماعة الرسل المنتخبين. وقد قال بولس في هذا الصدد: "ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله" (عب ٥: ٤). ومع أن الرسل المقدَّسين أفرزهم الله بالاسم لهذه الرسالة السامية إلا أن بعض الناس من وقت لآخر تحرِّكهم نزعة الجنون والجرأة فيزجُّون أنفسهم وسط الرسل وينتحلون اسمًا لم يُعطوه، وقد أشار الرسل المقدَّسون إلى مثل هؤلاء المغتصِبين بالقول: "لأن مثل هؤلاء هم رسل كذبة، فعلة ماكرون مغيرون شكْلهم إلى شبه رسل المسيح، ولا عجب لأن الشيطان نفسه يُغيِّر شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيمًا إن كان خدَّامه أيضًا يُغيِّرون شكلهم كخُدَّام للبرْ" (٢ كو ١١: ١٣-١٤).]

[1] *City of God 18:49.*

ثالثًا: في ذكر أسماء الاثني عشر تلميذًا ذكرهم اثنين اثنين، ليؤكِّد حياة الشركة بينهم، فسِرْ القوّة في التلاميذ هو تجلِّي السيِّد المسيح "الحب الحقيقي" في حياتهم معلنًا في حياتهم الخاصة الداخليّة، كما في حياة الشركة الحيّة. لقد سبق فكرَّرنا كثيرًا أن رقم "٢" يشير إلى الحب، الذي يجعل الاثنين واحدًا، وكأنها إرساليّة حب توحِّد القلوب في الرب، وتضم كل النفوس معًا خلال المصالحة مع الآب في ابنه بروحه القدُّوس.

رابعًا: فيما يلي معنى أسماء التلاميذ:

أ. "**سمعان**" معناها: "السميع" أو "المُطيع"، وقد دعاه السيِّد المسيح "بطرس" وتعني "صخرة"، بكونه أول من أعلن الإيمان بالسيِّد المسيح ابن الله.

ب. "**أندراوس**" معناها: "الجاد" أو "القوي" أو "البسالة".

ج. "**يعقوب**" معناها: "المتعقِّب" أو "المُجاهد".

د. "**يوحنا**" معناها: "الله يتحنَّن" أو "الله ينعِم".

هـ. "**فيلبس**" معناها: "محب الفرس" أو "فم المصباح".

و. "**برثلماوس**" معناها: "ابن الحارث".

ز. "**متَّى**" يعني "هبة" أو "عطيّة".

ح. "**توما**" يعني "التوأم".

ط. "**يهوذا**" يعني "يحمد" أو "يعترف".

وقد سبق لنا عرض بعض مقتطفات من أقوال الآباء في هذا الشأن عند دراستنا لإنجيل معلِّمنا مرقس البشير (٣: ١٥).

٤. تعاليمه

إن كان السيِّد المسيح في صداقته لنا دخل بنا إلى الزروع ليُشبعنا به، وإلي مقدَّساته (المجمع) ليشفي يميننا للعمل الروحي، وأقام التلاميذ لينادوا بالمصالحة السماويّة، الآن يتقدَّم إلينا كصديق معلِّم يحدّثنا عن ناموسه السماوي الذي نحيا به:

أ. حديث شخصي للمتألِّمين

كصديقٍ معلِّمٍ ينزل إلينا وسط آلامنا ليحدِّثنا حديثًا عمليًا واقعيًا وهو حالٌ في وسطنا يسندنا وسط أتعابنا، إذ يقول الإنجيلي:

"ونزل معهم ووقف في موضع سهل،
هو وجمع من تلاميذه وجمهور كثير من الشعب،
من جميع اليهوديّة وأورشليم وساحل صور وصيدا،
الذين جاءوا ليسمعوه ويُشفوا من أمراضهم.
والمعذَّبون من أرواح نجسة وكانوا يبرأون.
وكل الجمع طلبوا أن يلمسوه،
لأن قوّة كانت تخرج منه، وتَشفي الجميع" [١٧-١٩].

إن كان السيِّد في صلاته طوال الليل اعتزل على الجبل، إذ لا يستطيع أحد أن يُدرك سِرْ الوحدة الفريدة بين الآب والابن، لكنه نزل إلى السهل ليلتقي مع التلاميذ والشعب اليهودي وأيضًا الأممي. هؤلاء الذين جاءوا يسمعونه ويلمسونه لينالوا قوّة تخرج منه! بهذا كان السيِّد يُتلمِذ خدَّامه، أنه وإن لاق بهم أن يرتفعوا على الجبال العالية ليدخلوا مع الله في شركة سرَّيَّة روحيَّة عميقة، لكنهم هم خدام الشعب، والعاملون لحساب البشريَّة لإراحتهم!

إن كان ربّنا يسوع قد جاء صديقًا معلِّمًا، إنما جاء يهب قوّة لمن يلمسه، واهبًا عطايا فائقة للنفوس المعذَّبة التي بقيت في السهل غير قادرة أن ترتفع إلى الجبل لتلقي معه. يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [تأمَّلوا بدقَّة في كل كلمة... كيف ينزل إلى الجمع، وأين يمكن للجمع أن تراه إلا في السهل. إذ لا يتبعه الجمع إلى المرتفعات ولا يصعدوا إلى قمم الجبال، فينزل هو إلى الضعفاء مادام الضعفاء لا يصعدون إلى المرتفعات... ينال المرضى الشفاء في السهل لينموا في القوّة شيئًا فشيئًا، ويستطيعوا تسلُّق الجبال. ينزل الرب ليشفي جراحاتنا لكي يجعلنا نشاركه طبيعته باتِّحاده بنا.]

الآن إذ قدَّم قوّة للذين يلمسونه حتى يرفعهم من السهل إلى قمم جبال الفضيلة، بدأ يحدِّثهم حديثًا شخصيًا عن "بَركة الآلام"، إذ يقول الإنجيلي:

"ورفع عينيه إلى تلاميذه، وقال:
طوباكم أيها المساكين، لأن لكم ملكوت الله" [٢٠].

إذ أراد أن يلتقي بالشعب لشفائهم نزل إلى السهل، لكنه حين يتحدَّث يرفع عينيه ليرفع بصيرتهم معه نحو السماء. أنه يطوِّب المساكين لا لأنه ينزع عنهم الحرمان الزمني أو الألم، وإنما ليرفعهم وسط الآلام إلى ملكوته الإلهي. جاء صديقنا متألِّما يعيش وسط المتألِّمين، ليحملهم وسط الآلام إلى شركة أمجاده!

يقدِّم تطويبًا شخصيًا لسامعيه بقوله: "**طوباكم أيها...**"، واصفًا إيَّاهم أنهم مساكين وجياع وباكون ومبغَضون من الناس ومضطهَدون منهم ظلمًا... ليعود فيقدِّم الويلات لحاملي السِمات المناقضة: للأغنياء، الشباعى، الضاحكين الآن، الممدوحين من كل جميع الناس. وقد سبق لنا الحديث عن هذه التطويبات في دراستنا لإنجيل معلمنا متَّى (٥: ٢-١٢). ويلاحظ في هذه التطويبات الآتي:

أولاً: بدأ بالتطويبات لا بالويلات؛ في التطويب يوجِّه الحديث لسامعيه أما الويلات فيوجِّهها بصيغة الغائب؛ وهكذا يقدِّم لنا السيِّد المسيح الصديق الحقيقي المعلِّم صورة حيَّة للتعليم، مركزها تشجيع السامعين وبث الرجاء فيهم، فهو يفترض في سامعيه طاعته والتمتَّع ببركاته الإلهيَّة، وعندما يحذِّر يفترض أنهم لا يرتكبون الخطأ. إنه إيجابي في تعاليمه.

لقد حمل معلمنا بولس الرسول روح سيِّده ففي رسائله ينعت من يكتب إليهم أنهم قدِّيسون ومختارون ومدعوُّون للملكوت الخ. وبعد التشجيع الكثير يوبِّخ في حزمٍ دون أن يجرح مشاعرهم!

ثانيًا: يعلِّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على القول الإلهي: "**طوباكم أيها المساكين بالروح، لأن لكم ملكوت السماوات**" [٢٠]، قائلاً:

[هذه هي كلمات المخلِّص يوم أن فتح للتلاميذ كنوز العهد الجديد، وقادهم في طريق الإنجيل وهم على أهبَّة المناداة بالرسالة المقدَّسة، ونريد أن نعرف من هم المساكين الذين أشار إليهم المسيح في الآية السابقة، فوعدهم بملكوت السماوات؟ إن متَّى يقول في هذا الصدد "طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات" (مت ٥: ٣)، ومعنى ذلك أن المسكين بالروح هو كل من اتَّضع ولم يشمخ بأنفه، فكان قلبه وديعًا وذهنه بعيدًا عن الكبرياء والزهْو متحرِّرًا من رذيلة العُجب.

رجل بمثل هذا الخلق جدير بالمدح والثناء، فهو صديق الإله جلَّت قدرته، فقد وصفه النبي بالقول: "إلي هذا أنظر، إلى المسكين والمنسحق الروح والمرتعد من كلامي" (إش ٦٦: ٢)، ويقول داود النبي: "القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره" (مز ٥١: ١٧)، ويقول المسيح نفسه "تعلَّموا منِّي، لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩).

في الدرس الذي أمامنا نرى الآية تَعِد المسكين بكل بَركة سماويّة بدون أن تضيف كلمة "بالروح" وصفًا للمسكين، ولكن يجب أن نعلم أن الإنجيليِّين لا يناقضون الواحد الآخر، فإنَّهم يجزِّئون الرواية فيما بينهم، فأحيانًا يذكر جميعهم نص القصَّة بحذافيرها وأحيانًا يذكر أحدهم ما تركه الآخر حتى لا يفوت المؤمنين بيسوع المسيح شيء أفاد التلاميذ وجدَّدهم.

تجِدون إذن من الآية السابقة أن المسيح أراد "بالمسكين بالروح" الجدير بالبركات والنعيم، ذاك الذي لم يهتم بالغنى واحتقر الجشع والطمع، وازدرى العطايا الممقوتة، ورغب عن محبَّة المال المرذولة، وارتفع بنفسه فلم يعبأ بمظاهر الحياة وغرور المال.

حقًا يهدينا بولس الحكيم إلى طريق المبادئ القويمة بقوله: "لتكن سيرتكم خالية من محبة المال" (عب ١٣: ٥). ويضيف إلى ذلك قوله: "فإن كان لنا قوت وكِسوة فلنكتفِ بهما" (١ تي ٦: ٨)، ولأن من رغب في فداء المسيح وخلاصه يمتهن الأموال الزائلة، ويمنطِق حقويْه بالأعمال السامية الباقية. ولا نقصد بامتهان المال التعريض بالأغنياء الذين فاضت موارد رزقهم بالثروة بل أن كلامنا ينسب إلى أولئك الذين مالوا بكليَّتهم إلى المال، ورغبوا فيه كل الرغبة، ومن هم هؤلاء الناس؟ أشار إليهم المخلِّص بالقول: "لا تكنزوا لكم كنوزًا على الأرض" (مت ٦: ١٩)[١].]

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [بدأ كل من البشيريين تطوبياته بهذه العبارة، فهي الأولي حسب الترتيب والأم التي تلد كل الفضائل، فباحتقار ممتلكات هذه الحياة تستحق الممتلكات الأبديّة، أما إن كنت أسيرًا لشهوات العالم فمن المستحيل أن تطفو فوقها.] كما يقول: [ليس كل المساكين مطوَّبين، فالفقر عمل سلبي، إذ يوجد فقراء صالحون وآخرون أشرار... طوبى لمن كان مسكينًا في الخطيّة ومسكينًا في الرذائل، ليس لرئيس هذا العالم موضع فيه (يو ١٤: ٣). طوبى للمسكين الذي يُمتثل بسيِّده الذي افتقر لأجلنا وهو غني (٢ كو ٨: ٩)[٢].]

ويقول **القدِّيس يوحنا التبايسي:** [إن لم يقصد الإنسان أولاً التجرُّد لا يستطيع أن يدنو من الحزن والنوح، لأن حياتنا لا تستطيع أن تدوم في صحَّة الروح، مادمنا مالكين في أنفسنا شيئًا معوَّقًا، إذ أن الإنسان لا يستطيع أن يقتني حب الله إذا كان حب الاقتناء يتحرَّك فيه، لأنه مكتوب: من أراد أن يأتي ورائي فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعني (مر ٨: ٣٤). لا يستطيع الإنسان أن يحمل الصليب دون أن يجحد العالم، بل ينبغي له أن يبتعد عن كل الأشياء، إذ أن العزاء الخارجي يعطِّله عن الشيء الذي يقتنيه، فلا يمكن أن يثبت الحق في إنسانٍ إلا إذا قطع أولاً من ضميره أصل محبَّة المال، ولا يستطيع أن يسكن حب المسيح في الضمير إن لم يتجرَّد أولاً من حب المال... لا تندم ولا تحزن أيها الإنسان عندما تكون فقيرًا ومحتاجًا من أجل الله، لأن رجاء عزائك هو في الملكوت، ولا تصغر روحك إذا تضايقت بالجوع والعري، ولا تضجر بل افرح وابتهج بالرجاء الموضوع لك[٣].]

---

[١] عظة ٢٨.

[2] *In Luc 6:20.*

[٣] دير السيدة العذراء – السريان: الآباء الحاذقون فى العبادة، ح ٢، ١٩٥٢م، ص ١٨٤-١٨٥.

ويحدّثنا **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** عن المسكنة (أو الفقر) بأنه التواضع بكونه رأس كل فضيلة، قائلاً: [إنه المذبح الذهبي، وهو موضع الذبيحة الروحي، لأن الروح المنسحق ذبيحة لله (مز ٥١: ١٧). التواضع هو والد الحكمة، إن كان للإنسان هذه الفضيلة فتكون له بقيّة الفضائل[1].]

ثالثًا: "طوباكم أيها الجياع الآن لأنكم تُشبعون" [٢١].

❖ ورد في متَّى النص الآتي: "**طوبى للجياع والعطاش إلى البِر، لأنهم يُشبعون**" (مت ٥: ٦). أما في لوقا فيكتفي بالقول: "طوباكم أيها الجياع لأنكم تُشبعون". ومن الثابت أن الجياع والعطاش إلى البِرْ يقومون بعملٍ جليلٍ شريفٍ، لأنهم يسعون بِجِدٍ وراء التقوى والصلاح، كما يسعون في طلب الطعام والشراب.

ويُراد أيضًا بهذه الآية تطويب من يرغب في عيشة الفقر والدعة في غير ما إكراه أو امتعاض، فإنَّ هذا التطويب يعمل على نمو ذهنهم ومضاء عزيمتهم، فيسيرون على نهج الحياة الرسوليّة الرشيدة غير مبالين للكسب الباطل، فلا يعنون بالذهب والفضة ولا تهمُّهم الثياب الفاخرة والملابس الثمينة، وليس عندهم إلا الطعام القليل الذي يكاد لا يسد رمقًا أو يشفي غِلَّة.

مثل هؤلاء الناس الذين استعاضوا عن الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، يأنسون بوعد السيِّد المسيح لهم، فلا يأس بعد ذلك ولا قنوط، إذ يصرح يسوع جهارًا بأنهم يُشبعون بما يُفتح لهم من كنوز البركات الروحيّة والعقليّة.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ عندما يُصاب المرء بمرض خطير لا يشعر بالجوع، فالألم يَبتلع الجوع. لكن ما هو هذا الجوع الذي للبِر؟ وما هي الخيرات التي يجوع إليها البار؟ أليست تلك الخيرات التي قيل عنها: "كنتُ فتى وقد شخت الآن، ولم أر صدِّيقًا تُخُلِّيَ عنه، ولا ذُرِّيَّة له تلتمس خبزًا" (مز ٣٦: ٢٢). من يشعر بالجوع يود أن تنمو قوَّته وتتقوَّى الفضيلة.

القدِّيس أمبروسيوس

رابعًا: "طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون" [٢١].

إذ يدعونا السيِّد المسيح للبكاء وسكب الدموع، انشغلت الكنيسة منذ بدء انطلاقها بممارسة حياة التوبة الصادقة في دموعٍ لا تنقطع. ولكن بحكمة وتمييز، دون فقدان الفرح الداخلي خلال الرجاء

[1] *In Matt. hom 47:4.*

والسلام الفائق للعقل. لهذا لا نعجب إن رأينا **القدِّيس إكليمنضس السكندري** وهو يحثُّنا على الدموع قائلاً: [إنه لأمر صالح أن تبكي وتحزن من أجل العدل، بهذا تحمل شهادة لأعجب شريعة[1]]، يؤكِّد التزامنا بعدم المبالغة في الدموع كما في الضحك[2]. بنفس الفكر يحدِّثنا **القدِّيس كيرلس الكبير** عن تطويب السيِّد المسيح للباكين بالتمتُّع بحياة الفرح، لكن ليس لكل الباكين، إذ يوجد غير مؤمنين يبكون بسبب الهَمْ والغَم[3].

لنبكِ ولنسكب الدموع هنا، لكن بحكمة وفي رجاء من أجل خلاصنا وخلاص إخوانتا، وليكن بكاؤنا أمام الرب نفسه حتى يملأنا بتعزيات روحه القدُّوس:

❖ يليق بكم أن تبكوا على العالم، لكن تفرحوا في الرب؛ تحزنوا للتوبة وتبتهجوا بالنعمة، لذلك يأمر معلِّم الأمم موصيًا بكمال أن نبكي مع الباكين ونفرح مع الفرحين.

❖ من يقتني فرحًا عظيمًا إلا ذاك الذي يبكي كثيرًا، وكأنه نعمة المجد العتيد بثمن دموعه[4]؟!

القدِّيس أمبروسيوس

❖ "للبكاء وقت وللضحك وقت". وقت البكاء هو زمان الألم، كقول الرب: "الحق الحق أقول لكم أنكم ستبكون وتنوحون" (يو ١٦: ٢٠)، أما الضحك فيخص القيامة، إذ يقول: "ولكن حزنكم يتحوّل إلى فرح[5]" (يو ١٦: ٢٠).

الأب ديُونسيوس السكندري

❖ الزمان الحالي هو وادي الدموع. هذا العالم هو موضع الحزن لا الفرح... العالم العتيد هو عالم الفرح، أما الآن فساحة الصراع والاحتمال.

❖ في العالم الحاضر لا يوجد الفرح الأبدي، إنما يكون فرحنا سريع الزوال.

❖ من لا يبكي في العالم الحاضر سيسكب الدموع في الحياة العتيدة[6].

القدِّيس جيروم

---

[1] *Strom. 4:5:26.*
[2] *Paed. 2:57:56.*
[3] *In Luc Ser 28.*
[4] *Conc. Virgins 3:5; Conc. Widows 6.*
[5] *Comm. on Eccles. ch 3.*
[6] *On Ps. hom 16, 18, 39.*

❖ الصلاة الممتدَّة والدموع الغزيرة تجتذبان الله للرحمة.

❖ البكاء وحده يقود للضحك المطوَّب.

❖ أراد يسوع أن يُظهر في نفسه كل التطويبات، إذ قال: "**طوبى للباكين**"، وقد بكى هو نفسه لكي يضع أساس هذا التطويب حسنًا[1].

العلامة أوريجينوس

❖ [في تأبينه للقدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص.]

إذ أبدأ فأذكر فيض دموعه أبتدئ أنا نفسي أبكي، إذ يستحيل عليَّ عبور محيط دموعه بعينين جافتين. لم يوجد نهار أو ليل، ولا نصيب من نهار أو ليل، ولا حتى لحظة مهما قصرت لم تَظهر فيها عيناه الساهرتان سابحتان في الدموع. أحيانًا كان يبكي من أجل البؤس العام والغباوة التي يسقط فيها الكل، وأحيانًا من أجل رذائل خاصة كما قال. كنتَ تجده يبكي وينوح، ليس فقط عندما كان يتحدَّث عن التوبة والأخلاقيَّات وتدبير الحياة، وإنما حتى في صلاة التسبيح والحمد[2].

❖ النفس ميِّتة خلال الخطيّة. إنها تتطلَّب حزنًا وبكاء ودموعًا وتنهدًا مرًا على الشر الذي دفعها إلى الهلاك.

ولول، ابكِ، احزن، رد النفس إلى الله!

انظر كيف تتألّم الأم التي تفقد ابنها بالموت، فيُلقى في القبر، فإنَّها تبكي لرحيل محبوبها. بالحري يلزم أن يكون الحزن أشد بالنسبة للإنسان الذي تفصله الخطيّة عن الله، فيفقد صورة صلاحه المحبوبة... يحزن الله بسبب فقدان الإنسان للصورة، فإنَّ النفس عنده أعزْ من كل بقيّة خليقته. بالخطيّة تموت النفس، وأنت ألاَ تُفكر في هذا يا خاطي! بالحري يلزمك أن تحزن من أجل هذا الإله الذي يحزن عليك! نفسك ميِّتة بالرذيلة، اذرف الدموع وأقمها. لتُفرِّح الله بقيامة نفسك[3].

القدِّيس مار أفرآم السرياني

نود أيضًا أن نوضِّح أننا إذ نبكي في هذا العالم على خطايانا، فإنَّ هذا البكاء لا يعني فقدان الرجاء، وإنما كما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** إننا إذ نتوب بصدق تغفر لنا خطايانا بسبب حب الله لنا. نذكر هذه الخطايا على الدوام حتى لا نسقط فيها. لقد غفرت تمامًا، لكننا نقول مع المرتل:

---

[1] *In Jer. hom 3:49; In Luc. hom 18.*
[2] *PG 49:829 D.*
[3] *In Is. 26:10.*

"خطيَّتي أمامي في كل حين"... جاء عن **الأب بفنوتيوس** تلميذ القدِّيس مقاريوس أنه كثيرًا ما كان يردّد هذا القول عن الشيخ: [عندما كنت صغيرًا، اعتدت أن آكل مع الأطفال الآخرين، وقد اعتادوا أن يذهبوا ويسرقوا قليلاً من التين. وإذ كانوا يجرون سقطت تينة منهم، فأمسكتها وأكلتها. كلما أذكر هذا أجلس وأبكي.]

لا يكون هذا البكاء على خطايانا وحدنا، وإنما على خطايا الآخرين أيضًا. لقد أجاب **القدِّيس باسيليوس الكبير** على السؤال: إن كان يجوز للإنسان أن يضحك؟ بأنه لا يقدر أن يفهم كيف يمكن لمسيحي صالح أن يضحك [خاصة عندما يرى كثيرين يهينون الله بكسْرهم الناموس واقترابهم للموت بالخطيّة، إذ يليق بنا أن نحزن ونبكي على هؤلاء[١].] كما يقول في عظته عن الشهيدة يوليطة: [عندما ترى أخاك ينوح في توبة عن خطاياه اِبك معه. هكذا خلال أخطاء الغير تربح نفسك من الخطأ. من يسكب الدموع الساخنة على أخطاء قريبه يبرأ هو بحزنه على أخيه. هذا هو حال القائل: "الكآبة امتلكتني من أجل الخطاة الذين حادوا عن ناموسك" (مز ١١٨: ٥٣)[٢].] ويقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لنبكِ عليهم ليس يومًا أو يومين بل كل حياتنا[٣].]

يقدِّم لنا **القدِّيس يوحنا التبايسى** تداريب عمليّة تسند المؤمن لممارسة البكاء والتمتُّع بالدموع منها: تذكُّر آلام المخلِّص، المحاسبة للنفس، تذكر الدينونة، توقُّع الموت، وطلب الدموع من الله. فمن كلماته: [كان آباؤنا السعداء الطوباويُّون تأتيهم الدموع بسهولة في وقت التضرُّع، لأنهم كانوا على الدوام يتألِّمون ويتفرَّسون في آلام سيِّدنا]، [حاسب نفسك كم ليلة سهرت لأجل الدموع، أو كم من الأعمال قدَّمت إلى الله ليجود عليك بحزن الدموع]، [كثرة حزن الدموع هي موهبة من الله تُعطى باجتهاد طلبات السائل[٤].]

خامسًا: "طوباكم إذا أبغضكم الناس" [٢٢].

كصديق حقيقي لنا دخل إلى حياتنا وشاركنا آلامنا، فلا نرى تعليمه كلمات فلسفيّة برَّاقة، وإنما خبرة حياة يقدِّمها لنا وسط ضيقاتنا. لقد حلّ بيننا كمسكينٍ وظهر كجائعٍ وعطشانٍ وبكى حتى يطوِّب المساكين والجياع والباكين، والآن قبل أن يكون مرذولاً من الناس ليجد المرذولين والمبغَضين من الناس لهم موضعًا فيه.

---

[1] *Short Rules 31.*
[2] *PG 31:257 D.*
[3] *In Ep. Ad Phil 3:4.*

[٤] الآباء الحاذقون ٢: ١٨٦.

إن كانت المسكنة بالروح أو التواضع هو رأس كل فضيلة وبداية كل تطويب حق، فإنَّ احتمال بغض الناس وتعييراتهم ومضايقاتهم بقلب متسع بالحب من أجل الملكوت هو نهايّة التطويب، إذ فيه يبلغ المؤمن الرجولة الروحيّة أو النضوج الحق. بمعنى آخر، ما تبغيه كلمة الله منا في احتمالنا الآخرين بفرح هو التمتَّع بسمات السيِّد المسيح المتألِّم من أجل أعدائه، فنحسب بحق أعضاء جسده الناضجين. لهذا لخص **القدِّيس جيروم** التطويبات في العهدين القديم والجديد في عبارة واحدة: [طوبى للإنسان – ليس كل إنسان – بل ذاك الذي يبلغ كمال الرجولة في المسيح[1].]

❖ "**طوبى لكم إذا أبغضكم الناس**" [٢٢].

بين السيِّد للرسل ما ينتظرهم من ضنك واضطهاد وهم يعلِّمون الناس، ووصف الإنجيلي عن طريق النبوَّة الويلات المروِّعة التي تصيب الرسل وهم يُعلنون رسالة الفادي، وينصحون اليهود أن ينبذوا عبادة الفرائض والناموس للتسربل بِحلَّة الحياة المُثلى، ويُنيرون للوثنيِّين طريق الحق والصدق حتى يقلعوا عن عيشة الفجور والرذيلة.

لكن لا يقبل عدوْ الفضيلة نُصحًا ولا إرشادًا، فهو يثير على الناصح والهادئ حربًا شعواء، حتى يكون الرسل على بيِّنة من أمرهم وهم يكرزون بكلمة الإنجيل، فلا يقلقل أحدهم ولا يقنط، أظهر لهم المسيح نصيبهم الروحي وحلاَّهم بلباس الغِبطة السمائيّة في حالة اضطهاد الناس لهم، وبغض الأشرار لنصحهم وإرشادهم. وأوصاهم بأن كل ما يعمله الخطاة الآثمة معهم من تشريد وتجريد ونفيْ وامتهان ومقْت واضطهاد، كل ذلك لا يؤْبه له ولا يُعنى به، فبتحمُّلهم هذه الويلات والضيقات يَسعدون روحيًا ويَنعمون قلبيًا.

وزاد السيِّد وعلَّم تلاميذه بأن اضطهادهم في المستقبل ليس بالشيء الجديد؛ طالما أُضطهد الأنبياء والرسل من قبل. فكثيرا ما قُتل الأنبياء ونُشروا، وضرب بعضهم بحد السيف وأُهْلِكوا، فلا غرابة إن نسج الرسل على منوال سلفهم الصالح، وصبروا على عيشة المذلَّة والمهانة في سبيل نُصرة الحق والعدل، ففي ذلك نصر لهم وظفر إذ يُتوَّجون بإكليل السماء ويشتركون في مجد القدِّيسين المُنير[٢].

القدِّيس كيرلس الكبير

[1] *In Ps. Hom 1.*

[٢] عظة ٢٨.

❖ من أراد أن يتشبَّه بالله فليكن وديعًا هادئًا بقدر ما يمكن للإنسان، وليتحمَّل بسِعة صدر ما يزعجه من الآخرين... إن تعرضَّتَ لإهانة ثقيلة لا تُطاق، وأَخذ الغيْظ والحمق يغليان في أحشاك، فأذكُر وداعة المسيح لتحصل مع عدوَّك على فائدة عظيمة، وبوداعتك تجعله صالحًا[١].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ صلُّوا ألا يوهب لي إحسان أعظم من أن أُقدَّم لله، مادام المذبح لا يزال معدًا، ففي اجتماعكم معًا بمحبَّة غنُّوا لله أغنية شكر للآب بالمسيح يسوع...

أطلب إليكم ألاّ تُظهروا لي عطفًا في غير أوانه، بل اسمحوا لي أن أكون طعامًا للوحوش الضارية، التي بواسطتها يوهب لي البلوغ إلى الله. اتركوني أُطحن بأنياب الوحوش لتصير قبرًا لي، ولا تترك شيئًا من جسدي، حتى إذا ما مُتْ لا أتعِب أحدًا. فعندما لا يعُدْ العالم يرى جسدي أكون بالحقيقة تلميذًا للمسيح.

توسَّلوا إلى المسيح من أجلي حتى أُعَدْ بهذه الطريقة لأكون ذبيحة لله[٢].

القدِّيس أغناطيوس الثيؤفورس

سادسًا: بعد أن قدَّم التطوبيات الأربعة ذكر اللعنات الأربعة التي تخص الأغنياء والشباعى والضاحكين والذين يمدحهم جميع الناس، فماذا يعني بهذه الفئات؟

بلا شك يقصد **بالأغنياء** المتَّكلين على أموالهم، والذين أعمت الثروة عيونهم عن معاينة الله وإخوتهم. **والشباعى** هم الذين اِمتلأوا، فيشعرون أنهم ليسوا في عوز إلى الله، فلا يطلبون عمله فيهم. ويقصد **بالضاحكين** الذين يلهيهم العالم بإغراءاته عن طريق التوبة، أما **الذين يمدحهم جميع الناس** فيعني بهم الذين يسعون وراء المجد الباطل لا المجد الخفي الداخلي.

فمن جهة الأغنياء يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [إن كان كثرة المال يحوي نداءات كثيرة نحو الشرّ، فهو أيضًا يمكن أن يحوي دعوة نحو الفضيلة. حقًا أن الفضيلة لا تحتاج إلى مال كثير، فإنَّ القليل الذي يقدِّمه الفقير أفضل من الهبات الكثيرة التي يقدِّمها الغني، لكن الرب لا يدين من له أموال إنما يدين من يسيء استخدامها[٣].] ويرى **القدِّيس أمبروسيوس** أيضًا أن الأغنياء الذين سقطوا تحت

---

[١] المطران ابيفانيوس: الآمالى الذهبية من مقالات لأبينا الجليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، ١٩٧٢م، ص ٤٧، ٤٨.

[2] *In Ep. Ad Rom.*

[3] *In Luc 6:24.*

اللعنة هم اليهود والفلاسفة، فقد اغتنى اليهود بالرموز والنبوَّات والمواعيد، لكنهم في غناهم رفضوا بساطة الإيمان، وأيضًا اغتنى الفلاسفة بالفلسفات البشريّة فرفضوا الإيمان.

لقد سجَّل لنا **القدِّيس إكليمنضس السكندري** في كتابه: "من هو الغني الذي يخلص؟" المفهوم المسيحي للغنى، موضِّحًا كيف أن المال يُمثِّل وزنة يجب إضرامها لحساب ملكوت الله. بنفس الفكر أكد **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** في كثير من مقالاته أن الغنى في ذاته ليس صالحًا ولا شرِّيرًا، ولكن الإنسان يمكن أن يستخدمه في البِر أو في الشرّ. ويؤكِّد **القدِّيس كيرلس الكبير** أنه من بين الأغنياء من يشفق على الفقير ويرحم لعازر المسكين فينال إكليل السماء، إذ يتمِّم الوصيّة الإلهيّة: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظُلم حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبديّة" (لو ١٦: ٩).

أما **الشباعى،** فيُقصد بهم أمثال ذاك الذي قيل له: "لأنك تقول إني أنا غنيّ وقد استغنيت، ولا حاجة لي إلى شيء، ولستَ تعلم أنك الشقي والبائس وفقير وأعمى وعريان، أُشير عليك أن تشتري منِّي ذهبًا مُصفًّي بالنار لكي تستغنَي، وثيابًا بيضًا لكي تلبس، فلا يظهر خزي عريك، وكَحِّل عينيك بكُحْلٍ لكي تُبصر" (رؤ ٣: ١٧-١٨). وكأن هؤلاء الشباعى قد ظنُّوا أنهم أغنياء، متَّكلين على ذواتهم وإمكانيَّاتهم الخاصة، لا على كلمة الله التي كالذهب المصفَّي تهب غنى حقيقيًا، ولا على السيِّد المسيح نفسه الذي يليق بنا أن نُلبسه، فيستُر ضعفنا وخِزينا ببرِّه المجَّاني، ولا على الروح القدس الذي يفتح البصيرة الداخليّة ككُحْل للعينين.

الضاحكون هم السالكون في الحياة باستهتار، لا يُبالون بخلاص نفوسهم وميراثهم الأبدي، يقضون أيَّامهم كمن يلهون بالضحك، عوض الجِدِّيّة في ممارسة التوبة.

أخيرًا **الذين يطلبون مديح الناس،** هؤلاء يَستعبدون أنفسهم للناس لا لله، يطلبون إرضاء الغير على حساب الحق، ويفرحون بكلمة المديح الزمني عِوض المجد الأبدي.

ب. دعوة حب فائق

إذ أراد أن يرفعنا كصديقٍ لنا لننعم بالتطويبات ونحذر اللعنات، فإنَّه يدخل بنا إلى سِمته "الحب الفائق"، فتكون المحبَّة فيض داخلي متفجِّر في أعماقنا، نُحب حتى الأعداء، نحب بالعمل لا بالكلام، لذلك جاءت وصاياه هكذا:

"**لكني أقول لكم أيها السامعون:**

أحبُّوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم.

باركوا لاعنيكم،

وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم" [٢٧-٢٨].

يطالبنا بفيض حب ينبع في الداخل دون انتظار مقابل، إذ يقول: "**أحبُّوا أعداءكم**"، فنرد العداوة بالحب. هذا الحب يترجم إلى عمل محبَّة ورحمة: "**اَحسنوا إلى مبغضيكم**"، ويقوم خلال الحياة المقدَّسة والمباركة التي تبارك الآخرين ولا تلعن أحدًا: "**باركوا لاعينكم**"، ويمتزج بالعبادة فنشتهي خلاص المسيئين إلينا وشركتهم معنا في المجد بالصلاة عنهم لتوبتهم. بمعنى آخر، جاءت وصيّة الحب مرتبطة بكل كياننا في الرب، عميقة في النفس، مترجمة إلى سلوك وعمل، ممتزجة بالحياة المقدَّسة، ومُرتبطة بعبادتنا!

❖ "**أحبُّوا أعداءكم**" [٢٧]. يقول بولس الحكيم وهو صادق فيما يكتب: "إن كان أحد في المسيح فهو خليقة جديدة" (٢ كو ٥: ١٧)، لأن كل الأمور تجدَّدت في المسيح وبالمسيح. انظروا كيف تجدَّد نظام حياة أولئك الرسل الذين عُهد إليهم نشر كلمة الخلاص للعالم أجمع. انظروا كيف يأمرهم السيِّد بمقابلة سيِّئات أعدائهم لهم وكانت مؤامرات مضطهديهم محبوكة الأطراف ودسائسهم لا تعرف رحمة ولا شفقة.

طُلب إلى الرسل ألا ينتقموا لشرّ أحبَّائهم حتى لا يُعطِّلوا نشر الكلمة. نصحهم أن يضبطوا أذهانهم بالصبر والهدوء، فلا يخرجوا عن حلمهم وأناتِهم، محتمِّلين بسرور كل ضررٍ يلحق بهم وكل أذى يصيبهم، متَّخذين يسوع المسيح مَثَلهم الأعلى في الصبر والصفح، فقد هزأ به اليهود كبار وصغار، وبالرغم من سخريَّتهم صلَّى إلى الله الآب قائلاً: "اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (٢٣: ٣٤). وقد جثا إسطفانوس المغبوط أمام الله والحجارة تتساقط حوله طالبًا إلى المولي القدير أن يغفر آثام راجميه، وصرخ بصوت عظيم: "يا رب لا تُقم لهم هذه الخطيّة" (أع ٧: ٦٠). ويقول الحكيم بولس في هذا الصدد "نُشتَم فنبارِك، نُضطهد فنحتمل" (ا كو ٤: ١٢).

كان تحذير المسيح إذن ضروريًا للرسل المقدَّسين ومفيدًا لنا نحن المؤمنين، حتى نعيش باستقامة ونزاهة، فإنَّ في هذا التحذير معنى فلسفيًا عميقًا، ففينا من الميول النفسانيّة الثائرة ما يجعل الطريق وعرًا للسير لتحذير المسيح لنا، إلا أن المسيح سبق وأفهمنا ضرورة محاربة ميولنا الفاسدة، وفصل بين العاملين برغبة والعاصين كلمته، إذ قال: "لكني أقول لكم أيها السامعون" (٦: ٢٧). ويضيف بطرس الرسول ثبات المسيح وعظيم صبره وطول أناته بالقول: "الذي إذ شُتم لم يكن يَشتم عوضًا، وإذ تألّم لم يكن يهدِّد، بل كان يُسلم لمن يقضي بالعدل" (١ بط ٢: ٢٣).

ولكن قد يعترض أحدكم قائلاً: "كان المسيح إلهًا أما أنا فإنَّسان ضعيف، ولي ذهن غير سليم ولي من الميول النفسيّة ما يقف في سبيل إخماد روح الطمع والتغلُّب، أيها الإنسان اعلم أن الله لم يجرِّدك من روح رأفته ومحبَّته، فهو بجوارِك لا بل في داخلك، هو فيك بالروح القدس، لأننا نحن مسكنه وهو يسكن في نفوس محبِّيه ومريديه، هو الذي يعضِّدك بيمينه، فلا تتزعزع ويمسك بك فلا تسقط. إذن "لا يغلبنَّك الشرّ، بل اغلب الشرَ بالخير" (رو ١٢: ٢١)[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ لقد منعنا أن نحب الرذيلة التي فيه (في العدو)، وأن نرتبط بمحبَّة طبيعيّة معه[٢].

القدِّيس أغسطينوس

❖ إن أمكنك لا تجعل لك عدوًا. وإن وُجد من يبغضك لا تحزن بهذا، لأنك لست وحدك من أبغضوه بل سيِّدك قبلك قد أبغضوه...

يمكنك أن تنتفع من عدوَّك كمثل من صاحبك، جاعلاً من عدوَّك كمن هو نافع لك، لأنه بسببه يتفاضل حبَّك عند الله، وبتألّمك عليه يُكثر نفعك، لأن وصيّة سيِّدنا تكمل بذلك فيه. فإنَّ كان عدوَّك قد آذاك ولم تقدر أن تنتفع منه، فاعرف ضعفك، وأبحث من أي شيء لم تقدر أن تنتفع، لأنه بماذا يُعرف صِدقك مع سيِّدك إذا لم يكن لك شيء يخالف راحتك، فتبقى كإنسان بلا جهاد[٣].

القدِّيس يوحنا التبايسي

❖ اذكر الحمل الوديع وكم صبر، فبالرغم من أنه لم يكن له خطيّة، لكنه احتمل الشتم والضرب وسائر الأوجاع حتى الموت.

القدِّيس برصنوفيوس

❖ توجد وسيلة لرد الشرّ بالشرّ ليس فقط خلال الأعمال، وإنما أيضًا بالكلمات وبالاتِّجاه (النيّة الداخليّة)... فإنَّه في بعض الأوقات يسبب الإنسان اضطرابًا لأخيه خلال اتِّجاهه (الداخلي)، أو حركاته، أو نظراته، عن عمد ليرُدّ الشرّ بالشرّ[٤].

الأب دوروثيؤس

---

[١] عظة ٣٢.

[2] *In Ioan tr 87:4.*

[٣] الآباء الحاذقون ١٩٨، ١٩٩: ٢.

[4] *On Rancor.*

"من ضربكَ على خدَّك، فاعرض له الآخر أيضًا،
ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا،
وكل من سألك فأعطه،
ومن أخذ الذي لك فلا تطالبه" [٢٩-٣٠].

سبق لنا دراسة هذه الوصايا في تفسير الإنجيل بحسب متّى (٥: ٣٩-٤٢).

تعلِن هذه الوصايا عن ترجمة طاقات الحب عمليًا، فإن أُصيب الإنسان في كرامته الزمنيّة (الضرب على الخد)، أو في ممتلكاته الخاصة كالرداء، يكون لديه الاستعداد لاحتمال أكثر فأكثر من أجل كسب أخيه الذي يعاديه. هذا من جانب، ومن جانب آخر، فإنَّه إذ يحمل سِمة سيِّده يكون محبًا للعطاء أكثر من الأخذ، من يسأله يعطيه، ومن يقترض منه لا يطالبه برد الدين. كأن غاية هذه الوصايا أمران: كسب الغير وممارسة العطاء، هذا ما أكَّده الآباء في تعليقاتهم:

❖ يليق بالإنسان البار التقي أن يكون مستعدًا لاحتمال الضرر بصبر من الذين يريدهم أن يصيروا صالحين، حتى يتزايد عدد الصالحين عوض أن يُضاف هو نفسه إلى عدد الأشرار، بكونه يثأر لنفسه عمَّا يصيبه من ضرر[١].

القدِّيس أغسطينوس

❖ يليق بنا ألا نصارع الآخرين، ولا أن نشتهي الامتثال بالأشرار، إذ يحُثُّنا أن نقود الناس بالصبر واللطف من العار ومحبَّة الشر[٢].

القدِّيس يوستين

❖ كل من سألك فأعطه، فإنَّك ستعرف من هو المجازي الصالح عن المكافأة[٣].

الأب برناباس

❖ بالحق بهجة الله هي في العطاء[٤]!

القدِّيس إكليمنضس الإسكندري

---

[1] *Ep 138:12.*
[2] *Apol. 1:16.*
[3] *Ep. Of Bern. 19.*
[4] *Who is the rich man that shall be saved 31.*

على أي الأحوال فإنَّ جوهر هذه الوصايا هو الحب الذي به، ليس فقط يتجاهل الخد المضروب، بل في اتِّساع قلبه مستعد أن يقدِّم الآخر ليكسب أخاه لحساب الملكوت الأبدي، ولا يتنازل عن الرداء فحسب، وإنما أيضًا بإرادته يترك ثوبه، محب للعطاء ولا يطالب بردّ الدين حتى لا يسقط أخوه في حرجٍ! وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [إن ربّنا يمنع أتباعه من الالتجاء إلى القانون في الأمور الزمنيّة ضد الغير[1].]

"**وكما تريدون أن يفعل الناس بكم، افعلوا أنتم أيضًا بهم هكذا**" [٣١].

هذه هي المحبَّة العمليّة التي بها ينطلق الإنسان من "الأنا"، فيحب أخاه كنفسه، يشتهي له ما يشتهيه لنفسه، ويقدِّم له ما يترجّى هو من الآخرين أن يُقدِّموه له.

يعلّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على هذه العبارة، قائلاً: [كان من المرجَّح أن يظن الرسل المقدَّسون أنه ليس في مقدورهم إخراج هذه الوصايا من حيز الفكر إلى حيز العمل. وقد علم المسيح أفكارهم فاعتمد على غريزة محبَّة النفس حكمًا بين الناس بعضهم ببعض، فأمر كل واحد أن يعمل للآخرين ما يريد منهم أن يعملوه له. فإذا كنا نحب الآخرين أن يعاملونا بالرحمة والشفقة، كان لزامًا علينا إذن أن نعاملهم بالمثل. وقد سبق وتنبَّأ إرميا عن قيام ساعة لا يحتاج فيها المؤمنون إلى أوامر مكتوبة، لأن هذه التعاليم منقوشة على القلوب. إذ ورد: "أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم" (إر ٣١: ٣٣).]

إنه يطالبنا خلال الحب الناضج لا أن نرد معاملة إخوتنا بالمثل. وإنما أن نقدَّم لهم ما نشتهيه لأنفسنا، بغض النظر عمَّا يفعلونه معنا. إننا نحب من أجل الله، أي الحب ذاته، بكون الحب قد صار طبيعتنا. فنقدِّم الحب بلا مقابل من جهة الغير، إذ يقول:

"**وإن أحببتم الذين يحبُّونكم، فأي فضل لكم؟!**
فإن الخطاة أيضًا يحبُّون الذين يحبُّونهم.
وإذا أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم، فأي فضل لكم؟!
فإن الخطاة أيضًا يفعلون هكذا.
وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردُّوا منهم، فأي فضل لكم؟!
فإن الخطاة أيضًا يُقرضون الخطاة لكي يستردُّوا منهم المثل" [٣٢-٣٤].

[1] *Enchiridion 78.*

كأنه يقول لهم: لا تستصعبوا وصاياي، فإنَّني أقدِّم لكم ما يليق بكم كأبناء للملكوت، فأطالبكم بحياة فاضلة فائقة للطبع البشري، لأني عامل معكم وفيكم. لهذا يكمل حديثه: "فيكون أجركم عظيمًا وتكونوا بنيّ العليّ" [٣٥]. فالعالم حين يُحب يطلب الأجرة على الأقل مماثلة، أمَّا أنتم فأجرتكم العظيمة هي بنوَّتكم لله العليّ، التي تُلزمكم الإقتداء بأبيكم السماوي. بنفس الفكر يقول السيِّد المسيح: "**فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضًا رحيم**" [٣٦].

❖ ليس شيء يجعلنا مساوين لله سِوى فعل الصلاح (الرحمة).

❖ المسيح هو المعلِّم وأيضًا أبوه.

❖ لنأتِ بأنفسنا وأولادنا وكل من لنا إلى مدرسة الرحمة، وليتعلَّمها الإنسان فوق كل شيء، فالرحمة هي الإنسان... لنحسب أنفسنا كمن هم ليسوا أحياء إن كنا لا نظهر الرحمة بعد![١]

❖ هذا هو عمل الله... لقد خلق الله السماوات والأرض والبحر. عظيمة هي هذه الأعمال ولائقة بحكمته! لكن ليس شيء من هذه لها سلطان تجتذب الطبيعة البشريّة إليه، مثل رحمته وحبُّه للبشر[٢]!

❖ المحبَّة (الرحمة) كما لو كانت أسمى أنواع الصناعة، وحامية لمن يمارسها. إنها عزيزة عند الله، تقف دائمًا بجواره تسأله من أجل الذين يريدونها، إن مارسناها بطريقة غير خاطئة!...
إنها تشفع حتى في الذين يبغضون، عظيم هو سلطانها حتى بالنسبة للذين يُخطئون!
إنها تحل القيود، وتبدِّد الظلمة وتُطفئ النار، وتقتل الدود، وتنزع صرير الأسنان.
تنفتح أمامها أبواب السماوات بضمانٍ عظيمٍ، وكملكة تدخل ولا يجسر أحد الحُجَّاب عند الأبواب أن يسألها من هي، بل الكل يستقبلها في الحال.

هكذا أيضًا حال الرحمة، فإنَّها بالحق هي ملكة حقيقيّة، تجعل البشر كالله. إنها مجنحة وخفيفة لها أجنحة ذهبيّة تطير بها تبهج الملائكة جدًا[٣].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *In Matt. hom 35:6; 49:4; 52:5.*
[2] *In 2 Tim. hom 6.*
[3] *In Heb. hom 32:7.*

إن كانت الرحمة تدفعنا للتشبُّه بالله الرحيم نفسه؛ فإنَّنا إذ نطلب رحمة يلزمنا أن نرحم اِخوتنا ولا ندينهم: "**ولا تدينوا فلا تدانوا، لا تقضوا على أحد، فلا يُقضى عليكم**" [٣٧].

اهتم الآباء – خاصةً آباء البريّة – بالتدقيق في عدم الإدانة، فحسبوا أنه ليس شيء يغضب الله مثلها، إذ تنزع نعمته عمَّن يرتكبها ويرفع رحمته عنه حتى إذا ما ترفَّق بأخيه ينال هو النعمة الإلهيّة ومراحم الله. يرى **الأب بومين والأب موسى**[1] أن من يدين أخاه ينشغل بخطايا الغير لا بخطاياه، فيكون كمن يبكي على ميِّت الآخرين ويترك ميِّته. يقول **الأب دوروثيؤس:** [إننا نفقد القوَّة على إصلاح أنفسنا متطلِّعين على الدوام نحو أخينا]، [ليس شيء يُغضب الله أو يعرِّي الإنسان أو يدفعه لهلاكه مثل اغتيابه أخيه أو إدانته أو احتقاره... أنه لأمر خطير أن تحكم على إنسان من أجل خطيّة واحدة ارتكبها، لذلك يقول المسيح: "**يا مرائي أخرج أولاً الخشبة من عينك، وحينئذٍ تُبصر جيِّدًا أن تُخرج القذَى الذي في عين أخيك**" [٤٢]. انظر فإنَّه يشبِّه خطيَّة الأخ بالقذَى أما حُكمك المتهوِّر فيحسبه خشبَة. تقريبًا أصعب خطيَّة يمكن معالجتها هي إدانة أخينا!... لماذا بالحري لا ندين أنفسنا ونحكم على شرِّنا الذي نعرفه تمامًا وبدقة والذي نعطي عنه حسابًا أمام الله! لماذا نغتصب حق الله في الإدانة؟! الله وحده يدين، له أن يبرِّر وله أن يدين. هو يعرف حال كل واحد منَّا وإمكانيَّاتنا وانحرافاتنا ومواهبنا وأحوالنا واستعداداتنا. فله وحده أن يدين حسب معرفته الفريدة. أنه يدين أعمال الأسقف بطريقة، وأعمال الرئيس بطريقة أخرى. يحكم على أب دير، أو تلميذ له بطريقة مغايرة، الشخص القديم (له خبراته ومعرفته) غير طالب الرهبنة، المريض غير ذي الصحَّة السليمة. ومن يقدر أن يفهم كل هذه الأحكام سوى خالق كل شيء ومكوِّن الكل والعارف بكل الأمور؟[2]] يكمل **الأب دوروثيؤس** حديثه عن عدم الإدانة بعرض قصَّة يتذكَّرها عن سفينة كانت تحمل عبيدًا، إذ تقدَّمت عذراء قدِّيسة إلى صاحب السفينة واشترت فتاة صغيرة حملتها معها إلى حجرتها لتدرِّبها على الحياة التقويّة كابنة صغيرة لها، ولم يمضِ إلا قليلاً حتى جاءت فرقة للرقص، اشترت أخت هذه الفتاة الصغيرة لتدرِّبها على أعمال اللهْو والمُجون والحياة الفاسدة... هنا يقف **الأب دوروثيؤس** مندهشًا، أن الفتاتين قد اغْتُصِبَتا من والديهما، إحداهما تتمتَّع بمخافة الله تحت قيادة قدِّيسة محبَّة وأخرى بغير إرادتها اغْتُصِبَت لممارسة الحياة الفاسدة. لهذا يتساءل: أليس لله وحده أن يدين الفتاتين بطريقة

---

[1] *PG 65:320 D; 65:289.*
[2] *On Refusal to judge…*

يصعب علينا إدراكها؟! فنحن نتسرَّع في الحكم، أما الله فعالم بالأسرار طويل الأناة، وحده قادر أن يبرِّر أو يدين.

يعلّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على كلمات السيِّد عن عدم الإدانة، قائلاً:

[بينما يطلب منَّا التعمق في فحص أنفسنا حتى ينطبق سلوكنا على أوامر الله وتعاليمه نجد البعض يشغلون أنفسهم بالتدخُّل في شئون الآخرين وأعمالهم، فإذا وقفوا على خطأ في أخلاق الغير عمدوا إلى نهش أعراضهم بألسنة حدَّاد، ولم يدروا أنهم بذم الآخرين يذمون أنفسهم، لأن بهم مساوئ ليست دون مساوئ الغير في المذلَّة والمهانة. لذلك يقول الحكيم بولس: "**لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان كل من يدين، لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك، لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها**" (رو ٢: ١). فمن الواجب علينا والحالة هذه أن نشفق على الضعيف، ذاك الذي وقع أسيرًا لشهواته الباطلة وضاقت به السُبل، فلا يمكنه التخلُّص من حبائل الشرّ والخطيّة. فلنصلِ عن مثل هؤلاء البائسين القانطين، ولنَمِدْ لهم يدْ العون والمساعدة، ولنَسعَ في ألاَّ نسقط كما سقطوا. فإنَّ "الذي يذم أخاه، ويدين أخاه، يذم الناموس ويدين الناموس" (يع ٤: ١١). وما ذلك إلا لأن واضع الناموس والقاضي بالناموس هو واحد، ولما كان المفروض أن قاضي النفس الشريرة يكون أرفع من هذه النفس بكثير، ولما كنا لا نستطيع أن ننتحل لأنفسنا صفة القضاة بسبب خطايانا وجب علينا أن نتنحَّى عن القيام بهذه الوظيفة، لأنه كيف ونحن خطاة نحكم على الآخرين ونديهم؟! إذن يجب ألا يدين أحد أخاه، فإن حدَّثتْك نفسك بمحاكمة الآخرين، فأعلم أن الناموس لم يُقِمك قاضيًا ومُحاكمًا، ولذلك فانتحالك هذه الوظيفة يوقِعك تحت طائلة الناموس، لأنك تنتهك حُرمته.

فكل من طاب ذهنه لا يتصيَّد معاصي الغير، ولا يشغل ذهنه بزلاَّتهم وعثراتهم، بل عليه فقط أن يتعمَّق في الوقوف على نقائصه وعيوبه. هذا كان حال المرنِّم المغبوط وهو يصف نفسه بالقول الحكيم: "إن كنت تُراقب الآثام يارب يا سيِّد، فمن يقف" (مز ١٣٠: ٣)، وفي موضع آخر يكشف المرنِّم عن ضعف الإنسان ويتلمَّس له الصفح والمغفرة إذ ورد قوله: "أذكر أننا تراب نحن" (مز ١٠٣: ١٤).]

"**لماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك،**

وأما الخشبة التي في عينك فلا تفطن لها" [٤١].

يكمل **القدِّيس كيرلس الكبير** حديثه: [سبق أن بيَّن السيِّد الخطر الذي ينجم عن نهش الآخرين بألسنة حداد فقال: "لا تدينوا لكي لا تدانوا". والآن أتى السيِّد على أمثلة كثيرة وبراهين دافعة تحضّنا

على تجنُّب إدانة الآخرين والحكم عليهم بما نشاء ونهوى، والأجدر بنا أن نفحص قلوبنا ونجرِّدها من النزعات التي تضطرم بين ضلوعنا سائلين الله أن يطهِّرنا من آثامنا وزلاَّتنا. فإنَّ السيِّد ينبهنا إلى حقيقة مُرَّة مألوفة، فيخاطبنا بالقول: كيف يمكنك نقد الآخرين والكشف عن سيئاتهم وشرورهم وفحص أسقامهم وأمراضهم وأنت شرِّير أثيم ومريض سقيم؟! وكيف يمكنك رؤيّة القذَى الذي في عين الغير وبعينك خشبَة تحجب عينك فلا ترى شيئًا؟! أنك لجريء إذا قمت بذلك، فالأولي بك أن تنزع عنك مخازيك وتطفئ جذوة عيوبك، فيمكنك الحكم بعد ذلك على الآخرين، وهم كما سترى مذنبين فيما هو دون جرائمك.

أتريد أن تتجلي بصوتك فتقف على مبلغٍ ما في اغتياب الآخرين من مقت وشرْ؟ كان السيِّد يجول يعمل خلال الحقول النضرة، فاقتطف تلاميذه المبارَكون سنابل القمح وفركوها بأيديهم، ثم أكلوا ثمارها طعامًا شهيًا لذيذًا، وسرعان ما وقع نظر الفريسيِّين على التلاميذ إلا واقتربوا من السيِّد وخاطبوه بالقول: انظر كيف أن تلاميذك يعملون في السبت ما ليس بمحلَّل مشروع. نطق الفرِّيسيُّون بهذا القول وهم الذين عبثوا بحُرْمَة القدس وتعدُّوا على وصاياه وأوامره على حد نبوَّة إشعياء عنهم: "كيف صارت القرية الآمنة زانية؟! ملآنة حقًا كان العدل يبيت فيها، وأما الآن فالقاتلون، صارت فضتك زغْلاً، وخمرك مغشوشة بماء، رؤساؤك متمرِّدون ولُغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم" (إش ١: ٢١-٢٢).

رغمًا عن هذه المُنكرات المُخزيات التي ارتكبها هؤلاء الناس تمادوا في خِزيهم ومكرهم ودسُّوا لتلاميذ السيِّد المباركين، واتَّهموهم بالتعدِّي على يوم السبت المقدَّس. إلا أن المسيح ردَّ خِزيهم إذ أجابهم بالقول: "ويلٌ لكم أيها الكتبة والفرِّيسيُّون المراءون، لأنكم تعشِّرون النعنع والشبت والكمُّون، وتركتم أثقل الناموس الحق والرحمة والإيمان، أيها القادة العميان الذين يُصفُّون عن البعوضة ويبلعون الجمل" (مت ٢٣: ٢٣-٢٤).

كان الفرِّيسي كما ترى مرائيًا غادرًا يحاسب الناس على التعدِّيات الواهية، بينما يسمح لنفسه بارتكاب أشد المخازي نكرانًا، وأعظم الشرور فُجورًا، فلا غرابة أن دعاهم المخلِّص: "قبورًا مبيضَّة تَظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة" (مت ٢٣: ٢٧). هذا هو شأن المرائي وهو يدين الآخرين ويرميهم بأشنع المساوئ والعيوب وهو عن نفسه أعمى، إذ لا ينظر شيئًا، لأن الخشبة في عينيه تحجب الضوء عنه.

إذن يجب أن نعني بفحص أنفسنا قبل الجلوس على منصَّة القضاء للحكم على غيرنا، خصوصًا إن كنَّا في وظيفة المُرشد والمعلِّم، لأنه إذا كان المُربِّي نقي الصفحة طاهر الذيل، تزيِّنه نعمة الوقار والرزانة، وليس على معرفة بالفضائل السامية فحسب بل يعمل بها ويسلك بموجبها، فإنَّ مثل هذا الإنسان يصح له أن يكون نموذجًا صالحًا يُحتذى به، وله عند ذلك حق الحكم على الآخرين إذا حادوا عن جادة الحق والاستقامة، أما إذا كان المُرشد مهمِلاً ومرذولاً فليس له أن يدين غيره، لأن به نفس النقص والضعف الذي يراه في الآخرين. كذلك ينصحنا الرسل المغبوطون بالقول: "لا تكونوا معلِّمين كثيرين يا إخوتي، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم" (يع ٣: ١). ويقول المسيح وهو يكلِّل هامات الأبرار بالتيجان المقدَّسة، ويعاقب الخطاة بشتَّى التأديبات: "فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا، يُدعَى أصغر في ملكوت السماوات، وأما من عمِل وعلَّم فهذا يُدعَى عظيمًا في ملكوت السماوات" (مت ٥: ١٩)[١].]

يقول أيضًا **الأب مار إسحق السرياني:** [حينما تمتلئ النفس من ثمار الروح، تقوى تمامًا على الكآبة والضيق... وتفتح في قلبها باب الحب لسائر الناس... تطرد كل فكر يوَسْوس لها بأن هذا صالح وذاك شرِّير، هذا بار وذاك خاطئ. تُرتب حواسِها الداخليّة، وتصالحها مع القلب والضمير، لئلا يتحرَّك واحد منها بالغضب أو بالغيرة على واحد من أفراد الخليقة. أما النفس العاقرة الخالية من ثمار الروح، فهي لابسة الحقد على الدوام والغيظ والضيق والكآبة والضجر والاضطراب، وتدين على الدوام قريبها بجيِّد ورديء.]

وأيضًا من الكلمات المأثورة في عدم إدانة الآخرين:

❖ إيَّاك أن تعيب أحدًا من الناس لئلاَّ يبغض الله صلاتك.

القدِّيس أنبا أنطونيوس الكبير

❖ الذي يدين، فقد هدم سوره بنقص معرفته.

القدِّيس أنبا موسى الأسود

❖ الإنسان الذي يطلق لسانه على الناس بكل جيِّد ورديء لن يؤهَّل للنعمة من الله.

الأب مار إسحق السرياني

❖ لا تدن أحدًا، ولا تقع بإنسان، والله يهب لك الهدوء والنِياح في القلاية.

---

[١] عظة ٣٢، ٣٣.

الأنبا بيمن

❖ قيل أخطأ أحد الإخوة فطُرد، فقام الأب بيصاريون، وخرج معه، وهو يقول: "وأنا أيضًا خاطئ".

القدِّيس بالاديوس

❖ إذا اِنشغلتَ عن خطاياك، سقطتَ في خطايا أخيك.

الأنبا إشعياء

❖ (في قصة المرأة الزانية): يسوع قد دان الخطيّة لا الإنسان.

القدِّيس أغسطينوس

حدَّثنا السيِّد المسيح صديقنا السماوي عن الحب، مترجمًا عمليًا خلال العطاء، والستر على ضعفات الآخرين، بهذا يقدِّم لنا مفتاح الدخول إلى حضرة الله للتمتُّع بحبِّه، وكأن هذا يسلِّمنا مفتاح خزانته الإلهيّة، إذ يقول: "**اغفروا يُغفر لكم، أعطوا تُعطوا**" [٣٧]. وقد دعا **القدِّيس أغسطينوس** هذين العمليْن: السَتْر على الآخرين، والعطاء جناحي الصلاة، يرفعانها إلى العرش الإلهي بلا عائق. فمن كلماته: [البِرْ الأول يمارس في القلب عندما تغفرون لأخيكم عن أخطائه، والآخر يُمارس في الخارج عندما تعطون الفقير خبزًا. قدِّموا البِرّين معًا، فبدون أحد هذين الجناحين تبقى صلواتكم بلا حركة[1]]، [إن أردتم أن يُستجاب لكم عندما تطلبون المغفرة: اغفروا يُغفر لكم، اِعطوا تُعطوا[2].]

أخيرًا أكَّد السيِّد المسيح أنه في تقديم وصاياه عن المحبَّة يطلب تغيير القلب في الداخل، يطلب في المؤمن أن يكون شجرة صالحة ليأتي بالثمر الصالح، إذ يقول:

"لأنه ما من شجرة جيِّدة تُثمر ثمرًا رديًا،
ولا شجرة رديَّة تثمر ثمرًا جيِّدًا.
لأن كل شجرة تُعرف من ثمرها،
فإنَّهم لا يجتنون من الشوكِ تينًا،
ولا يقطِفون من العُلِّيق عنبًا.
الإنسان الصالح من كِنز قلبه الصالح يُخرج الصلاح،
والإنسان الشرِّير من كنز قلبه الشرِّير.

---

[1] *Ser. On N.T. 8:10.*
[2] *Ser. On N.T. 10:12.*

فإنَّه من فضلة القلب يتكلَّم فمه" [٤٣-٤٥].

اعتمد أتباع فالنتينوس على هذه العبارات وما شابهها ليُعلنوا اختلاف طبائع النفوس، إذ في نظرهم توجد نفوس صالحة بطبيعتها لا يمكن أن تفسد، وتوجد نفوس شرِّيرة بطبيعتها لا يمكن إصلاحها، الأولي هي الشجرة الصالحة التي تُثمر صلاحًا، والأخرى هي الشجرة الرديئة التي تُنتج رديًا. وقد انبَرى كثير من الآباء يفنِّدون هذا الفكر مؤكِّدين حرِّيَّة إرادة الإنسان وإمكانيَّتِه في المسيح يسوع إصلاح حياته... فإن كان شجرة رديئة تبقى تعطي ثمرًا رديًا حتى تتحوّل إلى شجرة جيدة في الرب. هذا ما أكَّده **القدِّيس أغسطينوس** في عظاته المنتخبة على العهد الجديد.

في القرن الثاني الميلادي يقول **العلامة ترتليان:** [لا يمكن أن تكون هذه النصوص من الكتاب المقدَّس غير متَّفقة مع الحق، فإنَّ الشجرة الرديئة لن تقدِّم ثمارًا صالحة ما لم تُطعم فيها الطبيعة الصالحة، ولا الشجرة الصالحة تُنتج ثمارًا شريرة ما لم تفسد. فإنَّه حتى الحجارة يمكن أن تصير أولادًا لإبراهيم إن تهذَّبت بإيمان إبراهيم، وأولاد الأفاعي يمكنهم أن يقدِّموا ثمارًا للتوبة إن جحدوا طبيعتهم المخادعة. هذه هي قوَّة نعمة الله التي هي بالحق أكثر فاعليَّة من الطبيعة ذاتها[١].]

لو أن الطبيعة البشريّة مسيَّرة تلتزم بالخير أو الشرّ بغير إرادتها، وليس هناك من رجاء في التغيير لما كان السيِّد المسيح يحثُّنا: "اجعلوا الشجرة جيدة"، ولما كان الحديث في ذاته ذا نفع. فالرب يتحدَّث معنا لكي نقبل عمله فينا، فيكون تنفيذ وصاياه لا خلال السلوك الخارجي وحده، وإنما تغيير طبيعتنا القديمة، إذ يقول: "الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج صلاحًا".

ج. الحاجة إلى البناء على الصخر

يعود فيؤكِّد السيِّد المسيح غاية وصاياه أن تكون ثمرًا طبيعيًا للقلب الجديد الذي يتأسَّس عليه، إذ شبَّه حياتنا ببناء يليق أن يُقام على السيِّد المسيح "صخر الدهور" فلا تستطيع زوابع الأحداث أن تهدِمه.

إيماننا بالمسيح هو الصخرة الداخليّة، خلاله نتقبَّل السيِّد المسيح نفسه كسِرْ قوَّتنا، يعمل فينا بروحه القدّوس ليرفعنا إلى حضن أبيه. أما من لا يتأسَّس على "الصخرة الحقيقيّة" فيهتز بناؤه يمينًا وشمالاً بتيَّارات عدوْ الخير المتقلِّبة، الذي لا يهدأ حتى يحطِّمه تمامًا.

---

[1] *On the Soul 22.*

الأصحاح السابع

صديق الجميع

في الأصحاح السابق أبرز الإنجيلي شخص السيِّد المسيح كصديقٍ معلِّمٍ، يود أن يرفعنا معه إلى سماواته لنحيا بالناموس السماوي. ولئلا يظن البعض أنه جاء لفئةٍ معينةٍ خاصةٍ كما فعل كثير من الغنوسيِّين الذين احتقروا البسطاء والعامة ليقيموا فئة أرستقراطيّة فكريًا حولهم، يكشف الإنجيلي عن هذا الصديق السماوي كيف يهتم أن يقتنص بحبُّه الغرباء (عبد قائد المائة)، ويهتم بالأرامل (إقامة ابن أرملة نايين)، ويترفَّق بالخطاة (قصَّة المرأة الخاطئة). يود تقديم صداقته لكل إنسانٍ بغض النظر عن جنسه أو إمكانيَّاته أو سلوكه الحالي، ليرفع الكل بروحه القدُّوس إلى العضويّة الحقيقية في جسده المقدَّس.

١. شفاء عبد قائد المائة **٤–١٠.**

٢. إقامة ابن أرملة نايين **١١–١٧.**

٣. إرساليّة يوحنا للمسيح **١٨–٢٣.**

٤. شهادته عن يوحنا **٢٤–٣٥.**

٥. قصة المرأة الخاطئة **٣٦–٥٠.**

١. شفاء عبد قائد المائة

في دراستنا لإنجيل متَّى (ص ٨) رأينا قائد المائة يبعث بإرساليّة للسيِّد تشفع فيه بكونه غريب الجنس لكي يشفي الرب غلامه، وهو في هذا يمثِّل جماعة الأمم التي كانت تعاني من العذاب خلال هذا العبد الأسير لعدو الخير، وقد أظهر الأمم إيمانًا أعظم ممَّا لليهود، مع أن السيِّد لم يظهر بالجسد في وسطهم كما ظهر وسط اليهود، إذ حلّ بينهم كواحدٍ منهم بتجسُّده من القدِّيسة مريم. وفي إيمانه مملوء تواضعًا اِستحق غريب الجنس أن يسمع مديحًا من فم السيِّد المسيح لم يسمعه أصحاب الناموس والنبوّات والمواعيد الخ.

على أي الأحوال إن كان السيِّد المسيح أعلن صداقته بتجسُّده من القدِّيسة مريم اليهوديّة الجنس، فإنَّه يُعلن صداقته للأمم أيضًا بمدحه لقائد المائة غريب الجنس. إنه يفتح ذراعيه للعالم كله ليضُم الجميع بذات الحب!

ربَّما يتساءل البعض: لماذا ذكر الإنجيلي متَّى أن القائد التقى مع السيِّد في الطريق يعلن عدم استحقاقه أن يدخل السيِّد بيته، مظهرًا إيمانه بكلمة السيِّد القادرة بسلطان أن تشفي دون حاجة إلى دخول السيِّد بيته، بينما يذكر الإنجيلي لوقا أن جماعة من شيوخ اليهود انطلقوا يسألون السيِّد أن يشفي عبد قائد المائة، وأن إرساليّة أخرى قد جاءت من قبل القائد تتحدّث بلسانه لتُعلن عدم استحقاقه لدخول بيته مع إيمانه بسلطان كلمة السيِّد في إبراء العبد؟

يوضِّح **القدِّيس الذهبي الفم**[1] أنه قد تمَّت اللقاءات الثلاثة، لقاء الجماعة من شيوخ اليهود وإرساليّة القائد نفسه، وأن الإنجيلي متَّى اِكتفي باللقاء الثالث، أما لوقا فاكتفى باللقاءين الأول والثاني. ويعلِّل ذلك بأن قائد المائة في إيمانه بالسيِّد المسيح أراد الانطلاق إليه يسأله شفاء عبده، لكن شيوخ اليهود بدافع الحسد لئلاَّ يُعلن قائد المائة إيمانه أمام الجماهير، ذهبوا هم إليه ليأتوا به إلى بيت القائد تحت مظهر عمل الرحمة، قائلين: "**لأنه يحب أُمَّتنا، وهو بنَى لنا المجمع**" [٥]. لكن الرب العارف بأسرار القلوب انتظر حتى تأتي الإرساليّة، بل ويأتي القائد نفسه ليمجِّده بسبب إيمانه!

ويلاحظ في هذا اللقاء بين السيِّد والقائد أو من جاءوا عنه الآتي:

أولاً: إن افترضنا حتى في هؤلاء الشيوخ من اليهود حسن النيّة، فإنَّ شفاعتهم عن القائد تكشف عن اهتمامهم بالذات "**يحب أُمَّتنا**"، وتركيزهم على الأمور المنظورة "**بنى لنا المجمع**"، أما السيِّد المسيح فمدحه من أجل ما حمله قلبه من إيمان خفي مملوء تواضعًا.

ثانيًا: إن كان قائد المائة يشير إلى الأمم القادمين إلى السيِّد المسيح بالإيمان لشفاء العبد، أي نفوسهم التي اِستعبدها عدو الخير زمانًا، حتى كادت أن تموت أبديًا كما يقول **القدِّيس أمبروسيوس**[2]، فإنَّ قبول هذا القائد أيضًا يشير إلى قبول كل الفئات إلى الإيمان. فقد اِتَّسم القوَّاد والجند الرومان بالعنف الشديد والاستبداد، حتى تساءل كثير من مسيحيِّي القرون الأولى إن كان يمكن أن يبقى القائد أو الجندي في موقعه بعد قبول الإيمان المسيحي، فقد تشكَّكوا إن كان لمثل هذا الإنسان أن يحيا كمسيحي في مركزه. فقبول السيِّد المسيح لطلبه هذا القائد، ومدْحه أمام الجمهور معلنًا أنه لم يجد في إسرائيل إيمانًا كهذا يكشف عن إمكانيّة الحياة في شركة مع الرب، أيًا كان عمل المؤمن أو مركزه. يقول **العلامة ترتليان:** [جاء جند إلى يوحنا وقبلوا منه تدبيرًا لنظامهم (لو ٣: ١٢-١٣)، وآمن قائد المائة... فليس لبس ما (مثل الزي العسكري) غير شرعي بيننا مادام الإنسان لا يقوم بعملٍ غير

---

[1] *In Matt. Hom 26: 3.*
[2] *In Luc 7: 1-10.*

شرعيٍ[1].]

ثالثًا: يعلّق **القدِّيس أمبروسيوس** على اهتمام السيِّد المسيح بشفاء عبد قائد المائة وانطلاقه نحو البيت، ليهبه عطيّة الصِحَّة، قائلاً: [تأمَّل معي تواضع رب السماء الذي لم يستنكف من افتقاد عبد صغير لقائد المائة معبِّرًا عن أعمال رحمته الإلهيّة وعن مشاعر تحنُّنه. فكان انطلاقه نحو بيت قائد المائة ليس عن عجزِهِ عن شفاء العبد من بعيد، وإنما ليُعطيكم مثالاً في التواضع نمتثل به، ويعلِّمكم احترام المساكين كالعظماء[2].]

رابعًا: أبرز **القدِّيس أمبروسيوس** دور قائد المائة نحو عبده، فقد آمن وجاهد خلال هذا الإيمان ببعث إرساليّة للسيِّد وذهابه بنفسه... [نال العبد الشفاء خلال إيمان القائد، الذي شفع في العبد لا بالإيمان فقط، وإنما خلال الجهاد أيضًا[3].] هكذا يخجلنا هذا الأممي بإيمانه بالرب مع جهاده من أجل عبده المريض!

خامسًا: يقارن **القدِّيس كيرلس الكبير** بين إيمان شيوخ اليهود الذين جاءوا يشفعون في قائد المائة وإيمان قائد المائة نفسه، قائلاً: [ترون إذن شيوخ اليهود وهم يتوسَّلون إلى يسوع بأن يزور قائد المائة في منزله طبقًا لمشيئة، اعتقادًا منهم أنه لا يمكن شفاء المريض إلا بهذه الوسيلة. فبينما ترون من جهة أخرى رجلاً يجاهر على ملأ من الناس بأن المسيح يمكنه شفاء المريض من على بعد! فقط يقول كلمة فيبرأ الغلام، لم يطلب قائد المائة إلا أن ينطلق المسيح بكلمة. أن يعلن قبوله للرجاء، أن يفوه بالنطق السامي، أن يظهر رغبته ومشيئته، ولذلك كان هذا القائد جديرًا بتهنئة المسيح له بالقول المأثور: "**لم أجد ولا في إسرائيل إيمانًا بمقدار هذا**" فإنَّ في سلوك هذا الرجل دليلاً على سلامة إيمانه وقوّة عقيدته. وقد كافأه السيِّد وأجزل مكافأته وشفي عبده في اللحظة عينها وخلَّصه من قبضة الموت، وكان قد نشب أظافره فيه فكاد يخرج نفسه من بين أضلاعه[4].]

٢. إقامة ابن أرملة نايين

إن كان السيِّد قد فتح قلبه للغرباء، فتقدَّم قائد المائة الروماني من أجل عبده الغلام ليحتل بإيمانه مركز الصدارة في عيني الرب، ويحسب صديقًا أقرب إلى الله من بني إسرائيل نفسه، فإنَّنا الآن نراه

---

[1] *On Idolatry 19.*
[2] *In Luc 7: 1-10.*
[3] *In Luc 7: 1-10.*

[4] عظة ٣٥ على إنجيل لوقا.

يترفَّق بأرملة فقدت وحيدها الشاب، وكأن السيِّد في صداقته اِلتقى بالأرامل والمساكين كما التقى بالغرباء. صداقته جامعة تضم كل البشر.

من جانب آخر، فإنَّ قائد المائة كما يقول كثير من الآباء **كالقدِّيسين كيرلس الكبير وأغسطينوس وأمبروسيوس** يشير إلى الكنيسة القادمة من بين الأمم، الذين نالوا الكثير من الزمنيَّات، لكنهم وقفوا في عجز أمام مرض الغلام العبد، غير قادرين على إبراء نفوسهم الداخليّة التي أسَرَها العدوْ كعبدٍ مسكينٍ، وحطَّمتها الخطيّة كمرضٍ يدفعها نحو الموت، أما الأرملة فتشير إلى البشريّة بوجه عام ترمَّلت وها هي تفقد وحيدها الشاب الذي صار في الطريق يحمله الرجال في نعش. إنها البشريّة التي صارت كأرملة بفقدها الله نفسه رجلها الحق، أما وحيدها الشاب الميِّت، فيُشير إلى كل نفس وقد أفقدتها الخطيّة حياتها فصارت ميِّتة، يحملها الجسد الذي أفسده الشرّ، وكأنه بالرجال حاملي النعش، وقد خرجت إلى الطريق إذ لم يعد للنفس موضع في بيت الرب، أو في الفردوس البيت الأول للإنسان.

ويلاحظ في إقامة هذا الشاب الآتي:

أولاً: في أيام السيِّد المسيح، بلا شك مات كثيرون كأطفال بيت لحم، والقدِّيس يوحنا المعمدان الذي استشهد ومئات وربَّما آلاف من رجال ونساء وشيوخ وأطفال، ولا نعلم إن كان السيِّد قد أقام كثيرين أم اكتفى بإقامة هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم الإنجيليُّون: لعازر، والشاب ابن أرملة نايين، والصبيّة ابنة يايرس. فإنَّ السيِّد المسيح لم يأتِ لينزع عنَّا موت الجسد، إنما لكي يحطِّم موت النفس، ويرفعنا فوق سلطان الموت، فنجتازه معه غالبين ومنتصرين لنبلغ اللقاء معه وجهًا لوجه أبديًا.

لم يعدْنا السيِّد بطرد الموت عنَّا وإنما إذ مات معنا وعنَّا، حوَّل الموت إلى جسر للعبور بنا إلى الفردوس على انتظار يوم الرب العظيم، لذلك نسمع عن والدة **القدِّيس غريغوريوس النزينزي** أنها ارتدت ثياب العيد عندما حضرت دفن جثمان ابنها قيصريوس[1].

تهتم الكنيسة بقيامة النفس أولاً، فإنَّ الجسد سيقوم حتمًا، فإن كانت النفس متمتِّعة بالقيامة ينعم معها بالمجد الأبدي، لهذا يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [أنه لعمل مُعجزي أعظم أن يقوم شخص ليحيا إلى الأبد عن أن يقوم ليموت ثانية[2].] كما يقول: [لقد فرحت الأم الأرملة عند إقامة الشاب، وها هم البشر يقومون كل يوم بالروح، والكنيسة كأم تفرح بهم. ذاك كان ميتًا حقًا بالجسد، أما هؤلاء فهم أموات بالروح. موته المنظور جلب بكاءً منظورًا، موتهم غير المنظور لم يكن موضع سؤال الآخرين

---

[1] *Greg. Naz. In Laudem Caesarii 15- P G 35: 755f.*
[2] *Ser. on N.T. 48: 1.*

ولا موضع إدراكهم، فبحث عنهم ذاك الذي يعرف أنهم أموات، هو وحده يعرفهم هكذا وقادر أن يهبهم حياة، فلو لم يأتِ الرب ليقيمهم لما قال الرسول: "استيقظ أيها النائم وقم من الأموات، فيضيء لك المسيح" (أف ٥: ١٤)... لا يستطيع أحد أن يوقظ أخرًا من سريره بسهوله مثلما يقدر المسيح أن يوقظ من في داخل القبر[1].]

ثانيًا: إن كانت الكنيسة تركِّز على قيامة النفس أولاً بطريقة غير منظورة، فإنَّها لا تتجاهل أيضًا قيامة الجسد، الأمر الذي أنكره بعض الهراطقة خلال احتقارهم للجسد، فقد أقام الرب هؤلاء الثلاثة ليُعلن أنه واهب القيامة للنفس والجسد معًا. يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [أولئك الأموات الذين أحياهم المسيح أكبر شاهد على قيامة الأموات... وقد أشار الأنبياء المقدَّسون إلى هذه الحقيقة، إذ قيل: "تحيا أمواتك، تقوم الجثث، استيقظوا، ترنَّموا" (إش ٢٦: ١٩). يراد بالاستيقاظ حياة المسيح التي يهبها بقوّة الروح القدس. وأشار أيضًا المرنِّم إلى ذلك بعبارات خاطب بها الله مخلِّص العالم: "تحجب وجهك فترتاع، تنزع أرواحها فتموت، وإلى ترابها تعود" (مز ١٠٤: ٢٩). كانت معصية آدم سببًا في إقصاء وجوهنا عن رؤيّة الله والتصاقها بتراب الأرض، لأن الله حكم على الطبيعة البشريّة بالقول: "لأنكَ تراب وإلى تراب تعود" (تك ٣: ١٩). ولكن عند نهاية العالم يتجدَّد سطح الأرض، لأن الله الآب يهب بابنه حياة لجميع ما في الكون. الموت جلب على الناس الشيخوخة والفساد... أما المسيح فهو المحيي والمجدِّد، لأنه هو الحياة[2].]

إذن إقامة المسيح لهؤلاء الأموات كانت إعلانًا عن عمله الحالي بإقامة نفوسنا خلال الاتِّحاد معه بكونه الحياة، وإقامة أجسادنا في يوم الرب العظيم على مستوى يليق بالحياة السماويّة الأبديّة.

ثالثًا: في دراستنا لإقامة ابنة يايرس (مت ٩: ١٨-٢٦) رأينا كيف حمل إقامة هؤلاء الثلاثة (لعازر، والشاب ابن الأرملة، والصبيّة ابنة يايرس) رمزًا لعمل السيِّد المسيح للنفوس، في مراحل ارتكابها للخطيّة المختلفة، أو كقول **القدِّيس أغسطينوس:** [هذه الأنواع الثلاثة من الموتى هم ثلاثة أنواع من الخطاة لا يزال يقيمهم المسيح إلى اليوم[3]]، فالصبيّة ترمز لمن يخطئ داخليًا في القلب، والشاب لمن ارتكب الشرّ عمليًا بطريقة واضحة، ولعازر لمن تحوَّلت الخطيّة في حياته إلى عادة، وقد جاء ربَّنا يقيم الكل!

---

[1] *Ser. on N.T. 48: 2.*

[2] عظة ٣٦.

[3] *Ser. On N.T. 48: 5.*

رابعًا: أبرز الإنجيلي جانبًا رئيسيًا لإقامة هذا الشاب، إذ يقول: "**فلما رآها الرب تحنَّن عليها**" [١٣]، وكأن السيِّد لم يُقِمْ الشاب استعراضًا لسلطانه على الموت وقدراته على وهْب الحياة، إنما تقدَّم ليهب "حنانه". يتعامل الله معنا على مستوى السلطة والسيادة، مع أنه الخالق وسيِّد الكل، لكنه يتعامل مع الإنسان على مستوى الحب والرحمة، بكونه الأب والعريس والصديق والحبيب لكل إنسان يقبله.

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [نؤمن أن الأحشاء الإلهيّة تحركها دموع أُم أرملة أضناها الألم لموت وحيدها وهي أرملة. مشاركة الجموع لها في آلامها لم يسد الفراغ الذي تركه موت ابنها وحرمانها من الأمومة... لكنها ببكائها نالت قيامة ابنها الشاب، الابن الوحيد[١].]

ليتنا نكون كهذه الأرملة، إذ نفقد رجلنا الذي اخترناه خلال العصيان، أي إبليس، هذا الذي دفع بابننا الوحيد أي نفسنا إلى الموت، فصارت محمولة في الجسد كما على نعش، خارج البيت الإلهي بلا حياة. نلتقي مع واهب الحياة إذ وحده يتحنَّن علينا، فينزع عنَّا ثقل هذا الموت، ويردّ لنا نفوسنا حيّة فيه، وأجسادنا مقدَّسة بروحه القدُّوس.

خامسًا: يعلّق أيضًا **القدِّيس أمبروسيوس** على القول الإنجيلي: "**ثم تقدَّم ولمس النعش فوقف الحاملون**" [١٤]، ناظرًا إلى النعش الخشبي بكونه الشجرة التي من خلالها حُملنا إلى القبر، فقد لمسها السيِّد بارتفاعه على خشبة الصليب لتصير لنا سِرْ حياة. وكأن الخشبة التي كانت لنا نعشًا تحملنا إلى الهاويّة، صارت بالمسيح يسوع **ربِّنا** "**قوّة الله**" (١ كو ١: ١٨).

سادسًا: يرى **القدِّيس أمبروسيوس** في هذا المنظر صورة حيّة للكنيسة التي لا تتوقَّف عن البكاء من أجلنا متضرِّعة إلى مسيحها ليردّ لها وحيدها ينطق بكلمة الحياة، إذ قيل "**فجلس الميِّت، وابتدأ يتكلَّم، فدفعه إلى أُمّه**" [١٥].

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [إن أخطأت خطيّة مُميتة لا تستطيع أن تغسلها بدموعك، فاجعل أُمَّك تبكي عليك، التي هي الكنيسة، فإنَّها تشفع في كل ابن لها كما كانت الأرملة تبكي من أجل ابنها الوحيد. إنها تشترك في الألم بالروح، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لها حينما ترى أولادها يدفعهم الموت في الرذائل المُهلكة، فإنَّنا نحن أحشاء رأفتها. حقًا توجد أحشاء روحيّة كتلك التي لبولس القائل: "نعم أيها الأخ ليكن لي فرح بك في الرب، أرحْ أحشائي في الرب" (فل ٢٠). نحن أحشاء الكنيسة، لأننا أعضاء جسدها من لحمها وعظامها. لتبكِ إذن هذه الأم الحنون ولتشاركها الجموع لا الجمع وحده،

---

[1] *In Luc 7: 11– 17.*

حينئذ تقوم أنت من الموت وتخرج من القبر. يتوقَّف حاملو الموت الذي فيك وتنطق بكلمات الحياة، عندئذٍ يخاف الجميع ويرجع الكل وهم يباركون الله الذي قدَّم لنا مثل هذا الدواء الذي يخلصنا من وطأة الموت[١].]

سابعًا: يتساءل **القدِّيس كيرلس الكبير** عن سِرْ لمس السيِّد المسيح للنعش مع أنه كان قادرًا أن يقيمه بكلمة، ويجيب، قائلاً: [كان ذلك يا أحبائي لتعلموا أن لجسم المسيح تأثير في خلاص الإنسان، لأن جسد الكلمة، المسيح العظيم، هو جسم الحياة المتسربل بالقوّة والسلطان، وكما أن الحديد إذا ما لمس النار بدت فيه مظاهر النار وقام بوظائف النار، كذلك جسد الكلمة المسيح تجلَّت فيه الحياة، وكان له السلطان على محو الموت والفساد[٢].]

هكذا أظهر السيِّد ما كان لجسده من قدرات على إعطاء الحياة، خلال الاتحاد الذي للاهوت مع الناسوت أبديًا... بهذا رفع من شأن الجسد الذي كان موضع عداوة الإنسان والازدراء به، مباركًا طبيعتنا فيه.

٣. إرساليّة يوحنا للمسيح

القدِّيس يوحنا المعمدان الذي سبق فركض في أحشاء أمه متهلِّلاً بقدوم المخلِّص المتجسِّد في أحشاء البتول، والذي أعلن عن أزليَّته (يو ١: ٣٠)، وعن رسالته كحمل الله الذي يرفع خطيّة العالم (يو ١: ٢٩)، وقد رأي الروح القدس نازلاً عليه والآب يشهد له في لحظات العماد... الآن يبعث إرساليّة إلى السيِّد المسيح تقول: "**أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟**" [٢٠].

لم يكن يوحنا يشك في شخص السيِّد المسيح، لكنه أراد أن يعطي للسيِّد المسيح المجال ليقتنص تلاميذه له. فالقدِّيس يوحنا لا يريد لنفسه تلاميذ يعملون لحسابه، إنما يودْ في تلمذته للآخرين أن يبعث بهم إلى مخلِّصه، دافعًا إيَّاهم إلى "الصداقة الإلهيّة". وقد رأي ألا يدخل في حوارٍ مع تلاميذه في شأن المخلِّص، إنما يبعث بإرساليّة إليه ليقدِّم السيِّد نفسه باجتذابهما إليه، فيجتذبان معهما بقيّة التلاميذ.

أقول ما أنجح الراعي الذي يدفع بشعب الله إلى التلاقي مع السيِّد المسيح نفسه لكي يسحب قلوبهم إليه وينعمون بالصداقة الإلهيّة، بهذا يكون عمل الراعي هو مجرد تلاقي شعب الله بالمخلِّص نفسه. مثلَ هذا الراعي لا يعمل لحساب كرامته أو شعبيَّته، وإنما لحساب ملكوت الله.

يحدّثنا **القدِّيس كيرلس الكبير** عن سبب هذه الإرساليّة في شيء من الاسترسال، قائلاً:

---

[1] *In Luc 7: 11– 17.*

[٢] عظة ٣٦.

[لا تظنُّوا إذن أن المعمدان المغبوط عجز عن معرفة كلمة الله، المسيح المتجسِّد – فقد كان واثقًا من المسيح ومن شخصيَّته. وأما سؤاله عن المسيح فقد أملاه له روح الحكمة والفراسة ليجعل من السؤال درسًا مفيدًا لتلاميذه. كان هؤلاء التلاميذ في عزلة عن المسيح، فلم يُدركوا مجده وسلطانه، بل واشتعلت فيهم نيران الحقد، إذ سمعوا بتفوُّقه على سيِّدهم يوحنا في إجراء المعجزات والعجائب، وقد ظهرت نيَّاتهم السيِّئة هذه في إحدى المرَّات، إذ اقتربوا من المعمدان، وسألوه عن المسيح قائلين: "يا معلِّم هوذا الذي كان معك في عبْر الأردن الذي أنت قد شهدتَ له هو يعمِّد، والجميع يأتون إليه" (يو ٣: ٢٦). أجاب يوحنا وقال: "لا يقدر إنسان أن يأخذ شيئًا إن لم يكن قد أعطيَ من السماء. أنتم أنفسكم تشهدون إني قلت لست أنا المسيح بل أنا مرسل أمامه، من له العروس فهو العريس، وأمَّا صديق العريس الذي يقف ويسمعه، فيفرح فرحًا من أجل صوت العريس، إذن فرحي هذا قد كمُل، ينبغي أن ذلك يزيد وإنِّي أنا أنقص" (يو ٣: ٢٧–٣٠).

إننا لا نقول أن المعمدان انحطَّ مقامه في الوقت الذي زاد فيه مجد المسيح بأن التفَّ حوله عدد كبير من الناس، ولكن يُراد بنقص يوحنا وزيادة المسيح أن يوحنا كان إنسانًا فلابد من أن يصل إلى درجة ما بعدها من مزيد، أما المسيح فهو إله متأنِّس فلا حد لنموُّه ولا نهاية لعظمته ولذلك يقول المعمدان: "**ينبغي أن ذلك يزيد وأنِّي أنا أنقص**". إن كل من وقف في مستوى واحد ينقص، وذلك بالنسبة لمن لا يقف أمامه عائق عن النمو والتقدُّم، وحتى يُثبِت المعمدان أنه على حق في قوله هذا أشار إلى لاهوت المسيح، وبرهن لهم أنه لابد من أن يفوق جميع الناس، إذ قال: "الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع والذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلَّم" (يو ٣: ٣١). من الذي أتى من فوق، ومن ذا الذي يفوق جميع الناس؟ من الواضح هو كلمة الله المتجسِّد، هو مثال الآب ومساوٍ له في الجوهر، ونظرًا لمحبَّته شاء فنزل وتواضع ليصير مثلنا. فالمسيح إذن يفوق كل من في الأرض، ولما كان المعمدان أحد سكان الأرض، ويتَّفق معهم في الإنسانيّة، لزم أن يفوقه المسيح الإله.

لا ننكر أن يوحنا كان حميد الخصال. مقطوع النظير فضلاً ونُبلاً، بلغ درجة عظيمة في البرّ والصلاح يستحق عليها المدح والثناء، إذ وصفه السيِّد بالقول المأثور: "لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان" (مت ١١: ١١) ولكن رغمًا عن كل هذا لم يكن المعمدان من فوق، بل كان أرضيًا مثله مثلنا.

فترون إذن أن تلاميذ يوحنا إذ لم تتطهَّر قلوبهم بعد من أمراض اليهود الوبيلة، نسبوا ليوحنا ما رأوه في المسيح من قوّة إلهيّة... أما يوحنا فقد أدرك مكانة المسيح السامية، وسُرَّ كل السرور

بالإشارة إلى مجد السيِّد العظيم، وحتى يطهِّر يوحنا قلوب تلاميذه من أدران الشكوك والريب، ويقرِّبهم إلى شمس البرّ إله المجد الرب يسوع المسيح، قبِل أن يتنكَّر يوحنا تحت زي الجهل والسذاجة، وأوفد رسله إلى المسيح ليسألوه: "**أنت هو الآتي أم ننتظر آخر**[1]".]

الآن نتساءل: لماذا أورد الإنجيلي لوقا هذه الإرساليّة بعد ذِكره شفاء عبد قائد المائة وإقامة الشاب ابن أرملة نايين؟

إن كان قائد المائة يمثِّل الغرباء الذين اِحتضنهم الصديق السماوي بحبِّه نازعًا عنهم موت الخطيّة، وإن كانت الأرملة تشير إلى قبول السيِّد المسيح للأرامل والمساكين أصدقاء له، يرُدّ لهم بهجة خلاصهم، فالآن إذ يلتقي بتلميذيّ يوحنا، ويصطادهم في شباك محبَّته، يُعلن شوقه لاقتناء الشعب اليهودي للتلمذة له. فيوحنا يمثِّل الناموس، وتلميذاه أو إرساليته تشير لتلاميذ الناموس أو الذين تحت الناموس. بعث يوحنا تلميذيه ليعلن أن "غاية الناموس هي المسيح" (رو ١٠: ٤). وقد بعث تلميذين، إذ رقم ٢ يشير إلى المحبَّة. فإنَّنا لن نلتقي بمسيحنا خلال الناموس بدون المحبَّة!

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [يوحنا يمثِّل الناموس، كان من الطبيعي أن هذا الناموس الذي يتكلَّم عن المسيح وقد صار سجينًا في قلوب المؤمنين، ووُضع في الحبس أن يفتقر للنور، فقد قاسى عذابات خلف قضبان عدم الفهم، لهذا فهو لا يقدر أن يسير إلى النهاية كشاهد للمقاصد الإلهيّة ما لم تسنده بشارة الإنجيل... لذلك بعث يوحنا اثنين من تلاميذه ليزداد معرفة، لأن المسيح هو كمال الناموس... وكان التلميذان رمزًا لشعبين، آمن الأول لأنه من اليهود، وأمن الثاني حينما سمع لأنه كان من الأمم[2].]

أما موقف السيِّد المسيح تجاه هذه الإرساليّة فقد اِنصبَّ على الكشف عن أعمال محبَّته الفائقة، تاركًا أعماله تجيب كل تساؤل. يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إذ يعرف المسيح غاية يوحنا، لم يقل: "أنا هو"... وإنما تركهم يتعلَّمون خلال أعماله... فإنَّهم بالطبع يحسبون شهادة أعماله أكثر تأكيدًا فوق كل شك عن شهادة الكلمات[3].] ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [يؤمن الإنسان كل الإيمان بشهادة الأعمال أكثر من دعوة الكلمات.]

يوحنا كمُمثِّل الناموس والنبوّات أرسل التلميذين، أما السيِّد المسيح فدخل بهما إلى العمل الإلهي عينه، ليقولا مع الرسول يوحنا: "الذي رأيناه بعيُوننا، الذي شاهدناه، ولمسته أيدينا من جهة كلمة

---

[1] عظة ٣٧.

[2] *In Luc 7: 18 - 35.*
[3] *In Matt. hom 36: 2.*

الحياة" (١ يو ١: ١).

قدَّم لهما الأعمال التي طالما تنبَّأ عنها الأنبياء، إذ قال لهما: "**إن العمي يُبصرون، والعرج يَمشون، والبرص يُطهَّرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون، والمساكين يُبشَّرون، وطوبى لمن لا يعثُر فيّ**" (لو ٧: ٢٢-٢٣). وكما يقول **القدّيس أمبروسيوس**: [هذه هي الشهادة الكاملة التي بها يمكن معرفة الرب من أجل النبوَّة التي خُصِّصت لشخصه وليس لآخر: "المعطي خبزًا للجياع، الرب يطلق الأسرى، الرب يفتِّح أعين العميان، الرب يقوِّم المنحنين" (مز ١٤٦: ٧-٨)، "الذي يفعل هذا يملك إلى الأبد". إذن فعلامات السلطان الإلهي لا البشارة (بالعمل لا بالكلام) فهي تجعل ظلمة الليل الذي لا ينتهي تنقشع عن أعين العميان، فينالوا شفاءً عندما يُسكب النور على جراحات أعينهم الفارغة، ويجعل الصم يسمعون، وتقوم الأيدي المسترخية والرُكَب المخلَّعَة، وينجذب الأموات إلى النور، وتنبعث منهم قوّة الحياة.]

حذرهما السيِّد بقوله: "**طُوبى لمن لاَ يعثُر فيّ**"، لأن الصليب قادم، هذا الذي فيه يتعثَّر كثيرون، كقول الرسول بولس: "فإن كلمة الصليب عند الهالكين جهالة، أما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوّة الله" (١ كو ١: ١٨). فإنَّ كان السيِّد قد جاء ليفتح الأعين على معاينة أسراره والآذان لسماع صوته الإلهي، ويطلق النفوس من أسر الخطيّة، ويطهِّرها من النجاسة الداخليّة، ويُقيم النفوس من الموت، فإنَّ ثمن هذا كله "**الصليب**" الذي هو "لليهود عثرة ولليونانيِّين جهالة" (١ كو ١: ٢٣).

٤. شهادته عن يوحنا

إذ فرح يوحنا أنه ينقص بينما السيِّد المسيح يزداد (يو ٣: ٣٠)، بعث بإرساليته بهدف سحب كل تلاميذه إلى التلمذة على يديّ المخلِّص نفسه. لم يقلِّل هذا العمل من شأن يوحنا المعمدان، بل بالأكثر وقف السيِّد المسيح نفسه يمجِّده متحدّثًا مع الجموع عنه، هكذا:

"**ماذا خرجتم إلى البريّة لتنظروا،**
أَقَصَبة تُحرِّكها الريح؟
بل ماذا خرجتم لتنظروا أإنسانًا لابسًا ثيابًا ناعمة؟
هوذا الذين في اللِباس الفاخر والتنعُّم في قصور الملوك.
بل ماذا خرجتم لتنظروا؟
أنبيًا! نعم أقول لكم وأفضل من نبي..." [٢٤-٢٦].

في دراستنا لإنجيل معلمنا متَّى (لو ١١: ٧-١٤) قدَّمنا الكثير من تعليقات الآباء في هذا المديح

الربَّاني، لذا أكتفي بعرض بعض التعليقات الأخرى: مكملاً ما سبق عرضه:

أولاً: رأينا أن السيِّد المسيح لم يمدح القدِّيس يوحنا في حضرة تلميذيه، بل بعد رحيلهما حتى لا يبدو متملِّقًا. ليتنا نحن أيضًا لا نهتم بمديح الآخرين في وجوههم، بقدر ما نمدحهم من ورائهم، فنظهر بالحق محبِّين لهم بلا رياء ولا بهدف زمني لنوال مكافأة أدبيّة أو ماديّة.

ثانيًا: يقدِّم لنا **القدِّيس كيرلس الكبير** تفسيرًا لمدح السيِّد المسيح القدِّيس يوحنا المعمدان يختتمه بإعلان أن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه؛ بأن السيِّد المسيح انتقى هذا القدِّيس بكونه أعظم من نال برّ الناموس، فهو أفضل مَنْ ولَدَتْه امرأة من بين اليهود، نبي فاق غيره من الأنبياء، شهد عنه ملاخي النبي (٣: ١) أنه ملاك الرب. ومع هذا فإنَّ قورنت هذه العظمة التي في الناموس ببشارة الإنجيل حُسبت كلا شيء، فخلال الناموس مهما جاهد الإنسان يبقى "**من مواليد النساء**"، أما عطيّة العهد الجديد فترفعنا فوق اللحم والدم لننال البنوَّة لله.

فيما يلي مقتطفات من كلمات **القدِّيس كيرلس السكندري** في هذا الشأن:

[كان غرض المسيح مخلِّص العالم من كلامه إذن بيان ما في الناموس من فضل وميزة، ولكن رغمًا من مزاياه وخصائصه... ليس له في ميدان البنيان الروحي شأن يقربه له. أما نعمة الإيمان بالمسيح ففيها ضمان البركات والخيرات، فيها من القوّة ما يتوج الهامات بأكاليل لا نهاية لجمالها وحسنها...

هذا ما نتعلَّمه من دراسة أقوال بولس المغبوط، فقد أعلن أنه قد تحرَّر من جهة البِرّ الذي في الناموس فكان بلا لوم، ومع كل ذلك يصرخ قائلاً: "لكن ما كان لي ربحًا فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة، بل إني أحسب كل شيء أيضًا خسارة من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربِّي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح" (في ٣: ٧–٨). وقد اِعتبر بولس الإسرائيليِّين جديرين باللوم والتقريع بقوله: "لأنهم إذ كانوا يجهلون برّ الله، ويطلبون أن يُثبتوا بِرّ أنفسهم لم يخضعوا لبِرّ الله، لأن غاية الناموس هي المسيح للبرّ لكل من يؤمن به" (رو ١٠: ٣–٤). ويقول في موضع آخر: "نحن بالطبيعة يهود، ولسنا من الأمم الخطاة، إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرَّر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، آمنا نحن أيضًا بيسوع المسيح لنتبرَّر بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس" (غل ٢: ١٥).

وعليه فكل من يؤمن بالمسيح يحظى بأمجاد تفوق أمجاد البِرّ الذي يمنحه الناموس، ولهذا اِعتبر المعمدان في موضع من بِرّ الناموس لا يدانيه فيه أحد غيره، ولكن اُعتبر من جهة أخرى أصغر

بكثير من أصغر إنسان في ملكوت السماوات، والمراد بملكوت السماوات كما ذكرنا آنفًا نعمة الإيمان بالمسيح، فبها نصبح جديرين بكل بَركة روحيّة تأتي من فوق من الله أبينا، لأنها هي التي تحرِّرنا من كل لوم وتمنحنا حق البنوَّة لله، وتجعلنا شركاء في موهبة الروح القدس ووارثين للكنز السماوي...

يصف السيِّد يوحنا أنه بين المولودين من النساء ليس نبي أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه. وكيف كان ذلك؟ إليك الجواب: فإنَّ يوحنا كان مثْل الآخرين الذين سبقوه، تُنسب ولادته إلى امرأة، أما أولئك الذين قبلوا الإيمان بالمسيح فليسوا أبناء نساء بل أبناء الله على حد قول الإنجيلي الحكيم: "وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله أي المؤمنين باسمه، الذين ولدوا ليس من دم، ولا من مشيئة جسد، ولا من مشيئة رجل، بل من الله" (يو ١: ١٢-١٣). لقد أصبحنا أبناء الله العليّ، "مولودين ثانية لا من زرع يفنَى، بل ممَّا لا يفنَى بكلمة الله الحيّة الباقية إلى الأبد" (١ بط ١: ٢٣). إذن كل من وُلد لا من زرعٍ فانٍ، بل من كلمة الله الباقية يفوق المولود من امرأة.

وهناك سبب آخر يجعل المولودين من كلمة الله أرقى من المولودين من النساء، وذلك لأن هؤلاء لهم آباء أرضيِّين، أما أولئك فلهم أب سماوي، لأن المسيح أخ لهم، فأصبحوا بنعمة الأخوة أبناء الله، إذ قال المسيح جهارًا: "ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض، لأن أباكم واحد الذي في السماوات" (مت ٢٣: ٩). ويقول بولس الحكيم بحق مؤكِّدًا النظرية السابقة: "ثم بما أنكم أبناء أرسل الله روح اِبنه إلى قلوبكم صارخًا يا أبَا الآب" (غل ٤: ٢). لأنه حالما قام المسيح وحطَّم جهنَّم، مَنح نعمة البنوَّة لكل من آمن باسمه، وكان في رأس القائمة تلاميذه المقدَّسون، لأنه "نفخ وقال لهم أقبلوا الروح القدس، من غفرتم خطاياه تغفر له ومن أمسكتم عليه خطاياه أُمسكت" (يو ٢٠: ٢٢-٢٣). وبما أن هؤلاء التلاميذ أصبحوا شركاء في الطبيعة الإلهيّة إذ مُنحوا نعمة الروح العظيم السلطان، الكبير الشأن، لزم أن تكون لهم قوّة إلهيّة، وذلك بغفران خطايا بعض الناس وإمساك خطايا قوم آخرين[١].]

ثالثًا: إذ نركِّز على كلمات السيِّد المسيح في مدحه للقدِّيس يوحنا نجده يبدأ هكذا: "**ماذا خرجتم إلى البريّة لتنظروا؟ أقَصَبة تحرّكها الريح؟ بل ماذا خرجتم لتنظروا أإنسانًا لابسًا ثيابًا ناعمة؟...**" [٢٤-٢٥].

يتطلَّع الرب إلى العالم، وكأنه قد صار بريّة خربة بلا أشجار مثمرة، إذ أفسدت الخطيّة الخليقة

---

[١] عظة ٣٨.

من جنَّة مبهجة ومُشبعة إلى برِّيّة قفراء ومرعبة. هذه البرِّيّة امتلأت بقصب تلعب به الرياح، تميل به يمينًا ويسارًا، أما القدِّيس يوحنا المعمدان فإنَّه وإن كان قد نشأ في برِّيّة العالم كقَصَبةٍ، لكن خلال إيمانه بالمسيَّا المخلِّص ليس بالقَصَبة التي تحرِّكها رياح الهرطقات وتحطَّمها زوابع الشهوات الأرضيّة. إنه بحق تلك القَصَبة التي أمسك بها السيِّد المسيح ليجعل منها قلمًا ماهرًا، كعادة النُسَاخ قديمًا، إذ كانوا يستخدمون القَصَبة في الكتابة بعد تهيئتها لهذا العمل. هكذا كان يوحنا في يديّ المخلِّص القلم الذي يكتب به ليدعو الكل للتمتَّع بخلاصه.

في هذا يقول **القدِّيس أمبروسيوس:**

[يشبِّه الرب هذه الحياة بالبرِّيّة غير المزروعة ولا منتجة، ليس بها ثمر بعد. يحذِّرنا الرب من التشبُه بالذين ينتفخون، وترتبط أفكارهم بالأرضيات، هؤلاء الذين ليس لهم فضيلة خفيّة، بل يتباهون بمجد هذا العالم الزائل. هؤلاء إذ يتعرَّضون لرياح هذه الحياة وتقلُّباتها يضطربون. لهذا يُشَبَّهون بالقَصَبة، لأنهم بلا ثمر بِر حقيقي، لكن لهم الزينة العالميّة...

لكن إن اقتلعت القصبة من الأرض وشذبتها من كل شائبة، أي خلعت الإنسان القديم وأعماله (كو ٣: ٩) وسلمتها لتمسك بها يّد كاتب ماهر ليكتب بها بسرعة، إن فعلت هذا ينتعش هذا القلم وصايا الرب في أعماق قلبك، على ألواح قلب لحميّة (٢ كو ٣: ٣)، فقد قيل عن هذا القلم: "لساني قلم كاتب ماهر" (مز ٤٥: ١)[1].]

إن كنَّا مغروسين في البرِّيّة كقَصَبة مرضوضة تلعب بها الرياح، فلنُسلِّم حياتنا في يديّ ذاك الذي قيل عنه: "**قَصَبة مرضوضة لا يقصِف**" (إش ٤٢: ٣)، فإنه يقتلعنا من أرض هذه الحياة ليغرسنا فيه كأعضاء جسده، محوّلاً حياتنا إلى قلمٍ ماهرٍ في يده، يغمسنا في دمه الطاهر مقدِّسًا أرواحنا ونفوسنا وأجسادنا، فنصير بحق رسالة المسيح المكتوبة لا بحبر ولكن بروح الله الحيّ (٢ كو ٣: ٢-٣).

مرة أخرى يقول: "**بل ماذا خرجتم لتنظروا؟ أإنسانًا لابسًا ثيابًا ناعمة؟**..." يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [لا يعظ الرب هنا عن الثياب بالرغم من أن كثيرين يتشبَّهون بالنساء في تحلِّيهم بالثياب الناعمة... لكن يبدو أن الرب يشير إلى ثياب أخرى، إن لم أخطئ التقدير ألا وهي الأجساد البشريَّة التي ترتديها الروح، لهذا غُمس قميص يوسف بالدم (تك ٣٧: ٣١) مثل جسد المسيح...

اللِباس الناعم هو أعمال الشهوة وعاداتها، لهذا يحثّنا الرسول أن نخلع الإنسان القديم لنلبس الجديد (كو ٣: ٩).]

---

[1] *In Luc 7: 18-35.*

لم يلبس يوحنا اللباس الناعم كالذين يعيشون في القصور، أي لم يسلِّم جسده للشهوات والملذَّات والعادات الرديئة كمن أُسروا في قصر إبليس، إنما تقدَّس جسده مع نفسه لحساب مملكة الله!

يكمل السيِّد المسيح مديحه، قائلاً: "**بل ماذا خرجتم لتنظروا؟ أنبيًا؟ نعم أقول لكم، وأفضل من نبي، هذا هو الذي كتب عنه: ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيئ طريقك قدامك**".

هكذا يؤكِّد السيِّد المسيح أن يوحنا نبي بل وعظيم بين الأنبياء، وكما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير** على لسان السيِّد: [نعم لأنه قدِّيس ونبي، إلا أنه نبي يفوق الأنبياء الآخرين مكانةً ونبلاً، لأنه لم يعلن فقط عن مجيئي بل أشار إليّ... وصرخ قائلاً: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيّة العالم" (يو ١: ٢٩).]

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [نعم وأعظم من نبي، إذ به ينتهي عصر الأنبياء. وهو أعظم من نبي، لأن كثيرين اشتهوا أن يروا (مت ١٣: ٧) ذاك الذي تنبَّأ عنه يوحنا وعاينه وعمده... إنه أعظم من الذين تساوى معهم في الميلاد، أما طبيعة الرب فمُغايرة، ولا تقارَن بميلاد بشري، ولا وجه للمقارنة بين الإنسان والله.]

إذ مدح السيِّد المسيح ملاكه يوحنا المعمدان أوضَح قوّة الكرازة بالإنجيل، فإنَّ يوحنا مع ما بلغه من عظمة إذ دعاه "**أعظم مواليد النساء**" لكن الأصغر في ملكوت السماوات أعظم منه، إذ مثَّل يوحنا عهد الناموس، أما رسالة الإنجيل فقدَّمت "النبوَّة لله"، خلالها ينعم المؤمن بما هو أعظم ممَّا ناله رجال العهد القديم.

على أي الأحوال جاء يوحنا المعمدان ممثِّلا للناموس صارمًا وحازمًا، ليقود البشريّة إلى حمل الله، وجاء المسيَّا الحمل ذاته صديقًا لطيفًا للبشر، فرفض اليهود هذا وذاك. لذلك يوبِّخهم السيِّد، قائلاً:

"فبمن أشبِّه أناس هذا الجيل؟ وماذا يشبهون.
يشبهون أولادًا جالسين في السوق ينادون بعضهم بعضًا، ويقولون:
زمَّرنا لكم فلم ترقصوا، نُحنا لكم فلم تبكوا.
لأنه جاء يوحنا المعمدان لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا،
فتقولون به شيطان.
جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون:
هوذا إنسان أكول وشرِّيب خمر،
محب للعشَّارين والخطاة.

والحكمة تبرَّرت من جميع بنيها" [٣١-٣٥].

فيما يلي بعض تعليقات الآباء على هذا الحديث الإلهي:

❖ لا يتحدَّث الرب هنا عن الرقص المصاحب للملذَّات والترف، بل الرقص الروحي، الذي فيه يسمو الإنسان بالجسد الشهواني، ولا يسمح لأعضائه أن تتنعَّم بالأرضيَّات...

بولس رقَص روحيًا، إذ لأجلنا يقول أمتد إلى قدَّام ناسيًا ما هو وراء، ساعيًا نحو ما هو أمامه، جُعالة السيِّد المسيح (في ٣: ١٣-١٤)...

هذا هو السِرْ إذن: إننا زمَّرنا لكم بأغنيّة العهد الجديد فلم ترقصوا، أي لم تسمعوا بعد بأرواحكم بواسطة النعمة الإلهيّة.

"نُحنا لكم فلم تبكوا" أي لم تندموا... عندما جاءكم يوحنا مناديًا بالتوبة بنعمة السيِّد المسيح. فالرب معطي النعمة، وإن كان يوحنا قد أعلن عنها كخادم له. أما الكنيسة فتحفظ بالاثنين، حتى تُدرك النعمة دون أن تنزع عنها التوبة. النعمة هي عطيّة الرب الذي وحده يهبها والتوبة هي علاج الخاطئ[1].

❖ لم يؤمن اليهود بتسابيح الأنبياء ولا بمراثيهم...

❖ "زمَّرنا لكم فلم ترقصوا".

ترنَّم موسى عندما عبَر موسى البحر وانشقَّت المياه (خر ١٥). وترنَّم إشعياء بنشيد كرْمِه المحبوب (إش ٥: ١)، ليُشير إلى أن الشعب اليهودي الذي سبق فأثمر فضائل كثيرة سيُصبح كتلة من الرذائل.

وتغنَّى الثلاثة فِتية حينما رُبِطت أرجلهم، إذ صارت لهم النار ندى. فبينما كان كل ما في الداخل والخارج يحترق، صارت النيران تلاطفهم، فلم تلسعهم ولا أضرَّتهم (دا ٣: ٢٤).

أعلن حبقوق نشيدًا يتنبَّأ عن آلام المسيح كمصدر تعزية للمؤمنين (حب ٣)، مخفِّفًا من حزن الشعب.

هكذا تغنّى الأنبياء بأغانٍ روحيّة ارتفعت إلى الكرازة بالخلاص العام، وأيضًا بكى الأنبياء لكي يميلوا بمراثيهم الحزينة قلوب اليهود المتحجِّرة.

❖ يعلمنا الكتاب أن نرنِّم للرب (مز ٤٦: ٨)، وأن نرقص في حكمة كقول الرب لحزقيال أن يضرب

---

[1] *On Repent. 2: 6.*

بيده ويخبط برجليْه (حز ٦: ١١). الله لا يطالب بحركات مضحكة يقوم بها جسم ثائر، ولا يطلب تصفيق النساء... إنما يوجد الرقص الوقور حيث ترقص الروح بارتفاع الجسد بالأعمال الصالحة، عندما نُعلِّق قيثارتنا على الصِفصَاف.

يأمر الرب النبي أن يضرب باليد والرجل وأن يغنِّي لأنه كان يرى عرس العريس، الذي فيه تكون الكنيسة هي العروس والمسيح هو الحبيب. إنه عرس رائع فيه يتَّحد الروح بالكلمة، والجسد بالروح...

هذا هو العُرس الذي حاول داود النبي أن يحقِّقه، وله قد دُعينا... إنه يحثّنا لنُسرع نحو هذا المشهد المُفرح: "ارفعوا نغمة، وهاتوا دفًا، عودًا حُلوًا مع رباب" (مز ٨٠: ٢-٣). ألا تتخيَّل النبي راقصًا؟... ألا تسمع صوت ضاربي قيثارة (الرباب) ودقَّات أرجل الراقصين؟ إنه العرس! لتأخذ أنت أيضًا قيثارة حتى إذا ما تمتَّعت بلمسة الروح، تستجيب أوتارك الداخليّة مع صدَى الأعمال الصالحة. لتمسك بالعود فيتحقَّق الانسجام بين كلماتك وأعمالك، وخذ الدف فيهبك الروح أن تترنَّم خلال آلة جسدك من الداخل[١].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ يظهر أن صبية اليهود كانوا يتسلُّون بلعبةٍ من هذا القبيل؛ ينقسم قوم منهم إلى فريقين، ويوقعوا الاضطراب بمن كان حولهم بأن يمثل أحد الفريقين دورًا مغايرًا لما يقوم به الآخر كل المغايرة. يعزف بعض منهم على آلات الطرب، بينما الطائفة الأخرى تصرخ صرخة المتوجِّع الحزين والبائس التعيس. إلا أن هؤلاء البؤساء لم يشاركوا إخوانهم الفرحين في مسرَّاتهم وملذَّاتهم، كما أن أصحاب اللهو والطرب ضربوا صفحًا عن مواساة إخوتهم. قد اشتّد كربهم وانكسرت نفوسهم، وهذا يظهر من معاتبة البعض للآخر، إذ يخاطب الفريق الآخر: "**زمَّرنا لكم فلم ترقصوا**"، فيجيبهم الفريق الآخر: "**نُحنا لكم فلم تبكوا**". فالمسيح يُعلن جهارًا على أن الشعب اليهودي ورؤساءه يمثِّلون هذا الدور، ويظهرون على المسرح كما يظهر صِبية الشوارع، فإنَّ يوحنا المعمدان جاء لا يأكل خبزًا ولا يشرب خمرًا فتقولون به شيطان، جاء ابن الإنسان يأكل ويشرب فتقولون هوذا إنسان أكُول وشرِّيب خمر، محب للعشَّارين والخطاة.

ما الذي يحملكم أيها الفرِّيسيُّون الجهلاء إلى الإيمان بالمسيح، وما الوسيلة لجذبكم إلى السيِّد، وأنتم تنظرون إلى كل الأمور بمِنظار أسود، فليس عندكم شيء جدير بالمديح والثناء، "توبوا (كما قال

[1] *In Luc 7: 18-35.*

المعمدان) لأنه قد أقترب ملكوت السماوات" (مت ٣: ٢). وما أصدق حُكمه عليكم، لأنه كان بشهادتكم مثال النُبل والشهامة، قوي الحُجة سامي الشمائل. ألم يسكن الصحراء فافترش النراب والتَحَف بالسماء، يقتات بالجراد والعسل، ويتدثَّر بلِباس خشن الملمس قليل الثمن؟...

كيف تقولون أن به شيطانًا وهو الذي بزهده ونسكه قتل ناموس الخطيّة القابع في أحشائنا اللحميّة، وحارب ميول العقل، فكان بطلاً صنديدًا ومقاتلاً مِغوارًا؟ هل هناك أعظم من عيشة النسك والزُهد؟ وهي التي بها نخمد لذات الإثم ونلجم بها الشرّ والرذيلة؟ كان المعمدان مخلِصًا كل الإخلاص للمسيح، ليس فيه ميل لشهوات الجسد، فقدَ تعفف عن ملذات العالم وهجر الدنيا وزُخرِفها ليصل إلى الغرض الذي اتَّخذه هدفًا له وهو تمهيد الطريق للسيِّد الفادي.

اخبروني أيها الناس، هل تظنُّون أن مثل هذا الإنسان به شيطان؟ وهو الذي لم يحْنِ ظهره للشرّ والإثم.

لا ننكر أن المعمدان لم يصل إلى هذه الدرجة العالية إلا عن طريق المسيح، لأن السيِّد هو الذي حطّ من مكانة إبليس، وحطَّم أسنانه حتى يعلو مركز القدِّيسين.

ألا تخجلون إذن أيها القوم وأنتم تسيئون إلى المعمدان بألسنة حدَّاد وهو الرسول الذي اِمتاز بالصبر والشجاعة وتتوَّج بأكاليل الغار؟ فلِمَ ترفعون عليه ألسنة الحسد والشر وتنسبون إليه كل كريهة مُنكر، فتنكرون عليه صحَّة العقل وصفاء الذهن وتدعون عليه زورًا وبُهتانًا أنه مجنون معتوه لا يعي ولا يُفكِّر؟

والآن فلندرس شخصيّة أخرى رآها اليهود علي نقيض شخصيّة المعمدان. لم يكن المسيح نزيل الصحراء، بل سكن المدينة في صُحبة رُسله المقدَّسين، ولم يأكل جرادًا وعسلاً ولم يلبس وبَر إبل ولم يشدْ حول وسطه مِنطَقة من جلد...

عاش المسيح كما ترون عيشة سكان المُدن، فلم يتجلَّ فيها شظَف العيش كما عاهدناه في يوحنا، فهل تلومون أيها الفرِّيسيُّون المسيح لسلوكه هذا؟ وهل تطرون سهولة مصاحبته الآخرين وعظيم أُلفته للناس، وعدم عنايته بهذا الطعام أو ذاك؟ كلاَّ لم يكن بالكليّة شيء من هذا، بل طعنتم السيِّد بالكلام القارص، فقلتم "هوذا إنسان أكُول وشرِّيب خمر، محب للعشَّارين والخطاة". قلتم هذا لأنكم رأيتم أحيانًا المسيح يأكل في غير ما تقتير وشُحْ، فاتهمتموه باطلاً بالنَهَم وشُرب الخمر. وكيف تثبتون ادعائكم. ألم تدع مريم ومرثا مرَّة المسيح في بيت عنيا، ولما رأي السيِّد إحداهن تغالي في خدمته نهاها عن ذلك، وأمرها بالقيام بالقدر الضئيل الضروري، إذ خاطب الفادي مرثا قائلاً: "مرثا، مرثا، أنتِ تهتمِّين

وتضطربين لأجل أمور كثيرة، ولكن الحاجة إلى واحد" (لو ١٠: ٤١)...

هل تتهمون المسيح بالنهم والجشع لأنه عاشر العشارين والخطاة؟ وهل هذا هو كل عذركم في اتهامه؟ ولكن قولوا لي: أي ضرر أصاب المسيح من مخالطة الخطاة والأثمة؟ ألم يكن المسيح فوق مستوى البشريّة فما الذي يصيبه من شرورها ومساوئها؟ فقد قال السيِّد وقوله صادق: "رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء" (يو ١٤: ٣٠)، فلا يمكن والحالة هذه أن يعلّق شيء من مساوئ الخطاة بالسيِّد يسوع المسيح.

ولكن قد يسأل أحد ويقول: "إن شريعة موسى أمرتنا بألا تقطع عهدًا مع الخطاة ولا نعامل الآثمة" (خر ٢٣: ٣٢). فلندرس إذن غرض الناموس اليهودي فنتبين القصد الذي من أجله منع الناموس الإسرائيليِّين من مخاطبة الأشرار ومخاطبة الدساسين والمخادعين. لم يكن الغرض التشامخ على الخطاة، والتفاني في الكبرياء والخيلاء على الأشرار، بل كان الغرض أن عقلك ضعيف ومن السهل أن يقع في الشر والخطيّة. وذلك فخوفًا من أن تنجذب وراء الملذات الفاسدة مُنعت من مخالطة الأشرار حتى تكون في نجوى من مكمن الإثم والشر. "فإن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة" (١ كو ١٥: ٣٣). وُضع القانون إذن ليحفظك من الزلل نظرًا لضعفك وعجزك، ولكنك إن كنت متسربلاً بعالي الفضائل، وثابتًا في خوف الرب، فلن يقف الناموس حائلاً بينك وبين الخطاة الضعفاء، فإنَّ في قربك منهم صلاحًا لهم، ودافعًا يبعثهم على التشبه بك، فيسيرون بخطوات واسعة نحو الكمال المنشود والحق المطلوب، فلا تفتخرن إذن علي الضعيف البائس معتمدًا علي شريعة موسى السالفة الذكر ولا يلوم أحد المسيح لأنه عاشر الخطاة والعشارين[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

٥. قصة المرأة الخاطئة

قلنا أن السيِّد المسيح كصديقٍ سماويٍ يفتح قلبه للغرباء (يهتم بقائد المائة)، وللأرامل (إقامة أبن أرملة نايين)، ويجذب تلاميذ يوحنا المعمدان كممثِّلي أبناء العهد القديم ليتلامسوا مع أعمال محبَّته الفائقة، الآن تقتحم امرأة خاطئة – تستحق في عيني اليهود الرجم – هذه الصداقة فتلتقي مع ربَّنا يسوع المسيح كعريسٍ سماويٍ لها، بالتقائها معه في بيت سمعان الفرِّيسي دون دعوة ظاهرة توجَّه إليها.

[١] عظة ٣٩.

لقاء هذه الخاطئة جذب نفوسًا كثيرة للتوبة، إذ أعلن صداقة الله الحقيقية للخطاة ومحبَّته لكل نفسٍ واشتياقه لخلاص الكل. وقد سجَّل لنا كثير من الآباء تعليقاتهم علي هذا اللقاء، منهم **القدِّيس مار أفرام السرياني** الذي عرض هذا اللقاء في أسلوب قصصي رائع سبق لي ترجمته ونشرته تحت عنوان "**حب ودموع**" في سلسلة "**القصة المسيحيّة**".

يمكننا بروح الآباء أن نقدَّم الملاحظات التالية في قصَّة المرأة الخاطئة:

أولاً: يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [انطلقت المرأة الخاطئة إلى الوليمة بدون دعوة، إذ كان الطبيب على المائدة، وبجرأة مقدَّسة سألته الصحَّة... لقد عرفت جيِّدًا قسوة ما تعانيه من المرض، كما أدركت أن الذي تأتي إليه قادر أن يهبها الصحَّة، لذا انطلقت في الطريق بقوّة... اقتربت لا إلى رأس الرب بل إلى قدَّميه، هذه التي سلكت في الشر زمانًا تطلب (قدميه) خطوات البرّ[1].] كأن هذه المرأة وهي تمثِّل النفس المحطَّمة بالرجاسات وجدت قدميّ مخلِّصها سِرْ إمكانيّة السلوك في طريق البِرّ، والانطلاق به وفيه إلى حضن الآب تنعم بالصداقة الإلهيّة أبديًا.

ثانيًا: سأل أحد الفرِّيسيِّين السيِّد المسيح أن يأكل معه، فدخل السيِّد بيته لكنه لم يدخل قلبه، فقد أعدَّ الوليمة، وربَّما كلَّفته الكثير وحسده كثيرون، أن المعلِّم في داخل البيت... لكن المرأة دخلت مقتحمة بدالة الحب البيت والتقت مع السيِّد كعريسٍ لنفسها. يمثِّل الفريسي النفس التي تتخفَّى وراء المظاهر الخارجيّة دون الأعماق، تستضيف الرب في البيت لا القلب، أما المرأة فتُمثِّل النفس الجادة في خلاصها تهتم باللقاء الخفي مع العريس السماوي.

يقارن **القدِّيس أمبروسيوس** في إحدى رسائله بين الفريسي والمرأة الخاطئة فيقول:

أ. لم يقدِّم الفريسي ماء لغسل قدَّمي السيِّد أما المرأة فقدَّمت دموعًا لغسلهما. الأول يمثِّل اليهود أو غير المؤمنين الذين ليس لهم ماء لغسل قدَّميّ السيِّد، الذي يود أن يسير في ضميرهم. [كيف يقدر أن يغسل ضميره من لا يتقبَّل ماء المسيح؟ أما الكنيسة فلها هذا الماء (المعموديّة) ولها هذه الدموع (التوبة[2]).]

ويعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على هذا الغسل في موضع آخر، قائلاً: [غسلت خطاياها بغسلها قدميّ المخلِّص بدموعها. أيها الرب يسوع، فلتسمح لي أن أغسل قدميْك ممَّا اِنطبع عليهما بسيرك في داخلي (مع أنهما لم يتنجَّسا)... لكن من أين لي أن آتي إليك بماء الحياة الذي أغسل به قدميْك؟ فإذ

---

[1] *Ser. on N.T. 49: 1*

[2] *Ep 41: 12.*

ليس لي ماء أقدِّم دموعًا. وإذ أغسل قدميك إنما أثق أنني أنا نفسي أغتسل، حيث تقول لي: "**خطاياك الكثيرة مغفورة لك، لأنك أحببت كثيرًا**[١]".]

في موضع آخر يقول: [إعترف بخطاياك بدموعك ليقول عنك العدل الإلهي: غسلتْ قدميْ بدموعها ومسحَتها بشعر رأسها... فدموع محبَّتنا لا تستطيع فقط أن تغسل خطايانا، وإنما تغسل أيضًا خطوات الكلمة الإلهيّة لتُثمر خطواته فينا! إنها دموع نافعة ليس فقط تكفِّل قيام الخطاة، وإنما هي غذاء للصدِّيقين. بارٌ هو الإنسان القائل: "صارت لي دموعي خبزًا" (مز ٤١: ٤). إن كنت لا تستطيع الاقتراب من رأس المسيح اِلمس قدميه برأسك[٢].]

ب. لم يكن للفرِّيسي شعر يمسح به القدمين، إذ لم يكن نذيرًا للرب، أما الكنيسة فلها شعر، وهي تطلب النذير[٣]. ويرى **القدِّيس أمبروسيوس** هذا الشعر الذي مسحت به المرأة قدميْ المخلِّص يشير إلى الغِنى الذي لا قيمة له ما لم يقدَّم منه للفقراء – قدميْ المخلِّص- يغسل جراحاتهم وآلامهم.

في موضع آخر يقول: [**حِلْ شعرك واَخْضِع له كل مواهب جسدك**[٤]".] فطاقاتنا الجسديّة ومواهبنا وإمكانيَّاتنا وعواطفنا تبقى كالشعر لا قيمة له ما لم يتقدَّس باستخدامه في مسح قدميْ المخلِّص، أي في خدمة إخوته الأصاغر!

ج. بالنسبة لقبلات هذه المرأة الخاطئة التي لم يمارسها الفريسي، يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [القبلة هي علامة الحب. لهذا لم يستطع اليهودي (غير المؤمن) أن يمارس قُبلة؛ لأنه لا يعرف سلام المسيح ولا يقبله، هذا الذي قيل عنه: "سلامًا أعطيكم، سلامي أتركه لكم" (يو ١٤: ٧). هكذا ليس للمجمع اليهودي قبلات، وإنما للكنيسة التي ترقَّبت المسيح وأحبَّته، قائلة: "ليُقبِّلني بقبلات فمه" (نش ١: ٢). أرادت أن تطفئ لهيب شوقها الطويل مترقبَّة مجيء الرب بقبلاته وأن تروي عطشها بهذه العطيّة[٥].] يكمل القدِّيس حديثه في ذات الرسالة فيقول: [الكنيسة وحدها لها قبلات العروس، بكون القبلة عربونًا للزواج وامتيازًا خاصًا بالعرس[٦].]

قبلات الكنيسة صادقة وأمينة، إذ هي قبلات العروس الملتهبة حبًا نحو عريسها، هذه التي لم يختبرها يهوذا حين قدَّم قبلته الغاشة عند تسليمه سيِّده، لذا يخاطبه **القدِّيس أمبروسيوس، قائلاً:** [لقد

---

[1] *On Repent. 2.*
[2] *In Luc 7: 36- 50.*
[3] *Ep. 41: 13.*
[4] *In Luc 7: 36- 50.*
[5] *Ep. 41: 14.*
[6] *Ep. 41: 18.*

قدَّمت قبلة يا من لا تعرف سِر القُبلة... فالمطلوب هو قُبلة القلب والنفس لا قُبلة الشفتين... فإنَّه حيث لا يوجد حب ولا إيمان ولا عاطفة أيّة عذوبة تكون للقُبلات[1]؟]

ثالثًا: إذ يقارن **القدِّيس أمبروسيوس**[2] بين المرأة التي سكبت الطيب على رأس المخلِّص حين كان في بيت سمعان الأبرص في قرية بيت عنيا (مت ٢٦) وبين المرأة المذكورة هنا، يرى أنهما إن كانتا حادثتين مختلفين لكن كلتاهما قدَّمت طيبًا. الأولى تمثِّل النفس التي تدخل إلى الصداقة الإلهيّة وتسمو في الحياة الكاملة في الرب فتسكب الطيب على رأس المخلِّص، إذ تبلغ الكثير من أسراره الإلهيّة، أما نحن فنمتثل بالثانية إذ نشعر بخطايانا فنأتي إليه من ورائه ونبكي مشتاقين بلوغ قدميه، لكننا لا نحرم من تقديم الطيب، إذ يقول القدِّيس: [مع أنها خاطئة لكن كان لها الطيب.]

نقول إن كنا خطاة نسلك طريق توبتنا فليتنا نقتحم بيت سمعان ونلتقي بربَّنا أينما وجد، مقدِّمين طيبًا مسكوبًا على قدميه. طيب التوبة الصادقة الممتلئة رجاءً خلال الدم المقدَّس المنسكب من الجنب المطعون.

مرَّة أخرى في تفسيره لإنجيل لوقا يرى **القدِّيس أمبروسيوس** هذا الطيب المسكوب على قدميْ المخلِّص خاص بالكنيسة وحدها، إذ يقول: [مغبوط هو الإنسان الذي يستطيع **أن** يمسح قدميْ المسيح بالطيب، الأمر الذي لم يفعله سمعان!... الطيب هو خُلاصة روائح زهور كثيرة لذا ينشر روائح زكيَّة ومتنوِّعة، وربَّما لا يستطيع أحد أن يسكب هذا الطيب إلا الكنيسة وحدها التي تملك الكثير من الزهور ذات الروائح المتنوِّعة. هنا تندمج صورة المرأة الخاطئة بالمسيح الذي حمل صورة عبد (حاملاً شبة جسد الخطيّة).]

رابعًا: لم ينتفع الفرِّيسي بلقائه مع المخلِّص، بسبب إصراره على الكبرياء أما المرأة الخاطئة فربحت الكثير لأنها أحبَّت كثيرًا خلال روح التواضع. بالكبرياء يفقد الإنسان كل بركة روحيَّة. وبالحب المملوء تواضعًا ينعم بحب المخلِّص نفسه ومغفرة خطاياه.

❖ جلس سيِّد التواضع في منزل فرِّيسي متكبِّر يُدعى سمعان، وبالرغم من جلوسه في منزله لم يكن في قلبه مكان يسند (ابن الإنسان) فيه رأسه[3] (٩: ٥٧).

القدِّيس أغسطينوس

---

[1] *Ep. 41: 16,17.*
[2] *In Luc 7: 36-50.*
[3] *Ser. on N.T. 12: 1.*

❖ حِبْ كثيرًا فيُغفر لكَ كثيرًا. لقد أخطأ بولس كثيرًا، بل واِضطهد الكنيسة، ولكنه أحبَّ كثيرًا مثابرًا حتى الاستشهاد وغفرت له خطاياه الكثيرة... إذ لم يبخل بدمه لأجل اسم الله[1].

القدّيس أمبروسيوس

❖ لم تضل المرأة الطريق المستقيم، أما الفريسي الجاهل فقد ضل، إذ قال في نفسه: "لو كان هذا نبيًا لعلِم من هذه المرأة التي لمسته، وما هي أنها خاطئة". كان الفرّيسي إذن فخورًا بنفسه، معجبًا بطائفته، ضعيف المادة العقليّة، فلم يدرك الموضوع على حقيقته. كان لزامًا عليه أن يروّض حياته، ويزيّنها بالسجايا السامية، فلا يدين المريض والعليل ويحكم عليه بما هو براء منه. ترك الفريسي هذا كله، وتعلّق بأهداف الناموس الجامد، وطلب إلى الرب يسوع المسيح أن يطيع شريعة موسى، فقد أمرت هذه الشريعة الناس المقدَّسين أن يتجنَّبوا الأشرار الدنسين، ولام الله كل من أُختير رئيسًا لمجمع اليهود، وفرَّط في حقِّه بأن اِقترب من دنس مرذول وصغير ممقوت. فقد ورد على لسان أحد الأنبياء أنهم لا يميِّزون بين "المقدَّس والمرذول" ولكن المسيح قام لا ليُخضِعنا تحت لعنة الناموس، بل ليفدي الخطاة برحمته التي فاقت الناموس، لأن الناموس "قد زيد بسبب التعديَّات" (غل ٣: ١٩)، "لكي يُستد كل فم ويصير كل العالم تحت قصاص من الله، لأنه بأعمال الناموس كل ذي جسد لا يتبرَّر أمامه، لأن بالناموس معرفة الخطيّة" (رو ٣: ١٩).

جاء المسيح حتى يفي للمدين دينه، مهما كثر الدين أو قلّ، ويترأف على الناس بأسرهم كبيرهم وصغيرهم، حتى لا يُحرم إنسان أيًا كان مشاركة المسيح في صلاحه. ولكي يقدِّم لنا السيِّد مثالاً واضحًا لرحمته حرَّر هذه المرأة الخاطئة من شرورها بقوله لها: "**مغفورة لك خطاياك**". ولا يمكن أن تخرج هذه العبارة إلا من فم الله لأنها تتضمَّن سلطانًا فوق كل سلطان لأنه لما كان الناموس يحاكم الخاطئ، فمن ذا الذي يمكنه الارتفاع فوق مستوى الناموس إلا الذي وضعه وأمر به؟ في الحال حرَّر السيِّد المرأة ونبَّه الفريسي ومن جلس معه على المائدة إلى أمور سامية، إذ تعلَّموا أن المسيح الكلمة هو الله، ولذلك فهو ليس أحد الأنبياء بل يفوق كل إنسان ولو أنه تجسَّد وصار إنسانًا...

لا تقلق وتيأس إذا أحسست بثِقل وطأة خطاياك السابقة، فإنَّ رحمة المسيح واسعة المدى. لتكن خطيئتك عظيمة إلا أن رحمة المسيح أعظم، فبنعمته يتبرَّر الخاطئ، ويُطلق سراح الأسير. ولكن اعلم أن الإيمان بالمسيح هو الذي يؤهِّلنا لهذه البركات الخلاصية، لأن الإيمان هو طريق الحياة والنعمة. وفيه نسير إلى المخادع السمائيّة حيث نرث ملكوت القدّيسين الأبرار ونصبح أعضاء في

[1] *In Luc 7: 36- 50.*

مملكة المسيح[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

أخيرًا نختم حديثنا عن المرأة الخاطئة، بأنها قد كشفت عن أعماق محبَّة الله الفائقة للبشر، وكما يقول **القدِّيس إيريناؤس:** [كما يُزكِّي الطبيب بمرضاه، هكذا يعلن عن الله خلال البشر[٢].]

[١] عظة ٤٠.

[2] *Adv. Haer. 3: 20: 2.*

الأصحاح الثامن

الصديق العامل بلا انقطاع

في الأصحاح السابق رأينا السيِّد المسيح يفتح قلبه للجميع ليضم إلى صداقته الغرباء والخطاة. والآن نراه ترافقه نساء كثيرات كن يخدمْنَه من أموالهنَّ دون أن يستنكف هذا العمل [١-٣]. فهو ليس فقط يقبل المرأة الخاطئة ويمتدحها أمام الفرِّيسي، إنما يهتم أن يقدِّس مواهب المرأة وإمكانيَّاتها كعضو حيّ في جسده المقدَّس. نراه في صداقته ليس فقط لا يميِّز بين جنس الرجال وجنس النساء، وإنما أيضًا لا يتحيَّز لقرابات جسديَّة حسب الدم [١٩-٢١]. إنه يطلب صداقة الكل، عاملاً بلا انقطاع من أجل المُضطهدين [٢٢-٢٥]، والمطرودين حتى وإن كانوا مجانين [٢٦-٣٩]، يُطهِّر الدنسين [٤٣-٤٨]، ويقيم الموتى.

١. اهتمامه بخدمة المرأة	١-٣.
٢. عمله كزارع (مثَل البذار)	٤-١٥.
٣. يهب النور	١٦-١٨.
٤. يطلب قرابة الكل له	١٩-٢١.
٥. تهدئة الأمواج	٢٢-٢٥.
٦. شفاء مجنون الجدريِّين	٢٦-٣٩.
٧. إبراء نازفة الدم	٤٣-٤٨.
٨. إقامة ابنة يايرس	٤٩-٥٦.

١. اهتمامه بخدمة المرأة

"**وعلى أثر ذلك كان يسير في كل مدينة وقرية**
يكرز ويبشِّر بملكوت الله،
ومعه الاثنا عشر، وبعض النساء" [١-٢].

بعد وليمة سمعان الفرِّيسي التي كانت تشير إلى ظهور السيِّد المسيح في وسط خاصته اليهود (بيت سمعان) وقد حُرم خاصته منه بسبب كبرياء قلبهم، ليغتصب الأمم (المرأة الخاطئة) صداقته

خلال محبَّتها النابعة عن قلب متواضع، ترك المسيح كفرناحوم ليكرز في كل مدينة وقريَّة ومعه الاثنا عشر ونسوة، وكأنه قد ترك الأمم وانطلق إلي العالم خلال كنيسته يعلن عن ملكوته.

هنا يلزمنا أن نقف قليلاً لنرى يوحنا المعمدان قد سبق فكرز باقتراب ملكوت الله، أما السيِّد المسيح فجاء يقدِّم الملكوت حالاً في وسطنا: "ها ملكوت الله داخلكم" (لو ١٧: ٢١).

انطلق للعمل ومعه الاثنا عشر وبعض النسوة، وقد ركَّز الإنجيلي لوقا علي هذا الأمر، إذ يقول:

"وبعض النسوة كنَّ قد شُفين من أرواح شرِّيرة وأمراض،
مريم التي تُدعى المجدليَّة التي أخرج منها سبعة شيَّاطين.
ويونا امرأة خوزي وكيل هيرودس، وسوسنَّة،
وأُخر كثيرات كنَّ يخدمْنه من أموالهن" [٢-٣].

في المقدِّمة قلنا أن الإنجيلي لوقا وهو يكتب لليونان ركَّز علي اهتمام السيِّد بالمرأة، ويلاحظ في النص الذي بين أيدينا الآتي:

أولاً: قامت رفقة هؤلاء النسوة للسيِّد المسيح علي أساس خبرة العمل الخلاصي، فقد تمتَّعت المجدليَّة بالخلاص من سبعة شيَّاطين، وذاقت الأُخريات عذوبة كلمة الله، هذه الرفقة دامت طويلاً، فقد كانت النسوة يتبَعن السيِّد حتى في لحظات الصليب، ومنهن من سبقن التلاميذ عند الدفن وزيارة قبر المخلِّص، فصرن كارزات بالقيامة. وكانت أيضًا النساء يرافِقن التلاميذ في عبادتهم، وتمتَّعن معهم بعيد العنصرة كما جاء في سفر الأعمال.

على أي الأحوال إن كان العهد القديم لم يتجاهل دور المرأة تمامًا، لكن العهد الجديد رفع من شأنها، فقد قيل عن هذا العهد: "ويكون بعد ذلك أنِّي أسكب روحي علي كل بَشَر فيتنبَّأ بنوكم وبناتكم" (يوئيل ٢: ٢٨). تتطلَّع الكنيسة إلى الفتيات والنساء كأعضاء في جسد المسيح يُشاركن الرجال عضويَّتهم، وقلوبِهن مذبحًا للرب، وهيكلاً للروح المقدَّس!

ثانيًا: لم تكن خدمتهن للسيِّد وقتيَّة، إذ جاء التعبير "كن يخدمْنَه" تعنى استمراريَّة العمل.

ثالثًا: إن كان السيِّد الخالق قد اِفتقر من أجلنا ليُغنينا، فإنه لم يستنكف من أن تعوله نسوة بأموالِهنَّ. إنها محبَّة فائقة أن يقبل مُشبِع النفوس والأجساد أن تخدِمه الأيادي البشريَّة الضعيفة!

٢. عمله كزارع (مثال البِذار)

كصديق حقيقي يشبِّه نفسه بالزارع الذي لا يتوقَّف عن إلقاء بذار حبُّه في كل تربة، لعلَّها تتقبَّلها، فتنبت وتنمو وتُثمر بلا عائق ثمار حب لا ينقطع. وقد سبق لنا الحديث عن هذا المثَّل مع عرض لتعليقات كثير من الآباء في دراستنا لإنجيل متى (١٣: ١٠)، ولإنجيل مرقس (٤: ٢)، أرجو الرجوع إليها.

أكتفي هنا بإبراز النقاط التالية:

أولاً: يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس**[1] بطريرك بلغاريا (٧٦٥-٨٤٠)، أن السيِّد المسيح تحدَّث بأمثال ليجتذب السامعين، فقد اِعتاد الناس أن ينجذبوا للأمور الغامضة، وفي نفس الوقت لكي يبقى السرْ غامضًا لغير المستحقِّين، أي غير المهتمِّين بخلاص نفوسهم.

ثانيًا: لم يأتِ صديقنا السماوي ليدين البشريَّة، إنما ليقوم بزرع قلوبها ببذار فائقة. إنه الزارع الذي يغرس البذار بنفسه، وهو نفسه أيضًا البذار التي تُلقى في القلب. إنه لا يبخل علينا بنفسه، فلا يقدِّم بذارًا خارجيَّة كما فعل رجال العهد القديم، بل قدَّم ذاته حتى إن كنَّا طريقًا أو مملوءين حجارة أو أشواكًا، فإنه محبٌّ للكل! يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [لا يتوقَّف ابن الله عن بذر كلمة الله في نفوسنا، ليس فقط بكونه يعلِّم، وإنما بكونه يخلق مُلقِيًا البذار الصالحة فينا.]

يؤكِّد **القدِّيس غريغوريوس النزينزي**[2] أن هذه الأنواع من التربة الواردة في هذا المثال لا تعني وجود طبائع مختلفة بين البَشَر لا يمكن تغييرها، كما قال بعض الهراطقة حاسبين أن الإنسان مصيَّر حسب طبيعته، وإنما جاء تعبير السيِّد "**قد أعطى لكم**" **[١٠]** ليعلن أن المثل قُدِّم لمن لهم إرادة ويستطيعون أن يتمتَّعوا بالتغيير بالرب.

٣. يهب النور

يُلقي السيِّد المسيح بنفسه كبذار تعمل في داخل قلبنا لكي يظهر ثمر الروح فينا فنكون نورًا للآخرين، إذ يقول: "**وليس أحد يوقد سراجًا ويغطِّيه بإناء، أو يضعه تحت سرير، بل يضعه على منارة، لينظر الداخلون النور، لأنه ليس خفي لا يظهر، ولا مكتوم لا يُعلم ويُعلن**" [١٦-١٧].

سبق لنا التعليق علي هذه العبارات الإلهيَّة في تفسيرنا (مت ٥: ١٥)، (مر ٤: ٢١)، لذا نكتفي هنا بإبراز النقاط التالية:

[1] *Catena Aurea Luc 8.*
[2] *Catena Aurea.*

أولاً: ما هو السِراج المتَّقد إلا القلب المُلتهب بنار الروح القدس، إذ نلنا في سِرَيّ العماد والميرون الروح الناري القادر أن يجعل منَّا خدام لله ملتهبين نارًا؟ لقد أكَّد السيِّد: "قد جئتُ لأُلقي نارًا"، وقد ألقى النار في حياتنا الداخليَّة، هذه التي تبقى ملتهبة فينا إن تَجاوَبنا مع عمل روح الله القدُّوس، فنُحسب سراجًا منيرًا، أما إذا تَغطِّينا بإناء، أو وُضعنا تحت سرير عوض وضْعنا علي منارة نفقد هذا النور. لذا يقول الرسول: "**لا تطفئوا الروح** " (١ تس ٥: ١٩).

إن كان الرسول قد دعا الجسد إناءً خزفِيًا يحمل قوَّة الله فيه ككنز لا يقيَّم (٢ كو ٤: ٧)، فإن إخفاء السراج داخل الإناء يعني عزل عمل الروح خلال شهوات الجسد، عوض تقديس الجسد بنار الروح! بمعنى آخر، ليتنا لا نُبطل عمل الروح فينا خلال أعمال الجسد، إنما نقبل تقديس الجسد بكل طاقاته وأحاسيسه بنار الروح!

إن كان الإناء يمثِّل الجسد، فإن السرير يمثِّل حياة "النوم" والرخاوة، فإنه ليس شيء يفسد حياتنا الروحيَّة مثل التراخي والكسل. بمعنى آخر ليتنا لا نحطِّم النار المقدَّسة فينا خلال سرير إهمالنا وتراخينا، بل بالحري نتجاوب معها خلال السهر والجهاد.

أما المنارة فتُشير لحياة الكرازة والشهادة للحق، فإن النور الذي فينا يتوهَّج بالأكثر خلال الخدمة الروحيَّة والشهادة للرب المصلوب.

ثانيًا: ما هو الخفي الذي يظهر والمكتوم الذي يُعلَم ويُعلَن، إلا حياة السيِّد المسيح نفسه التي يقدِّمها كبذار في داخلنا، إذ تنبت وتنمو شجرة حياة، تملأ القلب ثمرًا روحيًا سماويًا لا يُمكن إخفائه. يُعلن السيِّد المسيح فينا خلال حياتنا الداخليَّة من محبَّة وفرح وسلام وطول أناة ولطف وصلاح وإيمان ووداعة وتعفُّف (غلا ٥: ١٣)، هذه التي تترْجم خلال سلوكنا الظاهر وتحرُّكاتنا! فما نتقبَّله خلال حياتنا السرِّيَّة وعبادتنا الشخصيَّة يُعلَن خلال تصرفاتنا.

ثالثًا: يقدِّم لنا السيِّد المسيح مبدأً أساسيًا في حياتنا الروحيَّة، هو: "**من له سيُعطى، ومن ليس له فالذي يظنُّه له يُؤخذ منه**" [١٨]. يمكننا أن ندعو هذا المبدأ "ديناميكيَّة الشركة مع الله في ابنه"، بمعنى أننا إن كنَّا أمناء نقبل "حياة المسيح فينا" بأمانة، فإن هذه الحياة لا تقف خاملة أو جامدة، إنما تنمو علي الدوام فينا. إذ لنا "الحياة في المسيح"، فإنه يُعطي لنا النمو الدائم لعلَّنا نبلغ قياس ملء قامة المسيح. يهبنا المسيح ما له ليصير في ملكيَّتنا "ما لنا"، كبذار حيَّة تُثمر فينا ويتزايد الثمر بلا توقُّف. أما من ليس له، أي الذي لا يقبل عمل الله فيه، فإن ما يظنه له من مواهب طبيعيَّة وبركات وراثيَّة

حتى هذه الأمور تُنزع عنه! بمعنى آخر حياتنا في المسيح حركة لا تتوقَّف، والشر أيضًا حركة لا تتوقَّف، فمن يتجاوب مع السيِّد ينمو بلا انقطاع ومن يقبل الشرّ ينحدر فيه بلا حدود.

٤. يطلب قرابة الكل له

إن كان السيِّد المسيح كصديقٍ حقيقيٍ يعمل فينا بلا انقطاع، فقد أراد الإنجيلي إبراز مستوى صداقته، أنها لا تنحاز لقرابةٍ جسديَّةٍ، إذ يريد الكل أقرباء له، أعضاء في العائلة السماويَّة. لهذا لما جاءت أُمُّه واخوته (أبناء خالته) يطلبونه ولم يقدروا أن يصِلوا إليه بسبب الجمع، أجاب وقال: "**أُمّي وإخوتي هم الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها**" [٢١].

لا يقصد السيِّد المسيح التحقير من الروابط العائلية، وإنما وهو يحب أُمُّه ويهتم بها حتى في لحظات صلبه، يريد أن يرفعنا إلى القرابة علي مستوى الاتحاد معه، لا خلال الاستماع للكلمة فحسب، وإنما بالعمل بها أيضًا (راجع تفسير مت ١٢: ٤٦، مر ٣: ٣١).

❖ لم يقل هذا كمن يجحد أُمُّه، إنما ليُعلن كرامتها التي لا تقوم فقط علي حملها للمسيح، وإنما علي تمتُّعها بكل فضيلة.

الأب ثيؤفلاكتيوس بطريرك بلغاريا

❖ ألا ترى أنه في كل مناسبة لم يُنكر القرابة حسب الطبيعة، لكنَّه أضاف إليها ما هو بواسطة الفضيلة؟[1]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق به كمعلِّم أن يقدِّم الرب نفسه مثالاً للآخرين، فهو يأمر وينفِّذ ما يأمر به. فإنه إذ يوصي بأنه إن لم يترك الإنسان أباه وأُمُّه لا يستحق ابن الله (مت ١٠: ٣٧، لو ١٤: ٢٦) أراد أن يكون أول من يخضع لهذه الوصيَّة، لا ليقاوم إكرام الأم اللائق، إذ سبق فقال أن من لا يُكرم أباه وأُمُّه موتًا يموت (خر ٢٠: ٢، تث ٢٧: ٦) وإنما كان عالمًا أنه ينبغي أن يكون فيما لأبيه أكثر من عواطفه نحو أُمُّه، فرباطات الروح أقدس من رباطات الجسد.

ما كان يجب علي الذين يطلبون يسوع أن يقفوا خارجًا، لأن الكلمة قريبة منك، في فمك وفي قلبك (تث ٣٠: ١٤، رو ١١: ٨). الكلمة تسمعها من الداخل، والنور أيضًا في الداخل، لذلك قيل: "اقتربوا

[1] *In Matt. hom 32:11.*

إليَّ واستتيروا" (مز ٣٣: ٦)، فإنه إن كان لا يعرف أهله إن وقفوا خارجًا، فكيف يعرفنا نحن إن وقفنا نحن في الخارج؟...

لم يتعالَ المسيح علي أُمّه هنا، فقد عرفها وهو علي الصليب (يو ١٩: ٢٦)، إنما أراد تمييز الوصايا الإلهيَّة عن الرباطات الجسديَّة.

يشير المسيح بأهله أنه سيُفضِّل الكنيسة التي آمنت به عن اليهود الذين جاء منهم المسيح حسب الجسد[1].

القدِّيس أمبروسيوس

٥. تهدئة الأمواج

الآن إذ أبرز صداقته العاملة بلا انقطاع لكي يدخل الكل إلى القرابة معه خلال سماع الوصيَّة وممارستها، بدأ يظهر إمكانيَّاته للعمل فينا لتحقيق غايته فينا. ففي إعلان سلطانه علي الطبيعة يأمر الرياح والماء فتُطعيه يعلن إمكانيَّته للعمل فينا حتى وإن بدت الطبيعة مقاوِمة، أنه صاحب سلطان يدخل إلى قلبنا كما إلى السفينة ليأمر الرياح الداخليَّة أن تهدأ والأمواج أن تتوقَّف، مقيمًا سلامه الفائق للعقل داخل قلوبنا! (راجع تفسير مت ٨: ٢٣، مر ٤: ٣٥).

"**وفي أحد الأيام دخل سفينة هو وتلاميذه،**

وقال لهم: لنعبر إلى عبر البحيرة، فأقلعوا" [٢٢].

إذ وقف أقرباؤه خارجًا ترك الموقع وانطلق مع تلاميذه في سفينة، متَّجِهًا إلى البر الآخر للبُحيرة. إنها صورة رمزيَّة لعمله الإلهي عندما وقف اليهود خاصته خارج الإيمان، فانطلق بتلاميذه خلال كنيسته أو صليبه (السفينة) إلي الأمم، البَر الآخر من بحيرة هذا العالم. وإلي الآن السيِّد المسيح منطلق علي الدوام يعمل خلال خُدَّامه في كنيسته بلا توقُّف مشتاقًا إلي تجديد حياة الكل.

"**وفيما هم سائرون نام،**

فنزل نوء ريح في البحيرة" [٢٣].

هذه هي المرَّة الوحيدة التي قيل فيها عن السيِّد أنه نام، ربَّما ليؤكِّد الإنجيلي حقيقة تجسَّده أنه أكل وشرب ونام وتألم الخ. ولعلَّ تعبير "**نام**" يشير هنا إلي الراحة، فالسيِّد إذ يدخل بتلاميذه إلى سفينته منطلقًا بهم إلي الخدمة يستريح فيهم، لا نوم الخمول، إنما نوم الراحة من جهتهم. ولعلَّ كلمة "**نام**" هنا

---

[1] *In Luc 8:19-36.*

ترمز لما يبدو لنا حين تهب الزوابع علينا حتى تكاد سفينة حياتنا تمتلئ، بينما يبدو الرب نائمًا لا يبالي أننا نهلك، مع أنه ضابط الكل، وكل ما يحدّث بسماحٍ من عنده. فنومه يعني تأجيل ظهوره لكتم الضيقات، مع تركنا للجهاد بنعمته حتى نصرخ إليه وبه نغلب ونتكلل.

يرى **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] أن السيِّد نام لكي يعطي للتلاميذ فرصة لاكتشاف خوفهم وظهوره فيعالجه فيهم. أما **القدِّيس أغسطينوس**[2] فيرى في نوم السيِّد رمزًا لنوم إيماننا به في داخلنا، إذ بالإيمان يحل السيِّد المسيح في قلوبنا (أف ٣: ١٧)، فإن نام هذا الإيمان وفتر تهيج الأمواج ضدَّنا وتصير الحاجة مُلحَّة أن نوقظه بصراخنا إليه، أي بتذكُّر كلماته التي فاعليتها في حياتنا. أما **القدِّيس أمبروسيوس** فيُعلِّق علي نوم السيِّد أثناء اجتياز البحيرة، قائلاً:

[لا يستطيع أحد أن يجتاز هذا العالم بدون المسيح.

إن كان الذين معهم المسيح غالبًا ما يجدون مصاعب في مواجهة تجارب الحياة، وإن كان المسيح قد تصرف هكذا مع تلاميذه إنما ليسحب أنظارك، فتدرك أنه لا يستطيع أحد أن ينطلق من هذا العالم دون أن تعيقه التجارب فيتزكَّى فيه عمل الإيمان.

إن كنا نؤمن أن لله هدف وراء هذه العواصف فلنوقظ القبطان! إن كان حتى قادة السفينة عادة يتعرَّضون للخطر، فإلى من نلجأ، إلا إلي ذاك الذي لا تأسره الرياح، بل يأمر، ذاك الذي كُتب عنه أنه قام وانتهر الريح؟...

كان نائمًا بالجسد لكنه مهتم بهم بلاهوته...

كان الكل خائفًا، وكان هو وحده نائمًا بلا اضطراب، فهو لا يشاركنا طبيعتنا فحسب، وإنما يكون معنا وسط الخطر ولو كان نائمًا بالجسد، إذ هو عامل بلاهوته...

لقد استحقُّوا اللوم، إذ قال لهم: "يا قليلي الإيمان" (مت ٨: ٢٦؛ ١٤: ٣١)، لأنهم كانوا خائفين مع أن يسوع كان معهم. أنهم لم يدركوا أن من يثبت فيه لا يمكن أن يهلك.

ثبَّت الرب إيمانهم وأعاد الهدوء وأمر الريح أن تسكت... الريح الذي قال له الملاك ميخائيل: "لينتهِرك الرب" (يه ٩)...

لينتهر الرب فينا هذه العواصف الثائرة، فلا تخشى الغرق، بل تهدأ حياتنا المضطربة!

إن كان السيِّد لا ينام الآن، لكننا ليتنا نسهر لئلاَّ نراه نائمًا فينا، حين ينتاب جسدنا نوم الغفلة[3].]

---

[1] *In Matt. hom 28:1.*
[2] *In Loan tr 49:9.*
[3] *In Luc 8:19-36.*

٦. شفاء مجنون الجدريِّين

سبق لنا عرض تعليقات كثير من آباء الكنيسة على شفاء مجنون الجِدريِّين (تفسير مت ٨: ٢٨؛ مر ٥: ١)؛ أما ما نود أن نؤكِّده هنا أن الإنجيلي لوقا يبرز شخص المخلِّص كصديقٍ عاملٍ بلا انقطاع، يعمل من أجل إنسان أو إنسانين ولو كانا مجنونين مرذولين يسكنان القبور، حتى وإن كان عمله معهما يحطِّم آلاف من الخنازير أو يسبب له طردًا من الكورة. هكذا يقيِّم السيِّد المسيح النفس البشريَّة ويقدِّرها، عاملاً فيها مهما كلَّفه الثمن! مستعد أن يربحها على حساب خليقته وعلى حسب مجاملات الكثيرين له.

من هو هذا المجنون الذي بقى زمانًا طويلاً عريانًا لا يلبس ثوبًا، بلا مأوى لا يسكن بيتًا، بل يعيش في القبور، مقيَّدًا بسلاسل وقيود، لا يقوى على العمل أو التفكير؟ إنه يمثِّل البشريَّة التي بقيت زمانًا طويلاً مستعبَدة لعدو الخير، مقيَّدة بسلاسل الخطيَّة وقيود الشرّ، لا تقوَى على العمل لحساب مملكة الله لبنيانها ولا التفكير في السماويَّات. لقد صارت خارج المدينة، خارج الفردوس الذي أقيم لأجلها، بلا بيت، إذ حرمت نفسها من السُكنى مع الله في مقدِسه الحقيقي، تعرَّت من ثوب النعمة الإلهيَّة، تؤذي نفسها بنفسها، تهرب نحو البراري، إذ لا تطيق حياة الحب والشركة مع الله والناس!

يعلق **القدِّيس أمبروسيوس** على هذا الرجل قائلاً:

[العريان هو مَن فقَدَ ثوب طبيعته (الأولى) وفضيلته...

الرجل الذي به شيطان يشير إلى شعب الأمم وقد غطته الرذائل فتعرَّى بجهالاته، وخُلعت عنه ثوبه...

تعمَّد القدِّيس متَّى أن يذكر أنه كان ساكنًا في القبور، فإن مثل هذه النفوس تبدو كأنها ساكنة في قبور. فإن أجساد غير المؤمنين ليست إلا نوعًا من القبور يُدفن فيها الأموات (النفوس الميِّتة)، حيث لا تسكن فيها كلمة الرب.

لقد اندفع إلى الأماكن الخالية، أي الأماكن القفرة من فضائل الروح، التي تجنَّبت الناموس وانفصلت عن الأنبياء، فرفضتهم النعمة.

لم يعذِّبه شيطان واحد بل يهاجمه لجيئون[1].]

---

[1] *In Luc 8:19-36.*

هكذا إذ صارت البشريَّة أُلعوبة لا في يد شيطان، بل شيَّاطين كثيرة، تلهو بها وتتبادلها لإذلالها، خرج إليها السيِّد ليحرَّرها من هذا العدو، ويرد لها الثوب الملوكي والبيت الإلهي ويهبها عقلاً وحكمة، وينعم عليها بالشركة معه.

والعجيب أن العدو إذ أدرك خلاص الإنسان على يديّ السيِّد، حسب خلاصنا هلاكًا له. يجد العدو لذّته في عذابنا، وعذابه في خلاصنا، إذ قال الشيطان: "**أطلب منك أن لا تعذِّبني**" [٢٨]. ولعلَّه أدرك أنه عند تمام العمل الخلاصي يسقط هو تحت الدينونة، إذ يكون قد امتلأ كأسه.

على أي الأحوال مع ما يظهر عليه عدو الخير من قوةٍ وعنف وقسوة، وضحت في حياة هذا الرجل قبل شفائه، وفي قطيع الخنازير الذي هلك في الحال، إلا أنه أمام السيِّد المسيح في غاية الضعف، لا يقدر أن يدخل خنزيرة – كما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] – ما لم يسمح له الرب!

ليتنا لا نكون كخنزيرة في حياتنا الروحيَّة، نتمرَّغ في حمأة الخطيَّة، لئلا يجرفنا العدو وينحدر بنا إلى الهاوية، فنغرق ونهلك!

أخيرًا، إذ طلب الرجل من السيِّد أن يرافقه ليكون وسط الجماهير، قال له: "**اِرجع إلي بيتك وحدِّث بكم صنع الله بك**" [٣٩]. وكما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لننسحب من كل الأمور العالميَّة، ونكرِّس أنفسنا للمسيح، فنُحسب مساوين للرسل حسب إعلانه، وننعم بالحياة الأبديَّة[2]]. بمعنى آخر ليتنا لا نهتم بالمظاهر الخارجيَّة، بل ننسحب إلي بيتنا الجديد، الذي هو "حياتنا في المسيح"، نمارس حقّنا في العبادة والشهادة، فيتمجَّد الله فينا وتظهر أعماله نورًا يضيء في هذا العالم!

٧. إبراء نازفة الدم

سبق لنا الحديث عن هذه المرأة (تفسير مت ٩: ١٨؛ مر ٥: ٢٢)، لكن ما نود توضيحه هنا أن إبراء نازفة الدم جاء في الطريق ما بين لقاء يايرس للسيِّد، وإقامة ابنة يايرس، بينما كان السيِّد في طريقه إلى بيت يايْرُس. وقد تمَّ ذلك بهدف خاص وهو أن يايْرُس مع كونه رئيسًا للمجمع لكن إيمانه كان أضعف من إيمان قائد المائة. كان الأول يطلب من السيِّد أن يأتي بيته ليشفي ابنته التي أوشكت على الموت، أما الثاني فآمن أن السيِّد قادر أن يشفي غلامه بكلمة، وأنه لا حاجة لمجيئه إلى البيت، خاصة وأنه لا يستحق أن يدخل السيِّد هذا البيت!

---

[1] *In Matt. hom 19: 10.*
[2] *In Matt. hom 19: 10.*

كان قلب يايْرُس مضطربًا جدًا، وكانت اللحظات تعبر كسنوات طويلة، يشتاق أن يُسرع السيِّد لينقذ ابنته لئلا تموت، إذ لم يكن بعد يؤمن أنه قادر على الإقامة من الأموات. من يستطيع أن يُعبِّر عن نفسيَّة يايْرُس حين أوقف السيِّد المسيح الموكب كله ليقول: "**من لمسني؟**"، بينما كان يتعجَّل اللقاء؟ على أي الأحوال، أعطي الرب لهذا الرئيس درسًا في الإيمان، كيف اغتصبت امرأة مجهولة القوَّة خلال لمسِها هدب ثوبه، ونالت ما لم تنَلْه الجموع الغفيرة، معلنًا له إمكانيَّة التمتُّع بعمل المسيَّا وقوَّته.

ولعل السيِّد وهو منطلق إلى بيت يايْرُس رئيس المجمع أراد أن يقدِّم له كما للجماهير درسًا في "صداقته العاملة"، وأنه وهو يهتم برئيس المجمع لا يتجاهل امرأة مجهولة دنِسة حسب الشريعة، يعمل لحساب الكل ومن أجل الجميع.

قلنا أنه الصديق العامل بلا انقطاع... يعمل لحساب رئيس مجمع جاء يتوسَّل إليه من أجل ابنته، ويعمل أيضًا من أجل امرأة مجهولة، يعمل علانيَّة بانطلاقه إلى بيت يايْرُس، ويعمل خِفية، إذ قال أن قوَّة خرجت منه! هذا ومن ناحيَّة أخرى أراد أن يؤكِّد أنه ليس من وقت معيَّن للعمل، إنما كل وقته هو للعمل. أنه يشفي واهبًا قوَّة خلال الطريق لإقامة ابنة!

هذه المرأة التي فقدت رجاءها في الأذرع البشريَّة، إذ أنفقت كل أموالها على الأطبَّاء، لم تفقد ثقتها وإيمانها بالمخلِّص. لقد لمستْه، فنالت ما لم يناله الذين يزحِمونه، لذلك أراد الرب أن يتمجَّد فيها، فأعلن عن القوَّة التي خرجت منه، أما هي فجاءت مرتعدة [٤٧] تحمل خوف الله، متعبِّدة إذ خرَّت له، شاهدة للحق إذ أخبرت قدام جميع الشعب عن سبب لمسها إيَّاه وكيف برِئت في الحال.

لم يرد الرب أن يحاسبها، إنما أن يزكِّيها، إذ صارت تمثِّل الكنيسة الحاملة لخوف الله، العابدة بالحق، الشاهدة لعمل مسيحها.

أمام هذا المنظر الذي سحَب قلوب الكل فاض عليها الصديق الأعظم بهبات محبَّته، إذ قال لها: "**ثقي يا ابنة، إيمانك قد شفاكِ، اذهبي بسلام**" [٤٨]. هي آمنت وهو يُزيد إيمانها أكثر فأكثر بقولِه "**ثِقي**"، فالإيمان هو عطيَّة الله لمن يسأله، والنمو في الإيمان هو هِبة لمن يمارس الإيمان. يهبنا الإيمان إن سألناه، ويُزيد إيماننا إن أضرمنا ما أعطانا إيَّاه.

وهبها النمو في الإيمان، كما أعلن عطيَّة البنوَّة بقوله: "يا ابنة"... هذه العطيَّة التي تفوق كل عطيَّة أو موهبة. هي آمنت ونالت، فمجَّدته بإيمانها، ويمجِّدها أيضًا هو بقوله: "**إيمانك قد شفاكَ**". أخيرًا قدَّم لها عطيَّة السلام الروحي والنفسي: "**اذهبي بسلام**".

يا للعجب، فإنه كصديق اِهتمَّ بجسدها فشفاه، وبنفسها فأعطاها السلام، وبروحها فجعلها ابنة له تشارِكه أمجاده السماويَّة!

٨. إقامة ابنة يايْرُس

رأى يايْرُس هذا المنظر، ولعلَّه بعدما اضطرب في البداية إذ خشي التأخير، امتلأ إيمانًا، فصارت المرأة نازفة الدم معلِّمًا لرئيس المجمع عن طريق الإيمان.

لقد أراد الرب أيضًا أن يُزيد إيمان يايْرُس أكثر فأكثر، فسمح له بضيقة أمَرْ، إذ جاء واحد من داره يقول له: "**قد ماتت ابنتك لا تتعِب المعلِّم**" [٤٩]. وقبل أن ينطق بكلمة سمع المعلِّم يقول: "**لا تخف، آمن فقط فهي تُشفى**" [٥٠]. وقد سبق لنا الحديث عن إقامة ابنة يايْرُس (تفسير مت ٩، مر ٥)

الأصحاح التاسع

صديقنا السماوي والتلاميذ

إن كنَّا قد رأينا في السيِّد المسيح الصديق المُحب لكل البشر، العامل بلا انقطاع لنقبل صداقته معنا وفينا، فإن هذا الأصحاح يقدِّم لنا غاية هذه الصداقة ألا وهو تجلِّيه في مؤمنيه وخدَّامه ليُعلن طبيعته السماويَّة في حياتنا. لقد افتقر لأجلنا ودخل معنا الآلام لكي يحملنا إلى غناه ومجدِه السماوي.

لم يقدِّم السيِّد أمجاد تجلِّيه دُفعة واحدة، لكنه إذ اختار الاثنى عشر تلميذًا تجلَّى في حياتهم خطوة خطوة ليعلن سلطان ملكوته خلال إرساليَّتهم بلا إمكانيَّات زمنيَّة لكنهم يحملون سلطانه في شفاء النفوس والأجساد. وهبهم أن يلمسوا تجلِّيه وإمكانيَّاته السماويَّة خلال رُعب هيرودس منه من بعيد. وشبَع الجموع الجائعة، وإعلان الآب عن شخصه لسمعان بطرس، وأخيرًا إذ حدَّثهم عن الصليب حمل معه ثلاثة من تلاميذه ينعمون عيانًا ببهائه على جبل تابور. بعد هذا التجلِّي المنظور خشيَ عليهم من الكبرياء فحدَّثهم عن الالتزام بالصليب والسلوك بروح التواضع مع خدمة الآخرين خلال الطريق الضيِّق.

١. إرساليَّة التلاميذ	**١-٦.**
٢. اضطراب هيرودس	**٧-٩.**
٣. التلاميذ وإشباع الجموع	**١٠-١٨.**
٤. التلاميذ والتعرف على شخصه	**١٩-٢١.**
٥. التلاميذ والصليب	**٢٢-٢٧.**
٦. التلاميذ ومجد التجلي	**٢٨-٣٦.**
٧. التلاميذ وإخراج الأرواح الشرِّيرة	**٣٧-٤٣.**
٨. التلاميذ وتسليم ابن الإنسان	**٤٤-٤٥.**
٩. التلاميذ والتواضع	**٤٦-٤٨.**
١٠. التلاميذ وخدمة الآخرين	**٤٩-٥٠.**
١١. التلاميذ والنار من السماء	**٥١-٥٦.**
١٢. شروط التلمذة للسيِّد	**٥٧-٦٢.**

١. إرساليَّة التلاميذ

سبق لنا الحديث عن هذه الإرساليَّة أثناء تفسير مت ١٠: ١، مر ٦: ٧، لذا نكتفي هنا بإبراز أن السيِّد المسيح كصديقٍ سماويٍ نزل إلى أرضنا وحّل بيننا، واختار له تلاميذ من بين الأمميِّين ليتجلَّى فيهم معلنًا ذاته خلال إمكانيَّاته التي قدَّمها لهم، هذه الإمكانيَّات هي:

أولاً: "ودعا تلاميذه الاثني عشر"، هذه الدعوة الإلهيَّة للتلمذة لا تحمل قسرًا أو إلزامًا لقبولها عُنوة، إنما هي عرض حِبِّي من الله نحو مُحبوبيه. لكنها في عيني قابليها تمثِّل توكيلاً، خلاله يعمل الوكيل باسم موكِّله ولحسابه وبإمكانيَّاته. فالتلاميذ خلال هذه الدعوة قبَلوا مركزًا جديدًا هو "الوكالة"، يعملون كوكلاء أسرار الله.

ثانيًا: "وأعطاهم قوَّة وسلطانًا على جميع الشيَّاطين وشفاء أمراض" [١].

إذ أقامهم وكلاء أسراره لم يبخل عليهم بمنحهم قوته وسلطانه على جميع الشيَّاطين وشفاء أمراض.

كثيرون لهم سلطان خلال مراكزهم كملوك أو رؤساء أو أشراف وقضاة، لكنهم لا يحملون في داخلهم قوَّة، فيُسيئون إلى مراكزهم كما إلى نفوسهم، أما السيِّد المسيح فقد وهبهم مع السلطان قوَّة. هذه القوَّة لا تقوم على مظاهر زمنيَّة خارجيَّة، إنما هي "روحه القدُّوس" الذي يسكن فيهم ويعمل بهم.

لقد ادَّعى الشيطان لنفسه سلطانًا، يسنده في ذلك ضعف البشريَّة التي اِنحنت أمامه ليملك عليها، حتى دُعي "رئيس هذا العالم"، كما دُعِي بالقوي. لكن سلطانه قام على خداعه للبشر وضعف البشرية، وجاءت قوَّته خلال ضلاله واِنحرافه. وكان لزامًا للتلاميذ لكي يُجابهوا هذا العدو أن يحملوا سلطانًا مسنودًا بالقوَّة الإلهيَّة.

ثالثًا: وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله، ويشفوا المرضى" [٢].

هذه الإمكانيَّة هي "قوَّة الكرازة بالملكوت"، ليست حديثًا فلسفيًا، ولا دعوة لسلوك تقوي فحسب، إنما هي تمتُّع بالملكوت في داخل النفس. بمعنى آخر الكرازة الرسوليَّة هبة يقدِّمها الروح القدس حين ينقل النفس من الظلمة إلى ملكوت النور، لتنعم خلال مياه المعموديَّة بالبنوَّة لله، وتحوِّل الموقع الداخلي إلى سماء مقدَّسة للرب.

رابعًا: "وقال لهم: لا تحملوا شيئًا للطريق، لا عصى ولا مزودًا ولا خبزًا ولا فضَّة، ولا يكون للواحد ثوبان" [٣].

إنه يسأل تلاميذه ممارسة الترك والتخلِّي، لا ليعيشوا في حرمان، وإنما ليكون لهم الرب نفسه كل

شيء. والعجيب أنه قدَّم لهم القوَّة والسلطان ووهبهم قوَّة للكرازة وعمل الأشفية قبل أن يسألهم الترك؛ يأخذوه هو بكل إمكانيَّاته فيرفضوا الزمنيَّات بكل تفاهاتها.

لقد سألهم ألا يحملوا شيئًا، لا عصى ولا مزودًا ولا خبزًا ولا فضَّة ولا يكون لهم ثوبان، وصيَّة تليق بمن يدخل هيكلاً أو مقدَّسا للرب، فلا يحمل معه شيئًا من أمور هذا العالم، حتى لا يرتبك في شيء أو ينشغل بغير الله. هكذا يليق بالتلاميذ أن تصير حياتهم كلها وكأنها "وجود مع الله في مقدِسه"، يشعرون على الدوام – أينما وُجدوا كمن في مُقدَّسات إلهيَّة.

ليهبنا الله هذا الشعور الذي يملأ القلب مخافة مقدَّسة، ويرفع النفس لتحيا كمن تجلس في السماء، لا ترتبك بحِمل أمور هذه الحياة، ولا تحتاج إلى عصا أو مزود أو خبز أو فضَّة ولا تطلب ثوبين.

خامسًا: "وأيّ بيت دخلتموه فهناك أقيموا، ومن هناك اُخرجوا" [٤].

لقد وهبهم أيضًا عطيَّة العضويَّة مع بعضهم البعض في جسدٍ واحدٍ، فإذ يجد الرسول بيوت المؤمنين مفتوحة له بكونها منازله الخاصة به، يقيم في أي بيت بلا كُلفة الضيافة، إنما يعيش كواحدٍ من أعضاء الأسرة، يشاركهم طعامهم اليومي العادي، ويبقى هناك حتى يخرج من المدينة.

لعلَّ هذه الوصيَّة أيضًا تقدَّم للخادم اِلتزامًا بالجديَّة في العمل، فلا يستغل محبَّة الناس له في المسيح ويحوِّلها إلى مجاملات، فتتحوَّل حياته إلى ولائم عِوض التركيز على نشر كلمة الله والكرازة بإنجيله. عدم التنقُّل من بيت إلى بيت ينزع عن العائلات روح المنافسة في واجبات الضيافة، الأمر الذي يشتهر به الشرق حتى يومنا هذا.

أخيرًا ربَّما أراد بهذا أن يكون هذا البيت نواة لإنشاء كنيسة للمدينة، حيث يعتاد المؤمنون أن يلتقوا بالرسل فيه، وهناك يتعبَّدون خاصة ممارسة سرّ الشركة أو الإفخارستيا في اليوم الأول من الأسبوع. هكذا إذ ينفتح أول بيت للرسول ينال هذه البركة، فإنه على العكس: **"كل من لا يقبلكم فاُخرجوا من تلك المدينة، وانفضوا الغبار أيضًا عن أرجلكم شهادة عليهم"** [٥].

هكذا فعل برنابا وشاول عند خروجهما من أنطاكية (أع ١٣: ٥٠). ولعلَّه يقصد بذلك أن الأمور الزمنيَّة مهما سمت فهي كالغبار الذي لا موضع له إلا عند القدمين. فعندما يرفُض الناس الكلمة الروحيّة من الخادم، يرفض هو أيضًا منهم حتى أتفه الأمور الزمنيَّة! الكنيسة لا تطلب مالاً بل تنفضه كغبارٍ عن قدميها، إنما تطلب النفوس! وقد جاءت الكنيسة تشدِّد على الأساقفة والكهنة ألا يقبلوا عطايا الأشرار غير التائبين، وكأنها تنفض الغبار على عتبة أبوابهم شهادة عليهم حتى يتوبوا!

يرى **القدِّيس أمبروسيوس** أن هذا الغبار يشير إلى الضعفات التي يليق بالراعي أن يحملها عن

شعب الله، كقول الرسول: "**من يضعف وأنا لا أضعف**" (٢ كو ١١: ٢٩)، لكن لا يترك الضعفات تلتصق به، بل يلقيها تحت قدَّميه، إذ يقول: [من واجب الكارز بالإنجيل أن يأخذ على عاتقه ضعفات المؤمنين الجسديَّة ويحملها بعيدًا ويسحقها تحت قدميه، هذه الأعمال البطَّالة التي تشبه الغبار[1].]

٢. اضطراب هيرودس

إن كان السيِّد قد وهب تلاميذه إمكانيَّات سماويَّة للعمل لحساب صديقهم السماوي، فقد أراد أن يكشف لهم خطوة بخطوة عن سلطانه وإمكانيَّاته، وها هو الإنجيلي لوقا يروي لنا كيف اضطرب هيرودس عند سماعه عن أخبار السيِّد المسيح وأعماله. لم يقف الأمر عند اضطرابه، وإنما أيضًا تغيَّرت أفكاره، فمع كونه صدُّوقيًا لا يعترف بالقيامة من الأموات إلا أنه أمام الأحداث قال: "**يوحنا أنا قطعت رأسه، فمن هو هذا الذي أسمع عنه مثل هذا؟**" [٩]. لقد تشكَّك في الأمر وبدأ يفكِّر فيما يقوله الناس ألعلَّه يوحنا أو إيليَّا أو واحدًا من الأنبياء القُدامى قد قام؟ وقد بدأ ضميره يثور في داخله، فلم ينسب قتل يوحنا لخداع هيروديَّا أو ابنتها، ولا للسياف بل لنفسه، قائلاً: "أنا قطعت رأسه"، وكان يطلب أن يرى يسوع. هذا كله قد تحقَّق خلال سماع هيرودس لأعمال السيِّد المسيح، دون أن يتحدَّث معه أحد بكلمة توبيخ أو يكرز له ببشارة مفرحة.

يمكننا أيضًا أن نقول إن كان صوت يوحنا المعمدان السابق للرب، الذي يهيئ الطريق قدَّامه لم يُخْمِد حتى بعد قتله، بل بقي عاملاً يُرعب قلب هيرودس، فكم بالأكثر كلمة المسيح نفسها والكرازة بها حين ينطق هو بها خلال تلاميذه؟ إنها كلمة – كما يقول الرسول بولس – لا تقيد!

٣. التلاميذ وإشباع الجموع

نال التلاميذ الدعوة وتمتَّعوا بقوَّة وسلطان، ورأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم عن هيرودس الذي ينهار مضطربًا. والآن يُعلن لهم الرب أنه هو مُشبع الجموع الجائعة زمانًا طويلاً. وقد سبق لنا الحديث عن إشباع الجموع (مت ١٤: ١٤–٢١، مر ٦: ٣٥–٤٤)، لذا نكتفي هنا بإبراز النقاط التالية:

أولاً: أراد السيِّد أن يختلي بتلاميذه منفردًا في مدينة بيت صيْدا، لكن الجموع إذ علموا تبعوه، فقبِلهم، وفي الأصل تعني الكلمة "**قبِلهم**" رحَّب بهم واستقبلهم. كان التلاميذ في حاجة أن ينفرد بهم السيِّد، لكن حتى هذا اللقاء المنفرد هو من أجل الشعب، فإن جاء يقابلهم الرب ببشاشة وترحاب. راحته وراحة تلاميذه في إراحة المتعبين، وإشباع النفوس الجائعة.

[1] *In Luc 9:1 etc.*

ثانيًا: جاءت هذه المعجزة بعد اِختيار التلاميذ وإرساليَّتهم ليُعلن غاية الإرساليَّة هي "إشباع البشريَّة الجائعة".

يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على موقع هذه المعجزة بين الأحداث التي حولها، قائلاً:

[ما هو السبب الذي جعل البشير يذكر موت يوحنا المعمدان، إذ يشير هيرودس إلى موته [٩]؟ ربَّما لأن الإنجيل الذي يُشبع الشعوب الجائعة بدأ بانتهاء الناموس.

لقد قدَّم الغذاء بعد شفاء نازفة الدم رمز الكنيسة، وبعد إرساليَّة الرسل المُرسلين للكرازة بملكوت الله.

تأمَّل من هم الذين تمتَّعوا بالوليمة؟ لم يتمتَّع بها الكسالى ولا الساكنون في المدينة كمن هم في المجمع ولا طالبو كرامات العالم، إنما يتمتَّع بها الباحثون عن المسيح في البرِّيَّة... هؤلاء يقبلهم المسيح، ويحدِّثهم لا عن العالم بل عن ملكوت السماوات. وإن كان من بينهم من غطَّت القروح جسده، يعطيهم الرب يسوع دواءه.

لقد دبَّر الله أن يُنقذ الذين شفاهم من جراحاتهم المؤلمة من الجوع، ويهبهم الغذاء الروحي، إذ لا يستطيع أحد أن يتمتَّع بالوليمة السماويَّة إن لم يُشفَ أولاً. المدعوُّون للوليمة تمتَّعوا بالشفاء أولاً. فمن كان أعرج نال القوَّة للمشي ليأتِ عند الرب، ومن كان قد حُرم من نور عينيه لم يدخل بيت الرب إلا بعد عودة البصر إليه. هكذا يسير الرب بتدبير حسن مقدَّس في كل حين، إذ يعطي أولاً غفران الخطايا ودواء للجراحات ثم يهيئ الوليمة السماويَّة...

القلوب الجائعة للإيمان الراسخ لا تُشبَع إلا بجسد المسيح ودمه[١].]

ثالثًا: يقول الإنجيلي "**والمحتاجون إلى الشفاء شفاهم**" [١١]، إذ لم ينعم بالشفاء كل المرضى، إنما الذين يشعرون بالحاجة إلى الشفاء فيطلبون الطبيب. فطبيبنا سخي وقادر على الإبراء، لكنه لا يهب عطاياه إلا لسائليه، الذين يشعرون بالحاجة إليه، حتى لا يستخفُّوا بالعطيَّة ويحتقرونها.

ربَّما تتساءل: أنا لا أشعر بمرضي، فماذا أفعل؟ اِفعل ما صنعتهُ الجموع، إذ سارت وراءه تريد أن تسمعه، فتجوع إليه وتشعر بالحاجة إلى الشبع، عندئذ حتى إن لم تسأله شيئًا، التلاميذ يسألونه، والرب نفسه يتكفَّل بإشباع اِحتياجاتهم. نحن نحتاج أن نجلس معه، ونسمع صوته خلال إنجيله، فنشعر بالحاجة إلى الشفاء وإلى الشبع. يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [عندما يبدأ الإنسان في الاستماع يشعر بالجوع، ويرى الرسل جوعَهُ، فإنهم وإن كانوا لا يُشبِعون احتياجه، لكن المسيح يشبعه[٢].]

---

[1] *In Luc 9:10-17.*
[2] *In Luc 9:10-17.*

رابعًا: من باب العاطفة البشريَّة سأل التلاميذ السيِّد: "**اِصرف الجمع ليذهبوا إلى القرى والضياع حوالينا، فيبيتوا ويجدوا طعامًا، لأننا ههنا في موضع خلاء**" [١٢]. كانت عاطفة التلاميذ بشريَّة مجرَّدة وحساباتهم أيضًا بشريَّة، إذ ظنُّوا أن الأمر يحتاج إلى مالٍ كثيرٍ لشراء طعامٍ لهذا الشعب. وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [لم يكونوا بعد قد فهموا أن غذاء المؤمنين لا يُباع، أما المسيح فيعرف أنه ينبغي أن يتمِّم لنا الفداء، وأن وليمته مجانيَّة.]

خامسًا: يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على الغذاء الذي يقدِّمه لنا السيِّد المسيح حتى لا نخور في الطريق فلا نبلغ إلى الآب، معلنًا أن طعام الرب قوي يسند في الطريق، فإن خُرْنا، فالسبب هو فينا، أننا بإهمالنا نبدِّد القوَّة التي يهبنا إيَّاها. لقد استطاع إيليَّا أن يسير أربعين يومًا تسنده وجبة غذاء قدَّمها له الملاك ولم يَخُر كما سبق فخار في الطريق، أما وجبة المسيح فتسندنا كل أيَّام حياتنا.

أخيرًا فقد سبق لنا دراسة المفاهيم الرمزيَّة لعدد الرجال الذين شبعوا (٥٠٠٠ رجل) وللخمس خبزات والسمكتين الخ. إنما ما نود توضيحه هنا أن التلاميذ إذ تقبَّلوا البركة من يديّ المخلِّص ليس فقط أشبعوا الجميع، إنما بقيَ إثنتا عشر قُفَّة مملوءة كِسَرًا، لكل منهم قُفَّة، شهادة عمليَّة لعمل الله معهم. حينما يقدِّم المؤمن للغير يشبع الآخرون، وتمتلئ يداه ببركات الرب، بمعنى أن العطاء يُزيد بركة الرب في حياتنا.

٤. التلاميذ والتعرُّف على شخصه

"**وفيما هو يصلِّي على انفراد كان التلاميذ معه،**

فسألهم قائلاً: من تقول الجموع إنِّي أنا؟" [١٨]

إذ التقَت به الجموع تحدَّث معها، وشفى جراحاتها، وقدَّم لها طعامًا يشبعها، أما تلاميذه فدخل بهم معه إلى خُلْوة اِنفراديَّة لعلَّهم إذ يروه يصلِّي يستطيعون إدراك علاقته الفريدة مع أبيه. لقد صلَّى وكانوا معه، ليعلِّمهم الصلاة كطريقٍ للتمتُّع بأسرار الآب والابن، لذا جاء السؤال: من تقول الجموع إني أنا؟ لكي يعود فيسألهم: وأنتم من تقولون إنِّي أنا؟

إن كنَّا مع الجموع ننعم بأعماله العجيبة ونشبع ونرتوي، فإنه يريدنا أن نلتقي معه على اِنفراد نتمتَّع بأسراره الإلهيَّة، إذ يريد أن يقدِّم لنا نفسه شخصيًا، لنقول له مع بطرس الرسول: "**مسيح الله!**" وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [يشمل هذا الاسم كل شيء، ويعبِّر عن طبيعته، ويحوي كل الفضائل.]

وقد سبق لنا الحديث عن هذا الحديث في شيء من التفصيل (تفسير مت ١٦: ١٣-٢٠؛ مر ٨:

٢٧-٣٠)، مع عرض تعليقات الآباء عليه.

٥. التلاميذ والصليب

إذ أعلن بطرس الرسول إيمانه بالسيِّد المسيح، اِنتهرهم وأوصاهم ألا يقولوا ذلك لأحد [٢١]، "**قائلاً أنه ينبغي أن ابن الإنسان يتألَّم كثيرًا، ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويُقتل، وفي اليوم الثالث يقوم**" [٢٢].

لقد وضَّح أن غاية وصيَّته هذه لتلاميذه تأجيل الإعلان عن شخصه حتى تتحقَّق أحداث الصلب والقيامة، لأنهم "لو عرِفوا لَمَا صلبوا رب المجد" (١ كو ٢: ٨)، فلا يريد إعاقة هذه الأحداث. ففي الوقت الذي فيه أراد أن يُعلن عن ذاته لتلاميذه حتى لا يتعثَّروا بصلبه، أرادهم أن يصمِتوا ولا يُعلنوا عن شخصِه حتى يتم الصليب.

الحقيقة أن الكشف عن ذاته قد اِلتحم بالصليب، فلا قيمة لذبيحة الصليب ما لم يُعلن شخص المصلوب كابن الله الوحيد ومسيحه القدُّوس، ولا يمكننا أن نتمتَّع بشخص المسيَّا كابن الله وننعم به خارج الصليب. إن كان السيِّد المسيح هو الصديق السماوي، فقد جاء ليحملنا بحبه إلى صليبه، هناك بالحري نتعرف عليه ونقبله ونثبت فيه كأعضاء جسده، وندخل به إلى حضن أبيه.

هذا ولا يمكننا أن نتعرَّف على صليبه إلا بِحِملنا إيّاه معه كاختبارٍ يوميٍ تقويٍ، لذا اِلتحم حديثه عن صلبه بحديثه عن صلْبنا نحن معه يوميًا، أو حملنا صليبه وتمتَّعنا بشركة آلامه، إذ يكمل الإنجيلي حديثه هكذا: "**وقال للجميع: إن أراد أحد أن يأتي ورائي، فليُنكر نفسه، ويحمل صليبه كل يوم، ويتبعني**" [٢٣].

يكشف لنا عن ذاته كي لا نتعثَّر في صليبه، ويجتذبنا إلى صليبه لكي ننحني معه نشاركه آلامه كل يومٍ بفرحٍ، فنُحسب أهلاً لشركة أمجاده. هذه هي شهوة قلب كل رسول بل وكل مؤمن: "لأعرفه وقوَّة قيامته وشركة آلامه متشبِّهًا بموته" (في ٣: ١٠).

يقول **القدِّيس جيروم:** [صليبه هو عمود البشريَّة. عندما أقول "الصليب" لا أفكِّر في الخشبة، بل في الآلام. هذا الصليب يوجد في بريطانيا والهند وكل المسكونة... وأنت إن لم تكن نفسك مستعدَّة لحمل الصليب، كما هو الأمر بالنسبة لي (للمسيح) لا يمكنك ان تكون لي تلميذًا. طوبى للإنسان الذي يحمل في قلبه الصليب والقيامة، فيكون موضع ميلاد المسيح وقيامته! طوبى لمن له بيت لحم في قلبه، فيولد المسيح فيه كل يوم!... يُصلب المسيح فينا كل يوم، ونحن نصلب عن العالم... طوبى لمن يقوم فيه المسيح كل يوم! فإنه يقوم إن كان الخاطئ يتوب عن خطاياه حتى الهفوات

منها![1]

الصليب لا يحطِّم حياتنا مادمنا نحمله مع السيد المسيح غالب الموت، أو بمعنى آخر مادام يحمله المسيح الساكن فينا. خارج المسيح الصليب محطِّم للنفس، أما في المسيح، فهو طريق الخلاص والقيامة. لهذا يقول السيِّد المسيح نفسه: "**فإن من أراد أن يُخلِّص نفسه يُهلكها، ومن يُهلك نفسه من أجلي فهذا يُخلِّصها**" [٢٤]، بمعنى أن من أراد أن يُخلِّص نفسه أي يمجِّدها بقيامتها الأبديَّة يلزمه أن يُهلكها بحملها الصليب مع مخلِّصها. فإن الصليب وإن حمل صورة الهلاك من الخارج، لكنه واهب الخلاص.

سحبت هذه العبارة الإلهيَّة فكر كثير من رجال التربية الحديثة، في أبحاثهم عن تربية الأطفال، إذ كشفت لهم عن مفهوم الحب الوالدي الحق، فإنه لا يستطيع أحد أن يُخلِّص أولاده ما لم يُهلك ذاته أو "الأنا *ego*". فإن كثيرين يُحبُّون أنفسهم أو ذواتهم في أولادهم، يريدون أن يشكِّلوا أبناءهم حسب أهوائهم وميولهم واشتياقاتهم، لا حسب فكر الأبناء ومواهبهم وإمكانيَّاتهم. إنهم في الحقيقة يأسرون أولادهم في سجن "الذات" الذي يصعب على الوالدين أن يحرِّروا أبناءهم منه! ونحن نستطيع أن نقول بأننا إذ نُصلب مع المسيح ننكر ذواتنا ونكفر بها، لنعيش أعضاء أحياء في جسد المسيح، هنا لا نأسر أولادنا في "الأنا"، إنما نشعر بهم كأشخاصٍ وأعضاءٍ معنا في الجسد الواحد، لهم شخصيَّاتهم المستقلَّة ومواهبهم وطاقاتهم وإمكانيَّاتهم التي يضمرها روح الله القدُّوس نفسه، أما نحن فنخدمهم ونوجِّههم بالحب الحق بلا أنانيَّة.

إذن الصليب هو سرْ حياة كل عضو في حياته الخاصة، وفي علاقاته الأُسريَّة، وفي علاقاته الكنسيَّة والاجتماعيَّة... إذ يعيش باذلاً في الرب لا يطلب لنفسه شيئًا فينال كل شيء. بقدر ما يجحد ذاته تنمو نفسه بالحب ويتجلَّى الله فيه، ويكون موضع حب السماء والأرض أيضًا، لهذا يؤكِّد **القدِّيس أغسطينوس** إنه يلزمنا أن نُهلك ذواتنا لنربح أنفسنا.

مرَّة أخرى يحدِّثنا عن الصليب بأسلوب آخر، قائلاً: "**لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وأهلك نفسه أو خسرها؟**" [٢٥]. هنا لا يقصد بالعالم سكَّانه، إنما أمور هذا العالم الماديَّة والمعنويَّة. كما يقول **القدِّيس أغسطينوس** إن الإنسان إذ يعيش بروح الأنانيَّة "يحب ذاته"، فيما هو يتقوقع حول ذاته ينطلق إلى أمور العالم ليقتنصها لحساب ذاته. يريد أن يكون العالم كله خاضعًا لملذَّاته، عاملاً لحساب غناه أو كرامته أو ملذَّات جسده، فيفقد حبُّه لنفسه، إذ يُهلكها. أما من يقبل الصلب مع

---

[1] *In Ps. hom 23.*

المسيح فإنه إذ يجحد ذاته وينطلق خارج الأنا ليموت بالحب عن الآخرين، ويتَّسع قلبه لاحتمال وخدمة الجميع، فيربح الكل لنفسه! لنمُت، فنحيا! لنُدفن مع البذار، فنُثمر ثلاثين وستِّين ومائة! فالصليب ربح لا خسارة، مادام يمثِّل شركة مع المصلوب.

هكذا يحدِّثنا السيِّد المسيح عن صلبنا معه، الأمر الذي يصعب على الإنسان الطبيعي أن يقبله، لذا يقول: "**لأن من اِستحى بي وبكلامي فبهذا يستحي ابن الإنسان متى جاء بمجده ومجد الآب والملائكة القدِّيسين**" [٢٦]. وكما يقول **العلامة ترتليان:** [سأكون في أمان إن كنت لا اَستحي من ربِّي... لقد صُلب ابن الله، إني لا اَستحي وإن كان الناس يخجلون منه. لقد مات ابن الله، وأنا بكل طريقة أؤمن بهذا[1].] والخجل من السيِّد المسيح وصليبه قد يكون بالكلام كما بالعمل. فمن لا يحمل سمات السيِّد المسيح ويسلك بروحه ويقبل آلامه يكون قد اِستحى به وبصليبه.

هكذا يحثُّنا على قبول السيِّد المسيح المصلوب في حياتنا اليوميَّة لكي نستطيع أن نختبر أمجاده، ونُحسب معه ورثة الله، نُكرم أمام السمائيِّين. هذه الخبرة، خبرة الأمجاد التي نبلغها خلال الصليب، ليست خبرة أُخرويَّة أو اِنقضائيَّة نتذوَّقها في العالم المقبل فحسب، وإنما هي خبرة حيَّة ننعم بعربونها الآن. لهذا يختم السيِّد حديثه عن الآلام واهبة الأمجاد بقوله: "**حقًا أقول لكم أن من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ملكوت الله**" [٢٧].

لعلَّه قصد بهؤلاء القوم الثلاثة تلاميذ الذين حملهم معه علي جبل تابور لمعاينة مجده في لحظات التجلِّي، إذ جاء الحديث عن التجلِّي بعد هذا القول مباشرة، ولعلَّه قصد بالقوم التلاميذ الذين رأوا ملكوت الله يُعلن بين شعوب الأمم. غير أن **القدِّيس أمبروسيوس**[2] يرى أن هؤلاء القوم هم المؤمنون الذين منهم من عاينوا السماء كمعلِّمنا بولس الرسول. ويمكننا أيضًا القول بأن هذا الوعد الإلهي يمس حياة كل واحد منَّا حين يتجلَّى ملكوت الله داخل النفس ينزع عنها موتها وفسادها ويهبها بهاءً سماويًا في الرب.

ويرى بعض المسيحيِّين الذين من أصل يهودي أن هذا القول يُشير إلى اليهود الذين يبقون تائهين في هذا العالم حتى يُعلن ملكوت الله لهم في أواخر الدهور برجوعهم عن رفضهم للمسيح.

(راجع أيضًا تفسير مت ١٦: ٢٨؛ مر ٩: ١).

٦. التلاميذ ومجد التجلِّي

[1] *On the Flesh of Christ 5.*
[2] *On Belief of the Resurrection 2:94.*

يمكننا في غير مبالغة أن نقول بأن غاية الإنجيل هو تمتُّعنا بتجلِّي السيِّد المسيح في كنيسته، في كل عضو من أعضائها، أي في أعماق نفوسنا، حتى ننطلق إلي إعلان مجده الكامل في يوم الرب العظيم. فإن كان الصليب والقيامة والصعود يمثِّلون عملاً واحدًا متكاملاً يحتل مركز إيماننا، فإن السيِّد المسيح في صلبه وقيامته وصعوده إنما يود أن يهبنا البصيرة الروحيَّة لنعاينه متجلِّيًا فينا، فنختبره وسط آلامنا مصلوبًا عنَّا، يقدِّم لنا بهجة قيامته وأمجاد سماواته في أعماقنا الداخليَّة. بمعنى آخر إن كنا نجاهد إنما لكي بالإيمان يُعلن السيِّد المسيح متجلِّيًا فينا، حتى نراه وجهًا لوجه متجلِّيًا في كمال بهائه في يوم الرب العظيم.

وقد سبق لنا الحديث عن التجلِّي (تفسير مت ١٧، مر ٩) في كثير من الإفاضة، مع تعليقات للآباء... لذا اَكتفي هنا بتعليق **للقدِّيس أمبروسيوس**، إذ يقول: [رأى بطرس واللذين معه هذه النعمة مع أنهم كانوا مثقَّلين بالنوم، لأن بهاء اللاهوت غير المُحوى يسحقنا. إن كان ضوء الشمس لا يمكن للعين البشريَّة أن تثبِّت نظرها فيه فكيف يحتمل الجسد البشري مجد الله؟ لهذا في القيامة يلبس الجسد شكلاً أكثر نقاوة ورقَّة، متحرِّرا من نقائصه! لهذا أراد (بطرس) أن يتمتَّع بصورة القيامة بعد تلك الراحة (النوم الثقيل)، لهذا عند اِستيقاظهم رأوا مجده؛ ونحن أيضًا يليق بنا أن نستيقظ، فنشاهد عظمة المسيح. لقد تهلَّل بطرس لأن جاذبيَّة هذا الدهر لم تستطع أن تسبيه عن سحر القيامة. لذا قال: "**جيِّد يارب أن نكون ههنا**" علي مثال الدهر الآتي، "لي اِشتهاء أن اَنطلق وأكون مع المسيح ذاك أفضل جدًا" (فى ١: ٢٣)[1].]

ويلاحظ في التجلِّي الآتي:

أولاً: لأهميَّة التجلِّي أفاض الإنجيليُّون الثلاثة متَّى ومرقس ولوقا الحديث عنه، أما الإنجيلي يوحنا فتحدَّث عنه في اختصار شديد ولكن بقوَّة ويقين، إذ يقول: "ورأينا مجده" (يو ١: ١٤). ولعلَّ التجلِّي لم يفارق قلب القدِّيس بطرس وفكره كل أيام كرازته، حاسبًا في التجلِّي علامة صدق الرسالة المسيحانيَّة، رابطًا بين التجلِّي وقوَّة بهاء المسيح ومجيئه، إذ يقول: "لأننا لم نتبع خرافات مُصنَّعة، إذ عرَّفْناكم بقوَّة ربَّنا يسوع المسيح ومجيئه، بل قد كنَّا مُعاينين عظمته، لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجدًا، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسْنَى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سُرِرت به، ونحن سمعنا هذا الصوت مقبلاً من السماء إذ كنَّا معه في الجبل المقدَّس" (٢ بط ١: ١٦-١٨).

ثانيًا: إن كان التجلِّي قد تحقَّق في اليوم الثامن من حديث الرب مع تلاميذه عن الصليب، فإنه

---

[1] *In Luc 9:28-31.*

حتى في لحظات التجلِّي كان موسى وإيليَّا يتكلَّمان معه عن "**خروجه الذي كان عتيدًا أن يكمِّله في أورشليم**" [٣١]. وكأن تجلِّي الرب فينا، أو تمتُّعنا بشركة بهائه ومجده فينا، هو ثمرَّة قبولنا صليبه في حياتنا، ويبقى هذا الصليب موضوع شُغلنا حتى وسط أمجاد التجلِّي. بمعنى آخر لن ننعم بتجلِّي الرب فينا في هذا العالم، ولا بظهور مجده لنا في اليوم الأخير، ما لم نقبل وصيَّة الصلب معه، وعندما ننعم بتجلِّيه هنا وهناك يبقى الصليب موضوع فرحنا وتسبيحنا الأبدي. هكذا يلتحم الصليب بالمجد، ويُعلن المجد قوَّة الصليب وسِرِّه الإلهي.

ثالثًا: تهتم الكنيسة بالتجلِّي، فتحتفل به كعيدٍ سيِّديٍ، بكونه شهادة حق للاهوته المُختفي في حجاب الجسد، أعلنه السيِّد لبعض من تلاميذه قدر ما يحتملوا ليُدركوا ما تنعم به الكنيسة في الأبديَّة بطريقة فائقة لا يُنطق بها.

في هذا التجلِّي نرى ما يهبه لنا ربَّنا كعطيَّة حين يغير طبيعة جسدنا التُرابي إلى جسد روحاني، ويقيمنا من فسادنا إلي عدم الفساد، خلال اِتِّحادنا به وتمتُّعنا بشركة ميراثه الأبدي، وكما يقول الرسول: "الذي سيُغيِّر شكل جسد تواضعنا ليكون علي صورة جسد مجده..." لكن تجلِّي الرب هو إعلان حقيقته المحتَجَبة عنَّا بسبب ضعفنا، مقدِّما إيَّاها قدر ما نحتمل، أما مجدنا نحن فهو عطيَّة مجانيَّة يهبها لنا.

رابعًا: يقول الإنجيلي: "**وفيما هو يصلِّي صارت هيئة وجهُه متغيِّرة**" [٢٩]. وكما قلنا إن إنجيل لوقا هو إنجيل "الصلاة"، لكن صلاة ربَّنا يسوع هي حديث الشركة مع الآب الواحد معه في اللاهوت، وليس حديث من تبنَّاه الله كعطيَّة. علي أي الأحوال حملنا ربَّنا يسوع معه علي الجبل، وكنائبٍ عنَّا أيضًا صلَّى، حتى إن أردنا أن نتغيَّر عن شكلنا، وننعم بتجلِّي الرب في أعماقنا، يلزمنا أن نرتفع علي الجبل معه لنصلِّي، **فلا طريق للتجليِّ بدون الصلاة!**

٧. التلاميذ وإخراج الأرواح الشرِّيرة

إن كان السيِّد المسيح قد اصطحب معه ثلاثة من تلاميذه إلى الجبل المقدَّس ليعلن لهم عن طبيعته كصديق سماوي، يشهد له الآب نفسه أنه الابن الوحيد موضع سروره، فيه تكمل النبوَّات ويتحقَّق الناموس، لذلك جاء موسى وإيليَّا متهلِّلان بمجيئه يتحدَّثان عن صلبه أو خروجه. به يفرح المجاهدون فيطلبون البقاء معه علي الجبل أبديًا ويُسر الراحلون (مثل موسى). أنه موضوع سلام السماء والأرض، ومصالحتهما معًا بدمه، فإنه نزل إلى السهل ليتجلَّى بطريقة أخرى، خلال عمله

الإلهي بإخراج الأرواح الشرِّيرة التي حطَّمت حياة الإنسان. لقد جاء ليحمل البشريَّة إلى تجليِّه والتمتُّع بأمجاده، لكن هذا لن يتحقَّق إلا بتحريرها من عبوديَّة إبليس وجنوده. لهذا نزل السيِّد إلى السهل ليجد شخصًا قد اِستحوز عليه الشيطان فمزَّقه وصرعه [٤٢]، وصار عِلَّة مرارة لأبيه وأقربائه وكل من هم حوله، فتقدَّم ليُنقذه هو وكل من هم حوله.

يمكننا القول بأن صديقنا السماوي الابن الوحيد بارتفاعه على الجبل وتجلِّيه يعلن بصورة أو أخرى البشريَّة وقد اِلتحمَت به لتنعم بشركة أمجاده، فتُفرِّح الآب وتُسِر السمائيِّين. وفيها تكمل كلمة الله وتتحقَّق النبوَّات، أما الابن الذي في السهل، وقد أسره الشيطان، فيمثِّل حال البشريَّة التي أحزنت قلب الآب وخَسرت شركتها مع السمائيِّين بسبب العصيان.

اشتكى الأب من المرارة التي يعيشها بسبب ابنه، قائلاً: "**أُنظر إلى ابني، فإنه وحيد لي**" [٣٨]. جاءت هذه الكلمات قويَّة ومملوءة حكمة، فمن جهة لم يطلب من المخلِّص إلا أن "ينظر". هذه الطلبة تحمل إيمانًا بحب المخلِّص الذي لا يَحتمل أن ينظر إنسانًا متألِّمًا وأبًا يتعذَّب من أجل وحيده، ومن جانب آخر فإنه يعلن أبوَّتَه الحانية لكنها عاجزة: "**فإنه وحيد لي**". هذا وفي حديثه قدَّم عتابًا: "**طلبت من تلاميذك أن يخرجوه فلم يقدروا" [٤٠].** فمع الاسِترحام المملوء إيمانًا قدَّم شكوى عن عجز التلاميذ!

الآن ماذا فعل السيِّد المسيح؟

أولاً: عاتب الجماهير: "**أيها الجيل غير المؤمن والمُلتوي، إلى متى أكون معكم وأحتملكم؟** [٤١]، فقد اِشتهى جيلاً مؤمنًا يحمل سلطانًا يُرعب الشيَّاطين!

ثانيًا: قدَّم للآب نداءً: "**قدِم ابنك إلي هنا**" [٤١]، فإنه يريد كل مؤمن أن يتطلع إلى النفوس المحطَّمة والأسيرة كأبناء له يقدِّمها للرب خلال الصلاة لتنعم بالخلاص.

ثالثًا: انتهَر الروح النجس، وشفَى الصبي، وسلَّمه إلى أبيه [٤٢]، أيْ طرد العدو المغتصب من موقع اِحتلاله لكي يُرجع الصبي إلى والده. لا يكفي طرد العدو، إنما يلزم رد المُغتصب لصاحبه، بمعنى آخر غاية مسيحنا ليس تحريرنا من إبليس فحسب، وإنما ردِّنا إلى حضن أبينا لنوجد معه ننعم بأحضانه الإلهيَّة. هذه هي غاية صديقنا السماوي: ردَّنا إلى أبينا في كمال الحرِّيَّة الحقيقية!

٨. التلاميذ وتسليم ابن الإنسان

للمرَّة الثانية يتحدَّث السيِّد المسيح مع تلاميذه عن صلبه، قائلاً: "**إن ابن الإنسان سوف يُسلَّم إلى**

أيدي الناس" [٤٤]، بعد أن تحدَّث معه موسى وإيليًا في ذات الموضوع. وبينما تعجَّبت الجموع من سلطان السيِّد وقوَّته، إذ خلَّص الصبي من الروح النجس، أراد ألاَّ ينسحب قلب التلاميذ إلي أمجاد زمنيَّة، بل إلى الصليب كإعلان لسلطانه في خلاص البشريَّة.

مع أن كلام السيِّد عن الصليب كان واضحًا لكنهم لم يفهموا القول، وبتدبيرٍ إلهيٍ أخفى عنهم سرْ الصليب حتى يتحقَّق.

٩. التلاميذ والتواضع

لم يفهم التلاميذ حديث السيِّد الخاص بتسليمه للصلب كطريق لملكوته السماوي، إنما علي العكس بدأوا يفكِّرون من عسى أن يكون أعظم فيهم، فأخذ السيِّد المسيح ولدًا "**وأقامه عنده، وقال لهم: من قَبِل هذا الولد باسمي يقبلني، ومن قبِلني يقبَل الذي أرسلني، لأن الأصغر فيكم جميعًا هو يكون عظيمًا**" [٤٨].

كصديقٍ سماويٍ يملك لا خلال العظمة الزمنيَّة والاعتداد بالذات، إنما خلال الحب المملوء تواضعًا، لذلك أراد في تلاميذه أن يحملوا سِماته ليملُكوا معه بروح التواضع.

يحذِّرنا **الأب أوغريس** من الكبرياء، في حديثه عن "ضد أفكار الشهوات الثمانية"، قائلاً: [روح المجد الباطل أكثر الأفكار خبثًا، مستعد أن ينمو في نفوس الذين يمارسون الفضيلة. يقودهم إلى إظهار جهادهم علانيَّة ليجمع المديح من الناس، فيتخيَّلون في أنفسهم أنهم يُشفون الناس، ويُفزِعون الشيَّاطين، وأن جماهير الناس يزدحمون حولهم ليلمسوا ثيابهم... شيطان الكبرياء هو علَّة تحطيم النفس تمامًا[١].]

ويحثنا **الأب دوروثيؤس** على التواضع، قائلاً: [لنتَّضع نحن أيضًا إلى حين فنخلُص. فإن كنَّا لا نستطيع احتمال متاعب كثيرة لأننا ضعفاء، فلنتَّضع. فإنني بيقين أؤمن أن العمل القليل الذي يُمارس بتواضع يجعلنا برحمة الله نوجد في ذات الموضع الذي ناله القدِّيسون بتعبٍ عظيمٍ كخدامٍ حقيقيِّين لله. نعم! إننا ضعفاء وعاجزين عن ممارسة أعمال كثيرة، لكن ألا نستطيع أن نتَّضع ؟ حقًا يا اخوة طوبى للإنسان الذي له تواضع حق[٢].] (راجع أقوال الآباء أيضًا في تفسير **(مت ١٨: ١، مر ٩: ٣٥)**.

١٠. التلاميذ وخِدمة الآخرين

"**فأجاب يوحنا وقال:**

---

[1] *Praktikos 13,14.*
[2] *On Humility.*

يا معلِّم رأينا واحدًا يُخرج الشيَّاطين باسمك،

فمنعناه لأنه ليس يتبع معنا.

فقال له يسوع: لا تمنعوه،

لأن من ليس علينا فهو معنا" [٤٩-٥٠].

كما قلنا في تفسير مر ٩: ٣٨، أن الإنجيلي يوحنا لم يمنعه عن غيرةٍ منه أو حسدٍ له لكنه اِشتاق أن يكون معهم في تبعيَّتهم للسيِّد المسيح. وواضح من إجابة السيِّد المسيح أن هذا الرجل لم يكن ضدًا للمسيح بفمه ولا بقلبه، ولا قام بالعمل بفكر فردي اِنعزالي، إنما ربَّما ظروفه لم تسمح له بالتبعيَّة مع التلاميذ بشكل منظور، إنما كان واحدًا معهم في الإيمان. علي أيْ الأحوال فإن صديقنا السماوي بكلماته هذه يقدِّم لنا مفهومًا جديدًا للجماعة المقدَّسة، إنها ليست لقاءً جسديًا مجرَّدًا، لكنها وِحدة حياة وإيمان. أراد السيِّد في تلاميذه أن يكونوا أصحاب قلب متَّسِع بالحب يشتاقون أن يمارس الكل موهبته ليعمل الجميع لحساب ملكوت الله دون تعصُّب، لكن في وحدة إيمان ووحدة فكر روحي مستقيم.

١١. التلاميذ والنار من السماء

"وحين تمَّت الأيام لارتفاعه ثبَّت وجهُه لينطلق إلى أورشليم.

وأرسل أمام وجهُه رُسلاً،

فذهبوا ودخلوا قرية للسامريِّين حتى يعدُّوا له.

فلم يقبلوه لأن وجهُه كان متَّجهًا نحو أورشليم.

فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا:

يارب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليَّا أيضًا؟

فالتفت وانتهرهما، وقال: لستما تعلمان من أيِّ روح أنتما.

لأن ابن الإنسان لم يأتِ ليُهلك أنفس الناس بل ليُخلِّص،

فمضوا إلي قرية أخرى" [٥١-٥٦].

أولاً: يقول الإنجيلي "**حين تمَّت الأيَّام لارتفاعه**" [٥١]، مستخدمًا ذات التعبير "**ارتفاعه**" الذي استخدم عند ارتفاع إيليَّا (٢ مل ٢: ٩-١١)، وفي تمجيد العبد المتألِّم (إش ٤٢: ١) وعند صعود السيِّد المسيح (أع ١١: ١-٢)... وكأنه إذ قرُبت أيَّام السيِّد المسيح ليتمجَّد بدخوله إلى الآلام كعبدٍ ليعبُر إلى أمجاده صاعدًا إلى السماوات ثبَّت وجهُه منطلقًا نحو أورشليم، مركز المحاكمة وتدبير صلبه! فقد جاء لأجل هذه الساعة لكي يتألَّم عنَّا فيمجدنا معه وبه وفيه.

ذهب إلى أورشليم منطلقًا، كأنه يود أن يُسرع بالأحداث التي ترقَّبتْها كل الأجيال بكونها عمل الله الخلاصي، به يتمجَّد المؤمنون.

ثانيًا: رفضته قرية للسامريِّين، والسامريُّون كما نعلم هم غرباء نازحون من بابل ليقطُنوا عِوض المسبيِّين من إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م، فجاءت عبادتهم خليطًا بين اليهوديَّة والوثنيَّة، لا يقبلون من العهد القديم سوى أسفار موسى؛ وكان اليهود لا يطيقون السامريِّين، وأيضًا السامريُّون لا يطيقون اليهود.

رفضت القرية أن تقبل المخلِّص، فاستأذن يعقوب ويوحنا السيِّد المسيح أن يطلبا كإيليَّا نارًا من السماء (٢ مل ١: ١٠-١١) فتفنيهم. ولعلَّه بسبب هذا الروح المتَّقد دعاهما السيِّد "بُوَانرْجِس" أي اِبنيْ الرَعد (مر ٣: ١٧). لكن الرب رفض موبِّخًا إيَّاهما، فإنه ما جاء ليَدين بل ليُخلِّص. إنه طويل الأناة، ينتظر توبة الجميع، وبالفعل قَبلت السامرَّة الإيمان فيما بعد (أع ٨: ٥-٢٥).

لم يأتِ السيِّد المسيح ليصطاد النفوس للإيمان قهرًا، إنما بالحب وطول الأناة، لأن من يقبل الإيمان عن خوف سرعان ما يتركه، أما من يقبله خلال الحب فيثبت فيه. يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [يليق بنا أن نستخدم اللطف في اِستئصال المرض، فإن من يُصلح حاله خلال الخوف من آخر، يعود بسرعة فيسقط في الشرّ[1].]

لقد طلب التلميذان أن تنزل نارًا من السماء للإفناء، لكن الرب يقدِّم نفسه صديقًا سماويًا كندى يطفئ لهيب الشهوات، وإن أرسل نارًا فهو يقدِّم روحه القدُّوس الناري يلهِب القلب حبًا لا اِنتقامًا!

١٢. شروط التلمذة للسيِّد

إن كان صديقنا السماوي يفتح ذراعيه بالحب مشتاقًا أن يضُم الكل إليه لينعموا بشركة أمجاده، فإنه لا يرسل نارًا تُفني رافضيه. وفي نفس الوقت لا يَصلح الكل للتلمذة له، بل من يتجاوب معه ليحمل فِكره وسِماته. وقد قدَّم لنا الإنجيلي لوقا ثلاثة أمثلة لأُناس اِلتقوا معه بقصد التلمذة له. في دراستنا لإنجيل متَّى (٨: ١٩) أوردت تعليقات بعض الآباء في أمر الشخصين الأوَّلين: الكاتب الذي طلب أن يتبع المسيح لكن بنِيَّة غير صادقة، فأجابه السيد: "للثعالب أوجِرة ولطيور السماء أوكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه"، وكأن ابن الإنسان لم يجد له موضعًا فيه، أما الثاني فهو إنسان حسن النِيَّة مشتاق للتلمذة، لكن عاقه واجب عائلي ضروري في نظر الناس، ألا وهو الاهتمام بوالده حتى يدفنه. على أي الأحوال أضاف الإنجيلي لوقا شخصًا ثالثًا اشتاق أن يتتلمذ للرب ويتبعه،

[1] *In Matt. hom 24:2.*

لكن ليس في جِدِّيَّة كاملة أو نضوج صادق، فأراد أولاً أن يودِّع الذين في بيته. فكانت إجابة السيِّد له: "**ليس أحد يضع يدَه علي المِحراث وينظر إلي الوراء يصلح لملكوت الله**" [٦٢].

ويلاحظ في هذه الأمثلة الثلاثة الآتي:

أولاً: صديقنا السماوي يعرف القلب الداخلي، فالأول والثالث طلبا التلمذة، ففضح قلبيهما الأول غير نقي في أعماقه وأهدافه، والثالث متواكل غير جاد، أما الثاني فلم يطلب بشفتيْه لكن الرب سمع طلبه ودعاه للتلمذة وإذ حدَّثه في صراحة أنه يوَدْ أن يَدفن والده أولاً، رفعه فوق الواجبات الزمنيَّة من أجل العمل الكرازي الخالد. الأول والثالث حُسبا أنهما غيوران ويصلُحان للعمل، والثاني في تواضع لم يطلب لكن الرب دعاه. بمعنى آخر ليتنا نطلب التلمذة لله لا بشفاهنا بل بنقاوة قلبنا ولهيبِهِ الداخلي، فيدعونا الرب نفسه ويضمِّد جراحات ضعفنا مهيِّئًا حياتنا للشهادة له.

ثانيًا: يُعلِّق **القدِّيس أغسطينوس** على الرجل الأول، قائلاً: [إذ أراد هذا الإنسان أن يتبع المسيح تأكَّد السيِّد أنه كان يطلب ما لنفسه لا ما هو ليسوع المسيح (في ٢: ٢١)، إذ يقول: "**ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات**" (مت ٧: ٢١). هكذا كان هذا الإنسان لا يعرف نفسه كما كان الطبيب يعرفه. فلو أنه رأى نفسه وأدرك أنه مملوء رياءً ومكرًا لعرف مع من كان يتكلَّم. لذلك قال له: "**للثعالب أوْجِرَة، ولطيور السماء أوْكار، وأما ابن الإنسان فليس له أين يسند رأسه**" [٥٨]، بمعنى أنه ليس له موضع في إيمانك. ففى قلبك تجد الثعالب لها أوْجِرة. إذ أنت مملوء مكرًا. وفي قلبك تجد طيور السماء أوكارًا لأنها مرتفعة ومتشامخة. أنت مملوء مكرًا وكبرياء فلا تتبعني، إذ كيف يمكن للماكر أن يتبع البساطة؟[1]]

يمكننا أيضًا أن نقول بأن هذا الإنسان كان مرتبطًا بمحبَّة العالم، وقد طلب التلمذة للسيِّد، لا لأجل السيِّد نفسه، لكن بِغْية كرامة أرضيَّة أو نفع مؤقَّت، لهذا أعلن له السيِّد عن طبيعة المُعلِّم، فإن الثعالب التي تعيش في البرِّيَّة لها أوْجِرة ترتبط بها، وفيها تستريح، والطيور التي تهيم في الجو لها أوْكار تعود إليها من حين إلي آخر، أما ابن الإنسان فسماوي ليس له في الزمنيَّات راحة، ولا في الأرض موضع استقرار. لذلك فأنت لا تصلح بعد للتلمذة له إلا إن تحرَّر قلبك عن الأرض تمامًا، وانطلقت نفسك مرتفعة نحو السماويَّات. صديقنا سماوي يوَد في تلاميذه أن يحملوا سِمة الفكر السماوي والحياة العُلويَّة الفائقة.

---

[1] *Ser. on N.T. 50:1.*

ثالثًا: يقدِّم لنا **القدِّيس أمبروسيوس** تفسيرًا مقاربًا لتفسير **القدِّيس أغسطينوس** بخصوص الإنسان الأول، إذ يقول:

[بالرغم من طاعته وخدمته المستمرَّة، لكنه لم ينل رِضى الرب، فإن الرب لا تهمُّه الخدمة الظاهرة بل نقاوة القلب، لذا سبق فقال: "**من يقبل هذا الولد باِسمي**"، معلِّمًا إيَّانا ألا تكون البساطة مغرضة، ولا المحبَّة حاسدة، وأن يكون البذل بلا غضبٍ، مشيرًا للبالغين أن يكون لهم قلب الأطفال... يليق بك أن تنعم بالبساطة الحقيقيَّة، أي تقتني هذه الطبيعة بالجهاد. لهذا قال الرب: "**من قبِلَ هذا الولد باسمي فقد قبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني**". حقًا إن من يقبل من يتمثَّل بالمسيح يقبل المسيح، ومن يقبل صورة الله يقبل الله، لكننا إذ لم نستطع أن نرى صورة الله حلّ الكلمة بيننا بالتجسُّد ليقرِّب اللاهوت إلينا مع أنه أعلى منَّا...

"**للثعالب أوْجِرة**"؛ فالشيطان كالثعلب مخادع، ينصب الفخاخ ويحيا بالمكر... يبحث عن فريسة داخل مسكن الإنسان نفسه.

ويقارن الرب الهراطقة أيضًا بالثعالب، لذا يعزلهم عن حصاده: "خذوا لنا الثعالب الصغيرة المفسدة للكروم" (نش ٢: ١٥)، الذين يستطيعون إفساد الكرم الصغير لا الكبير...

كثيرًا ما تشير طيور السماء للأرواح الشرِّيرة التي تبني أوْكارها في القلوب الشرِّيرة، فلا يجد ابن الله وسط هذه القلوب كلها أين يسند رأسه.

المكر لا يترك مكانًا للبساطة، ولا موضعًا للإلهيَّات في هذه القلوب... أما إذا رأى الرب طهارة قلب فيسند فيه عمل عظمته، أي الهبة العظيمة الفائقة التي تنسكب في قلوب الصالحين[١].]

رابعًا: يُعلِّق **القدِّيس أغسطينوس** عن الشخص الثاني الذي لم يطلب التلمذة بشفتيه كالأول، إنما تحدَّث بنقاوة قلبه، فكان مستعدًا للتلمذة، لكنه خلال اِلتزام عائلي تجاه والده طلب التأجيل، إذ يقول: [إيمان قلبه أعلن عن نفسه أمام الرب، لكن عاطفته واِلتزامه (الأُسَري) جعله يؤجِّل، غير أن المسيح الرب إذ كان يهيئ البشر للإنجيل لم يرد أن يُوجد عذر بسبب عاطفة جسديَّة مؤقَّتة. حقًا إن الشريعة الإلهيَّة قد قرَّرت هذه الالتزامات، والرب نفسه وبَّخ اليهود لأنهم حطَّموا هذه الوصيَّة الإلهيَّة (مت ١٥: ٤–٥). ويقول الرسول بولس في رسالته: "التي هي أول وصيَّة بوعد"... ما هي؟ "اِكرم أباك وأُمّك" (أف ٦: ٢). إذن هذا الشاب اِشتاق أن يطيع الله ويدفن أباه... حقًا يجب إكرام الأب، لكن يجب أن يطاع الله أولاً. يلزم محبَّة من ولدنا، لكنه لا يُفضل عمَّن خلقنا. كأنه يقول له: دعوتك لإنجيلي؛ أنا

---

[1] *In Luc 9:57-62.*

محتاج إليك للقيام بعملٍ آخر أعظم من العمل الذي توَد أنت أن تقوم به... دع الموتى يدفنون موتاهم[1].]

إن كان عيب الأول أنه في حماس بشري قال "**اَتبعك أينما تمضي**" بينما كان قلبه مرتبطًا بالعالم، فالثاني عيبه قوله "**أمضي أولاً وأدفن أبي**". فجعل دفن أبيه "**أولاً**"، بينما يلزم أن يكون الله أولاً. وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [جاء في سفر نشيد الأناشيد درس لنا، إذ تقول الكنيسة: "دبَّر الحب لي" (الترجمة السبعينيَّة)، أي ليكن الحب في تدبيره المناسب، يُقدِّم للكل كما يليق به، فلا تضع الحب الذي يجب تقديمه أولاً في المؤخِّرة... حب والديك لكن لتُفضِّل الله عنهما. لاحظ والدة المكابيِّين، وهي تقول: "يا أولادي أنا لا أعرف كيف ظهرتم في رحمي" (٢ مك ٧: ٢٢). هكذا أوصتهم، فتبعوا وصيَّتها[2].]

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [لكن كيف يُمنع هذا الإنسان من دفن أبيه مع أن هذا العمل من أعمال التقوَى؟ يعلِّمنا الرب أن يكون هو في المقدِّمة ويأتي بعده الإنسان. هذا العمل حسن لكنه غير لائق، لئلاَّ إذ يقسِّم (التلميذ) اِهتمامه تفتر محبَّته (للكرازة) ويتأخَّر نُموُّه. يليق بنا أن نذهب أولاً لعمل الكرازة حتى لا تُعاق... لذلك عندما أرسل الرب التلاميذ أمَرَهم ألا يُسلِّموا على أحد في الطريق، ليس لأن المحبَّة تُضايقه، وإنما لأن الاهتمام بنُموُّ الخدمة يُرضيه بالأكثر[3].]

يكمل **القدِّيس أمبروسيوس** حديثه فيقول: [لكن كيف يمكن لأن يدفن الموتى موتاهم؟ هنا يشير إلى موت مزدوج موت الجسد وموت الخطيَّة، بل ويوجد موت ثالث به نموت عن الخطيَّة ونحيا لله، كما فعل المسيح الذي مات عن الخطيَّة: "**لأن الموت الذي ماته قد ماته للخطيَّة مرَّة واحدة، والحياة التي يحياها فيحياها لله**" (رو ٦: ١٠). يوجد موت يفصل الجسد عن الروح، هذا الموت يجب ألا نخشاه ولا نهابه، لأنه بداية الانطلاق وليس عقوبة، الأقوياء لا يرتعبون منه، والحكماء يشتهونه، والتعساء يتمنُّونه إذ قيل "يطلب الناس الموت ولا يجدونه" (رؤ ٩: ٦). ويوجد موت آخر يضع نهاية لملذَّات العالم حيث لا يموت الجسد بل تموت الخطيَّة، هذا الموت نمارسه عندما نُدفن مع المسيح ونموت معه في المعموديَّة (رو ٦: ٤؛ كو ٢: ٢٢)، نموت عن أمور هذا العالم، وننسَى حياتنا الأولى، هذا الموت أراده بلعام لكي يحيا لله، عندما تنبَّأ: "لتمُت نفسي موت الأبرار ولتكن آخرتي كآخِرتهم" (عد ٢٣: ١). والموت الثالث يحمله المسيح (بالصليب) لحياتنا، فنحن نعرف أنه هو الحياة

---

[1] *Ser. on N.T. 50:2.*
[2] *Ser. on N.T. 50:2.*
[3] *In Luc 9: 57-62.*

الأبديَّة (يو ١٧: ٣)، يراه الأبرار الآن كما في لغزٍ، لكنهم يرونه أخيرًا وجهًا لوجه لأن: "نفس أنوفنا مسيح الرب أُخذ في حفرهم الذي قلنا عنه في ظلِّه نعيش بين الأمم" (مر ٤: ٢٠)، وكان رجاء داود يكمن تحت ظل جناحيْه (مز ٥٦: ٢)، واِشتهت الكنيسة ظلُّه لتجلس تحته (نش ٢: ٣). إن كان ظلَّك يا ربِّي يسوع له نفع كهذا فكم تكون حقيقتك؟... "حياتكم مستترة مع المسيح في الله، متى أظهر المسيح حياتنا فحينئذ تُظهرون أنتم أيضًا في المجد" (كو ٣: ٣-٤). عجيبة هي هذه الحياة التي لا تعرف الموت!... لا يمنع الرب أن نبكي ونَدفن موتانا، لكنه يضع التقوَى الدينيَّة في المرتبة الأولى ثم تليها الرباطات العائليَّة. ليُترك الموتى (روحيًا) أن يدفنوا موتاهم أما المُختارون فليتبعوه.]

خامسًا: أما بالنسبة للشخص الثالث فكان إنسانًا غير جادٍ في التبعيَّة للسيِّد، ذا قلب منقسم، يريد أن يتبع المسيح وفي نفس الوقت يحِنُّ للعالم. مثل هذا يبدأ ولا يكمل، لهذا قيل له: **"ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله"** [٦٢].

الله يريد القلب كله له، ويبقى له دون ارتداد للوراء، حتى لا يصير عمود ملح كامرأة لوط التي خلصت بخروجها من سدوم مع لوط وبنتيها، لكنها لم تكمل الطريق بل ارتدَّت بقلبها فهلكت. من أجل هذا جاءت الوصايا تشدِّد لا أن نبدأ فقط، وإنما أن نكمل صابرين حتى النهاية لكي نخلص، فمن كلمات ربَّنا يسوع: "الذي على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئًا، والذي في الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه" (مت ٢٤: ١٧-١٨). هكذا من ارتفع بالرب إلى السطح يعاين الأسرار السماويَّة، فلا ينزل إلى أسفل حيث الزمنيَّات، ومن انطلق إلى حقل الكرازة فلا يرجع عن الخدمة.

كتب **القدِّيس جيروم** إلى باولا *Paula* سائلاً إيَّاها ألا تُفرِط في الحزن بسبب وفاة بلاسيلا *Blaesilla*، يقول: [بالتأكيد، الآن إذ نؤمن بالمسيح ونحمله في داخلنا، فبسبب زيت مسحته التي قبلناها (١ يو ٢: ٢٧) يليق بنا ألا نفارق هيكله – أي عملنا المسيحي – ولا نرتبك كالأمم غير المؤمنين، بل نبقى على الدوام في الداخل كخدَّام مطيعين لإرادة الرب[1].] وكأنه يطالبها إذ كرَّست حياتها لخدمة الله والعمل الإنجيلي التعبُّدي لا تتراجع خلال الحزن فتترك عملها بسبب وفاة أحد، بل تكمِّل طريق جهادها حتى النهاية.

يقول **القدِّيس يوحنا كاسيان:** [إنه الأمر شرِّير للغاية أنه بينما يجب عليك أن تحمل المبادئ الأوليَّة والبدايات لكي تنطلق متقدِّمًا نحو الكمال تبدأ تسقط مرتدًا لأمور أردأ. فالعبرة لا لمن يبدأ بهذه

---

[1] *Ep 39:4.*

الأمور بل لمن يصبر إلى المنتهى فيُخلُص (مت ٢٤: ١٣)[1].] كما يحثُّنا على الجهاد الروحي بلا توقُّف ولا تراجع، قائلاً: [إن ثِمة اِتِّهامًا موجَّها بطريقة خفيَّة في سفر التثنية إلى الذين يقولون بأنهم نبذوا هذا العالم غير أنهم ينهزمون في عدم إيمان خشية ضياع ممتلكاتهم الأرضيَّة، إذ قيل: "من هو الرجل الخائف والضعيف القلب، ليذهب ويرجع إلى بيته لئلاَّ تذوب قلوب اخوته مثل قلبه" (تث ٢٠: ٨) أيِّ شهادة أكثر وضوحًا من هذه؟... أليس من الواضح أن الكتاب المقدَّس يؤْثِر ألاَّ يقدِموا على هذا العهد في أوائل مراحله أو يحملوا اسمه، لئلا يصيروا قدوة سيِّئة تجتذب الآخرين للانحراف عن كمال الإنجيل المقدَّس[2].]

---

[1] *Inst. 4:36.*
[2] *Inst. 9:15.*

الأصحاح العاشر

الإرساليَّة الثانية

إن كانت الإرساليَّة الأولى الخاصة بالاثني عشر تلميذًا تمثِّل خدمة اليهود فإن الإرساليَّة الثانية الخاصة بالسبعين رسولاً تمثِّل خدمة الأمم. فإن ربَّنا يسوع المسيح يرسل لليهود كما للأمم طالبًا صداقتهم بلا تمييز. ولهذا السبب نرى السيِّد المسيح متهلِّلاً بالروح من أجل تمتَّع البسطاء بنعمة المعرفة، أيًّا كان جنس هؤلاء البسطاء، كما يقدِّم لنا مثَل السامري الصالح ليعلن عن مفهوم الأخوة للبشريَّة كلها، كما يقدِّم لنا قصَّة مرثا ومريم ليكشف لنا عن قبوله كل خدمةٍ وعبادةٍ!

١. تعيين السبعين رسولاً وكرازتهم ١-٢٠.

٢. تهلَّل السيِّد المسيح بالروح ٢١-٢٤.

٣. مثَل السامري الصالح ٢٥-٣٧.

٤. مرثا العاملة ومريم المتألِّمة ٣٨-٤٣.

١. تعيين السبعين رسولاً وكرازتهم

في الإرساليَّة الأولى كانت وصيَّة السيِّد المسيح للاثني عشر: "إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة للسامريِّين لا تدخلوا، بل اذهبوا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة" (مت ١٠: ٥)، أما للسبعين فجاءت الوصيَّة بالكرازة غير محصورة في شعب معيَّن أو أُمَّة خاصة، إذ قال: "وأيَّة مدينة دخلتموها وقبلوكم فكُلوا ممَّا يقدَّم لكم، واشفوا المرضى الذين فيها، وقولوا لهم: قد اقترب منكم ملكوت الله" (لو ٩: ٨). وقد جاءت الكلمات: "**كُلوا مما يقدَّم لكم**" تعني أنهم لا يستنكفون من الطعام الذي يقدِّمه الأمميُّون ولا يخشون من التنجُّس حسب ما جاء في الشريعة الموسويَّة، ليأكُلوا ما يقدِّمه هؤلاء الأمم حتى يستطيعوا باتساع فكرهم أن يقدِّموا لهم كلمة الكرازة بالملكوت بلا عائق، فإنه ليس وقت للأطعمة المحلَّلة والمُحرَّمة، إنما لسحب النفوس من الهلاك الأبدي.

كانت الإرساليَّة الثانية في الغالب تمثِّل الكرازة للأمم، فمن المعروف أن سكان بيريَّة التي ذهب إليها السيِّد المسيح بعد الجليل هم أمميُّون، ولعلَّ الإنجيلي لوقا نفسه كان من بين هؤلاء السبعين رسولاً.

على أي الأحوال إذ كتب متَّى البشير – وهو من الاثني عشر– لليهود لم يَشِر إلى هذه

الإرساليَّة، بينما لوقا البشير وهو يكتب للأمم يُشير إليها.

إن كان الاثنا عشر يمثِّلون الاثني عشر نبعًا، فإن السبعين يمثِّلون السبعين نخلة في إيليم الجديدة (خر ١٥: ٢٧). إن كان الاثنا عشر يقابلون الأسباط الاثني عشر فإن السبعين يقابلون السبعين شيخًا الذين اِختارهم موسى (عد ١١: ١٦–٢٥) أو السبعين عضوًا في مجمع السنهدرين.

لعلَّه اختار السبعين رسولاً قُبيل عيد المظال حيث كان اليهود يقدِّمون ٧٠ ذبيحة[١]... كأنه أراد أن يقدِّم للعالم عيدًا جديدًا، فيه يقدِّم الرسل كذبائح حيَّة مقدَّسة مرضيَّة عند الله (رو ١٢: ١)، على مذبح الحب خلال الكرازة في العالم كله.

ويلاحظ في هذه الإرساليَّة الآتي:

أولاً: "**وبعد ذلك عيَّن الرب سبعين آخرين أيضًا وأرسلهم اثنين اثنين أمام وجهِه إلى كل مدينة وموضوع حيث كان هو مزمعًا أن يأتي**" [١]. يرى بعض الآباء مثل **القدِّيس أمبروسيوس** أن عدد الرسل اثنان وسبعون، وأن الإنجيلي ذكر الرقم الدائري. وقد أرسلهم اثنين اثنين كما سبق فأرسل الاثني عشر (مر ٦: ٧)، إذ "اثنان خيْر من واحد، لأن لهما أجرة لتعبهما صالحة، لأنه إن وقع أحدهما يقيمه رفيقه، وويل لمن هو وحده، إن وقع إذ ليس ثانٍ ليُقيمه" (جا ٤: ٩–١٠). وكما قال **القدِّيس أغسطينوس** إن رقم ٢ يشير إلى الحب لله والناس، وكأن إرساليَّته لم تكن كرازة كلام ووعظ فحسب بل كرازة حب وشركة مع الله والناس.

أرسلهم أمام وجهُه، ليكونوا ممهَّدين له في الطريق، ولكي يعملوا أمامه، فيكونوا تحت رعايته فيما هم يرعون الآخرين!

ثانيًا: أكَّد لهم أن الكرازة هي من صميم عمله هو. فهو الذي عينهم، وهو الذي يسندهم بإرسال فعله يعملون معه لحساب حصاده، إذ يقول: "الحصاد كثير والفَعَلة قليلون، فاُطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فَعَلة إلى حصاده" [٢]... وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [الرب نفسه هو الذي يبذر، إذ كان (قاطنًا) في الرسل، وهو أيضًا الذي يحصد، فبدونه يحسبون كلا شيء... إذ يقول: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥)[٢].]

ثالثًا: جاءت وصيَّته لهم: "**ها أنا أُرسلكم مثْل حِملان بين ذئاب**" [٣]، تكشف عن أنه هو المرسل

---

[1] *Edershiem: The Temple, p. 240.*
[2] *Ser. On N.T. 51:3.*

"**أنا أرسلكم**". لذا فهو العامل فيهم والمسئول عنهم، وأن إرساليَّته ليست بالمهمَّة السهلة طريقها مفروش بالورود، إنما هي إرساليَّة قلَّة من الحملان تُلقي بين ذئاب. وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس** إن الذئاب تلتهم الحملان فتتحوَّل الذئاب إلى حملان[1]. إنها ليست إرساليَّة لافتراس رُسله، وإنما لتحويل الذئاب إلى حملان، خلال وداعة حملانه أي رسله. وكما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**: [أنه فوق كل شيء يعرف طبيعة الأشياء: أن الشراسة لا تُطفأ بالشراسة وإنما باللطف[2].]

يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على هذه الوصيَّة، قائلاً: [لا يخشى الراعي الصالح على رعيَّته من الذئاب، لذا أرسل تلاميذه لا ليكونوا فريسة وإنما ليكرزوا بالنعمة. عناية الراعي الصالح لا تسمح للذئاب القيام بأي عمل ضد خرافه، إنما يرسل الخراف وسط الذئاب لتتم هذه الكلمة: "ويرعى الذئب مع الحمل" (إش ٦٥: ٢٧)[3].]

إن كان كلمة الله صار حَملاً لأجلنا، فقد قيل عنه بلسان القدِّيس يوحنا المعمدان: "هوذا حمل الله الذي يرفع خطيَّة العالم" (يو ١: ٢٩)، ووصفه القدِّيس يوحنا اللاهوتي: "لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم، ويقتادهم إلى ينابيع ماء حيَّة، ويمسح الله كل دمعة من عيونهم" (رؤ ٧: ١٧)، فلا عجب أن يجعل من كنيسته قطيعًا صغيرًا يُسر الآب أن يعطيهم الملكوت (لو ١٢: ٣٢). فإن كان حَمَل الله أقامنا حِملان لنحمل سماته فينا، فإنه هو مرسل الحِملان، والآب يُسر أن يهبهم ملكوته الأبدي.

رابعًا: "**لا تحملوا كيسًا ولا مزودًا ولا أحذية**" [٤]. سبق فقدَّم مثْل هذه الوصيَّة للاثنى عشر تلميذًا، وقد قدَّمنا لبعض الآباء تعليقات عليها (لو ٩: ٣؛ مت ١٠: ٩؛ مر ٦: ٨)، موضِّحًا أنها لا تحمل حرمانًا، إذ قدَّم نفسه مصدر شبع لهم قبل أن يسألهم التخلِّي عن هذه الأمور الزمنيَّة، نضيف إليها التعليقات التالية:

يقول **القدِّيس أمبروسيوس**: [لكي نتجنَّب الذئاب يوصينا الرب: لا تحملوا مزودًا ولا أحذية، ويعني بالمزود ألا نحمل فضَّة ولا مالاً (مت ١٠: ٩). إن كان الرب يمنعك عن حمل الذهب فماذا يكون إن كنت تسلبه وتسرقه؟ إن كان قد أوصاك أن تُعطي مالك، فكيف تُكدِّس ما هو ليس لك؟ أنت الذي تكرز ألا يُسرق أتسرق؟ الذي تقول أن لا يزني أتزني؟ الذي تستكره الأوثان أتسرق الهياكل؟ الذي

---

[1] *Ser. On N.T. 51:14.*
[2] *In Matt. Hom 33:3.*
[3] *In Luc 10:1-24.*

تفتخر بالناموس أبِتعدِّي الناموس تهين الله؟ لأن اسم الله يُجدَّف عليه بسببكم (رو ٢: ٢١-٢٤). كان الرسول بطرس أول من نفَّذ وصيَّة الرب موضحًا أن وصيَّة الرب لم تُعط باطلاً، فعندما طلب منه الفقير صدقة، قال: "ليس لي فضَّة أو ذهب" (أع ٣: ٦)؛ أنه يفتخر بأنه ليس له فضة أو ذهب، وأنت تخجل لأنك لا تملك ما تشتهيه ؟... كأنه يقول للفقير: أنك تراني تلميذًا للرب وتطلب منِّي ذهبًا، لقد وهبني أشياء أخرى أثْمَن من الذهب إيَّاك أُعطي: "باِسم يسوع الناصري قم وامش[1]".]

يكمل القدِّيس حديثه: [لا كيسًا ولا مزودًا"؛ عادة يُصنع الاثنان من جلد الحيوانات الميِّتة، والرب يسوع لا يريد لنا شيئًا ميِّتًا، لهذا يقول لموسى: "اِخلع نعْليْك لأن الموضع الذي أنت فيه مقدَّس" (خر ٣: ٥)، أمَرَه أن يخلع عنه نعليّ الموت والأمور الأرضيَّة في اللحظة التي أرسله فيها ليُنقذ الشعب. فالخادم الذي وضع على عاتقه هذا العمل ينبغي ألاَّ يخشى شيئًا (الموت أو الأرضيَّات)، فلا يتراجع عن رسالته التي استلمها خوفًا من الموت... فقد سبق فهرب موسى من رسالته خوفًا من الموت وهرب إلى أرض مِديان، وقد عرف الرب نيَّته، ورأى ضعفه، لذا رأى أن يحرِّر روحه ونفسه من الارتباطات المائتة.]

يقول **القدِّيس أغسطينوس**: [ماذا يعني: لا تحملوا كيسًا؟ أي لا تكونوا حكماء بذواتكم بل اقبلوا الروح القدس، فيكون فيكم ينبوعًا لا كيسًا، منه تُنفقون على الآخرين دون أن ينضب، وهكذا أيضًا بالنسبة للمزود[2].] [ما هي الأحذية؟ نستخدم الأحذية من جلد الحيوانات الميِّتة فتغطِّي أقدامنا. لهذا يأمرنا أن نجحد الأعمال الميِّتة. هذا هو ما أوُصى به موسى كما في رمز، عندما تحدَّث مع الرب: "**اخلع حذاءك من رجليْك، لأن الموضع الذي أنت واقف عليه أرض مقدَّسة**" (خر ٣: ٥). ما هو الموضع المقدَّس مثل كنيسة الله؟! لنقف فيها، لنخلع أحذيتنا، لنمجِّد أعمالنا الميِّتة[3].]

يرى **العلامة أوريجينوس** أن خلع الأحذية يُشير إلى ترك الجلود الميِّتة التي منها تصنع الأحذية والطبول، فلا نطلب الأمور الميِّتة ولا نهتم بالمظاهر الخارجيَّة كالطبول التي تعطي صوتًا عاليًا بلا عمل.

ويرى **القدِّيس إكليمنضس السكندري** أن الأحذية هنا تُشير إلى الارتباك بكثرة الخيل والعبيد الحاملين لمَتاع الغني في رحلاته المستمرَّة، وكأنها في عينيه أشبه بأحذية تحمل جسده وممتلكاته[4].

[1] *In Luc 10: 1-24.*
[2] *Ser. on N.T. 51:6.*
[3] *Ser. on N.T. 51:7.*
[4] *Instr. 3:7.*

خامسًا: "**ولا تسلِّموا على أحد في الطريق**" [٤]. يقصد بذلك ألا يرتبك الكارز بالمجاملات الكثيرة التي بلا هدف روحي.

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [لا يؤخذ هذا بالمعنى الجسدي؛ وبذلك فهو لا يقصد كيسًا ولا أحذية ولا مزودًا، وفوق هذا كله لو أننا مارسنا ببساطة في غير فحص ألا نقول لأحد سلام في الطريق نسقط في الكبرياء[1].] [يمكننا ببساطة أن نفهم ذلك بمعنى أن نتمِّم ما أَمَرَنا به بسرعة... وكأنه يقول: "اترك كل الأمور الأخرى حتى تتمِّم ما قد أُمِرت به[2]".]

ويرى **القدِّيس أغسطينوس** أن كلمة "التحيَّة *Salutation*" مشتقَّة من كلمة الخلاص "*Salvation*"، كأنه يليق بنا ألا نقدَّم الخلاص في الطريق، أي بطريقة عشوائيَّة، إنما نقدِّمه خلال أعمال المحبَّة[3].

يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على هذه الوصيَّة بأن السيِّد لم يمنعنا من تحيَّة السلام، إنما من تقديمها في الطريق، بمعنى ألا تكون معطَّلة للعمل، وذلك كما أمر إليشع النبي خادمه (٢ مل ٤: ٢٩) لكي يُسرع ويتمِّم الأمر، [المراد بهذا الأمر لا منع السلام بل إزالة العقبات. السلام عادة جميلة، لكن إتمام الأعمال الإلهيَّة أجمل، وهي تستلزم السرعة، تأخيرها غالبًا ما يجلب عدم الرضا.]

سادسًا: "**عدم الانتقال من بيت إلى بيت**" [٥-٧]، فقد أراد أن ينزع عنهم مظاهر الكتبة والفرِّيسيِّين في ذلك الحين حيث كانوا يقضون جل وقتهم في الولائم لتكريمهم، ومن جانب آخر أراد لهم أن يشعروا في البيت الذي يقيمون فيه أنهم أعضاء في ذات الأسرة. (راجع تفسير لو ٩: ٤).

سابعًا: بقيَّة الحديث سبق لنا تفسيره... يمكن الرجوع إليه، فمن جهة نفض الغبار الذي لصق بأرجلهم بالنسبة لرافضيهم يشير إلى رفض كل ما التصق بهم منهم كترابٍ لا يستحق إلا نفضِه تحت الأقدام (راجع تفسير مر ٦: ١١). وأيضًا من جهة سدوم، فإنها لن تُعاقب بذات العقاب المُر الذي يسقط تحته كورزين وبيت صيدا.. لأن الغرباء لا يعاقبون مثل المقرَّبين، والذين يعرفون أقل تكون دينونتهم أقل.

يُعلِّق **القدِّيس أغسطينوس** على كلمات السيِّد هنا: "**الذي يسمع منكم يسمع منِّي، والذي يرذُلكم يُرذِلني، والذي يُرذلُني يُرذل الذي أرسلني**" [١٦]، قائلاً: [جاء (السيِّد) في أشخاص تلاميذه، فيتكلَّم

[1] *Ser. On N.T. 51:5.*
[2] *Ser. on N.T. 51:8.*
[3] *Ser. on N.T. 51:9.*

معنا بواسطتهم. أنه حاضر فيهم. بواسطة كنيسته يأتي، وبواسطتها يتحدَّث مع الأمم. في هذا نشير إلى الكلمات التي نطق بها: "من يقبلكم يقبلُني" (مت ١٠: ٤٠)... ويقول الرسول بولس: "برهان المسيح المتكلِّم فيّ" (٢ كو ١٣: ٣) [1].]

ثامنًا: "فرجع السبعون بفرح قائلين: يا رب حتى الشيَّاطين تخضع لنا باسمك.

فقال لهم: رأيت الشيطان ساقطًا مثل البرق من السماء.

ها أنا أُعطيكم سلطانًا لتدوسوا الحيَّات والعقارب وكل قوَّة العدُو ولا يضرُّكم شيء.

ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم،

بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كتبت في السماوات" [١٧-٢٠].

فرح الرسل إذ رأوا الشيطان ينهار أمام الإنسان خلال الكرازة بالملكوت، وقد أكَّد السيِّد المسيح اِنهيار الشيطان الذي صار بالصليب ساقطًا من السماء كالبرق، كما أكَّد سلطان الإنسان بالصليب. لكن ما يفرحنا ليس اِنهيار العدو ولا القدرة على صنع المعجزات بل تمتُّعنا بالملكوت السماوي خلال الحياة الفاضلة التي ننالها بنعمة الله. وكما يقول **القدِّيس أنطونيوس:** إننا نفرح بكتابة أسمائنا في ملكوت السماوات إشارة إلى الحياة الفاضلة (في الرب)، أما إخراج الشيَّاطين فهي موهبة من الرب يمكن أن يتمتَّع بها إنسان منحرف فيهلك.

- ❖ الآن يا أحبائي قد ذبح الشيطان، ذاك الطاغية الذي هو ضد العالم كله... لا يعود يملك الموت بل تتسلَّط الحياة عوض الموت، إذ يقول الرب: "أنا هو الحياة" (يو ١٤: ٦)، حتى امتلأ كل شيء بالفرح والسعادة، كما هو مكتوب: "الرب قد ملك فلتفرح الأرض"... الآن إذ بطل الموت، وتهدَّمت مملكة الشيطان، امتلأ الكل فرحًا وسعادة!

القدِّيس أثناسيوس الرسولي

- ❖ نال الشيطان سلطانًا على الإنسان خلال الارتداد، هذا السلطان يُفقد برجوع الإنسان مرَّة أخرى إلى الله.

- ❖ خلال الآلام صعد الرب إلى العُلى وسبى سبيًا، وأعطى الناس عطايا (مز ٦٨: ١٨؛ أف ٤: ٨)، ووهب الذين يؤمنون به سلطانًا أن يدوسوا على الحيَّات والعقارب وكل قوَّة العدو، أي سلطان على

[1] *In Ioan tr 89:2.*

قائد الارتداد[1].

القدِّيس إيريناؤس

❖ أيّ انحطاط أكثر من الشيطان الذي انتفخ؟ وأيّ علو للإنسان الذي يريد أن يتواضع؟ صار الأول يزحف على الأرض تحت أقدامنا، وارتفع الثاني مع الملائكة في العُلى[2].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ [يُعلِّق على ضرورة فرحنا كأعضاء في ملكوت السماوات، أو أعضاء في الجسد، وليس لأنه قد صار لنا السلطان على العدو.]

خير لك أن تكون إصبعًا في الجسد عن أن تكون عينًا خارج الجسد![3]

القدِّيس أغسطينوس

❖ مجيئه (المسيح) قد سكب على البشريَّة عطيَّة عظمى للنعمة الأبويَّة[4].

القدِّيس ايريناؤس

❖ لما كان من الضروري تحطيم رؤوس التنِّين نزل السيِّد في المياه وربط القوي (مت ١٢: ٢٩)، لكي يولينا سلطانًا ندوس به على الحيَّات والعقارب (لو ١٠: ١٩).

إنه ليس وحشًا صغيرًا، فمنظره كافٍ لإثارة الرعب، ولا يستطيع أي قارب صيد أن يقاوم ضربة واحدة من ذيله، وأمامه يعدو الهول، وهو يسحق كل الذين يقتربون منه (أي ٤١: ١٣).

لقد أقبلت الحياة لتُكَمِّم الموت، حتى نستطيع نحن المخلَّصون جميعًا أن نقول: "**أين شوكَتَك يا موت؟ وأين ظفْرك يا جحيم؟**" (١ كو ١٥: ٥٥)، فبالعماد سُحِقت شوكة الموت[5].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ [تحذير السيِّد المسيح من فرح التلاميذ بسلطانهم على الشيطان وعمل الآيات وتوجيههم للفرح بالتمتُّع بملكوت السماوات.]

---

[1] *Adv. Haer 5:24:2:20:3.*
[2] *In Matt. Hom. 56:6.*
[3] *In Ioan Tr. 13:17.*
[4] *Adv. Haer 7:36:4.*
[5] *Myst. 3:11.*

يحذِّرهم ذلك الذي وهبهم بنفسه هذا السلطان لصُنع المعجزات والأعمال العجيبة لئلاَّ ينتفخوا... لا نطلب أن تخضع لنا الشيَّاطين بل بالحري أن نَملك ملامح الحب التي يصفها الرسول...

❖ لا يتحقَّق هذا بقوَّتهم وإنما بقوَّة الاسم الذي يستخدمونه، لهذا حذَّرهم من أن ينسبوا لأنفسهم أي تطويبٍ أو مجدٍ من هذه الجهة، إذ يتحقَّق هذا بسلطان الله وقدرته، أما النقاوة الداخليَّة التي تخص حياتهم وقلوبهم، فبسببها تُكتب أسمائهم في السماء[١].

الأب نسطوريوس

٢. تهلَّل السيِّد المسيح بالروح

في النص المشابه للنص الذي بين أيدينا (مت ١١: ٢٥-٣٠) رأينا السيِّد المسيح وهو يشتاق أن يقدِّم المعرفة الحقيقية لكل نفس، لا يتمتَّع بهذه المعرفة السماويَّة إلا البسطاء كالأطفال خلال ربَّنا يسوع المسيح الابن الوحيد الجنس البسيط. إنه يوَد ألاَّ يُحرم أحدًا من المعرفة، لكن الذين حسبوا في أنفسهم أنهم غنوسِيُّون (أصحاب معرِفة) وحكماء لا يستطيعوا اللقاء معه للتعرف على الأسرار الإلهيَّة.

❖ أخيرًا يكشف ابن الله السرّ السماوي، معلنًا نعمته للأطفال وليس لحكماء هذا الدهر (مت ١١: ٢٥). يذكر الرسول بولس ذلك بالتفصيل: "لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يُعرف الله بالحكمة استحسن الله أن يُخلِّص المؤمنين بجهالة الكرازة" (١ كو ١: ٢١).

من يعرف أن ينتفخ أو يعطي كلماته رنين الحكمة فهو حكيم (هذا الدهر)، أما الطفل فيقول: "يا رب لم يرتفع قلبي، ولم تستَعْلِ عيناي، ولم أنظر في العجائب والعظائم التي هي أعلى مني" (مز ١٣١: ١)، هذا يظهر صغيرًا لا في السن ولا في الفكر وإنما بِتواضعه، خلال ابتعاده عن المديح، لذا يضيف: "لكن رفعتُ عينيَّ مثل الفطيم من اللبن من أُمِّه". تأمَّل عظمة مثل هذا الإنسان في كلمات الرسول: "إن كان أحد يظن أنه حكيم بينكم في هذا الدهر فلْيصر جاهلاً لكي يصير حكيمًا، لأن حكمة هذا العالم هي جهالة عند الله" (١ كو ٣: ١٨-١٩)[٢].

القدِّيس أمبروسيوس

---

[1] *Cassian : Conf 15:6,7,9*

[2] *In Luc. 10.*

"كل شيء قد دُفع إليَّ من أبي،

وليس أحد يعرف من هو الابن إلا الآب،

ولا من هو الآب إلا الابن، ومن أراد أن يُعلِن له" [٢٢].

❖ يتحدَّث هنا عن نوع معين من المعرفة (معرفة خلال وحدة الجوهر) لا يملكه آخر[١].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يقل "يعلن" بخصوص الإعلان في المستقبل فقط، إنما بدأ الابن يعلن عن الآب عندما وُلد من مريم، وأُعلن عنه بطرق متنوِّعة عبر الزمن. الابن حاضر... يعلن عن الآب للكل، لمن يريد، وحينما يريد الآب[٢].

القدِّيس إيريناؤس

❖ لم يتعلَّم بولس الإيمان بالكلمات فحسب (معرفة كلاميَّة) وإنما تمتَّع بغنى الروح، حتى ينير الإعلان كل نفسه ويتكلَّم المسيح فيه[٣].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ صارت الأذهان الجديدة حكيمة بحكمة جديدة، جاءت هذه الأذهان إلى الوجود خلال العهد الجديد حيث نزعت الغباوة القديمة[٤].

القدِّيس إكليمنضس السكندري

من هذا نُدرك أن الحكمة الجديدة التي من أجلها تهلَّل يسوع توهب لنا في المسيح يسوع بخلع إنساننا القديم، وتمتُّعنا بالإنسان الجديد الذي على صورة خالقنا، صورة المسيح. خلال هذا الإنسان الجديد، أي اتحادنا مع الله في المسيح يسوع، نصير أولاد الله أو أطفاله نتعرَّف على أسراره الإلهيَّة. لهذا السبب يُعلِّق **القدِّيس إكليمنضس السكندري** على تمتُّع الأطفال بالحكمة بقوله: [بالحق هل نحن أطفال الله، تركنا الإنسان القديم، وخلعنا ثوب الشر، ولبسنا خلود المسيح، فنصير شعبًا جديدًا مقدَّسًا خلال الميلاد الجديد، ونحفظ إنساننا غير دنس، وكأطفال لله نغتسل من الزنا[٥]؟]

---

[1] *In Ioan hom. 60:1.*
[2] *Adv. Hear. 4:6:7.*
[3] *In Gal. hom1:16.*
[4] *Instr. 1:5.*
[5] *Instr. 1:6.*

إذن لنكن أطفالاً حقيقيِّين، بخلع لباس الشرّ والسلوك كأبناء الله، فيكشف لنا الرب أسراره، ويتهلَّل من أجل الحكمة التي يهبنا إياها.

٣. مثَل السامري الصالح

إن كان الله في حبِّه يشتاق إلى كل نفسٍ، فقد رأينا ربَّنا يسوع المسيح يتهلَّل بالروح من أجل تمتَّع البسطاء بنعمة المعرفة الروحيَّة، ولئلا يظن اليهود أن هذه النعمة حِكْر على بني جنسهم، قدَّم لنا السيِّد مثل "السامري الصالح" ليُعلن مفهوم الأُخوَّة العامة أو الجامعة بالنسبة للإنسان طيب القلب، فكم بالحري يليق بالله أن يحب كل البشريَّة التي هي من صنع يديه، دون تمييز بين جنس أو لغة.

"**وإذا ناموسي قام يجُرِّبه، قائلاً:**

يا معلِّم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديَّة؟

فقال له: ما هو مكتوب في الناموس، كيف تقرأ؟

فأجاب وقال:

تحب الرب إلهك من كل قلبك، ومن كل نفسك، ومن كل قدرتك، ومن كل فكرك،

وقريبك مثل نفسك.

فقال له: بالصواب أجبت، افعل هذا فتحيا.

وأما هو فإذا أراد أن يبرِّر نفسه،

قال ليسوع: ومن هو قريبي؟" [٢٥-٢٩]

بلا شك مثل السامري الصالح هو أحد المعالم الهامة في إنجيل معلِّمنا لوقا البشير، لِما حواه من مفاهيم روحيَّة ولاهوتيَّة عميقة، لكن معلِّمنا لوقا لم يرد أن يورده إلا من خلال الظروف التي أحاطت بالنطق به، إذ تزيد الظروف من المثل بهاءً، وتكسبه جمالاً أعظم، فإننا لا نقدر أن ندرك قيمة النور ما لم نتحسَّس الظلام، ولا يعرف قيمة الصحَّة إلاَّ الذي ذاق المرض. يمكننا أن نُلخص ملابسات هذا المثَل في النقاط التالية:

أولاً: يقول الإنجيلي "**وإذا ناموسي قام يجُرِّبه**"؛ لعل الناموسي قد حسد السيِّد لِما رآه فيه كصاحب سلطان في أعماله وفي كلماته، الأمر الذي بهر الشعب، فالتفوا حوله، مع أنه لم يتخرج في مدرسة المدارش التقليديَّة، وقد اقتحم صفوف المعلمين دون استئذان وفاقهم، بل وصار يمثِّل خطرًا عليهم بتعاليمه الروحيَّة ومفاهيمه الفائقة. والعجيب أن هذا الناموسي، وهو معلِّم في الشريعة أو الناموس اليهودي في أدب اجتماعي "قام" يسأل السيِّد، أما في قلبه فقد أراد أن "يجُرِّبه"، وقد ورد هذا التعبير

عن إبليس (لو ٤: ٢٢)... حمل الناموسي صورة التقوَّى وقلب إبليس في داخله! لكن السيِّد يخرج من الآكل أُكلاً ومن الجافي حلاوة.

ثانيًا: جاء سؤال الناموسي: "**يا معلِّم ماذا أعمل لأرث الحياة الأبديَّة؟**" [٢٥] يكشف في أعماقه ما أصاب الأُمَّة اليهوديَّة، فمع ما لديهم من الكتب المقدَّسة التي تضم الناموس والنبوَّات لكن المعلِّمين أنفسهم يشعرون بالعجز العملي عن بلوغ الراحة الداخليَّة، أو التمتُّع بالحياة، لهذا لم يقل: "ماذا أتعلَّم؟" أو بماذا أُعلِّم الآخرين؟ إنما قال: "ماذا أعمل؟" يمارس اليهود الكثير من الطقوس والعبادات بما فيها من ذبائح وتقدِّمات وصلوات، لكن بسبب العطش بقيَ السؤال: "ماذا أعمل؟" هكذا لن يتمتَّع أحد بالشبع ما لم يقبل السيِّد المسيح نفسه بكونه "الحياة الأبديَّة". هو سرّ الشبع!

لعل الناموسي بسؤاله أراد أن يُسقط السيِّد في فخْ، إذ حسبه أنه سيقدِّم وصايا جديدة مستهينًا بالشريعة الموسويَّة والوصايا العشر، فيتَّهمه بالاستهانة بالشريعة، أو بكسر الناموس.

ثالثًا: لم يعطِ السيِّد المسيح للناموسي فرصة ليتَّهمه ككاسر الناموس، إذ سأله عمَّا جاء في الناموس، مشدِّدًا على الوصايا، معطيًا إيَّاها مفهومًا جديدًا عميقًا. يعرف السيِّد المسيح أن الناموسي قد جاء ليجُرِّبه، ومع هذا لم يصدُّه، بل في رقَّة يمتدحه قائلاً: "بالصواب أجبت". فإنه لا يرُد الشرّ بالشرّ بل يغلبه بالخير، مستخدمًا اللطف لكي يكسبه.

رابعًا: قدَّم لنا آباء الكنيسة الكثير من التفاسير لهذا المثَل "السامري الصالح"، فمن الجانب السلوكي أراد الرب إبراز التزامنا باتِّساع القلب، لنقبل البشريَّة بكل أجناسها كأقرباء، وكما يقول **القدِّيس جيروم:** [نحن أقرباء، كل البشر أقرباء لبعضهم البعض، إذ لنا أب واحد[1].] ويرى **العلامة أوريجينوس** أن القرابة لا تقف عند حدود الدم ولا عند العمل، وإنما تقوم على تنفيذ وصيَّة الحب والرحمة، إذ يقول: [يعلَم يسوع أن هذا الرجل الذي نزل من أورشليم لم يكن قريبًا إلا للذي يريد أن يحفظ الوصايا، والمستعد أن يقدِّم المساعدة. لخَّص هذا بقوله: "**فأي هؤلاء الثلاثة تُرى صار قريبًا للذي وقع بين اللصوص؟**" [٣٦] فلا الكاهن ولا اللاوي كان قريبًا له، وإنما بحسب إجابة الناموسي نفسه: "**الذي صنع معه الرحمة**" هو قريبه. "**فقال له يسوع:** "**اذهب أنت أيضًا واصنع هكذا**" [٣٧][2].] ويقول القدِّيس **ساويرس الأنطاكي:** [كثيرًا ما تظن عن جهلٍ أن الذي يشترك معك في ديانتك أو

---

[1] *On Ps. Hom 5.*
[2] *In Luc hom 34:2 .*

جنسيَّتك هو قريبك، أما أنا فأقول إن الذي يشترك في نفس الطبيعة البشريَّة هو قريبك، وكما رأيت الذي كان يرفع رأسه معتزًا بالملابس الكهنوتيَّة والذي كان يفتخر بتسميته لاويًا... لم يفكِّر أن ذاك الذي من بني جنسهما وهو عريان وقد تغطَّى بجراحات لا شفاء لها ومُلقى على الأرض، وقد أوشك أن يموت في لحظة، كان إنسانًا! لكنهما احتقروه كحجرٍ أو قطعةٍ من الخشب المرذول. أما السامري الذي لم يكن يعرف وصايا الناموس، والذي اشتهر بينهم (اليهود) بالغباء والجهل، إذ يقول الحكيم: "الجالسون في جبال السامرة والفلسطينيُّون والشعب الجاهل الساكن في سخيم" (حكمة يشوع ٥٠: ٢٨). هذا السامري عرف الطبيعة البشريَّة وفهم من هو القريب. من كان في نظركم أيها القضاة بعيدًا جدًا قد صار قريبًا جدًا لذاك الذي احتاج إلى علاج. فلا تُقصِر تعريف القريب عند الفكر اليهودي الضعيف الذي يقف عند مقاييس ضيِّقة خاصة بالجنس... إنما كل شخص نبسط عليه روح المحبَّة هو القريب[1].]

وفي حديث **القدِّيس أمبروسيوس** عن "التوبة" يرد على أتباع نوفاتيوس الذين رفضوا قبول الراجعين بعد إنكارهم الإيمان، يقول: [السامري الصالح لم يعبُر تاركًا الإنسان الذي ألقاه اللصوص بين حيّ وميِّت، بل ضمَّد جراحاته بزيت وخمر. صبَّ عليه أولاً زيتًا لتلطيف آلامه، وأتكأه على صدره، أي اِحتمل كل خطاياه، هكذا لم يحتقر يسوع الراعي خروفه الضال... لقد جعلت من نفسك إنسانًا غريبًا عنه بكبريائك، إذ اِنتفخت عليه باطلاً من قِبل ذهنك الجسدي وعدم تمسكك بالمسيح الرأس (كو ٢: ١٨-١٩). لأنك لو كنت قد تمسَّكت بالرأس لما كنتَ تترك ذاك الذي مات المسيح عنه. لو كنت قد تمسَّكت بالرأس لاِهتممت بالجسد كله، واهتممت بالارتباط بين الأعضاء بدون انقسام، ناميًا بالله (كو ٢: ١٩) برباط المحبَّة وخلاص الخطاة. إنك عندما ترفض قبول التوبة، إنما بذلك تقول: لن يدخل في فندقنا جريح، ولا يُشفى أحد في كنيستنا. أننا لا نهتم بالمرضى، فنحن كلنا أصحَّاء، ولسنا في حاجة إلى طبيب، لأنه هو نفسه قال: لا يحتاج الأصحَّاء إلى طبيب بل المرضى[2].]

هذا عن التفسير السلوكي، أما بالنسبة للتفسير الروحي والرمزي فقد أفاض فيه الآباء، لذلك رأيت تقديمه مختصرًا ما استطعت.

---

[1] قام *Maurice Briere* بترجمة عظات القديس ساويروس الأنطاكي عن السريانية إلى الفرنسية وقد قام المتنيح الشماس يوسف حبيب مع الأستاذ مليكة حبيب بترجمة بعضها إلى العربية ونشرها.

[2] *On Repen. 1.*

"**فأجاب يسوع وقال:**
إنسان كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا،
فوقع بين لصوص، فعرُّوه وجرحوه،
ومضوا وتركوه بين حيّ وميِّت" [٣٠].

أ. **إنسان:** يقول **القدِّيس ساويرس:** [لم يقل مخلِّصنا "أناس كانوا نازلين، بل قال "إنسان كان نازلاً". إن المسألة تخص البشريَّة جمعاء، فبالحقيقة بسبب تعدي آدم للوصيَّة سقطت من مسكن الفردوس العالي المرتفع الهادئ، الذي دُعي بحق "أورشليم"، ومعناها "سلام الله"، إلى أريحا التي هي مدينة في وادٍ منخفضٍ يخنقه الحر.] فقصَّة الساقط بين اللصوص هي قصَّة كل نفس بشريَّة انحدرت من الفردوس خلال آدم الأول، فقد سلام الله ورؤيته، إذ يقال أن "أورشليم" أيضًا تعني "رؤية السلام".

ب. **كان نازلاً من أورشليم إلى أريحا:** يقول **العلامة أوريجينوس:** [حسب تفسير أحد السابقين: الإنسان النازل يمثِّل آدم، وأورشليم تمثِّل الفردوس، وأريحا هي العالم، واللصوص هو القوَّة العدوانيَّة، الكاهن هو الناموس، واللاوي هو الأنبياء، والسامري هو المسيح، الجراحات هي العصيان، والدابة هي جسد المسيح، والفندق المفتوح لكل من يريد الدخول فيه هو الكنيسة، والديناران يمثِّلان الآب والابن، وصاحب الفندق هو رئيس الكنيسة الذي يدبِّرها، ووعد السامري بالعودة هو تصوُّر لمجيء المسيح الثاني[1].]

هذه الرموز التي قدَّمها **العلامة أوريجينوس** في القرن الثاني معلنًا أنه قد استقاها عن أحد القدامى، ربَّما معلِّمه الروحي **القدِّيس إكليمنضس السكندري** أو سابقه **القدِّيس بنتينوس،** يكشف لنا عن إدراك الكنيسة الأولى للمثل بوجه عام وعن مفهوم أورشليم والتي نزلنا منها متَّجهين نحو أريحا.

تلقَّف **القدِّيس أمبروسيوس** هذا التفسير ليحدِّثنا في شيء من الإفاضة عن أريحا التي نزلت إليها البشريَّة منحدرة من أورشليم، أي من الفردوس، متَّجهة نحو "العالم"، فإن أريحا هي العالم، فهي مدينة كانت محاطة بأسوار وحواجز لم يَخلُص منها إلا الذين احتضنتهم راحاب الزانيَّة التي قبلت الجاسوسين بالإيمان وخبَّأتهما على سطح منزلها بين عيدان الكتان.

ج. **فوقع بين لصوص:** هؤلاء اللصوص يمثِّلون إبليس بجيشه من ملائكة أشرار، أو بإغراءاته إذ

---

[1] *In Luc. Hom 34:3.*

يترقَّب النفس التي تخرج من أسوار أورشليم ولو بالفكر إلى لحظات، لكي يقتنصها لحسابه، مهاجمًا إيَّاها بملائكته الأشرار، وناصبًا لها كل أنواع الفخاخ المناسبة لتحطيمها.

❖ الإنسان الذي ينزل من أورشليم إلى أريحا يقع في أيدي اللصوص، لأنه بإرادته قد نزل... يقول المخلِّص: "**جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص**" (يو ١٠: ٨)...
ما هي هذه الجروح التي أصابت الإنسان؟ أنها رذائل الخطيَّة[1].

العلامة أوريجينوس

❖ سبْي طبيعة الإنسان لم يكن بتغيير المكان، وإنما بتغيير السلوك، فما انحدر إلى خطايا العالم حتى قابله اللصوص، وإذ اِنحرف عن الوصايا السماويَّة تعرَّض للقاء معهم.

اللصوص هم ملائكة الليل والظلمة الذين يغيِّرون شكلهم أحيانًا إلى ملائكة نور (٢ كو ١١: ١٤)، ولكن لا يقدرون أن يبقوا هكذا ثابتين (كملائكة نور)، بل يبدأون في تجريدنا من ثياب النعمة الروحيَّة التي نلناها، وهكذا يصيبوننا بجراحات. لأننا إن حفظنا الثوب الذي نلناه بلا دنس لا يمكننا أن نشعر بضربات اللصوص.

احذر لئلا تُجرَّد من ثوب الإيمان، فإن هذا قد كان الضربة القاضية العنيفة التي كان يمكن أن تُهلك الجنس البشري كله لولا نزول "السامري" لشفاء الجراحات القاسية.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ يعلِّمنا أن حياة الأهواء في هذا العالم تفصل (البشرية) عن الله، وتسحبها إلى أسفل، وتسبب لها اختناقًا بحرارة الشهوات المُخزية، وتنتج قلقًا وتدني بها إلى الموت.

إذ سقطت البشريَّة هكذا، وانقلبت انجذبت إلى أسفل، انقادت رُويدًا رُويدًا إلى هِوَّة السقوط، هاجمها جمع من الشيَّاطين، فجرَّدها من ثياب الكمال على نحو ما تفعل عصابة من اللصوص، ولم يتركوا لها بقيَّة من قوَّة أو مسحة من الطهارة أو البر أو الحكمة أو أي شيء ممَّا يمثِّل الصورة الإلهيَّة، وهكذا وئدت بجراح الخطايا المختلفة المتكرِّرة، وبالجملة قاتل الشيَّاطين البشريَّة وتركوها بين حيَّة وميِّتة.

هذا بالحقيقة يبيِّن جيِّدًا ما اختصَّ به هذا المثَل من عُمق تدركه بالتأمَّل، لأن من عادة اللصوص

[1] *In Luc. Hom 34:4.*

والسُرَّاق أن يُحدِثوا أولاً الإصابات والجروح، حتى يجَرِّدوا الجريح بعد ذلك من ملابسه، ليس هناك في أغلب الأحيان ما يدعوهم إلى إحداث إصابة بعد ذلك. ولكن الشيَّاطين، وهم بمثابة اللصوص لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، ما لم يرفعوا عنه ثياب الفضائل أولاً، وبعد ذلك يجرحونه بدون شفقة حتى الموت، لأنهم لا يريدون منَّا ملابسنا، بل ما يريدونه بالحقيقة هو خسارتنا وموْتنا، لذلك قال ربَّنا بحكمة: "فعرُّوه وجرحوه".

القدِّيس ساويرس الأنطاكي

د. الكاهن واللاوي والسامري: إن كان الكاهن يمثِّل الشريعة واللاوي يمثِّل النبوَّات، فإنه لم يكن ممكنًا للناموس أو الشريعة أو النبوَّات أن تضمد جراحاتنا الخفيَّة، وتردِّنا إلى طبيعتنا التي خلقنا الله عليها، لكن "السامري الصالح" الذي يمثِّل السيِّد المسيح وحده ينزل إلينا، ويحملنا في جسده، مباركًا طبيعتنا فيه، مقدِّما لنا كل شفاءٍ حقيقيٍ يمس تجديد حياتنا.

❖ الكاهن كما أظن هو الناموس، واللاوي أيضًا يمثِّل الأنبياء، الاثنان ينظران إلى الجريح ويتركانه هناك. تركت العناية الإلهيَّة هذا الرجل بين حيّ وميِّت ليكون تحت اهتمام من هو أقوى من الناموس والأنبياء. إنه "السامري" الذي اِسمه يعني "الحارس"، فإن حارس إسرائيل لا ينعس ولا ينام (مز ١٢١: ٤). لكي يساعد هذا الرجل الذي بين حي وميِّت نزل السامري إلى الطريق، لكنه لم ينزل من أورشليم إلى أريحا مثل الكاهن واللاوي، إنما نزل إليه يقصد خلاص هذا المنازع والسهر عليه. فاليهود قالوا له: "إنك سامري وبك شيطان" (يو ٨: ٤٨)، وإذ أكَّد لهم أنه ليس به شيطان لم يرد يسوع أن ينكر أنه السامري إذ هو الحارس[1].

العلامة أوريجينوس

❖ لم يكن السامري هو أول من جاء، فالذي احتقره الكاهن واللاوي لم يحتقره السامري بدوره. لا تحتقره من أجل جنسه. فإنك إن عرفت تفسير اِسمه تعجب به، فإن اِسمه يعني "حارسًا". هذا الحارس قيل عنه: "الرب يحفظ الصغار" (مز ١١٦: ٦)... تُرى من نزل من السماء إلا الذي صعد إلى السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء (يو ٣: ١٣)؟ هذا الذي رأى الإنسان بين حيّ وميِّت، لم يستطع أحد أشقَّائه أن يشفيه... فاقترب منه بقبوله الآلام معنا واقترابه منَّا وسكب

---

[1] *In Luc. Hom 34:5.*

رحمته علينا، فصار قريبنا.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ عندما كانت البشريَّة ملقاة على الأرض، وما هي إلا لحظات لتفقد الوعي وتنتهي، رآها الناموسي المعُطَى بواسطة موسى. هذا في الواقع ما تشير إليه بعد ذلك بالكاهن واللاّوي أيضًا، لأن الناموسي هو طبيب الكهنوت اللاوي. رآها لكن كان ينقصه النشاط والقوَّة، فلم يستطع أن يجلب لها الشفاء الكامل، ولم يقم البشريَّة التي كانت ملقاة على الأرض... يقول بولس الرسول: "الذي هو رمز للوقت الحاضر الذي فيه تقدَّم قرابين وذبائح لا يمكن من جهة الضمير أن تكمل الذي يخدم" (عب ٩: ٩). "وليس بدم تيوس وعجول، بل بدم نفسه دخل مرَّة واحدة إلى الأقداس فوجد فداءً أبديًا" (عب ٩: ١٢). لذلك لم يقل ربَّنا: "إن الكاهن واللاوي بعدما رأيا الرجل بين حيّ وميِّت ملقى على الأرض، "جازا عنه"، لكنه قال "**فعرض أن كاهنًا نزل في تلك الطريق فرآه وجاز مقابله. وكذلك لاوي أيضًا، إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله**" [٣١-٣٢].

كل منهما لم يتخطَّ الرجل فيتركه جانبًا دون أن يراه؛ بل وقف أمامه ورآه وفكر في شفائه ولمسه، ولما وجد أنه غير قادر على شفائه وقد غلبته خطورة جراحاته أي الأهواء، حينئذ رجع إلى الوراء راكضًا. وهذا هو ما تظهره عبارة: "**جاز مقابله**".

وأخيرًا يقول: "**ولكن سامريًا مسافرًا جاء إليه، ولما رآه تحنَّن. فتقدَّم وضمّد جراحاته، وصبّ عليها زيتًا وخمرًا وأركبه على دابَّته، وأتى به إلى فندق اعتنى به**" [٣٣-٣٤].

هنا يدعو المسيح نفسه بحق سامريًا وهو يخاطب ناموسيًا يفتخر في ذاته كثيرًا بالناموس؛ اهتم بأن يبين بقوله أنه ليس بالكاهن ولا اللاوي وعلى وجَّه العموم ليس الذين كانوا يعتقدون أنهم يسلكون حسب وصايا موسى عندهم القدرة. بل هو ذاته الذي أتى لكي يكمل إرادة الناموس مبيِّنًا بالوقائع ذاتها من هو القريب بالحقيقة، وما تنطوي عليه العبارة "تحب قريبك كنفسك" وهو الذي كان اليهود يقولون له شاتمين: "ألسنا نقول حسنًا إنك سامري وبك شيطان" (يو ٨: ٤٨)، وهو الذي كانوا يتَّهمونه كثيرًا بتعدِّي الناموس.

وبمعنى آخر لا يرى أحد في تسمية المسيح بالسامري ما هو غير جدير، ولو أنها تبدو بطريقة ما أنها تسمية غير مناسبة لجلاله القدُّوس.

القدِّيس ساويرس الأنطاكي

❖ صلِ من أجلي لكي أرى أورشليم مرَّة أخرى تاركًا بابل... فقد نسيت تحذير الإنجيل لي أن من

ينزل من أورشليم يسقط في الحال بين أيدي اللصوص، فيحطِّمونه ويجرحونه ويتركونه للموت. وبالرغم من أن الكاهن واللاوي قد يهملانني، لكن لا يزال يوجد السامري الصالح الذي لما قال له الناس: "إنك سامري وبك شيطان" (يو ٨: ٤٨) فنَّد قولهم الخاص بأن به شيطان لكنه لم يدافع عن القول بأنه سامري[١].

القدِّيس جيروم

❖ "سامري" معناه "حارس". فإنه يعرف أنه حارسنا، إذ "حارس إسرائيل لا ينعس ولا ينام " (مز ١٢١: ٤)، "وإن لم يحرس الرب المدينة فباطلاً يتعب الحراس" (مز ١٢٧: ١). حارسنا هو نفسه خالقنا[٢].

القدِّيس أغسطينوس

❖ ليته لا يخف إنسان ما من الهلاك، مهما كان سقوطه، فإن السامري الصالح الذي هو حارس النفوس، أقول أنه لن يجتازه، بل يحنو عليه ويشفيه.

القدِّيس أمبروسيوس

هـ. "وضمد جراحاته وصب زيتًا وخمرًا" [٣٤].

حينما ينهار إنسان تحت ثقل الخطيَّة وتُصاب نفسه بجراحات عميقة لا يحتاج إلى كلمات توبيخ جارحة بالرغم من مسئوليَّته عن هذه الجراحات، لكنه يحتاج من يضمِّد جراحاته أي يستر ضعفاته أمام الآخرين، ولا يكشفها للغير، كما يحتاج إلى الزيت لتلطيف حِدَّة الألم، لا إلى مواد تلهب الجراح، أما الخمر فربَّما يشير إلى التأديب، فيمتزج الزيت بالخمر، أي اللطف بالتأديب، والحنان بالحزم. وربَّما يشير الخمر إلى الفرح، فإن كانت النفس قد انكسرت بالخطيَّة، وفقدت سلامها وتحوَّلت حياة الإنسان إلى دموع، فإن طبيبنا يود أن يرد إلينا "بهجة خلاصنا" من جديد.

❖ لم يترك السامري الصالح المُلقى بين حيّ وميِّت، لأنه رأى فيه نسمات حياة، فترجَّى شفاءه.

أما يبدو لك الإنسان الساقط في الخطيَّة بين حيّ وميِّت ؟ يستطيع الإيمان أن يجد فيه نسمة حياة!

إن كان الساقط بين حيّ وميِّت صبّ عليه زيتًا وخمرًا، لا تصب خمرًا بلا زيت حتى تكون له

---

[1] *Ep. 45:6.*
[2] *In Ioan tr 43:2.*

راحة مع آلام التطهير. اِتْكئه على صدرك، قدِّمه لصاحب الفندق، واِدفع الدينارين لأجل شفائه وكن له قريبًا![1]

❖ لهذا الطبيب أدويته الكثيرة، فقد اعتاد أن يهب بها الشفاء... يضمِّد الجراحات بوصايا حازمة ويبعث الدفء عندما يغفر الخطايا. وينخس القلب كما تفعل الخمر، عندما يعلن دينونته. وأركبه على دابَّته؛ تأمَّل كيف يُصعدك (فيه) إذ حمل خطايانا وتألَّم لأجلنا (إش ٥٣: ٤). حمل الراعي أيضًا الخروف الضال على منكبيْه (لو ١٥: ٥).

القدِّيس أمبروسيوس

❖ كان أيضًا يسكب النبيذ، أي الكلمة التي تعلِّم، وتضمِّد القروح. وقد أعطانا فعلاً لنشرب نبيذ التوبة، كما يقول النبي في المزامير: "أريت شعبك عُسرًا، سقيتنا خمر الترنُّح" (مز ٦٠: ٣). ولم نكن بالحقيقة نستطيع تحمله صرفًا، لأن خطورة الجراح الخبيثة وحالتها التي لا شفاء منها كانت لا تتحمَّل مثل هذا اللذع، ولذلك خلطه بالزيت.

كان أيضًا يأكل مع العشَّارين والخطاة، وكان يقول للفرِّيسيِّين الذين كانوا ينحون باللائمة، يتَّهمونه وينتقدون: "فاذهبوا وتعلَّموا ما هو، إني أريد رحمة لا ذبيحة، لأني لم آت لأدعو أبرارًا بل خطاة إلى التوبة" (مت ٩: ١٣).

وقد حمل على دابَّته من كان موضوع مثل هذا الاهتمام والعناية.

القدِّيس ساويرس الأنطاكي

❖ يمكننا أن ندعو جسد المسيح كحيوانه، عليه أقام ذاك الذي جرحته اللصوص[2].

القدِّيس أغسطينوس

❖ النفس التي سقطت بين لصوص تُحمل على كتفيْ المسيح[3].

القدِّيس جيروم

و. وأتى به إلى فندق واعتنى به

---

[1] *On Repent. 1.*
[2] *Ser. On N.T. 69: 7.*
[3] *Ep. 77:12.*

❖ الفندق هو الكنيسة التي تستقبل جميع الناس، ولا ترفض أن تسند أحدًا، إذ يدعو يسوع الكل: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم[1]" (مت ١١: ٢٨)

العلامة أوريجينوس

❖ الفندق هو الكنيسة التي أصبحت تستقبل وتأوي كل الناس، فإننا لم نعد نسمع حسب ضيق الظل الناموسي والعبادة الرمزيَّة: "لا يدخل عمُّوني ولا موآبي في جماعة الرب" (تث ٢٣: ٣)، "في ذلك اليوم قُرِئ في سفر موسى في آذان الشعب ووجد مكتوبًا فيه أن عمُّونيًّا وموآبيًّا لا يدخل في جماعة الله إلى الأبد" (نحميا ١٣: ١) بل نسمع : "فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الآب والابن والروح القدس" (مت ٢٨: ١٩)، وأيضًا "بل في كل أمة الذي يتَّقيه ويصنع البرّ مقبول عنده" (أع ١٠: ٣٥).

وبعد أن أتى به إلى الفندق، "**اعتنى به**" [٣٤]. أي بعد أن تشكَّلت الكنيسة من اجتماع الأمم التي كانت تموت في عبادة الآلهة العديدة، أصبح المسيح نفسه هو الساكن فيها ويسير، كما هو مكتوب، ويمنح كل نعمة روحيَّة.

"فإنكم أنتم هيكل الله كما قال الله أنِّي سأسكن فيهم وأسير بينهم وأكون لهم إلهًا وهم يكونون لي شعبًا" (٢ كو ٦: ١٦).

القدِّيس ساويرس الأنطاكي

❖ الفندق هو المكان الذي يحلو لمن تعبوا من جراء السفر الطويل الاختلاء فيه. إذن صحبنا الرب إلى الفندق، إذ هو يرفع البائس من المزبلة، ويقيم المسكين من التراب (مز ١٢٢: ٧).

القدِّيس أمبروسيوس

ترك الدينارين لحساب الجريح

كان يليق بهذا الصالح وقد أدخلنا إلى كنيسته بكونها فندقه الذي فيه نستريح، أن يتركنا حسب الجسد ويصعد إلى السماوات يُعد لنا موضعًا. لكنه لا يتركنا في عوز، إنما ترك دينارين. ما هما هذان الديناران؟

في دراستنا السابقة لأسفار العهدين القديم والجديد رأينا أن رقم ٢ عند **القدِّيس أغسطينوس** يشير

[1] *In Luc. hom 34:7.*

إلى "الحب"، بكونه قد أعلن خلال وصيَّتين: حب الله وحب الناس، ولأنه يجعل الاثنين واحدًا. وكأن السيِّد المسيح ترك لنا في كنيسته كنز "الحب الإلهي"، به نحب الله والناس[1].

ويرى بعض الآباء في الدينارين اللذين تركهما السامري لصاحب الفندق رمزًا للتلاميذ والرسل الذين يعملون في الكنيسة لحساب السيِّد المسيح، والكتاب المقدَّس بعهديه.

❖ بعدما قاد الصريع إلى الفندق لم يتركه حالاً، بل بقي معه يومًا كاملاً يضمِّد جراحاته، ليس في النهار فحسب بل وبالليل أيضًا مكرِّس له إرادته وإمكانيَّته. وفي الغد إذ كان يستعد للرحيل قدَّم من ماله، "أي من أعماقه الخاصة" دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق، الذي هو بلا شك ملاك الكنيسة الملتزم بالرعاية... أما الديناران فيمثِّلان معرفة الآب والابن على ما اعتقد، **قدَّم له سرّ الآب في الابن والابن في الآب**[2].

العلامة أوريجينوس

❖ أعطى لصاحب الفندق دينارين، "**وفي الغد لما مضى أخرج دينارين، وأعطاهما لصاحب الفندق**" [٣٥]، ويُفهم من هذا أنه يرمز للرسل وكذلك الرعاة والمعلِّمين الذين خلفوهم، حينما صعد إلى السماء بعد أن خوَّلهم الأمر بالاهتمام بصفة خاصة بالمريض. وأضاف قائلاً: "**اعتنِ به مهما أنفقْت أكثر فعند رجوعي أوفيك**" [٣٥].

ويسمَّى العهدين القديم والجديد دينارين. الأول مُعطى بواسطة ناموس موسى والأنبياء، والثاني بواسطة الأناجيل وتعاليم الرسل، وهما كلاهما ملك الله الواحد، كالدينارين يحملان صورة واحدة لهذا الملك العلي، ويطبعان نفس الصورة الملكيَّة في قلوبنا ويثبِّتانها بالكلمات المقدَّسة، لأن الناطق بها هو بالحقيقة أيضًا روح واحد.

القدِّيس ساويرس الأنطاكي

❖ ما هما هذان الديناران؟ ربَّما كانا العهدين اللذين خُتما بختم الآب الأبدي وبثمنهما نُشفى من جراحتنا، إذ اشتُرينا بثمن (١ بط ١: ١٩)...

صاحب الفندق هو الذي قال: "أرسلني المسيح لأبشِّر" (١ كو ١: ١٧).

أصحاب الفندق هم الذين قيل لهم: "اذهبوا إلى العالم أجمع، واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها، من

---

[1] *In Ioan tr 61:13*

[2] *In Luc. hom 34:8.*

آمن واعتمد خلص ومن لم يؤمن يُدَن" (مر ١٦: ١٥-١٦).

القدِّيس أمبروسيوس

أخيرًا يرى **القدِّيس إيريناؤس**[1] أن الديناريين يشيران إلى الروح القدس الذي وُهب للكنيسة لكي ينقش على النفس التي سبق فجرحها اللصوص كتابة الآب والابن يكونها عُمْلة الله وديناريه.

٤. مرثا العاملة ومريم المتأمِّلة

إن كان السيِّد المسيح في كل يوم يحمل الجرحى على كتفيه كالسامري الصالح ليدخل بهم إلى كنيسته – الفندق السماوي – مقدِّما لهم الروح القدس (الدينارين) يسندهم ويعولهم حتى يرجع إليهم في مجيئه الأخير، فماذا يفعل هؤلاء الداخلون إلى الكنيسة؟ هذا ما تجيب عليه قصَّة لقاء مرثا ومريم بالسيِّد المسيح في قرية بيت عنيا.

قلنا أن بيت عنيا تعني "بيت الطاعة" أو "بيت العناء"، وكأنه في الكنيسة حيث يمتثل الأعضاء بالطاعة لله، محتملين كل عناء كشركة آلام مع المخلِّص، يعمل الكل كمرثا مجاهدين، ويجلسون معه يسمعون صوته ويتأمَّلون أسراره كمريم، وما نوَد أن نؤكِّده هنا أنه وإن مثَّلت مريم جماعة العاملين في الكنيسة خاصة الخدَّام ومريم وجماعة المتأمِّلين، فإن المسيحي يحمل في قلبه فكر مرثا ملتحمًا بفكر مريم، فلا جهاد حق خارج حياة التأمُّل، ولا حياة تأمُّل صادقة بلا عمل! حقًا لكل عضو موهبته، فمن الأعضاء من يحمل طاقة عمل قويَّة قادرة على الحركة في الرب على الدوام. ومنهم من يحب الهدوء والسكون ليحيا في عبادة وتأمُّل. ولكن يلزم على الأول وسط جهاده أن يتمتَّع بنصيب من الحياة التأمُّليَّة اليوميَّة حتى لا ينحرف في جهاده، ويليق بالثاني أن يُمارس محبَّته عمليًا بالجهاد، إن لم يكن في خدمة منظورة، فبالصلاة على لسان الكنيسة كلها بل ومن أجل العالم كله.

أوَد أن أترك الحديث عن الحياة العاملة والحياة المتأمِّلة في كتاب خاص، إنما اَكتفي هنا بتقديم مقتطفات لبعض الآباء في هذا الشأن:

❖ صالح هو ما فعلته مرثا بخدمتها للقدِّيسين، لكن الأفضل هو ما فعلته أختها مريم بجلوسها عند قدَّميْ الرب واستماعها كلمته[2].

❖ كانت مرثا ومريم أختين، قريبتين حقًا ليس بالجسد، وإنما أيضًا بالتقوى، كانتا ملتصقتين بالرب،

[1] *Adv. Haer. 3:17:3.*
[2] *On the Good of Marriage 8.*

تخدمانه حين كان حاضرًا بالجسد.

استقبلته مريم كما تستضيف الغرباء، كخادمة تستقبل سيِّدها، ومريضة تستقبل مخلِّصها، وكخليقة نحو خالقها. قبلته لتطعمه جسديًا، فتقتات بالروح، لقد سُرّ الرب أن يأخذ شكل العبد (في ٢: ٧)، لذلك صار الخدَّام يطعمونه، بتنازله سمح لنفسه أن يقوته الآخرون. صار له جسد يجوع حقًا ويعطش، ولكن هل تعلم أنه إذ جاء في البرِّيَّة كانت الملائكة تخدمه (مت ٤: ١١)؟

هكذا إذ سُر أن يطعمه الآخرون، أظهر لطفًا لمن يطعمه. أي عجب في هذا إذ أظهر ذات اللطف للأرملة التي احتكَّت بإيليَّا القدِّيس، الذي سبق فأعاله الله خلال خدمة غراب (١ مل ١٧: ٦)؟ فهل عجز عن أن يعوله حين أرسله إلى الأرملة؟ لا لم يكن يعجزه السلطان في أن يعوله عندما أرسله إلى الأرملة، لكنه أراد أن يبارك الأرملة التقيَّة خلال خدمتها التقويَّة لخادمه. هكذا أيضًا أُستقبِل الرب كضيف، هذا الذي "جاء إلى خاصته، وخاصته لم تقبله، أما الذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا أن يصيروا أولاد الله" (يو ١: ١١–١٢)، متبنِّيًا الخدَّام ليجعل منهم إخوة، ومحرِّرا المسبِّيين ليجعل منهم شركاء في الميراث. ومع ذلك ليته لا يُقل لأحدكم: طوبى للذين نالوا هذه النعمة، واستضافوا المسيح في بيتهم! لا تحزنوا ولا تتذمَّروا لأنكم لم تولدوا في تلك الأوقات لتروا الرب في الجسد، فإنه لا يحرمكم هذه الطوباويَّة، إذ يقول: "بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم" (مت ٢٥: ٤٠).

❖ إذ كانت مرثا تدبِّر الطعام وتعدُّه لتُطعم الرب، كانت منهمكة في الخدمة جدًا، أما مريم أختها فاختارت بالحري أن يطعمها الرب. إنها بطريقة ما تركت أختها المرتبكة بأعمال الخدمة وجلست هي عند قدميْ الرب تسمع كلماته بثبات. لقد سمعت أذنها الأمينة: "كفُّوا واعلموا إني أنا الله" (مز ٤٦: ١٠).

مرثا ارتبكت أما مريم فكانت متمتِّعة (محتفلة)؛ واحدة كانت تدبِّر أمور كثيرة، والأخرى ركَّزت عينيها على الواحد[1].

❖ صالحة هي الخدمات التي تقدَّم للفقراء، خاصة الخدمات الضروريَّة والأعمال الورعة التي تقدَّم لقدِّيسي الله... ولكن الأفضل منه هو ما اختارت مريم أن تفعله. فإن الأعمال الأولى لها متاعب كثيرة تمارس بسبب الضرورة، أما الثانية فلها عذوبتها تمارس بالمحبَّة.

لو أن مرثا قد تمتَّعت بالشبع خلال ممارسة هذه الأعمال لما طلبت معونة أختها. هذه الأعمال

[1] *Ser. on N.T. 53:2,3.*

متعدِّدة ومتنوِّعة إذ هي أعمال جسدانيَّة مؤقَّتة. حقًا إنها أعمال صالحة، لكنها زائلة. لكن ماذا قال الرب لمرثا؟ "مريم اختارت النصيب الصالح". لستِ أنتِ شرِّيرة، إنما هي أفضل. اسمعي، لماذا هي أفضل؟ "لن ينزع عنها" في وقت أو آخر ثِقَل الواجبات الضروريَّة يُنزع عنك، أما عذوبة الحق فأبديَّة... أنه لن ينزع منها، لا بل يزداد. في هذه الحياة يزداد لها، وفي الحياة الأخرى يكمل لها ولا ينزع عنها[١].

❖ كانت مرثا تهتم أن تُطعم الرب، وأما مريم فاهتمت أن يُطعمها الرب. بواسطة مرثا أُعدَّت الوليمة للرب، هذه الوليمة التي ابتهجت فيها مريم[٢].

❖ أقول أنه في هاتين الامرأتين مُثِّلت الحياتين: الحياة الحاضرة والحياة العتيدة؛ حياة الجهاد وحياة الراحة؛ حياة الحزن وحياة الطوباويَّة؛ الحياة الزمنيَّة والحياة الأبديَّة...

ماذا تحمل هذه الحياة؟ لست أتكلَّم عن حياة شرِّيرة، رديئة، خبيثة، مترَفة جاحدة، بل هي حياة جهاد مملوءة آلامًا، ومخاوف، تُفقدها التجارب سلامها... وأقول أن الحياتين غير ضارِّتين، بل ومستحقَّتان المديح، لكن واحدة مملوءة تعبًا والأخرى سهلة...

في مرثا نجد صورة للأمور الحاضرة، وفي مريم الأمور العتيدة.

ما تفعله مرثا نفعله نحن الآن، ما تفعله مريم نترجَّاه لنفعل العمل الأول حسنًا فننال الثاني كاملاً[٣].

القدِّيس أغسطينوس

❖ كوني كمريم تفضِّلين طعام النفس عن طعام الجسد.

اتركي أخواتك يجرين هنا وهناك ليدبِّرن بلياقة كيف يستضفن المسيح، أما أنتِ فإذ تتركي ثِقل العالم اجلسي عند قدميْ الرب، وقولي له: "وجدت من تحبُّه نفسي، فأمسكتُه ولم أرْخه" (نش ٣: ٤)[٤].

القدِّيس جيروم

❖ يأمر الرب أن يترك (الإنسان) حياته المرتبكة ويلتصق بالواحد، يقترب من نعمة ذاك الذي يقدِّم الحياة الأبديَّة[٥].

---

[1] *Ser. on N.T. 53:5.*
[2] *Ser. on N.T. 54:1.*
[3] *Ser. on N.T. 54:4.*
[4] *Ep 22:24.*
[5] *Who is the rich man….. 10*

القدِّيس إكليمنضس السكندري

❖ الخير الأعظم لا يكمن في الأعمال في ذاتها مهما بلغ شأنها، وإنما في التأمَّل في الرب، الذي هو بالحقيقة هو "الأمر الواحد"... أما قوله "لا ينزع عنها"، فقد كشف أن نصيب الأخرى يمكن أن يُنزع عنها، لأن الخدمات الجسديَّة لا يمكن أن تبقى مع الإنسان أبديًا، أمَّا اشتياق مريم فلن يكون له نهاية[1].

الأب موسى

❖ جاهدت الأولى في الخدمة العاملة، واهتمَّت الأخرى بالعمل الروحي بكلمة الله.

اختارت مريم النصيب الصالح الذي لم ينزع عنها، فليتنا نجاهد نحن أيضًا ليكون لنا ما لا يستطيع العدَو أن ينزعه عنَّا، لتكن لنا الأذن الصاغية غير الشاردة، لأن بذار الكلمة الإلهيَّة معرَّضة للسرقة إن سقطت على الطريق (لو ٨: ٥، ١٢).

لنتمثَّل بمريم التي تاقت إلى الامتلاء بالحكمة، وهذا هو عمل أعظم وأكمل يليق بنا ألا تعوقنا الاهتمامات اليوميَّة عن معرفة الكلمة السماويَّة...

لا يعيب الرب على مرثا أعمالها الصالحة، لكنه يفضل عليها مريم لأنها اختارت النصيب الصالح، فعند يسوع توجد كنوز الغنى وهو كريم في عطاياه الوفيرة، لذا اختارت الحكمة الأساسي. هكذا لم يترك الرسل كلمة الله ليخدموا الموائد (أع ٦: ٢).

أساس العمليَّة "الحكمة"، فقد كان استفانوس مملوء حكمة وقد أُختير للخدمة... جسد الكنيسة واحد وإن اختلفت الأعضاء، وكل منهم يحتاج إلى الآخر، "لا تقدر العين أن تقول لليد لا حاجة لي إليك، أو الرأس أيضًا للرجلين" (١ كو ١٢: ٢١)، ولا تستطيع الأذن أن تنكر أنها من الجسد، فإن وُجِدت أعضاء أساسيَّة لكن الأخرى لها أهميَّتها. فالحكمة موضعها الرأس، والعمل يقوم به اليدان، لأن أعين الحكيم في رأسه (جا ٢: ١٤). فالحكيم الحقيقي هو من له فكر المسيح، ويرتفع ببصيرته الروحيَّة إلى الأعالي، لذا عينا الحكيم في رأسه والجاهل في كفِّه[2].

القدِّيس أمبروسيوس

---

[1] *Cassian : Conf. 1:8.*
[2] *In Luc. 10:38-42.*

الأصحاح الحادي عشر

العبادة الروحيَّة

إذ هو الصديق السماوي الروحي، لا نقدر أن نتقبله فينا وننعم بصداقته بطريق آخر غير العبادة الروحيَّة الحقيقية:

١. الصلاة الربانيَّة	١–٤.
٢. الصلاة بلجاجة	٥–١٣.
٣. وحدة الروح (اتِّهامه ببعلزبول)	١٤–٢٦.
٤. الصداقة وكلمة الله	٢٧–٢٨.
٥. الصداقة وآية يونان النبي	٢٩–٣٢.
٦. العين البسيطة	٣٣–٣٦.
٧. التطهير الداخلي والعبادة بالروح	٣٧–٥٤.

١. الصلاة الربانيَّة

حدَّثنا الإنجيلي عن دخول السيِّد المسيح بيت مريم ومرثا، فعبَّرت كل منهما عن محبَّتها له بطريق أو بآخر، انطلقت مرثا تخدمه بينما بقيت مريم جالسة عند قدميه تسمع كلامه (١٠: ٣٩)، يلتهب قلبنا شوقًا للجلوس مع مريم عند قدميه باللقاء معه والصلاة. لهذا جاء الحديث التالي مركزًا على "الصلاة" يقول الإنجيلي: "**وإذ كان يصلِّي في موضع، لما فرغ قال واحد من تلاميذه: يا رب علِّمنا أن نصلِّي كما علَّم يوحنا أيضًا تلاميذه**" [١].

بلا شك حَفظ التلاميذ الكثير من الصلوات من العهد القديم أو خلال التقليد اليهودي، لكن سؤال التلميذ: "**يا رب علِّمنا أن نصلِّي**" يكشف عما رآه التلاميذ في السيِّد المسيح وهو يصلِّي. أدركوا صورة جديدة لم يذوقوها من قبل في عبادتهم، فاشتهوا أن يحملوا ذات الفكر والروح الواحد.

مرَّة أخرى نقول إن أردنا إن يدخل الرب بيتنا ونخدمه كمرثا أو نتأمَّله كمريم فلا طريق للتمتُّع باللقاء معه في الخدمة أو التأمُّل سوى الصلاة التي بها ننعم بحياة الكنيسة وكمالها على مستوى العمل والتأمُّل.

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**: [إن كان السيِّد له كل الصلاح بفيض فلماذا يصلِّي مادام كاملاً ولا

يحتاج إلى شيء؟ نجيب: يليق به حسب تدبير تجسُّده إن يمارس العمل البشري في الوقت المناسب. فإن كان قد أكل وشرب فبحق اعتاد إن يصلِّي، معلِّمًا إيَّانا ألا نكون متهاونين في هذا الواجب، بل بالأحرى مجتهدين وملتهبين في صلواتنا[1].] هذا وقد جاء رأسًا للكنيسة، يحملنا فيه كأعضاء جسده، إذ يصلِّي إنما يصلِّي نائبًا عنَّا ولحسابنا، حملنا بصلاته إلى حضن أبيه، وصارت صلواتنا مقبولة لدى الآب خلال ابنه موضع سروره. بمعنى آخر بصلاته قدَّس صلواتنا، وفتح لنا أبواب اللقاء مع الآب فيه.

إذ التهب قلب التلاميذ بحب الصلاة لما رأوه في السيِّد المصلِّي. بدأ يحدِّثهم عن الصلاة الربانيَّة، التي سبق لي الحديث عنها مستشهدًا بأقوال الآباء[2]، لهذا اَكتفي بعرضها في شيء من الاختصار مع اقتباس أقوال أخرى للآباء غير التي سبق لي نشرها.

"فقال لهم: متى صلَّيتم فقولوا:

أبانا الذي في السماوات" [٢].

لا نستطيع إن نصلِّي كما ينبغي ما لم ندرك أولاً مركزنا بالنسبة له، فقد اختارنا أبناء الله، نحدِّثه من واقع بنوَّتنا التي نلناها كهبة مجانيَّة في مياه المعموديَّة بالرغم من شعورنا أننا لا نستحق إن نكون عبيدًا له. فيما يلي بعض تعليقات للآباء على هذه العبارة:

❖ يا لعظمة حب الله للبشر! فقد منح الذين ابتعدوا عنه وسقطوا في هاوية الرذائل غفران الخطايا، ونصيبًا وافرًا من نعمة، حتى أنهم يدعونه أبًا: "أبانا الذي في السماوات". السماوات هي أيضًا هؤلاء الذين يحملون صورة العالم السماوي، والذي يسكن الله فيهم ويقيم[3].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ حين تبدأ الصلاة اِنسى كل خليقة منظورة وغير منظورة، وابدأ الصلاة بمدح الله خالق الكل، لذلك قيل: "فقال لهم متى صلَّيتم فقولوا أبانا[4]".

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ انظر أي إعداد عظيم تحتاجه لكي تستطيع إن تقول بدالة "أبانا". فإن كانت عيناك مركَّزتين على

---

[1] *Catena Aurea.*

[2] الإنجيل بحسب متى ص١٤٠-١٥٨.

[3] *Cat. Lac. 23:11.*

[4] *Monast. Cap 1.*

الأرضيَّات وتطلب مجد الناس ومستعبدة لشهواتك، فإن نطقتَ بهذه الصلاة يبدو لي إن الله يجيبك: "ما دمت تحمل الحياة الفاسدة فلتدعو الفساد أبًا لك، إنك تُدنِّس بشفتيك النجستين الاسم الذي لا يتدنَّس". لقد أوصاك إن تدعوه أبًا فلا تنطق كذبًا[1].

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ تبدأ الصلاة بالشهادة عن الله (كأب لنا) كأنها مكافأة عن الإيمان... لقد وُضعت (هذه الصلاة) للذين قبلوه فأعطاهم سلطانًا إن يصيروا أولاد الله (يو ١: ١٢). على أي الأحوال غالبًا ما يعلن الرب عن الله (الآب) كأب لنا، وقد أعطانا وصيَّة ألا ندعو لنا أبًا علي الأرض، بل الآب الذي في السموات (مت ٢٣: ٩)، فبهذه الصلاة نطيع الوصيَّة.

مطوَّبون هم الذين يعرفون أباهم! وقد وجَّه هذا التوبيخ ضد إسرائيل إذ يُشْهد الروح السماء والأرض، قائلاً: "ربَّيْتُ بنين ولم يعرفونني" (إش ١: ٢)...

عندما نذكر الآب نستدعي أيضًا الابن، إذ يقول: "أنا والآب واحد" (يو ١٠: ٣٠)، وأيضًا لا نتجاهل الكنيسة أُمِّنا، إذ تُعرف الأم خلال الآب والابن، وخلالها يظهر اسم كل من الآب والابن.

بتعبير واحد عام، أو بكلمة، نحن نكرم الآب مع ابنه... ونذكر الوصيَّة، ونضع علامة للذين نسوا أبيهم[2].

العلامة ترتليان

❖ [إذ نصلِّي لله أبينا يليق بنا ألا ننشغل بغيره، لا بخليقة أرضيَّة ولا أرواح شرِّيرة أو حتى ملائكة.]

كان قدِّيس آخر يعيش حياة الوحدة في البرِّيَّة، هاجمته الشيَّاطين وأحاطت به لمدة أسبوعين، يتقاذفونه في الهواء ويتلقُّونه على حصيرة، لكنهم باطلاً حاولوا أن يسحبوه من صلاته الملتهبة.

وجاء ملاكان إلى آخر كان محبًّا لله، مكرِّسًا حياته للصلاة، فإذ كان سائرًا في البرِّيَّة وقد رافقاه في رحلته، واحد عن يمينه والآخر عن يساره، لكنه لم يلتفت إليهما لئلاَّ يفقد ما هو أفضل، واضعًا في ذهنه نصيحة الرسول بولس "لا ملائكة ولا رئاسات ولا قوات تقدر إن تفصلنا عن محبَّة المسيح" (رو ٨: ٣٨).

بالصلاة الحقيقيَّة يصير الراهب ملاكًا آخر، إذ يتوق لرؤية وجه الآب في السموات في غيرة متَّقدة.

---

[1] *Orat. Dom. 2.*
[2] *On Prayer 2.*

❖ من يحب الله يحيا معه ويصلِّي إليه على الدوام كأب، متجرِّدًا من كل فكر هوَى[1].

الأب أوغريس

"**ليتقدَّس اسمك**" [٢].

يرى **العلامة أوريجينوس** إن الوثنيِّين يُجدّفون على اسم الله إذ ينسبونه للأصنام، وكأن الصلاة هنا هي صرخة الكنيسة لله أن ينزع العبادة الوثنيَّة عن العالم ليُعرف اسمه مقدَّسا في كل البشريَّة. بنفس المعنى يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**: [إذ يُزدرى باسم الله بين الذين لم يؤمنوا به بعد، فإنه عندما تشرق أشعَّة الحق عليهم يعترفون بقدُّوس القدِّيسين.]

على أي الأحوال إن كان اسم السيِّد المسيح يمجد الآب، فإننا إذ نقتني اسمه بالحق فينا يتقدَّس اسم الآب في حياتنا ويتمجَّد فينا، فمن كلمات الآباء في هذا الشأن:

❖ كما إذ تطلَّع إنسان إلى جمال السماوات يقول: المجد لك يا رب، هكذا من ينظر أعمال إنسانٍ فاضلٍ يرى فضيلته تمجِّد الله أكثر من السماوات[2].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ اسم الله مقدَّس بطبيعته، إن قلنا أو لم نقل، لكن بما أن اسم الله يُهينه الخطاة كما هو مكتوب: "اسمي يُجدَّف عليه بسببكم بين الأمم" (رو ٢: ٢٤؛ إش ٥٢: ٥)، فنحن نطلب إن يتقدَّس اسم الله فينا، لا بمعنى إن يصبح مقدَّسًا، كأنه لم يكن مقدَّسا فينا نحن الذين نسعى إلى تقديس أنفسنا وممارسة الأعمال اللائقة بتقديسنا[3].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

يرى **العلامة ترتليان**[4] إن عمل الملائكة هو الترنُّم بتسبحة الثلاث تقديسات: "قدُّوس، قدُّوس، قدُّوس" (إش ٦: ٣، رؤ ٤: ٨)، ونحن أيضًا إذ نقدس اسمه نرتفع إلى الله لنمارس شركة المجد العتيد، نشارك السمائيِّين تسابيحهم.

إن كان السيد المسيح يمجد اسم الآب (يو ١٧: ٦)، فإننا إذ نثبت فيه ونمارس حياته يتمجَّد الآب بابنه الحال فينا.

---

[1] *On Prayer 111 – 3, 54 (J.Bamberger: Evagrius Ponticus, Te Praktikos, Chapters on Prayer, 1981, P 74, 63).*

[2] *Cat. Aurea.*

[3] *Cat. Lect. 23:12.*

[4] *On Prayer 3.*

"**ليأت ملكوتك**" [٢].

❖ يليق بالنفس الطاهرة إن تقول بثقة "**ليأت ملكوتك**"، لأن الذي يسمع بولس يقول: "لا تملُكن الخطيَّة في جسدكم المائت" (رو ٦: ١٢)، يعمل علي تطهير نفسه بالفعل والفكر والقول، ويستطيع القول: "ليأت ملكوتك[1]".

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ نسأل أيضًا الرب إن يُخلِّصنا من الفساد لينزع الموت أو كما قيل "**ليأت ملكوتك**"، أي ليحل الروح القدس علينا ويطهرنا.

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ الذين ينطقون بهذا يبدو أنهم يرغبون في مخلِّص العالم إن ينير العالم مرَّة أخرى.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ رغبتنا هي إن يُسرع ملكنا بالمجيء فلا تمتد عبوديَّتنا (في هذا العالم[2]).

العلامة ترتليان

إن كان الشهداء يتعجَّلون مجيء الرب لوضع حد للشرّ، قائلين: "حتى متى أيها السيِّد القدُّوس والحق لا تقضي وتنتقم لدمائنا من الساكنين علي الأرض؟" (رؤ ٦: ١٠)، فإن المؤمنين وقد انفتح أمامهم باب السماء وأدركوا نصيبهم في الميراث الأبدي يتعجلون مجيئه الأخير لينالوا هذا المجد الأبدي.

"**لتكن مشيئتك، كما في السماء، كذلك على الأرض**" [٢].

❖ ملائكة الله الطوباويون الإلهيون يصنعون مشيئة الله كما يرنِّم داود قائلاً: "باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوَّة، الفاعلين كلمته" (مز ١٠٣: ٢٠) فعندما تُصلِّي بقوَّة تود القول: كما تتم مشيئتك في ملائكتك، فلتتم هكذا فينا نحن علي الأرض يا رب[3].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ كأنه يقول: اجعلنا يا رب قادرين أن نتبع الحياة السماويَّة، فنريد نحن ما تريده أنت.

---

[1] *Cat. Lect. 23:13.*
[2] *On Prayer 5.*
[3] *Cat. Lect. 23:14.*

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ قيل إن حياة الإنسان بعد القيامة ستكون كحياة الملائكة، وجب علينا إن ندبِّر حياتنا في هذا العالم بوقارٍ، حتى أننا ونحن نعيش بعد في الجسد لا نسلك حسب الجسد. هنا يحطِّم طبيب النفوس طبيعة المرض، إذ صار الممسَكون في المرض هاربين من الإرادة الإلهيَّة، لذلك فإنهم يبرأون منه بارتباطهم بهذه الإرادة الإلهيَّة. صحَّة النفس هي تتميم إرادة الله اللائقة[1].

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ نحن نصلِّي إن تتم مشيئته في الكل. من الجانب الرمزي تفسر: "كما في الروح كذلك في الجسد"، فإننا نحن سماء وأرض[2].

العلامة ترتليان

"**خبزنا كفافنا أعطنا كل يوم**" [٣].

يوصينا الرب أن نطلب حتى الأمور الخاصة بإشباع الجسد من الله، إذ هو أبونا الذي يهتم بنفوسنا كما بأجسادنا. لكنه يسألنا لا إن نطلب ترف الجسد وتدليله إنما الكفاف، لكي يسندنا الجسد حتى نتمم رسالتنا.

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [ربَّما يظن البعض أنه لا يليق بالقدِّيسين إن يطلبوا من الله الجسديَّات، لهذا يعطون لهذه الكلمات مفاهيم روحيَّة، لكن وإن كان يليق بالقدِّيسين أن يعطوا الاهتمام الرئيسي للروحيات لكنهم يطلبون بلا خجل خبزهم العام كوصيَّة الرب. في الحقيقة يسألهم إن يطلبوا خبزًا، أي طعامًا يوميًا، وفي هذا دليل أنهم لا يملكون شيئًا بل يمارسون الفقر المكرم، فإنه لا يطلب الخبز من كان لديه خبزًا بل من هو في عوز إليه.]

ويرى **القدِّيس باسيليوس** إن هذه الصلاة التي علَّمنا إيَّاها السيِّد تعني التزامنا بالالتجاء لله، لنخبره كل يوم عن احتياجات طبيعتنا اليوميَّة.

ويرى كثير من الآباء هذا الخبز اليومي هو "المسيح" يسوع ربَّنا، الذي ننعم به كخبز سماوي يومي، بدونه تصير النفس في عوَز. يقول **العلامة ترتليان:** [المسيح هو خبزنا، لأنه هو الحياة، والخبز هو الحياة. يقول السيِّد: "أنا هو خبز الحياة" (يو ٦: ٣٥)، يسبق ذلك قوله: "خبز الله هو

[1] *Orat. Dom. 4.*
[2] *On Prayer 4.*

(كلمة الله الحيّ) النازل من السماء" (يو ٦: ٣٣). جسده أيضًا يُحسب خبزًا[1].]

ويرى **القدِّيس أغسطينوس** إن هذا الخبز اليومي هو التمتُّع بقيامة السيِّد المسيح، لكي نختبر كل يوم قوَّة قيامته عاملة فينا.

"واغفر لنا خطايانا، لأننا نحن أيضًا نغفر لكل من يُذنب إلينا" [٤].

❖ الإساءات إلينا صغيرة وطفيفة، ومن السهل علينا أن نغفرها، أما إساءتنا نحن نحو الله فكبيرة ولا سبيل لنا غير محبَّته للبشر، فاحذر إذن من أن تمنع الله – بسبب ما لحق بك من إساءات صغيرة طفيفة – أن يغفر لك ما ارتكبته نحوه من ذنوب كبيرة[2].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ الطلبة للمغفرة مملوءة اعترافًا، فإن من يسأل الغفران إنما يعترف بجريمته[3].

العلامة ترتليان

❖ حتى يوسف حين صرف إخوته لإحضار أبيهم قال لهم: "لا تتغاضبوا في الطريق" (تك ٤٥: ٢٤ الترجمة السبعينيَّة). هكذا يحذِّرنا مؤكِّدًا لنا أنه يليق بنا إذ نكون في طريق الصلاة ألا نذهب إلى الآب غاضبين.

❖ أي تهوُّر، إن تقضي يومًا بدون صلاة عندما ترفض التصالح مع أخيك، أو تحتفظ بالغضب فتخسر صلاتك؟

❖ كل عمل انتقامي تأتيه ضِد أخ أذاك، سيكون لك حجر عثْرة عند الصلاة[4].

الأب أوغريس

❖ الحقد يعمي عقل المُصلِّي، ويغلِّف صلاته بسحابة ظلام.

❖ ليس أحد يحب الصلاة الحقيقية ويعطي لنفسه مجالاً للغضب أو الحقد... فإنه يشبه إنسانًا يريد أن يكون ذا نظر ثاقب ويقلع عينيه[5].

الأب أوغريس

---

[1] *On Prayer 6.*
[2] *Cat. Lect 23 :16.*
[3] *On Prayer 7,11.*
[4] *On Prayer 13 (Bamberger, P 57).*
[5] *I bid 21, 64.*

"**ولا تُدخلنا في تجربة**" [٤].

❖ ربَّما تعني: لا تدع التجربة تغمرنا وتجرفنا باعتبار التجربة سيلاً عارمًا يصعب اجتيازه، فالذين لا تغمرهم التجربة يجتازون السيل كالسبَّاحين الماهرين الذين لا يتركون التيَّار يجرفهم[1].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

❖ لا يليق بنا إن نطلب الضيقات الجسديَّة في صلواتنا، إذ يأمر المسيح البشر بوجه عام إن يصلُّوا كي لا يدخلوا في تجربة، لكن إن دخل أحد فعلاً فيلزمه إن يطلب من الرب قوَّة اِحتمال لتتحقَّق فينا الكلمات: "الذي يصبر إلى المنتهي فهذا يخلُص" (مت ١٠: ٢٢)[2].

القدِّيس باسيليوس

يميِّز **العلامة ترتليان**[3] بين التجربة التي هي بسماح من الله، وهي لا تعني "تجربة" بالمفهوم العام إنما "امتحان" لأجل تزكيتنا، أما عدو الخير فيجُرِّبنا بمعنى أنه يخدعنا، وكأننا نصلِّي ألا ندخل في تجربة بمعنى أن يسندنا ضد حِيَل إبليس وخداعاته.

"**لكن نجِّنا من الشرِّير**" [٤].

❖ لو كانت عبارة: "**لا تدخلنا في تجربة**" تعني ألا نُجرَّب أبدًا، لما أضاف الرب "**لكن نجِّنا من الشرِّير**". الشرِّير هو عدوُّنا إبليس، ونحن نطلب النجاة منه[4].

القدِّيس كيرلس الأورشليمي

أخيرًا فإن **العلامة ترتليان**[5] يؤكِّد إن الصلاة الربَّانيَّة هي الأساس الذي وضعه السيِّد المسيح لصلواتنا؛ تفتح لنا بابًا للصلاة لكي يطلب كل منَّا ما يناسبه لكن خلال ذات الفكر الذي لهذه الصلاة. هذا وأن الصلاة الربَّانيَّة مع صِغر حجمها تحوي الكثير، ألا وهو:

[مجد الله بالقول: "أبانا"،

شهادة الإيمان بالقول: "يتقدَّس اِسمك"،

تقديم الطاعة في "لتكن مشيئتك"،

تذكار الرجاء في "خبزنا كفافنا"،

[1] *Cat. Lect. 23:17.*
[2] *In reg. Brev. Ad inter 221.*
[3] *On Prayer 8.*
[4] *Cat. Lect 23:18 .*
[5] *On Prayer 10.*

المعرفة الكاملة لخطايانا (لديوننا) خلال الصلاة من أجل نوال المغفرة.

الرعب الشديد من التجربة بطلب الحماية.

يا للعجب! الله وحده يقدر إن يعلِّمنا بنفسه ما يريدنا إن نصلِّيه[1].]

٢. الصلاة بلجاجة

إن كان السيِّد قد قدَّم لنا نموذجًا حيًا للصلاة، فإنه إذ يطلب منَّا العبادة الملتهبة بالروح، سألنا إن نصلِّي بلجاجة، ليس لأنه يستجيب لكثرة الكلام، وإنما ليُلهب أعماقنا نحو الصلاة بلا انقطاع. يشتاق الله إن يعطي، وهو يعرف اِحتياجاتنا واِشتياقاتنا الداخليَّة، لكنه يطالبنا باللجاجة لنتعلَّم كيف نقف أمامه وندخل معه في صلة حقيقيَّة.

يقول **الأب إسحق:** [الله في اشتياقه إن يهبنا السماويات والأبديَّات يحثُنا إن نضغط عليه بلجاجتنا. أنه لا يحتقر اللجاجة، ولا يستخف بها، بل بالفعل يُسر بها ويمدحها[2].] ويقول **القدِّيس أغسطينوس:** [ما كان ربَّنا يسوع المسيح الذي في وسطنا يسألنا إن نطلب من الله كعاطي، يحثُّنا هكذا بقوَّة إن نسأل، لو لم يرد إن_يعطي. إنه يُخجل تهاوننا، إذ يود إن يعطي أكثر من رغبتنا نحن في الأخذ. يود إن يُظهر رحمة أكثر من رغبتنا نحن في الخلاص من البؤس... الحث الذي يقدِّمه لنا إنما هو لأجلنا[3].] ويقول **الأب أوغريس:** [إن كنت لم تنل بعد موهبة الصلاة أو التسبيح فكن لجوجًا فتنل[4].] ويقول القدِّيس **كيرلس الكبير:** "علِّمنا المخلِّص من قبل في إجابته على سؤال تلاميذه كيف ينبغي علينا إن نصلِّي. ولكن ربَّما يمارس الذين يتقبُّلون هذا التعليم الصلاة بنفس الشكل الذي قدَّمه الرب، وإنما بإهمال وفتور، فإن لم يُسمع لهم في الصلاة الأولى والثانية يتركون الصلاة. ربَّما يكون هذا هو حالنا، لذلك يقدِّم لنا السيِّد هذا المثل ليعلن لنا إن التخوُّف في الصلاة مضِر، وأما الصبر فنافع جدًا.]

قدَّم لنا الرب هذا المثل:

"من منكم يكون له صديق ويمضي إليه نصف الليل ويقول له:

يا صديق اِقرضني ثلاثة أرغفة.

لأن صديقًا لي جاءني من سفر، وليس لي ما أقدِّم له.

فيجيب ذلك من داخل، ويقول:

---

[1] *On Prayer 9.*

[2] *Cassian: Conf. 9:34.*

[3] *Ser. On N. T. 11:6.*

[4] *On Prayer 87.*

لا تزعجني، الباب مغلق الآن،

وأولادي معي في الفراش،

لا أقدر إن أقوم وأعطيك.

أقول لكم وإن كان لا يقوم ويعطيه لكونه صديقه،

فإنه من أجل لجاجته يقوم ويعطيه قدر ما يحتاج" [٥-٨].

ويلاحظ في هذا المثال الآتي:

أولاً: إن كان غاية هذا المثَل الأولى هي حثَّنا على اللجاجة في الصلاة حتى ننعم بطلبتنا، فإننا نلاحظ هنا إن السيِّد المسيح يقدِّم الأب صديقًا للبشريَّة، إذ يقول: "من له صديق ويمضي إليه نصف الليل". يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [الله هو ذاك الصديق الذي يحب كل البشريَّة ويريد إن الكل يخلُصون". ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [من هو صديق لنا أعظم من ذاك الذي بذل جسده لأجلنا؟ فمنه طلب داود في نصف الليل خبزات ونالها، إذ يقول: "في نصف الليل سبَّحتك على أحكام عدلك" (مز ١١٩: ٦٢)، نال هذه الأرغفة التي صارت غذاء له. لقد طلب منه في الليل: "أُعوِّم كل ليلة سريري" (مز ٦: ٦)، ولا يخش لئلاً يوقظه من نومه إذ أنه عارف إن (صديقه الإلهي) دائم السهر والعمل. ونحن أيضًا فلنتذكَّر ما ورد في الكتب ونهتم بالصلاة ليلاً ونهارًا مع التضرُّع لغفران الخطايا، لأنه إن كان مِثل هذا القدِّيس الذي يقع على عاتقه مسئوليَّة مملكة كان يسبِّح الرب سبع مرَّات كل يوم (مز ١١٩: ١٦٤)، ودائم الاهتمام بتقدِّمات في الصباح والمساء، فكم بالحري ينبغي علينا إن نفعل نحن الذين يجب علينا إن نطلب كثيرًا من أجل كثرة سقطاتنا بسبب ضعف أجسادنا وأرواحنا حتى لا ينقصنا لبنياننا كسرة خبز تسند قلب الإنسان (مز ١٠٣: ١٥)، وقد أرهقنا الطريق وتعبنا كثيرًا من سبل هذا العالم ومفارق هذه الحياة[١].]

كأن السيِّد المسيح يطالبنا إن نلجأ إليه كصديق إلهي حقيقي، في كل وقت، حتى في منتصف الليل، نتوسَّل إليه ليمدِّنا بالخبز السماوي المشبع للنفس والجسد.

ثانيًا: إن كان الله يقدِّم نفسه صديقًا لنا نسأله في منتصف الليل ليهبنا خبزًا سماويًا من أجل الآخرين القادمين إلينا أيضًا في منتصف ليل هذا العالم جائعين، فإن السيِّد حسب هؤلاء أيضًا أصدقاء لنا؛ فنحن نطلب من الصديق الإلهي لأجل أصدقائنا في البشريَّة. يرى **القدِّيس أغسطينوس**[٢]

---

[1] *In Luc 11:5-13.*
[2] *Ser. On N. T. 55:2,3.*

إن هذا الصديق القادم من الشارع أي من العالم، قادم إلينا كما من طريقه الشرِّير، مشتاقًا إن يتمتَّع بالحق، فلا نستطيع إن نستضيفه ونشبعه ما لم نسأل الله أولاً فنتأهَّل للتمتُّع بالثلاث خبزات، أي بالإيمان الثالوثي.

ثالثًا: إن كان الشخص قد جاء إلى صديقه في منتصف الليل يطلب من أجل صديقه الذي قدُم إليه من سَفر، أمَا كان يكفي إن يسأل رغيفًا واحدًا أو يطلب رغيفين، فلماذا طلب ثلاثة أرغفة؟

أ. إننا إذ نلتقي بعريسنا المخلِّص وسط هذا العالم بتجاربه الشرِّيرة، كما لو كنا في نصف الليل، نطلب لأنفسنا كما للآخرين ثلاثة أرغفة لكي تشبع أرواحنا ونفوسنا وأجسادنا؛ فالله وحده هو المُشبع للإنسان لكل كيانه. وكما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس بطريرك بلغاريا:** [نطلب من الله ثلاث خبزات، أي اشباع احتياجات جسد الإنسان ونفسه وروحه، فلا يصيبنا خطر في تجاربنا.]

هنا ندرك الفهم الإنجيلي للحياة المقدَّسة أو للعفَّة، فالإنسان العفيف أو المقدَّس في الرب لا يعيش في حرمان، إنما يتقبَّل من يديّ الله ما يُشبع حياته كلها ويرويها، فتفرح نفسه وتتهلَّل روحه، ويستريح أيضًا جسده حتى وإن عانى أتعاب كثيرة من أجل الرب. لهذا كان المعمَّدون حديثًا في الكنيسة الأولى ينشدون بعد عمادهم مباشرة هذا المزمور: "الرب راعيّ فلا يعْوِزني شيء، في مراعٍ خضر يربضُني، وإلى مياه الراحة يوردِني، يرُد نفسي، يهديني إلى سبل البرّ..."

ب. يرى **القدِّيس أغسطينوس** إن هذه الخبزات الثلاث هي إيماننا الثالوثي، فإن أرواحنا ونفوسنا وأجسادنا لن تشبع داخليًا إلا بالثالوث القدُّوس، ثالوث الحب الذي يملأْ الداخل ويفيض علينا بالطوباويَّة، إذ يقول:

[من كان وسط التعب يلزمه إن يسأل الله فينال فهم الثالوث، به يستريح من متاعب هذه الحياة الحاضرة. فإن ضيقته هي نصف الليل التي تدفعه نحو طلب الثالوث. لنفهم الثلاث خبزات الثالوث الذي هو جوهر واحد...

حينما تنال الثلاث خبزات، أي طعام معرفة الثالوث، يكون لك مصدر الحياة والطعام، فلا تخف، ولا تتوقَّف، فإن هذا الطعام بلا نهاية، إنما يضع نهاية لعوزك. تعلَّم وعلِّم، عش واطعِم[1].]

في موضع آخر يقول: [ما هذه الخبزات الثلاث إلا طعام السرّ السماوي؟[2]]

وفي شيء من التفصيل أيضًا يقول: [الآن لا حاجة للخوف من قدوم غريب إليك من طريقه، وإنما

[1] *De Quaest. Ev. Lib 2 qu 21.*
[2] *Ser. 105.*

باستضافتك له في الداخل يمكنك إن تجعله مواطنًا وابنًا للبيت، لا تخف فإن الخبز لن ينتهي. الخبز هو الله الآب والابن والروح القدس... تعلَّم وعلِّم، عش واِطعم الآخرين. الله هو الذي يعطيك، لا يعطيك أفضل من ذاته. أيها الطمَّاع ماذا تطلب بعد؟[1]]

ج. يرى أيضًا **القدِّيس أغسطينوس** في هذه الخبزات الثلاث عطايا الله الفائقة للبشريَّة، ألا وهي الإيمان والرجاء والمحبَّة، إذ يقول: [من الضروري إن تأخذ محبَّة وإيمانًا ورجاءً، فإن ما يعطيه لك يكون لك حلوًا. هذه الأمور ـ الإيمان والرجاء والمحبَّة ـ ثلاثة، وهي عطايا الله، فإنك تتقبَّل الإيمان من الله، إذ قيل: "كما قسَّم الله لكل واحدٍ مقدارًا من الإيمان" (رو ١٢: ٣). وأيضًا الرجاء نتقبَّله من ذاك الذي قيل له: "جعلتني أترجَّاه" (مز ١١٨: ٤٩). ومنه نتقبَّل المحبَّة، إذ قيل: "لأن محبَّة الله قد اِنسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا" (رو ٥: ٥)[2].]

رابعًا: يقول السيِّد: "**فيجيب ذلك من داخل، ويقول: لا تزعجني، الباب مغلق الآن، وأولادي معي في الفراش، لا أقدر أن أقوم وأعطيك**" [٧].

يصوِّر لنا السيِّد المسيح هذا الصديق أنه يجيب من داخل، لا يخرج إليه مع إن الوقت حرج، وكان يليق بالصديق إن يفتح ليطمئن على القارع؛ وفي إجابته يعلن أن تصرُّف هذا السائل أو القارع مزعج، وأن الباب مغلق، وأولاده في الفراش، وأنه عاجز عن القيام والعطاء. ومع هذا استطاع صديقه بلجاجته أن يغتصب منه طلبه! فكم بالأكثر الله يهب سائليه إن طلبوا بإلحاح، علامة صدق طلبهم، خاصة وأن الله ليس كهذا الصديق يجيب من داخل، بل خرج إلينا خلال التجسَّد، وجاءنا كلمة الله حالاً في وسطنا، يحدِّثنا فمًا لفمٍ، نازعًا الحجاب الحاجز بين السماء والأرض. وهكذا لم يعد بعد الباب مغلقًا بل هو مفتوح للجميع، يريد إن الجميع يخلُصون وإلى معرفة الحق يُقبلون. أولاده ليس معه في الفراش، إذ هو لا ينام وملائكته وقدِّيسوه أيضًا يسهرون، عاملين بصلواتهم وتضرُّعاتهم من أجل النفوس التائهة والمحتاجة. لا يقول الرب: "لا أقدر إن أقوم وأعطيك"، إذ قام الرب من الأموات وأعطانا حياته المُقامة عاملة فينا!

هكذا قدَّم لنا الرب صورة مؤلمة للصديق البشري، الذي ننال منه طلباتنا خلال اللجاجة، بالرغم من الظروف المقاومة، فكم بالأكثر ننال من الرب نفسه؟

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [إن كان الشخص النائم التزم إن يعطي قسرًا بعد إزعاجه من نومه

[1] *Ser. on N. T. 55:4.*
[2] *Ser. on N. T. 55:5.*

لذاك الذي يسأله، فكم بالحري إن يُعطى بأكثر حنو ذاك الذي لا ينام، بل ييقظنا من نومنا لكي نسأله إن يعطينا؟[1]]

لعلَّ قوله: "**الباب مغلق الآن**" يشير إلى إغلاق باب فهمنا عن إدراكه، فإن الله لا يريد بابًا مغلقًا يحجب أعماقنا عن الالتقاء معه، لكننا نحن نُحكم إغلاق الباب خلال عِصياننا وجهلنا لأعماله الخلاصيَّة. يقول **القدِّيس أوغسطينوس:** [الوقت الذي يُشار إليه هنا هو وقت مجاعة الكلمة حين يُغلَق الفهم، والذين يوزِّعون حكمة الإنجيل كخبزٍ، خلال الكرازة في العالم الآن هم في مواضع راحة مع الرب.]

فإن كان العالم قد أغلق الباب بعصيانه، فإن عمل الكنيسة إن تطلب ليفتح الرب هذا الباب للكارزين، حتى ينطلقوا بالنفوس إلى حيث الراحة والشبع في الرب.

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [اِطرح عنك نوم الغفلة لتقرع باب المسيح. لقد طلب بولس إن يُفتح له هذا الباب ليتكلَّم عن سِرّ المسيح (كو ٣: ٤)، ربَّما هذا هو الباب الذي رآه يوحنا مفتوحًا: "بعد هذا نظرت، وإذا باب مفتوح في السماء، والصوت الأول الذي سمعته كبوق يتكلَّم معي قائلاً: اِصعد إلى هنا، فأُريك ما لابد إن يصير بعد هذا" (رؤ ٤: ١) فُتح الباب ليوحنا وأيضًا لبولس لينالا من أجلنا أرغفة لغذائنا، لأنهما ثابَرَا وقرعا الباب في وقت مناسب ووقت غير مناسب (٢ تي ٤: ٢)، ليُعيد الحياة للأمم الذين تعِبوا وأُرهَقوا من طريق العالم بوفرة الغذاء السماوي[2].]

خامسًا: يحثُّنا ربَّنا يسوع على الصلاة بلجاجة، إذ يختم المثَل بقوله: "**أقول لكم وإن كان لا يقوم ويعطيه لكونه صديقه، فإنه من أجل لجاجته يقوم ويعطيه قدر ما يحتاج. وأنا أقول لكم: اِسألوا تعطوا، أُطلبوا تجدوا، اِقرعوا يُفتَح لكم**" [٨-٩].

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [ماذا يعني بقوله: لأجل لجاجته؟ لأنه لم يكف عن القرع، ولا رجع عندما رُفض طلبه... قد يبطئ الله أحيانًا في إعطائنا بعض الأمور، لكي يُعرِّفنا قيمة هذه الأشياء الصالحة، وليس لأنه يرفض إعطاءها لنا. الأمور التي نشتاق إليها كثيرًا ما ننالها بفرحٍ عظيم، أما التي توهب لنا سريعًا فإنها تُحسب زهيدة. إذن لتسأل وتطلب وتلح، فبالسؤال نفسه والطلب أنت نفسك تنمو فتنال أكثر[3].] كما يقول: [بالصلاة التي نمارسها خلال الطلبات التي نشتهيها ننال ما هو مستعد

[1] *Ep. 130:8.*
[2] *In Luc 11:15 -13.*
[3] *Ser. On N.T. 11: 6.*

أن يمنحه. عطاياه عظيمة جدًا لكننا نحن صغار وضيِّقون في إمكانيَّاتنا عن أن ننالها[1].]

يقول **القدِّيس باسيليوس:** [ربَّما يؤخِّر الطلبة عن عمد لكي تضاعف غيرتك ومجيئك إليه، ولكي تعرف ما هي عطيَّة الله، وتحرص عليها بشغف عندما تنالها. ما يناله الإنسان بتعبٍ شديدٍ يجاهد على حفظه لئلاَّ بفقده يفقد تعبه أيضًا[2].]

لماذا يقول: **[اِسألوا... أُطلبوا... اِقرعوا]؟**

أ. ربَّما للتأكيد، فإنه يلحْ علينا أن نسأل ونطلب ونقرع، لأنه يريد أن يعطينا، وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [ما كان يشجِّعنا هكذا أن نسأله لو لم يرد أن يعطينا. ليُنزع عنَّا الكسل البشري فإنه يود أن يعطينا أكثر مما نسأل[3].]

يقول **القدِّيس باسيليوس:** [يليق بنا أن نسأل العون الإلهي لا بكسلٍ ولا بفكر مشتَّت هنا وهناك، فإن إنسانًا كهذا ليس فقط لا ينال ما يسأله، بل بالحري يُغضب الله، لو أن إنسانًا يقف أمام رئيس تكون عيناه ثابتتين في الداخل والخارج حتى لا يتعرَّض للعقوبة، فكم بالحري يليق بنا أن نقف أمام الله بحرص ورعدة؟ لكنك إن كنت تُثار بخطيَّة ما، فلا تقدر أن تُصلِّي بثبات بكل قوَّتك. راجع نفسك حتى متى وقفت أمام الله تركِّز فكرك فيه، والله يغفر لك، لأنك ليس عن إهمال بل عن ضعف لم تستطع إن تظهر أمامه كما ينبغي. إن ألزمت نفسك بهذا فإنك لا تتركه حتى تنال. فإن لم تنل ما تسأله يكون ذلك لأن سؤالك غير لائق أو بغير إيمان، أو لأنك قدَّمته باستهانة، أو تسأل أمورًا ليست بصالحك، أو لأنك تركت الصلاة. كثيرًا ما يسأل البعض لماذا نصلِّي؟ هل يجهل الله ما نحتاج إليه؟ أنه بلا شك يعرف ويعطينا بفيض كل الزمنيَّات حتى قبل أن نسألها، لكن يجب علينا أولاً أن نطلب الصالحات وملكوت السماوات، عندئذ ننال ما نرغب لنسأل بإيمان وصبر، نسأل ما هو صالح لنا، ولا نعوق الصلاة بعصيان ضميرنا[4].]

ب. لعلَّ التكرار ثلاث مرات: اِسألوا، أُطلبوا، اِقرعوا، يعني أننا لا نسأله فقط بأفكارنا أو نيَّاتنا الداخليَّة، وإنما أيضًا بشفاهنا كما بأعمالنا. وكأنه يليق أن تنطلق صلواتنا خلال تناغم الفكر مع الشفتين والسلوك، فتخرج رائحة بخور مقدَّسة من أعماق مقدَّسة وكلمات مباركة وأعمال مرضيَّة لدى الله. لعلَّه بفكر مشابه يقول **القدِّيس ساويرس الأنطاكي:** [ربَّما يعني بكلمة "**اِقرعوا**" أُطلبوا بطريقة

---

[1] *Ep. 130 – 8.*
[2] *Const. Mon. 1.*
[3] *Ser. 105.*
[4] *Const. Mon. 1.*

فعّالة، فإن الإنسان يقرع باليد، واليد هي علامة العمل الصالح. وربَّما التمايز بين الثلاثة يكون بطريقة أخرى، ففي بداية الفضيلة **نسأل معرفة الحق**، أما الخطوة الثانية فهي أن **نطلب كيف نسلك هذا الطريق**. والخطوة الثالثة عندما يبلغ الإنسان الفضيلة **يقرع الباب ليدخل حقل المعرفة المتَّسعة**. هذه الأمور الثلاثة كلها يطلبها الإنسان بالصلاة. وربَّما "يسأل" تعني "**يصلِّي**"، و"يطلب" تعني "**يصلِّي بواسطة الأعمال الصالحة** التي نمارسها بطريقة تتناسب مع صلواتنا"، و "نقرع" تعني **الاستمرار في الصلاة بلا انقطاع**.]

بمعنى آخر إن السؤال والطلب والقرع إنما يعني وِحدة الصلاة مع الحياة العمليَّة في الرب، نسأل أن يبدأ معنا، ونطلب إليه إن يكمِّل الطريق، ونقرع لكي ينهي جهادنا بالمجد الأبدي، فهو البداية والنهاية كما أنه هو المرافق لنا وسط الطريق، أو بمعنى أدَق هو طريقنا: به نبدأ وبه نستمر وبه نكمِّل.

ولكي يشجِّعنا السيِّد المسيح على السؤال والطلب والقرع، كشف حقَّنا البنوي في الطلب، فمن حقَّنا كأبناء أن نطلب من أبينا ونأخذ، إذ يقول: "**فمن منكم وهو أب يسأله ابنه خبزًا، أفيعطيه حجرًا؟ أو سمكة، أفيعطيه حيَّة بدل السمكة؟ أو إذ سأله بيضة، أفيعطيه عقربًا؟ فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيِّدة، فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه؟**"

ويلاحظ في هذا الحديث الآتي:

أ. كما سألنا أن نسأل ونطلب ونقرع أي ثلاث مرَّات، هكذا قدَّم لنا ثلاثة أمثلة في الطلب: نسأل خبزًا أو سمكة أو بيضة... والعجيب أنها ثلاثة أنواع من الطعام، وكأن سؤالنا من الرب إنما هو أن يشبعنا روحيًا ونفسانيًا وجسديًا.

ب. يرى **القدِّيس أغسطينوس** أن الخبز هو المحبَّة، والسمكة هي الإيمان، والبيضة هي الرجاء، فإننا نطلب من أبينا السماوي أن نحب ونؤمن ونترجَّى. إنه يقول:

[يعني بالخبز المحبَّة، إذ هي أعظم ما نرغبه، وهي ضروريَّة، بدونها يُحسب كل شيء آخر كلا شيء، كمائدة بلا خبز. أما عكس المحبَّة فهي قسوة القلب تُقارن بالحجر. أما بالنسبة للسمكة فهي تشير إلى الإيمان بالأمور غير المنظورة، هذه التي ننالها خلال مياه المعموديَّة دون أن تراها عين. ومن جانب آخر فإن الإيمان كالسمكة، يُهاجَم بأمواج العالم ولا يهلك، أما ضدَّها فهي الحيَّة بسبب سُم الخداع حيث بإغرائها الشرِّير ألقت بذارها في الإنسان الأول. أما البيضة فيُفهم بها الرجاء، لأن

البيضة وهي الأصغر لم يتشكَّل فيها (الطائر) بعد لكننا نترجَّى ذلك. ضد البيضة العقرب التي بلدغتها السامة ترد الإنسان إلى خلف مرتعبًا، عكس الرجاء الذي يطلقنا إلى قدَّام فوق الأمور التي أمامنا[١].]

بمعنى آخر الخبز يشير إلى المحبَّة، يقابله الحجر يشير إلى قسوة القلب، والسمكة تشير إلى الإيمان تقابلها الحيَّة تشير إلى جحد الإيمان حيث خدعت الحيَّة حواء بمكرها وأفسدت ذهنها عن النقاوة (٢ كو ١١: ٢-٣)، والبيضة تشير إلى الرجاء حيث يخرج ممَّا يبدو جسمًا جامدًا طائرًا فيه حياة ويقابلها العقرب التي تحطِّم حياة الإنسان.

يريد الله أن يشبعنا فنطلبه، هو يملأْ حياتنا حبًا وإيمانًا ورجاءً، فتشبع أعماقنا، ولا يعوزها شيء، أما عدو الخير فهو المقاوِم الذي يريد أن يقدِّم حجرًا عوض الخبز، إذ قال للسيِّد المسيح: "قل للحجارة أن تصير خبزًا"، إذ اِعتاد أن يهبها قسوة القلب طعامًا عوض خبز الحياة، وهو الذي بعث بالحيَّة عوض السمكة، وتُشبَّه أعماله بالعقرب...

لنطلب الله نفسه يملأ حياتنا ويهبنا من عنده، لذا يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [أيها الإنسان الطمَّاع، ماذا تطلب؟ إن كنت تطلب شيئًا آخر، ماذا يشبعك إن كان الله نفسه لا يشبعك[٢]؟] كما يقول: [لتعطِ نفسك طعامها فلا تهلك من المجاعة. أعطها خبزها. تقول: وما هو هذا الخبز؟ لقد تحدَّث الرب معك، فإن أردت أن تسمع وتفهم وتؤمن به، فهو يود أن يقول لك بنفسه: "أنا هو الخبز الحيّ النازل من السماء" (يو ٦: ٤١)[٣].]

يُعلِّق **القدِّيس كيرلس الكبير** على طلب الخبز من الآب، قائلاً: [إن سألك ابنك خبزًا تعطه إيّاه بسرور، لأنه يطلب طعامًا صالحًا، لكن إن طلب عن عدم معرفة حجرًا يأكله، فلا تعطيه بل تمنعه من تحقيق رغبته الضارة. هذا هو المعنى.] ويرى **العلامة أوريجينوس** في السمكة التي نطلبها حب التعلُّم.

كما يُعلِّق **القدِّيس أغسطينوس** على البيضة بكونها رمزًا للرجاء، قائلاً: [لنضع بيضتنا تحت أجنحة دجاجة الإنجيل التي تصيح من أجل المدينة الباطلة الخرِبة، قائلة: "يا أورشليم يا أورشليم... كم مرَّة أردتُ أن أجمع بنيكِ كما تجمع الدجاجة فراخها ولم تريدي" (راجع مت ٢٣: ٣٧)[٤].] كما يقول: [إننا نلاحظ كيف تمزِّق الدجاجة العقرب قطعًا، هكذا تمزِّق دجاجة الإنجيل المجدِّفين

---

[1] *De Quaest Evang. Lib 2 – Qu 22- (Ser. On N. T. 55).*
[2] *Ser. 105.*
[3] *Ser. On N.T. 56:4.*
[4] *Ser. On N.T. 55:11.*

وتحطِّمهم، هؤلاء الذين يتسلَّلون من جحورهم ويلدغون بنيها بلدغات مؤذية[1].]

أخيرًا يؤكِّد الرب شهوة قلبه نحونا بقوله: "**فكم بالحري الآب الذي من السماء يعطي الروح القدس للذين يسألونه؟**" إن كان آباؤنا الأرضيُّون يهتمُّون أن يقدِّموا خبزًا وسمكة وبيضة لكي نقدر أن يعيش على الأرض، فإن الآب الذي من السماء يعطيٍ الروح القدس الذي وحده روح الشركة، يثبِّتنا في الابن الوحيد الجنس منطلقًا بنا بالروح القدس إلى حضن الآب السماوي... عمله أن يهبنا "الحياة الجديدة" الحاملة للسِمة السماويَّة. لكي نعود إلى الحضن الأبوي من جديد. يقول **القدِّيس إكليمنضس السكندري:** [إن كنَّا ونحن أشرار نعرف أن نعطي عطايا صالحة فكم بالحري طبيعة أب المراحم، أب كل تعزية، الصالح، يترفَّق بالأكثر وبرحمة واسعة يطيل أناته منتظرًا الراجعين إليه؟ الرجوع إليه في الحقيقة هو التوقُّف عن الخطايا وعدم النظر إلى الوراء مرَّة أخرى[2].]

٣. وحدة الروح (اتِّهامه ببعلزبول)

إن كانت صداقتنا مع الله تقوم على الصلاة بلجاجة، فإن هذه الصلاة يلزم أن تسندها وحدة الروح. فالله في صداقته معنا يريدنا أن نسلك معًا بالروح الواحد، وذلك بعمل روحه القدُّوس واهب الشركة والوحدانيَّة. لهذا يحدِّثنا الإنجيلي لوقا عن إبراء من به شيطان أخرس، وقد أخرجه السيِّد فأتُهم بأنه ببعلزبول رئيس الشيَّاطين. وجد السيِّد بهذا الاتهام فرصته لتأكيد الحاجة إلى وحدة الروح بلا انقسام، وذلك بعمل روحه واهب الشركة. وقد سبق لنا الحديث في هذا الأمر أثناء دراستنا لإنجيل متَّى ١٢: ٢٢-٣٧، ولإنجيل مرقس ٣: ٢٢-٣٠، في شيء من التفصيل، لذا اَكتفي هنا بالملاحظات التالية:

أولاً: أثارت معجزة إخراج الشيطان الأخرس دهشة الجماهير وإعجابهم، الأمر الذي أثار قومًا غالبًا من الفرِّيسيِّين، وإذ اِمتلأوا حِقدًا وحسدًا لم يقدروا أن ينكروا المعجزة، لكنهم اِتَّهموا السيِّد أنه ببعلزبول رئيس الشيَّاطين يخرج الشيَّاطين.

"**بعلزبول**" هي الصيغة الآرامية للكلمة: "بعل زبوب"، أي إله الذباب عند العقرونيِّين (٢ مل ١: ٣)، الذين كانوا يعتقدون أن فيه القدرة على طرد الذباب من المنازل.

تشكَّك البعض في أمره، فطلبوا آية من السماء، ليتأكَّدوا أن ما يفعله بقوَّة سماويَّة إلهيَّة وليس بطريق شيطاني، فكانوا يتوقَّعون أن يُنزِل نارًا من السماء كما فعل إيليَّا، ولم يدركوا أن الذي في

---

[1] *Ser. On N.T. 55:12.*

[2] *Who is the Rich man… 39.*

وسطهم هو السماوي الذي بتنازله حل في وسطهم كواحد منهم.

ثانيًا: لم يستجب لطلبتهم فيرسل نارًا من السماء لإفنائهم، إذ طلبوا آية من السماء، بل انتهر يوحنا ويعقوب تلميذيه حين سألاه أن يطلبا نارًا لحرق قرية بالسامرَّة رفضته (لو ٩: ٥٤). وإنما في طول أناة أجابهم، لا ليُفحِمهم وإنما ليرُدهم إلى الحق، غير متراجعٍ عن حبُّه حتى لمقاوميه، باذلاً حياته فدية عن الجميع. لهذا يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إحتمل كل هذه الأمور لكي نسلك على أثر خطواته، ونحتمل هذه السخريات التي تقلق أكثر من أي توبيخ[1].]

ثالثًا: جاءت إجابة السيِّد المسيح لمقاوميه كالعادة ليست دفاعًا عن نفسه بقدر ما هي لبنيان نفوسهم وإصلاح حياتهم، وقد حملت الإجابة جانبين:

أ. الجانب السلبي، وهو أنه لا ينقسم عدو الخير على نفسه وإلا هلكت مملكته. وهنا يسألنا ألا ننقسم نحن على أنفسنا، سواء على مستوى الممالك أو مستوى العائلات، إذ يقول:

"**كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب،**
وبيت منقسم على بيت يسقط،
فإن كان الشيطان أيضًا ينقسم على ذاته،
فكيف تثبت مملكته؟
لأنكم تقولون إني ببعلزبول أخرج الشيَّاطين؟" [١٧-١٨].

ب. الجانب الإيجابي، فيه يعلن فاعليَّة الروح القدس الذي هو واحد معه في اللاهوت، إذ يعمل بروحه القدُّوس وقوَّته، ويدعوه إصبع الله. في هذا يدعونا الرب ليس فقط ألا نسلك بروح الانقسام على أنفسنا أو على مستوى العائلات أو الكنائس، وإنما أن نقبل روح الله الذي هو روح الشركة عاملاً فينا بقوَّة، لبنيان ملكوت الله. إنه يقول:

"**إن كنتُ أنا ببعلزبول أخرج الشيَّاطين،**
فأبناؤكم بمن يُخرجون؟
لذلك هم يكونون قضاتكم،
ولكن إن كنتُ بإصبع الله أُخرج الشيَّاطين،
فقد أقبل عليكم ملكوت الله" [١٩-٢٠].

---

[1] *In Ioan. hom 84: 3.*

لا يكفي أن نرفض روح الانقسام حتى لا نهلك، وإنما يليق بنا أن نقبل روحه عاملاً فينا، لكي يقبل علينا ملكوته في داخلنا بقوَّة!

رابعًا: يسمي السيِّد المسيح الروح القدس "**إصبع الله**"، ربَّما لأن الإنسان صاحب السلطان حين يشير بإصبعه يتحقَّق كل ما يريده، وكأن الآب والابن يعملان بروحهما القدُّوس كما بالإصبع. يقول **القدِّيس كيرلس** [يدعى الروح القدس إصبع الله لهذا السبب. قيل عن الابن أنه يد الله وذراعه (مز ٩٨: ١)، به يعمل الآب كل شيء. ولما كان الإصبع غير منفصل عن اليد بل بالطبيعة هو جزء منها، هكذا (مع الفارق) الروح القدس متَّحد مع الابن، وخلاله يعمل الابن كل شيء[1].]

هذا والأصابع مع اختلاف مواضعها وأحجامها وأطوالها تعمل معًا بلا اِنقسام، فتشير إلى تنوُّع الخدمات أو المواهب والروح واحد. كقول الرسول بولس: "فأنواع مواهب موجودة، ولكن الروح واحد، وأنواع خِدم موجودة، ولكن الرب واحد. وأنواع أعمال موجودة، ولكن الله واحد، الذي يعمل الكل في الكل، ولكنه لكل واحد يعطي إظهار الروح للمنفعة" (١ كو ١٢: ٤-٧).

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [يُدعى الروح القدس إصبع الله بسبب توزيع المواهب، فيه ينال كل واحد موهبته، سواء للبشر أو الملائكة، إذ لا يوجد في أعضائنا تقسيم مناسب أكثر من أصابعنا[2].] كم يقول **القدِّيس أمبروسيوس** [لقب "الإصبع" يشير إلى الوحدة لا إلى اِختلاف السلطان[3].]

خامسًا: من هم أبناؤهم الذين يُخرجون الشيَّاطين ويكونون قضاة عليهم، إلا جماعة من التلاميذ البسطاء، الذين هم من الأُمّة اليهوديَّة يعيشون ببساطة قلب بينهم، وأُميُون، يُخرجون الشيَّاطين بقوَّة وسلطان، فيدينون بهذا كل اِتهام يوجِّهه الفرِّيسيُّون والكتبة ضد سلطان السيِّد المسيح. يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [كان التلاميذ الطوباويُون يهودًا، وأبناء لليهود حسب الجسد، وقد نالوا سلطانًا من المسيح باستدعاء هذه الكلمات: "باسم يسوع المسيح". فإن بولس أيضًا مرَّة أمر الروح النجس بسلطان رسولي: "أنا آمرك باسم يسوع أن تخرج منها" (أع ١٦: ١٨). فإن كان أبناؤكم . كما يقول . باسمي يطئون بأقدامهم على بعلزبول باِنتهارهم أتباعه (شيَّاطينه) وإخراجهم من الساكنين فيهم، أفليس واضح أنه تجديف بجهل عظيم أن تتَّهمونني بأني أحمل سلطان بعلزبول؟ أنتم الآن متَّهمون خلال إيمان أبنائكم[4].]

---

1 *Catena Aurea (In Luc 81) .*
2 *De Quaest Evang . 1: 2 .*
3 *Catena Aurea .*
4 *In Luc. hom 81 .*

ينتقل السيِّد المسيح من إظهار أنه يخرج الشيَّاطين بروحه القدُّوس (إصبع الله) إلى السلطان الذي وهبه لتلاميذه الذين هم أبناء اليهود، ليجذب أنظارهم وأفكارهم من المناقشات الغبيَّة التي يُثيرونها خلال حقدهم وحسدهم إلى التطلُّع نحو السلطان الجديد الذي وُهب للتلاميذ خلاله، وإلى الإمكانيَّة التي صارت للبشريَّة خلال السيِّد المسيح. فما يفعله المسيح يسوع ربَّنا ليس اِستعراضًا لقوَّته الإلهيَّة وإنما هو رصيد يقدِّمه لحساب مملكته في قلوبنا، أي لحساب كنيسته التي في داخلنا، لذلك يقول: "**فقد أقبل عليكم ملكوت الله**" [٢٠]. بمعنى آخر يوَد إن يقول لهم: عوض إن تتَّهموني بأن أعمل بقوَّة بعلزبول تمتَّعوا بسلطاني الذي أهبه للبشر لتحطيم بعلزبول وطرد أرواحه الشرِّيرة من النفوس والأجساد المحطَّمة. في هذا يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [يقول: إن كنتُ كإنسان قد صرتُ مثلكم، وأخرج الشيَّاطين بروح الله، فقد نالت الطبيعة البشريَّة فيّ أولاً الملكوت الإلهي، إذ صارت ممجَّدة بكسر سلطان الشيطان واِنتهار الأرواح الدنسة، هذا هو معنى الكلمات: "**أقبل عليكم ملكوت الله**". لكن اليهود لم يفهموا تدبير الابن الوحيد في الجسد، وأنه كان يجب عليهم بالحري أن يتأمَّلوا أن الابن الوحيد الجنس، كلمة الله قد صار جسدًا دون أن يتغيَّر عما هو عليه، ممجِّدًا طبيعة الإنسان، إذ لم يستنكف أن يأخذ حقارتها لكي يُضفي عليها غناه هو[1].]

سادسًا: إذ نالت البشريَّة في المسيح يسوع سلطانًا بروحه القدُّوس وأعلن عن ملكوت الله فيها، فإنه لم يعد هناك مجال لمملكة الظلمة التي سادت زمانًا، والتي تملَّكت بشراسةٍ وعنفٍ وسلطانٍ خلال ضعفنا. لقد جاء القوي الذي يحطِّم من ظن في نفسه قويًا وأعطيناه الفرصة زمانًا ليسيطر علينا، إذ يقول السيِّد المسيح: "**حينما يحفظ القوي داره متسلِّحًا تكون أمواله في أمان. ولكن متى جاء من هو أقوى منه، فإنه يغلبه، وينزع منه سلاحه الكامل الذي اتكل عليه، ويوزِّع غنائمه**" [٢١-٢٢].

هكذا يقدِّم لنا العمل المسيحاني في حياتنا بمثل إنسانٍ قوي متسلِّح في داره، تملك على القلب والعالم كدارٍ له، أسلحته الخبث والدهاء، لكن جاء المسيَّا الأقوى، سلاحه الحب والبذل يحطِّم بالحق الباطل، وبالحب الخبث، وبالنور الظلمة، فيطرد من استعمر القلب وملك على العالم، ساحبًا منه الغنائم. هكذا يوضِّح السيِّد أنه لا هوادة بين النور والظلمة، ولا اِتِّفاق بين المسيح وبليعال.

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [دُعي الشيطان قويًا، ليس لأنه بالطبيعة هو هكذا، إنما بالإشارة إلى سلطانه القديم الذي صار له بسبب ضعفنا[2].] ويقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [هذا هو مصير

---

[1] *In Luc. hom 81 .*
[2] *In Matt. hom 41.*

عدوُّنا العام، الشيطان الخبيث، ذي الرؤوس المتعدِّدة، مبتدع الشرّ. فإنه قبل مجيء المخلِّص، كان في قوَّة عظيمة، يسوق القطعان التي ليست له إلى حظيرته، ويغلق عليها، هذه التي هي قطعان الله، فكان كلصٍ مفترسٍ ومتصلِّف للغاية. لكن إذ هاجمه كلمة الله الذي هو فوق الكل، واهب كل قوَّة، رب القوات، بكونه قد صار إنسانًا، فنهب منه أمتعته ووزَّع غنائمه. فإن أولئك الذين كانوا قبلاً قد أُسروا بواسطته في الخطأ والجحود دعاهم الرسل القدِّيسون إلى معرفة الحق والاقتراب إلى الله الآب خلال الإيمان بالابن[١].]

سابعًا: بعد أن قدَّم السيِّد المسيح هذا المثل، قال هذا المبدأ: "**من ليس معي فهو عليّ، ومن لا يجمع معي فهو يُفرِّق**" [٢٣]. هنا يبرز السيِّد المسيح خطورة الحياة السلبيَّة التي خلالها يظن الإنسان أنه يقف في منتصف الطريق. فإن السيِّد المسيح يقدِّم طريقين لا ثالث لهما: النور أو الظلمة، مملكة الله أو إبليس. من كان يعمل بروح بعلزبول لا يطرد الشيَّاطين لحساب مملكة الله، إنما ينحني لمملكة الظلمة، وهكذا من يحمل روح الله لا يقبل إلا أن يعمل لحساب مملكة الله. وكأنه يطالبهم بمراجعة أنفسهم ليعرفوا بالحق أين هو مركزهم؟ هل هم معه يعملون على الجمع لحسابه، أو ضدَّه يعملون على تشتيت النفوس؟

كأنه يقول لهم قد جئت لأجمع أبناء الله فيّ، هؤلاء الذين شتَّتهم العدو إبليس، فالشيطان لا يعمل معي، بل يود تشتيت من أجمعهم، فهل تطلبونني لتعملوا للجمع أم تطلبونه فتقومون بالتشتيت؟ وكما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**: [إنه يقول: جئت لأخلِّص كل إنسان من يدّ الشيطان، لأنقذهم من خبثه الذي اِصطادهم به، لأحرِّر المأسورين، وأُشرق نورًا على الذين في الظلمة، أُقيم الساقطين وأشفي منكسري القلوب، وأجمع أبناء الله المشتَّتين. وأما الشيطان فهو ليس معي، بل عليّ. بالعكس هو ضدِّي، إذ يتجاسر ليشتِّت الذين أجمعهم وأخلِّصهم. كيف إذن يمكن لذاك الذي يقاومني ويبُث شروره ضد غاياتي أن يعطيني سلطانًا ضدُّه؟ أليس من الغباوة إن تتخيَّلوا هذا؟[٢]]

يُعلِّق **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** على كلمات السيِّد، قائلاً على لسانه: [إن كان الذي لا يعمل معي يكون خصمًا لي، فكم بالأكثر من يقاومني؟ على أي الأحوال يبدو لي أنه قد أشار بهذا المثل إلى اليهود الذين ثاروا ضدَّه بواسطة الشيطان، إذ كانوا يعملون ضدَّه ويُشتِّتون من يجمعهم[٣].]

ثامنًا: بعد أن عرض المثّل الأول الخاص بالأقوى الذي يطرد القوي ويوزِّع غنائمه معطيًا إيَّانا

---

[1] *In Luc. hom 81 .*
[2] *In Luc. hom 81 .*
[3] *In Matt. hom 41.*

رجاء أن نختفي فيه لكي به نحارب العدو ونطرده من أعماقنا، يقدّم لنا مثلاً آخر لتحذيرنا:

"**متى خرج الروح النجس من الإنسان**

يجتاز في أماكن ليس فيها ماء يطلب راحة،

وإذ لا يجد يقول: أرجع إلى بيتي الذي خرجتُ منه.

فيأتي ويجده مكنوسًا مزيَّنًا.

ثم يذهب ويأخذ سبعة أرواح أُخر أشرّ منه،

فتدخل وتسكن هناك،

فتصير أواخر ذلك الإنسان أشرّ من أوائله" [٢٤– ٢٦].

بالمثلين وضَّح السيِّد المسيح الفارق بين عمل السيِّد المسيح وعمل الفرِّيسيِّين، ففي المثل الأول أظهر السيِّد المسيح بكونه الأقوى الذي يحرِّرنا ممن اِستقْوَى علينا وأسَرْنا بخُبثه، وفي المثَل الثاني أظهر عمل الفرِّيسيِّين وقادة اليهود الذين يجولون البَرّ والبحر لاصطياد إنسانٍ، وبعد قبوله الإيمان يجعلونه أشرّ منهم، إذ يتعثَّر فيهم. هكذا ينحرف للشرّ أكثر مما كان عليه قبل قبوله الإيمان. وكما قال الرب: "ويلٍ لكم أيها الكتبة والفرِّيسيُّون المراؤون، لأنكم تطوفون البحر والبَرْ، لتكسبوا دخيلاً واحدًا، ومتى حصل تصنعونه ابنًا لجُهنَّم أكثر منكم مضاعفًا" (مت ٢٣: ١٥).

بهذا المثَل يحذِّرنا لئلاَّ نبدأ الطريق ولا نكمِّله، فإننا إذ نبدأ نطرد الشيَّاطين من قلوبنا كما من مسكنه، لكنه لا يجد راحته إلا في العودة من حيث طُرد، وهكذا يبقى متربِّصًا لعلَّه في تهاوننا يرجع بصورة أشرّ وأقوى لكي يسكن من جديد. هذا هو حال كثير من المسيحيِّين بدأوا بالروح وللأسف كمَّلوا بالجسد (غل ٣: ٣)، فعاد إبليس ليجد قلوبهم مسكنًا له مكنوسًا ومزيَّنًا لاستقباله.

هذا هو حال اليهود الذين سبقوا الأمم في معرفة الله، وكأنهم قد تمتَّعوا بطرد إبليس من قلوبهم، لكنهم إذ جحدوا الرب صاروا أشرّ ممَّا كان عليه قبل الإيمان، بل وأشرّ من الأمم. هذا ما يقوله **القدِّيس أمبروسيوس:** [إنسان واحد يُرمز لكل الشعب اليهودي، فالروح النجس خرج بالناموس، ولما لم يجد راحة في الأمم، إذ قبلوا الإيمان المسيحي الذي يحرق الروح النجس، وقد ارتوت قلوب الأمم الجافة بندى الروح القدس وانطفأت سهام العدو الملتهبة نارًا (أف ٦: ١٦)، رجع الروح النجس إلى الشعب اليهودي ومعه أرواح أشرّ منه. هنا رقم ٧ يشير إلى كمال العدد[1].] بنفس المعنى يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [إذ كانوا تحت العبوديَّة بمصر، يعيشون حسب عادات المصريِّين ونواميسهم

[1] *In Luc 11:14– 26.*

المملوءة دنسًا سلكوا حياة دنسة وسكن الروح النجس فيهم، إذ يسكن في القلوب الشرِّيرة. ولكن إذ خلصوا بواسطة موسى خلال رحمة الله وتقبَّلوا الشريعة كمعلِّم في مدرسة، ودُعوا إلى نور معرفة الله الحقيقيَّة، طُرد منهم الروح النجس الفاسد. ولكنهم إذ لم يؤمنوا بالمسيح بل جحدوا المخلِّص، هاجمهم الروح النجس من جديد، فوجد قلبهم فارغًا، خاليًا من مخافة الله، كما لو كان مكنوسًا فسكن فيهم. فكما أن الروح القدس إذ يجد قلبًا متحرِّرا من كل دنس، طاهرًا، يأتي ويسكن فيه ويستريح هناك، هكذا الروح الشرِّير اعتاد على السُكنى في قلوب الأشرار، لأنهم . كما قلت . خالون من كل فضيلة وليس فيهم خوف الرب. بهذا صار أواخر الإسرائيليِّين أشر من أوائلهم[1].]

٤. الصداقة وكلمة الله

"وفيما هو يتكلَّم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجمع. وقالت له:

"طوبى للبطن الذي حَملك، والثدْيين اللذيْن رضعتهما.

أما هو فقال: بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه" [٢٧-٢٨].

إذ سمعت المرأة حديث السيِّد طوّبت من حملته وأرضعته. وبلا شك فإن القدِّيسة مريم تستحق الطوبى، غير إن السيِّد لم ينزع عنها التطويب، إنما حثنا لننال نحن أيضًا الطوبى بقوله: "طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه". وكما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** أن القدِّيسة مريم قد تزكَّت بالأكثر بهذه الكلمات إذ حملته في نفسها كما حملته في جسدها. ويقول **القدِّيس أغسطينوس:** [اقترابها كأُم لا يفيد مريم لو لم تكن قد حملته في قلبها بطريقة طوباويَّة، أكثر من حملها إيّاه في جسدها[2].]

لقد فتح لنا الرب باب اللقاء معه والتمتُّع بصداقته، فإن كان قد طالبنا في بداية الأصحاح بالصلاة بلجاجة ثم حثَّنا على وحدانيَّة الروح بلا انشقاق والتمتُّع بعمل الروح القدس فينا، فإنه الآن يحثُّنا على الالتصاق بكلمة الله وحفظها قلبيًا وسلوكيًا. إن كنَّا لم ننعم بحمل السيِّد المسيح جسديًا أو اللقاء معه كمن كانوا معه في أيامه، لكن إنجيله بين أيدينا، إن سمعناه وحفظناه رأيناه متجلِّيًا في الداخل.

يرى **القدِّيس أغسطينوس** أن هذا الحديث الإلهي يمس حياة الكنيسة كلها التي تختبر حياة الوحدة كجسد واحد للرب، إذ يقول: [ليته لا يفرح أحد من أجل نسله المؤقت، بل بالحري بالروح الذي يربطهم بالله[3].]

---

1 *In Luc Ser 81.*
2 *Of Holy Virginity 3.*
3 *In Ioan tr 10:3.*

٥. الصداقة وآية يونان النبي

"وفيما كان الجموع مزدحمين اِبتدأ يقول:

هذا الجيل شرِّير،

يطلب آية، ولا تُعطى له إلا آية يونان النبي.

لأنه كما كان يونان آية لأهل نينوى،

كذلك يكون ابن الإنسان أيضًا لهذا الجيل.

ملِكة التيْمَنْ ستقوم في الدين مع رجال هذا الجيل وتدينهم،

لأنها أتَتْ من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان،

وهوذا أعظم من سليمان ههنا.

رجال نينوى سيقومون في الدين مع هذا الجيل ويدينونه،

لأنهم تابوا بمناداة يونان" [٢٩-٣٣].

لقد طلب قوم منه آية من السماء أما هو فيُقدِّم نفسه لهم آية، معلنًا يونان النبي كرمزٍ لشخصه الذي انطلق من الجوف كما من القبر قائمًا من الأموات (مت ١٢: ٤٠) وبكرازته أنقذ أهل نينوى الشعب الأممي، وأيضًا سليمان الحكيم الذي اجتذب الأمميَّة ملكة التيْمَنْ من أقاصي الأرض تمثِّل كنيسة الأمم القادمة، لا لتسمع حكمة بل تمارسها. تلتقي مع حكمة الله نفسه. في الرمزين ظهرت كنيسة الأمم واضحة تلتصق برأسها يونان الحقيقي، القائم كما من الجوف، وسليمان الحكيم واهب السلام والحكمة.

يوضِّح القدِّيس كيرلس الكبير في تعليقه على إنجيل لوقا إن الآية ليست عملاً استعراضيًا كما ظن اليهود، فحينما قدَّم لهم موسى قديمًا بعض الآيات كانت هادفة، خاصة للكشف عن خطاياهم من أجل التوبة فعندما طرح العصا على الأرض فصارت حيَّة ثم أمسك بذنَبها عادت عصا، إنما أشار بالعصا إلى اليهود الذين طُرحوا بين المصريِّين، فصاروا كالحيَّة لتمثلهم بعاداتهم ورجاساتهم وبُعدهم عن الله، وكأنهم قد سقطوا من يديه كما طُرحت العصا من يديّ موسى، لكن إذ أمسك الله بهم كما أمسك موسى بذَنَب الحيَّة عادوا إلى حالهم الأول، إذ صارت الحيَّة عصا، مغروسة في الفردوس، إذ دعوا لمعرفة الله الحقيقية، واغتنوا بالشريعة كطريق للحياة الفاضلة.

هكذا تكرَّر الأمر عندما أدخل يده في عِبِّه ثم أخرجها، وإذ هي برصاء مثل الثلج. ثم عاد فردَّها إلى عِبِّه لينزع عنها البرص، فإن هذه الآية لم تُصنع بلا هدف، إنما تشير إلى إسرائيل الذي كان

تحت رعاية الله وحمايته حين كان متمسِّكًا بعادات آبائه سالكًا بروح الحياة الفاضلة اللائقة به، والتي له في إبراهيم وإسحق ويعقوب. فكان كمن في حضن (عِبٌّ) الله، لكن إذ خرج عن ذلك كيَدٌ موسى، أي خرج عن حياة آبائه الإيمانيَّة الفاضلة أُصيب بالبرص، أي النجاسة. وإذ عاد فقبل العودة إلى حضن الله وتحت رعايته الإلهيَّة نُزع عنه دنس المصريِّين.

كان يليق باليهود كما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير** أن يدركوا خطأهم، لكنهم اِنشغلوا بطلب آية من السماء بمكرٍ، إذ يقول:

[نبع طلبهم عن مكرٍ، فلم يُستجاب لهم، كقول الكتاب: "يطلبني الأشرار ولا يجدونني" (راجع هو ٥: ٦)... لقد قال لهم أنه لا تعطى لهم سوى آية يونان التي تعني آلام الصليب والقيامة من الأموات، إذ يقول: "لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام... لم يقدِّم آية لليهود لكنه قدم هذه الآلام الضروريَّة لخلاص العالم... في حديثه معهم قال: "انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمة" (يو ٢: ١٩). فإن إبادته للموت وإصلاحه الفساد بالقيامة من الأموات هو علامة عظيمة على قوَّة الكلمة المتجسِّد وسلطانه الإلهي، وبرهانًا كافيًا كما أظن في حكم الناس الجادِّين. لكنهم رشوا عسكر بيلاطس بمبلغٍ كبيرٍ من المال ليقولوا أن "تلاميذه أتوا ليلاً وسرقوه" (مت ٢٨: ١٣). لقد كانت (قيامته) علامة ليست بهيِّنة، بل كافية لإقناع سكان الأرض كلها إن المسيح هو الله، وأنه تألَّم بالجسد باختياره، وقام ثانية. أمر قيود الموت أن ترحل، والفساد أن يُطرح خارجًا، لكن اليهود لم يؤمنوا حتى بهذا، لذلك قيل عنهم بحق: "مِلِكة التيْمَنْ ستقوم في الدين مع هذا الجيل وتدينه"... هذه المرأة مع أنها من المتبربرين، لكنها طلبت بشغفٍ أن تسمع سليمان، وقد تحمَّلت السفر لمسافة طويلة بهذا الهدف لكي تسمع حكمته بخصوص طبيعة الأمور المنظورة والحيوانات والنباتات. أما أنتم فحاضر بينكم "الحكمة" ذاته الذي جاء إليكم ليحدِّثكم عن الأمور السماويَّة غير المنظورة، مؤكِّدًا ما يقوله بالأعمال والعجائب وإذا بكم تتركون الكلمة وتجتازون بغير مبالاة طبيعة تعاليمه العجيبة[1].]

ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [بعد إن حكم على شعب اليهود، ظهر بوضوح سرّ الكنيسة: شعب نينوى يتوب (يونان ٣: ٥)، وتسعى ملكة الجنوب لتتعلَّم الحكمة (١ مل ١٠: ١)، فتأتي من أقصى الأرض لتتعلَّم حكمة سليمان، صاحب السلام. إنها ملكة لمملكة غير منقسمة تتكوَّن من شعوب مختلفة متباعدة مثل جسدٍ واحدٍ، كالمسيح والكنيسة (أف ٥: ٣٢). لقد تحقَّق الآن ذلك ليس خلال

---

[1] *In Luc Ser 82* .

رمز، بل بالحقيقة تم ذلك. قديمًا كان سليمان رمزًا، أما هنا فنجد المسيح قد جاء متجسِّدًا، وتظهر الكنيسة من جانبين: ترك الخطيَّة وهدمها خلال التوبة (كأهل نينوى)، وطلب الحكمة (كملكة سبأ)[1].]

٦. العين البسيطة

"ليس أحد يوقد سراجًا ويضعه في خفية،

ولا تحت المكيال،

بل على المنارة لكي ينظر الداخلون النور.

سراج الجسد هو العين،

فمتى كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّرًا،

ومتى كانت شرِّيرة، فجسدك يكون مظلمًا.

أُنظر اذًا لئلاَّ يكون النور الذي فيك ظلمة.

فإن كان جسدك كله نيرًا ليس فيه جزء مظلم،

يكون نيرًا كله، كما حينما يضيء لك السراج بلَمعانه" [٣٣-٣٦].

هذه العبارات الإلهيَّة كما أظن تكشف عن أساس "الصداقة الإلهيَّة"، فإن كان الله هو "نور"، يليق بنا أن نكون السراج الحامل للنور، الذي لا يختفي عنه عمل الله النوراني، بل يكون حاملاً له وشاهدًا لفاعليَّته. في صداقتنا نلتقي بالنور ليس تحت مكيال معين ولا بمقاييس بشريَّة، وإنما نُحمل على الحق الذي يرفعنا إلى فوق، فلا نخضع للزمن ولا للمكان، بل نحيا كملائكة الله السمائيِّين، نحلِّق في العلويَّات. صداقتنا هي "شركة في النور الإلهي"، أو "حياة علويَّة ملائكيَّة".

إن كنَّا نتساءل: كيف نصير سراجًا منيرًا، نحمل شهادة حق على منارة الحياة السماويَّة؟ يجيب الرب: "**سراج الجسد هو العين**". كأنه يُعلِّق التزامنا بالعين البسيطة لكي نقدر أن نعاين الرب البسيط. لتكن لنا البصيرة النقيَّة، التي لا تحمل تعقيدًا بل في بساطتها تحمل هدفًا واحدًا هو معاينة الرب. بهذا يرى القلب، الذي هو عين النفس وبصيرتها، الله متجلِّيًا في كل شيء، فتستنير النفس ويتقدَّس الجسد، ويصير الإنسان بكليَّته مقدِسًا للرب، وسراجًا يحمل النور الإلهي. وقد سبق لنا الحديث عن هذه العين البسيطة المقدَّسة بالله البسيط في دراستنا لإنجيل متى ٦: ٢٢-٢٣.

يحدِّثنا **القدِّيس أمبروسيوس** عن السراج المنير بكونه إيماننا الإنجيلي أو إيماننا بكلمة الله التي هي النور الذي يكشف لنا الطريق، وبه نبحث عن الدرهم المفقود، إذ يقول:

---

[1] *In Luc 11:29-32* .

[السراج هو الإيمان، كما هو مكتوب: "سراج لرجلي كلامك ونور لسبيلي" (مز ١١٩: ١٠٥).

كلمة الله هو موضوع إيماننا، وهو النور الحقيقي الذي يضيء لكل إنسان آتيًا إلى العالم" (يو ١: ٩)، هذا السراج لا يمكن أن ينير ما لم نستمد نوره من مصدر آخر (السيد المسيح).

السراج الذي نوقده هو قوَّة أرواحنا وعواطفنا، به نجد الدرهم المفقود (لو ١٥: ٨).

لا يليق بالإنسان أن يضع هذا الإيمان (السراج) تحت مكيال الناموس، لأن الناموس محدود أما النعمة فبلا حدود، الناموس يقدِّم ظلاً أما النعمة فتنير. ليته لا يغلق أحد إيمانه في حدود مكيال الناموس، بل يأتي إلى الكنيسة فتزيِّنه نعمة الرب.

ليسلِّط رئيس الكهنة النور على عظائم اللاهوت الملوكي، فلا يخنقها ظل الناموس. قديمًا كان رئيس الكهنة يوقد الأسرجة حسب الطقوس اليهوديَّة بانتظام صباحًا ومساءً، لكنها قد انطفأت، لأنها وُضعت تحت مكيال الناموس، واختفت أورشليم الأرضيَّة التي قتلت الأنبياء (مت ٢٣: ٣٧)، أما أورشليم السماويَّة فقبلت إيماننا ووضعته على أعلى قمم الجبال أي على المسيح، لذلك أقول أنه لا يمكن للكنيسة أن تخفيها الظلمة ولا ظلال هذا العالم إنما تشع ببهاء الشمس الأبديَّة وتضيء علينا بأشعَّة نعمة الروح[1].]

٧. التطهير الداخلي والعبادة بالروح

بعد أن قدَّم لنا الإنجيلي سرّ صداقتنا مع الله السماوي، أي العبادة بالروح والحق، خلال الصلاة بلجاجة، ووحدة الروح التي بلا انقسام، والالتصاق بكلمة الله وحِفظها عمليًا، والتوبة مع الإيمان بيونان الحق، واستنارة العين الداخليَّة، يختم حديثه بالإعلان عن الحاجة إلى "التطهير الداخلي" لتكون عبادتنا بالروح والحق لا ترتكز على شكليَّات خارجيَّة بلا أعماق.

جاء هذا الحديث خلال انتقاد أحد الفرِّيسيِّين للسيِّد المسيح لأنه لم يغتسل أولاً. وقد سبق لنا الحديث عن طقس الاغتسال عند اليهود وضرورته في أعينهم في دراستنا لإنجيل معلِّمنا مرقس ٧: ١–٢٣، كما سبق لنا دراسة أحاديث السيِّد المسيح ضد تصرُّفات الفرِّيسيِّين والناموسيِّين الشكليِّين والحِرَفيِّين في العبادة في دراستنا لإنجيل معلِّمنا متى الأصحاح ٢٣). غير أننا نقدِّم هنا التعليقات التالية:

أولاً: كان هذا الفرِّيسي الذي دُعي السيِّد المسيح ليأكل عنده حاضرًا يسمع كلماته، وقد شاهد المرأة التي طُوِّبت من حملت به وأرضعته [٢٧]، وربَّما كان هو أحد الفرِّيسيِّين الذين طلبوا منه آية من

---

[1] *In Luc 11:33–36.*

السماء. على أي الأحوال غالبًا ما كانت دعوته للسيِّد المسيح ليست نابعة عن حب خالص، وإنما لينصب له فخًا، ليراه هل يتبع التقاليد الفرِّيسيَّة في أكله وشربه أم لا. وقد قبِل السيِّد المسيح الدعوة، وعن عمد لم يغتسل ليس لأن في الاغتسال قبل الطعام خطأ، وإنما لأن مفاهيم الفرِّيسيِّين للاغتسال خاطئة، فأراد بتصرُّفه هذا أن يصحِّح مفاهيمهم، ويدخل بهم إلى العبادة اللائقة التي تُمارس بالروح والحق.

كان السيِّد يحدِّثهم عن العين البسيطة والسراج المنير، ولو إن عيني هذا الفرِّيسي بسيطة وسراجه الداخلي منير لانشغل قلبه بالمسيَّا وأدرك حقيقة شخصه أنه "مشتهى جميع الأمم"، فيه تتحقَّق النبوَّات، وبموته تهلَّل إبراهيم، لكنه خلال العين الشرِّيرة انشغل الفرِّيسي بالغسالات الخارجيَّة وانتقد المسيَّا مخلِّص العالم.

ثانيًا: إذ تعجب الفرِّيسي أن السيِّد المسيح لم يغتسل أولاً قبل الغذاء، قال له الرب:

"**أنتم الآن أيها الفرِّيسيُّون تُنقُّون خارج الكاس والقصْعَة،**

وأمَّا باطنكم فمملوء اختطافًا وخبثًا.

يا أغبياء، أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضًا؟" [٣٩-٤٠]

يرى **القدِّيس أمبروسيوس** أن الكأس التي يذكرها الرب إنما تشير إلى الجسد، فالكأس سريعة الانكسار، تسقط على الأرض فتتحطَّم. هكذا أيضًا الجسد يموت في لحظة ويفسد. أيضًا تشير الكأس إلى آلام الجسد، التي يحتملها الإنسان إن كانت اشتياقات قلبه الداخليَّة ملتهبة. إذن ليتنا لا نركِّز على الكأس في مظهره الخارجي، إنما نستطيع أن نشربه محتملين آلام الجسد إن كان القلب ملتهبًا بالحب. لذا يقول ربَّنا: "أما الروح فنشيط وأما الجسد فضعيف" (مت ٢٦: ٤٢). وكأنه يليق بنا أن نبدأ بالروح الداخلي ليكون قويًا فنحتمل ضعفات الجسد.

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**:

[كانوا يغتسلون قبل الطعام كمن يتطهَّرون من كل دنس. لكن هذا العمل كان فيه غباوة شديدة. فإن الاغتسال بالماء مفيد للغاية لمن هم غير أنقياء في الجسد، لكن كيف يمكنه أن يطهِّر البشر من دنس الفكر والقلب؟...

أخبِرنا أيها الفرِّيسي الغبي أين قدَّم موسى هذه الوصيَّة؟ أيَّة وصيَّة يمكنك أن تشير إليها بأن الرب شرَّعها لتطالب الناس بالاغتسال قبل الأكل، حقًا إن ماء الرش كان قد أُعطيَ بوصيَّة موسى لأجل التطهير الجسدي، بكونه رمزًا للمعموديَّة التي هي بالحق مقدسة ومطهرة في المسيح. الذين دعُوا

للكهنوت اغتسلوا في الماء، إذ هكذا فعل موسى بهرون وباللاويِّين معه. بهذا أعلن الناموس عن المعموديَّة خلال الرمز والظل، مظهرًا أن كهنوته لا يحمل ما يكفي للتقديس، وإنما على العكس كان في حاجة إلى المعموديَّة الإلهيَّة المقدَّسة لأجل التطهير الحقيقي. لقد أظهر لنا الناموس وبطريقة جميلة أن مخلِّص الكل قادر على التقديس والتطهير من كل الدنس خلال المعموديَّة المقدَّسة الثمينة، بالنسبة لنا نحن الجيل الذي تقدَّس لله وصار مختارًا له...

ماذا قال المخلِّص؟

كثيرًا ما انتهز الفرصة ليوبِّخهم، قائلاً: "**أنتم الآن أيها الفرِّيسيُّون تنقُّون خارج الكأس والقصْعة، وأما باطنكم فمملوء اِختطافًا وخبثًا**" [٣٩]... فإنه إذ كان وقت الأكل والجلوس حول المائدة، قدَّم مقارنة بالكأس والقصْعة (طبق) مظهرًا أنه يليق بالذين يخدمون الله بإخلاص أن يكونوا أنقياء وأطهارًا ليس من الدنس الجسدي، وإنما أيضًا من الدنس الخفي في الذهن، وذلك كالذين يخدمون في المطبخ ويعدُّون المائدة إذ يلزمهم إن يغسلوا الأدناس التي في الخارج كما يغسلون حسنًا ما هو في الداخل. أما قوله: "**أليس الذي صنع الخارج صنع الداخل أيضًا؟**" [٤٠]، فيعني أن الذي خلق الجسد خلق النفس أيضًا...

لكن الكتبة والفرِّيسيِّين لم يفعلوا هذا... إذ قال المخلِّص: "تُشبهون قبورًا مْبيضَّة تظهر من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة" (مت ٢٣: ٢٧). لا يريدنا المسيح أن نكون كهؤلاء بل بالحري نكون عُبَّادًا روحيِّين، مقدَّسين، بلا لوم في النفس والجسد. ويقول واحد من الذين في شركتنا: "نقُّوا أيديكم أيها الخطاة، وطهِّروا قلوبكم يا ذوي الرأيين" (يع ٤: ٨). ويتغنَّى النبي داود قائلاً: "قلبًا نقيًا اِخلقه فيّ يا الله، وروحًا مستقيمًا جدِّده في أحشائي" (مز ٥١: ١٠). مرَّة أخرى يتحدَّث إشعياء النبي على لسان الله: "اغتسلوا، تنقُّوا، اعزلوا شرَّ أفعالكم (نفوسكم) من أمام عيني، كفُّوا عن فعل الشرّ" (إش ١: ١٦). لاحظوا دقَّة التعبير: "اعزلوا شرّ نفوسكم من أمام عينيَ". إذ يهرب الشرّ أحيانًا من عيني البشر، لكنه لن يقدر أن يهرب من أمام عينيّ الله. فمادام الله ينظر الخفيَّات، لهذا فمن واجبنا أن ننزع الشرّ من أمام عينيه[1].]

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [لقد أظهر أن المعموديَّة التي أُعطيت تُطهِّر بالإيمان، لأن الإيمان أمر داخلي لا خارجي. لقد احتقر الفرِّيسيُّون الإيمان، واستخدموا الغسلات التي هي من الخارج بينما بقيَ الداخل فيهم مملوء دنسًا[2].]

---

[1] *In Luc Ser 83.*
[2] *Ser. 106.*

ثالثًا: لئلاَّ نظن الحياة الروحيَّة الداخليَّة تحمل تجاهلاً للتصرُّفات الظاهرة خاصة الترفُّق بإخوتنا المحتاجين، قال: "**بل اِعطوا ما عندكم صدقة فهوذا كل شيء يكون لكم نقيًا**" [٤١]. العبادة الروحيَّة الحقَّة تقوم على الانطلاق خارج "الأنا" والتي تترجم عمليًا خلال الصدقة المملوءة حبًا، وقد تحدَّث كثير من الآباء عن الصدقة وفاعليَّتها في بنياننا الروحي:

❖ الصدقة أعظم من ذبيحة... إنها تفتح السماوات! فقد قيل: "صلواتك وصدقاتك صعدت تذكارًا أمام الله" (أع ١٠: ٤). إنها أكثر أهميَّة من البتوليَّة، فقد طَردت عذارى خارج حجال العرس (بعدم الصدقة) بينما دخلت عذارى أخريات داخلاً[1].

❖ الصدقة ليست علاجًا هيِّنًا، فهي توضع على كل جرح... إنها أفضل من الصوم أو النوم على الأرض، إذ إن هذه الأمور مؤلمة وشاقة، أما الصدقة فأكثر نفعًا.

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ اصنع صدقة حقيقيَّة. ما هي الصدقة ! إنها الرحمة! اسمع الكتاب يقول: "اِرحم نفسك فتُرضي الله" (ابن سيراخ ٣٠: ٢٣). نفسك هي شحَّاذ أمامك. ارجع إلى ضميرك مهما كنت تعيش في الشرّ أو الجحود، فتجد نفسك تشحذ، إذ هي في عوز وفقيرة، إنها في حزن... أعطها خبزًا... لو سأل الفرِّيسي: أي خبز أقدِّمه لها؟ يجيب الرب: أعطها صدقة... (بمعنى آخر حب نفسك كما يليق بأن تحب الآخرين، وتصدَّق على نفسك بأن تعطي الغير[2].

القدِّيس أغسطينوس

❖ انظروا هذه المجموعة العظيمة من الأدوية! فرحمة الله تنقِّينا، وكلمته تطهرنا، كما هو مكتوب: "أنتم أنقياء بسبب الكلام الذي كلَّمتكم به" (يو ١٥: ٣)، كما تجد اللحن الشجي: "الصدقة تنجِّي من الموت" (طو ١٢: ٩)، "خبِّئ الصدقة في قلب المسكين يشفع عنك في الأيام "الشرِّيرة[3]" (سيراخ ٢٩: ١٢).

القدِّيس أمبروسيوس

❖ إننا نؤكِّد أنه توجد طرق متعدِّدة للسلوك الفاضل مثل الوداعة والتواضع وغير ذلك من الفضائل اللطيفة، فلماذا حذف السيِّد هذه وأمرهم بالترفُّق؟ أيَّة إجابة نقدِّمها؟ لقد كان الفرِّيسيُّون طمَّاعين،

---

[1] *In Matt. hom 50:5.*
[2] *Ser. On N. T.56:4.*
[3] *In Luc 11:37-54.*

عبيدًا للربح القبيح يجمعون الغنى بطريقة شرهة ويخزِّنوه. تحدَّث عنهم إله الكل قائلاً: "كيف صارت القرية (المدينة) الأمينة (صهيون) زانية؟ ملآنة حقًا، كان العدل يبيت فيها، وأما الآن فقاتلون. صارت فضَّتِك زغْلاً، وخمرك مغشوشة بماء، رؤساؤك متمرِّدون ولغفاء اللصوص، كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا، لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم" (إش ١: ٢١-٢٣).

لقد تطلَّع عن عمد إلى مرضهم الذي سيطر عليهم ونزع طعمهم من جذوره ليخلُصوا من شرِّه وينالوا نقاوة الذهن والقلب فيصيروا عابدين حقيقيِّين.

هكذا عمل المخلِّص في كل هذا بما يناسب خطَّة الخلاص، وإذ دُعي إلى وليمة قدَّم هو طعامًا روحيًا لا لمستضيفه وحده بل لكل الذين معه في الوليمة[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ أمرنا الرحوم أن نُظهر رحمة، وإذ يطلب أن ينقذ الذين خلَّصهم بثمنٍ عظيمٍ، أمَر الذين تدنَّسوا بعد نوالهم نعمة المعموديَّة أن يتطهَّروا جيِّدًا من جديد[٢].

القدِّيس كبريانوس

رابعًا: لئلاَّ تُمارس الصدقة بغير نقاوة، أي بضميرٍ معوجٍ، أوضح لهم أنه إذ يسألهم الصدقة يطلب فيهم الحق ومحبَّة الله، وليس الممارسة في شكليَّاتها الظاهرة، إذ يقول: "**ولكن ويل لكم أيها الفرِّيسيُّون لأنكم تعشِّرون النعنع والسذاب وكل بقل، وتتجاوزون عن الحق ومحبَّة الله، كان ينبغي إن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك**" [٤٢]. إنهم يهتمون بالصغائر لأجل المجد البشري. فيقدِّمون العشور عن النعناع والبقول والسذاب المزروع في بيوتهم أو حدائقهم، ليظهروا للناس أنهم مدقِّقون في تنفيذ الناموس، بينما يتجاهلون الحق ومحبَّة الله، الأمور الإيمانيَّة الحيَّة. يتجاهلون الحق الإلهي ولا يحملون محبَّته في داخلهم، لكنهم يتسربلون بثوب التدقيق في تنفيذ الشريعة، مع أنه كان ينبغي عليهم أن يعملوا هذه ولا يتركوا تلك.

هذا والسذّاب هو شجرة من فصيلة "النجمة" تنمو في فلسطين، تُستخدم في أغراض طبيَّة.

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [يحفظون الأمور العديمة الفائدة، ويهملون الأمور التي تهب الرجاء[٣].]

---

[1] *In Luc Ser. 83.*
[2] *Catena Aurea.*
[3] *In Luc 11:37-54.*

يرى **القدِّيس كيرلس الكبير**[1] أن الفرِّيسيِّين كانوا يدقِّقون في الوصايا التي تمس الزمنيَّات، مثل دفع العشور لكي يكون لهم نصيب فيها، أما الأمور التي تخص القلب والأبديَّات فلا تشغلهم... فالاهتمام بوصايا "العشور" لا تقوم على غيرتهم على إتمام الشريعة بل بسبب طمعهم.

خامسًا: لعل أخطر عدو يفسد الحياة الروحيَّة هو حب الرئاسات والكرامة الزمنيَّة، لذا يحذِّرنا السيِّد بقوله للفرِّيسيِّين:

"**ويل لكم أيها الفرِّيسيُّون،**

لأنكم تحبُّون المجلس الأول في المجامع والتحيَّات في الأسواق.

ويل لكم أيها الكتبة والفرِّيسيُّون المراؤون،

لأنكم مثل القبور المختفية، والذين يمشون عليها لا يعلمون" [٤٣-٤٤].

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هذا هو بالحقيقة البؤس الدنيء، أننا بينما نُحسب أهلاً لأن نكون هياكل، إذ بنا نصير فجأة قبورًا مملوءة فسادًا[2].]

ويقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [إن كان الغير يُعجبون بنا بلا فحص ولا إدراك وبغير معرفة لحقيقة حالنا، فإن هذا لن يجعلنا مختارين في عينيّ الله، العالم بكل الأشياء. لذلك ينصحنا المخلِّص: "**الويل لكم لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها لا يعلمون**". أسألكم أن تلاحظوا قوَّة المثل بوضوح شديد. فإن الذين يريدون أن يحيُّوهم كل الناس في الأسواق، ويحسبوه أمرًا عظيمًا أن ينالوا المتكآت الأولى في المجامع، لا يختلفون قط عن المقابر المختفية التي تبدو من الخارج مزيَّنة حسنًا مع أنها مملوءة كل فساد. أسألكم أن تنظروا كيف يُلام الرياء تمامًا، فإنه مرض خبيث يكرهه الله والناس... ليتنا نكون عبادًا حقيقيِّين لا نطلب أن نرضى الناس، لئلاَّ نُفقد من مركزنا كخدَّام المسيح. يقول الطوباوي بولس: "أفأستعطف الآن الناس أم الله؟ أم أطلب إن أرضي الناس؟ فلو كنت بعد أرضي الناس لم أكن عبدًا للمسيح" (غل ١: ١٠)... كما أن العملات الذهبيَّة المغشوشة مرذولة، هكذا المرائي يحتقره الله والناس[3].]

سادسًا: إذ أبرز خطورة الرياء ومحبَّة المال وحب الكرامات الزمنيَّة على الحياة الروحيَّة الداخليَّة، وجَّه حديثه نحو ناموسي ليُحذره من فكره الحرفي الناموسي، الذي بلا روح، إذ يقول الإنجيلي:

"**فأجاب واحد من الناموسيِّين، وقال له:**

---

[1] *In Luc Ser. 84.*
[2] *In Matt. hom 73.*
[3] *In Luc Ser 84.*

يا معلِّم، حين تقول هذا تشتمنا نحن أيضًا.

فقال: وويل لكم أنتم أيضًا أيها الناموسيّون،

لأنكم تُحمِّلون الناس أحمالاً عسرة الحمل،

وأنتم لا تمسُّون الأحمال بإحدى أصابعكم" [٤٥-٤٦].

يرى **القدِّيس كيرلس الكبير** أنه كان يليق بهذا الناموسي إذ سمع كلمات المخلِّص وشعر أنها تمس ضعفاته، أن يأتي بروح التواضع مقدِّما التوبة، كمريضٍ يطلب الشفاء من الطبيب، قائلاً: اِشفني يا رب فأُشفَى، خلِّصني فأخلُص" (إر ١٧: ١٤)... لكن هذا الناموسي تقدَّم للمخلِّص يتهمه أنه بهذا الحديث عن الفرِّيسيِّين يشتم الناموسيِّين أيضًا، وكأنه قد ثار لكرامته عوض طلب الخلاص من ضعفاته.

لقد اشترك الفرِّيسيُّون مع الناموسيِّين في كثير من الأخطاء. كان الفرِّيسيُّون يعتزلون الشعب كطبقة دينيَّة أرستقراطيَّة، أما الناموسيُّون فيحسبون أنفسهم معلِّمي الناموس، يجاوبون على الأسئلة الخاصة بالناموس أو الشريعة. وقد حمل الفريقان روح العجرفة والكبرياء، ولهم صورة التقوى دون روحها.

كشف السيِّد المسيح عن جراحات الناموسيِّين بقوله: "**ويل لكم أيها الناموسيُّون، لأنكم تُحمِّلون الناس أحمالاً عسرة الحمل، وأنتم لا تمسُّون الأحمال بإحدى أصابعكم**" [٤٦].

يقول **القدِّيس كيرلس السكندري:**

[كان الناموس بالنسبة للإسرائيليِّين محزنًا كما اِعترفوا، وقد عرف التلاميذ اللاهوتيُّون ذلك، إذ انتهروا الذين سعوا لإرجاع الذين آمنوا إلى الطقوس الناموسيَّة، قائلين: "فالآن لماذا تجُرِّبون الله بوضع نيرٍ على عنق التلاميذ لم يستطع آباؤنا ولا نحن إن نحمله؟" (أع ١٥: ١٠)... وقد علِّمنا المخلِّص نفسه ذلك، إذ صرخ قائلاً: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. اِحملوا نيري عليكم وتعلَّموا منِّي، لأني وديع ومتواضع القلب، فتجدوا راحة لأنفسكم" (مت ١١: ٢٨-٢٩). إذن يقول بأن الذين تحت الناموس هم تعابى وثقيلوا الأحمال، بينما يدعو نفسه وديعًا لأنه ليس في شخصه شيئًا من الناموس. وكما يقول بولس: "من خالف ناموس موسى، فعلى شاهديْن أو ثلاثة شهود يموت بدون رأفة" (عب ١٠: ٢٨). إذن ويل لكم أيها الناموسيُّون- كما يقول- لأنكم تُحمِّلون من هم تحت الناموس أحمالاً عسِرة الحمل، وأنتم لا تمسُّون الأحمال. لأنهم بينما يأمرون بالتزام حفظ وصايا موسى بلا كسر للوصيَّة، ويحكمون بالموت على من يستهين بها، إذا بهم لا يُبالون بتحقيق أصغر الوصايا الهيِّنة. وإذ كان ذلك أمرًا عاديًا قال الحكيم بولس موبِّخًا إيَّاهم: "هوذا أنتَ تُسمَّى

يهوديًا، وتتكل على الناموس، وتفتخر بالله، وتعرف مشيئته، وتميِّز الأمور المتخالفة متعلِّمًا من الناموس، وتثق أنك قائد للعميان ونور للذين في الظلمة، ومهذب للأغبياء، ومعلِّم للأطفال، ولك صورة العلم والحق في الناموس، فأنت إذًا الذي تعلِّم غيرك ألست تعلِّم نفسك؟ الذي تكرز ألا يُسرق أتسرق؟ الذي تقول أن لا يُزني، أتزني؟ الذي تستكره الأوثان، أتسرق الهياكل؟ الذي تفتخر بالناموس، أبتعدِّي الناموس تُهين الله؟" (رو ٢: ١٧-٢٣). فإن المعلِّم يُحتقر وتسوء سمعته حينما يكون سلوكه غير متَّفق مع كلماته[١].]

يُعلِّق **الأب ثيؤفلاكتيوس** على كلمات السيِّد ضد الناموسيِّين، قائلاً: [بحق قيل أنهم لا يريدون أن يلمسوا أحمال الناموس بإحدى أصابعهم، بمعنى أنهم لا يُتمِّمون أقل نقطة في الناموس، بينما يظهرون كمن يحفظونه ويسلِّمونه محفوظاً للآخرين، فهم يسلكون على نقيض آبائهم بدون إيمان وبغير نعمة المسيح[٢].]

يقول **القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص**: [أنهم قضاة قاسون على الخطاة مع أنهم مصارعون ضعفاء، يحمِّلون أثقال وصايا الناموس وهم واهنون في حملها، لا يرغبون في الاقتراب إليها أو لمسها خلال الحياة الجادة[٣].]

سابعًا: لم يقف أمر الناموسيِّين عند التمسُّك بالحرف القاتل دون روح الوصيَّة، **فجعلوا** من الناموس ثقلاً يئن تحته البشر، بينما يجدون لأنفسهم مبرِّرات للهروب حتى من لمس أصغر الوصايا. لم يقفوا عند حدّ الادعّاء بالمعرفة والتعليم دون الممارسة للحياة الفاضلة، لكنهم صنعوا ما هو أيضًا مرّ وقاسي، فإنهم يبنون قبور الأنبياء ويزيِّنونها، لينالوا مجدًا من الناس. وهم لا يدركون أنهم بهذا يشهدون على أنفسهم أنهم أبناء قتلة الأنبياء، يكملون عمل آبائهم. بقتل الوارث نفسه أو المسيَّا المخلِّص، ما حدث في الماضي يرتبط بالحاضر والمستقبل إذ كان الصليب حاضرًا في عيني السيِّد، ويرى أياديهم تمتد لسفك دمه البريء. بهذا يشترك معاصرو السيِّد المسيح في جريمة آبائهم الخاصة بقتل جميع الأنبياء من دم هابيل إلى دم زكريَّا الذي أُهُلك بين المذبح والبيت.

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**: [آباؤهم قتلوا الأنبياء، وإذ آمنوا أنهم أنبياء قدِّيسون صاروا قضاه ضد الذين قتلوهم. لقد صمَّموا أن يكرموا الذين حُكم عليهم بالموت، وبتصرُّفهم هذا أدانوا من أخطاؤا . ولكن الذين أدانوا آباءهم على جرائمهم القاسية كانوا في طريقهم أن يرتكبوا جرائم مشابهة، بل وأبشع

---
1 *In Luc Ser 85.*
2 *Catena Aurea.*
3 *Catena Aurea.*

منها، إذ قتلوا رئيس الحياة، مخلِّص الجميع، وأضافوا إلى جريمة قتلهم له جرائم أخرى. فقد أُقتيد استفانوس للموت، ليس لاتهامه بشيء دنيء، وإنما لأنه نصحهم وتحدَّث معهم ممَّا ورد في الكتب الموحَى بها. وجرائم أخرى ارتكبت بواسطتهم ضد كل قدِّيس كرز بالإنجيل رسالة الخلاص. هكذا برهن الناموسيُّون والفرِّيسيُّون بكل طريقة أنهم مبغضو الله ومتكبِّرون ومحبَّون للملذَّات أكثر من حبِّهم الله، وبكل وسيلة يكرهون الخلاص لأنفسهم، لذلك أضاف السيِّد كلمة " الويل" لهم على الدوام[١].]

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لم يُصلح حال اليهود خلال الأخطاء الماضيَّة، بل عندما رأوا الآخرين يخطئون ويعُاقَبون لم ينصلحوا إلى ما هو أفضل، بل ارتكبوا مثلهم نفس الأخطاء، ومع ذلك فلا يُعاقب إنسان على خطايا الآخرين[٢].] بمعنى آخر لا يستطيعون أن يقدِّموا عُذرًا بعدم مسئوليَّتهم عمَّا فعله آباؤهم، لأنهم وإن كانوا لا يُدانون على ذلك فهم يرتكبون ذات شرّ آبائهم.

ماذا يعني بقوله: "**من دم هابيل إلى دم زكريَّا، الذي أهُلك بين المذبح والهيكل**" [٥١]؟

قلنا أنه في عصر **القدِّيس جيروم** وُجد ثلاثة آراء من جهة زكريَّا هذا، **إما زكريَّا النبي أحد الأنبياء الصغار، أو زكريَّا والد يوحنا المعمدان، أو زكريَّا بن يهوياداع** (١ أي ١٤: ٢١)، **وقد رجَّح القدِّيس الرأي الثالث**[٣]. **أما القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص**[٤] فيرى أنه زكريَّا والد يوحنا المعمدان. فإن أخذنا برأي **القدِّيس جيروم** والذي يرجِّحه كثير من الآباء، فإن هابيل قُتل في الحقل بينما قتل زكريَّا في ساحة الهيكل. وكأن دماء الشهداء التي بذُلت ظلماً قد ملأت الأماكن العامة كما في داخل مقدَّسات الرب نفسه. أيضًا إن صح اعتبار هابيل ليس بكاهن بينما كان زكريَّا كاهنًا، فإن الشهداء قد اِنضم إلى صفوفهم من كان من الشعب، وأيضًا من كان من الكهنة!

ثامنًا: يختم السيِّد المسيح ويلاته للناموسيِّين بقوله: "**ويل لكم أيها الناموسيُّون، لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة، ما دخلتم أنتم والداخلون منعتموهم**" [٥٢].

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [ينتهر الرب اليهود، ويعلن أنهم مستحقُّون الدينونة العتيدة، لأنهم بينما أخذوا على عاتقهم تعليم المعرفة الإلهيَّة للآخرين إذ بهم يعوقونهم، لأنهم هم أنفسهم لا يعترفون بما يُعلِّمون به[٥].]

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [الذين يبحثون في الكتب المقدَّسة، ويعرفون إرادة الله، إن كانوا أناسًا

---

[1] *In Luc Ser 85*

[2] *In Matt. Hom 74.*

[٣] الإنجيل بحسب متى، ١٩٨٣م، ص ٤٨٩.

[4] *Orat. In Diem Nat. Christi.*

[5] *In Luc 11:37-54.*

فاضلين وغيورين على صلاح الناس، ومهرة في قيادتهم قيادة سليمة في كل أمر عجيب، يكافئون بكل بركة إن تمَّموا واجباتهم بغيرة. هذا ما يؤكِّده المخلِّص بقوله: "فمن هو العبد الأمين الحكيم الذي أقامه سيِّده على خدَمِه ليعطيهم الطعام في حينه، طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيِّده يجده يفعل هذا، الحق أقول لكم أنه يُقيمه على جميع أمواله" (مت ٢٤: ٤٥-٤٧). أما إن كان متراخيًا ومهملاً ومعثرًا لمن هم في عهدته، فينحرفون عن الطريق المستقيم، مثل هذا يكون بائسًا ويسقط في خطر العقوبة بلا رجاء. مرَّة أخرى يقول المسيح نفسه: "من أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بي، فخير له أن يُعلَّق في عنقه حجر الرحي ويغُرَّق في لُجَّة البحر" (مت ١٨: ٦). هكذا برهن المسيح للذين حسبوا أنفسهم مهرة في الناموس أنهم يرتكبون أخطاء جسيمة كهذه، أقصد بهم الكتبة والناموسيِّين. إذا قال لهم "**ويل لكم أيها الناموسيِّين لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة**..." نفهم مفتاح المعرفة أنه الناموس ذاته، والتبرير بالمسيح أقصد الإيمان به. فمع كوْن الناموس ظلاً ورمزًا، فإن هذه الظلال تشكِّل لنا الحق وهذه الرموز تصوِّر لنا سرّ المسيح بطرق متعدِّدة... فإن كل كلمة في الكتاب المقدَّس الإلهي الموحَى به تنظر إليه وتشير نحوه... فكان من واجب الذين يُدعون ناموسيِّين بكونهم يدرسون ناموس موسى وعارفين لكلمات الأنبياء القدِّيسين، أن يفتحوا أبواب المعرفة لجماهير اليهود. لأن الناموس يقود البشر إلى المسيح وإعلانات الأنبياء التقويَّة تقود إلى التعرُّف عليه... لكن هؤلاء الذين دُعوا ناموسيِّين لم يفعلوا ذلك، بل على العكس أخذوا مفتاح المعرفة الذي به يُفهم الناموس والإيمان المُحق بالمسيح، لأنه بالإيمان معرفة الحق، كما يقول إشعياء "إن لم تؤمنوا فلا تفهموا" (إش ٧: ٩)... لقد أخذوا مفتاح المعرفة، إذ لم يسمحوا للناس أن يؤمنوا بالمسيح مخلِّص الجميع[1].]

أخيرًا إذ فضح الرب جراحات الكتبة والفرِّيسيِّين ابتدأوا "**يحنِقون جدًا ويصادرونه على أمور كثيرة. وهم يراقبونه طالبين أن يصطادوا شيئًا من فمه ليشتكوا عليه**" [٥٣-٥٤].

لقد أراد لهم الشفاء من جراحات النفس الداخليَّة، لكنهم في جهالة اِزدادوا مقاومة خلال قسوة القلب إذ حنقوا جدًا، وفساد الإرادة، إذ صاروا "**يصادرونه**"، وخلل العقل إذ صاروا يراقبونه بكل فكرهم ليقتنصوا له خطأ من فمه. يهذا أعلنوا بالأكثر فسادهم الداخلي عاطفيًا وإراديًا وفكريًا.

---

[1] *In Luc Ser 86.*

الأصحاح الثاني عشر

الصديق السماوي والقطيع الصغير

في الأصحاح السابق كشف الرب ضعفات بعض القيادات الدينيَّة لما حملته من شكليَّات في العبادة بلا أعماق، وحرفيَّة في فهم الناموس والوصيَّة بلا روح، مع ارتباط مرّ بمحبَّة العالم والكرامات الزمنيَّة، والآن إذ جاء هذا الصديق ليقيم لنفسه قطيعًا جديدًا ليكون جسده الواحد، أبرز سمات هذا القطيع الجديد الصغير ليكون منسجمًا ومتناغمًا مع راعيه السماوي الذي هو عريسه ومخلِّصه ورأسه العامل في الجسد.

١. **القطيع الجديد وخمير الفرِّيسيِّين** ١-٣.
٢. **القطيع الجديد والخوف** ٤-٥.
٣. **القطيع الجديد والاتكال على الله** ٦-٧.
٤. **القطيع الجديد والشهادة** ٨-١٢.
٥. **القطيع الجديد والطمع** ١٣-٢١.
٦. **القطيع الجديد والزمنيات** ٢٢-٢٣.
٧. **القطيع الجديد والسماويَّات** ٢٤-٣١.
٨. **القطيع الجديد ومسرة الآب** ٣٢.
٩. **القطيع الجديد والصدقة** ٣٣-٣٤.
١٠. **القطيع الجديد ومجيء الصديق** ٣٥-٤٠.
١١. **القطيع الجديد والأمانة على الوكالة** ٤١-٤٨.
١٢. **القطيع الجديد ونار الروح** ٤٩.
١٣. **القطيع الجديد والألم** ٥٠-٥٣.
١٤. **القطيع الجديد وروح التمييز** ٥٤-٥٦.
١٥. **القطيع الجديد والحب الغافر** ٥٧-٥٩.

١. القطيع الصغير وخمير الفرِّيسيِّين

إذ أراد صديقنا السماوي أن يقيم مؤمنيه قطيعًا جديدًا يحمل سماته السماويَّة، أول وصيَّة قدَّمها

لكنيسته خلال تلاميذه هي عزل "الخميرة القديمة"، خميرة الفرِّيسيِّين، أي الرياء، حتى لا تقوم الكنيسة على أساس خاطئ. لقد أراد تحطيم الخميرة القديمة الفاسدة لكي تُقدَّم كفطير الفصح الجديد، وكما يقول الرسول بولس: "ألستم تعلمون أن خميرة صغيرة تخمِّر العجين كله؟ إذًا نقُّوا منكم الخميرة العتيقة لكي تكونوا عجينًا جديدًا كما أنتم فطير، لأن فصحنا أيضًا قد ذُبح لأجلنا، إذًا لنعيِّد ليس بخميرة الشرّ والخبث، بل فطير الإخلاص والحق" (١ كو ٥: ٦-٨).

"وفي أثناء ذلك إذ اجتمع ربوات الشعب
حتى كان بعضهم يدوس بعضًا
ابتدأ يقول لتلاميذه:
أولاً تحرَّزوا لأنفسكم من خمير الفرِّيسيِّين الذي هو الرياء." [١].

بالرياء أراد الفرِّيسيُّون أن يصطادوا السيِّد المسيح بكلمة من فيه لكي يحجبوا الناس عنه، فلا تنهار شعبيَّتهم، ولا يفقدون كرامتهم وسلطانهم، لكن تصرُفهم جاء بنتيجة عكسيَّة، فقد جاء عشرات الألوف يزحمون السيِّد مشتاقين إلى الالتقاء معه. وهكذا قبل أن يحذِّر السيِّد المسيح قطيعه من الرياء الذي للفرِّيسيِّين أوضح الإنجيلي لوقا وبدرس عملي كيف يفشل الرياء في تحقيق غاية السالكين به، وكما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [هكذا الحق قوي، وكل خداع ضعيف[1].]

بالرياء يود الإنسان أن يجتذب الكل حوله ويحرمهم من الحق، لكن الرياء ينكشف، وينفر الناس من المرائين ليلتصقوا بالحق. هذا من جانب، ومن جانب آخر فقد شبَّهه السيِّد المسيح بالخميرة التي تعمل بالرغم من صغر حجمها في العجين كله، معلنًا أنه مفسد للإنسان بكليته، يفقده كل نقاوة وفضيلة روحيَّة في القلب والفكر والأحاسيس، حتى وإن ارتدى ثوبًا من التقوى الظاهرة والقدرة على التعليم والغيرة على المقدَّسات.

❖ الرياء يكرهه الله، ويمقته الإنسان. لا يجلب مكافأة، وبلا منفعة تمامًا في خلاص النفس، بل بالحري يكون علَّة هلاكها.

إن كان الرياء لا ينفضح أحيانًا، لكن إلى حين، إذ لا يدوم كثيرًا، بل ينكشف كل شيء، فيجلب على صاحبه وبالاً، وهكذا يكون أشبه بامرأة قبيحة المنظر تُنزَع عنها زينتها الخارجيَّة التي وُضعت لها بطرق صناعيَّة.

---

[1] *Catena Aurea.*

❖ الرياء غريب عن سمات القدِّيسين، إذ يستحيل أن يفلت شيء مما نفعله أو نقوله من عيني اللاهوت، إذ "**ليس مكتوم لن يُستعلن، ولا خفي لن يُعرف**" [٢]. كل كلماتنا وأعمالنا ستُعلن في يوم الدين. لذلك فالرياء مُتعب وبلا منفعة. يليق بنا أن نتزكَّى كعباد حقيقيِّين نخدم الله بملامح صريحة وواضحة[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ تُمدح الخميرة بكونها مرتبطة بخبز الحياة، وتُلام حين تعني المكر المستمر المُر.

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ يُسمى الرياء خميرة، إذ هو يخدع نيَّات من يمارسه ويضلِّلها. ليس شيء يُفسد شخصيَّة الإنسان مثل الرياء.

❖ وجَّه حديثه للفرِّيسيِّين، وكأنه يقول لهم: أيها الفرِّيسيُّون، ما تتكلَّمون به في الظلمة، أي كل مساعيكم لتجرِّبونني في مخابىء قلوبكم، يُسمع به في النور، لأني أنا هو النور، فبنوري تنفضح خداعات ظلمتكم. وما تنطقون به في الأذن والمخادع، أي ما تتهامسون به في آذان بعضكم البعض سوف يُعلن على السطح، إذ هو مسموع لي كمن يصرخ بصوتٍ عالٍ من فوق السطح.

هنا أيضًا يمكن أن يُفهم بالنور "الإنجيل"، وبالسطح نفوس التلاميذ المرتفعة. فما قد دبَّره الفرِّيسيُّون معًا، سيُنادى به ويُكشف خلال نور الإنجيل، بالمبشِّر العظيم، الروح القدس، الذي يسيطر على نفوس التلاميذ (العالية).

الأب ثيؤفلاكتيوس بطريرك بلغاريا

٢. القطيع الجديد والخوف

إذ يطلب مِن كنيسته، القطيع الجديد، ألاَّ تحمل خمير الفرِّيسيِّين الذي هو الرياء، فلا يكون خارجها غير داخلها، يسألها أن تسلك بمخافة الرب وحده، دون خوف الناس. فمن يخاف الرب لا يهتم بحكم الناس، الأمر الذي ينزع عنه كل رياء لأنه لا يطلب مدحهم ولا يضطرب لذمهم، لا يسألهم المكافأة ولا يرهب بطشهم.

"**ولكن أقول لكم يا أحبائي،**

لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد

[1] *In Luc Ser 86.*

وبعد ذلك ليس لهم ما يفعلون أكثر.
بل أريكم ممن تخافون:
خافوا من الذي بعد ما يقتل له سلطان أن يلقى في جهنم.
نعم أقول لكم من هذا تخافوا" [٤–٥].

❖ يلزمنا أن نخاف عذاب النفس لا قتل الجسد، فالموت يمثل نهاية طبيعيَّة للعذاب الجسدي لكن ليس نهاية للعقاب. فهو يضع نهاية لآلام الجسد (الزمنيَّة)، أما عقاب النفس فأبدي. يلزمنا أن نخاف الله وحده![١]

القدِّيس أمبروسيوس

❖ هذه الوصيَّة تخص الذين يحبُّونه. ولكن من هم الذين يحبُّونه؟ نقول أولئك الذين لهم فكر مشابه له، غيورون في التبعيَّة على أثر خطواته. هذا ما يحثُّنا عليه الرسول بقوله: "فإذا قد تألَّم المسيح لأجلنا بالجسد تسلَّحوا أنتم أيضًا بهذه النيَّة" (١ بط ٤: ١). لقد بذل حياته لأجلنا وكان بين الأموات كمن هو حرّ (مز ٨٨: ٥). فالموت لم يهاجمه بسبب الخطيَّة مثلنا، إذ كان ولا يزال بلا خطيَّة، غير قادر على صنع شرٍ، إنما احتمل الآلام بإرادته لأجلنا من أجل محبَّته لنا غير المحدودة. لنصغ إليه، إذ قال بوضوح: "ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبَّائه" (يو ١٥: ١٣). أفلا تحسب دناءة مُرة ألا نرُد للمسيح دينه الضروري جدًا، الذي اِقترضناه منه؟

بطريقة أخرى، نقول إننا كأحبَّاء له يلزمنا ألا نخاف الموت بل بالحري نتمثَّل بالآباء القدِّيسين. فعندما جُرِّب الأب إبراهيم قدَّم ابنه الوحيد اسحق، حاسبًا أن الله قادر أن يقيمه من الأموات (عب ١١: ١٩). أي رعب من الخوف يمكن أن يهاجمنا وقد أبطل "الحياة (المسيح)" الموت، لأن المسيح هو القيامة والحياة (يو ١١: ٢٥).

ولنضع أيضًا في ذهننا أن الأكاليل تُقتنى بالجهاد. فإن المصارعين الأقوياء في الحلقات ينالون الكمال بالجهاد العنيف مع الخبرة. الشجاعة والذهن الشهم هما اللذان يخدمان أصحاب المهارة في المعارك. أما من يلقي عنه دِرعه يحتقره العدو، وإن عاش الهارب من المعركة، يحيا كذليلٍ. أما الذي ثبُت في المعركة، ووقف ببسالة وشهامة بكل قوَّته ضد العدو، فيُكرم بنواله النصرة، وإن سقط (جريحًا) فيكون موضع إعجابٍ. هكذا يليق بنا أن نسلك، محتملين بصبر، وثابتين في الصراع بشجاعة، فننال

[1] *In Luc 12:1-7.*

المكافأة العظيمة، ونكون موضع إعجاب، ونقتني لأنفسنا بركات الله، أما رفض احتمال موت الجسد من أجل محبَّة المسيح فيجلب علينا عقابًا أبديًا لا ينقطع. لأن غضب الإنسان يبلغ نهايته عند حدود الجسد، ويكون موت الجسد هو نهاية صراعهم ضدَّنا، وأما إن عاقب الله فالخسارة لا تمس الجسد وحده... بل تمس النفس البائسة أيضًا فتسقط تحت العذابات.

ليته يكون نصيبنا هو الموت المكرَّم، الذي يُصعدنا إلى بداية الحياة الأبديَّة، والذي بالضرورة يلتصق بالبركات النابعة عن الفيض الإلهي. لنهرب من الحياة المخجلة ولنحتقرها، الحياة الكريهة المؤقَّتة التي تقود إلى عذاب أبدي مرّ[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ انظر كيف جعل ربَّنا تلاميذه فوق الكل، إذ حثَّهم أن يستخفُّوا بالموت الذي يرعب الكل! وفي نفس الوقت قدَّم تأكيدات لخلود النفس[٢].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ قال أحد القدِّيسين: أن الجسد بخوفه من التجارب – كي لا يتضايق أو يخسر حياته – يصبح صديقًا للخطيَّة، ولهذا يُجبره الروح القدس على الموت لأنه إن لم يمت فلا يتغلَّب على الخطيَّة.

إذ شاء أحد أن يكون مسكنًا للرب عليه أن يقهر جسده، ويخدم الرب، ويعمل وصايا الروح، ويحفظ نفسه من أعمال الجسد التي كتب عنها الرسول. الجسم الممزوج بالخطيَّة يرتاح بأعمال الجسد، أما ثماره فلا تريح روح الله...

أموت هنا حتى لا أري موت النفس الحقيقي أي الانفصال عن الله. خير لي أن أموت هنا من أجل الطهارة عن أن أعيش حياة شرِّيرة لقد اخترت هذا الموت بحرِّيتي من أجل خطاياي[٣].

الأب مار إسحق السرياني

٣. القطيع الجديد والاتِّكال على الله

إذ أراد السيِّد المسيح أن يشجِّعنا في جهادنا الروحي فلا نخاف موت الجسد، أكد لنا رعايته حتى لأجسادنا، بل ولشعور رؤوسنا التي تبدو في أعيننا أحيانًا بلا ثمن. إنه رب النفس والجسد معًا، يهتم بحياتنا في كلِّيتها، إذ يقول:

---

[1] *In Luc Ser 87.*

[2] *In Matt. hom 22.*

[٣] مقال [منشورات النور: إسحق السرياني: (نقله إلى العربية الأب إسحق عطاالله)، بيروت].

"أليست خمسة عصافير تباع بفلسين،

وواحد منها ليس منسيًا أمام الله؟

بل شعور رؤوسكم أيضًا جميعها محصاه،

فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة" [٦-٧].

❖ تأمَّل عظم رعايته بالذين يحبُّونه. فإن كان حافظ المسكونة يهتم هكذا حتى بالأمور التي بلا قيمة ويتنازل ليتحدَّث عن طيور صغيرة (لو ١٢: ٦-٧)، فكيف يمكنه أن ينسى الذين يحبُّونه والذين يتأهَّلون لافتقاده لهم، إذ يعرف كل دقائق حياتهم حتى عدد شعور رؤوسهم؟...

ليتنا لا نشك أن يده الغنيَّة تهب نعمته للذين يحبُّونه. فإما أنه لا يسمح لنا أن نسقط في تجربة، أو إن كان بحكمته يسمح لنا أن نسقط في الفخ إنما ليتمجَّد خلال الآلام، واهبًا إيَّانا بكل تأكيد قوَّة الاحتمال. الطوباوي بولس هو شاهدنا في ذلك إذ يقول: "الله أمين (قوي)، الذي لا يدعكم تجرَّبون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضًا المنفذ لتستطيعوا أن تحتملوا" (١ كو ١٠: ١٣)[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ إن كان الله لا ينسى العصافير، فكيف ينسى الإنسان؟ وإن كانت عظيمة هكذا وأبديَّة حتى أن العصفور وعدد شعور رؤوسنا ليس مخفيًا أمام علمه فكم يُحسب بالأكثر جاهلاً من يظن أن الرب يجهل القلوب الأمينة أو يتجاهلها؟...

العصافير الخمسة على ما يبدو لي هي حواس الجسد الخمس: اللمس والشم والتذوق والنظر والسمع. العصافير كالجسدانيين تنقر قذارة الأرض لتطلب غذائها في الأراضي البور ذات الرائحة النتنة، وتخطىء فتسقط في الشباك فلا تقدر على الارتفاع نحو الثمار العالية والوليمة الروحيَّة. فإغراءات الشباك تسبي في ثناياها تحركات أرواحنا. والتهاب طبيعتنا ونشاطنا وطهارتنا هذه كلها تتبدد خلال الاهتمام بالأرضيات والماديات واقتنائنا ترف هذا العالم. والآن بعد سبينا صار أمامنا نوعان من الملذَّات، إما العبوديَّة للخطيَّة أو التحرَّر منها، فالمسيح يحرَّرنا والعدو يبيعنا. يعرضنا للبيع ليميتنا بينما يفدينا المسيح ليخلصنا. وقد ذكر متى عصفورين (مت ١٠: ٢٩) إشارة إلى الجسد والروح...

لقد أُعطينا بالنعمة أن نطير، لكن اللذة تسبينا، فتصير الروح ثقيلة بفخاخ الشر وتنحدر إلى مستوى طبيعة الجسد الثقيلة.

[1] *In Luc hom 87.*

قيل أنه لا يسقط واحد منها بدون إذن الله، فالساقط ينحدر نحو الأرض، أما الذي يطير فتحمله النعمة الالهيَّة... فلا تخشى إذن سطوة الشيطان بل خف غضب الله.

النفس أيضًا شُبهت بعصفورٍ، إذ قيل: "نجت أنفسنا مثل العصفور من فخ الصياد" (مز ١٢٣: ٧)، وفي موضع آخر: "كيف تقولون لنفسي: اهربوا إلي جبالكم كعصفورٍ" (مز ١١: ١)، كما شُبه الإنسان بالعصفور: "أما أنا فكعصفورٍ منفرد علي السطح" (مز ١٠٢: ٧)، إذ الإنسان مكون من عصفورين في واحدٍ، كإتحاد الجناحين اللذين يتعاونا في خفة ليرتفع فيغلب الطبع الروحي علي المادي.

يوجد عصفور صالح يقدر بالطبيعة (الروحيَّة) أن يطير، وعصفور شرِّير لا يقدر أن يطير بسبب النجاسات الأرضية، وهذا الأخير يُباع بفلسين... ما أبخس ثمن الخطايا؟ فالموت يشمل الجميع، أما الفضيلة فثمينة! يعرضنا العدو للبيع كالعبيد الأسرى ويّقيمنا بثمن بخس، أما الرب فيعاملنا كعبيد صالحين خلقهم علي صورته ومثاله، يّقيمنا بثمنٍ عظيمٍ، إذ يقول الرسول: "قد أُشتريتم بثمن" (١ كو ٦: ٢٠). نعم أنه ثمن غالٍ لا يحُسب بفضة بل بالدم الثمين. لأن المسيح مات لأجلنا وحرَّرنا بدمه الثمين، كما يشير القدِّيس بطرس في رسالته: "عالمين أنكم أفتديتم، لا بأشياء تفنى بفضة أو ذهب من سيرتكم الباطلة التي تقلدتموها من الآباء، بل بدمٍ كريمٍ كما من حمل بلا عيب ولا دنس دم المسيح" (١ بط ١: ١٨-١٩)، نعم هو دم ثمين لأنه دم جسد بلا دنس، دم ابن الله الذي فدانا ليس فقط من لعنة الناموس (غل ٣: ١٣) بل ومن موت الخطيَّة الأبدي[١].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ العصافير الخمس تُفهم بطريقة سريَّة الحواس الخمس التي لها إدراكات علويَّة للأمور السماويَّة: ترى الله، وتسمع الصوت الإلهي، وتتذوق خبز الحياة، وتشتم رائحة المسيح، وتمسك كلمة الحياة. هذه الحواس تُباع بفلسين، إذ تُحسب رخيصة بواسطة الذين يُهلكون ما هو من الروح وهم غير منسيين أمام الله[٢].

العلامة أوريجينوس

❖ هذه الحواس تُباع بفلسين أي بالعهدين الجديد والقديم، ولذلك فهم غير منسيين من الله[٣].

---

[1] *In Luc 12.*
[2] *Catena Aurea.*
[3] *Catena Aurea*

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ رأس الإنسان – سريًا – هو فمه، وشعره هي أفكاره المكشوفة في عيني الله.

القدِّيس كيرلس الكبير

٤. القطيع الجديد والشهادة

"وأقول لكم كل من اعترف بي قدام الناس

يعترف به ابن الإنسان قدام ملائكة الله.

ومن أنكرني قدام الناس ينكر قدام ملائكة الله.

وكل من قال كلمة علي ابن الإنسان يُغفر له، وأما من جدف علي الروح القدس فلا يغُفر له.

ومتى قدَّموكم إلي المجامع والرؤساء والسلاطين فلا تهتموا كيف أو بما تحتجون أو بما تقولون.

لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه" [٨-١٢].

إن كانت الخطيَّة قد أفسدت العصافير الخمسة أي حواسنا الداخليَّة، فعوض انطلاقها بالروح القدس نحو الإلهيات لترى وتسمع وتتذوق وتلمس وتشتم ما هو أبدى وإلهي، إذا بها تسقط في فخاخ الملذّات وترتبط بحبال العالم، وتصير عاجزة عن الطيران أسيرة فخاخ العدو تحت سلطانه العنيف المهلك. لهذا فإن الإنسان حتى في تدينه لم يقدر أن يرتفع إلي فوق بل صار في عبادته وكرازته أسير المجد الباطل والرياء وأحيانا الطمع المادي الأمور التي وهبته فكرًا فرِّيسيا ناموسيًا، يهتم بالحرف القاتل عِوَض الروح العميق الذي يبنى. وقد افتدانا الرب ليطلقنا من هذه الفخاخ لنحيا في هذا العالم شهود حق للمخلِّص خلال حياتنا السماويَّة وفكرنا الجديد وإنساننا الروحي الذي هو من عمل إلهنا... نشهد له هنا فيشهد لنا ابن الإنسان في المقادس السماويَّة عينها.

لقد دفع دمه ثمنًا لانتزاعنا من فخ الرياء، مؤكدًا لنا أن ما نقوله في الظلمة يُستعلن في النور، وما ننادى به الأذن يعلن علي السطوح... والآن هاهو يؤكد أن ما نفعله هنا كما في الظلمة أو في الأذن يعلنه ربّنا يسوع نفسه أمام ملائكته وقدِّيسيه في الرب العظيم.

إن كان المراؤون يفعلون الشر خفيَّة فينفضحون، فعلم الكنيسة الظاهر والخفي هو الاعتراف بالمخلِّص لكي تتمجد حقيقة!

❖ الرب غير مقتنع بالإيمان الداخلي وحده، إنما يسألنا الاعتراف الظاهر، حاثًا إيَّانا على الثقة

والحب العظيم. ولما كان هذا نافعًا للجميع قال: "كل من اعترف بي..."[1]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ **"لأنك أن اعترفت بفمك بالرب يسوع، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات، خلصت"** (رو ١٠: ٩). لقد وضح سرّ المسيح في هذه الكلمات بطريقة رائعة.

أول كل شيء من واجبنا أن نعترف بأن الابن المولود من الله الآب، الابن الوحيد الذي من جوهره، الله الكلمة، هو رب الكل، ليس كمن نال الربوبية من الخارج بل تُنسب له بكونه الرب بالحق بالطبيعة، كما الآب أيضا. ثانيًا يليق بنا أن نؤمن بأن الله أقامه من الأموات، بمعنى أنه إذ صار إنسانًا تألَّم في الجسد من أجلنا وقام من الأموات، لذلك كما قلت الابن هو الرب... هو وحده الرب بالطبيعة بكونه الله الكلمة فوق كل خليقة. هذا ما يعلمنا إيَّاه الحكيم بولس، قائلاً: " لأنه وإن وُجد ما يُسمى آلهة سواء كان في السماء أو علي الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرة، لكن لنا إله واحد الآب الذي منه جميع الأشياء ونحن له، ورب واحد يسوع المسيح الذي به جميع الأشياء ونحن به" (١ كو ٨: ٥-٦)...

من يعترف بالمسيح أمام الناس أنه الله الرب، يعترف به أمام ملائكة الله ولكن أين؟ وكيف؟ واضح أنه في ذلك الوقت عندما ينزل من السماء في مجد أبيه مع الملائكة القدِّيسين في نهاية هذا العالم، حيث يكلل المعترفين به الحقيقيين الذين لهم الإيمان الأصيل غير المتردد... هناك تتلألأ جماعة الشهداء القدِّيسين الذين احتملوا الجهاد حتى بذل الدم، وقد كرموّا المسيح بصبرهم، ولم ينكروا المخلِّص، ولم يكن مجده غير معروف لديهم، بل وقدَّموا ولاءهم له. مثل هؤلاء يمدحهم الملائكة القدِّيسون الذين يمجدون المسيح مخلِّص الكل من أجل الكرامات التي يهبها لقدِّيسيه والتي يستحقونها. هذا ما يعلنه المرتل: "تخبر السماوات بعدله (ببره)، لأن الله هو الديان" (مز ٥٠: ٦). هذا هو نصيب المعترفين به.

أما البقيَّة التي جحدته واستهانت به فستنكر، عندما يقول لهم كما سبق فقيل بأحد الأنبياء قديمًا: "كما فعلت يُفعل بَك، عملك يرتد علي رأسك" (عو ١٥). وينكرهم بهذه الكلمات: "لا أعرفكم... تباعدوا عنى يا جميع فاعلي الظلم" (لو ١٣: ٢٧).

من هم هؤلاء الذين يُنكرون؟

أولاً، الذين عندما يسقطون تحت ضغط الاضطهاد وتحل بهم ضيقة ينكرون الإيمان، هؤلاء

[1] *In Matt. hom 34.*

يفقدون الرجاء كلية من جذوره، فلا توجد كلمات بشريَّة يمكن أن تعبر عن ذلك إذ ينالون غضبًا ودينونة ونارًا لا تُطفأ.

بنفس الطريقة الذين يتبعون هرطقة والذين يعلّمون بها، هذه الهرطقة تنكره كأن يتجاسر البعض فيقول أن كلمة الله، الابن الوحيد، ليس هو الله بالطبيعة والحق[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ [إنكار المسيح خلال الحياة الفاسدة التي لا تليق بنا].

توجد أيضًا وسائل أخرى للإنكار يصفها القدِّيس بولس، قائلاً: "يعترفون بأنهم يعرفون الله، ولكنهم بالأعمال ينكرونه" (تى ١: ١٦)، وأيضا: "وإن كان أحد لا يعتني بخاصته ولاسيما أهل بيته فقد أنكر الإيمان، وهو أشر من غير المؤمن" (١ تي ٥: ٨)، وأيضا: "(هربوا من) الطمع الذي هو عبادة الأوثان" (كو ٣: ٥).

وكما توجد أنواع مختلفة من الإنكار، فمن الواضح أيضًا توجد أنواع مختلفة من الاعتراف به، لاحظوا الاهتمام بالتحذير من الأعمال.

في اليونانية يقول: "من يعترف فيّ *in me*" مظهرًا أن الاعتراف (بالمسيح) لا يتحقَّق بقوَّة الإنسان الذاتيَّة إنما بعون النعمة العلويَّة، فالإنسان يعترف بالمسيح. أما عن الإنكار فيقول "ينكرني"، فإن حُرم من النعمة ينكر، ومع هذا فهو يُدان لأن الحرمان تحقَّق بواسطته (إذ رفض النعمة) فالخطأ يُنسب له[2].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

ليتنا إذن نشهد للرب ونعترف به بفمنا وقلبنا وبإيماننا الحق وسلوكنا اللائق خلال عمل نعمته الواهب قوَّة الشهادة والعمل، ليظهر مسيحنا القائم من الأموات متجليًا في أعماقنا واضحًا في حياتنا اليومية خلال الحياة الجديدة التي لنا فيه. بهذه الشهادة وهذا الاعتراف اليومي نتأهل أن يعترف ربَّنا نفسه بنا أمام ملائكته، إذ يحسبنا ورثة الله، ووارثون مع المسيح، وشركاء في المجد الأبدي، لنا موضع في حضن الآب!

ولما كان الاعتراف بالسيِّد المسيح مكافأته العلنية الأبديَّة بلا رجعة، وأيضًا للإنكار جزاءه الأبدي بلا رجعة لهذا خشي لئلاَّ ينهار أحد بروح اليأس إن ضعف مرة وسقط في الجحود، فيظن أنه لا يقدر أن يرجع ويتوب بل يسقط تحت هلاك أبدي لهذا يؤكد: "**وكل من قال كلمة على ابن الإنسان يُغفر**

---

[1] *In Luc Ser 88.*

[2] *Catena Aurea.*

له" [١٠]، فاتحًا أبواب الرجاء علي مصراعيه خلال التوبة. وقد جاءت تكملة حديثه تؤكد ذلك، بقوله: "**وأما من جدف على الروح القدس فلا يُغفر له" [١٠]**. بمعنى أن من يرفض عمل الروح القدس واهب التوبة والمغفرة يفقد غفرانه. وقد سبق لنا الحديث في شيء من الاستفاضة عن "التجديف على الروح القدس"، مؤكدين أن التجديف الذي لا يُغفر هو الإصرار على عدم التوبة[١].

لقد أساء البعض فهم هذه العبارة الإلهية حاسبين أن من يقول كلمة على ابن الإنسان تُغفر له بينما من يقول كلمة على الروح القدس لا تُغفر، بمعنى أن من يخطئ ضد السيِّد المسيح بكونه قد تجسد مختفيًا يغفر له حين يكتشف الحق ويتوب، بينما من يخطئ ضد الروح القدس فلا توبة له. هذا التفسير لا يمكن قبوله، إذ أكّد الكتاب المقدَّس أن كل خطيَّة نقدَّم عنها توبة تُغفر، هذا أيضًا ما أعلنه آباء الكنيسة فاتحين أبواب الرجاء حتى أمام الهراطقة الذين جدفوا ضد الروح القدس وأتباعهم أن رجعوا عن خطأهم، وقد قبلتهم الكنيسة فعلاً عند توبتهم.

يؤكد **القدِّيس أمبروسيوس أن** التمايز هنا يقوم علي أساس تمايز أعمال الثالوث القدُّوس، وأن الإنكار للروح القدس أو التجديف عليه إنما يعنى رفض عمله تمامًا، أي رفض عمل التوبة الذي يبعثه الروح فينا. هذا ما يوضحه نفس حديث السيِّد، إذ يكمل قائلاً: ["**لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب أن تقولوه" [١٢]**. فمن يرفض عمله الخفي في القلب لا ينال غفرانًا حتى يرجع ويقبله من جديد.]

ولما كانت الشهادة للسيد المسيح تضع تلاميذه أمام المجامع والرؤساء والسلاطين، فقد وهبهم إمكانية لهذا العمل، إذ عهد بهم في يدّي روحه القدُّوس، قائلاً: "**لأن الروح القدس يعلمكم في تلك الساعة ما يجب لأن تقولوه" [١٢]**.

❖ يقول أن ما ننطق به ونجيب به (وقت الضيق) يوهب لنا في تلك الساعة من السماء التي تمدنا، فلا نتكلم نحن بل روح الله الذي لا يفارق من يعترفون به، ولا ينفصل عنهم، بل يتكلَّم فيهم ويتّوج فيهم.

❖ إن عمله هو أن نغلب وننال النصرة بإخضاع العدو في الصراع العظيم[٢].

القدِّيس كبريانوس

❖ عندما تثور خلافات أو صراعات بين الأصدقاء يأمرنا الرب أن نفكر جيدًا في الأمر، لكن حينما

---

[١] راجع تفسير مت ١٢: ٢٢-٣٧.

[2] *Ep 55: 5; 76:5.*

يصير رعب محاكم العدالة وتثور المخاوف من كل جانب، فإنه يعطينا قوَّته واهبة الشجاعة وما ننطق به وعدم ثبط الهمة[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

٥. القطيع الجديد والطمع

كان حديثه السابق كله يحثُّنا علي الشهادة للرب والاعتراف به بالقلب كما باللسان، حتى في أحلك الظروف وعند شدة الضيق. الآن يسألنا الشهادة له خلال الحياة العملية الفاضلة، محذرًا من أخطر عدو يمكن أن يصيب المؤمن ألا وهو الطمع ومحبَّة العالم، إذ يمكن أن يربك حتى خدام الكلمة في الأمور الزمنيَّة ليسحب قلوبهم عن حمل سمات عريسهم السماوي.

إذ تشاجر أخان على الميراث جاء أحدهما يطلب من السيِّد أن يقضي له، فأجابه: "**يا إنسان من أقامني عليكما قاضيًا أو مقسمًا؟ وقال لهم:** "**انظروا وتحفظوا من كل طمع**" **[١٤-١٥]**. ولعل إجابة السيِّد المسيح هذه هدف بها إلي الآتي:

أولاً: أن يرفع عمل الكرازة بالكلمة فوق المشاكل الماديَّة، لكي يتفرغ خدام الكلمة للاهتمام بالدخول بكل نفسٍ إلي العمل الخلاصي والاهتمام بالأبديات.

ثانيًا: ألا نستغل الإيمان لحساب الاهتمام بالحقوق الزمنيَّة، وإنما تركيز الاهتمام بالفرح الأبدي.

ثالثًا: يحذِّر قطيعه الجديد من الطمع المفسد للحياة الجماعيَّة كما للقلب.

❖ أعطيت لنا العبارة السابقة كلها لتعدنا لاحتمال الألم من أجل الشهادة للرب، وللاستخفاف بالموت أو بترجي المكافأة أو عدم السقوط تحت العقوبة التي تنتظر من لا ينال الغفران. ولما كان الطمع بوجه عام مفسد للفضيلة لذلك أضيفت وصيَّة خاصة به مع مثال... "**يا إنسان من أقامني عليكما قاضيا أو مقسمًا؟**"

حسنًا، لقد تجنب الأمور الأرضية ذاك الذي نزل لأجل الأمور الإلهية، فلم يقبل أن يكون قاضيًا للنزاعات يفصل في القوانين الخاصة بغنى هذا العالم وهو ديّان الأحياء والأموات الذي يجازى الكل علي أعمالهم. فعندما تطلب منه تأمَّل في العاطى لا في العطيَّة، ولا تظن أن الفكر الذي يهتم بالأمور العالية يمكن أن يضطرب للأمور الدنيا. لهذا صرف الرب هذا الأخ الذي اهتم بتحصيل الخيرات الفانية دون السمائية.

---

[1] *In Matt. Hom 33.*

رأى أنه ينبغي ألا يتدخل بين الإخوة كقاضٍ، وإنما يلزم أن يكون الحب (لا القضاء) هو وسيطهم في التفاهم، وتقسيم الميراث الأبدي لا ميراث الفضة، إذ باطل هو تكريس الأموال إن كان الإنسان لا يعرف كيف يستخدمها[1].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ حقًا لقد ظهر الابن في شكلنا، وأقامه الآب رأسًا وملكًا علي صهيون جبل قدسه ككلمات المرتل (مز ٢: ٦)، وقد أظهر طبيعة عمله بوضوح، إذ يقول: "جئت لأكرز بوصيَّة الرب". ما هذا؟ يريد لنا سيدنا محب الفضيلة أن نترك الأمور الأرضية الزمنيَّة، وأن نهرب من محبَّة الجسد، ومن القلق الباطل علي العمل، ومن الشهوات الدنيئة، ولا نبالي بالمخازن، بل نحتقر الغنى ومحبَّة الربح (القبيح)، إنما نكون صالحين محبين لبعضنا البعض، وألا نجمع كنوزًا علي الأرض بل نرتفع فوق الصراعات والحسد، فلا نتنازع مع الإخوة، بل بالحري نرحب بهم حتى وإن أرادوا استغلالنا، إذ يقول: "من أخذ الذي لك فلا تطالبه" (لو ٦: ٣٠)، بل بالحري نصارع ونجاهد من أجل الأمور النافعة والضروريَّة لخلاص النفس...

لم يتركنا بدون تعليم، إذ وجد الفرصة سانحة ليقدِّم حديثًا نافعًا ومخلِّصا... معلنًا: "**انظروا وتحفظوا من كل طمع**". لقد أظهر أن الطمع هو الوجرة (الحفرة الخاصة بصيد الوحوش) التي يقيمها الشيطان، وهو أمر مكروه من الله، وقد دعاه الحكيم بولس عبادة أوثان (كو ٣: ٥)، ربَّما لأنه يناسب فقط الذين لا يعرفون الله، أو لأنه مساوٍ للرجاسات التي يفعلها من يعبد الأصنام والحجارة.

الطمع هو فخ الأرواح الشرِّيرة، به يسبحون نفس الإنسان إلي شباك الهاويَّة. لهذا بعدل حقيقي لكي يجعلهم في آمان يقول: "**انظروا وتحفظوا من كل طمع**"، أي من الطمع الكثير أو القليل، ومن خداع الإنسان للآخر أيا كان هذا الإنسان. فكما قلت أن الطمع مكروه من الله والناس...

هذا نتعلمه من الله نفسه الذي يقول علي فم أنبيائه القدِّيسين: "لذلك من أجل أنكم تدوسون (رأس) المسكين وتأخذون منه هديَّة مختارة، بنيتم بيوتًا من حجارة منحوته ولا تسكنون فيها، وغرستم كرومًا شهية ولا تشربون خمرها، لأني علمت أن ذنوبكم كثيرة وخطاياكم وافرة" (عا ٥: ١١-١٢). وأيضًا: "ويل للذين يصلون بيتًا ببيت، ويقربون حقلاً بحقل حتى لم يبقَ موضع. هل تسكنون وحدكم في وسط الأرض؟ فقد بلغت هذه في أذني قال رب الجنود. فمع أن بيوتكم كثيرة تصير خرابًا، بيوت كبيرة وحسنة بلا ساكن. لأن عشرة فدادين كرم تصنع بثًا واحدًا، وحومر بذار يصنع إيفة" (إش ٥: ٨-

[1] *In Luc 12: 13-34.*

١٠). فمع أنهم بظلم الآخرين يقتنون بيوتًا وحقولاً، لكنها تكون باطلة بلا ساكن، لا تنفع شيئا لصانعي الشر لأن غضب الله يحّل عليهم بعدل. لذلك فلا منفعة للطمع بأي طريق كان.

من وجهة نظر أخرى فإن الطمع لا ينفع شيئًا لأن حياة الإنسان كما يقول الرب لا تقوم على ممتلكاته [١٥]، بتمتعه بالفيض. هذه حقيقة واضحة فإن حياة الإنسان لا تمتد مدتها حسب غناه، ولا مجموع حياته يتناسب مع ربحه القبيح[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ "**فإنه متى كان لأحد كثير، فليست حياته من أمواله" [١٥]**. يقول ربَّنا هذا ليوبخ دوافع الطامعين الذين يجمعون الغنى كمن يعيشون زمانًا طويلاً. لكن هل الغنى يجعلك تعيش لمدة أطول؟ فلماذا إذن تظهر شرورًا من أجل راحة غير مضمونه؟

الأب ثيؤفلاكتيوس

إذ أعلن السيِّد المسيح أن حياة الإنسان لا ترتبط بغناه، أراد تأكيد ذلك بمثل، إذ قال الإنجيلي:

"**ضرب لهم مثلاً، قائلاً: إنسان غني أخصبت كورته.**

ففكر في نفسه، قائلاً: ماذا أعمل لأن ليس لي موضع أجمع فيه أثماري.

وقال: أعمل هذا. أهدم مخازني، وأبني أعظم، وأجمع هناك جميع غلاتي وخيراتي.

وأقول لنفسي: يا نفسي لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين كثيرة،

استريحي وكلي واشربي، وافرحي.

فقال له الله: يا غبي هذه الليلة تطلب نفسك منك، فهذه التي أعددتها لمن تكون؟

هكذا الذي يكنز لنفسه، وليس هو غنيًا لله" [١٦-٢١].

يلاحظ في هذا المثل الآتي:

أولاً: يرى **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم أن** هذا الغني قد أخطأ إذ دعا غناه "خيرات"، فإن الغنى ليس خيرًا في ذاته ولا يُحسب شرًا. الخير هو الفضيلة مثل العفة والتواضع وما إلى ذلك، أن اختاره الإنسان يصير صالحًا، والشر هو الرذيلة ومن يختاره يُحسب شرِّيرا، أما الأمور الأخرى فهي طبيعيَّة ليست صالحة ولا شرِّيرة، إنما يمكن توجيهها للخير كما للشر، فالغنى أن استخدمناه في العطاء صار خيرًا، وإن حمل طمعًا صار شرًا. وقد أوضح القدِّيس هذا المفهوم في أكثر من موضع، خاصة في مقالة: "لا يقدر أحد أن يؤذى إنسانًا ما لم يؤذِ الإنسان نفسه" موضحًا أن الغنى كما الفقر لا يؤذيان

---

[1] *In Luc Ser. 89.*

الإنسان، لكن ما يؤذيه هو شر قلبه الداخلي وإساءة استخدام الغنى أو الفقر.

وكما أن الغنى في ذاته ليس خيرًا يؤكد **القدِّيس إكليمنضس السكندري** في كتابه: "**من هو الغني الذي يخلص؟**" أن الغنى ليس شرًا، بل هو نافع أن أُحسن استخدامه، وأن أغنياء كثيرين أيضًا يتمتعون بالملكوت خلال محبَّتهم للعطاء.

ثانيًا: انصرف قلب هذا الغني الذي ذكره السيِّد المسيح إلي الغنى الأرضي فأُتخم قلبه جدًا بمحبَّة الزمنيات وتفجرت مخازن نفسه الشرِّيرة بالطمع، وظن أنه قادر أن يقيم لنفسه مخازن جديدة فإذا بنفسه تُطلب منه وقد تحطمت مخازنها تمامًا.

يقول **القدِّيس باسيليوس الكبير**: [إنه لم يذكر إخوته في الخليقة، ولا حسب أنه يجب أن يعطي من فائضه للمحتاجين. كانت مخازنه تتفجر من فيض المخزون، أما جشع ذهنه فلم يشبع بأية وسيلة... يقول: أعمل هذا، أهدم مخازني... حسنًا تفعل، فإن مخازنك الشرِّيرة تستحق الهدم. تهدم مخازنك التي لا تقدَّم راحة لأحد[١].]

ثالثًا: لم يدرك هذا الغني أن الله هو سّر حياة النفس البشريَّة، من يقتنيه في داخله يقتنى الحياة علي مستوى أبدي، فلا يغلبه الموت، بل ينطلق مرتفعًا بالحق فوق حدود الزمن. لقد أخطأ إذ حسب أن حياته تقّيم حسب غناه، فلما صار له فيض من الغنى حسب أن لنفسه خيرات لسنوات طويلة، ولم يدرك أنها تُطلب منه في ذات الليلة يقول **القدِّيس إكليمنضس السكندري**: [لا تقوم حياة الإنسان على فيض ما يملكه من الأشياء[٢].] ويقول **القدِّيس كيرلس السكندري**: [حقًا أن حياة الإنسان لا تقوم علي ممتلكاته خلال مالديه من فيض، إنما يُحسب مطّوبًا وذا رجاء مجيد من كان غنيًا بالله[٣].]

رابعًا: يرى **القدِّيس يوحنا كاسيان** أن سّر انحراف هذا الغني هو اهتماماته بالغد، إذ يقول: [ليتنا لا نهتم بالغد فلا نسمح لأنفسنا قط بانحرافها عن قواعد التجرد والنسك[٤].] ويرى **القدِّيس أغسطينوس** أن اهتمامه بنوال الكماليَّات هو سّر انحرافه، إذ يقول: [ألا ترى أن الطمع – أن طلبنا ما هو أكثر من الضروريات – يجعلنا نخطىء؟ لنحذر كل طمع أن أردنا التمتع بالحكمة الأبديَّة[٥].]

خامسًا: في مقدَّمة هذا السفر قلنا أنه "إنجيل الفرح"، فقد جاء صديقنا السماوي ليهبنا خلال

---

[1] *Catena Aurea.*
[2] *Strom 4: 6.*
[3] *In Luc Ser. 89.*
[4] *Inst. 9: 30.*
[5] *Ser on N.T. 57: 9.*

صداقته فرحًا أبديًا لا يُنزع عنا، وقد رأينا أن هذا السفر أفتتح بالفرح والتسبيح وخُتم بالفرح. وإذ أراد أن يميز بين فرح الصديق وفرح العالم، قدَّم لنا هذا المثل، فيه يناجى الغني نفسه، قائلاً لها: "**افرحي**"، لكنه لم تمضِ ربَّما ساعات وقد فقدت نفسه ينبوع فرحها الزمني، بل وفقدت حياتها كلها لأنها جعلت من غنى هذا العالم علَّة لفرحها.

الإنسان الجسداني يفرح حين ينال زمنيات مهما كانت قيمتها لكنه سرعان ما يحزن حين يخسر ولو القليل مما ربح، يفقد فرحه وسلامه. لعل هذا ما أراد تأكيده **القدِّيس جيروم** حين قال: [حينما نربح فلسًا نمتلئ فرحًا، وحينما نخسر نصف فلس نغرق في الحزن[1]].

سادسًا: يُعلِّق الأب غريغوريوس (الكبير) علي قول السيِّد "**هذه الليلة تطلب نفسك منك**"، قائلاً: [تُطلب النفس بالليل هذه التي سلكت في ظلمة قلبها، إذ لم ترد أن نسلك في نور التأمَّل].

ويُعلِّق **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** على قول السيِّد: فهذه التي أعددتها لمن تكون؟" قائلاً: [إنك تترك كل الأشياء هنا، فلا تخرج صفر اليدين فحسب، وإنما تخرج مثقلاً بحمل خطايا على كتفيك، وما جمعته هنا غالبًا ما يقع في أيدي الأعداء، وفي نفس الوقت تُطالب أنت به[2].]

٦. القطيع الجديد والزمنيات

"**وقال لتلاميذه: من أجل هذا أقول لكم، لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون،**

ولا للجسد بما تلبسون.

الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس" [٢٢-٢٣].

إذًا يريد ربَّنا يسوع المسيح صديقنا السماوي أن يرتفع بقطيعه الجديد ليحمل سمات لائقة به يرتفع به تدريجيًا، فبعد أن حثه علي الاعتراف بالإيمان حذره من الطمع كعدوٍ خطير يفقد الإنسان علاقته بالله والناس، ويحطم حياته الداخليَّة، ثم قدَّم له مثل الغني الغبي الذي وضع قلبه في مخازن ترابية، حاثًا إيَّانا ألا نهتم بالكماليَّات، والآن يرتفع بنا إلي مستوى أعلى، وهو ألا نرتبك حتى بالضروريات كالطعام والملبس. أنه يؤكد لنا أنه خالقنا وهبنا الحياة أفلا يهتم بإطعامنا وإن كان قد صنع لنا الجسد أما يهتم بملبسنا... أنه يود أن يكون قطيعه لا في حالة تواكل أو تراخٍ، وإنما في اتزان الفكر بلا همّ أو قلق، يتكئ علي صدر راعيه الصالحة بلا اضطراب.

❖ الكلمات "**لا تهتموا...**" لا تعني "لا تعملوا"، إنما لا تكن أفكاركم مرتبطة بالأرضيات، إذ يمكن

---

[1] *Ep. 43: 2.*
[2] *In Gen. Hom 23.*

للإنسان أن يعمل دون أن يهتم[١].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يقل "**لا تهتموا**" فقط وإنما "**لحياتكم**" أي لا تركزوا حرصكم على هذه الأمور، بل ليكن شغفكم منصبًا علي أمور أعظم. فإن الحياة حقًا هي أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس. فإن كان يوجد خطر علي حياتنا وأجسادنا فيسقط السالكون الحياة شرِّيرة تحت الألم والعقاب لذا يلزم تجنب الاهتمام بالملبس والطعام.

بجانب هذا؛ يا له من أمر دنيء لمحبي الفضيلة ولتابعي الفضائل الجادة بغيرة لكي يُحسبوا ممتازين ومزكين أمام الله أن يرتبكوا بلباس جميل كأطفال صغار، أو يجروا وراء ولائم مكلّفة. فإنه يتبع هذه الأمور جمهور آخر من الشهوات العنيفة وتكون النتيجة ارتداد عن الله، إذ قيل: "لا تحبوا العالم ولا الأشياء التي في العالم" (١ يو ٢: ١٥)، وأيضًا: "أما تعلمون أن محبَّة العالم عداوة لله؟" (يع ٤: ٤). فمن واجبنا إذن أن نحفظ أقدامنا بعيدًا عن الشهوات العالمية، بل بالحري أن نبتهج بالأمور التي تسرّ الله.

ربما تسأل: فمن إذن يعطينا ضروريات الحياة؟ فنجيب هكذا: ليكن الرب موضع ثقة، فقد وعدك بوضوح بهذه الأمور مقدَّمًا لك بأمور صغيرة (اهتمامه بالغربان وزنابق الحقل) تأكيدًا أنه صادق في الأوامر الكبرى[٢].

القدِّيس كيرلس الكبير

يرى **القدِّيس أمبروسيوس**[٣] أن الله خلق النفس والجسد معًا في وحدة، فالجسد هو لباس النفس، والنفس هي حياة الجسد، وكأنه يريدنا ألا نهتم بالطعام والملبس بل بالنفس والجسد معًا لأجل بلوغنا الحياة الأبديَّة الدائمة.

يريد لنا أن نرتفع حتى فوق الضروريات لا لنهملها، وإنما لكي لا تمتص تفكيرنا وتحطم سلامنا الداخلي، وإنما نمارسها بفكر مقدَّس، فنرى مع الرسول أننا إن أكلنا أو شربنا نفعل ذلك لمجد الله، حتى تعزيتنا ففي المسيح يسوع ربنا. بهذا يحيا الإنسان في العالم بلا هّم فينجح هنا وينال مئة ضعف خلال سلامه الداخلي ويُحسب هذا له رصيدًا علي مستوى أبدي! الحياة التي بلا هم هي سّر نجاح المؤمن وسلامه وفرحه في هذا العالم ومجده في العالم الأبدي.

---

[1] *In Matt. Hom 21.*
[2] *In Luc Ser 90.*
[3] *In Luc 12: 13-48.*

٧. القطيع الجديد والسماويَّات

الله لا يريد أن يحرم قطيعه العاقل من شيء، إذ خلق كل شيء من أجل الإنسان، لكنه إذ رأى الإنسان قد تعلق بالعالم فأفسد قلبه بالطمع ونفسه بالهم وحياته بانشغاله عن خالقه، أوصاه أن يترك الزمنيات لكي ينعم بالسماويات. أراده أن يترك العطيَّة من قلبه ليلتصق بالعاطي، فيكون له فيض من العطايا. لهذا أكمل السيِّد المسيح حديثه معنا مؤكدًا لنا ثلاثة أمور:

أولاً: أن الله ليس جامدًا من جهتنا، بل هو محب للبشر، إن كان من أجلنا يهتم بخليقته غير العاقلة، فيقوت الغربان ويلبس زنابقِ الحقل جمالاً فائقًا، أفلا يهتم بالأولى بالإنسان الذي من أجله خلق الغربان والزنابق [٢٤]؟

ثانيًا: أن الاهتمام لا يُصلح من أمرنا، فلا نستطيع أن نزيد علي قامتنا ذراعًا واحدة، فلماذا نعيش مهمومين نفقد سلامنا الداخلي وعلاقتنا بالله دون نفعٍ زمنيٍ أيضًا [٢٥]؟

ثالثًا: أنه لا يود الحرمان لأجل الحرمان، بل يود أن يهب ما هو أعظم: "**اطلبوا ملكوت الله وهذه كلها تزاد لكم**" **[٣١]**. بمعنى آخر ليكن قلبنا متفرغًا من الزمنيات، فيدخل الرب ويقيم مملكته دون أن يحرمنا حتى مما تركنا".

إن عدنا إلى النص الإنجيلي نجده هكذا:

"**تأمَّلوا الغربان إنها لا تزرع ولا تحصد،**

وليس لها مخدع ولا مخزن، والله يقيتها،

كم أنتم بالحري أفضل من الطيور؟

ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد علي قامته ذراعًا واحدة.

فان كنتم لا تقدرون ولا على الأصغر،

فلماذا تهتمون بالبواقي؟

تأمَّلوا الزنابق كيف تنمو، لا تتعب ولا تغزل،

ولكن أقول لكم أنه ولا سليمان في كل مجده كان يلبس كواحدة منها.

فإن كان العشب الذي يوجد اليوم في الحقل

ويُطرح غدًا في التنور

يلبسه الله هكذا فكم بالحري يلبسكم أنتم يا قليلي الإيمان؟

فلا تطلبوا أنتم ما تأكلون وما تشربون ولا تقلقوا.

فإن هذه كلها تطلبها أمم العالم،

وأما أنتم فأبوكم يعلم أنكم تحتاجون إلى هذه.

بل اطلبوا ملكوت الله وهذه كلها تزاد لكم" [٢٤-٣١].

سبق لنا عرض مقتطفات من تعليقات لبعض آباء الكنيسة علي هذه العبارات الإنجيلية[١]، أضيف عليها المقتطفات التالية:

❖ إن كانت طيور السماء التي لا تزرع ولا تحصد محاصيل وفيرة والعناية الإلهيَّة تعولها علي الدوام، يليق بنا نحن بالحري أن نرى في طمعنا علامة من علامات فقرنا.

مصادر قوت الطيور كثيرة ووفيرة ليست من صنعها، لأنها لا تعرف ملكيَّة خاصة بها، والثمار التي تُعطى لها مشتركة للجميع، أما نحن ففقدنا الخيرات المشتركة مطالبين بالملكيات الخاصة...

ليتك لا تتطلع إلى الخيرات كملكٍ خاصٍ بك، فقد أراد الرب أن يكون الطعام مشتركًا بينك وبين الطيور والحيوانات.

طيور السماء لا تطلب ملكًا خاصًا بها، لذلك فهي لا تعرف العوز للطعام، كما لا تحسد الآخرين.

"**تأمَّلوا الزنابق كيف تنمو**..."، بهذه الكلمات يدعونا الرب للثقة فيه. إنه يهبنا رحمته. المعنى الحرفي لهذه العبارات يعني أننا لا نستطيع أن نضيف شيئًا لقامة أجسادنا، وأما المعنى الروحي فهو أننا لا نستطيع أن نتخطى حدود مستوانا دون معونة الله...

وضع الرب الزنبقة كما في مرتبة أعلى من الإنسان ذاته وجعلها أكثر مجدًا من الناس الذين يمثلهم سليمان الذي تمتع بامتياز بنائه هيكل الرب في الظاهر الممثل لكنيسة المسيح رمزيًا.

ألوان الزنبقة الزاهية تشير لمجد ملائكة السماء الذين هم زهور هذا العالم، إذ أضاءوا العالم بنورهم رائحة المسيح الذكيَّة. وإذ تسندنا طلباتهم ومعونتهم يمكننا أن نقول: "لأننا رائحة المسيح الذكيَّة لله في الذين يخلصون" (٢ كو ٢: ١٥)، فلا تعوقنا أية عاطفة ولا نضطرب لضرورة عملٍ، بل نحتفظ في أنفسنا ببركات الحريَّة الإلهيَّة ومواهب الطبيعة الإلهيَّة.

حقًا إنه من المناسب جدًا أن يشير الرب إلى سليمان وقد لبس المجد... إذ كان يغطي طبيعته الجسديَّة بقوَّة الروح، ويلبسها بهاء أعمال الروح[٢].

---

[١] الإنجيل بحسب متى، ص ١٦٩-١٧٢.

[2] *In Luc 12: 13-48.*

❖ هذا حق، فإن الزنابق وغيرها من الزهور التي تنبت في الحقول تحمل جمالاً عجيبًا في رونق ألوانها سواء بتنوعها وتنسيقها وبهائها في ثوب طبيعي... هذا كله يقلده الإنسان بفنه سواء بالرسم بمهارة أو بالتطريز، لكنه لا يبلغ الحقيقة، مهما بلغ العمل الفني من نجاح، فلن يصل إلي الحقيقة نفسها... إذن باطل هو تعبنا مهما حمل من مظهر جميل![١]

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ليتنا لا نطلب مثل هذا الطعام الذي هو ليس بضروري بل نافلة، إنما نطلب الطعام الذي يمس خلاص النفس. لا نطلب الثياب الثمينة بل نطلب كيف ننقذ جسدنا من النار والدينونة. لنفعل هذا، طالبين ملكوته وكل ما يعيننا لنكون شركاء ملكوت المسيح[٢].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ الارتباك بالأمور المنظورة هو من نصيب الذين بلا رجاء في الحياة العتيدة، والذين بلا مخافة من جهة الدينونة المقبلة.

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

هكذا يريد السيِّد المسيح أن يرفعنا نحن قطيعه الجديد لنحيا كطيور السماء المرتفعة نحو السماويات، لا نهتم بملكيَّة خاصة، وبلا مخازن ترابية، إنما نحلق كما في الأبديَّة في جو حبّي كامل؛ وأن نعيش كزنابق الحقل نحمل المجد الملائكي البهي الذي ليس هو من صنع أيدينا، بل من عمل نعمته الفائق. نرى في الله أبانا [٣١] المهتم بشركتنا في ملكوته، مقدَّما لنا الأمور الزمنيَّة كأمر ثانوي وزهيد بالنسبة لعطاياه الأبويَّة الخالدة.

٨. القطيع الجديد ومسرة الآب

"**لا تخف أيها القطيع الصغير، لأن أباكم قد سرّ أن يعطيكم الملكوت**" [**٣٢**].

يا لها من عبارة معزية فإنه يدعو الله "**أبانا**"، فنطمئن من جهة رعايته واهتمامه وتدابيره لحسابنا. حقًا تبقى الكنيسة على الدوام "**القطيع الصغير**" لأن كثيرين يُدعون وقليلين ينتخبون. تختفي هذه القلة في العالم، لكنها محصاة في عيني الله، إذ يقول الرب لإيليا الذي ظن أن القطيع قد فني تمامًا: "قد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل الركب التي لم تجثُ للبعل، وكل فم لم يقبله" (١ مل ١٩: ١٨).

إنه قطيع ليس فقط من جهة العدد، ولكن من جهة الإمكانيات البشريَّة، لا حول له ولا قوَّة زمنيَّة،

---

[1] *In Luc Ser 90.*
[2] *In Luc Ser 90.*

لكنه موضع سرور الآب، ووارث الملكوت الأبدي! إنه القطيع الصغير في عيني العالم لكنه علي صدر الله يتمتع بنعمته الإلهيَّة، ويغتصب بالحب ملكوت السماوات!

❖ هذه بالحقيقة هي تعزية روحيَّة، والطريق الذي يقودنا إلى الإيمان الأكيد... بقوله: "**لا تخف**" يقصد أنه يجب أن يؤمنوا بهذا الأمر المؤكد الذي لا يحمل شكًا وهو أن أباهم السماوي يهب طريق الحياة للذين يحبُّونه. أنه لن يتجاهل خاصته، بل يفتح يده التي تشبع المسكونة بالصلاح...

الذي يهب هذه الأمور العظيمة والثمينة، ويمنح ملكوت السماوات هل يمتنع من جانبه عن أن يترفق بنا؟ أو هل لا يمدنا بالطعام والملبس؟ أي خير أرضي يعادل ملكوت السماوات؟ ماذا يمكن أن يُقارن بما سيمنحه الله من أمور لا يمكن إدراكها ولا أن ينطق بها؟ "ما لم تر عين، ولم تسمع أذن ولم يخطر علي بال إنسان ما أعده الله للذين يحبُّونه" (١ كو ٢: ٩). عندما تمتدح الغنى الأرضي وتعجب بالسلطان الزمني فإن هذه لا تقارن بالنسبة لما قد أُعد، إذ قيل: "لأن كل جسد كعشب وكل مجد إنسان كزهر عشب" (١ بط ١: ٢٤). فإن كنت تتحدَّث عن الغنى والترف والولائم، فقد قيل: "العالم يمضي وشهوته" (١ يو ٢: ١٧). الأمور الإلهيَّة لا تقارن بما للعالم. فإن كان الله يهب ملكوته لمحبيه أفلا يريد أن يقدَّم لهم طعامًا وثيابًا؟

لقد دعاهم "قطيعًا صغيرًا"، لأننا أقل من جموع الملائكة غير المحصيَّة، التي تفوق في القدرة أمورنا المائتة بما لا يقاس. هذا ما علمنا إيَّاه المخلِّص بنفسه في المثل المذكور في الأناجيل، إذ يقول: "أي إنسان منكم له مئه خروف وأضاع واحدًا منها ألا يترك التسعة والتسعين في البريَّة (علي الجبال) ويذهب من أجل الضال حتى يجده؟ وإذا وجده فالحق أقول لكم يفرح به أكثر من التسعة والتسعين الذين لم يضلوا (لو ١٥: ٤ الخ). لاحظوا إن كان عدد الكائنات العاقلة يمتد إلي عشرة مضروبة في عشرة، فإن القطيع الذي علي الأرض ليس إلا واحدًا من مئة.

مع أنه صغير من جهة الطبيعة والعدد والكرامة أن قورن بطغمات الأرواح العلويَّة التي بلا عدد لكنه بصلاح الآب الذي يفوق كل وصف ويُعطى له نصيب مع الأرواح الفائقة، أقصد ملكوت السماوات[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ يعني ربَّنا بالقطيع الصغير أولئك الذين يريدون أن يصيروا تلاميذه (القليلي العدد)، أو ليظهر أن القدِّيسين في العالم يبدون صغارًا بسبب مقرهم الإختياري، أو لأنهم يُضمون إلي جموع الملائكة

---

[1] *In Luc Ser 90.*

الذين يفوقوننا في كل ما نعتز به بما لا يقارن.

لقب "**الصغير**" أعطاه ربَّنا لمختاريه بمقارنتهم بالأعداد الضخمة من الأشرار، أو ربَّما من أجل تواضعهم الورع[١].

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ انظر أن تنتمي إلى القلة المختارة، ولا تسلك ببرود متمثلاً بتراخي الكثيرين. عش كالقلة حتى تتأهل معهم للتمتع بالله "**لأن كثيرين يُدعَوْن وقليلين يُنتَخَبون**" (مت ٢٠: ١٦)[٢].

القدِّيس يوحنا كاسيان

❖ لكل واحد منا قطيع يقوده إلى المراعي الخضراء[٣].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

٩. القطيع الجديد والصدقة

إن كان السيِّد المسيح قد دعا قطيعه بالصغير ليُحسب أهلاً لمسرة الآب الذي يهبهم الملكوت، فإنه يليق بهذا القطيع أن يعلن شوقه لهذا الملكوت المجاني بتخليه عن كنوز العالم وتقديمها للفقراء كمن يحفظونها لهم في البيت الجديد أي في السماء. بهذا يقدَّم لنا السيِّد المسيح مفهومًا جديدًا للعطاء أو الصدقة، ألا وهو الكشف عن تفريغ القلب من حب الزمنيات بقصد الشبع السماوي.

"**بيعوا مالكم وأعطوا صدقة.**

اعملوا لكم أكياسًا لا تفنى، وكنزًا لا ينفذ في السماوات،

حيث لا يقرب سارق، ولا يبلى سوس.

لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم أيضًا" [٣٣- ٣٤].

يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [ليت أعماله تعلن صوته[٤]] ، بمعنى أن كان المؤمن يتحدَّث عن الملكوت، فليعلن حديثه هذا عمليًا بالعطاء.

❖ ليكن شغفنا نحو الأمور المقبلة ثابتًا، لنخزن الرجاء في الأمور العتيدة ككنزٍ لنا. لنجمع أمامنا لأنفسنا كل هذه الأمور التي بها نتأهل لعطايا الله[٥].

---

[1] *Catena Aurea.*
[2] *Inst. 4: 38.*
[3] *In Matt. Hom 77: 5.*
[4] *Ser. On N.T. 38:12.*
[5] *In Luc Ser 91.*

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ الصدقة دواء لكل جرح. لكن الصدقة لا تُمارس بالعطاء المالي وحده، بل بكل ما يمكن للإنسان أن يريح به آخر، فالطبيب يعالج والحكيم يقدَّم مشورة[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ قد يسأل أحد: على أي أساس يلزمنا أن نبيع مالنا؟ هل لأنها أمور ضارة بطبعها؟ أو لأنها تمثل تجربة لنفوسنا؟

نجيب علي ذلك أولاً بأن لو كان كل ما في العالم شرِّيرا في ذاته لما حُسبت خليقة الله، لأن خليقة الله صالحة (١تى ٤: ٤). ثانيًا أن وصيَّة ربَّنا تعلمنا أن ننزع الشر الذي فينا لا أن نقدَّمه للغير، قائلاً "**اعطوا صدقة**"[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

١٠. القطيع الجديد ومجيء الصديق

إذ يرفع السيِّد قلب قطيعه الصغير نحو السماء، ويسأله أن يقدَّم كل كنوزه إلي المخازن السماويَّة حيث لا ينفذ إليها سوس، ولا يقترب منها سارق، يلهب القلب بمجيء العريس السماوي، راعي القطيع الجديد، فيبقى الجسد متمنطقًا كمن هو مستعد للرحيل معه، والنفس كسراج متقد بحب العريس القادم، وكل ما في كيان الإنسان في حالة سهر ويقظة ليرحل الكل إلي حيث يوجد العريس.

لتكن أحقاؤكم ممنطقة وسرجكم موقدة.

وأنتم مثل أناس ينتظرون سيِّدهم متى يرجع من العرس،

حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت" [٣٥-٣٦].

ما هي الأحقاء الممنطقة إلا الجسد العفيف الذي يسلك كما في حالة انضباط وتأدب؟ وما هي السرج الموقدة إلا النفوس الملتهبة بروح الله واهب الإنارة؟ ومن هم الأناس الذين ينتظرون سيِّدهم إلا طاقات الإنسان ودوافعه بكل عواطفه وأحاسيسه ومواهبه؟... الكل يعمل كما في يقظة من أجل العريس القادم ليملك.

❖ تمنطق الأحقاء وربطها بجلد ميت (حزام جلدي يسمى المنطقة) من حولها يعني أن الإنسان

---

[1] *In Act. Hom 25.*

[2] *Catena Aurea.*

يمارس إماتة هذه الأعضاء التي تضم بذار الشهوة والدنس، فيعرف علي الدوام وصيَّة الإنجيل: "**لتكن أحقاؤكم ممنطقة**"، مطبقًا ذلك كتفسير الرسول: "فأميتوا أعضاءكم التي علي الأرض الزنا النجاسة الهوى الشهوة الرديَّة" (كو ٣: ٥). نجد في الكتاب المقدَّس الذين يمنطقون أحقاءهم هم وحدهم الذين يهلكون بذار الشهوة الجسديَّة، مترنمين بقوَّة، مرددين كلمات الطوباوي داود: "قد صرت كزقٍ في الدخان" (مز ١١٩: ٨٣)[١].

القدِّيس يوحنا كاسيان

❖ ماذا يعني: "أحقاؤكم ممنطقة"؟ اترك الشر (مز ٣٤: ١٤).
ماذا يعنى "سرجكم موقدة"؟ اصنع الخير[٢].

القدِّيس أغسطينوس

❖ الأحقاء الممنطقة تعني البتولية (أو العفة)، والسرج الموقدة الأعمال الصالحة[٣].

القدِّيس أغسطينوس

❖ ماذا يعني أن نمنطق أحقاءنا؟ أن نضبط شهواتنا، الذي هو عمل العفة. أما إبقاء سرجنا يعني أن نشعلها ونوهجها بالأعمال الصالحة، أي بعمل البر[٤].

القدِّيس أغسطينوس

❖ "**لتكن أحقاؤكم ممنطقة**"، أي تكونون دائمًا على استعداد لتمارسوا عمل ربكم. "**وسرجكم موقدة**" أي لا تسلكون الحياة في ظلمة، إذ يكون لكم نور التعقل الذي يكشف ما يجب أن تفعلوه وما تمتنعوا عنه. فإن هذا العالم هو ليل، فمن لهم الأحقاء ممنطقة يمارسون حياة عملية نشطة. لأن هذا هو حال الخدم الذين يجب أن تكون لهم المصابيح الموقدة أي عطيَّة التمييز، فيكون الإنسان العامل قادرًا علي تمييز ليس فقط ما يجب أن يفعله، وإنما كيفيَّة ممارسته حتى لا يسقط مندفعًا في هوة الكبرياء.

لنجاهد ممارسين الفضائل، فيكون لنا سراجان منيران هما الفهم العقلي الذي يشرق في النفس فنستنير، والتعليم الذي به ننير للآخرين[٥].

---

[1] *Inst. 1: 11.*
[2] *Ser. on N.T. 58: 2.*
[3] *Ser. on N.T 43: 3.*
[4] *On Continence 17.*
[5] *Catena Aurea.*

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ يليق بالرسل أن يتمنطقوا ليحملوا سرج الإنجيل[1].

القدِّيس جيروم

❖ لا يقل أحد أن السيِّد يريدنا أن نمنطق جسدنا، ونمسك بسرج في أيدينا (بالمعنى الحرفي)، فإن هذا التفسير يناسب غباوة اليهود وحدهم، أما بالنسبة لنا فالأحقاء الممنطقة تعنى استعداد الذهن للعمل بقوَّة في كل ما هو ممدوح... والسراج يمثل يقظة الذهن والفرح العقلى[2].

القدِّيس كيرلس الكبير

يمكننا أيضًا أن نقول أن هذين الأمرين يشيران إلي شركة الجسد مع النفس في الحياة المقدَّسة، فمنطقة الأحقاء تشير إلي الجسد الذي قمعه الرسول، واستعبده لا ليحطمه، وإنما ليربيه بالروح القدس فيحيا مقدَّسا للرب، والسرج المنيرة هي النفس بكل طاقاتها تضيء داخل الجسد ليعيش الإنسان في وحدة وتناسق تحت قيادة الروح لحساب مملكة النور.

إن كان هذان العملان يمارسهما الإنسان بالعمل الروحي، فإن وصيَّة الرب جاءت تعلن الالتزام بالعمل خلال اليقظة والسهر المستمر حتى يأتي السيِّد ويحلّ في الوسط عريسًا للنفس، إذ يقول: **"وأنتم مثل أناس ينتظرون سيِّدهم متى يرجع من العرس حتى إذا جاء وقرع يفتحون له للوقت" [٣٦].**

❖ يليق بنا أن نتطلع إلى مجيء المسيح الثاني من السماء، فإنه سيأتي في مجد الآب مع الملائكة القدِّيسين... سيأتي المسيح كما من وليمة، لهذا يظهر بوضوح أن الله سكن كما في أعياد (عرس)، الأمر الذي يليق به. فإنه لا يوجد حزن قط في الأعالي، إذ لا يوجد قط شيء يحزن الطبيعة التي فوق الأهواء والتي لا تتأثر بها قط[3].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ عندما صعد ربَّنا إلي السماوات ذهب إلي العرس، كعريس التصق بجموع الملائكة السمائيين[4].

البابا غريغوريوس (الكبير)

إنه يأتي كما من فرحٍ كعريس يطلب عروسه البشريَّة؛ إنه يقرع فيفتحون له للوقت [٣٦]. ماذا

[1] *Ep 22: 11.*
[2] *In Luc hom 92.*
[3] *In Luc hom 92.*
[4] *In Evang. Hom 13.*

يعني قرعه على الباب إلا إصداره الأمر بالقيامة! وفتح الباب للوقت إلا استعدادهم السريع لملاقاته، إذ رقدوا على هذا الرجاء منتظرين يوم العرس الأبدي. يفتح المؤمنون الحقيقيون الباب ليدخل العريس كما في مملكته، ويفتح هو لهم لينعموا بأحضان الآب، أما الأشرار فيقومون لكن كما في موتٍ أبديٍ، لا يحملون بهجة القيامة، ولا يتمتعون برؤية الأمجاد الإلهيَّة... وهكذا تبقى أبوابهم مغلقة لا يدخلها العريس، وأبواب العريس الدهريَّة مغلقة لا يقدرون العبور فيها.

يكمل السيِّد المسيح حديثه، قائلاً: "**الحق أقول لكم أنه يتمنطق ويتكئهم، ويتقدَّم ويخدمهم**" **[٣٧]**. يا للعجب العريس يتمنطق مكرمًا عروسه التي يتكئها، ويقوم فيخدمها بنفسه. إنه يخدم الذين سبقوا فتمنطقوا في العالم وقاموا يخدمون الآخرين لحساب العريس السماوي فتأهلوا لأن يخدمهم هو... يشعل هذا المنظر قلب **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**، فيقول: [إذ نسمع عن هذه الأمور يليق بنا ألا نهتم بأهل الإيمان وحدهم (غل ٦: ١٠) مهملين الآخرين. أن رأيت أحدًا في ضيق فلا تكن محبًا للاستطلاع فتكثر الأسئلة، بل مادام في ضيق فاحسب هذا فيه كفاية لينعم بعونك. إنه إنسان الله سواء كان وثنيًا أو يهوديًا، حتى إن كان كافرًا فهو محتاج إلى عونك[1].]

❖ إننا ننال مكافأة مشابهة، إذ يتمنطق هو بالنسبة للذين منطقوا أحقاءهم.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ يمنطق حقويه بالبرّ.

العلامة أوريجينوس

❖ يمنطق حقويَّة بمعنى أنه يستعد للدينونة[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

إنه يتمنطق ويتقدَّم للخدمة بعد أن يتكئهم أو يجلسهم [٣٧].

❖ يتكؤهم كمن يلطف من تعبهم، مقدِّمًا أمامهم الملذّات الروحيَّة، ويعد لهم مائدة عطاياه الفاخرة.

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ الاتكاء هنا يعني الراحة من أتعاب كثيرة، والحياة بلا قلق، والتغير لطبيعة الذين يقطنون في النور فتغتني بكل المشاعر المقدَّسة وتفيض عليها كل العطايا، فيمتلئون فرحًا. فيسوع يتكئهم ليهبهم

---

[1] *In Hebr. Hom 10: 8.*
[2] *In Evang. Hom 13.*

راحة أبديَّة ويوزع عليهم بركات بلا عدد[١].

القدِّيس ديونسيوس الأريوباغي

إذ كشف عن حال القطيع الصغير المترقب مجيء صديقه الفريد وراعيه الواحد وعريسه السماوي، بدأ يؤكد الالتزام بالسهر وترقب هذا المجيء، بقوله:

"وإن أتى في الهزيع الثاني أو أتى في الهزيع الثالث
ووجدهم هكذا فطوبى لأولئك العبيد.
وإنما اعلموا هذا أنه لو عرف رب البيت في أية ساعة يأتي السارق
لسهر ولم يدع بيته يُنقب.
فكونوا أنتم إذًا مستعدين
لأنه في ساعة لا تظنون يأتي ابن الإنسان" [٣٨-٤٠].

يرى **الأب ميثوديوس**[٢] أن السيِّد المسيح قد يأتي في الهزيع الأول عندما يكون الإنسان في طفولته، وربما ينتظرنا حتى الهزيع الثاني، أي عندما نبلغ النضوج (الرجولة) أو في الهزيع الثالث أي في الشيخوخة. إذن لنستعد لملاقاته إن كنا أطفالاً أو كبارًا أو شيوخًا. وقد قدَّم لنا **القدِّيس كيرلس الكبير**[٣] ذات التفسير.

١١. القطيع الجديد والأمانة علي الوكالة

سحب السيِّد قلب قطيعه إليه ليترقب مجيئه الأخير، فيتمتع القطيع الجديد بملكوت الله. الآن يعلن السيِّد المسيح لقطيعه الإلتزام بالأمانة حتى يكون له نصيب في هذا الملكوت.

"فقال له بطرس: يا رب ألنا تقول هذا المثل أم للجميع أيضًا؟
فقال الرب: فمن هو الوكيل الأمين الحكيم الذي يقيمه سيِّده على خدمه
ليعطيهم العلوفة في حينها؟" [٤١-٤٢].

إذ سمع القدِّيس بطرس المثل الخاص بيوم مجيء الرب والذي فيه يعلن السيِّد مجيئه فجأة، سائلاً إياهم السهر واليقظة والترقب لهذا المجيء، سأل القدِّيس بطرس سيِّده أن كان هذا المثل خاص بالتلاميذ وحدهم أم عام للكل؟

---

[1] *In Ep. Ad Titus.*
[2] *Banquet of 10 Virgins 5: 2.*
[3] *In Luc Ser 92.*

لعل القدِّيس بطرس تساءل في أعماق نفسه: ماذا يقصد السيِّد بقوله "**أولئك العبيد**"؟ ألعله يقصد التلاميذ الذين يؤتمنون علي "**بيت الله**" كخدام ورعاة حتى يأتي "**رب البيت**"، أم يقصد بهم كل مؤمن بكونه قد أؤتمن علي حياته كبيت الله كخادم وراعٍ للجسد والنفس والطاقات والمواهب وكل الإمكانيات لتعمل معًا لحساب رب البيت، السيِّد المسيح نفسه؟

جاءت إجابة السيِّد: "**فمن هو الوكيل الأمين الحكيم، الذي يقيمه سيِّده علي خدمه، ليعطيهم العلوفة في حينها؟" [٤٢].** وكما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**[1] لم يقدَّم ربَّنا هذا السؤال لأنه يجهل من هم مؤمنين ووكلاء حكماء، إنما أراد أن يكشف عن ندرة وجودهم خاصة لكي يؤتمنوا علي خدمة الكنيسة.

❖ من يُوجد أمينًا ووكيلاً حكيمًا فليتسلم تدبير بيت الرب ليعطي العلوفة (نصيبهم في الطعام) في حينها، الذي هو كلمة التعليم المغذي لنفوسهم، أو القدرة العملية التي تشكّل حياتهم.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ لقد سام المخلِّص الرسل كوكلاء علي خدمه، أي على أولئك الذين رُبحوا بالإيمان لمعرفة مجده – أناس أمناء وذو فهم عظيم، مثقفون حسنًا بالتعليم المقدَّس.

لقد سامهم، آمرًا إياهم أن يقدَّموا الطعام المسموح به، ليس بدون تمييز، وإنما في حينه. أقصد الطعام الروحي الذي يقدَّم بما يليق بكل فرد وما يشبعه. فإنه لا يليق تقديم التعليمات في كل النقاط بطريقة واحدة لكل الذين يؤمنون بالمسيح، إذ كُتب: "معرفة اعرف نفوس غنمك" (أم ٢٧: ٢٣). فعندما نقدَّم طرق الحق لإنسان صار تلميذًا حديثًا نستخدم معه التعليم البسيط الذي لا يحمل أمرًا يصعب فهمه أو إدراكه... الأمر الذي يختلف تمامًا عن الطريق الذي نستخدمه في تهذيب الذين ثبتوا بالأكثر في الفكر والقادرون علي إدراك العلو والعمق والطول والعرض لمفاهيم اللاهوت السامي، وكما سبق فقلنا: "الطعام القوي فللبالغين" (عب ٥: ١٤)[2].

القدِّيس كيرلس الكبير

مجيء السيِّد يفرز الوكلاء الأمناء والحكماء من الوكلاء المتهاونين العنفاء والعاملين لحساب بطولتهم لا لحساب موكلهم، إذ يقول:

"**طوبى لذلك العبد الذي إذا جاء سيِّده يفعل هكذا.**

---

[1] *In Matt. Hom 77.*
[2] *In Luc Ser 93.*

بالحق أقول لكم أنه يقيمه علي جميع أمواله.
ولكن أن قال ذلك العبد في قلبه سيدي يبطئ قدومه،
فيبتدئ يضرب الغلمان والجواري ويأكل ويشرب ويسكر.
يأتي سيد ذلك العبد في يوم لا ينتظره،
وفي ساعة لا يعرفها، فيقطعه ويجعل نصيبه مع الخائنين" [٤٣-٤٦].

❖ من يعطي الخدم رفقاءه نصيبهم من الطعام بحكمة في حينه حسب احتياجهم يكون مطوّبًا جدًا كقول المخلِّص، إذ يُحسب أهلاً لأمور أعظم، ويتقبل مكافأة تليق بأمانته... هذا ما علمنا إيَّاه المخلِّص في موضع آخر حين مدح العبد العامل والأمين، قائلاً: "نعمًا أيها العبد الصالح والأمين، كنت أمينًا في القليل فأقيمك علي الكثير، أدخل إلي فرح سيدك" (مت ٢٥: ٢١).

أما أن أهمل واجبه فلم يكن مجتهدًا ولا أمينًا، مستخفًا بالسهر علي هذه الأمور كأنها تافهة، يترك ذهنه يرتبك بالاهتمامات الأرضية، ويفسده بأمور غير لائقة، فيستخدم العنف والقسوة مع الخاضعين تحته، ولا يقدَّم لهم نصيبهم، فسيكون في بؤس مطبق. فإن هذا هو معنى أنه "يقطعه"، كما أظن، "ويجعل نصيبه مع الخائنين". فإن من يسيء إلي مجد المسيح أو يتجاسر فيستهين بالقطيع الموكل إليه لا يختلف عن الذين لا يعرفون المسيح، ويُحسب هؤلاء مع الذين لا يحبُّونه. فإن المسيح قال للطوباوي بطرس: "**يا سمعان بن يونا أتحبني؟ ارع خرافي، ارع غنم**" (يو ٢١: ١٥-١٦). فمن يرعى غنمه إنما يحبها، ومن يهملها ويترك رعاية الخراف الموكل بها إليه يبغضها. وإن كان يبغضها فسيُعاقب ويحسب مع غير المؤمنين[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ "**يقيمه على جميع أمواله**" [٤٤]، ليس فقط على بيته، وإنما على الأمور الأرضية كما السماويَّة فتطيعه. وذلك كما حدث مع يشوع بن نون وإيليا، واحد أمر الشمس، والآخر أمر السحب؛ وكل القدِّيسين كأصدقاء الله استخدموا ما لله. من يعبر حياته بطريقة فاضلة ويخضع خدمه بطريقة لائقة مثل الغضب والشهوة، ويمدهم بالطعام في حينه؛ فبالنسبة للغضب يستخدمه ضد مبغضي الله (لتوبتهم)، وبالنسبة للشهوة يمارسها في حدود الضرورة اللازمة للجسد، مخضعًا إيَّاها لله؛ مثل هذا أقول يقيمه الله علي جميع أمواله إذ يُحسب أهلاً أن يتمتع بنظر كل الأمور (الإلهيَّة) خلال

[1] *In Luc Ser 93.*

نور التأمَّل[1].

الأب ثيؤفلاكتيوس

ليتنا إذن نكون وكلاء أمناء ليس فقط كخدام نقدَّم الطعام الروحي اللائق بكل نفس في حينه، وإنما حتى بالنسبة لنا، فنكون أمناء علي الخدام الذين تحت أيدينا، كالجسد بكل أعضائه وأحاسيسه، والفكر بكل طاقاته، والقلب بكل عواطفه والغرائز. ليكن كل ما هو بين أيدينا أمانة تسلمناها من قبل الرب، يلزمنا أن نخدمها بالروح القدس، فنعطيها شبعًا لا بأمور هذه الحياة الباطلة، وإنما بطعام الروح، كلمة الله التي تُشبع كل كياننا. عندئذ يقيمنا الله علي جميع أمواله، إذ تخضع السماء والأرض لإشتياقاتنا في الرب، ويعمل الكل لبنياننا، ويصير كل منا أشبه بملكٍ صاحب سلطان في الرب، ملك الملوك ورب الأرباب.

إنه لا يليق بنا أن نضرب "**الغلمان والجواري**"، فإن كانت الغلمان تشير إلى طاقات النفس فإن الجواري تشير إلي طاقات الجسد، لأننا كما سبق في دراساتنا السابقة رأينا أن النفس يُرمز لها بالذكر والجسد بالأنثى، فالغلمان هم أبناء النفس، والجواري هن بنات الجسد؛ ونحن مطالبون ألا نحطم هؤلاء ولا أولئك، بل نقوِّتهم ونربيهم، ليكون الكل مقدَّسًا للرب، عاملاً بروحٍ منسجمٍ لحساب ملكوت الله.

يقدَّم لنا السد مبدأ هامًا في المكافأة أو الجزاء وهو أنه كلما زادت المعرفة صارت المسئولية أعظم وبالتالي تكون المكافأة أو يكون الجزاء أكثر، إذ يقول:

"وأما ذلك العبد الذي يعلم أرادة سيِّده
ولا يستعد ولا يفعل بحسب أرادته فيضرب كثيرًا.
ولكن الذي لا يعلم ويفعل ما يستحق ضربات يُضرب قليلاً،
فكل من أُعطي كثيرًا يطلب منه كثير
ومن يودعونه كثيرًا يطالبونه بأكثر" [٤٧-٤٨].

❖ لا يُناقش في جريمة من يعرف إرادة سيِّده ويهملها ولا يعمل ما هو لائق بها كواجب ملتزم به، إذ يُحسب في عار واضح ويستحق ضربات كثيرة. لكن لماذا يتحمل ضربات ولو قليلة من لا يعلم إرادة سيِّده ولا يفعلها؟ لأنه لم يرد أن يعرفها مع أنه في قدرته أن يعرفها...

إنها لدينونة عنيفة يسقط تحتها من يعلمون. هذا ما يظهره تلميذ المسيح القائل: "لا تكونوا معلمين كثيرين يا إخوتي، عالمين أننا نأخذ دينونة أعظم" (يع ٣: ١). فإن عطيَّة المواهب الروحيَّة وفيرة

[1] *Catena Aurea.*

للذين هم رؤساء الشعب، إذ يكتب الحكيم بولس إلي الطوباوي تيموثاوس: "**فليعطك الرب فهمًا في كل شيء**" (٢ تى ٢: ٧)، "**لا تهمل أيضًا موهبة الله التي فيك بوضع يديّ**" (راجع ٢ تى ١: ٦). من هذا يظهر أن مخلِّص الكل إذ يعطيهم أكثر يطالبهم أكثر. ما هي الفضائل التي يطالبهم بها؟ الثبات في الإيمان، التعليم الصحيح، التأسيس حسنًا في الرجاء، الصبر بلا زعزعة، القوَّة الروحيَّة التي لا تُغلب، الفرح والشجاعة في كل تقدَّم حسن، بهذا نصير قدوة للآخرين في الحياة الإنجيلية. فإن عشنا هكذا يمنحنا المسيح الإكليل، الذي به ومعه السبح والسلطان للآب والروح القدس إلي أبد الأبد آمين[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ انظر كيف يكشف بوضوح أنه لأمر خطير أن يخطئ إنسان بمعرفةٍ عن أن يخطئ بجهلٍ. ومع هذا فليس لنا أن نحتمي تحت ظلال الجهل، لأنه يوجد فارق بين أن تكون جاهلاً، وأن تكون غير راغب في المعرفةٍ. فالإنسان الذي قيل عنه أنه "كف عن التعقل عن عمل الخير" (مز ٣٦: ٣) إرادته مخطئة وليس له حق الاعتذار بالجهل. ومع هذا فالجهل لا يبرر أحدًا أو يعفيه عن عقاب النار الأبديَّة... وإنما ربَّما يخفف عن العقوبة، إذ لم يقل عبثًا... "معطيًا نقمة للذين لا يعرفون الله" (٢ تس ١: ٨)[2].

القدِّيس أغسطينوس

❖ أي عذر لنا نحن الذين دخلنا القصر وحُسبنا أهلاً أن ندخل الهيكل، وصرنا شركاء في التمتع بالأسرار غافرة الخطايا ومع هذا نسلك أشر من اليونانيين (الأمم) الذين لم يشتركوا في شيء من هذا القبيل؟[3]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

١٢. القطيع الجديد ونار الروح

إذ طالبنا السيِّد أن نحيا كوكلاء أمناء وحكماء، فمن أين نقتني الأمانة والحكمة؟ أنهما عطيَّة الروح القدس الناري، الذي بعثه السيِّد المسيح لكنيسته لكي يحول أعضاءها إلى أشبه "بعرش شاروبيمي ملتهب نارًا"، فنتأهل ليملك الرب علينا، جالسًا في داخلنا كما علي عرشه. هذه النار الإلهيَّة هي عطيَّة الرب لنا، إذ يقول: "**جئت لألقي نارًا علي الأرض، فماذا أريد لو اضطرمت؟**" **[٤٩].**

---

[1] *In Luc Ser 93.*
[2] *On Grace & Freewill 5.*
[3] *In Ioan hom 34: 1.*

❖ أراد بهذا أن يقدِّم لنا تلميذا مملوءًا حرارة ونارًا، مستعدًا لاحتمال كل خطر[١].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لهذا السبب ظهر الروح في نار، لكننا نحن نزداد برودة أكثر من الرماد، وعدم حيويَّة أكثر من الموتى، بينما نرى بولس يحلق في أعلى السماوات وسماء السماوات، أكثر غيرة من اللهيب، يغلب كل شاء، ويتخطى كل الأمور: السفلية والعلويَّة، الحاضرة والمستقبلية، والكائنة غير الكائنة...

لنترك بولس ونذكر المؤمنين الأولين الذين تركوا كل ممتلكاتهم ومكاسبهم وكل الاهتمامات الأرضية والراحة الزمنيَّة، مكرسين أنفسهم لله بالكلية، معطين كل اهتمامهم لتعليم الكلمة ليلاً ونهارًا. هذا هو نار الروح الذي لا يسمح لنا أن تكون فينا شهوة لأمرٍ من أمور هذه الحياة، بل ينقلنا إلي حب آخر[٢].

❖ قال هذا ليعلن عن التهاب الحب وحرارته الذي يطلبه فينا. فكما أحبَّنا كثيرًا جدًا هكذا يريدنا أن نحبه نحن أيضًا[٣][٤].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ إله الكل هو "الصانع ملائكته رياحًا وخدامه نارًا ملتهبة" (مز ١٠٤: ٤)... عندما رغب بولس الطوباوي ألا تبرد نعمة الروح المعطاة لنا، حذرنا قائلاً: "لا تطفئوا الروح" (١ تس ٥: ١٩)، حتى نبقى شركاء مع المسيح، ذلك أن تمسكنا حتى النهاية بالروح الذي أخذناه، إذ قال: "لاتطفئوا" ليس لأن الروح موضوع تحت سلطان الإنسان أو أنه يحتمل آلامًا منه، بل لأن الإنسان غير الشاكر يرغب في إطفاء الروح علانية، ويصير كالأشرار الذين يضايقون الروح بأعمال غير مقدَّسة...

لقد أمسكت نار كهذه بإرميا النبي عندما كانت الكلمة فيه كنارٍ، إذ قال أنه لا يمكن أن يحتمل هذه النار (إر ٢٠: ٩)... وقد جاء سيدنا يسوع المسيح المحب للإنسان لكي يلقي بهذه النار علي الأرض، قائلاً ماذا أريد لو اضطرمت؟"[٥]

القدِّيس البابا أثناسيوس

---

[1] *In Ioan hom 84: 4.*
[2] *In Matt. Hom 6: 7.*
[3] *In Matt. Hom 35: 2.*
[4] *In Matt. Hom 6: 7.*
[5] *Fest. Lett. 3: 4.*

❖ ليعيننا الفهم الصالح ملهبًا أذهاننا ومنقيها، ذاك الذي جاء ليرسل نارًا علي الأرض لتبدد العادات الشرِّيرة مسرعًا بإشعالها[1].

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ عندما حلّ الروح القدس قيل: "وظهرت ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت علي كل واحد منهم" (أع ٢: ٣)... من ثم يقول الرسول أيضًا: "حارين في الروح" (رو ١٢: ١١)، لأن منه تأتي غيرة الحب: "لأن محبَّة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس المُعطى لنا" (رو ٥: ٥). وعلى نقيض هذه الغيرة ما قاله الرب: "تبرد محبَّة الكثيرين" (مت ٢٤: ١٤)، لأن الحب الكامل هو عطيَّة الروح القدس الكاملة[2].

القدِّيس أغسطينوس

❖ هذه هي النار التي اضطرمت في قلوب التلاميذ، فألزمتهم بالقول: "ألم يكن قلبنا ملتهبًا فينا إذ كان يكلمنا في الطريق ويوضح لنا الكتب؟" (لو ٢٤: ٣٢)[3].

القدِّيس جيروم

❖ لا يقصد النار المحرقة للخير، وإنما النار التي تحث علي الأعمال الصالحة، التي تجعل الأواني الذهبية التي في بيت الرب في حالٍ أفضل، بحرق العشب والقش (١ كو ٣: ١٢) وحرق كل مخبأ زمني تكدست فيه الملذّات الجسديَّة الزمنيَّة التي مصيرها الفناء.

هذه النار الإلهيَّة أشعلت عظام الأنبياء، كما قال إرميا: "كان في قلبي كنار محرقة محصورة في عظامي فمللت من الإمساك ولم أستطع" (إر ٢٠: ٩).

توجد نار للرب قيل عنها: "النار تحرق قدامه" (مز ٩٦: ٣).

الرب نفسه نار، إذ يقول عن نفسه أنه نار آكلة (مز ٣: ٢؛ ٢٤: ١٧؛ تث ٤:٢٤؛ عب ١٢: ٢٩).

نار الرب هي النور الأبدي، بهذه النار تُشعل السرج التي سبق فقيل عنها: "لتكن أحقاءكم ممنطقة وسرجكم موقدة". يشهد كليوباس وزميله أن الرب وضع فيهما هذه النار بقولهما: "ألم يكن قلبنا ملتهبًا فينا؟" (لو ٢٤: ٣٢)، معلنين عن عمل هذه النار التي تنير أعماق القلب. ربَّما لأجل هذا سيأتي

---

[1] *Oration on Easter 2: 16.*
[2] *Ser on N.T. 21: 19.*
[3] *Ep. 52:3.*

الرب في نار (إش ٤٦: ١٥-١٦) ليحرق كل الرذائل في القيامة ويملأ بوجوده إشتياقات كل أحد (من مؤمنيه) ويشرق بنوره علي الأعمال والسرائر[١].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ إننا نؤكد أن هذه النار التي أرسلها المسيح هي لخلاص البشر ونفعهم، الله يهب كل قلوبنا أن تمتلئ بها. فإن النار هنا – كما أقول – هي رسالة الإنجيل الخلاصيَّة وقوَّة وصاياه، فإننا جميعًا نحن الذين علي الأرض باردون وأموات بسبب الخطيَّة وفي جهالة... نلتهب بالحياة التقويَّة ونصير "حارين في الروح" (رو ١٢: ١١) كتعبير الطوباوي بولس. بجانب هذا نصير شركاء في الروح القدس الذي هو مثل نارٍ في داخلنا...

هذه هي عادة الكتاب المقدَّس الإلهي المُوحى به أنه يلقب الكلمات الإلهيَّة المقدَّسة أحيانا باسم "**نار**"، ليظهر فاعلية الروح القدس وقوَّته، الذي به نصير نحن حارين في الروح.

تحدَّث أحد الأنبياء القدِّيسين في شخص الله عن المسيح مخلِّص الجميع: "يأتي بغتة إلي هيكله السيِّد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تسرون به، هوذا يأتي قال رب الجنود؛ ومن يحتمل يوم مجيئه؟ ومن يثبت عند ظهوره؟ لأنه مثل نار الممحص ومثل اشنان القصّار، فيجلس ممحصًا ومنقيًا للفضة" (ملا ٣: ١-٣). يقصد بالهيكل الجسد الذي هو مقدَّس بالحق ليس فيه دنس، وُلد من العذراء القدِّيسة بالروح القدس بقوَّة الآب. فقد قيل للعذراء الطوباويَّة: "الروح القدس يحل عليكِ وقوَّة العلي تظللك" (لو ١: ٣٥). وقد حسبه "ملاك (رسول) العهد، إذ جاء يكشف لنا عن إرادة الآب الصالحة ويخدمنا. كما يقول بنفسه: "لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي" (يو ١٥: ١٥)... وكما أن الذين يعرفون كيف ينقون الذهب والفضة يستخدمون النار... هكذا يطهّر مخلِّص الكل فكر كل الذين يؤمنون به بتعاليم بقوَّة الروح...

بماذا نفسر الجمرة التي لمست شفتي النبي (إش ٦: ٦-٧) وطهرته من كل خطيَّة؟ إنها رسالة الخلاص، والاعتراف بالإيمان بالمسيح، من يتقبل هذا في فمه يطهر. هذا ما يؤكده لنا بولس: "لأنك إن اعترفت بفمك بالرب يسوع، وآمنت بقلبك أن الله أقامه من الأموات خلصت" (رو ١٠: ٩).

إذًا نقول أن قوَّة الرسالة الإلهية تشبه جمرة حيَّة ونارًا. يقول إله الكل للنبي إرميا: "هأنذا جاعل كلامي في فمك نارًا وهذا الشعب حطبًا فتأكلهم" (إر ٥: ١٤)، "أليست هكذا كلمتي كنار يقول الرب؟" (إر ٢٣: ٢٩)[٢].

---

[1] *In Luc 12:49,50*
[2] *In Luc Ser 94.*

القدِّيس كيرلس الكبير

١٣. القطيع الجديد والألم

إذ يهب الرب قطيعه الجديد روحه القدُّوس الناري، مقدَّما لهم كلماته أيضًا الناريَّة، وواهبًا إياهم الحب الناري، إنما لكي يعيش القطيع على مستوى سماوي ناري لا تستطيع أحداث هذا العالم أن تعوقه عن الانطلاق نحو الأبديات. حقًا إن مجيء السيِّد يلهب القلوب بالحب، لكنه أيضًا يثير غير المؤمنين حتى الأقرباء لمضايقتهم، فيحتمل المؤمنون كل ألم وضيق بقلب متسع كسيِّدهم. يقول السيِّد المسيح:

"**ولي صبغة أصطبغها، وكيف أنحصر حتى تُكمل؟**

أتظنون إني جئت لأعطي سلامًا على الأرض؟

كلا، أقول لكم، بل انقسامًا.

لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين، ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة.

ينقسم الأب على الابن، والابن على الأب،

والأم على البنت، والبنت على الأم،

والحماة على كنتها، والكنة على حماتها" [٥٠-٥٣].

ما هي الصبغة التي اصطبغ بها السيِّد إلا احتماله الألم حتى الموت، باذلاً دمه من أجلنا، لذا يليق بنا أن نحمل سمته، فنقبل من أجله الجهاد الروحي حتى الدم، أي حتى الموت. وكما يقول الرسول: "من أجلك نمات كل النهار" (رو ٨: ٣٦).

لقد دُعيت المعموديَّة صبغة، إذ بها نحمل سمات السيِّد المسيح. بدفننا معه لنقوم أيضًا معه، حاملين قوَّة قيامته فينا. هذه الصبغة كما يقول **العلامة ترتليان**[1] تكون في مياه المعموديَّة أو خلال الاستشهاد، هاتان المعموديتان- في رأيه- أخرجهما من جنبه المطعون، إذ خرج منه دم وماء (يو ١٩: ٣٤).

❖ يقصد بمعموديته (صبغته) موته بالجسد، وبانحصاره إذ حزن وتضايق حتى أكملها. ماذا حدث عندما أكملت؟ صارت رسالة الإنجيل الخلاصيَّة معلنة لا في اليهوديَّة وحدها، بل في كل العالم... فقبل الصليب الثمين وقيامته من الأموات كانت وصاياه ومجد معجزاته الإلهيَّة في اليهوديَّة وحدها، لكن إذ أخطأ إسرائيل في حقه، وقتلوا رئيس الحياة... أعطى الوصيَّة لتلاميذه

[1] *On Baptism 16.*

هكذا: "اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس، وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به" (مت ٢٨: ١٩-٢٠). انظروا ها أنتم ترون النار الإلهيَّة المقدَّسة قد انتشرت بواسطة الكارزين القدِّيسين[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

الآن إذ يرش الرب دمه كصبغة مقدَّسة نصطبغ بها، خلاله يلتهب قلبنا بنار روحه القدُّوس يلزمنا كما "انحصر" هو حتى أكمل عمل الفداء أن ننحصر نحن خلال الألم حتى نعلن كمال حبنا له، محتملين الضيق حتى ممن هم أقرب الناس إلينا، من أهل بيتنا.

❖ هل تظن أنه يأمر بتفكك الرباطات بين أبنائه المحبوبين؟ كيف يكون هذا وهو نفسه سلامنا الذي جعل الاثنين واحدًا؟ (أف ٢: ١٤)، والقائل: "سلامًا أترك لكم، سلامي أعطيكم" (يو ١٤: ٢٧)؟ إن كان قد جاء ليفرق الآباء عن الأبناء والأبناء ضد الآباء فكيف يلعن من لا يكرم أباه (تث ٢٧: ١٦)؟

يريد أن يكون الله في المرتبة الأولى وبعد هذا تأتي محبَّة الوالدين... ينبغي أن نفضل ما لله عما للبشر، لأنه أن كان للوالدين حقوق، يلزمنا أن نشكر من وهبنا الوالدين... أضف إلى هذا قوله في إنجيل آخر: "من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني" (مت ١٠: ٣٧). الله لا يمنعك عن محبَّة والديك، إنما عن تفضيلهما عن الله، فالعلاقة الطبيعيَّة هي من بركات الرب، فلا يليق أن يحب الإنسان العطيَّة أكثر من واهب العطيَّة وحافظها[٢].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ عندما تجد أبًا أرضيًا من أجل تقواك نحو المسيح فستقتني ذاك الذي من السماء أبًا لك، وإن رفضت أخًا لأنه يهين الله ولا يخدمه فسيقبلك المسيح كأخٍ له... اترك أمك التي حسب الجسد واقتن الأم العلويَّة أي أورشليم السماويَّة التي هي "أمنا" (غل ٤: ٢٦). وهكذا تجد نسبًا مجيدا وقويًا في عائلة القدِّيسين، معهم تصير وارثًا هبات الله التي لا تُدرك ولا يمكن للغة أن تعبر عنها[٣].

القدِّيس كيرلس الكبير

---

[1] *In Luc Ser 94.*
[2] *In Luc 12:12-53.*
[3] *In Luc Ser 94.*

يتساءل **القدِّيس أمبروسيوس**[1] عن السبب الذي لأجله يقول السيِّد المسيح: " **لأنه يكون من الآن خمسة في بيت واحد منقسمين، ثلاثة على اثنين، واثنان على ثلاثة [٥٢]** مع أنه ذكر ستة أشخاص (الأب والابن والأم والبنت والحماة والكنة)؟ وجاءت الإجابة هكذا:

أولاً: يحتمل أن تكون الأم والحماة شخصًا واحدًا، بكون والدة الابن هي حماة زوجته.

ثانيًا: يقدَّم لنا تفسيرًا رمزيًا، فالبيت هي الإنسان ككل كقول الرسول بطرس: "كونوا أنتم أيضًا مبنين كحجارة حيَّة بيتًا روحيًا، كهنوتًا مقدَّسًا، لتقديم ذبائح روحيَّة مقبولة عند الله بيسوع المسيح" (١بط ٢: ٥). في هذا البيت يوجد إثنان هما الجسد والنفس، أن اتفقا معا باسم يسوع يكون الرب في وسطهما (مت ١٨: ١٩)، هذا الذي يجعل الاثنين واحدًا (أف ٢: ١٤)، خلال هذه الوحدة يُستعبد الجسد لخدمة النفس (١ كو ٩: ٢٧). هذان الاثنان يقفان ضد الثلاثة: الفكر المنحرف والشهوة والطبع الغضوب.

ثالثًا: يرى أيضًا أن هذا البيت يحوي خمس حواس: الشم واللمس والتذوق والنظر والسمع. فإن كنا خلال السمع والنظر نعزل هاتين الحاستين معًا ليتقدسا مقاومين الملذّات الجسديَّة الخاطئة خلال التذوق (النهم) واللمس والشم فقد انقسم اثنان على ثلاثة.

يرى البعض أن البيت يشير إلى العالم كله، وإن الاثنين يشيران إلى اليهود والأمم الذين يقاومون المسيحيين الذين يؤمنون بالثالوث القدُّوس. الأب الذي يقوم ضد ابنه، هو الشيطان الذي أقام نفسه أبًا على الوثنيين، فوجد ابنه يتركه خلال الإيمان المسيحي ليقبل أبًا سماويًا. الأم التي تقوم ضد البنت هي المجمع اليهودي الذي هاج ضد الكنيسة الأولى خاصة الرسل والتلاميذ الذين خرجوا عن أمهم بقبولهم الإيمان بالمسيا المصلوب. الحماة التي قامت ضد كنتها هي أيضًا المجمع اليهودي الذي ثار ضد كنيسة الأمم، التي قبلت الإتحاد بالعريس السماوي يسوع المسيح الذي جاء كابنًا لليهود حسب الجسد. وكأن المجمع اليهودي ثار على ابنته كما على كنته... على الكنيسة التي من أصل يهودي كما على كنيسة الأمم. الابنة والكنة ثارتا على هذا المجمع (الأم والحماة)، إذ رفضت الكنيسة أعمال الناموس الحرفيَّة كالختان والغسالات والتطهيرات الجسديَّة!

١٤. القطيع الجديد وروح التمييز

إذ يواجه القطيع الجديد الألم ليشترك مع عريسه في آلامه، يليق به أن يسلك بحكمة وأن يكون له

---

[1] *In Luc 12:12-53.*

روح التمييز.

"ثم قال أيضًا للجموع:

إذا رأيتم السحاب تطلع من المغارب

فللوقت تقولون أنه يأتي مطر، فيكون هكذا.

وإذا رأيتم ريح الجنوب تهب تقولون أنه سيكون حرُ فيكون.

يا مراءون تعرفون أن تميزوا وجه الأرض والسماء،

وأما هذا الزمان فكيف لا تميزونه؟" [٥٤- ٥٦].

❖ يوبخ الرب الذين يعرفون أن يميزوا وجه السماء ولا يعرفون كيف يكتشفون وقت الإيمان، إذ اقترب ملكوت السماوات[1].

القدِّيس أغسطينوس

❖ يركز البشر انتباههم على مثل هذه الأمور وخلال الملاحظة الطويلة والخبرة يخبرون مقدَّمًا بسقوط الأمطار أو هبوب ريح عاصف، هذا والملاحون بصفة خاصة ماهرون جدّا في هذا الأمر. حسنًا يقول السيِّد يفعل هؤلاء الذين يستطيعون أن يقدروا حسابات هذه الأمور، ويتنبأون عنها مثل حدوث عواصف إن ركزوا فكرهم بنظرة ثاقبة إلى أمور هامة. ما هي هذه الأمور الهامة؟ لقد تنبأ الناموس مقدَّمًا عن سرّ المسيح، وأظهر أنه سيشرق في أواخر الدهور على سكان الأرض، ويقدَّم نفسه ذبيحة لخلاص الجميع. فإن كان الناموس قد أمر بتقديم خروف كرمزٍ للمسيح عند المساء عند إضاءة السراج، إنما لنفهم أنه عندما يميل العالم إلى الانتهاء كالنهار، فستتحقَّق الآلام العظيمة والثمينة المخلِّصة حقًا، ويُفتح بابا الخلاص على مصراعيه لكل من يؤمن به ويكون نصيبهم السعادة الوفيرة.

وفي نشيد الأناشيد نجد المسيح يدعو العروس الموصوفة في السفر والتي تمثل شخص الكنيسة، قائلاً: "قومي يا حبيبتي يا جميلتي وتعالي، لأن الشتاء قد مضى، والمطر مرّ وزال؛ الزهور ظهرت في الأرض، بلغ أوان القضب" (نش ٢: ١٠-١٢). وكما قلت أن نوعًا من هدوء الربيع يحل بالذين يؤمنون به...

تنبأ الأنبياء الطوباويون بطرق كثيرة، كارزين بسرّ المسيح، الأمر الذي لا يمكن لأحد أن يشك فيه...

---

[1] *Ser. on N. T. 59:1 .*

يقول السيِّد، كان من واجبهم نعم من واجبهم إذ لهم الفهم والقادرون على تمييز وجه السماء والأرض أن يختبروا الأمور المقبلة ولا تفلت العواصف القادمة على هذا العالم من ملاحظتهم، إذ ستهب الريح الجنوبية ويسقط المطر، أي يحل العذاب الناري، لأن الريح الجنوبية حارةٍ، هكذا سيكون العقاب عنيفًا لا يفلت منه أحد كالمطر الذي يسقط حتمًا عليهم. لهذا كان يليق بهم ألا يجتازوا زمان الخلاص دون ملاحظتهم إياه، أي زمان مجيء مخلِّصنا حيث يقدَّم للبشريَّة معرفة كاملة للحق، وتشرق النعمة لتطهر الأشرار[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

إن كان **القدِّيس كيرلس الكبير** يرى في هذا تحذير من السيِّد المسيح نحو اليهود الذين كانوا يهتمون بالتنبؤ، عن الأحوال الجويَّة دون الاهتمام بالنبوات الخاصة بمجيئه، فسقطوا تحت مطر الغضب الإلهي ونار العقاب خلال جحودهم، فإنه يمكننا أيضًا أن نتطلع إلى حديث السيِّد المسيح من زاويَّة أخرى. إنه يود في قطيعه أن يحمل روح التمييز، لا لأجل التحفظ من الأحوال الجويَّة، وإنما للتمتع بالجو الروحي السماوي. فالمطر كما سبق في دراستنا لكثير من أسفار الأنبياء كان يرمز لعطيَّة الروح القدس، فالمطر المبكر هو عطيَّة الروح في العهد القديم قبل السيِّد المسيح، أما المطر المتأخر الذي يهب الزرع نضوجًا، فهو عطيَّة الروح في العهد الجديد، عندما أرسله السيِّد على كنيسته في يوم العنصرة رصيدًا لا ينقطع، يتمتع به كل عضو خلال مياه المعموديَّة. هذا المطر الذي يروي النفس ويحولها من قفر إلى جنة أو فردوس مثمر لحساب الرب حلّ علينا خلال السحاب القادم من المغارب، أي خلال السيِّد المسيح الذي جاءنا خلال الطبيعة البشريَّة. أما "الحرّ" فيشير إلى الروح الناري الذي يلهب القلب كما سبق فرأينا في نفس الأصحاح [٤٩]. فنحن نحتاج إلى المطر والنار، أو الماء والنار... والاثنان يشيران إلى عطيَّة الروح خاصة خلال مياه المعموديَّة.

١٥. القطيع الجديد والحب الغافر

لعل غاية "روح التمييز" أن يحمل هذا القطيع روح الحب الغافر لأخطاء الآخرين لكي يتأهل لحمل سمة عريسه السماوي محب البشر. لذا يقول:

"ولماذا لا تحكمون بالحق من قبل نفوسكم؟

حينما تذهب مع خصمك إلى الحاكم

ابذل الجهد وأنت في الطريق لتتخلص منه،

---

[1] *In Luc Ser 95.*

لئلاَّ يجرك إلى القاضي،

ويسلمك القاضي إلى الحاكم،

فيلقيك الحاكم في السجن.

أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفي الفلس الأخير" [٥٧-٥٩].

❖ لننظر من هو هذا الخصم الذي يجب أن نتفق معه حتى لا يسلمنا للقاضي... أن كنت تخطئ فكلمة الله تكون هي خصمك... إنها خصم لإرادتك حتى تصير مصدرًا لخلاصك. يا له من خصم صالح ومفيد!... إنه خصمنا مادمنا نحن خصمًا لأنفسنا، أي مادمت أنت عدو لنفسك، فستكون كلمة الله عدوًا لك. كن صديقًا لنفسك، فتكون في اتفاق مع كلمة الله ... أما الطريق فهو هذه الحياة...

إن صارت لك إرادة صالحة مع خصمك واتفقت معه، فستجد عوض القاضي أبًا، وعوض الشرطي القاسي ملاكًا يحملك إلى حضن إبراهيم، وعِوَض السجن تجد الفردوس. انظر كيف تتغير الأمور كلها سريعًا. في الطريق لأنك اتفقت مع الخصم![١]

القدِّيس أغسطينوس

---

[1] *Ser. on N. T. 59:3-4.*

الأصحاح الثالث عشر

التوبة العاملة

يريدنا إلهنا الصالح أن نتمتع بصداقته الإلهيَّة، فأقامنا قطيعًا جديدًا يرعانا بنفسه، يهبنا السمة السماويَّة ويدخل بنا خلال شركة الألم معه إلى قوَّة قيامته. الآن يكشف لنا عن باب حظيرته التي أقامها لنا لنحيا تحت ظلاله، ألا وهو "التوبة العاملة". هذا هو الباب الذي به ندخل إلى ملكوته، لتحيا كل نفس تحت رعايته، تتمتع بأعماله الإلهيَّة في سلوكها وعبادتها.

١. دعوة للتوبة ١–٥.

٢. الله يطلب ثمرًا ٦–٩.

٣. الله يحل رباطات الضعف ١٠–١٧.

٤. مثل حبة الخردل ١٨–١٩.

٥. مثل الخميرة والعجين ٢٠–٢١.

٦. التوبة والباب الضيق ٢٢–٣٠.

٧. إعلانه عن موته ٣١–٣٥.

١. دعوة للتوبة

جاء السيِّد المسيح يطلب صداقتنا مقدَّما حياته ثمنًا لهذه الصداقة مبادرًا بالحب، لكننا لا نستطيع أن نلتقي معه ونقبل حبه فينا بطريق آخر غير التوبة. هذا ما يؤكده السيِّد نفسه، قائلاً: "**إن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون**" **[٣، ٥]**؛ وذلك عندما أخبره قوم عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم. إذ "**أجاب يسوع وقال لهم: أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لأنهم كابدوا مثل هذا؟ كلا، أقول لكم، بل أن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون**" **[٢–٣]**.

من هم هؤلاء الجليليون؟ لم يقدِّم لنا **القدِّيس كيرلس الكبير ولا القدِّيس أمبروسيوس** تعليقًا على هذا الجزء من الأصحاح، ولكن في نص نُسب **للقدِّيس كيرلس الكبير** ورد في الـ *Catena Aurea* قيل أن هؤلاء الجليليين هم أتباع أفكار يهوذا الجليلي الذي يشير إليه معلمنا لوقا في سفر أعمال الرسل (٥: ٢٧). هذا الذي نادى بأنه يجب ألا يُدعى أي إنسان سيدًا، وقد التف حوله جمهور كبير رفضوا دعوة قيصر سيدًا لهم، لهذا عاقبهم بيلاطس. هؤلاء نادوا أيضًا بعدم تقديم أية ذبيحة لله لم ترد

في الشريعة الموسويَّة، مانعين الشعب عن تقديم ذبائح لله من أجل سلام الإمبراطور والدولة الرومانية، الأمر الذي أثار بيلاطس، فطلب قتلهم وهم يقدَّمون ذبائحهم في الهيكل حسب الشريعة. فاختلط دمهم بذبائحهم التي قدَّموها. وجاء في نفس النص أنه وُجد اعتقاد بأن هؤلاء الجليليين قد عوقبوا بعدل لأنهم بذروا فتنة بين الشعب، وأثاروا على الثورة ضد الحكام. فأراد القوم الذين عرضوا هذه القضية أن يعرفوا رأي السيِّد المسيح فيهم.

ويرى بعض الدارسين أن السيِّد المسيح إذ تحدَّث عن الاتفاق مع الخصم حتى لا يسلمه للقاضي فيعاني من السجن حتى يوفي الفلس الأخير، أراد هؤلاء القوم أن يشكو لملك اليهود المنتظر استبداد المستعمر الروماني للشعب اليهودي، أو ربَّما أرادوا أن يعرضوا عليه "مشكلة الألم"، التي لم يجد لها اليهود حلاً عبر العصور.

ربما كان اليهود ينتظرون في السيِّد المسيح أن يثور على بيلاطس البنطي الذي انتهك حرمه الهيكل، فأرسل جنوده لمطاردة هؤلاء الجليليين الذين دخلوا بذبائحهم إلى الهيكل، وأرادوا أن يمسكوا بقرون المذبح، فلم يكف الجنود عن مطاردتهم حتى قتلوهم، وهم يقدَّمون ذبائحهم. ويرى بعض المؤرخين أن ما فعله بيلاطس بهم كان علَّة العداء بينه وبين هيردوس (لو ٢٣: ١٢) لأنهم كانوا من رعاياه، ويرى البعض أن باراباس قُبض عليه بسبب هذه الفتنة (لو ٢٣: ١٩).

على أي الأحوال استغل السيِّد المسيح هذا الخبر، لا ليتحدَّث عن الأحداث الخارجية، وإنما ليدخل بنفوس سامعيه إلى حياة التوبة حتى يتمتعوا بالطمأنينة لا خوفًا من بيلاطس، وإنما من الخطيَّة التي هي علَّة الهلاك. وقد جاءت إجابته تكشف الآتي:

أولاً: أظهر أن البلايا الخارجيَّة والضيقات ليست بالضرورة علَّة خطايا خاصة. فقتل هؤلاء الرجال لا يعني بالضرورة أنهم أكثر شرًا من غيرهم من الجليليين، إذ يقول: "**أتظنون أن هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليلين لأنهم كابدوا مثل هذا؟ كلا!**" **[٢]**. إذ كان يسود اليهود الإحساس بأن كل ضيقة يجتازها إنسان إنما هي علامة غضب الله عليه.

ثانيًا: إن كان الله يسمح بالضيقة أحيانًا إنما لأجل التوبة، ليس فقط توبة الساقطين تحت الألم ولكن توبة الغير أيضًا، إذ يكمل السيِّد المسيح حديثه: "**بل إن لم تتوبوا، فجميعكم كذلك تهلكون**" **[٣]**. فإن كان هؤلاء قد ماتوا، وقد اختلطت دماؤهم بذبائحهم وهم في هذا ليسوا بالضرورة أشر ممن لم يُقتلوا فليكن في قتلهم فرصة لمراجعة كل إنسان نفسه للتوبة حتى لا يهلك أبديًا.

❖ يعاقب الله الخطاة بقطع شرورهم (مثل قتلهم) ليصير عقابهم أخف، أو ربَّما لكي لا يسقطوا تحت عقوبة فيما بعد نهائيًا، وفي نفس الوقت إذ يرى الأحياء السالكون في الشر ذلك، يتعظون ويصححون وضعهم.

مرة أخرى لا يعاقب الله آخرين حتى إذا ما راجعوا أنفسهم بالتوبة يهربون من العقوبة الزمنيَّة والمقبلة، أما أن استمروا في خطيتهم فيسقطون تحت عقاب أشد...

هنا يظهر أنه قد سمح لهم باحتمال هذه الآلام حتى يفزع وارثو الملكوت من هذه المخاطر وهم أحياء (فيتوبون).

ربما تقول: أيُعاقب إنسان لكي يُصلح حالي أنا؟ بلى، أنه يعاقب من أجل جرائمه، وهذا يهب فرصة لخلاص ناظريه[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

يكمل السيِّد المسيح حديثه، قائلاً: "**أو أولئك الثمانية عشر الذين سقط عليهم البرج في سلوام وقتلهم، أتظنون أن هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الساكنين في أورشليم؟ كلا، أقول لكم، بل أن لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون**" [٤-٥].

هم قدَّموا حادثة الجليليين التي ارتكبها جنود بيلاطس بنطس لبعض الجليليين، إنما يشير إلى حرب الشيطان ضد البشريَّة حتى في لحظات العبادة وهم في المقادس يقدِّمون ذبائحهم. "بيلاطس" يعني "فم من له مطرقة"، وكأنه بإبليس الذي لا يكف عن الضرب كما بمطرقة، مستخدمًا كلماته المعسولة ليفقدنا نقاوتنا حتى في لحظات العبادة. أما بالنسبة للحادث الثاني فإن رقم ١٨ الذين سقط عليهم البرج في اليونانية هكذا "*I H*" وهما الحرفان الأولان لاسم "يسوع"، و"سلوام" تعني "المرسل". بهذا نفهم أن هذا الحادث يشير إلى هلاك اليهود داخل برجهم أي خلال "الناموس" ذاته وذلك برفضهم ليسوع كمخلِّص الذي جاء مرسلاً من قبل الآب لخلاص العالم كله.

يمكننا أن نقول بأن السيِّد يدفعنا للتوبة برفضنا لكلمات إبليس المعسولة والمخادعة، وحذرنا لئلاَّ نتعثر في السيِّد المسيح نفسه الذي جاء يطلب خلاصنا.

٢. الله يطلب ثمرًا

إذ قدَّم لنا السيِّد المسيح دعوة لقبول صداقته معنا خلال التوبة، أكَّد ضرورة التحام التوبة بالثمر الروحي المبهج لقلب الله. فقد شبّه البشريَّة بشجرة تين مغروسة في كرمه بقيت ثلاث سنوات لا تأتي

---

[1] *De Lazer. Conc. 3.*

بثمر. هذه السنوات الثلاث هي: فترة السقوط داخل الفردوس، وفترة ما قبل الناموس الموسوي، وفترة الناموس. وقد تعرضت الشجرة للقطع إذ أفرخت أوراقًا تستر بها آدم وحواء في عريهما دون علاج لطبيعتهما، فتدخل الكرّام الحقيقي ربَّنا يسوع طالبًا تركها سنة أخرى هي "عهد النعمة" لكي ينقب حولها ويضع زبلاً، مهتمًا بها بكونها غرسه الإلهي حتى تأتي بالثمر الحقيقي اللائق. وقد وُهب للرعاة أيضًا أن يحملوا روح سيِّدهم فيشفعون في كل شجرة لعلها تأتي بثمر روحي.

❖ تشفع الكرّام لأجلها، وتأجلت العقوبة حتى يتم العون.

الآن الكرّام الذي يشفع فيها هو كل قدِّيس يصلي في الكنيسة من أجل الذين هم خارجها. وبماذا يصلي؟ "**يا رب اتركها هذه السنة أيضًا، أي اتركها في زمن النعمة، اترك الخطاة، اترك غير المؤمنين، اترك العاقرين غير المثمرين، فإنني سأحفر حولها واضع زبلاً، فإن صنعت ثمرًا وإلا ففيما بعد تقطعها**" (راجع لو ١٣: ٨-٩).

ما هو هذا الحفر حولها إلا التعليم بالتواضع والتوبة؟ فإن الحفرة هي أرض منخفضة.

الزبل يعني الدنس الذي ينتج في فاعليته الصالحة ثمرًا. دنس الزارع هو تنهدات الخطاة الذين يتوبون لابسين ثيابًا قذرة، أن قُدِّمت التوبة بفهمٍ وبالحقٍ، فإنه لمثل هذه الشجرة يُقال: "توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماوات" (مت ٣: ٢)[1].

القدِّيس أغسطينوس

❖ (في تعليقه على وضع الزبل حول الشجرة)

ليتنا نسمد هذا الحقل الذي لنا، متمثلين بالزارعين المجاهدين الذين لا يخجلون من إشباع الأرض بالسماد، ونثر الرماد والقذر على الحقل حتى يجمعوا محصولاً أوفر.

علمنا الرسول بولس كيف نسمد حقلنا بقوله: "إني أحسب كل شيء أيضًا خسارة... لكي أربح المسيح" (في ٣: ٨). بصيت حسن أو بصيت رديء أدرك أن يُسر السيِّد المسيح.

لقد قرأ بولس عن إبراهيم أنه اعترف بأنه ليس إلا ترابًا ورمادًا (تك ١٨: ٢٧)؛ وقرأ عن أيوب أنه جلس في الرماد (أي ٢: ٨)، وبذلك استعاد كل ما فقده (أي ٤٢: ١٠). وسمع على فم داود أن الله: "المقيم المسكين من التراب، الرافع البائس من المزبلة" (مز ١١٣: ٧). فليتنا لا نعود نخجل من الاعتراف بخطايانا.

[1] *Ser. on N.T.60:1.*

حقًا أنه من المخجل أن يعترف الإنسان بخطاياه، لكن هذا الخجل يكون أشبه بعملية الحرث للأرض، وإزالة العوسج منها، وتنقيتها من الأشواك، وبذا نظهر الثمار التي لم تكن موجودة.

لنتمثل إذن بهذا الذي حرث حقله باجتهاد، باحثًا عن الثمرة الأبديَّة: "نُشتم فنبارك، نُضطهد فنحتمل، يُفتري علينا فنعظ. صرنا كأقذار العالم ووسخ كل شيء إلى الآن" (١ كو ٤: ١٢-١٣)[1].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ **ينطبق مثل شجرة التين علي المجمع**، فقد اكتست الشجرة بأوراق كثيرة، وخدعت صاحبها الذي انتظر بدون جدوى الثمر المترقب، هكذا في المجمع يعرض معلمو الناموس أقوالهم مثل أوراق الزينة (بلا عمل).

بالتدقيق نجد أن هذا النوع من الأشجار يختلف في ثمره عن غيره من الأشجار، ففي الأنواع الأخرى تظهر الزهرة قبل الثمرة، إذ تعلن الزهرة عن الثمرة. **أما شجرة التين فتحمل ثمرًا من البداية دون ظهور زهور.** في الأشجار الأخرى تسقط الزهرة بتولد الثمرة مكانها، **أما في هذه الشجرة فتسقط الثمرة الأولى ليحل محلها ثمرة أخرى...** تسقط الثمرة الأولى ويجف الساق الضعيف تاركًا مكانًا لغيره كيف ينتفع بالأكثر من العصارة، ولكن توجد قلة نادرة من الثمار الأولى لا تسقط، لأنها توجد علي جزع ساق قصير بين الفروع. تُحفظ هذه الثمار وتنمو كما في أحضان حنان الطبيعة ويكون غذاؤها أوفر ينميها...

اليهود هم كالثمار الأولى للمجمع، ثمر ضعيف يسقط ليترك مكانًا لثمار جنسنا الذي يبقى إلى الأبد. شعب المجمع الأول لم يكن له عمق لأن أعماله كانت جافة، فلم يستطع أن ينهل من عصارة الحكمة الطبيعيَّة المخصبة، لذا سقط كثمر بلا نفع، فظهر ثمر شعب الكنيسة الجديد علي نفس الأغصان خلال عصارة التقوى القديمة...

أما أفضل الإسرائيليين الذين حملهم جزع الناموس البالغ إلي الصليب، هؤلاء الذين اصطبغوا في أحشائهم بالعصارتين، فنضجوا... وقد قيل لهم: "تدينون أسباط إسرائيل الإثنى عشر" (مت ١٩: ٢٨). ليس هذا بغريبٍ، فآدم وحواء مصدر جبلتنا ومصدر سقوطنا اكتسيا بأوراق هذه الشجرة، واستحقا الطرد من الفردوس، وإذ لاحظا عريهما اختبئا من وجه الرب حين سمعا صوته ماشيًا في الجنة. هذا يكشف عن اليهودي في الأزمنة الأخيرة عند مجيء الرب والمخلِّص، إذ جاء ليدعوه أدرك

[1] *Conc. Repent 2: 1.*

أن تجارب إبليس عرته من كل فضيلة، وفي ارتعابه من تبكيت ضميره يحوّر التقوى ويخجل من عدم أمانته ويعرف أنه قد ابتعد عن الرب وحاول أن يستتر بكثرة كلامه بستار انحطاط الأعمال.

لذا **فاللذان أخذا أوراق التين دون الثمر طُردا من ملكوت الله، إذ كانا "نفسًا حيَّة"، وجاء آدم الثاني يطلب الثمر لا الأوراق، لأنه كان "روحا محييًا"** (١ كو ١٥: ٤٥). فبالروح ننال ثمار الفضيلة، وبه نعبد الرب.

يطلب الرب الثمر، لا لأنه لا يعرف أن التينة بلا ثمر، وإنما ليشير بهذا الرمز أنه جاء وقت جمع الثمار، وأنه لم يأتِ قبل الأوان.

جاء لثلاث سنين، "هوذا ثلاث سنين آتي أطلب ثمرًا في هذه التينة ولم أجد، اقطعها، لماذا تبطل أيضًا؟" [٧]. لقد **جاء لإبراهيم** (حيث طلب منه الختان)، **وجاء لموسى** (مقدَّما له الناموس)، **وجاء لمريم** (متجسدًا في أحشائها ليهب النعمة). بمعنى آخر جاء كختم للعهد (مع إبراهيم خلال الختان) وفي الناموس وفي الجسد.

ونحن نعرف محبيه ببركاته عليهم، **فتارة يطهر، وأخرى يقدّس، وثالثة يبرر**. الختان يطهر، والناموس يقدس، والنعمة تبرر... ومع ذلك لم يستطع الشعب اليهودي أن يتطهر، لأنه أخذ ختان الجسد لا الروح. ولا استطاع أن يتقدس، لأنه جهل قيمة الناموس بتمسكه بما هو جسدي لا بما هو روحي، مع أن الناموس روحي (رو ٧: ١٤). ولا استطاع أن يتبرر، إذ لم يتب عن خطاياه فكان جاهلاً بالنعمة... لهذا صدر الأمر بقطعها، لكن البستاني الصالح تدخل هذا الذي جاء للأمم كما لأهل الختان حتى لا تُقطع الشجرة، إذ وثق أنه يمكن للشعب اليهودي (إن قبل المسيا المخلِّص) أن يخلص، لذا قال: "**اتركها هذه السنة أيضًا فأنقب حولها وأضع زبلاً**". يضرب بالفأس الرسولي لينقب حولها محطمًا قسوة قلوبهم، ينقب بالسيف ذي الحدين نفوسهم المغلقة بسبب إهمالها لزمان طويل، ينقب (**يفتح**) قلوبهم فتحيا حواسهم وتتنسم الهواء فلا تختنق جذور الحكمة، ولا تدفن تحت ثقل الطين. يقول: "**أضع زبلاً**"، الذي به تصير الأرض القفر مثمرة، والمستوحشة مزروعة، والمجدبة ذات ثمر. **على الزبل جلس أيوب في تجربته فلم ينهزم، وبولس الرسول حسب نفسه نفاية (كزبل) ليربح المسيح** (في ٣: ٨)...

فالأرض التي تُنقب جيدًا ويُوضع فيها زبل تثمر، إذ يرفع الرب البائس الجالس في التراب، يقيم المسكين من المزبلة (مز ١١٣: ٧) **ليت ما قيل عن اليهود بصفة عامة يكون موضع اعتبارنا، في حياتنا، حتى لا نشغل أرض الكنيسة المخصبة بلا ثمر!**[١]

القدِّيس أمبروسيوس

هكذا يقدَّم لنا **القدِّيس أمبروسيوس** في هذا المثل صورة حيَّة للشعب اليهودي الذي بقى ثلاث سنوات بلا ثمر، إذ لم ينتفع بالختان قبل الناموس (من إبراهيم إلي موسى) ولا بالناموس (من موسى إلي مجيء المسيح)، ولا حتى بالنعمة إذ جاء السيِّد المسيح يقدَّمها لنا... ومع هذا فلا يكف الله عن أن يعمل لخلاص كل العالم حتى المقاومين له... مشتاقًا أن يضرب بفأس الكتابات الإنجيلية والرسولية حول الشجرة لكي تتفتح الأرض ويشتم جذر أعماقنا نسمة حياة روحيَّة، ويضع زبل الاتضاع لكي يرفعها إلى فوق وتأتي بثمر روحي سماوي.

يمكننا أيضًا أن نرى في هذه السنوات الثلاث بالنسبة للبشريَّة ككل هكذا:

أ. **الإنسان في الفردوس،** فقد خرج منه حاملاً ثقل الخطيَّة وبذار الموت والفساد.

ب. **الإنسان ما قبل الناموس،** وقد بقى الإنسان في فساده يعبد الأصنام.

ج. **الإنسان تحت الناموس،** وقد أساء الإنسان استخدامه، فلم يفهمه روحيًا ولا استطاع أن يكمله بل سقط تحت اللعنة بكسره لوصاياه.

أخيرًا تقدَّم البستاني الصالح ربَّنا يسوع في ملء الزمان يمهلنا سنة أخرى هي **سنة النعمة الإلهيَّة** لعلنا نقبل عمله فينا فنحمل ثمر روحه القدُّوس سرّ بهجة للآب صاحب الكرم.

❖ طُلبت طبيعتنا ثلاث مرات ولم تقدِّم ثمرًا، مرة عندما عصت الوصيَّة في الفردوس، وأخرى عندما صبت العجل تحت الناموس، وثالثة عندما رفضت المخلِّص. يمكن أيضًا أن تُفهم هذه السنوات الثلاث على أنها مراحل الحياة الثلاث: الصبوة والنضوج (الرجولة) والشيخوخة.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ جاء ربَّنا لشجرة التين ثلاث مرات: بحث عن طبيعة الإنسان قبل الناموس، وتحت الناموس، وتحت النعمة، منتظرًا وناصحًا ومفتقدًا، ومع هذا يشكو إذ لا يجد ثمرًا، إذ يوجد أشرار لم تُصلح قلوبهم بالناموس الطبيعي الذي فيهم، ولا تهذبوا بالوصايا، ولا اهتدوا بمعجزات تجسده...

---

[1] *In Luc 13: 6-9.* ترجمة مدام عايدة حنا

لكن بخوف عظيم ورعدة نسمع الكلمة التالية: "**اقطعها، لماذا تبطل الأرض أيضًا؟**" **[٧]**. كل إنسان ما لم يظهر ثمر الأعمال الصالحة حسب قياسه – أيا كانت مرحلة حياته – يُحسب كشجرة غير مثمرة تبطل الأرض، لأنه أيا كان موقعه يحرم غيره من فرصة للعمل...

الكرام يمثل نظام الأساقفة الذين يرعون كرم الرب بتدبير الكنيسة...

الزبل هنا يعني خطايا الجسد، فالشجرة تنتعش مرة أخرى بتذكرها الخطايا لتحيا النفس لممارسة الأعمال الصالحة. لكن كثيرين إذ يسمعون توبيخًا يستخفون العودة إلى حياة التوبة[١].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ ليتنا لا نضرب (بالفأس) سريعًا بل نُغلب باللطف، لئلاَّ نقطع شجرة التين وهى قادرة أن تحمل ثمرًا إن تعهدها كرّام ماهر لإصلاح حالها![٢]

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ يحتمل أن يكون قد شبّه مجمع اليهود بشجرة تين، فإن الكتاب المقدَّس يقارن اليهود بزروع مختلفة: كالكرمة، والزيتونة، وأحيانا بالغابة. مرة يدعو النبي إرميا إسرائيل أو سكانها: "إسرائيل جفنة ممتدة" (هو ١٠: ١) وأيضًا: "زيتونة خضراء ذات ثمر جميل الصورة دعا الرب اسمك، بصوت ضجة عظيمة أوقد نارًا عليها فانكسرت أغصانها" (إر ١١: ١٦). يقارنها نبي آخر من الأنبياء القدِّيسين بجبل لبنان، قائلاً: "افتح أبوابك يا لبنان فتأكل النار أرزك" (زك ١١: ١). فإن الغابة التي كانت في أورشليم التي هي الشعب الكثير الذي بلا عدد قد هلك بالنار.

لهذا أقول أن شجرة التين الواردة في المثل هي **المجمع اليهودي أي الإسرائيليون**، أما الثلاث سنين التي كان يطلب فيها ثمرًا ولم يجد فهي – كما أظن– تعني الثلاث مراحل التي لم يقدَّم فيها المجمع اليهودي ثمرًا.

السنة الأولى يمكن أن يُقال هي **التي عاش فيها موسى وهرون وأولاده** الذين خدموا الله خلال العمل الكهنوتي حسب الشريعة.

الثانية هي **مرحلة يشوع بن نون والقضاة الذين جاءوا بعده.**

الثالثة هي التي فيها **ظهر الأنبياء الطوباويون حتى يوحنا المعمدان.**

---

[1] *In Evang. Hom 31.*
[2] *Oration 32.*

خلال هذه الفترات لم يقدَّم إسرائيل ثمرًا... لذلك يقول: "**هوذا الثلاث سنين أتي أطلب ثمرًا في هذه التينة ولم أجد، اقطعها، لماذا تبطل الأرض أيضًا؟" [٧]**. كأنه يقول: لتجعل مكان هذه الشجرة العقيمة فارغًا لكي ما تُزرع شجرة أخرى في موضعها. هذا ما قد حدث، إذ دُعي الأمم في موضع إسرائيل ونال ميراثه. صار الأمم شعب الله، زُرع الفردوس، بذرة صالحة ومكرمة، تعرف كيف تقدِّم ثمرًا، لا خلال ظلال ورموز، بل خلال خدمة طاهرة كاملة بلا عيب، تُمارس بالروح والحق، تُقدَّم لله الكائن غير المادي...

إن قال أحد أن الكرام هو الابن، فإن هذا الرأي له براهينه المقبولة اللائقة، إذ هو "شفيع لدى الآب" (١ يو ٢: ١)، وهو "كفارة عنا"، وكرّام نفوسنا الذي يقضب فينا كل ما هو مضر، ويملأنا ببذور عاقلة مقدَّسة حتى نحمل ثمرة فينا، وكما قال بنفسه: "خرج الزارع ليزرع "(لو ٨: ٥)... قال الابن للرسل القدِّيسين: "أنا هو الكرمة، وأنتم الأغصان، وأبى الكرّام" (راجع يو ١٥: ١، ٥)...

ليشفع إذن فينا، قائلاً: "**اتركها هذه السنة أيضًا، حتى أنقب حولها، وأضع زبلاً" [٨]**. ما هذه السنة؟ واضح أنها السنة الرابعة، الوقت الذي يأتي بعد المراحل السابقة، الذي فيه صار الابن الوحيد كلمة الله إنسانًا، فقد جاء ككرامٍ يحث الإسرائيليين الذين جفوا بالخطيَّة بالنصائح الروحيَّة، ينقب حولهم، ويدفئهم بحرارة الروح (رو ١٢: ١١).

لقد سبق فتوعدهم مرارًا بالخراب والدمار والحروب والقتل والحرق والسبي والسخط الذي لا يهدأ، ومن جانب آخر قدَّم لهم المواعيد أن آمنوا به، فيصيروا أشجارًا مثمرة. إذ يهبهم الحياة والمجد ونعمة التبني وشركة الروح القدس وملكوت السماوات. لكن إسرائيل كان غير قادرٍ علي التعلم حتى بهذا، وبقي شجرة تين غير مثمرة، مستمرًا علي حاله هذا. لذلك قُطع حتى لا يُبطل الأرض، وعوضًا عنه جاء زرع خصب، هو كنيسة الأمم الجميلة والحاملة للثمار، العميقة الجذور، التي لا يمكن أن تتزعزع. إذ حُسبوا أبناء إبراهيم، طُعموا في الزيتونة الصالحة، إذ بقي الجذر محفوظًا وإسرائيل لم يهلك بطريقة مطلقة[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

٣. الله يحل رباطات الضعف

إن كانت التوبة هي طريق الدخول إلي ملكوته، بدونها لن ننعم بالعضويَّة الحقيقية في قطيعه الصغير، هذه التوبة تُعلن خلال ثمر الروح، فلا نكون كشجرة التين العقيمة التي أبطلت الأرض ثلاث

---

[1] *In Luc Ser 96.*

سنوات، فكيف يمكننا أن نمارس التوبة؟ من هو هذا الذي يشفي جراحات نفوسنا ويحل رباطات ضعفنا؟ يقدِّم لنا الإنجيلي قصة إبراء المرأة التي كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة، التي انحنى ظهرها، ولم تستطع أن تنتصب البتة حتى دعاها السيِّد وهي في المجمع في السبت ووضع عليها يديه وأبرأها، كمثل حيٍّ للطبيب الحقيقي الذي يشفي النفس من جراحاتها... هو واهب التوبة وهو معطي الشفاء!

"**وكان يعلم في أحد المجامع في السبت،**

وإذا امرأة كان بها روح ضعف ثماني عشرة سنة،

وكانت منحنية، ولم تقدر أن تنتصب البتة" [١٠-١١].

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم أنه** كان يعلم في المجامع بهدوء ليعلن أنه لم يأتِ ليقاوم الناموس وإنما ليكمله، أما تعليمه في السبت فلأن اليهود كانوا ينشغلون فيه بسماع الناموس.

إن كانت هذه المرأة التي كان بها روح ضعف كما يقول **القدِّيس أغسطينوس**[1] هي بعينها شجرة التين العقيمة التي بقيت ثلاث سنوات لا تثمر إشارة إلي الأمة اليهوديَّة التي لم تثمر خلال المراحل الثلاث، فإن الثماني عشرة سنة تشير إلي الثلاث مراحل أيضًا كل مرحلة تضم ست سنوات إشارة إلي عمل الله في الخلقة حتى اليوم السادس... وكأن هذه الأمة قد رفضت في كل مرحلة أعمال الله معها. الله يريد أن يجدد خليقته، لكن الإنسان هو الرافض للعمل الإلهي. هكذا انقضت المراحل الثلاث ليأتي رب المجد نفسه كما في اليوم السابع، يوم راحته، ليعلن تمام راحته بتجديد خلقتنا واستقامة ظهرنا الذي أحنته الخطيَّة عبر التاريخ كله.

مرة أخرى نقول مع **القدِّيس أغسطينوس:** [هذه المرأة تُفهم كرمزٍ للكنيسة التي صارت مستقيمة وسليمة بواسطة الرب بعد أن انحنت بالضعف خلال رباطات الشيطان لها. ها هي كلمات المزمور ترقى الأعداء الخفين: "أحنوا نفسي" (مز ٥٧: ٦)[2].]

أما بالنسبة للرقم ١٨ فقد سبق فرأينا في حديثنا عن الثمانية عشر شخصًا الذين سقط عليهم البرج في سلوام [٤] أن هذا الرقم يكتب في اليونانية بالحرفين الأولين لاسم "يسوع" *I H*. وكأن اسم يسوع هو سّر شفاء كل نفس منحنية بالخطيَّة، إن قبلته بالإيمان ودُفنت معه في مياه المعموديَّة لتقوم أيضًا معه وتمارس كل يوم قوَّة قيامته عاملة فيها. ويرى **القدِّيس أمبروسيوس أن** رقم ١٨ هو محصلة جمع رقمي ١٠و ٨، فإن كان رقم ١٠ يشير إلى الناموس الموسوي ورقم ٨ يشير إلى القيامة حيث

---

[1] *Ser on N.T. 60: 2.*
[2] *On the Trinity 4: 4: 7.*

قام السيِّد المسيح في اليوم الأول من الأسبوع الجديد أو اليوم الثامن بالنسبة للأسبوع السابق، فإن هذه المرأة تشير للكنيسة التي اتَّحدت بالسيِّد المسيح متمم الناموس وواهب القيامة، لتعيش الكنيسة بعريسها غير كاسرة للناموس، بل مكملة إيَّاه بقوَّة القيامة التي لعريسها.

❖ تظهر في هذه المرأة المنحنية صورة الكنيسة التي بدأت تظهر بعدما أكملت مقياس الناموس وتمت بالقيامة، إذ نالت نعمة عظيمة بالراحة الأبديَّة فلا يمكن أن تُجرب بانحناءة ضعفنا. لم يكن لهذه المرأة شفاء إلا بالناموس والنعمة، بإتمام وصايا الناموس (لا أعماله الحرفيَّة) وفي معموديَّة النعمة تموت عن العالم وتحيا للمسيح. في الوصايا العشرة يتم الناموس وفي رقم ٨ ملء القيامة[1].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ يمكن أن يقال بأن هذه المنحنية كانت تعاني من هذا بسبب قسوة الشيطان... وإذ كان هذا هو حال كل البشر فإن الله الصالح بطبعه لم يتركنا هكذا نعاني من عقوبة المرض الطويل المدى والمستحيل شفائه، بل حرَّرنا من قيودنا معلنًا حضوره، وإعلان ذاته في العالم، علاجًا مجيدًا لأتعاب البشريَّة. فقد جاء ليعيد تجديد حالنا ورده إلي أصله، وكما كتب: "الله لم يخلق الموت، وهو لا يُسر بهلاك الأحياء، لأنه خلق الجميع ليدوموا، وان مواليد العالم سالمون وليس فيهم سم مميت" (حك ١: ١٣-١٤)، وأيضا "دخل الموت إلي العالم بحسد إبليس" (حك ٢: ٢٤).

الآن تجسد الكلمة وأخذ الطبع البشرى ليحطم الموت والدمار، وينزع الحسد الذي بثته الحيَّة القديمة ضدنا، هذه التي كانت العلة الأولى للشر. هذا واضح لنا من الحقائق ذاتها، إذ حرَّر ابنة إبراهيم [١٦] من مرضها الطويل المدى، قائلاً: "**يا امرأة إنك محلوله من ضعفك**" **[١٢]**. حديث لائق جدّا بالله يحمل قوَّة فائقة للطبيعة، وبإرادته الملوكيَّة نزع المرض. أيضًا وضع يديه عليها وفي الحال قيل إنها استقامت. هنا أيضًا يمكننا أن نرى بسهولة جسده المقدَّس يحمل السلطان الإلهي والقوَّة الإلهيَّة[2].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ إذ كان لها ضعف بسبب روح كانت عاجزة عن رفع رأسها (لو ١٣: ١٠-١١)... هكذا تحنى الخطايا رقابنا، وفي نفس الوقت تقيد أقدامنا.

[1] *In Luc 13: 10-17.*
[2] *In Luc Ser 96.*

❖ أي إنسان مريض بسبب روح ينحني ناظرًا إلى أسفل، متطلعًا إلي الأرض، لا يقدر أن يتطلع إلي السماء.

❖ الله نفسه بسلطان يهب راحة للمربوطين بالخطيَّة بواسطة الشيطان، كما حلّ المرأة التي في الإنجيل هذه التي ربطها شيطان ثماني عشرة سنة... الله حلّو بطبيعته، أما الذين يلزمونه بالمرارة فهم الخطاة، يجعلون الله بالنسبة لهم مرًا. الله لا يغير طبيعته لكن الخطاة هم الذين يجدون فيه مرارتهم[1].

القدِّيس جيروم

❖ [يرى **القدِّيس باسيليوس** أن عمل الحيَّة أي الشيطان هو إفساد طبيعتنا فلا ننظر إلى فوق بل ننحني كالحيوانات نحو التراب نطلب الأرضيات، لذا ينصحنا، قائلاً:]

لأن رأس البهائم تتطلع نحو الأرض، أما رأس الإنسان فقد خُلقت لتنظر نحو السماء، وعيناه تتجهان إلى فوق، لهذا يليق بنا أن نطلب ما هو فوق، وببصيرتنا نخترق الأرضيات[2].

القدِّيس باسيليوس الكبير

إذ أشارت هذه المرأة إلى الكنيسة التي برأت من انحناءة ظهرها، فاستقامت بالرب متطلعة إلي فوق نحو السماء عوض نظرتها الطويلة نحو التراب يقول الإنجيلي:" **استقامت ومجدت الله**" **[١٣]**.
أما رئيس المجمع اليهودي، فبقي بعينيه الشرِّيرتين ينتقد عمل الرب عوض فرحه وبهجته بخلاص العالم، إذ قيل:

"**فأجاب رئيس المجمع وهو مغتاظ،**
لأن يسوع أبرأ في السبت،
وقال للجمع: هي ستة أيام فيها العمل،
ففي هذه ائتوا واستشفوا وليس في يوم سبت.
فأجابه الرب وقال:
يا مرائي ألا يحل كل واحدٍ منكم في السبت ثوره أو حماره من المذود
ويمضي به ويسقيه؟
وهذه هي ابنة إبراهيم قد ربطها الشيطان ثماني عشرة سنة،

[1] *In Ps. Hom 55,29,7.*
[2] *Hexam. Hom 9.*

أما كان ينبغي أن تُحل من هذا الرباط في يوم السبت؟
وإذ قال هذا أخجل جميع الذين كانوا يعاندونه،
وفرح كل الجمع بجميع الأعمال المجيدة الكائنة منه" [١٤-١٧].

❖ أجرى الرب هذا العمل في السبت ليشير إلى ما سيتم، وهو أن الإنسان يكمل الناموس متمتعًا بالنعمة (١٠+٨)، فيستطيع برحمة المسيح التحرُّر من متاعب هذا الجسد الضعيف (ليدخل في السبت أي في الراحة).

أعطى التقدِّيس في صورة موسى (خلال سبت الراحة)، لأن التقدِّيس القادم والعمل بالروح أساسه ترك الأعمال الزمنيَّة، لذا استراح الرب (في اليوم السابع) من أعمال الدهر وليس من كل أعماله، لأن عمله مستمر بغير انقطاع كقول الابن: "أبى يعمل حتى الآن وأنا أيضًا أعمل" (يو ٥: ١٧). ونحن أيضًا علي مثال الله نتوقف عن أعمال العالم لا عن أعمال الله.

لم يفهم رئيس المجمع هذه الحقيقة لذا لم يقبل إتمام الشفاء في السبت، مع أن السبت يشير إلي الراحة القادمة، فلا نبطل الأعمال الصالحة بل الشرِّيرة. أنه يوصينا ألا نحمل نير الخطيَّة، لكن لا نتوقف عن العمل الصالح حتى نحظى بالسبت القادم بعد رقادنا. لهذا أجابه الرب مشيرًا إلي المعنى الروحي: "**يا مرائي، ألا يحل كل واحدٍ منكم في السبت ثوره أو حماره من المذود، ويمضى به ويسقيه" [١٥].** لماذا لم يذكر الرب حيوانًا آخر؟ أليس لكي يشير إلي أن الشعب اليهودي كما الأممي بالرغم من وجود رؤساء المجمع لكنهما في حالة عطش ومرارة إلي هذا العالم بالرغم من وفرة ينبوع الرب؟... كأن الرب يدعو الشعبين، فتخلص الكنيسة خلال إتمام الناموس والتمتع بقيامة الرب[1].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ أسألك أن تلاحظ هنا أن المسيح مخلِّص الكل لم يقدِّم صلاة (عند إبراء المرأة) وإنما تمم الشفاء بسلطانه، شافيًا إيَّاها بكلمة وبلمسة يده. بكونه الرب الإله أعلن عن جسده أنه يحمل ذات قوَّته لخلاص البشر من أمراضهم. لقد قصد أن يفهم البشر مغزى سرّه. لو كان رئيس المجمع شخصًا فهيمًا كان يليق به أن يدرك من هو المخلِّص وكم هي عظمته خلال معجزة عجيبة كهذه، لا أن يتفوه بجهل كالعامة، ولا أن يتهم من نالوا الشفاء بكسر الناموس حسب التقليد الذي يمنع العمل في السبت.

[1] *In Luc 13: 10-17.*

واضح أن الشفاء هو عمل، فهل يكسر الله السبت بإظهار محبَّته في السبت؟ لمن صدر الأمر بالكف عن العمل؟ هل لله نفسه أم لك أنت؟ فلو كان الله يتوقف عن العمل لتوقفت عنايته الإلهيَّة بنا في السبت، وتوقفت الشمس عن عملها وامتنعت الأمطار عن السقوط وجفت ينابيع المياه وتوقفت مجاري الأنهار، وصمتت الرياح، لكن إن كان قد أمرك بالراحة، فلِمَ تلم الله أن أظهر سلطان رحمته في السبت؟

لماذا أمر الله الناس أن يكفوا عن العمل في السبت؟ لكي يستريح عبيدك وثورك وحصانك وكل قطيعك... فإن أعطى هو راحة للبشر بتحرّرهم من أمراضهم وأنت تمنع ذلك، فأنت الذي تكسر شريعة السبت، إذ لا تسمح بالراحة للمتألِّمين من الأمراض والأوجاع، هؤلاء الذين ربطهم الشيطان.

إذ رأى رئيس المجمع الجاحد المرأة وقد أصاب أعضاؤها الشلل وانحنى جسمها حتى الأرض تتقبل رحمة من المسيح فصارت مستقيمة تمامًا بمجرد لمسة يده، تسير مع ذاك الذي صار إنسانًا بخطوات مستقيمة، تمجد الله علي خلاصها، اغتاظ والتهب غضبًا مقاومًا مجد الرب، وارتبك بالحسد، فأخذ يفتري مشوهًا المعجزة...

اخبرني يا من أنت هو عبد للحسد، أي نوع من العمل تمنعه الشريعة، عندما تحرم كل عمل يدوي في السبت؟ هل تمنع عمل الفم والكلام؟ إذن فلتمتنع أنت عن الأكل والشرب وعن الحوار والترنم بالمزامير في السبت. فإن كنت تمتنع عن هذه الأمور ولا تقرأ حتى الشريعة، فأي نفع للسبت؟ لكن أن حددت الامتناع بالعمل اليدوي، فهل تحسب شفاء المرأة بكلمة عملاً يدويًا؟ فإن حسبته عملاً لأن المرأة بالفعل قد شفيت، فإنك أنت أيضًا تمارس عملاً بتوبيخك علي الشفاء (لأنك تكلمت كما تكلم السيِّد المسيح).

لقد قال: "**إنكِ محلولة من ضعفك" [١٢]**، وقد صارت محلوله. حسنًا! أما تحل حذاءك وتهيئ سريرك وتغسل يديك عندما تتسخان قبلما تأكل؟ فلماذا إذن أنت غاضب على كلمة واحدة نطق بها: "محلولة"؟

أي عمل مارسته المرأة بعد نطق هذه الكلمة؟ هل هيأت عملاً لنحّاس أو نجار أو بناء؟! هل بدأت في نفس اليوم تنسخ أو تعمل بنولٍ؟ مجرد الشفاء يُحسب عملاً، ولكن بلى، فإنك لست بغاضبٍ حقًّا بسبب السبت، وإنما لأنك رأيت المسيح مكرمًا، يُعبد بكونه الله، فاغتظت وضُربت بالحسد. لقد خبأت في قلبك شيئًا، وأظهرت أمرًا آخر...

"يا مرائي، ألا يحل كل واحد منكم في السبت ثوره أو حماره من المزود ويمضي به ويسقيه؟" [١٥]

يقول إنك تعجب لأني حللت ابنة إبراهيم، بينما أنت تعطي راحة لثورك أو حمارك وتحلها من أتعابها وتقودهما ليشربا، بينما عندما تعاني إنسانة من المرض وتُشفى بطريقة معجزية، ويظهر الله رحمته عليها، تلومهما كعاصيين، الواحد لأنه شفى والآخر لأنها خلصت من مرضها.

إنني أسأل رئيس المجمع: هل الإنسان أقل من الحيوان في عينيه، إن كان ثوره أو حماره يستحق الرعاية في السبت بينما في حسده لم يرد أن يخلص المسيح المرأة من ضعفها إذ كانت منحنية، ولا رغب لها أن تعود إلى شكلها الطبيعي؟

لقد فضل رئيس المجمع للمرأة التي استقامت لو أنها بقيت منحنية على مثال الحيوان ذي الأربعة أرجل عن أن تُشفى وتعود إلى ما يليق بها كإنسان، عن أن يتمجَّد المسيح ويعلن عنه أنه الله خلال أعماله...

"وإذ قال هذا أخجل جميع الذين كانوا يعاندونه" [١٧].

حلّ الخجل بالذين نطقوا بهذه الآراء الفاسدة، الذين تعثروا في حجر الزاويَّة الرئيسي فتحطموا؛ هؤلاء الذين قاوموا الطبيب، واصطدموا مع الخزّاف الحكيم الذي كان منهمكًا في إصلاح الأواني المهشمة، فلم يجدوا ما يجيبون به. لقد اقتنعوا ولم يجدوا ما يجيبون به وما ينطقون به... أما الجموع التي تمتعت بمنافع المعجزات فقد ابتهجت[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ حسنًا دُعي رئيس المجمع مرائيًا، لأنه حمل مظهر حافظ الناموس، وأما قلبه فكان مخادعًا وحاسدًا. فما أربكه ليس كسر السبت بل مجد المسيح[٢].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ بطريقة سرائريَّة شجرة التين العقيمة تعني المرأة المنحنية، لأن الطبيعة البشريَّة بإرادتها اندفعت نحو الخطيَّة فلم تحمل ثمر الطاعة بل فقدت استقامتها. أيضًا شجرة التين تعني المرأة التي صارت مستقيمة[٣].

البابا غريغوريوس (الكبير)

٤. مثل حبة الخردل

---

[1] *In Luc Ser 96.*
[2] *Catena Aurea .*
[3] *In Evang. Hom 31 .*

إن كان عمل السيِّد المسيح مع شعبه عجيبًا، إذ يقيمهم كما من الانحناءة الدائمة نحو التراب، لترتفع بصيرتهم الداخليَّة نحو السماء، إلا أنه وجد مقاومة من رئيس المجمع. هذه المقاومة أشبه بالتربة التي تحيط بحبة الخردل الصغيرة والحيَّة، التي لا تستطيع أن تحطمها بل بالحري تكون علَّة نموها، فتتحول إلى شجرة كبيرة تأوي في أغصانها طيور السماء وتحت ظلها حيوانات البريَّة.

سبق لنا الحديث في شيء من التوسع عن مثل حبة الخردل في أثناء دراستنا لإنجيل معلمنا متى البشير[1] ١٣: ٣١، حيث عرضنا آراء بعض الآباء مثل **القدِّيسين يوحنا الذهبي الفم وأمبروسيوس وجيروم وأغسطينوس وهيلاري والأب غريغوريوس (الكبير)** كما عرضنا لرأي **القدِّيس كيرلس الكبير** في دراستنا لإنجيل معلمنا مرقس البشير[2] (٤: ٣٠).

❖ أي إنسان يتقبل بذرة خردل، أي كلمة الإنجيل، مغروسة في حديقة نفسه، تصير شجرة عظيمة تحمل أغصانًا، فتستريح طيور الهواء (أي الذين يسبحون فوق الأرض) بين أغصانها (أي في التأمَّل السامي). فقد تقبل بولس تعليمًا من حنانيا (أع ٩: ١٧) كحبة صغيرة، غُرست في جنته، فأنتجت تعاليم صالحة كثيرة سكن فيها أصحاب أفكار سمائية علويَّة مثل ديونسيوس[3].

الأب ثيوفلاكتيوس

٥. مثل الخميرة والعجين

مرة أخرى يشبه عمله الإلهي في حياة قطيعه الجديد بالخميرة الصغيرة القادرة أن تغير طبيعة العجين كله، قائلاً: "**بماذا أشبه ملكوت الله؟ يشبه خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع**" [٢٠-٢١]. وقد سبق لنا عرض آراء بعض آباء الكنيسة في هذا المثل في أثناء دراستنا لإنجيل متى[4] ١٣: ٣٣.

❖ من هي المرأة إلا جسد الرب؟ وما هي الخميرة إلا الإنجيل؟ وما هي الثلاثة أكيال إلا كل الأمم الذين جاءوا من أبناء نوح الثلاثة؟[5]

---

[1] الإنجيل بحسب متى، ص ٣٠٨-٣١٣.

[2] الإنجيل بحسب مرقس، ص٨٢-٨٥.

[3] *Catena Aurea .*

[4] الإنجيل بحسب متى، ص ٣١٣-٣١٥.

[5] *In Ioan tr 9:17 .*

❖ الثلاثة أكيال دقيق التي تحدَّث عنها الرب هي الجنس البشري. تذكر الطوفان، إذ لم يبقَ سوى ثلاثة، فمنهم جاء كل البشر. كان لنوح ثلاثة أبناء بهم تجدد الجنس البشري.

المرأة التي خبأت الخميرة هي الحكمة.

ها العالم كله يصرخ في كنيسة الله: "قد عرفت أن الرب عظيم" (مز ١٣٥: ٥)، لكن دون شك قليلون هم الذين يخلصون... جاهد أن تدخل من الباب الضيق (لو ١٣: ٢٤)... خلاله قليلون يستطيعون الدخول منه[١].

القدِّيس أغسطينوس

❖ يليق بنا أن نفهم المرأة أنها النفس، وأما الثلاثة أكيال فهي جوانبها الثلاثة: العقل، العواطف، الرغبات. إن أخفى إنسان كلمة الله في هذه الثلاثة جوانب، يصير كل ما فيه روحيًا، فلا يدخل في حوار بعقله ولا بغضبه أو رغبته، إذ يتغير الكل بلا حدود ويتشكل حسب كلمة الله.

الأب ثيؤفلاكتيوس

يقدَّم لنا **القدِّيس أمبروسيوس** في تعليقاته على إنجيل لوقا عدة تفاسير لهذا المثل كانت منتشرة في عصره، نذكر منها:

أ. يرى البعض أن السيِّد المسيح نفسه هو "الخميرة"، الذي تقدَّمه الكنيسة – المرأة هنا – ليخمرنا نحن الدقيق بفضيلته، فنحمل سماته فينا... جاء كلمة الله متجسدًا يحمل طبعنا البشري، لكن بقوَّة لاهوته يعمل فينا، لا ليغير منظرنا الخارجي المجرد بل طبيعتنا الداخليَّة، إذ يقول: [الخميرة تغيّر طبيعة الدقيق وليس مجرد مظهره هكذا يعمل المسيح فينا[٢].] [إن كانت هذه المرأة (لو ١٣: ٢٠-٢١) تشير إلى الكنيسة المقدَّسة، فنحن دقيق الكنيسة، يجب أن يختفي الرب في أعماق نفوسنا لنقبل حقيقة الحكمة السماويَّة في داخلنا[٣].]

ب. يرى البعض أن الثلاثة أكيال دقيق التي تقبلت الخميرة تشير إلى الناموس والأنبياء والإنجيل، حيث كان المسيح مختفيا خلال رموز الناموس ونبوات الأنبياء وظاهرًا خلال كرازة الإنجيل.. هكذا يليق بالمؤمن أن يحمل في قلبه هذه الأكيال الثلاثة ليتكشف مسيحه في داخله، أو كما يقول **القدِّيس أمبروسيوس** يلزمنا أن نبحث في اجتهاد وبتدقيق في الناموس والأنبياء والإنجيل ليعلن لنا المسيح.

---

[1] *In Ioan tr 61:1 .*
[2] *In Luc 13:20,21 .*
[3] *In Luc 13:20,21 .*

ج. يركز **القدِّيس أمبروسيوس** في شيء من الإفاضة عن تفسير "الخميرة" بكونها "تعليم الكنيسة" الذي يختلف عن خمير الكتبة والفرِّيسيِّين الذي هو الرياء، (مت ١٦: ٦). يقول الرسول بولس: لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخمير الشر والخبث بل بفطير الإخلاص والحق (١ كو ٥: ٨). خلال خمير الكنيسة الذي هو التعليم الإنجيلي تختمر الثلاثة أكيال الدقيق التي هي جسد الإنسان ونفسه وروحه، فيتمتع بقداسة الحياة في كل جوانب حياته. عمل الكنيسة في حياة الإنسان يمتد إلى كيانه كله، ليسلك الجسد في خضوع للنفس والروح تحت قيادة الروح القدس. هذا يؤيده قول الرسول بولس: "وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتُحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربَّنا يسوع" (١ تس ٥: ٢٣).

تقدَّم الكنيسة خميرتها التي هي تعليم السيِّد المسيح الذي يهبنا وحدة داخليَّة، فلا يعود يشتهي الجسد ضد الروح، ولا الروح ضد الجسد (غل ٥: ١٧). هذه الوحدة التي نتمتع بعربونها في هذا العالم حين نسلك ونحن بعد في الجسد ليس حسب الجسد بل حسب الروح كقول الرسول، لننعم بكمالها في القيامة. يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [بهذا نستطيع أن نحفظ شركة الجسد والروح والنفس معًا في القيامة بلا فساد.]

لنسلك هنا بهذا العربون كقول السيِّد المسيح نفسه: "إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السماوات" (مت ١٨: ١٩). إذ يرى البعض أن الاثنين هما الجسد والنفس حين يتفقا معًا تحت قيادة روح الرب، فتنزع عنهما العداوة، ويحل الحب الحق في النفس كما في الجسد، ويتجلَّى المسيح في الإنسان ككل. هذا ويؤكد السيِّد أنه إذا اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمه يكون في وسطهم... هذا الاجتماع هو علامة وحدة الإنسان وتكامله جسديًا وروحيًا ونفسانيًا في الرب.

أما **القدِّيس كيرلس الكبير** فيُعلِّق على هذا التشبيه بقوله: [الخميرة صغيرة في حجمها لكنها تؤثر على العجين كله، وبسرعة تهبه سماتها، هكذا كلمة الله تعمل فينا عندما تحلّ فينا، فتجعلنا قدِّيسين وبلا لوم، وتخترق ذهننا وقلبنا وتجعلنا روحيين، وكما يقول بولس: "لتحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملة بلا لوم عند مجيء ربَّنا يسوع المسيح" (١ تس ٥: ٢٣). هذا ويظهر إله الكل أن الكلمة الإلهيَّة تتسكب في أعماق فهمنا. إذ يقول خلال أحد أنبيائه القدِّيسين: "ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدًا جديدًا، ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب، بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب، أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم" (إر ٣١:

٣١-٣٣). هكذا نتقبل في ذهننا وفي فهمنا الخميرة العاقلة الإلهيَّة، لكي بهذه الخميرة الثمينة المقدَّسة والنقيَّة نوجد فطيرًا روحيًا، لا نحمل في داخلنا شر (خمير) العالم. تدخل قوَّة الكرازة بالإنجيل الواهبة الحياة إلى ذهننا، فتغّير النفس والجسد والروح، لنحمل سمات الإنجيل، فنصير طاهرين وقدِّيسين وشركاء المسيح[1].]

٦. التوبة والباب الضيق

إذ قدَّم لنا الإنجيلي لوقا "التوبة" كطريق للتمتع بالخلاص من الهلاك [١-٥]، ثم عاد ليكشف طول أناة الله علينا إذ يقف كمن يشفع فينا، معطيًا إيَّانا فرصًا جديدة للتوبة، كبستاني صالح يترفق بشجرة التين غير المثمرة [٦-٩] مهتمًا بنفسه أن ينقب حولها ويضع زبلاً لكي تثمر، أعلن أنه هو بالحق وحده سرّ شفائنا وخلاصنا. يأمر النفس المنحنية تحت ثقل شهوات الجسد لتستقيم [١٠-١٧]، مقدَّمًا إنجيله في قلوبنا كحبة خردل صغيرة تصير شجرة كبيرة تأوي طيور السماء في أغصانها. وكخميرة في أذهاننا تقدس الجسد مع النفس والروح. الآن لئلاً نظن أن دورنا في الخلاص سلبي يؤكد التزامنا بالجهاد لندخل بنعمته من الباب الضيق، إذ يقول الإنجيلي:

"**واجتاز في مدن وقرى يعلّم ويسافر نحو أورشليم.**

فقال له واحد: يا سيد، أقليل هم الذين يخلصون؟

فقال لهم: اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق،

فإني أقول لكم أن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون" [٢٢-٢٤].

باب الملكوت ضيق وطريقه كرب وقليلون هم الذين يجدونه. إذ هو طريق الصليب، لا يستطيع أن يجده بحق ويدخله إلا من اختفى في المصلوب. وقد سبق لنا الحديث عن هذا الطريق في تعليقنا على إنجيل معلمنا متى ٧: ١٣-١٤، مقتطفًا بعض أقوال **للقدِّيسين يوحنا الذهبي الفم وكبريانوس وجيروم**[2].

يلاحظ هنا أن الإنجيلي لوقا يعرض حديث رب المجد يسوع عن "الباب الضيق" بعد أن أعلن عنه أنه كان "**يجتاز في مدن وقرى يعلم ويسافر نحو أورشليم" [٢٢]**. وكأن غاية كرازته للكل، لسكان المدن المهتمين بالمراكز الأولى والغنى وحب الظهور، ولسكان القرى البسطاء، أن يحمل الجميع فيه

[1] *In Luc Ser 96 .*

[2] الإنجيل بحسب متى ١٧٩-١٨١.

ومعه إلى صليبه لينعموا بملكوته خلال الباب الضيق، منطلقًا بهم لا إلى أورشليم الأرضية بل السماويَّة، ليعاينوا سلامه الحقيقي ويمارسونه.

❖ "**اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق" [٢٤]**... الطريق المستقيم ضيق، أي انحراف عنه مملوء بالمخاطر، سواء على اليمين أو اليسار. أنه كجسرٍ، من يزل عنه من أي جانب منه يسقط في النهر[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ إذ أراد الحديث عن الدخول من الباب الضيق بدأ بقوله "اجتهدوا"، لأنه ما لم يجاهد الذهن برجولة لا تنهزم أمواج العالم، هذه التي تسحب النفس إلي الأعماق[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ أظن أنه يليق بي أن أشير إلي الباب الضيق الذي من خلاله يدخل الإنسان إلي الحياة.

من يريد أن يدخله يلزمه بالضرورة أن يكون له أولًا الإيمان المستقيم غير الفاسد، وثانيا أن يكون سلوكه غير دنس وبلا لوم حسب قياس البّر البشرى. هكذا كان النبي داود يقول أحيانًا في توسله لله وبدقة: "اقضِ لي يا رب حسب برّى، وكنقاوتي كافئني" (راجع مز ٧: ٨). لأن نقاوة الملائكة القدِّيسين وبرّهم أمر بعيد للغاية عن نقاوة وبّر سكان الأرض، فما يخص الأخيرين هو من نوع أقل وأدنى من كل ناحيَّة كما أن طبيعتهم أدنى من طبيعة الملائكة. ومع هذا فإن من يرغب في العيش بقداسة لا يستطيع ذلك بدون جهاد. لأن الطريق المؤدي للفضيلة هو وعّر علي الدوام ومنحدر، يصعب على غالبية البشر أن يسلكوه.

كثير من المتاعب تظهر أمامنا فنحتاج إلي جلد وصبر وسلوك نبيل. نعم، بل ونحتاج إلي ذهن لا يُغلب، لا يشترك في الملذّات الدنيئة ولا تحركه شهوات جسديَّة وعواطف بهيمية. من له هذا الذهن والجلد الروحي يدخل الباب الضيق بسهولة، بل ويجرى في الطريق الضيق، فقد قيل: "بالتعب يتعب الإنسان لنفسه، فتغتصب الغلبة علي هلاكه" (راجع أم ١٦: ٢٦). ها أنت تسمع النبي يتكلَّم بوضوح أن الإنسان يقتنى الغلبة علي هلاكه بالاغتصاب. أيضًا يقول الرب: "ملكوت السماوات يُغتصب والغاصبون يختطفونه" (مت ١١: ١٢)[3].

---

[1] *Catena Aurea .*
[2] *Catena Aurea .*
[3] *In Luc Ser 99.*

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ماذا إذن يعني قول ربَّنا في موضع آخر: "نيري هين وحملي خفيف" (مت ١١: ٣٠)؟

بالحقيقة لا يوجد تناقض بين النصين، واحد يتحدَّث عن طبيعة التجارب (كباب ضيق)، والآخر يتحدَّث عن مشاعر الذين يغلبونها. فما يسبب متاعب لطبيعتنا يمكن أن يُحسب سهلاً أن قبلناه بطيب خاطر. بجانب هذا فإن طريق الخلاص ضيق في مدخله، ولكن إذ تدخله تجد مكانًا متسعًا (راحة)، على عكس الطريق المؤدي للهلاك.

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

يكمل السيِّد المسيح حديثه عن "الباب الضيق" قائلاً:

من بعد ما يكون رب البيت قد قام وأغلق الباب

وابتدأتم تقفون خارجًا وتقرعون الباب، قائلين:

يا رب، يا رب افتح لنا، يجيب ويقول لكم:

لا أعرفكم من أين أنتم.

حينئذٍ تبتدئون تقولون: أكلنا قدامك وشربنا وعلمت في شوارعنا.

فيقول لكم: لا أعرفكم من أين أنتم،

تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم" [٢٥-٢٧].

إن كان المتهاونون لا يقدرون أن يجدوا الطريق الضيق، لا بمعنى جهلهم له فكريًا، إنما جهلهم له خلال الخبرة الحيَّة... يقرأون عنه أو يسمعون لكنهم لا يمارسونه ولا يختبرونه، لذا يطلبونه بفمهم دون قلبهم، وبلسانهم دون حياتهم. هؤلاء يُحرمون من معرفة "الباب الضيق" أو "طريق الملكوت". فتكون مكافأتهم من ذات نوع عملهم... هم لا يعرفون طريق الرب في حياتهم لذا لا يعرفهم الرب في مجيئه الأخير، لا بمعنى أنه يجهل أشخاصهم، وإنما يحسبهم كمن هم غير مستحقين أن يكونوا في معرفته، هم خارج نور بهائه ومجده. رفضوا الدخول من بابه وهم بعد في العالم، لذا يغلق الباب عند مجيئه ولا يستحقون الدخول، حتى أن كانوا قد مارسوا شكلية العبادة أو حملوا اسمه دون حياته فيهم.

❖ يعرف الرب من له، بمعنى أنه يتقبلهم في شركة قويَّة بسبب أعمالهم الصالحة[1].

---

[1] *Ep. 234: 3.*

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ لا يعرف الرب الخاطىء بل البار[1].

القدِّيس جيروم

❖ يقول للذين يفتخرون بعمل القوات دون الحياة الفاضلة: "**لا أعرفكم**" (مت ٧: ٢٣)، إذ لا يعرف الله طريق الأشرار[2].

البابا أثناسيوس الرسولي

❖ "**تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم**" **(لو ١٣: ٢٧)**. لأنه لا شركة بين النور والظلمة؛ ولا يمكن لمن أمسك بفساد الخطيَّة ولم يغتسل من دنسه أن يقترب من الله الكلي النقاوة.

يليق بنا أيضًا أن نسأل: ماذا يُفهم بالذين يقولون للمسيح: "**أكلنا قدامك وشربنا وعلمت في شوارعنا**" **[٢٦]**؟ هؤلاء بالتأكيد هم الإسرائيليون، الذين قال لهم المسيح: "**متى رأيتم إبراهيم وإسحق ويعقوب وجميع الأنبياء في ملكوت الله وأنتم مطرحون خارجًا**" **[٢٨]**. كيف كانوا يأكلون ويشربون قدام الله؟ أجيب بتنفيذهم الخدمة حسب الشريعة، فعندما كانوا يقدِّمون ذبائح لله بسفك الدم كانوا يأكلون ويبتهجون. أيضًا سمعوا كتابات موسى في مجامعهم وتفاسير لرسائل الله، إذ دائمًا كانوا يقدِّمون كلماته بالقول: "**هكذا قال الرب**"... لكن التعبد لله بسفك دم (الحيوانات) لا يكفي للتبرير، ولا يُغسل دنس الإنسان بمجرد سماعه الشرائع الإلهيَّة أن لم يمارس ما قد أُمر به. أيضًا نقول، إذ رفضوا قبول الإيمان الذي يبرر الفجار، ولم يتبعوا الوصايا الإنجيلية التي بها يمارسون الحياة السامية المختارة، كيف يمكنهم أن يدخلوا ملكوت الله؟

مرة أخرى من هم هؤلاء الذين يقولون: "**أكلنا قدامك...**"؟ كثيرون آمنوا بالمسيح، وكرموا الأعياد المقدَّسة لمجده، ويترددون كثيرًا علي الكنائس ليسمعوا تعاليم الإنجيل، لكنهم لا يحفظون شيئًا قط من حقائق الكتاب المقدَّس في ذهنهم، فتكون ممارسة الفضيلة بالنسبة لهم صعبة، بينما تخلو قلوبهم من الثمر الروحي تمامًا. هؤلاء أيضًا سيبكون بمرارة ويكون لهم صرير الأسنان لأن الرب يرفضهم[3].

القدِّيس كيرلس الكبير

٧. إعلانه عن موته

---

[1] *In Ps. Hom 1.*
[2] *Vita S. Antonii 38.*
[3] *In Luc Ser 99.*

إذ تحدَّث عن "الباب الضيق" مظهرًا أن الأمم يأتون من المشارق والمغارب ومن الشمال والجنوب يتكئون في ملكوت الله [٢٩] خلال هذا الباب، بينما يُطرح أبناء الملكوت خارجًا لأنهم يرفضون هذا الباب، بهذا يصير الآخرون أولين والأولون آخرين [٣٠]. بدأ الإنجيلي لوقا يكشف لنا كيف عاش مسيحنا في هذا "الضيق"، بل جاء ليدخل من الباب الضيق، محتملاً الموت من أجلنا لكي يحملنا معه إلي قيامته.

في ذلك اليوم تقدَّم بعض الفرِّيسيِّين قائلين له:

اخرج واذهب من ههنا، لأن هيردوس يريد أن يقتلك.

فقال لهم: امضوا وقولوا لهذا الثعلب،

ها أنا أخرج شياطين وأشفي اليوم وغدًا وفي اليوم الثالث أكمل.

بل ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه،

لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارجًا عن أورشليم" [٣١-٣٣].

يرى كثير من الآباء أن الفرِّيسيِّين هنا يمثلون ذئابًا جاءت في زي حملان، تتظاهر بالحب نحو السيِّد المسيح بينما كان الدافع لتصرفاتهم هو حسدهم، لأنه يجتذب الجماهير من حولهم، فيفقدهم كرامتهم ومكاسبهم. فأرادوا طرده من المقاطعة الخاضعة لحكم أنتيباس هيرودس بنصحهم إيَّاه أن يخرج لئلاَّ يقتله هيردوس. وكما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:**

[كان قلبهم ملتهبًا بنار الحسد...

لم يريدوه أن يسكن في أورشليم حتى لا يفيد الشعب، الذي اندهش بعجائبه الإلهيَّة من ناحيَّة، ومن ناحيَّة أخرى أشرق عليهم بنور رؤية الله الدقيقة خلال تعليمه للحقائق التي تفوق ما جاء في الناموس...

لقد قاوموه بطرق مختلفة؛ تارة باستخفافهم وسخريتهم بسلطانه في عمل العجائب، وتجاسرهم علي اتهامه أن ما يفعله إنما ببعلزبول؛ وتارة بدفعه لتسليمه لأتباع قيصر تحت الاتهام أنه يمنع الإسرائيليين من دفع الجزية لقيصر (لو ٢٠: ٢٢)...

إذن لماذا اقتربوا منه، قائلين: **أخرج واذهب من ههنا، لأن هيرودس يريد أن يقتلك" [٣١].** ما هي غايتهم في ذلك؟ يخبرنا الإنجيلي هذا بقوله: "**في تلك الساعة تقدَّموا إليه...**" ماذا يعنى بتلك الساعة التي فيها تقدَّم الفرِّيسيُّون وقالوا هذا ليسوع؟ حين كان منشغلاً بتعليم جموع اليهود حيث سأله واحد إن كان كثيرون يخلصون. فقد عبر السيِّد علي السؤال ليجيب بما يليق به أن يخبرهم، وهو الطريق الذي يجب أن يسير فيه البشر ليصيروا ورثة ملكوت السماوات. إذ قال: "**اجتهدوا أن تدخلوا**

من الباب الضيق..." واخبرهم أنهم إذ يرفضون ذلك فسيرون إبراهيم وإسحق ويعقوب وجميع الأنبياء في ملكوت الله وهم مطرحون خارجًا [٢٨]، كما أضاف: "**هوذا آخرون يكونون أولين، وأولون يكونون آخرين**" **[٣٠]** متحدَّثًا عن دعوة الوثنيين للإيمان. هذه العلامات حركت الغضب في ذهن الفرِّيسيِّين. لقد رأوا الجموع تتوب وتتقبل الإيمان به بشغف ولم يعودوا يحتاجون إلا إلى أمور قليلة ليدركوا مجده وسّر تجسده العظيم المستحق للعبادة. بهذا إذ أوشك الفرِّيسيُّون أن يفقدوا وظيفتهم كقادة للشعب، بل فقدوا فعلا سلطانهم عليهم، وخسروا ما كانوا يربحونه إذ كانوا شغوفين بمحبَّة الثروة والطمع والترف، تظاهروا بحبه، واقتربوا إليه، قائلين: "اخرج واذهب من ههنا، لأن هيرودس يريد أن يقتلك..." لقد ظنوا أنهم يستطيعون أن يخدعوا ذاك القائل: "من هذا الذي يخفي ذهنه عني؟ ويغلق على كلماته في قلبه ويظن أنه يخفيها عني؟" (أي ٣٨: ٢ الترجمة السبعينيَّة)[١].]

ظن الفرِّيسيُّون أنهم قادرون علي خداع السيِّد، لكنه أجابهم كفاحصٍ للقلوب والكلى، وعالم بكل الأسرار والمستقبل، بهدوء في حكمة عجيبة، إجابة شاملة وقويَّة لبنيان سامعيها، إذ أظهر في إجابته الآتي:

أولاً: أظهر شجاعته بإرسالهم لهيرودس ملقبًا إيَّاه بالثعلب... فمن ناحيَّة أراد أن يعلن لهم أنه لن ينسحب عن خدمة الجماهير مهما بلغت المخاطر، إنما لينسحبوا هم أن أرادوا وينشغلوا بما هو ليس لخلاص إخوتهم؛ ومن ناحيَّة أخرى يدعو هيرودس ثعلبًا، إذ يعرف وحشية قلبه وحبه لسفك الدماء البريئة بمكر وخداع.

يرى البعض أن "هيرودس" هنا يشير إلي الهراطقة الذين يريدون قتل الإيمان بالمسيح، وانتزاعه عن أولاد الله، لذلك دُعي بالثعلب، لأنهم يستخدمون الخداع والمكر. ويرى آخرون أن هيرودس يشير إلي حب الكرامة الزمنيَّة أو الارتباط بالأرضيات، الأمر الذي يقتل إيماننا بالمسيح ويفسد شركتنا معه، لذا دُعي بالثعلب، إذ يحفر في الأرض، ويعيش في الجحور. كما يقول **القدِّيس إكليمنضس السكندري:** [يدعي الأشرار والأرضيون الذين ينشغلون بالغنى، إذ يحفرون الأرض، ثعالب[٢].]

ثانيًا: أظهر أيضًا رسالته أنه ليس منافسًا لهيرودس في مملكته الأرضية، لكنه ملك سماوي يعمل لبنيان النفوس، فيطرد الشياطين ويشفي، مقدَّما نفسه برضاه للموت [٣٢-٣٣]... لقد جاء لكي يحطم عمل الشيطان ويشفي البشريَّة من جراحاتها المميتة، فيقيم كنيسته كمملكة روحيَّة. وكما يقول **القدِّيس**

---

[1] *In Luc Ser 100.*
[2] *Strom. 4:6.*

أغسطينوس: [لتفهم هذه الأمور التي نطق بها بمعنى سرّى، مشيرًا إلي جسده الذي هو الكنيسة. فإن الشياطين تُطرد عندما يترك الأمم الخزعبلات ويؤمنوا به، ويتحقَّق الشفاء كاملاً بواسطة وصاياه، بعدما يجحد الشيطان والعالم في القيامة وتصير الكنيسة كاملة في ملء الحياة الملائكيَّة بخلود الجسد أيضًا[1].]

هذه هي مملكته التي تتحقَّق بعمله كقوله: "**اليوم وغدًا وفي اليوم الثالث أكمل**"، قاصدًا باليوم الثالث قيامتنا معه كما في اليوم الثالث حيث يتحطم الشيطان تمامًا ولا يكون لجراحاته أثر فينا.

أراد تأكيد مملكته أنها مملكة روحيَّة لا تقوم علي أساس سياسي بتشبيه رعايته لشعبه بالدجاجة التي تحتضن فراخها تحت جناحيها [٣٤]... علي خلاف النسر الروماني الذي كان يوضع في المستعمرات الرومانية في كبرياء وتشامخ علامة العنف والسلطة والكبرياء.

ثالثًا: أظهر معرفته للمستقبل بقوله: "**اليوم وغدًا وفي اليوم الثالث أكمل**" **[٣٢]**، وهو تعبير عبري رمزي يعني أن أيامه علي الأرض باتت قليلة ومعدودة (هو ٦: ٢). وبقوله "أُكمل" كشف عن آلامه كسرّ مجد، إذ بها يكمل عمله الخلاصي من أجل شعبه.

رابعًا: كشف عن رسالته أنه قد جاء لكي يُبذل من خاصته (أورشليم)، إذ قال: "**بل ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه، لأنه لا يمكن أن يهلك نبي خارجًا عن أورشليم**" **[٣٣]**. وكما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [لقد ظن الفرِّيسيُّون أن سلطان هيرودس يرعبه فتذله المخاوف، لكنه هو رب القوات الذي يوّلد فينا الشجاعة الروحيَّة بكلماته: "لا تخافوا من الذين يقتلون الجسد، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها" (مت ١٠: ٢٨). إنه لم يعطِ اهتمامًا للعنف البشري، بل يقول: "**بل ينبغي أن أسير اليوم وغدًا وما يليه**" **[٣٣]**. بقوله "ينبغي" لا يعني الإلزام قسرًا، وإنما التزام به بكمال حريته، فبدون خطر يذهب أينما شاء ويتنقل في اليهوديَّة دون أن يقاومه أحد أو يخطط ضده حتى يتقبل الألم بإرادته خلال الصليب الثمين... بإرادته قبل الألم لكي يموت جسده يبطل الموت ويقوم. واذ قام من الأموات يقيم معه الطبيعة البشريَّة كلها، ويجددها واهبًا لها الحياة التي بلا فساد[2].]

خامسًا: أظهر رعايته الفائقة لشعبه، لكنها ليست إلزامية إذ يقدس حريتنا. لنا أن نقبلها ونتجاوب معها، ولنا أن نرفضها، إذ يقول:

"**يا أورشليم، يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها،**

---

[1] *Contr. Julian 6: 19.*
[2] *In Luc Ser 100.*

كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها، ولم تريدوا.

هوذا بيتكم يترك لكم خرابًا،

والحق أقول لكم أنكم لا تروني حتى يأتي وقت تقولون فيه:

مبارك الآتي باسم الرب" [٣٤-٣٥].

وقد سبق لنا شرح هذه العبارة في تفسير مت ٢٣: ٣٧-٣٩.

❖ إنه ليس فقط لا يتجاوزنا، وإنما لا يريد أن يتركنا ما لم نرد نحن ذلك...

لقد أظهر أننا نحن الذين نبدأ بهجره، فصرنا علَّة هلاكنا، أما الله فلا يريد أن يتركنا ولا حتى أن يعاقبنا، وإن عاقبنا إنما يفعل ذلك كمن هو مُلزم، إذ يقول: لا أشاء موت الخاطىء مثل أن يرجع ويحيا (حز ١٨: ٣٢ الترجمة السبعينيَّة).

يحزن المسيح على هلاك أورشليم كما نحزن نحن على هلاك أصدقائنا[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *In Ioan. hom 68: 2.*

الأصحاح الرابع عشر

أساسيات الصداقة الإلهيَّة

إذ حدثنا عن التوبة كطريقٍ، بدونه لن نلتقي مع صديقنا السماوي، فإن هذه التوبة يجب أن تترجم عمليًا في الآتي:

١. السمو فوق الحرف ١–٦.

٢. عدم اشتهاء المتكآت الأولى ٧–١١.

٣. اتساع القلب للمحتاجين ١٢–١٤.

٤. الاهتمام بالدعوة للوليمة ١٥–٢٤.

٥. حمل الصليب ٢٥–٣٥.

١. السمو فوق الحرف

"وإذ جاء إلى بيت أحد رؤساء الفرِّيسيِّين في السبت ليأكل خبزًا،
كانوا يراقبونه.
وإذا إنسان كان مستسقٍ كان قدامه.
فأجاب يسوع وكلّم الناموسيين والفرِّيسيِّين، قائلاً:
هل يحل الإبراء في السبت؟
فسكتوا. فأمسكه وأبرأه وأطلقه.
ثم أجابهم وقال: من منكم يسقط حماره أو ثوره في بئر
ولا ينشله حالاً في يوم السبت؟!
فلم يقدروا أن يجيبوه عن ذلك" [١–٦].

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي فيها يقبل السيِّد المسيح الدعوة ليأكل في بيت فرِّيسي أو أحد رؤساء الفرِّيسيِّين، ولعل قبوله دعوتهم له كان أحد ملامح كرازته التي تقوم أولاً على علاقات الصداقة والحب. فإنه ما جاء لينافسهم على كراسيهم، بل ليفتح قلبه بالحب لهم كما لغيرهم ليكسبهم في ملكوته أحبَّاء وأصدقاء على مستوى أبدي.

يروي لنا الإنجيلي لوقا قبوله دعوة سمعان الفرِّيسي (٧: ٣٦–٥٠) حيث التقى هناك بالمرأة

الخاطئة التي قدَّمت بدموعها وحبها وليمة فائقة، فاقتنت غفران خطاياها الكثيرة. كما قبل دعوة فرِّيسي آخر حيث كشف له السيِّد مفهوم التطهير الداخلي والنقاوة القلبية عوض الاهتمام بالغسالات الجسديَّة وحدها (١١: ٣٧ الخ.). والآن للمرة الثالثة يقبل الدعوة ليأكل خبزًا في بيت أحد رؤساء الفرِّيسيِّين ليكشف له عن المفهوم الحقيقي للسبت. في الدعوة الأولى يدعو السيِّد المسيح الفرِّيسيِّين للتوبة خلال الحب، وفي الثانية يطلب نقاوتهم الداخليَّة، وفي ثالثة يطلب العبادة الروحيَّة.

لقد دعاه الفرِّيسي وكان مع زملائه الفرِّيسيِّين "**يراقبونه**" [١]؛ يريدون أن يصطادوا له أخطاء عِوَض الانتفاع بصداقته.

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**:

[دعا فرِّيسي ذو رتبة عاليَّة يسوع إلى وليمة؛ ومع معرفة السيِّد لمكر الفرِّيسيِّين ذهب معه وأكل وهو في صحبتهم. تنازل وقبل ذلك لا ليكرم من دعاه، وإنما ليفيد من هم في صحبته بكلماته وأعماله المعجزية، لكي يقودهم إلى معرفة الخدمة الحقيقيَّة، ولكي يعلمنا نحن أيضًا ذلك في إنجيله. لقد عرف أنه سيجعلهم شهود عيان – بغير إرادتهم – لسلطانه ومجده الفائق للمجد البشري، لعلهم يؤمنون به أنه الله وابن الله، الذي أخذ بالحق شبهنا دون أن يتغير أو يتحول عما هو عليه. صار ضيفًا للذين دعوه، لكي يتمم عملاً ضروريًا كما قلت، أما هم فكانوا يراقبونه، ليروا أن كان يستهين بالكرامة اللائقة بالناموس فيمارس عملاً أو آخر محرمًا في السبت.

أيها اليهودي فاقد الإحساس، لتفهم أن الناموس كان ظلاً ورمزًا ينتظر الحق، وأن الحق هو المسيح ووصاياه. فلماذا تتسلَّح بالرمز ضد الحق؟ لماذا تقيم الظل مضادًا للتفسير الروحي؟ احفظ سبتك بتعقل، فإن كنت غير مقتنع بفعل هذا، فإنك تنزع عن السبت الأمور التي ترضي الله، وتكون غير مدرك للراحة (السبت) الحقيقيَّة، التي يطلبها الله منا، والتي تحدَّث عنها قديمًا في ناموس موسى. لنكف عن الخطايا، ولنسترح بترك المعاصي، ولنغتسل من الأدناس، ولنترك محبَّة الجسد الشهوانية، ولنهرب من الطمع والنهب ومن الربح القبيح ومحبَّة المال الحرام. لنجمع أولاً مئونة لنفوسنا تسندنا في الطريق، الطعام الذي يكفينا في العالم العتيد، ولنلجأ للأعمال المقدَّسة، فنحفظ السبت بطريقة عاقلة.

الذين يمارسون الخدمة بينكم اعتادوا أن يقدِّموا لله الذبائح المعينة في السبت، يذبحون الذبائح في الهيكل، ويتممون أعمال الخدمة الموكل بها إليهم ومع ذلك لم ينتهرهم أحد، بل والناموس نفسه صمت! إذن، الناموس لم يمنع البشر من الخدمة في السبت.

هذا كان رمزًا لنا، وكما قلت، أنه من واجبنا أن نحفظ السبت بطريقة عقليَّة، فنُسّر الله بالرائحة الذكيَّة الروحيَّة. وكما قلت قبلاً، نحقِّق هذا عندما نكف عن الخطايا، ونقدِّم لله تقدِّمة مقدَّسة، حياة

مقدَّسة تستحق الإعجاب، متقدِّمين بثبات في كل الفضيلة. هذه هي الذبيحة الروحيَّة التي تسر الله.

إن لم يكن لك هذا في ذهنك، فإنك إنما تلتصق بغلاظة القلب التي ذكرها الكتاب المقدَّس، تاركًا الحق كأمرٍ لا تقدر أن تقتنيه، منصتًا لقول الله الذي يخبرك بصوت إشعياء النبي: "غلظ قلب هذا الشعب، وثقل أذنيه، وأطمس عينيه، لئلاَّ يبصر بعينيه، ويسمع بأذنيه، ويفهم بقلبه، ويرجع فيُشفى" (إش ٦: ١٠)...

ماذا كانت المعجزة التي كانوا يراقبونها؟

كان يوجد قدامه إنسان مستسقٍ، فسأل الرب الناموسيين والفرِّيسيِّين أن كان يحل الإبراء في السبت أم لا؟ فسكتوا...

لماذا سكت أيها الناموسي؟ اقتبس شيئًا من الكتاب المقدَّس، لتظهر أن ناموس موسى يمنع عمل الخير في السبت. برهن لنا أنه (الله) يريدنا قساة القلب بلا رحمة، من أجل راحة أجسادنا، وأن يمنع اللطف من أجل تكريم السبت. هذا ما لا تستطيع برهانه من أي جزء في الكتاب المقدَّس.

إذ سكتوا بسبب المكر، فنّد المسيح عارهم الذي لا يحل، مقدِّما لهم البراهين.

يقول: "من منكم يسقط ابنه (في بعض النسخ ابنه والأخرى حماره) أو ثوره في بئر ولا ينتشله حالاً في يوم السبت؟!" [٥] إن كان الناموس يمنع إظهار الرحمة في السبت، فلماذا تمارسون الشفقة على الساقط في حفرة؟ لا ترتبك بالخطر الذي يحيق بابنك في السبت، بل انتهر العاطفة الطبيعيَّة التي تحثك بالحب الأبوي! لتدفع بابنك إلى القبر وأنت مبتهج، لكي تكرم واهب الناموس. كما لو كان قاسيًا غير رحيم! اترك صديقك في خطر، ولا تعطه أي اهتمام، بل وإن سمعت بكاء طفل صغير يطلب العون قل له: لتمت، فإن هذه هي إرادة الناموس!

إنك لا تقبل هذا، بل تبسط يديك للمتضايق، معطيًا إيَّاه اهتمامًا أكثر من تكريمك للناموس، أو للراحة (السبت) التي بلا أحاسيس، حتى وإن كنت لم تعرف بعد أن السبت يلزم أن يُحفظ بطريقة روحيَّة.

إله الجميع لا يكف عن أن يترفق، فهو صالح ومحب للبشر، لم يؤسس ناموس موسى لتحقيق الغلاظة، ولا أقامه كمعلم للقسوة، بل بالحري ليقودك لمحبَّة قريبك...

إذ لم يعطِ اهتمامًا لحسد اليهود خلّص الرجل من مرضه أي الاستسقاء[1].]

على أي الأحوال إن كان اليهودي حتى في حرفيته للناموس إن رأى حماره أو ثوره ساقطًا في

[1] *In Luc Ser 101.*

حفرة لا يستطيع أن يقف جامدًا بل يتعدى الحرف لينقذ الحيوان من الخطر، أفليس بالأولى الله كلي الحب والرحمة إذ رأى البشريَّة وقد صارت شعبين، اليهود الذين تثقّلوا بنير الحرف القاتل فصاروا كالثور في حفرة الهلاك، والأمم قد امتلئوا غباوة خلال العبادة الوثنية فصاروا كالحمار الذي بلا فهم... أفلا يهتم الله بخلاصهم ليهبهم سبتًا حقيقيًا، وراحة على مستوى أبدي؟!

هذا ويرى **القدِّيس أغسطينوس** أن المريض بالاستسقاء كلما شرب ماءً يزداد عطشًا، لأن الماء يُفرز عن الدم، هكذا مُحب الغنى كلما نال من البركات الزمنيَّة زاد عطشه إليها بلا شبع إذ يقول: [يحق يقارن المريض بالاستسقاء بالغني الطمّاع. الأول كلما نال رطوبة غير طبيعيَّة زاد عطشه هكذا الغني الطامع نال غنى بفيض يسيء استخدامه فيزداد شغفًا لمحبَّة الغنى[١].]

يقدَّم لنا الإنجيلي إبراء هذا المريض بالاستسقاء، قائلاً: "**فأمسكه وأبرأه وأطلقه**" [٤]. إنها ثلاث مراحل يجتازها الإنسان لينعم بعمل السيِّد المسيح الخلاصي، وهي:

أ. **أمسكه:** إن كان المرض قد أمسك بحياتنا، فنحن نحتاج إلى كلمة الله، الطبيب الحقيقي الذي نزل إلينا لكي يمسك بنا، فنكون في حوزته، نقبل الالتصاق به والدخول إلى الشركة معه. يمسكنا الرب بكشفه عن أسرار حبه خلال الصليب، فيأسر حياتنا ويمتص كل مشاعرنا وأحاسيسنا لحسابه كما قدَّم حبه لنا، فنقول: "حبيبي لي وأنا له" (نش ٢: ١٦).

ب. **أبرأه:** إذ يمسك بنا ونحن به، ننعم بخلاصه فنبرأ من خطايانا... بمعنى آخر لقاؤنا معه يقوم على الصراحة الكاملة، نعترف له بخطايانا لننهل بالمغفرة ونتمتع بأعمال محبَّته الخلاصيَّة بلا انقطاع.

ج. **أطلقه:** غاية الالتقاء مع المخلِّص أن نتمتع بانطلاقة الحريَّة كأولاد الله، لكي نوجد على الدوام ثابتين فيه، ونحسب ورثة الله أبينا ووارثون مع المسيح (رو ٨: ١٧).

هذا هو عمل السيِّد المسيح فينا: نلتقي به مُمسكين بمحبَّته، نبرأ به من خطايانا، نتحرَّر كأولاد الله لنوجد فيه أبديًا.

٢. عدم اشتهاء المتكآت الأولى

إذ أراد لنا السيِّد المسيح أن نقبل صداقته لنا سألنا أن نرتفع فوق الحرف، فلا نحفظ السبت بطريقة ماديَّة جافة، وإنما بطريقة روحيَّة لننعم بالراحة الأبديَّة، بإبرائنا لا من مرض الاستسقاء بل من كل

---

[1] *Quaest Evang 2: 29.*

خطيَّة، وتحريرنا لنوجد معه أبديًا، هذا ما رأيناه في العبارات السابقة، أما الآن فكصديقٍ لنا يريدنا أن نحمل سماته فينا حتى نقدر أن نلتقي معه، ولعل أهم هذه السمات هي التواضع وعدم محبَّة المتكآت الأولى. إنه لا يدعونا لعدم اشتهاء هذا الموضع لإذلالنا ولا ليقلل من كرامتنا، وإنما لأنه إذ اتضع واحتل المركز الأخير "كعبدٍ"، أرادنا أن نشتهي هذا المركز لنوجد معه خلال روح التواضع المملوء حبًا. بمعنى آخر سعْينا للمتكأ الأخير لا يقوم على شعور بالنقص ولا عن تغصب، وإنما عن حب حقيقي لحمل المسيح صاحب المتكأ الأخير. فيتجلَّى فينا، وتعلن سماته بقوَّة مشرقة على من حولنا، فيصير ذلك سرّ مجد داخلي في الرب.

"**وقال للمدعوين مثلاً،**

وهو يلاحظ كيف اختاروا المتكآت الأولى، قائلاً لهم:

متى دعيت من أحد إلى عرسٍ،

فلا تتكئ في المتكأ الأول،

لعل أكرم منك يكون قد دُعي منه،

فيأتي الذي دعاك وإياه ويقول لك أعطي مكانًا لهذا،

حينئذٍ تبتدئ بخجل تأخذ الموضع الأخير" [٧-٩].

❖ ربما تبدو مثل هذه الأمور للبعض تافهة ولا تستحق إعارتها الانتباه، لكن متى ركز الإنسان عيني ذهنه عليها فسيتعلم من أي عيب تخلّص الإنسان، وأي تدبير حسن توجده فيه. فإن الجري وراء الكرامات بطريقة غير لائقة لا تناسبنا ولا تليق بنا، إذ تظهرنا أغبياء وعنفاء ومتغطرسين، نطلب لا ما يناسبنا بل ما يناسب من هم أعظم منا وأسمى.

من يفعل هذا يصير كرهًا، غالبًا ما يكون موضع سخريَّة عندما يضطر بغير إرادته أن يرد للآخرين الكرامة التي ليست له... يلزمه أن يعيد ما قد أخذه بغير حق.

أما الإنسان الوديع والمستحق للمديح الذي بدون خوف من اللوم يستحق الجلوس بين الأولين لكنه لا يطلب ذلك لنفسه بل يترك للآخرين ما يليق به، فيُحسب غالبًا للمجد الباطل وسيتقبل مثل هذه الكرامة التي تناسبه، إذ يسمع القائل له: "**ارتفع إلى فوق**" [١٠].

إذن العقل المتضع عظيم وفائق الصلاح، يخّلص صاحبه من اللوم والتوبيخ ومن طلب المجد الباطل...

إن طلبت هذا المجد البشري الزائل تضل عن طريق الحق الذي به يمكنك أن تكون بالحق مشهورًا

وتنال كرامة تستحق المنافس! فقد كُتب: "لأن كل جسد كعشبٍ، وكل مجد إنسان كزهر عشب" (١ بط ١: ٢٤). كما يلوم النبي داود محبي الكرامات الزمنيَّة، قائلاً لهم هكذا: "ليكونوا كعشب السطوح الذي ييبس قبل أن يُقلع" (مز ١٢٩: ٦). فكما أن العشب الذي ينبت على السطح ليس له جذر عميق ثابت لذا يجف سريعًا، هكذا من يهتم بالكرامات الدنيويَّة بعد أن يصير ظاهرًا في وقت قصير كالزهرة يسقط إلى النهاية، ويصير كلا شيء.

إن أراد أحد أن يسبق الآخرين فلينل ذلك بقانون السماء، وليتكلل بالكرامات التي يهبها الله. ليسمو على الكثيرين بشهادة الفضائل المجيدة، غير أن قانون الفضيلة هو الذهن المتواضع الذي لا يطلب الكبرياء بل التواضع! هذا هو ما حسبه الطوباوي بولس أفضل من كل شيء، إذ كتب إلى أولئك الذين يرغبون في السلوك بقداسة: احبوا التواضع (كو ٣: ١٢). وقد مدح تلميذ المسيح ذلك، إذ كتب هكذا: "ليفتخر الأخ المتضع (المسكين) بارتفاعه، وأما الغني فبتواضعه لأنه كزهر العشب يزول" (يع ١: ٩-١٠). الذهن المتضع والمنضبط يرفعه الله، إذ "القلب المنكسر والمنسحق يا الله لا تحتقره" (مز ٥١: ١٧).

من يظن في نفسه أمرًا عظيمًا وساميًا فيتشامخ في فكره وينتفخ في علو فارغ يكون مرذولاً وتحت اللعنة، إذ يسلك على خلاف المسيح القائل: "تعلموا مني، لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩). كما قيل: "لأن الله يقاوم المستكبرين، وأما المتواضعون فيعطيهم نعمة" (١ بط ٥: ٥). لقد أظهر الحكيم سليمان في مواضع كثيرة الأمان الذي يحل بالذهن المتضع، إذ يقول: "لا تنتفخ كي لا تسقط" (ابن سيراخ ١: ٣٠)؛ كما يعلن ذات الأمر بطريقة تشبيهية: "المعلي بابه (بيته) يطلب الكسر" (أم ١٧: ١٩). مثل هذا يبغضه الله بعدل إذ يُخطئ في حق نفسه ويود أن يتعدى حدود طبيعته بغير شعور...

أسألك، على أي أساس يظن الإنسان في نفسه أمرًا عظيمًا؟!...

ليت كل إنسان ينظر إلى حاله بعينين حكيمتين فيصير كإبراهيم الذي لم يُخطئ في إدراك طبيعته بل دعي نفسه ترابًا ورمادًا (تك ١٨: ٢٧)[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ هل ترفض أن تتواضع وأنت بالفعل ساقط؟! شتان ما بين من يتضع ومن هو بالفعل ساقط على الأرض. أنت مُلقى على الأرض، أفلا تريد أن تتواضع؟![2]

[1] *In Luc Ser 102.*
[2] *Ser. On N.T. 32: 6.*

القدِّيس أغسطينوس

❖ لا يحصل طالب الكرامة على ما يطمع فيه إنما يعاني من خيبة أمل، وإذ يشغل نفسه بكيفيَّة تثقله بكرامات إذا بها يجد إهانات. وإذ لا يوجد شيء أفضل من التواضع لذلك يقود السيِّد السامع له لا إلى رفض طلب الأماكن المرموقة، وإنما يوصيه بالبحث عن الأماكن المتضعة[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يظن أحد في وصايا المسيح هذه أنها تجعله شخصًا تافهًا غير مستحق لسمو كلمة الله وجلالها.

الأب ثيؤفلاكتيوس

هذا ويحذِّرنا **القدِّيس باسيليوس** من إساءة فهم كلمات السيِّد المسيح، فإنه طلب منا ألا نشتهي المراكز الأولى بل نطلب المتكأ الأخير، لكننا نطلبه بهدوء وفي تواضع ونظام لا خلال العنف أو حب الظهور، فإن سألنا صاحب الدعوة أن نأخذ المتكأ الأول نقبل بهدوء أيضًا ولا نفسد نظامه... بمعنى آخر أن كلمات السيِّد تمس أعماق القلب لكي لا يشتهي الإنسان المجد الباطل، سواء جلسنا هنا أو هناك. الله يطلب القلب لا المظهر الخارجي. لذلك ختم السيِّد المثل بقوله: "**لأن كل من يرفع نفسه يتضع، ومن يضع نفسه يرتفع**" [١١].

يمكننا أن نقول بأن صاحب العرس أو الوليمة هو رب المجد يسوع نفسه الذي دعانا جميعًا لنتكئ في كنيسته، الوليمة المفرحة للنفس، فيجتاز في وسطها بلا توقف لأنها مقدَّسة ليرى أصحاب القلوب المتواضعة، فيفيض عليهم من ثمر روحه القدُّوس بغنى، ويرفعهم في أعين السمائيين والأرضيين، وكما قالت القدِّيسة مريم حين قبلت صاحب الوليمة في أحشائها: "أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين" (لو ١: ٥٢).

٣. اتساع القلب للمحتاجين

إذ قدَّم لنا السيِّد بتواضعه أساسًا بقبول صداقته أن نحمل فينا فكره، فنسلك بروح التواضع طالبين المتكأ الأخير، مشتهين ترك المتكآت الأولى لإخوتنا، مقدَّمين بعضنا البعض في الكرامة (رو ١٢: ١٠)، الآن يسألنا أيضًا أن نتمثل به بكونه صديقنا السماوي فنحمل قلبًا متسعًا للمحتاجين والمعوزين والمعوقين والمطرودين. إن كان الرب في تجسده قد جاء إلى الإنسان الضائع تاركًا خليقته السماويَّة،

---

[1] *Catena Aurea.*

أي التسعة والتسعين حَمَلاً ليطلب الخروف الضال، محتملاً بالحب آلام الصليب ليرفعه علي منكبيه ويحمله إلى مجد سماواته، هكذا يليق بنا أن نبحث عن كل محتاج وذليل.

"وقال أيضًا للذي دعاه:
إذا صنعت غذاءً أو عشاءً فلا تدع أصدقاءك
ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء،
لئلاَّ يدعوك هم أيضًا فتكون لك مكافأة.
بل إذا صنعت ضيافة، فادع المساكين الجدع العرج العُمي.
فيكون لك الطوبى،
إذ ليس لهم حتى يكافوك،
لأنك تكافئ في قيامة الأبرار" [١٢-١٤].

❖ إن كنا نخجل من هؤلاء الذين لا يخجل منهم المسيح، فنحن نخجل من المسيح نفسه بخجلنا من أصدقائه. لتملأ مائدتك من العرج والمشوهين، فإن المسيح يأتيك خلالهم لا خلال الأغنياء[١].

❖ إن دعوت صديقًا يبقى يشكرك حتى المساء، لكن الصداقة تبقى إلى حين وتنتهي سريعًا جدّا فلا توازي ما تكلفته من مصاريف. أما أن دعوت فقيرًا أو مشوهًا، فإن الشكر لا يفسد، لأن الله يذكره لك أبديًا، لن ينساه، إذ يكون هو نفسه مدينًا لك[٢].

❖ لنتبع الصداقات التي حسب الروح لأنها قويَّة ويصعب حلها، وليس الصداقات التي تقوم حول المائدة[٣].

❖ كلما كان أخونا متواضعًا يأتي المسيح خلاله ويفتقدنا. لأن من يستضيف إنسانًا عظيمًا غالبًا ما يفعل هذا عن مجدٍ باطلٍ... ليتنا لا نطلب القادرين أن يكافؤننا، بل نتبع القول: "فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافؤك".

ليتنا لا نضطرب حينما لا يُرد لنا اللطف باللطف، لأننا إن تقبلناه من الناس لا ننال ما هو أكثر، أما إذا لم يُرد لنا من البشر فالله يرده لنا.

❖ يليق بك أن تستقبل (الفقراء) في أفضل حجراتك، فإن أحجمت عن هذا فلا أقل من أن تتقبل

---

[1] *In 1 Thess. Hom.11.*
[2] *In Colos hom 1.*
[3] *In Colos hom 1.*

المسيح في الحجرات الدنيا حيث يوجد الذين يقومون لك بالأعمال الحقيرة والخدم.

ليكن الفقير علي الأقل حافظًا بابك، لأنه حيث توجد الصدقة لا يقدر الشيطان أن يقتحمه ويدخل. إن لم تجلس معهم، فعلى الأقل ارسل لهم الأطباق من مائدتك[١].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

يستعرض **القدِّيس كيرلس الكبير**[٢] تعليقاته علي هذا المثل قائلاً بأن المهتمين بتقديم صور جميلة لا يكتفون باستخدام لون واحد، هكذا إله الجميع واهب الجمال الروحي ومعلمه يزين نفوسنا بفضائل متنوعة لنحمل حياة مقدَّسة من جوانب متنوعة [ليكمل فينا شبهه.] لهذا أمر السيِّد المسيح الناموسيين والفرِّيسيِّين والكتبة أن يسلكوا بروح التواضع ويتحرَّروا من محبَّة المجد الباطل وألا يطلبوا المتكآت الأولى، والآن يطلب منهم محبَّة الفقراء، فلا يستضيفوا في ولائمهم الأغنياء لطلب المديح وحب الظهور بل المحتاجين والمعوقين والمتألَّمين بكل أنواع الأمراض الجسديَّة للحصول علي الرجاء في العلويَّات من الله نفسه. يكمل **القدِّيس كيرلس الكبير** حديثه عن هذه الفضيلة التي تزين النفس، قائلاً:

[الدرس الذي يعلمنا إيَّاه هو حب الفقراء، الأمر الثمين في عيني الله...

هل تشعر بالسرور عندما يمدحك أصدقائك وأقاربك الذين تستضيفهم في الوليمة؟ أخبرك بما هو أفضل، فإن الملائكة تمدح سخاءك، والقوات العلويَّة العاقلة والقدِّيسون يفعلون ذلك، بل والله أيضًا يقبل هذا الذي يسمو بالكل ويحب الرحمة وحنون. اقرضه ولا تخف، فسيرده إليك ومعه ربا، إذ قيل "من يرحم الفقير يقرض الرب" (أم ١٩: ١٧). أنه يعرف القرض ويعد بالوفاء به (مت ١٨: ٢٣ الخ)...

اقتنِ النعمة النابعة عن الله. اقتنِ لك رب السماء والأرض صديقًا، فإنه بالحق يقتني الإنسان صداقة البشر غالبًا بذهبٍ كثيرٍ، فإن تصالح معنا أصحاب الرتب العالية نشعر بفرحٍ عظيمٍ بتقديم هدايا أكثر من طاقتنا بسبب نوالنا كرامة الالتصاق بهم، ومع هذا فإن هذه الأمور زائلة، تنتهي سريعًا تعبر كخيال الأحلام.

ألا يليق بنا أن نحسب عضويتنا في بيت الله تستحق أن نقتنيها؟ أما نحسبها أمرًا عظيمًا؟! فبالتأكيد بعد القيامة من الأموات سنقف في حضرة المسيح، وتُقدَّم المكافأة للمترفقين والرحماء، وتكون الدينونة قاسيَّة علي العنفاء الذين لم يكن لهم الحب الطبيعي... إذ قيل: "لأن الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة" (يع ٢: ١٣).]

---

[1] *In Acts hom 45.*

[2] *In Luc. Ser.103.*

أما **العلامة أوريجينوس** فإذ يأخذ بالتفسير الرمزي. يرى في الوليمة، المائدة الروحيَّة حيث يليق بنا نطرد عنا المجد الباطل ونستضيف الفقراء أو المساكين أي الجهلاء الذين تعوزهم الحكمة، لكي يجدوا في مائدتنا السيِّد المسيح الذي يغني الكل. ونستضيف الضعفاء الذين يقاومون الضمير الداخلي لكي يبرأوا داخليًا. كما نستضيف العرج، أي الذين ضلّوا عن السلوك في الحق لكي يجدوا الطرق المستقيمة في الرب؛ ونستضيف العُمي الذين ليس لهم بصيرة روحيَّة لإدراك الحق لكي يتمتعوا بالنور الحقيقي... هؤلاء ليس لهم ما يكافؤننا به إذ لا يجدوا ما يجيبون به علينا أمام الكرازة المملوءة حبًا!

٤. الاهتمام بالدعوة للوليمة

إذ أراد السيِّد المسيح كفنانٍ ماهرٍ أن يصوّر أذهاننا بألوان الفضيلة المتباينة كما قال **القدِّيس كيرلس الكبير** ليشكل أيقونة جميلة علي مثاله، تحمل صورته، أوصانا أن نفتح قلوبنا بالحب للمساكين والمعوزين والمشوهين جسديًا وروحيًا لإشباعهم لحساب الرب نفسه، منتظرين المكافأة العلويَّة من الله وحده. لكننا لن نقدر أن نفتح قلبنا بالحبِ كوليمة نستضيف فيها اخوتنا الأصاغر ما لم ننعم نحن أولاً كأطفالٍ أصاغر بالدخول إلى الوليمة الإلهيَّة. لهذا جاء حديث رب المجد موجهًا إلينا لكي نقبل التمتع بوليمته ولا نرفض دعوته إلينا... ندخل إلى وليمته الروحيَّة، فتصير قلوبنا ذاتها وليمة محبَّة لإخوتنا في الرب.

"**فلما سمع ذلك واحد من المتكئين،**

قال له: طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله.

فقال له: إنسان صنع عشاءً عظيمًا ودعا كثيرين.

وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين:

تعالوا، لأن كل شيء قد أعد" [١٥-١٧].

إذ سمع المتكئون حديث السيِّد المسيح السابق، أراد أحدهم أن يتمتع بالمكافأة التي وعد بها السيِّد من يدعو الفقراء في ولائمه، فظن أن المكافأة هي تمتع بولائم ماديَّة في ملكوت السماوات، إذ قال: "**طوبى لمن يأكل خبزًا في ملكوت الله**". هكذا كان قادة الفكر اليهودي ماديين في تفكيرهم حتى بالنسبة لملكوت الله، أما أولاد الله فيجدون شبعهم لا في الطعام المادي، بل في الله نفسه "الحب الحقيقي"، لذلك يقول **القدِّيس إكليمنضس السكندري**: [الفلاسفة أحكم من الأغنياء، إذ لا يدفنون أذهانهم في الطعام، ولا ينخدعون بملذّاته. الحب (أغابي) هو الطعام السماوي، مائدة العقل. المحبَّة تحتمل كل شيء، وتصبر على كل شيء، وتترجى كل شيء. المحبَّة لا تسقط أبدًا (١ كو ١٣: ٧-

٨)[1].]

يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**: [ربما لم يكن هذا الإنسان قد صار روحيًا بعد، بل كان جسديًا، لا يقدر أن يفهم ما نطق به المسيح بطريقة سليمة، لأنه لم يكن ممن آمنوا ولا نال العماد. ظن أن مكافآت القدِّيسين عن أعمال محبَّتهم المشتركة تخص أمور الجسد[2].]

إذ كان هذا الرجل – غالبًا من الفرِّيسيِّين المدعوين عند أحد رؤسائهم – يمثل الفكر اليهودي المادي حتى في الأمور السماويَّة، لهذا قدَّم لهم السيِّد المسيح المثل التالي ليكشف لهم عن سرّ رفض الكثيرين للدعوة السماويَّة، ألا وهو انحدار الفكر نحو الأمور الماديَّة، وانغماس النفس في الزمنيات، واستعبادها للشهوات الزائلة، إذ قال الرب:

"إنسان صنع عشاءً عظيمًا، ودعا كثيرين.
وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين:
تعالوا لأن كل شيء أُعد.
فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون.
قال له الأول: إني اشتريت حقلاً، وأنا مضطر أن أخرج وأنظره، أسألك أن تعفيني.
وقال آخر: إني اشتريت خمسة أزواج بقر وأنا ماضٍ لأمتحنها، أسألك أن تعفيني.
وقال آخر: إني تزوجت بامرأة، فلذلك لا أقدر أن أجيء.
فأتى ذلك العبد وأخبر سيِّده بذلك" [١٦-٢١].

❖ نفهم الإنسان هنا يشير لله الآب... هو خالق المسكونة، وأب المجد، قد أعد عشاءً عظيمًا، أي وليمة للعالم كله تكريمًا للمسيح. في الأيام الأخيرة للعالم، أي أيامنا هذه قام الابن لأجلنا، فيها أيضًا احتمل الموت من أجلنا وسلم جسده مأكلاً، بكونه الخبز النازل من السماء، يعطي حياة للعالم.

نحو المساء أيضًا، علي ضوء السراج كان الحمل يُقدَّم ذبيحة حسب شريعة موسى، لهذا فالدعوة التي قدَّمها المسيح دُعيت عشاءً.

بعد ذلك، من هو الذي أُرسل، والذي قيل عنه أنه عبد؟ ربَّما يقصد المسيح نفسه، فمع كونه بالطبيعة هو الله الكلمة، ابن الله الآب... لكنه أخلى نفسه وأخذ شكل العبد. بكونه إله من إله فهو رب

---

[1] *Instr. 2: 1.*
[2] *In Luc. Ser 104.*

الكل، لكن يمكن تسميته عبدًا من جهة ناسوته. ومع أنه أخذ شكل العبد كما قلت فهو رب بكونه الله.

متى أُرسل؟ عند العشاء، فإن ابن الله الآب الوحيد لم ينزل من السماء ويصير في شكلنا في بداية هذا العالم، بل بالحري عندما أراد الكلي القدرة نفسه ذلك في الأزمنة الأخيرة كما سبق فقلت.

وما هي طبيعة الدعوة؟ "تعالوا، لأن كل شيء قد أعد"، لأن الله الآب يُعد لسكان الأرض في المسيح المواهب التي تُعطى للعالم خلاله، من غفران للخطايا، وغسل الأدناس، وشركة الروح القدس، والتبني المجيد كأبناء، وملكوت السماوات. دعا المسيح إسرائيل لهذه البركات بوصايا الإنجيل قبل الآخرين كلهم. ففي موضع يقول بصوت المرتل: "قد أقمت ملكًا بواسطته – أي بالله الآب – علي صهيون جبل قدسي لأخبر بوصايا الرب" (راجع مز ٢: ٦-٧). مرة أخري قيل: "**لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة**" (مت ١٥: ٢٤).

هل كان تصميمهم هذا لصالحهم؟ هل أُعجبوا بلطف ذاك الذي أمرهم وعمل ذاك الذي جاء ليخدمهم بالدعوة؟ بلى، إذ "ابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون"، بمعنى أنهم بدون تأجيل استعفوا عن قبول الدعوة... ها أنت تدرك كيف لم يستطيعوا أن يدركوا الأمور الروحيَّة بتسليم أنفسهم للأمور الزمنيَّة فصاروا كمن هم بلا إحساس، إذ غلبتهم محبَّة الجسد صاروا بعيدين عن القداسة، طامعين، شغوفين نحو الغنى. طلبوا الأمور الدنيا ولم يعطوا أقل اهتمام للرجاء فيما يخزنه الله فوق. فإن اقتناء مباهج الفردوس لهو أفضل من الحقول الأرضية؛ وجمع ثمار البرّ أفضل من الثمار الزمنيَّة التي نبتغيها من نير الثيران، إذ كُتب: "ازرعوا لأنفسكم بالبّر، اجمعوا ثمر الحياة كحصاد كرم السنة" (راجع هو ١٠: ١٢). ألم يكن من واجبهم عوض أن ينجبوا أولادًا حسب الجسد أن يكون لكم الثمر الروحي؟ لأن الأولين يخضعون للموت والفساد، أما الآخرون فيسكنون أبديًا كقدِّيسين[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

نعود للمثل لنجد صاحب الوليمة يرسل قبل العشاء مباشرة ليدعو الكل، إذ كانت العادة في الشرق هكذا يرسل صاحب الوليمة عبيده أولاً ليدعو أصدقائه، وقبل الأكل مباشرة يرسل ثانية يتعجلهم. هكذا سبق فأرسل الله لنا الأنبياء أولاً، حتى قبل وليمة الصليب أرسل ابنه الوحيد مخليًا ذاته كعبدٍ يدعونا إلى وليمة الحب الإلهي، إلى ذبيحته التي يمكن أن تشبع الكل. وكما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**: [حقًا، لقد قدَّمت الذبيحة عن البشريَّة كلها، وهي كافيَّة لخلاص الجميع، لكن لا يتمتع ببركتها سوى المؤمنون وحدهم[2].]

---

[1] *In Luc Ser. 104.*
[2] *In Gal. hom 2: 20.*

من هم المعتذرون؟ يقول **القدِّيس أغسطينوس**[1] أنهم ثلاثة أنواع:

أولاً: الإنسان الذي اشترى حقلاً: يمثل من له سلطان علي بقعة معينة، فيرمز للكبرياء.

ثانيًا: من اشترى خمسة أزواج بقر، يشير إلى المرتبك بالأمور الحسيَّة الجسديَّة، إذ لكل إنسان خمس حواس جسديَّة (النظر، السمع، اللمس، الشم، التذوق) لها أثرها على النفس، كمن يحمل خمس حواس خفيَّة. فمن يرتبك بهذه الحواس في الأمور الأرضية تشغل جسده كما نفسه عن التمتع بملكوت الله.

ثالثًا: المعتذر بالزواج: يشير إلى من حوّل حتى المقدَّسات إلى لذة جسديَّة تعوقه عن اللذة الروحيَّة.

يلخص **القدِّيس أغسطينوس** هذه الأعذار قائلاً: [ليتنا نترك الأعذار الباطلة الشرِّيرة، ونأتي إلى العشاء الذي يجعلنا في شبع داخلي. ليتنا لا ننتفخ بالكبرياء الذي يعوقنا، ولا أيضًا حب الاستطلاع الذي يفزعنا ويبعدنا عن الله، ليت ملذّات الجسد لا تعوقنا عن لذة القلب. لنأتِ ولنشبع[2]!]

ويرى **القدِّيس أمبروسيوس**[3] في تعليقاته علي إنجيل لوقا أن المعتذرين الثلاثة يمثلون محبَّة العالم بطرق متنوعة، الأول ينشغل بالأرضيات فيقتني لنفسه مسكنًا أرضيًا يشغله عن ملكوت الله، لذا جاءت وصيَّة الرب: "بع أملاكك...وتعال اتبعني" (مت ١٩: ٢١). وأيضًا شراء البقر يشير إلى الارتباك بأعمال العالم، لذلك ذبح إليشع فدان بقر وسلق اللحم بأدوات البقر وأعطى الشعب ليأكلوا (١ مل ١٩: ٢١). والثالث الذي تزوج يشير إلى من يهتم بما للعالم ليرضي زوجته (١ كو ٧: ٣٣).

يمكننا أن نقول ليس العيب في الحقل (المسكن الأرضي)، ولا في البقر (العمل)، ولا في الزوجة (العلاقة الأسريَّة)، إذ يمكن للإنسان أن يتقدس جسده مع نفسه أن يكون بيته وعمله وأسرته مقدَّسا للرب، إنما العيب في الارتباك بهذه الأمور خارج دائرة الحب الإلهي والاهتمام بالميراث الأبدي.

يقول **القدِّيس أمبروسيوس**[4] أن البعض يقدَّمون تفسيرًا آخر وهو أن المستبعدين من الوليمة ثلاثة: الأمم الوثنية، واليهود (الجاحدون)، والهراطقة. فالأمم يمثلون محبَّة المال والطمع، لذا يوصينا الرسول أن نهرب من الطمع (رو ١: ٢٩) لئلاَّ نُعاق من الوليمة كالأمم، كما يقول: "فإنكم تعلمون هذا أن كل زانٍ أو نجسٍ أو طماعٍ الذي هو عابد للأوثان ليس له ميراث في ملكوت المسيح والله" (أف ٥: ٥).

---

[1] *Ser. On N.T. 62: 6.*
[2] *Ser. On N.T. 62: 6.*
[3] *In Luc 14: 1- 24.*
[4] *In Luc 14: 1- 24.*

ويحمل اليهود (كالخمسة أزواج بقر) نير الناموس بطريقة حرفيَّة قاتلة، وهي خمسة أزواج، أي عشرة إشارة إلى الوصايا العشرة. وقد قيل للسامريَّة: "كان لك خمسة أزواج" (يو ٤: ١٨). أما نحن فقد أخذنا المسيح الذي وضع علينا نير محبَّته الإلهيَّة (مت ١١: ٣٠). ولعل الهراطقة يشّبَهون بالمرتبك بامرأته إذ يرفضون الكنيسة العروس الحقيقيَّة للسيد المسيح ليقيم لأنفسهم زوجة تعوقه بالتعاليم الفاسدة عن العرس السماوي.

ويرى **البابا غريغوريوس (الكبير)**[1] أن المرتبك بالحقل يشير إلى من يهتم بالأمور الخارجيَّة لحياته لا بالحياة الروحيَّة الداخليَّة. والمهتم بالخمسة أزواج بقر يشير إلى من يهتم بالأمور الحسيَّة الجسديَّة لا الحياة السرائريَّة العميقة. والمرتبك بزوجته يشير إلى من يشوه الزواج، فعوض قبوله للإنجاب يتحول إلى مجالٍ لشهوة الجسد وملذّاته.

ويرى **العلامة أوريجينوس** أن من يقتني الحقل مستهينًا بالوليمة هو ذاك الذي يتقبل تعاليم لاهوتيَّة مغايرة رافضًا كلمة الحق. ومن يشتري خمسة أزواج بقر هو من يستهين بطبيعته العاقلة الروحيَّة ليخضع لحواس الجسد، فلا يدرك الروحيات. وأما من يتزوج فيشير لمن ارتبط بالجسد، مهتمًا بالملذّات الجسديَّة أكثر من الله.

أخيرًا فإن كثير من الآباء تحدَّثوا عن رافض الدعوة بسبب زواجه، مؤكدين أن القرابات العائليَّة خاصة الزوجيَّة مقدَّسة إن كانت في الرب لبنيان النفس:

❖ إنني لا أرفض رباط الزواج، لا بل أسلم به في حب أعظم، لأنني بهذا أشهد معترفًا لزوجتي التي عينها لي الرب وأكرّمها، ولا أرفض الارتباط بها برباط الحب في المسيح الذي لا ينفك أبدًا[2].

الأب ثيوناس

❖ إله السلام الذي يحثُّنا أن نحب أعدائنا لا يدخل فينا الكراهية والانحلال من جهة من هم أعزاء علينا. إن كنا نحب أعداءنا فبالأكثر نرتفع لنحب الأعزاء القريبين منا...

إن كان أب أو ابن أو أخ شرِّيرا يعوق الإنسان عن الإيمان ويصده عن الحياة العلويَّة فلا يصادقه ولا يتفق معه إنما لينحل من رباطاته الجسديَّة (في هذا الشأن)[3].

القدِّيس إكليمنضس السكندري

الآن إذ كشف السيِّد المسيح في مثله عن العينات الرافضة لوليمته الإنجيليَّة بسبب الارتباط

---

[1] *In Evang. hom 36.*
[2] *Cassian: Conf 21: 9.*
[3] *Who is the Rich man ...22.*

بالأمور الزمنيَّة والشهوات الجسديَّة، أكمل حديث رب البيت هكذا: "**أخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها، وادخِل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمي**" [٢١]. إن كان الرافضون للوليمة في المرتبة الأولى يمثلون اليهود جاحدي الرسالة الإنجيليَّة، فإن حديث رب البيت هنا يشير إلى فتح باب الإيمان لجميع الشعوب والأمم التي عاشت زمانًا في العبادات الوثنية ورجاساتها. فكانت أشبه بالمساكين، ليس لهم كنوز الوصايا الإلهيَّة أو التنبؤات، وكالجدع والعرج مشلولي الحركة الروحيَّة، كالعمي بلا بصيرة داخليَّة. كانوا كمن هم في الشوارع والأزقة ليس لهم بيت الله يستريحون فيه. والآن تنفتح لهم أبواب المدينة السماويَّة لينعموا بالمائدة الإلهيَّة ويوجدوا في حضرة الله أعضاء جسد المسيح، أبناء الله الحي.

❖ جاء الأمم من الشوارع والأزقة، ليت الهراطقة يرجعون من السياجات ويتخلصون من الأشواك![1]

القدِّيس أغسطينوس

❖ الذين هزمتهم مصائب هذا العالم ألزمهم حب الله بالعودة والدخول.

مرعبة هي العبارة التاليَّة: "**لأني أقول لكم أنه ليس واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي**" [٢٤]. ليته لا يحتقر أحد الدعوة، لئلاً إذ يُدعى يعتذر، وعندما يود الدخول لا يستطيع ذلك![2]

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ يرسل عبيده ليدعو المساكين والجدع والعرج والعمي، لأن "الحكمة تنادي في الخارج" (أم ١: ٢٠).

أرسل يدعو الخطاة، ليَّاتوا من الطريق الرحب إلى الضيق (مت ٧: ١٣).

أرسل عبده إلى شوارع المدينة وأزقتها، فإن الذين يتأهلون لملكوت الله يلزمهم أن يتركوا اشتهاء الأمور الحاضرة ويسرعون إلى الخيرات العتيدة (التي كما في سياج وليس في الشوارع والأزقة). فإن السياج تفصل الأراضي المزروعة عن الشوارع لتمنع الحيوانات من الدخول فلا تتلف الزرع. هكذا بدرع الإيمان (كما بسياج) نميز الخير عن الشر لنقاوم تجارب الأرواح الشرِّيرة. لهذا عندما أراد الرب أن يُظهر محافظته على كرمه قال: "أحاطه بسياج" (مت ٢١: ٣٣)[3].

[1] *Ser. On N.T.62: 8.*
[2] *In Evang. hom 36.*
[3] *In Luc 14: 1- 24.*

القدِّيس أمبروسيوس

❖ الذين كان لهم المركز السامي بين عامة الشعب لم يخضعوا للمسيح، عندما قال لهم: "احملوا نيري" (مت ١١: ٢٩)، بل رفضوا الدعوة، ولم يقبلوا الإيمان، وبقوا مبتعدين عن الوليمة، محتقرين العشاء العظيم خلال عصيانهم العنيف. يظهر عدم إيمان الكتبة والفرِّيسيِّين بالمسيح من كلماته لهم: "لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة، ما دخلتم أنتم، والداخلون منعتموهم" (لو ١١: ٥٢). عوضًا عنهم قدَّمت الدعوة للذين في الشوارع والأزقة المنتسبين أيضًا لعامة الشعب اليهودي، الذين كانوا أيضًا مرضى فكريًا وضعفاء ومعوقين... فيُحسبون كعمي وعرج، لكنهم صاروا في المسيح أقوياء وأصحاء تعلموا المشي باستقامة وتقبلوا النور الإلهي في ذهنهم...

لاحظ أيضًا دعوة الأمم بعدما دخل هؤلاء (البسطاء من) اليهود في الإيمان. فقد كان الأمميون في القديم مساكين في أذهانهم ليس لهم ثقافة (روحيَّة) من جهة الفهم، قل أنهم كانوا خارج المدينة، يعيشون بلا ناموس كقطيع حملانٍ أكثر منهم بشر، قليلاً ما يستخدمون العقل. لهذا السبب أرسل من يدعو للعشاء إلى الذين هم في الطرق خارج المدينة... بل كمن يلزمهم بالدخول. مع هذا فدعوة البشريَّة للإيمان عمل اختياري، يقبلونه بكامل حريَّة إرادتهم، فيصيرون مقبولين لدى الله، ويتمتعون بفيض عطاياه[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

كيف يلزمهم بالتمتع بالوليمة مع أن الدعوة اختياريَّة للإيمان؟ يجيب **القدِّيس كيرلس الكبير** بأن الأمم صارت كمن في عبوديَّة إبليس غير قادرة على الحركة، تحتاج إلى من يجتذبها من هذه العبوديَّة كقول السيِّد: "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ أن لم يجتذبه الآب" (يو ٦: ٤٤). هذا الاجتذاب يتحقَّق بقوَّة الله العامل في الأمم ليقبلوا السيِّد المسيح. فالالتزام هنا لا يعني فقدان الإنسان حريَّة إرادته، إنما تقديم العون الإلهي الذي يدفعه للإيمان.

الإنسان في إيمانه أيضًا يسأل الرب بكمال حريته أن يقتنصه لملكوته كمن يلزمه، بمعنى أنه بإرادته يسلم حياته في يّد الرب ليعمل الله فيه حسب إرادته الإلهيَّة.

لعل أيضًا الإلزام هنا لا يعني إلزام الأفراد لقبول الدعوة، وإنما إلزام الأمم بعد أن رفض اليهود، فدخلت الشعوب الأممية إلى الإيمان المسيحي.

٥. حمل الصليب

[1] *In Luc. Ser 104.*

إن كانت الصداقة الإلهيَّة تستلزم فينا حمل سمات صديقنا الأعظمk وقبول دعوته لوليمته الإنجيليَّة، فإن هذه الصداقة تقوم داخل دائرة الصليب. حمل صديقنا الصليب من أجلنا، فلنحمله نحن أيضًا من أجله! هذا هو حساب النفقة التي سألنا السيِّد أن نضعها في الاعتبار لبناء برج الصداقة.

"وكان جموع كثيرة سائرين معه، فالتفت وقال لهم:

إن كان أحد يأتي إليّ،

ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته

حتى نفسه، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا" [٢٥-٢٦].

إذ كانت الجموع تلتف حوله، وتسير وراءه، يعلن السيِّد لهم مفهوم "الصداقة معه" والالتفاف حوله والسير وراءه. إنه لا يطلب المظهر الخارجي المجرد، إنما يطلب اللقاء القلبي أولاً حينما يرفض القلب ألا يدخل أحد فيه لا الأب ولا الأم ولا الابن...إلا عن طريق الصديق الأعظم يسوع المسيح. حتى نفوسنا لا نحبها خارج الله! هذا هو مفهوم الحب الحقيقي، ألا وهو قبول الصليب مترجمًا عمليًا ببغض كل علاقة خارج محبَّة الله. بمعنى آخر إن كنت أبغض أبي وأمي وأبنائي وإخوتي حتى نفسي، إنما لكي أتقبلهم في دائرة حب أعمق وأوسع، إذ أحبهم في الرب، أحب حتى الأعداء والمقاومين لي في الرب الذي أحبني وأنا عدو ومقاوم ليغتصبني لملكوته صديقًا ومحبوبًا لديه.

- ربما يقول البعض: ما هذا يا رب؟ أتحتقر نواميس العاطفة الطبيعيَّة؟ أتأمرنا بأن يكره أحدنا الآخر وأن نستهين بالحب الواجب من الآباء نحو الأبناء، والأزواج نحو الزوجات، والإخوة نحو بعضهم البعض؟

هل نحسب أعضاء البيت أعداء لنا، مع أنه يليق بنا أن نحبهم؟ هل نجعلهم أعداء لكي نقترب إليك ونقدر أن نتبعك؟

ليس هذا هو ما يعنيه المخلِّص، فإن هذا فكر باطل غير لائق؛ لأنه أوصانا أن نكون لطفاء حتى مع الأعداء القساة، وأن نغفر لمن يسئ إلينا، قائلاً: "أحبوا أعدائكم، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم"، كيف يمكنه أن يرغب فينا أن نبغض من ولدوا في نفس العائلة، وأن نهين الكرامة اللائقة بالوالدين وأن نحتقر إخوتنا؟ نعم حتى أولادنا بل وأنفسنا؟...ما يريد أن يعلمنا إيَّاه بهذه الوصايا يظهر واضحًا لمن يُفهم مما قاله في موضع آخر عن ذات الموضوع: "من أحب أبًا أو أمًا أكثر مني فلا يستحقني، ومن أحب ابنًا أو ابنة أكثر مني فلا يستحقني" (مت ١٠: ٣٧). فبقوله: "أكثر مني" أوضح أنه يسمح لنا بالحب لكن ليس أكثر منه. أنه يطلب لنفسه عاطفتنا الرئيسيَّة، وهذا حق، لأن

محبَّة الله في الكاملين في الذهن لها سموها أكثر من تكريم الوالدين ومن العاطفة الطبيعيَّة للأبناء[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ واضح أن الإنسان يبغض قريبه حينما يحبه كنفسه. فإننا بحق نبغض نفوسنا عندما لا ننهمك في شهواتها الجسديَّة، بل نخضعها ونقاوم ملذّاتها. بالبغضة نجعل نفوسنا في حالة أفضل كما لو كنا نحبها بالبغضة (كراهية شرها)[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ الله لا يريدنا أن نجهل الطبيعة (الحب الطبيعي العائلي) ولا أيضًا أن نُستعبد لها، وإنما نُخضع الطبيعة، ونكرم خالق الطبيعة، فلا نتخلى عن الله بسبب حبنا للوالدين.

القدِّيس أمبروسيوس

لقد أبرز هنا ما يعنيه السيِّد بوصيته هذه، قائلاً: "**ومن لا يحمل صليبه، ويَّاتي ورائي، فلا يقدر أن يكون لي تلميذًا**" [٢٧]. فهو لا يطالبنا بطبيعة البغضة للآخرين، وإنما بقبول الموت اليومي عن كل شيء من أجل الله، فنحمل معه الصليب بلا انقطاع، لا خلال كراهيتنا للآخرين أو حتى أنفسنا، وإنما خلال حبنا الفائق لله الذي يبتلع كل عاطفة وحب!

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** أن السيِّد لا يطالبنا أن نضع صليبًا من خشب لنحمله كل يوم وإنما أن نضع الموت نصب أعيننا، فنفعل كبولس الذي يحتقر الموت.

❖ نحن نحمل صليب ربَّنا بطريقتين، إما بالزهد فيما يخص أجسادنا أو خلال حنونا علي أقربائنا نحسب احتياجاتهم احتياجاتنا. ولما كان البعض يتنسكون جسديًا ليس من أجل الله، بل لطلب المجد الباطل، ويظهرون حنوًا لا بطريقة روحيَّة بل جسدانية لذلك بحق قال: "وتعال اتبعني". فإن حمل الصليب مع تبعيَّة الرب يعني استخدام نسك الجسد والحنو علي أقربائنا من أجل النفع الأبدي[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

إن كان حمل الصليب هو نفقة صداقتنا الحقيقية مع السيِّد المسيح، فإنه يسألنا أن نحسب حساب النفقة، مقدَّما لنا مثلين: الأول من يبني برجًا يلزمه أن يحسب النفقة أولاً قبل أن يحفر الأساس،

---

[1] *In Luc. Ser 105.*
[2] *In Evang. hom 37.*
[3] *In Evang. hom 37.*

والملك الذي يحارب ملكًا آخر يراجع إمكانياته قبل بدء المعركة. صداقتنا مع السيِّد المسيح تحمل هذين الجانبين: بناء برج شاهق خلاله نلتقي بالسماوي لنحيا معه في الأحضان السماويَّة، والثاني الدخول في معركة مع إبليس الذي يقاوم أصدقاء المسيح، ولا يتوقف عن مصارعتهم ليسحبهم إلى مملكة الظلمة عوض مملكة النور.

أولاً: مثال بناء البرج

"**ومن منكم وهو يريد أن يبني برجًا،**
لا يجلس أولاً ويحسب النفقة، هل عنده ما يلزم لكماله،
لئلا يضع الأساس، ولا يقدر أن يكمل.
فيبتدئ جميع الناظرين يهزأون به،
قائلين: هذا الإنسان ابتدأ يبني، ولا يقدر أن يكمل" [٢٨-٣٠].

❖ لنحسب حساب نفقة البرج الروحي الشاهق العلو، ونتعمق في ذلك مقدَّما بحرص... لنأخذ في اعتبارنا أولاً الأخطاء بصورة واضحة، فنحفر ونزيل الفساد ونفايات الشهوات حتى يمكننا أن نضع أساسات البساطة والتواضع القويَّة فوق التربة الصلبة التي لصدرنا الحيّ، أو بالحري توضع الأساسات علي صخر الإنجيل (٦: ٤٨)، بهذا يرتفع برج الفضائل الروحيَّة، ويقدر أن يصمد ويعلو إلى أعالي السماوات في آمان كامل ولا يتزعزع[١].

الأب اسحق

❖ الذين اختاروا السلوك في حياة مجيدة بلا لوم يلزمهم أولاً أن يخزنوا في ذهنهم غيرة كافيَّة، متذكرين القائل: "يا ابني إن أردت أن تخدم الرب أعدد نفسك لكل تجربة وليكن قلبك مستقيمًا وصبورًا" (ابن سيراخ ٢: ١).أما من ليس لهم غيرة كهذه كيف يستطيعون بلوغ العلامة التي أمامهم؟![٢]

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ إذ أعطانا وصايا عاليَّة جدّا وسامية لذلك قدَّم لنا مثل بناء البرج... إن أردنا أن نبني برج التواضع، يلزمنا أولاً أن نهيئ أنفسنا ضد متاعب هذا العالم[٣].

---

[1] *Cassian: Conf. 2: 9.*
[2] *In Luc Ser 105.*
[3] *In Evang hom 37*

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ البرج هو برج مراقبة عالٍ لحراسة المدينة واكتشاف اقتراب الأعداء. هكذا بنفس الطريقة يليق بفهمنا أن يحفظ الصلاح ويحذِّر الشر[1].

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ يلزمنا أن نجاهد علي الدوام لنبلغ نهاية كل عمل صعب بالاهتمام المتزايد بوصايا الله، وبهذا نكمل العمل الإلهي. فإنه لا يكفي حجر واحد لعمل البرج، هكذا لا تكفي وصيَّة واحدة لكمال النفس، إنما يلزمنا أن نحفر الأساس وكما يقول الرسول نضع حجارة من ذهب وفضة وأحجار كريمة[2] (١ كو ٣: ١٢).

القدِّيس غريغوريوس أسقف نيصص

ليتنا إذن ونحن نود أن تكون نفوسنا برجًا شامخًا يعلو نحو السماء، أو مقدَّسا للرب أن نجلس مع أنفسنا لنحسب النفقة، ألا وهي "الإيمان الحيّ العامل بالمحبَّة". هذا الإيمان المعلن بحملنا لصليب الرب. هو يبدأ معنا العمل، لأننا إنما نحمل صليبه هو. وهو الذي يرافقنا طريق الصليب الكرب، لأنه قد اجتازه، وحده ولا يقدر أحد أن يعبر فيه ما لم يختفِ داخله. وهو الذي يكمل الطريق، رافعًا إيَّانا إلى بهجة قيامته.

بدون قبول الصليب نحمل اسم المسيح دون حياته فينا، ويكون لنا منظر الصليب دون قوَّته، لهذا تتطلع إلينا القوات الشرِّيرة وتهزأ بنا، قائلة: "**هذا الإنسان ابتدأ يبني، ولم يقدر أن يكمل**" [٣٠]. وكما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير** أن لنا أعداء كثيرين يودون الاستهزاء بنا، من أرواح شرِّيرة وناموس الخطيَّة وشهوات الجسد الخ.

ثانيًا: مثال الملك الذي يحارب

"وأي ملك أن ذهب لمقاتلة ملك آخر في حرب
لا يجلس أولاً ويتشاور،
هل يستطيع أن يلاقي بعشرة آلاف الذي يأتي عليه بعشرين ألفًا.
وإلا فمادام ذلك بعيدًا يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح.
فكذلك كل واحد منكم، لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لي تلميذًا.

---

[1] *In Esai 1.*
[2] *De Virgin. 18.*

الملح جيد، ولكن إذ فسد الملح، فبماذا يصلح،

لا يصلح لأرض ولا لمزبلة، فيطرحونه خارجًا.

من له أذنان للسمع فليسمع" [٣١-٣٥].

في مثال البرج تحدَّث عن حساب نفقة البناء، أي عن الجانب الإيجابي. فقد دُعينا إلى الصداقة الإلهيَّة لبناء نفوسنا كبرجٍ شامخٍ يرتفع إلى السماويات عينها، خلالها تتمتع البصيرة بالأمور التي لا تُرى. تدخل في خلوة مع الله لتتأمَّل أسرار محبَّته الفائقة، وتتعرف علي أمجاده في داخلها. هذا وبناء البرج كما رأينا إنما يعني خلال صداقتنا مع ربَّنا يسوع نصير به برجًا حصينًا، لا يقدر العدو أن يقتحم مقدَّسنا الداخلي، ولا يجد له فينا موضع راحة. فنقول مع السيِّد المسيح: "رئيس هذا العالم آتٍ، وليس له فينا شيء"! أما **في مثال الملك**، فيشير إلى صراع عدو الخير ضدنا، فهو إذ يرى برج حياتنا الداخليَّة يُبنى بالروح القدس ليتجلَّى رب المجد فيه، فترتفع نفوسنا إلى حضن الآب، يلتهب حسدًا وغيرة، ولا يتوقف عن محاربتنا بكل طرق الخداع ليحطم أعماقنا.

إن كان عدو الخير يصارع بكونه ملكًا يريد أن يقتنص الكل إلى مملكة الظلمة، فإننا كمؤمنين قد ارتبطنا بملك الملوك فصرنا "ملوكًا" (رؤ ١: ٦)، أصحاب سلطان روحي، لنا إمكانية العمل بالروح القدس لكي نغلب بالمسيح الذي "خرج غالبًا ولكي يغلب" (رؤ ٦: ٢).

ودعوتنا للصداقة مع المسيح الغالب هي دعوة للغلبة به، والتمتع بالإكليل السماوي وشركة أمجاده، لذا يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**:

[ماذا يعني هذا؟ "مصارعتنا ليست مع دمٍ ولحمٍ، بل مع الرؤساء مع السلاطين مع ولاة العالم على ظلمة هذا الدهر، مع أجناد الشر الروحيَّة في السماويَّات" (أف ٦: ١٢).

لنا نحن أيضًا إكليل كما بالغلبة علي أعداء آخرين: الفكر الجسداني، الناموس الثائر في أعضائنا، الشهوات بأنواع كثيرة: شهوة اللذة وشهوة الجسد وشهوة الغنى وغيرها، نصارع مع هذه كفرقة عنيفة من الأعداء.

كيف نغلب؟ بالإيمان "بالله نصنع ببأس، وهو يدوس أعدائنا" (مز ٦٠: ١٢)... يحدثنا أحد الأنبياء القدِّيسين عن هذه الثقة، قائلاً: "هوذا السيِّد الرب يعينني، من هو الذي يعيرني؟!" (إش ٥٠: ٩ الترجمة السبعينيَّة)، ويترنم أيضًا داود الإلهي، قائلاً: "الرب نوري ومخلِّصي ممن أخاف؟! الرب عاضد حياتي ممن أجزع؟!" (مز ٢٧: ١). هو قوتنا، وبه ننال النصرة، إذ يعطينا السلطان أن ندوس

على الحيات والعقارب وكل قوَّة العدو[١].]

❖ الملك هو الخطيَّة التي تملك علي أعضائنا (رو ٦: ١٧، ٢٥)، لكن فهمنا (الروحي) قد خُلق ملكًا، فإن أراد أن يحارب ضد الخطيَّة لينظر أن يعمل بكل ذهنه.

الأب ثيؤفلاكتيوس

إذ يخرج المسيحي الحقيقي للحرب الروحيَّة يلاقي بعشرة آلاف من يأتيه بعشرين ألفًا [٣١]، فإنه يمثل "القطيع الصغير" (١٢: ٣٢) الذي يُسر الآب أن يعطيه ملكوت السماوات. يبدو في المظهر أقل وأضعف أمام مقاومة عدو الخير لكنه بقدر ما يترك "جميع أمواله" [٣٣]، أي لا يتكل على ذاته، ولا بره الذاتي، ولا إمكانياتهن يصير ملحًا جيدًا يملح حتى الآخرين فلا يفسدوا.

يحمل المسيحي "عشرة آلاف"، لأن رقم ١٠ تشير للوصايا ورقم "١٠٠٠" يشير إلى الفكر الروحي السماوي. فإنه يحارب بالمسيح يسوع سالكًا في الوصيَّة بالفكر السماوي. أما عدو الخير فيأتيه كملك له "عشرون ألفًا" إذ يحاربه بحروب روحيَّة (١٠٠٠) خلال ضربة الشمال (١٠) وضربة اليمين (١٠)، تارة يثير فيه الشهوات كضربة شماليَّة، وأخرى يثير فيه البرَّ الذاتي كضربة يمينيَّة.

أما سّر الغلبة فهو ترك كل شيء [٣٣]، ليكون الله هو الكل في الكل، والتسلَّح بالملح الجيد، أي الوصايا الإلهيَّة كما يقول **القدِّيس كيرلس الكبير**[٢] التي هي لخلاصنا، فإن احتقرنا كلمة الله ووصاياه تتحول حياتنا إلى الفساد فلا نصلح لشيء. وقد سبق لنا الحديث عن الملح الجيد في شيء من التوسع[٣].

---

[1] *In Luc Ser 105.*
[2] *In Luc Ser 105.*

[٣] الإنجيل بحسب متى (مت ٥: ١٣).

الأصحاح الخامس عشر

صداقته للخطاة

إذ حدثنا الإنجيلي عن أساسيات الصداقة الإلهيَّة الآن يحدثنا عن صديقنا العجيب الذي يطلب الخطاة ويبحث عن المفقودين ويفتح أحضانه لكل ضال يرتد إليه، يقدَّم لنا خلال الأمثلة أبوته الحانية وشوقه الإلهي نحو الإنسان وبحثه عن كل نفس.

١. مثل الخروف الضال ١-٧.

٢. مثل الدرهم المفقود ٨-١٠.

٣. مثل الابن الضال ١١-٣٢.

١. مثل الخروف الضال

يكشف معلمنا لوقا البشير عن مدى شوق الله وسعيه نحو الإنسان وفرح السمائيين بخلاصه وعودته إلى الشركة معهم خلال هذا المثل، إذ يقول:

"**وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه.**

فتذمر الفرِّسيُون والكتبة، قائلين: هذا يقبل خطاة ويأكل معهم.

فكلمهم بهذا المثل، قائلاً:

أي إنسان منكم له مئة خروف،

وأضاع واحدًا منها ألا يترك التسعة والتسعين في البريَّة

ويذهب لأجل الضال حتى يجده؟!

وإذا وجده يضعه علي منكبيه فرحًا.

ويأتي إلى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران،

قائلاً لهم: افرحوا معي لأني وجدت خروفي الضال.

أقول لكم أنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب

أكثر من تسعة وتسعين بارًا لا يحتاجون إلى توبة" [١-٧].

يربط **القدِّيس أمبروسيوس** بين هذه الأمثال الثلاثة التي ضربها رب المجد يسوع بخصوص الاهتمام بخلاص الخطاة، قائلاً:

[يشير علينا الطبيب الصالح بأدويَّة لشفاء الضلال، إذ لا يرفض الديان الرحوم الرجاء في إعطاء المغفرة. وقد قصد القدِّيس لوقا أن يذكر ثلاثة أمثال متتاليَّة: الخروف الضال الذي وُجد، والدرهم المفقود الذي وُجد، والابن الضال الذي كان ميتًا فعاش، لكي يدفعك بهذا الدواء الثلاثي لنوال الشفاء من جراحاتك، إذ الخيط المثلوث لا ينقطع سريعًا (جا ٤: ١٢).

من هم هؤلاء: الأب والراعي والمرأة؟ الأب هو الله الآب، والراعي هو المسيح، والمرأة هي الكنيسة.

المسيح (الراعي) يحملك في جسده، إذ يحمل خطاياك في جسده، والكنيسة تبحث عنك، والآب يقبلك...

الفادي يعين، والكنيسة تهتم، والآب يتصالح. يا لرحمة العمل الإلهي!...

الخروف المُتعب يرجعه الراعي، والدرهم المفقود تجده الكنيسة، والابن يرجع إلى طريق الآب، قادمًا بملء التوبة عن الضلال الذي يدينه[1].]

يكمل **القدِّيس أمبروسيوس** حديثه معلقًا علي مثل الخروف الضال، قائلاً:

[لنتهلل إذن من أجل هذا الخروف الذي ضل في آدم وقام في المسيح.

منكبا المسيح هما ذراعا الصليب، حيث وُضعت خطاياي علي هذه الخشبة المحيية فاسترحت...

ابن الإنسان جاء ليخلص ما قد هلك (١٩: ١٠)، يخلصنا جميعًا، "لأنه كما في آدم يموت الجميع، هكذا في المسيح سيحيا الجميع" (١ كو ١٥: ٢٢).

الراعي غني، فنحن جميعًا نمثل واحدًا من مئة من ميراثه؛ له رعيَّة عظيمة من الملائكة ورؤساء الملائكة والسلاطين والسيادات (كو ١: ١٦)؛ له رعيَّة في الأعالي. ولأنهم حكماء يتهللون بفداء البشر، الأمر الذي يدفعنا بالأكثر إلى الصلاح.

لنعرف أن تجديدنا يبهج جمهور الملائكة، فنطلب شفاعتهم وعونهم ولا نغضبهم. لتكن مفرحًا للملائكة، إذ يبتهجوا برجوعك[2].]

جذب هذا المثل قلب الكنيسة منذ العصر الرسولي الأول، إذ ترى فيه الراعي الصالح الذي يبدو كمن ترك التسعة والتسعين خروفًا – أي السمائيين – ليبحث عن الإنسان بكونه خروفه الضال، جاء كلمة الله متجسدًا، حاملاً كل المتاعب حتى الصليب، ليدخل إلى القبر ويختطف الإنسان الساقط من أعماق الجحيم، محطمًا كل قوى الظلمة، ليردنا إلى بهجة خلاصه. هذا وقد أبرز هذا المثال علاقتنا

---

[1] *In Luc 15: 1-7.*
[2] *In Luc 15: 1-7.*

أيضًا بالسمائيين الذين يفرحون برجوعنا، ويتهللون بشركتنا معهم في التسابيح السمائية والتمتع بالأمجاد الأبديَّة...

لقد وجد الرعاة في هذا المثال ينبوعًا حيًا للحب الرعوي الصادق، كما وجد فيه الخطاة رجاءً لا ينقطع بقبول كل نفس مهما كان فسادها. وإنني أكتفي بعرض القليل من تعليقات بعض الآباء على هذا المثال:

❖ لست أريد أن يخلص الكثيرون بل الكل، فإن بقى واحد في الهلاك أهلك أنا أيضًا. يبدو لي أنه يجب الإقتداء بالراعي الذي له التسعة والتسعون خروفًا لكنه أسرع وراء الخروف الضال[1].

❖ الخروف الذي انفصل عن التسعة والتسعين ثم عاد ثانية لا يمثل بالنسبة لنا إلا المؤمن الذي سقط ثم عاد، إذ هو منتمي للبقيَّة، وكان موضع رعاية نفس الراعي، وقد ضل عن الشركة، وصار تائهًا علي الجبال وفي الوديان في رحلة طويلة، مبتعدًا عن طريق الحق[2].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ رقم ١٠٠ عدد كامل؛ كان لله مائة خروف حين خلق الملائكة والبشر، ولكن خروفًا فُقد، إذ أخطأ الإنسان وترك مراعي الحياة. لكن راعيهم ترك التسعة والتسعين في البريَّة، ترك كل طغمات الملائكة العلويين في السماء.

كيف دُعيت السماء بريَّة [٤]؛ إلا لأنها كما لو تُركت؟! لقد هجرها الإنسان عندما أخطأ، لكن بقى التسعة والتسعون في البريَّة بينما خرج الله يبحث عن الخروف الضال علي الأرض.

لقد نقص عدد الخليقة العاقلة – أي الملائكة والبشر– الذين خُلقوا لرؤية الله، إذ سقط الإنسان، وكان لابد أن يكمل العدد في السماء، لهذا نزل الله إلى الجنس البشري على الأرض.

ما يدعوه لوقا بالبريَّة يذكره متى في نفس الموضوع بالجبال (مت ١٨: ١٢) ليشير إلى أن التسعة والتسعين لم يضلوا بل بقوا في الأعالي في السموات.

وإذ وجده يضعه علي منكبيه (كتفيه) فرحًا. حمل الخروف علي كتفيه، إذ حمل طبيعتنا البشريَّة، وحمل خطايَّانا.

إذ يرجع إلى بيته يدعو الأصدقاء والجيران، قائلاً لهم: افرحوا معي لأني وجدت خروفي الضال [٦]. إذ يجد الخروف الضال يعود إلى البيت، إذ عاد راعينا إلى السماء عندما خلّص الإنسان. هناك

---

[1] *Ad Eutropius 2: 5.*
[2] *To the Fallen Theodore 1: 7.*

وجد أصدقاءه وجيرانه، طغمات السمائيين الذين هم أصدقائه الحقيقيون، الذين لا يتأرجحون بل يحملون إرادته على الدوام. إنهم جيرانه، إذ ينعمون برؤية واضحة له خلال الاستماع له بلا انقطاع.

يليق بنا أن نلاحظ أنه لم يقل: "افرحوا مع الخروف الراجع" بل "افرحوا معي"، لأن فرحه هو حياتنا، وعندما نرجع إلى السماء يكمل فرحه.

"**أقول لكم: أنه هكذا يكون فرح في السماء بخاطئ واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارًا لا يحتاجون إلى توبة**" [٧]. يلزمنا أن نتأمَّل أيها الاخوة لماذا يقول ربَّنا أنه يكون فرح في السماء بالخطاة التائبين أكثر من مثابرة الأبرار. أليس بخبرتنا العامة نجد كثيرين ممن لم يتثقلوا في ضمائرهم بحمل الخطيَّة، الذين يسلكون طريق العدل، وهم غرباء عن المحرمات لا يشعرون برغبة شديدة لبلوغ البيت السماوي... نجدهم متراخين في ممارسة أعظم الفضائل الهامة إذ يشعرون أنهم لم يرتكبوا آثامًا خطيرة. من الجانب الآخر أحيانًا إذ يشعرون أنهم ارتكبوا الخطيَّة يتلامسون مع تبكيت الضمير ويلتهبون بمحبَّة الله، فيمارسون فضائل أعظم. يواجهون كل الصعوبات بشجاعة وبأكثر قداسة، تاركين كل الأمور الدنيويَّة، هاربين من الكرامات، مبتهجين بالإهانات الصادرة ضدهم من الغير، تلتهب فيهم الرغبات السماويَّة والشوق نحو بلوغ البيت الأبدي. إذ يتحقَّقون أنهم قد ضلوا بعيدًا عن الله تصير معاصيهم القديمة دافعًا للمكاسب الأخيرة. لهذا يكون فرح في السماء بخاطىء يتوب عن استمرار بار في بره. وذلك كما في المعركة يُسرّ القائد حين يرى الجندي الذي سبق فهرب قد عاد ليحارب العدو بأكثر شجاعة، من ذاك الذي لم يهرب لكنه يمارس عملاً غيورًا. وأيضًا كالعامل الذي يُقدر الأرض التي كانت تنتج شوكًا وحسكًا وصارت تنتج ثمرًا وفيرًا أكثر من تقديره للأرض التي لم يكن بها أشواك، لكنها لا تقدِّم محصولاً خصبًا.

ومع هذا كله لا نستطيع أن ننكر أنه يوجد في حياة بعض الأبرار من يسبّبون فرحًا، هكذا لا يُحسب أقل من الفرح بعودة الخاطىء...

لكنه يوجد أناس يمارسون حياة الإماتة كما لو كانوا قد ارتكبوا كل خطايا العالم، مع أنهم لم يرتكبوا جريمة معينة. هؤلاء يرفضون كل راحة حتى ما هو محلّل، مرحّبين بسخريَّة الغير لهم، ولا يسمحون لأنفسهم بأقل لذة، بل يزهدون حتى الملذّات التي يسمح لهم بها، يحتقرون الماديات وتلتهب اشتياقاتهم بغير المنظورات، يجدون لذتهم في الألم والتواضع في كل شيء، وإذ يبكي البعض علي أعمال خطاياهم ينتحب هؤلاء علي خطايا الفكر[١].

---

[1] *In Evang. hom 34.*

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ القطيع هو مئة، واحد منه قد ضلّ، الذي هو الأسرة التي على الأرض، هذا الذي يطلبه راعي الكل تاركًا التسعة والتسعين في البريَّة، هل لأنه لا يهتم بالكثيرين أظهر رحمته بالواحد؟ لا... بل لأن الكثيرين في آمان، محروسين بيده القادرة. لذلك بحق يجب إظهار الرحمة بذاك الذي فُقد، الأمر الذي تحتاج إليه الجموع الباقيَّة، فبعودة ذاك الواحد يعود الجمال للمئة. البحث وراء المفقود لا يعني استهانة بالذين لم يخطئوا، إنما يليق إظهار النعمة والرحمة والحب للبشريَّة، كأمر يناسب الطبيعة السامية العلويَّة، تمنحها للخليقة الساقطة[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ إن لم يضعني الراعي الصالح على ذراعيه، ويردني إلى القطيع ثانية، تبقى خطواتي تترنح، وكلما أقوم مجاهدًا أجد قدَّميّ تهويان أكثر[٢].

القدِّيس جيروم

❖ الذي وضع حياته من أجل خرافه بحث عن الضال على الجبال والتلال... وإذ وجده حمله على كتفيه اللذين حملا خشبة الصليب[٣].

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ أظهر السيِّد غيرته العظيمة (على الضعيف والصغير) بتركه الذين خلصوا مهتمًا بالواحد ليفرح به[٤].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما وجد الراعي الخروف لم يعاقبه، ولا سحبه إلى القطيع (كما بالعنف)، بل وضعه على كتفه، حمله برفق وضمه للقطيع[٥].

القدِّيس غريغوريوس النيسي

٢. الدرهم المفقود

---

[1] *In Luc Ser 106.*
[2] *Ep. 2: 1.*
[3] *On the Theophany or Birth of Christ, 14.*
[4] *In Matt. Hom 59: 5.*
[5] *De Mul. Pecc.*

يكشف المثال السابق عن حب الراعي، الذي أخلى ذاته ونزل إلى أرضنا باحثًا عن الإنسان المتكبر، لا ليعنفه، ولا ليجرح مشاعره، بل بالحب يضمه إلى صدره، ويحمله على كتفيه ويرده إلى جمهور السمائيين. وفي المثل التالي يقدّم لنا صورة لما يجب أن تكون عليه الكنيسة عروس الراعي، والحاملة ذات سماته الخاصة تجاه الساقطين، تبحث بالحب عنهم وتترفق بهم وتبتهج برجوعهم، إذ يقول:

"أو أية امرأة لها عشرة دراهم إن أضاعت درهمًا واحدًا
ألا توقد سراجًا، وتكنس البيت، وتفتش باجتهاد حتى تجده؟!
وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات، قائلة:
"افرحن معي لأني وجدت الدرهم الذي أضعته".
هكذا أقول لكم يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب" [٨-١٠].

❖ بالمثل السابق أشار الخروف الضال إلى العائلة التي على الأرض، إذ نعرف أننا ملك الله إله الكل الذي يخلق الموجودات من العدم، وكما كتب: "هو خلقنا وليس نحن" (مز ١٠٠: ٣)، وأيضًا: "هو إلهنا ونحن شعب مرعاه وغنم يده" (مز ٩٥: ٧). وبهذا المثل الثاني الذي فيه يقارن المفقود بدرهم، وأنه واحد من عشرة، أي من رقم كامل... واضح أننا نحمل الشبه الملوكي والصورة الملوكيَّة التي لإله الكل، لأن الدرهم كما أظن مختوم عليه الشبه الملوكي. فإن كنا قد سقطنا وصرنا مفقودين، وجدنا المسيح وشكلّنا بالقداسة والبّر على صورته، الأمر الذي لا يشك فيه أحد إذ كتب الطوباوي بولس هكذا: "ونحن جميعًا ناظرين مجد الرب بوجه مكشوف كما في مرآة، نتغير إلى تلك الصورة عينها، من مجدٍ إلى مجدٍ كما من الرب الروح" (٢ كو ٣: ١٨). وبعث إلى أهل غلاطيَّة هذه الكلمات: "يا أولادي الذين أتمخض بكم أيضًا إلى أن يتصور المسيح فيكم" (غل ٤: ١٩).

لقد تم البحث عما قد سقط، فأضاءت المرأة السراج، وكما قلت لقد وُجدنا نحن بواسطة حكمة الله الآب، الذي هو الابن، عندما أشرق بنوره الإلهي العقلي علينا، وأشرقت الشمس، وانفجر النهار وطلع كوكب الصبح (٢ بط ١: ١٩) كقول الكتاب. فقد قال الله أيضًا في موضع آخر بواسطة أحد الأنبياء القدّيسين عن المسيح مخلِّصنا نحن جميعًا: "يقترب برّي سريعًا، وتعلن رحمتي، ويتقد خلاصي كمصباح" (إش ٦٢: ١ الترجمة السبعينيَّة). كما قال السيِّد عن نفسه: "أنا نور العالم" (يو ٨: ١٢)، كما قال : "أنا قد جئت نوراً إلى العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة" (يو ١٢: ٤٦).

إذن بالنور قد خلص ما قد هلك، فصار فرح للقوات العلويَّة[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ فرح هذه المرأة التي وجدت الدرهم المفقود ليس بقليل الأهمية، لأن الدرهم عليه صورة الملك. هذه الصورة نملكها في الكنيسة.... أقول ليتنا كخراف نتضرع لله كي يقودنا إلى مياه الراحة (مز ٢٢: ٢) ونطلب المراعي، وكدراهم فلنحتفظ بقيمتنا (نحمل صورة الملك فينا) وكأبناء نرجع إلى أبينا[2].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ المرأة هنا والراعي يحملان ذات المعنى، إذ يمثلان الله وحكمة الله.

لما كان الدرهم عملة تحمل صورة، هكذا المرأة التي تفقد الدرهم تعني عندما يشرد الإنسان المخلوق على صورة الله، إذ يفقد تشبهه بخالقه بسبب الخطيَّة.

تضيء المرأة سراجها [٨]، إذ ظهرت حكمة الله للبشر. فالسراج في بساطة هو نور يوضع على حامل، أما هنا فالنور هو اللاهوت اتَّخذ ناسوتًا (صار إنسانًا). ذاك الذي هو الحكمة يتحدَّث عن منارة جسده بكلمات المزمور: "يبست مثل شقفة قوتي" (مز ٢٢: ١٥). كما أن الطين يتثقل بالنار، هكذا جفت قوَّته كذاك الطين، بمعنى أنه باحتماله آلامه تقوىّ الجسد الذي حمل مجد القيامة. أُوقد السراج مرة وفُتش البيت، فإنه ما أن ظهر لاهوته في الجسد حتى ارتعب ضمير الإنسان بحقيقة خطيته العظيمة (كأنه بالبيت الذي فُتش رأسًا على عقب).

جاءت الكلمة "*Evertere*" التي تعني انقلابًا للشيء (رأسًا على عقب) لا تختلف عما وردت في بعض المخطوطات "*Emundre*" التي تعني "كنس"، فإنه ما لم ينقلب العقل الذي انحط وذلك بالخوف لا يمكن أن يُنظف (يُكنس) من عاداته الرذيلة.

إذ فُتش البيت وُجد الدرهم، إنه إذ يرتبك ضمير الإنسان (على خطاياه) يكتشف صورة خالقه.

"**وإذا وجدته تدعو الصديقات والجارات، قائلة: افرحن معي، لأني وجدت الدرهم الذي أضعته**" [٩]. من هن هؤلاء الصديقات والجارات إلا القوات السمائية الذين تحدَّثنا عنهم قبلاً؟! هؤلاء دائمًا بالقرب من الحكمة الإلهيَّة لأن النعمة تنيرهم بحضورها الدائم.

لكن، لنفكر في هذه الأمور، ولا ننسى السبب لماذا قيل عن هذه المرأة التي تمثل الحكمة الإلهيَّة عشرة دراهم، فقدت واحدًا ثم عادت فوجدته بعد البحث. لقد خلق الله الملائكة والبشر لكي يتعرفوا

---

[1] *In Luc Ser. 106.*

[2] *In Luc 12: 8- 10.*

عليه، وإذ وهبهم الحياة الأبديَّة شكلهم بلا شك على صورته. كان للمرأة عشرة دراهم، لأن الملائكة تسع طغمات. وكان لابد أن يتم رقم المختارين بخلقه الإنسان، هذا الذي لم يُفقد حتى بعد العصيان إذ أضاء حكمة الله الأبديَّة على الكل لتظهر بالمعجزات التي تممها على الأرض مصلحًا مما أفدسته الخطيَّة بنور حضوره الجسدي كسراج على المنارة[١].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ من هي المرأة ؟ إنها جسد المسيح. ما هو السراج؟ "هيأت سراجًا لمسيحي" (مز ١٣٢: ١٧)، لذلك كان يُبحث عنا حتى نوجد، وإذ نوجد ننطق. ليتنا لا نفتخر لأننا قبلاً لم نكن موجودين بل كنا نبقى هكذا مفقودين لو لم يُبحث عنا[٢].

القدِّيس أغسطينوس

❖ لقد أشعل السراج، أي جسده، وكنس البيت بتطهير العالم من الخطيَّة وطلب العملة والصورة الملوكيَّة التي طمستها الأهواء. أنه يدعو أصدقاءه، أي القوات الملائكيَّة عندما يجد عملته ليشاركوه فرحه، إذ سبق فجعلهم يشتركون (بالتسبيح) في سّر تجسده[٣].

❖ هذا هو غاية الله فينا، إذ صار إنسانًا من أجلنا وافتقر (٢ كو ٨: ٩) لكي يقيم جسدنا (رو ٨: ١١)، ويرد صورته فينا (لو ١٥: ٩؛ ١ كو ١٥: ٤٩)، ويجدد الإنسان لنصير كلنا واحدًا فيه[٤].

القدِّيس غريغوريوس النزينزي

❖ يُقال أنه يكون فرح عظيم وعيد مبهج في السماوات عند الآب مع ملائكته عند عودة خاطئ واحد وتوبته[٥].

القدِّيس إكليمنضس السكندري

❖ السماوات والملائكة الذين فيها يفرحون بتوبة الإنسان.

آه أيها الخاطئ كن في بهجة صالحة!

انظر كيف يكون فرح في الرجوع والتوبة؟![٦]

---

[1] *In Evangelia 34.*
[2] *In Luc 12: 8-10.*
[3] *Oration on Easter 2: 26.*
[4] *Panegyric on S. Caeserius 23.*
[5] *Who is the Rich Man that is saved? 39.*
[6] *On Repentence 8.*

العلامة ترتليان

٣. مثل الابن الضال

يُدعى "مثل الابن الناصح" أو "مثل الأب المحب"، لأنه بقدر ما يكشف عن جفاف قلب الابن الهارب من وجه أبيه المحب يشتاق الأب إلى عودته، ليستقبله بالقبلات، دون عتاب أو جرح لمشاعره، بينما وقف أخوه خارجًا في تذمر من أجل محبَّة الأب له.

"**وقال: إنسان كان له ابنان.**
فقال أصغرهما لأبيه:
يا أبي أعطني القسم الذي يصيبني من المال،
فقسم لهما معيشته.
وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الأصغر كل شيء
وسافر إلى كورة بعيدة،
وهناك بذر ماله بعيش مسرف" [١١-١٣].

في المثلين السابقين لم يكتفِ السيِّد المسيح بالكشف عن علاقة الله بالإنسان، إذ يبحث الله عنه كالراعي نحو خروفه الضال أو كالمرأة التي تضيء السراج وتنقب البيت وتفتشه من أجل الدرهم المفقود، وإنما كشف أيضًا عن علاقة السمائيين بنا. ففي المثل الأول ظهروا كتسعة وتسعين خروفًا لا يكمل عددهم إلا بعودتنا حيث تفرح السماء بخاطئ واحد يتوب، وكتسعة دراهم تكمل بنا نحن الدرهم المفقود. أما في المثل الذي بين أيدينا فيقدَّم صورة مُرّة لعلاقة الإنسان بأخيه، فيظهر الأخ الأكبر بالرغم مما يبدو عليه من تعقل وأمانة في العمل، لكنه لا يستطيع بسهولة أن يتقبل أخاه الراجع إلى بيت الآب، بل يقف موقف الناقد لأبيه على اتساع قلبه للابن الراجع إليه. على أي الأحوال ظهور ابنين في المثل يكشف عن أمور كثيرة نذكر منها:

أولاً: لا يمكن الحكم على أحد مادام لا يزال في طريق الجهاد. فقد ظهر الأصغر في بدء حياته إنسانًا محبًا للملذّات، عنيفًا في معاملاته، إذ يطالب أباه بالميراث وهو بعد حيّ، مبددًا للوزنات غير أمين فيما بين يديه... لكنه يرجع بالتوبة إلى الأحضان الأبويَّة ليظهر لابسًا الثوب الجديد وخاتم البنوة وحذاء في قدَّميه ومتمتعًا بالوليمة في بيت أبيه. أما الآخر فقد بدأ حياته إنسانًا لطيفًا في معاملاته، يخدم والده، ولا يطلب أجرة يبقى في بيت أبيه، لكنه يختم حياته بالوقوف خارجًا ينتقد أباه على حبه، ويغلق قلبه نحو أخيه، فيفقد سلامه الداخلي وفرحه ليعيش بقلب مناقض لقلب أبيه.

ثانيًا: يبدو أن البعض ظن أن الابنين يشيران إلى الطغمات الملائكيَّة والجنس البشري فالابن الأكبر يشير إلى الملائكة القدِّيسين الذين يعيشون بتعقل والأصغر يشير إلى الجنس البشري الذي ترك بيت أبيه بالعصيان وقد عاد مرة أخرى خلال التوبة. وقد رفض **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** هذا الرأي، قائلاً: [إن الابن الأكبر قد ثار عند عودة أخيه وسلامه بينما يقول الرب: يكون فرح في السماء بخاطىء واحد يتوب[1].] ويقول **القدِّيس كيرلس الكبير:** [إن أشرنا للابن المستقيم بكونه الملائكة القدِّيسين لا نجد الحديث مناسبًا، ولا يحمل مشاعرهم نحو الخطاة التائبين، الذين يتحولون من الحياة الدنسة إلى السلوك المستحق للإعجاب، إذ يقول الرب مخلِّص الجميع: "**يكون فرح في السماء أمام الملائكة القدِّيسين بخاطىء واحد يتوب**" (راجع لو ١٥: ٧). وأما الابن (الأكبر) المذكور في المثل الذي أمامنا، وإن كان مقبولاً لدى أبيه، ويسلك في حياة بلا لوم لكنه يعود فيظهر غاضبًا ومتماديًا في عدم محبَّته والظهور بلا إحساس، حاسبًا أن أباه مخطئًا لإظهار مشاعر الحب الطبيعيَّة نحو ذاك الذي خلص... هذا مغاير لمشاعر الملائكة القدِّيسين، الذين يفرحون ويمجدون الله عندما يرون سكان الأرض يخلصون. فعندما خضع الابن لكي يولد من امرأة حسب الجسد في بيت لحم حملوا الأخبار المفرحة للرعاة، قائلين: "لا تخافوا، فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب، أنه ولد لكم اليوم في مدينة داود مخلِّص هو المسيح الرب" (٢: ١١). وإذ توجوا بالمديح والحمد لذاك الذي ولد، قالوا: "المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وبين الناس الإرادة الصالحة[2]"]

أما التفسير الذي قبله غالبية الآباء فهو أن الابنين يشيران إلى البشريَّة من جهة علاقتها بالله، فقد انقسمت إلى فريقين: اليهود والأمم. الابن الأكبر يمثل الشعب اليهودي الذي يُحسب بكرًا في معرفة الله، إذ قبل المواعيد الإلهيَّة والناموس والنبوات قبل سائر الأمم، والابن الأصغر يمثل الأمم التي لم تكن لها علاقة صادقة مع الله بل بددوا عطايا الله (الناموس الطبيعي) كما في عيش مسرف خلال الانغماس في عبادة الأصنام والرجاسات الوثنية، لكن عادت الأمم إلى الله ليصير الآخرون أولين، بينما تأخر اليهود خلال حسدهم للأمم ووقفوا خارج بيت الإيمان جاحدين الله وناقدين محبَّته للأمم.

يرى **القدِّيس كيرلس الكبير** أن الابن الأكبر لا ينطبق على اليهود، لأن اليهود لم يسلكوا حياة مستقيمة، بل كثيرًا ما انحرفوا إلى العبادة الوثنية وانغمسوا في رجاساتها، وقد جاء في إرميا: "ماذا وجد فيّ آباؤكم من جور حتى ابتعدوا عني، وساروا وراء الباطل، وصاروا باطلاً؟!" (أر ٢: ٥)، وفي إشعياء: "هذا الشعب قد اقترب إليّ بفمه، وأكرمني بشفتيه، وأما قلبه فأبعده عني، باطلاً يخافونني،

[1] *De Petre et duob. Filiis.*
[2] *In Luc Ser 107.*

وصيَّة الناس مُعلمة" (إش ٢٩: ١٣). لهذا يرى **القدِّيس كيرلس الكبير** أن الابن الأكبر ينطبق بالأكثر على جماعة الفرِّيسيِّين الذين يفتخرون أنهم يسلكون بالبرّ حسب الناموس، لكنهم في كبرياء يرفضون حب المخلِّص للخطاة والعشارين، عوض الفرح والبهجة بخلاصهم.

ثالثًا: كان الابن الأصغر متجاسرًا، إذ طلب نصيبه من الميراث ووالده لا يزال حيًا، أراد أن يتمتع بنصيبه بخروجه خارج بيت أبيه، حاسبًا الارتباط ببيت أبيه هو مذلة وعبوديَّة وقيد، يجب التحرَّر منه، ليعيش حسب إرادته الذاتيَّة وهواه، فإذا به ينفق ماله في عيش مسرف.

يا للعجب فإن الإنسان الذي وهبه الله، أبوه السماوي، عطيَّة الإرادة الحرة، كأعظم هبة يستخدمها ضد الله نفسه، فيحسب هذه الحريَّة لن تتحقَّق إلا بالعصيان والخروج عن دائرة طاعة الله ومحبَّته والتمثل بإرادته!

النصيب الذي بدده الأممي في عيش مسرف هو الناموس الطبيعي الذي أساء استخدامه، إذ يقول الرسول بولس عن الأمم: "لأنهم لما عرفوا الله لم يمجدوه أو يشكروه كإله، بل حمقوا في أفكارهم، وأظلم قلبهم الغبي، وبينما هم يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء" (رو ١: ٢١-٢٢). أما اليهودي فنال نصيبًا أعظم ليبدده، إذ لم يسئ استخدام الناموس الطبيعي فحسب، وإنما أيضًا الناموس الموسوي، فعوض أن يقوده للتوبة والاشتياق نحو المخلِّص للتمتع بالخلاص الأبدي سقط في الكبرياء وحسب نفسه أفضل من غيره فلم يدخل الملكوت ولا ترك الآخرين يدخلون. وأما المسيحي الساقط في البر الذاتي فهو أبشع من الاثنين لأنه إذ يتمتع ببركات جديدة وعطايا إلهيَّة فائقة يستغلها للشر. وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [قد بددنا ميراث كرامتنا الروحيَّة التي نلناها في الملذّات الأرضية[١].] على أي الأحوال، يفتح ربَّنا يسوع خلال هذا المثل أبواب الرجاء للجميع، فإن كنا قد بددنا العطايا الطبيعيَّة أو أخطأنا في حق الوصيَّة أو النعمة المجانية، لا يزال الله ينتظرنا فاتحًا ذراعيه ليتقبلنا كأولاد له نعود إلى بيت أبينا.

في شيء من التوضيح نقول إن كان الإنسان قبل الناموس تمتع أيضًا ببعض الدوافع والغرائز الطبيعيَّة كالحب والخوف والغضب والأبوة أو الأمومة، إنما لتعمل لبنيان الإنسان في الرب، فيكون قادرًا على محبَّة الله والخوف من الشر والغضب ضد الإثم وممارسة الوالديَّة لبنيان أبنائنا روحياً واجتماعيًا ونفسانيًا. فإذ ينحرف الإنسان، عوض حب الله يحب ملذّاته الجسديَّة، ويتحول الحب إلى شهوة جسديَّة. حتى في محبَّته للغير يتقوقع حول "الأنا"، فيطلب ما لجسده أو لذاته تحت ستار الحب،

[1] *In Luc 15: 11- 32.*

كما فعلت امرأة فوطيفار التي ظنت أنها أحبت يوسف جدًا. فأسلمته للسجن حين رفض تقديم الملذّات لجسدها. وأيضًا ما فعله أمنون بأخته التي مرض جدًا بسبب حبه لها، وإذ سقط معها، أذلها وطردها، إذ أبغضها للغاية. وما نقول عن الحب ينطبق على كل الدوافع الطبيعيَّة، كأن يتحول خوفنا من الشر إلى خوف من الناس وجبن من أحداث المستقبل وقلق وارتباك الخ.

ونحن إذ قبلنا الإيمان وصارت لنا عطايا إلهيَّة فائقة، صارت إمكانياتنا أعظم. لكن أن أهملناها يكون السقوط أبشع! لذا فسقوط المؤمن في الخطيَّة غالبًا ما يكون أكثر خطرًا من سقوط غير المؤمن، لأنه يسيء استخدام العطايا التي للبنيان، محولاً إيَّاها للهدم.

نعود إلى هذا الابن لنراه هاربًا من بيت أبيه، حاسبًا في هذا تمتعًا بالحريَّة، وكما يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [من يبتعد عن الكنيسة يبدد ميراثه[١].]

ويقول **الشهيد كبريانوس:** [من يبقى خارج الكنيسة فهو خارج معسكر المسيح[٢].] [من ليس له الكنيسة أمًا، لا يقدر أن يكون الله أباه[٣]!]

رابعًا: يقول: "**وسافر إلى كورة بعيدة**" [١٣]. ما هي هذه الكورة البعيدة التي يمكن للإنسان أن يهرب إليها إلا "الأنا"؟ فينطلق الإنسان في كمال حريته بغباوة من الحياة السماويَّة، التي هي "الحب"، إلى الأنانية حيث يتقوقع حول ذاته، فيصير كمن هو في كورة بعيدة، لا عن الله فحسب، بل وعن الناس، وعن محبَّته لخلاص نفسه. خلال "الأنا" يفقد الإنسان التصاقه الداخلي بالكل، حتى وإن ظهر في أعين الآخرين اجتماعيًا ولطيفًا وسخيًا في العطاء! "الأنا" هي انغلاق داخلي محكم، يحبس فيه الإنسان نفسه وحيويته، ليفقد إنسانيته، ويعيش في عزلة داخليَّة حتى عن أولاده وأهل بيته!

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لم يسافر الابن الأصغر إلى كورة بعيدًا، فيرحل عن الله مكانيًا، لأن الله حاضر في كل موضع، وإنما يرحل عنه بقلبه؛ إذ يهرب الخاطئ من الله ليبتعد عنه بعيدًا[٤].]
يقول **القدِّيس أغسطينوس**[٥] بأن هذا الرحيل هو اتكال الإنسان على ذاته وقوَّته الخاصة فيفقد عمل الله فيه، وعلى العكس الاقتراب من الله يعني الاتكال عليه، ليعمل فينا، فنصير على مثاله.

يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على السفر إلى كورة بعيدة، قائلاً: [الابتعاد الأعظم هو أن ينفصل الإنسان لا خلال المسافات المكانية وإنما خلال العادات، فلا يذهب إلى بلاد مختلفة بل يحمل

---

[1] *In Luc 15: 11- 32.*
[2] *Ep 43 to Antonius.*
[3] *Unity of Church 6.*
[4] *De Patre et duob. Filiis.*
[5] *On Ps 70; Quaest. Ev 2: 33.*

اتجاهات مختلفة... من ينفصل عن المسيح يتغرب عن الوطن، ويصير وطنه هذا العالم، أما نحن فلسنا بعد غرباء ونزلاء بل رعيَّة مع القدِّيسين وأهل بيت الله (أف ٢: ١٩)، لأنه "أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح" (أف ٢: ١٣). ليتنا لا نكن قساة على القادمين من كورة بعيدة، لأننا نحن أيضًا كنا بعيدين في كورة بعيدة... هي ظلال الموت... وقد صرنا أحياء في ظل المسيح، لذا تقول الكنيسة: "تحت ظله اشتهيت أن أجلس" (نش ٢: ٣)[1].]

خامسًا: حدوث مجاعة "فلما أنفق كل شيء، حدث جوع شديد في تلك الكورة، فابتدأ يحتاج" [١٤]. إذ تهرب النفس من الله مصدر الشبع وكنز الحكمة تجد نفسها قد دخلت إلى حالة فراغ داخلي، فتكون كمن في "مجاعة".

خُلقت النفس البشريَّة على صورة الله ومثاله، لن تشبع إلا به بكونه الأصل. العالم كله بإغراءاته، والجسد بشهواته، والحياة الزمنيَّة بكل أحداثها، لن تملأ فراغ النفس التي تتطلب ذاك اللانهائي لكي يملأها.

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [المجاعة التي اجتاحت تلك الكورة لم تكن مجاعة طعام، بل مجاعة للأعمال الصالحة والفضائل. هل يوجد أمر يحتاج إلى رثاء أكثر من هذا؟! فإن من يبتعد عن كلمة الله يصير جائعًا، لأنه "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله" (لو ٤: ٤). بالابتعاد عن الينبوع نعطش، وبالابتعاد عن الكنز نفتقر، وبالابتعاد عن الحكمة نصير جهلاء، وبالابتعاد عن الفضيلة نموت. إذن كان طبيعيًا (لهذا الابن) أن يحتاج، لأنه ترك الله الذي فيه كنوز الحكمة والعلم (كو ٢: ٣)، وترك أعماق الخيرات السمائية، فشعر بالجوع إذ لا يوجد ما يُشبع الإنسان الضال. الإنسان يصير في جوعٍ دائمٍ عندما لا يدرك أن الطعام الأبدي هو مصدر الشبع[2].]

سادسًا: رعايته للخنازير "فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورةk فأرسله إلى حقوله، ليرعى خنازير، وكان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، فلم يُعطه أحد" [١٥-١٦].

يقول **القدِّيس أمبروسيوس:**

[يبدو أن هذا الرجل يشير إلى رئيس هذا العالم، وقد أرسل (هذا الابن) إلى حقوله، التي بها يعتذر الشاري عن وليمة الملكوت (لو ١٤: ١٨)، وفيها يرعى الخنازير التي طلبت الشياطين أن تدخل فيها

[1] *In Luc 15: 11-32.*
[2] *In Luc 15: 11-32.*

فاندفعت إلى جرف هذا العالم (مت ٨: ٣٢). هذه الخنازير تعيش على النفايات والنتانة.

كان يشتهي أن يملأ بطنه من الخرنوب الذي كانت الخنازير تأكله، فلم يعطه أحد. الخاطئ لا همّ له سوى أن يملأ بطنه، إذ قيل "آلهتهم بطنهم" (في ٣: ١٩). الطعام المناسب لهم هو الخرنوب الفارغ في الداخل ولين في الخارج، الذي يملأ البطن بلا فائدة غذائية، وزنه أكثر من نفعه.

يرى البعض في الخرنوب إشارة للأجناد الشرِّيرة، أو ضعف الفضيلة البشريَّة، كمن لهم رونق في العظات دون فائدة، تجتذبهم الفلسفة الباطلة. لهم المظهر الخارجي البرّاق دون نفع. هذه الزينة الخارجيَّة لا يُكتب لها الدوام...

"**لم يعطِه أحد**"، إذ لا يمكن لأحد غير الله أن يهب الحياة[1].]

يقدَّم لنا **القدِّيس أغسطينوس**[2] ذات التفسير، إذ يرى هذا الإنسان هو "رئيس الهواء" الذي يدخل بالنفس المبتعدة عن الله إلى حقوله، أي يجعله تحت سلطانه، يخدم الأرواح الدنسة (الخنازير)، إذ يعمل لحساب الخطايا المتنوعة. أما الطعام الذي يقدَّمه فهو الخرنوب، أي التعاليم البشريَّة الجوفاء التي تبهج الشياطين وتملأ ذهن الخطاة لكنها لا تشبع النفس، فيعيش الخاطئ في حياة بلا سعادة، ويشعر كأنه لا يجد من يعطه شيئاً مشبعًا!

سابعًا: رجوعه إلى نفسه، "فرجع إلى نفسه، وقال: كم من أجير لأبي يفضل عنه الخبز وأنا أهلك جوعًا؟! أقوم وأذهب إلى أبي..." [١٧-١٨].

هذا هو بداية طريق التوبة: "**رجع إلى نفسه**"، ماذا يعني هذا؟ قلنا أن الابن الضال حين ترك أباه وسافر إلى كورة بعيدة، إنما ترك طريق الحب وتقوقع حول "الأنا" أو "الذات البشريَّة " ليعيش في أنانيته مؤلهًا ذاته، متمركزًا حول كرامته أو شبعه الجسدي أو ملذّاته. بهذا يكون بالحق قد انطلق حتى من "نفسه". فإنه إذ يتقوقع حول "الذات" إنما يحطم نفسه ويهلك حياته.

بمعنى آخر ليتنا نميز بين "الذات ego" وحب الإنسان لنفسه بمعنى حبه لخلاصها، هذا ما أكده السيِّد المسيح حين أعلن من يهلك نفسه يخلصها، بمعنى من يحطم "الأنا" فيه إنما يعيش في طريق الحب لا لله والناس والملائكة فحسب، وإنما يحب نفسه أيضًا خارج دائرة الأنانية. وهذا ما أعلنه الناموس حين طالبنا أن نحب قريبنا كأنفسنا، إذ يقول **القدِّيس أغسطينوس** من لا يحب نفسه، أي خلاصها الأبدي، كيف يقدر أن يحب قريبه؟!

---

[1] *In Luc 15: 11-32.*
[2] *Quaest Ev. 2: 33.*

إن كانت الخطيَّة هي تحطيم للنفس بدخول الإنسان إلى "كورة بعيدة" أي الأنا، فإن التوبة هي عودة الإنسان ورجوعه إلى نفسه ليعلن حبه لخلاصها، فيرجع بهذا إلى أبيه السماوي القادر على تجديد النفس وإشباعها الداخلي. بهذا إذ يرجع الإنسان إلى نفسه إنما يعود إلى كورة أبيه، ليمارس الحب كعطيَّة إلهيَّة، ويوجد بالحق كعضو حيّ في بيت الله يفتح قلبه لله وملائكته وكل خليقته حتى للمقاومين له.

❖ إن كان قد رجع إلى نفسه، فلأنه كان قد ترك نفسه، إذ سقط عن نفسه وتركها، لذلك يرجع أولاً إلى نفسه، لكي يرجع إلى حالته الأولى التي سقط منها.

❖ إذ سقط عن نفسه سقط عن أبيه.
إذ سقط عن نفسه انطلق إلى الأمور الخارجيَّة.
الآن يعود إلى نفسه فيعود إلى أبيه حيث تكون نفسه في آمان تام[١].

القدِّيس أغسطينوس

❖ رجع إلى نفسه بعد أن ابتعد عنها، لأن الرجوع إلى الرب هو رجوع إلى النفس. فمن يبتعد عن المسيح يقاوم نفسه[٢].

القدِّيس أمبروسيوس

رجوع الإنسان إلى نفسه يحتاج إلى عمل إلهي ينير بصيرة الإنسان الداخليَّة ليكتشف فقره التام بل وموته، وفي نفس الوقت يدرك عمل الله الخلاصي ومحبَّته له، فيمتلئ رجاءً. فالقدِّيس بطرس رجع إلى نفسه عندما تطلع الرب إليه، فخرج سمعان بطرس خارجًا يبكي بمرارة، لكن ليس بدون رجاء، أما يهوذا فندم مدركًا شره، لكنه إذ لم ينظر إلى مخلِّص العالم مضى وشنق نفسه.

ما أحوجنا أن نجلس مع نفوسنا الداخليَّة تحت رعاية ربَّنا يسوع المسيح نفسه الذي يشرق علينا بروحه القدُّوس فيبكتنا على خطيَّة، وفي نفس الوقت يعزينا بنعمته المجانية، يهبنا تنهدات القلب مع سلامه الفائق، يدفق فينا ينبوع الدموع لتختلط مشاعر التوبة ببهجة عمله الإلهي. فنرجع إلى نفوسنا بالحق، متكئين في حضن الآب الباسط يديه بالحب ليحتضننا.

إذ رجع الابن الشارد إلى نفسه أدرك الحقيقة، أنه وهو ابن يشتهي أن يأكل الخرنوب مع الخنازير، بينما يأكل الأجراء في بيت أبيه خبزًا لا خرنوبًا! يعيش بعيدًا عن بيت أبيه في جوعٍ شديدٍ بينما يقترب

---

[1] *Ser on N. T. 46 : 2.*
[2] *In Luc 15: 11- 32.*

الأجراء من أبيه ويشبعون!

❖ بعد أن عانى في كورة غريبة ما يستحقه الأشرار، فسقط تحت المصائب التي حلت به، أي الجوع والعوز، أحسّ بهلاكه، مدركًا أنه بإرادته ألقى بنفسه في أيدي الغرباء بعيدًا عن أبيه، فصار في منفى عوض بيته، وفي عوز عوض الغنى، وفي مجاعة عوض الخيرات والترف؛ هذا هو ما عناه بقوله: "**وأنا أهلك جوعًا**" [١٧].

كأنه يقول: إني لست غريبًا بل ابن لأب صالح وأخ لأخ مطيع. أنا هو الحُر النبيل قد صرت أبأس من العبيد الأجراء، سقطت من الرتبة العاليَّة السامية إلى أحط درجة![1]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ آه أيها الرب يسوع، ليتك ترفع عنا الخرنوب، وتهبنا البركات، لأنك أنت المسئول في بيت أبيك!

ليتك تقبلنا عبيدًا، وإن كنا قد جئنا متأخرين، لأنك تقبل الذين يأتون في الساعة الحاديَّة عشر وتدفع لهم ذات الأجرة؛ تهبهم ذات الحياة لكن ليس نفس المجد، فإكليل البرّ لا يحفظ للجميع، بل للذي يستطيع أن يقول "جاهدت الجهاد الحسن" (٢ تي ٤: ٧)!

يرى البعض أن يؤجلوا عمادهم أو توبتهم لحين قرب الموت، لكنك كيف تعرف أنه لا تُطلب نفسك في هذه الليلة (١٢: ٢٠) ؟[2]

القدِّيس أمبروسيوس

هكذا يحثُّنا **القدِّيس أمبروسيوس** على الرجوع السريع إلى بيت أبينا حتى لا نُحرم نحن الأبناء من التمتع بما يناله ولو الأجراء، الذين يخدمون أبانا السماوي من أجل الأجرة. لنجر سريعًا إليه، يدفعنا في ذلك عوامل كثيرة، أولها أننا لا نعرف متى تُطلب نفوسنا فقد تكون "الآن". وثانيًا لكي نجاهد بالحق، فإن كانت عطيَّة الله لكل داخلٍ ملكوته هي "الحياة الأبديَّة"، لكن "نجمًا يمتاز عن نجم في المجد" (١ كو ١٥: ٤١)، وكما يقول رب المجد نفسه: "في بيت أبي منازل كثيرة" (يو ١٤: ٢).

لنقم الآن وننطلق نحو بيت أبينا السماوي مجاهدين كل لحظات غربتنا، لنقول بحق: "جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيرًا قد وُضع لي إكليل البرّ، الذي يهبه لي في ذلك اليوم الرب الديان العادل" (٢ تي ٤: ٧-٨).

ثامنًا: الدخول في خبرة الحياة المقامة، "أقوم وأذهب إلى أبي" [١٨].

---

[1] *De Patre et duobus filiis.*
[2] *In Luc 15: 11- 32.*

إن كان عمل التوبة يبدأ بعودة الإنسان إلى نفسه بالروح القدس ليكتشف أنه في حالة جوعٍ، مدركًا أن "الأنا" قد أردته على الأرض منهارًا من الفراغ، مكتشفًا أنه قد سقط على الأرض تمامًا، وصار تحت حكم الموت الأبدي. لكن الروح القدس يكشف عن بصيرته، ليرى في مخلِّصه يسوع المسيح القائم من الأموات "سرّ القيامة". إنه يهب الموتى "قيامة" ليعيشوا في "خبرة حياته المقامة". التوبة ليست عملاً سلبيًا خلاله يكتشف الإنسان ضعفاته بل وهلاكه التام، إنما هي عمل إيجابي فيه يقبل المؤمن مسيحه كسرّ قيامته وحياته، ليعيش كل أيام غربته مختبرًا الحياة الجديدة، منطلقًا من قوَّة إلى قوَّة، ومتمتعًا بمجد وراء مجدًا، ونعمة فوق نعمة... مشتاقًا أن يبلغ قياس قامة ملء المسيح (أف ٤: ١٣)... التوبة هي تمتع عملي بالقيامة الدائمة.

❖ سبيلنا نحن أيضًا أن نتوسل إلى الله، لكي يجردنا من الإنسان العتيق ويلبسنا المسيح السماوي... لأن الرب عندما شاء أن يشبعنا بذوق ملكوته قال: بدوني لا تقدرون أن تعملوا شيئًا (يو ١٥: ٥). يجب على كل واحدٍ منا أن يغصب نفسه على التوسل إلى الله، لكي يُحسب أهلاً لنوال ووجود كنز الروح السماوي، لكي يقدر بلا تعب وصعوبة أن يتمم وصايا الرب كلها بطهارة وبدون عيب[١].

القدِّيس مقاريوس الكبير

❖ (الروح القدس) هو القوَّة التي تقيم الحياة، وهو الذي بواسطته قبل الإنسان التبني، وتحول فيه الموت إلى عدم الموت[٢].

القدِّيس باسيليوس الكبير

❖ إن التجديد الذي نجوزه في هذه الحياة، وانتقالنا من حياة أرضية حسب الجسد إلى حياة سمائية روحيَّة، إنما يحدث فينا بفعل الروح القدس[٣].

القدِّيس باسيليوس الكبير

تاسعًا: الاعتراف بالخطأ، "وأقول له: يا أبي أخطأت إلى السماء وقدامك، ولست مستحقًا بعد أن أدعى لك ابنا، اجعلني كأحد أجراءك" [١٨-١٩]. الروح القدس الذي يعمل فينا للتوبة يفتح قلبنا بالرجاء في الله واهب القيامة من الأموات، لكن بروح التواضع يهبنا أن نعترف بخطايانا. فالابن

---

[١] للمؤلف: تلمذتي لأب اعترافي، ١٩٧٤، ص ٨٢.

[٢] للمؤلف: تلمذتي لأب اعترافي، ١٩٧٤، ص ٨٢.

[٣] للمؤلف: تلمذتي لأب اعترافي، ١٩٧٤، ص ٧٥.

الضال بثقة يقول: "يا أبي"، ويتواضع يعلن أنه مخطئ وغير مستحق للبنوة طالبًا قبوله كأجير.

❖ إذا سلمت النفس ذاتها للرب بطل قوَّتها، يظهر الله الصالح لها هذه الأوجاع والعيوب واحدة فواحدة لكي تحيد عنها[١].

القدِّيس أنبا أنطونيوس الكبير

❖ لنتعلم كيف نتضرع إلى الآب. قال: "يا أبي"! يا لرحمة الله وعطفه! فمع أنه قد أسيء إليه لكنه لا يرفض مناداته "يا أبي".

"**أخطأت إلى السماء وقدامك**". وهذا هو الاعتراف الأول... قدام سيد الرحمة، أمام ديان الخطيَّة.

الله يعرف كل شيء، لكنه ينتظر الإقرار بالاعتراف، "لأن الفم يعترف به للخلاص" (رو ١٠: ١٠).

عندما يلوم الإنسان نفسه يخفف ثقل ضلاله، ويقطع عنه حدة الاتهام... إنك لا تخسر شيئًا عندما تعترف بما معروف لديه.

لتقر بخطاياك فيشفع فيك المسيح لأنه هو شفيعنا لدى الآب (١ يو ٢: ٢١).

لتصلِ أيضًا الكنيسة لأجلك، ولتبكِ الجموع عليك، ولا ترتاب فإنك ستأخذ. الشفيع يعدك بالغفران، وصاحب الكرم بالنعمة، والدفاع يؤكد مصالحتك مع العطف الأبوي.

ثق أن هذه حقيقة واسترح، لأن الله قوَّة! يهمه أن يشفع فيك حتى لا يكون قد مات لأجلك باطلاً. والآب يهمه أن يغفر، "لأنه إن كان بالناموس برّ، فالمسيح إذاً مات بلا سبب" (غل ٢: ٢١).

"يا أبي أخطأت في السماء وقدامك" الخطيَّة تسيء إلى مواهب الروح السماوي، إذ كان ينبغي بالإنسان ألا ينحرف عن أحشاء هذه الأم "أورشليم" التي هي السماء.

يقول: "**لست مستحقًا أن أدعى لك أبنًا**"، إذ يليق بالساقط ألا يتكبر بل يرجع متضعًا[٢].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ هذه الكلمات تخص من يفكر في التوبة معترفًا بخطاياه، لكنه لم يستخدمها بعد.

أنه لا يتحدَّث الآن مع أبيه، إنما يعد بما ينطق به عندما يأتي إلى أبيه.

لنفهم "المجيء إلى الآب" يعني الإقامة في الكنيسة بالإيمان، حيث نمارس فيها الاعتراف بالخطايا

---

[١] للمؤلف: تلمذتي لأب اعترافي، ١٩٧٤، ص ٦٣.

[2] *In Luc 15: 11-32.*

بطريقة قانونية فعّالة[1].

القدِّيس أغسطينوس

❖ كان يوجه الحديث لنفسه، ولكنه لا يكفي الحديث ما لم يأتِ إلى الأب.

أين يبحث عنه؟ أين يجده؟

قم أسرع إلى الكنيسة لتجد هناك الأب، هناك الابن، هناك الروح القدس.

الأب ينصت إليك، وأنت تتحدَّث في داخلك، ويسرع لمقابلتك[2].

القدِّيس أمبروسيوس

عاشرًا: البدء بالعمل، "فقام وجاء إلى أبيه" [٢٠].

إن كان الابن الشارد قد سافر إلى كورة بعيدة من أجل ما حسبه تمتعًا بالحريَّة الشخصيَّة، يبذر مال أبيه كما يعلن له، فإنه أن رجع بذهنه إلى بيت أبيه أدرك أن المسافة مهما طالت بينه وبين أبيه لا تمثل عائقًا. جذبته أبوة أبيه، وسحبت ذهنه ليجد طريق العودة ليس طويلاً ولا مستحيلاً، فقام منطلقًا أيضًا بالعمل، سائرًا نحو أبيه، وكأنه يسمع صوت النبي زكريا: "هكذا قال رب الجنود: ارجعوا إليَّ يقول رب الجنود، فأرجع إليكم يقول رب الجنود" (زك ١: ٣).

❖ لنعمل أيضًا، حتى وإن كنا خارج الحدود. **لنرتفع إلى بيت أبينا**، ولا نتوانى خلال الرحلة. إن أردنا فسيكون الرجوع سريعًا وسهلاً جدًا. فقط علينا أن نترك الكورة الغريبة التي هي الخطيَّة، لنتركها **حتى نرجع سريعًا إلى بيت أبينا**...

قد يقول قائل: كيف أرجع؟

فقط ابتدئ بالعمل، فيتحقَّق كل شيء[3].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

حادي عشر: لقاء مع الأب الحنون، "وإذ كان لم يزل بعيدًا رآه أبوه فتحنن، وركض، ووقع على عنقه وقبله. فقال له الابن: يا أبي أخطأت إلى السماء وقدامك ولست مستحقًا بعد أن أدعى لك ابنًا. فقال الأب لعبيده: اخرجوا الحلة الأولى..." [٢٠-٢٢].

يكشف هذا المثل عن أبوة الله الحانية، فإنه وإن كان لا يلزم الإنسان بالرجوع إليه، لكنه إذ يراه من

[1] *Quaest Ev 2: 33.*
[2] *In Luc 15: 11-32.*
[3] *In Rom. hom 10.*

بعيد منطلقًا نحوه يركض هو مسرعًا لا ليعاتبه أو يوبخه وإنما ليقع على عنقه ويقّبله. إنه ينصت لاعتراف ابنه المخطئ، لكنه لا يسمح له بالمذلة، فلا يتركه يقول: "اجعلني كأحد أجراءك"، إنما يطلب له ثوب الابن وخاتمه، مكرمًا إيَّاه في بيته!

❖ ينصت الآب إليك وأنت تتكلم في داخل نفسك، ويسرع لمقابلتك. عندما تكون لا تزال بعيدًا يراك ويركض.

إنه ينظر ما في داخل قلبك، ويُسرع حتى لا يؤخرك أحد، بل ويحتضنك.

"مقابلته لك" هي سبق معرفته، و"احتضانه لك" هو إعلان رحمته، وتعبير عن حبه الأبوي.

يقع على عنقك لكي يقيمك أنت الساقط تحت ثقل الخطايا، ولكي يرجعك إلى السماء إذ اتجهت إلى الأرض، فتطلب خالقك.

يقع المسيح على عنقك، لكي يخلص عنقك من نير العبوديَّة، فيحملك نيره الهين (مت ١١: ٣٠)...

يقع على عنقك بقوله: "تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم، احملوا نيري عليكم" (مت ١١: ٢٨).

هكذا يحتضنك الرب عندما تتوب[١].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ ماذا يعني: "**ركض**"؟ إلا أنه بسبب عائق خطايانا لا نستطيع نحن أن نبلغ إلى الله خلال فضيلتنا، لكن الله نفسه قادر أن يأتي للضعيف لذا يقع على عنقه.

يُقبل الفمّ، أي يتقبل الآب بفرح ذاك الذي يعترف (بفمه) نادمًا من قلبه[٢].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ إذ يركض يقع على عنقه، لأن الآب لا يترك ابنه الوحيد الجنس الذي يجري دومًا نحونا نحن الذين ضللنا طويلاً. "الله كان في المسيح مصالحًا العالم لنفسه" (٢ كو ٥: ١٩).

إنه يقع على عنقه، ينحني ليحتضن بذراعه، أي بالرب يسوع المسيح.

إذ يتعزى (التائب) بكلمة نعمة الله الواهبة رجاء غفران الخطايا هذا يتّحقَّق بقبلة الحب النابعة عن الأب عند الرجوع إليه في رحلة طويلة...

---

[1] *In Luc 15: 11-32.*
[2] *De Patre et duobuys Filiis.*

لم يقل: "اجعلني كأحد أجراءك"، لأنه عندما كان في عوز إلى خبز اشتاق أن يكون ولو عبدًا أجيرًا، لكنه إذ تقبّل القبلة من أبيه بنبلٍ كفّ عن ذلك[1].

القدِّيس أغسطينوس

اثنا عشر: العطايا الأبويَّة، "فقال الأب لعبيده: اخرجوا الحلة الأولى وألبسوه، واجعلوا خاتمًا في يده، وحذاء في رجليه. وقدِّموا العجل المسمن واذبحوه فنأكل ونفرح. لأن ابني هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضالاً فُوجد، فابتدأوا يفرحون" [٢٢-٢٤].

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم**[2] أن الأب لا يوجه حديثه لابنه الراجع بل لعبيده، أو وكلائه، فإن كان التائب هو الذي جاء متوسلاً لكنه ينال الإجابة لا خلال كلمات موجهة إليه، وإنما خلال أعمال الرحمة التي تُقدَّم له.

يرى **الأب ثيؤفلاكتيوس**[3] أن هؤلاء العبيد هم الأرواح الخادمة، أو الكهنة الذين يمارسون العماد ويقدِّمون كلمة التعليم لكي تكتسي النفس بالمسيح نفسه.

❖ يأتيك بالحلة والخاتم والحذاء.

الحلة هي ثوب الحكمة التي بها غطى الرسل عري أجسادهم، وبها يكتسي كل إنسان.

أخذوا الحلة لكي يستروا ضعفات أجسادهم بقوَّة الحكمة الروحيَّة، وقد قيل عن الحكمة: "غسل بالخمر لباسه" (تك ٤٩: ١١). الحلة هي الكساء الروحي وثوب العرس.

الخاتم ليس إلا صك الإيمان الصادق وختم الحق.

الحذاء يشير إلى الكرازة بالإنجيل[4].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ الحلة الأولى هي الكرامة التي فقدها آدم، وأما العبيد الذين قدَّموها فهم الكارزون بالمصالحة...

الخاتم الذي في اليد هو عربون الروح القدس بسبب شركة النعمة، إذ يُشار إلى الروح حسنًا بالإصبع...

الحذاء في القدمين هما الاستعداد للبشارة بالإنجيل كي لا نمس الأرضيات[5].

---

[1] *Quaest. Evang. 2: 33.*
[2] *Catena Aurea.*
[3] *Catena Aurea.*
[4] *In Luc 15: 11-32.*
[5] *Quaest Evang. 2: 33.*

القدِّيس أغسطينوس

❖ هذا هو عمل الحب الأبوي المترفق وصلاحه، أنه ليس قط يقيم الإنسان من الأموات، بل ويعيد إليه نعمته العظيمة خلال الروح؛ وبدل الفساد يلبسه ثوبًا غير فاسد، وبدل الجوع يذبح العجل المسمن، وعوض المسافة الطويلة التي قطعها في رحلته، فإن الآب المنتظر رجوعه إليه يقدَّم حذاء لرجليه. وما هو أعجب من هذا أنه يعطيه خاتم الخطبة الإلهي في إصبعه، وفي هذا كله يجعله في صورة مجد المسيح[١].

القدِّيس البابا أثناسيوس

هذه الأمور الثلاثة (الثوب والخاتم والحذاء) قدَّمها السيِّد المسيح للبشريَّة الخاطئة، ليقيم منها أبناء الله الحيّ، الذين يرتدون ثوب العرس اللائق بالوليمة السماويَّة، ويحملون خاتم البنوة، ويسترون أرجلهم ويحفظونها من أتربة هذا العالم ودنسه أثناء عبورهم خلال كلمة الكرازة.

يمكننا أيضًا أن نقول أن هذه الأمور إنما قدَّمها للبشريَّة الراجعة إليه ليقيمها عرُوسًا وملكة له بعد أن عاشت زمانها كزانية روحيًا تجري وراء عريسٍ آخر. قدَّم لها أولاً الثوب المُوشى بالذهب، كقول المرتل: "قامت الملكة عن يمينك بثوب موشى بالذهب" (مز ٤٥). وكما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [لا يقصد هنا ثوبًا حقيقيًا بل الفضيلة... الثوب الموشى بالذهب ثوب به في نسيجه مواد متنوعة]. يكمل القدِّيس حديثه موضحًا أن الكنيسة تضم أصحاب مواهب متنوعة ومتمايزة، لكنها متكاملة، فتنسج ثوبًا واحدًا للعرس السماوي[٢]. أما الخاتم فهو عربون الروح، إذ يقول الرسول بولس: "ولكن الذي يثبتنا معكم في المسيح وقد مسحنا هو الله، الذي ختمنا أيضًا وأعطى عربون الروح" (٢ كو ١: ٢١-٢٢) هذا هو مهر العرس الذي قدَّمه العريس السماوي لعروسه الكنيسة لكي تحيا به حتى تدخل إلى كمال العرس. والحذاء يشير إلى الانطلاق للكرازة لتضم كل نفس إلى العضويَّة الكنسيَّة الروحيَّة فيكون له نصيب في العرس الأبدي.

ما هو العجل المسمن الذي قدَّم في الوليمة ليأكل الكل ويشبعوا ويفرحوا؟ يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [إنه الرب يسوع المسيح الذي دعي هكذا مقدَّما جسده الذي بلا عيب ذبيحة، وسمي "المسمن" بسبب غناه وتكلفته، إذ قادر على خلاص العالم كله[٣].] ويقدَّم **القدِّيس أغسطينوس** ذات

---

[1] *Fest. Lett. 9: 10.*
[2] *To Eutropius 2.*
[3] *De patre et duobus Filiis.*

التفسير، قائلاً: [قد ذُبح لأجل كل إنسان يؤمن بذبحه[1].] وجاء تعليق **القدِّيس أمبروسيوس** هكذا: [بالتناول من الأسرار المقدَّسة يستطيع الإنسان أن يتقوت بجسد الرب الدسم بالقوَّة الروحيَّة... هو الذبيحة الكهنوتيَّة التي قدَّمت عن الخطايا[2].]

إن كان الابن قد أسلم جسده ذبيحة من أجل خلاص البشريَّة، والآب قد فرح وتهلل من أجل هذا العمل المفرح، وطالب السمائيين أن يتقدَّموا لينظروا ويفرحوا بالإنسان القائم إلى الحياة السماويَّة بعد موته، إلا أن الابن الأكبر الذي يشير إلى المتكبرين من اليهود قد وقف خارجًا لا يريد أن يدخل ويفرح مع الكل، إذ يقول السيِّد المسيح:

"وكان ابنه الأكبر في الحقل،
فلما جاء وقرب من البيت سمع صوت آلات طربٍ ورقصًا.
فدعا واحدًا من الغلمان وسأله ما عسى أن يكون هذا.
فقال له: أخوك جاء، فذبح أبوك العجل المسمن، لأنه قبله سالمًا.
فغضب، ولم يرد أن يدخل، فخرج أبوه يطلب إليه.
فأجاب وقال لأبيه: هاأنا أخدمك سنين هذا عددها،
وقط لم أتجاوز وصيتك،
وجديًا لم تعطني قط، لأفرح مع أصدقائي.
ولكن لما جاء ابنك هذا الذي أكل معيشتك مع الزواني
ذبحت له العجل المسمن.
فقال له: يا بني أنت معي في كل حين،
وكل ما لي فهو لك.
ولكن كان ينبغي أن نفرح ونسر،
لأن أخاك هذا كان ميتًا فعاش، وكان ضالاً فُوجد" [٢٥- ٣٢].

يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على تصرف هذا الابن الأكبر، قائلاً:

[دين الابن الأكبر، لأنه جاء من الحقل. هنا الحقل يشير إلى الاهتمام بأعمال الأرض والجهل بأعمال روح الله (١ كو ٢: ١١).

[1] *Quaest. Ev. 2: 33.*
[2] *In Luc 15: 11-32.*

اشتكى لأنه لم يُعطَ جديًا ليذبحه، مع أن حمل الله قد ذُبح لغفران الخطايا، لا لذة الجسد.

يطلب الحاسد جديًا ليذبحه، بينما يشتهي البار أن يُذبح من أجل حمل الله!

بسبب الحسد أصيب الأكبر بشيخوخة (روحيَّة) مبكرة، وقد ظل خارجًا بسبب عدم محبَّته. الغيرة (الشرِّيرة) التي فاض بها قلبه طردته خارجًا!

إنه أحد الذين لا يبصرون الخشبة التي في أعينهم، بينما ينتقدون القذى التي في الآخرين.

إنه يغضب، لأن الغير ينال غفرانًا ونعمة!

يا لعدم احتمال جنود الشر الروحيَّة، إذ لا تطيق أن تسمع ترانيم الفرح وتلاوة المزامير!...

يشير الابنان إلى شعبين، الأصغر يمثل الأمم، والأكبر إسرائيل الذي يحسد الآخر من أجل تمتعه بالبركات الأبديَّة. احتج اليهود عندما دخل المسيح ليأكل عند الأمم، لذا طلبوا جديًا كتقدمة أثيمة مكروهة.

يطلب اليهودي الجدي (باراباس)، والمسيحي يطلب حملاً (المسيح)، لذلك أطلق لليهود باراباس وقدَّم لنا المسيح ذبيحة. حل بهم منذ ذلك الحين فساد الإثم بينما نلنا نحن غفران الخطايا...

يشير الابن الأكبر للفرِّيسي الذي برر ذاته في صلاته المملوءة غرورًا، هذا الذي حسب نفسه أنه لم يكسر وصيَّة الله مطلقًا، بممارسته لحرف الناموس (١٨: ١١). بقسوة اتهم أخاه أنه بدد ميراث أبيه مع الزواني، مع أنه كان يجب أن يحترس في كلماته لأن الرب يسوع جاء لأجل العشارين والزواني.

لم يُطرد الابن الأكبر، إنما وقف على الباب ولم يرد أن يدخل، إذ لم يقبل إرادة الله التي دعت الأمم للإيمان، بهذا صار الابن عبدًا، "لأن العبد لا يعرف إرادة سيِّده" (يو ١٠: ١٤)، وعندما عرفها غار وصار معذبًا من أجل سعادة الكنيسة، وبقي هو خارجًا. مع هذا أراد الأب المحب أن يخلصه، إذ قال له: "أنت معي في كل حين"... يا حبذا لو أبطلت حسدك، "كل ما هو لي فهو لك"، فإذ لك أسرار العهد القديم كيهودي، وتنال أسرار العهد الجديد أن اعتمدت أيضًا[١].]

❖ الآن إذ كان أخوه الأكبر في الحقل وقد جاء إلى البيت سمع صوت موسيقى ورقصًا، فدعى أحد العبيد وسأله ما عسى أن يكون هذا. الابن الأكبر يُفهم بكونه الشعب اليهودي الذي كان في الحقل يخدم الله لأجل التمتع بممتلكات أرضية. ففي العهد القديم على وجه الخصوص كانت السعادة الأرضية وعدًا لمن يعبد الله.

جاء إلى البيت وسمع موسيقى. الصوت المتناغم معًا يُسمى موسيقى، لأنه حينما يتفق كل الذين

---

[1] *In Luc 15: 11-32.*

يخدمون الله في محبَّة يتممون قول الرسول: "أطلب إليكم أن تقولوا جميعكم قولاً واحدًا" (١ كو ١: ١٠) حينما يصير المسيحيون هكذا يبعثون موسيقى، أي صوتًا متناغمًا يسرّ الله، ويتحقَّق فيهم المكتوب: "كان لهم قلب واحد ونفس واحدة" (راجع أع ٤: ٣٢).

لقد سأل أحد العبيد، أي قرأ أحد الأنبياء... إشعياء أو إرميا أو دانيال، إذ كرز الكل بمجيء المسيح وبالفرح من أجل مصالحة الأمم.

قال له العبد: "أخوك جاء فذبح أبوك العجل المسمن" [٢٧]، فغضب ولم يرد أن يدخل [٢٨]. غضبه يعني مقاومة الشعب اليهودي لخلاص الأمم. حقًا فإنهم إلى هذا اليوم في غيرة من الكنيسة يقاومونها.

الحقيقة التاليَّة هي أن الأب "**خرج يطلب إليه**" [٢٨] ربَّما تعني أنه في نهاية العالم سيقبل كل اليهود الإيمان خلال رحمة الله، كقول الرسول بولس: "إلى أن يخلص ملئ الأمم وهكذا سيخلص جميع إسرائيل" (رو ١١: ٢٥-٢٦)...

بقوله: "**قط لم أتجاوز وصيتك**" [٢٩] عني أن اليهود بدوا كمن عبدوا الله الواحد، وعندما اشتكى: "**وجديًا لم تعطِني قط**" تُفهم عن المسيح. فإن المسيح وهو حمل الله دين كجدي بواسطة اليهود، أي دين كخاطئ. لهذا فالمسيح بالنسبة لنا هو حمل، وبالنسبة لهم هو جدي. الذين اعتقدوا أنه خاطئ وليس بارًا لم يستحقوا التمتع بوليمة جدي مذبوح أو حمل كذبيحة.

عندما قال الأب: "**أنت معي في كل حين وكل ما لي فهو لك**" [٣١] يعني بذلك عبادة الله الواحد وكتابات العهد القديم والأنبياء الأمور التي بالتأكيد تخص الله وقد بقيت مع اليهود على الدوام[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

---

[1] *Ser 163: 2, 3.*

الأصحاح السادس عشر

اغتصاب الصداقة الإلهيَّة

في الأصحاح السابق أبرز السيِّد المسيح بأمثلة ثلاثة عن مدى شوق الله لصداقتنا معه، معلنًا حبه وبذله من أجلنا نحن الخطاة ليحملهم إلى مقدسه كأبناء بيت الله، وموضع سرور السماء وفرحها. لكن هذا الحب الفائق يلزم مقابلته بالحب والحكمة لاغتصابه. بمعنى آخر الله في محبَّته للإنسان لم يجعله آلة جامدة تتجاوب مع حب الله لاإراديًا، إنما خلقه سيدًا له كمال حريَّة الإرادة، له أن يقبل الصداقة أو يرفضها. الآن يقدَّم لنا السيِّد مثلين ليحثُّنا على اغتصاب صداقته بكمال حريتنا، هما مثل وكيل الظلم ومثل لعازر والغني.

١. مثل وكيل الظلم ١–١٣.
٢. الصداقة الإلهيَّة ومحبَّة المال ١٤–١٥.
٣. الصداقة الإلهيَّة والوصيَّة الصعبة ١٦–١٨.
٤. مثل لعازر والغني ١٩–٣١.

١. مثل وكيل الظلم

إذ تحدَّث رب المجد يسوع بأمثال عن مدى شوقه لاجتذاب الخطاة عن طريق ضلالهم للدخول بهم إلى مقدَّسه، وجه حديثه إلى تلاميذه في حضرة الفرِّيسيِّين الذين عُرفوا بحب المال [١٤] والمجد الباطل، مقدَّما لهم مثلاً عن وكيل ظالم يبذر أموال سيِّده، وإذ سأله الموكل أن يقدَّم حساب الوكالة لينزعها عنه حاول أن يكسب له أصدقاء ظلمًا حتى متى طُرد من الوكالة يقبله الأصدقاء في بيوتهم. وقد امتدح السيِّد هذا الوكيل، لا في تبذيره الأموال، ولا في ظلمه، وإنما في حكمته بكسبه أصدقاء له واهتمامه بالحياة المقبلة، فيقدَّم متاع الدنيا الحاضرة لأجل الراحة في المستقبل.

نستطيع قبل أن نستعرض أقوال الآباء في هذا المثل أن نوجز باختصار غاية هذا المثل في النقاط التاليَّة:

أولاً: إن كانت الأمثلة السابقة تعلن عن الحب الأبوي الإلهي نحو الخطاة، فإنه من واجب الخطاة في توبتهم وعِودتهم إلى بيت أبيهم أن يتذرعوا بالحكمة. كما استهان هذا الوكيل بالحاضر من أجل راحته المقبلة، هكذا يليق بنا في توبتنا أن نسلك بروح الحكمة التي تتعدى الاحتياجات الزمنيَّة وتعبر

بنا إلى طلب الراحة العتيدة في السماويات.

ثانيًا: أبرز المثل السابق "الابن الضال" عودة الخاطي إلى بيت أبيه نادمًا وتائبًا. هنا في هذا الأصحاح يحدثنا عن الصدقة وحب العطاء، لا كما من مالنا، بل مما أوكلنا الله عليه، فنكسب لنا أصدقاء من مال موكلنا فيقبلوننا معهم في السماوات.

الآن نعود إلى المثل نفسه، إذ يقول الإنجيلي لوقا:

"وقال أيضًا لتلاميذه: كان إنسان غني له وكيل،

فوُشي به إليه بأنه يبذر أمواله.

فدعاه وقال له: ما هذا الذي أسمع عنك؟

أعطِ حساب وكالتك، لأنك لا تقدر أن تكون وكيلاً بعد.

فقال الوكيل في نفسه: ماذا أفعل؟

لأن سيدي يأخذ مني الوكالة،

لست أستطيع أن أنقب، وأستحي أن أستعطي.

قد علمت ماذا أفعل حتى إذا عُزلت عن الوكالة يقبلونني في بيوتهم.

فدعا كل واحدٍ من مديوني سيِّده،

وقال للأول: كم عليك لسيدي؟

فقال: مئة بث زيت،

فقال له: خذ صكك، واجلس عاجلاً، واكتب خمسين.

ثم قال لآخر: وأنت كم عليك؟

فقال مئة كرّ قمح، فقال له: خذ صكك واكتب ثمانين.

فمدح السيِّد وكيل الظلم، إذ بحكمة فعل،

لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم.

وأنا أقول لكم: اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم

حتى إذا فنيتم يقبلونكم في المظال الأبديَّة" [١-٩].

ويلاحظ في هذا المثل الآتي:

أولاً: يرى البعض أن هذا المثل لم يكن غريبًا على مسامع اليهود في ذلك الحين، إذ يشير الرجل الغني الموكل إلى الدولة الرومانية، التي تركت أمر الجباية في يدّ العشارين الذين يجمعون لحسابها

مع اغتصاب الكثير لحسابهم الخاص. فمع جشع الدولة الرومانية كمستعمر إلا أنها كانت تمتدح العشارين الذين يتصرفون في هدوءٍ مع الناس عند جمع الجباية. فالعشار المعتدل في تصرفه يستطيع على المدى الطويل أن يجمع أكثر للدولة كما ينال نصيبًا أوفر، ولا يرهق الممولين، أما العنيف فيحطم الممولين، ويفقد هو سلامه، ولا تستريح الدولة لتصرفاته على المدى الطويل. فالوكيل المذكور هنا حين تنازل عن بعض مما ورد في الصكوك تصرف بحكمة، إذ يخفف عبء الجباية عن اليهود، وفي نفس الوقت يمكن للدولة الرومانية أن تحصل هذه الجباية وإن كانت أقل لكنها بطريقة أسهل.

ثانيًا: يؤكد **القدِّيس كيرلس الكبير**[1] في تعليقه على هذا المثل كما في مواضع أخرى كثيرة، أن السيِّد المسيح إذ يقدِّم لنا مثلاً لا يقصد بنا أن نطبقه في كل الجوانب، وإنما في الجانب الذي قصده السيِّد. هكذا لا يليق بنا أن نتمثل بهذا الوكيل بتبذيره أموال الوكالة ولا بتلاعبه في الصكوك، وإنما نتمثل بالتزامنا بالحكمة والنظرة المستقبليَّة (الأبديَّة).

❖ الوكيل الذي طرده سيِّده من وكالته قد مُدح لأنه حصَّن نفسه من المستقبل...

يلزمنا ألا نتمثل نحن به في كل شيء، إذ لا يليق بنا أن نخدع سيدنا، فنقدِّم الصدقة خلال الخداع...

من ناحيَّة أخرى قيل هذا المثل لكي ندرك أنه أن كان الوكيل الذي عمل بخداع استطاع أن ينال مديحًا... فكم بالحري الذين يسرون الله بتنفيذهم وصاياه في أعمالهم؟![2]

القدِّيس أغسطينوس

ثالثًا: يقول السيِّد المسيح: "**لأن أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور في جيلهم**" **[٨]**. الإنسان الذي يعمل لحساب حياته الزمنيَّة يُحسب ابنًا لهذا الدهر، أما من يعمل لحساب مملكة النور الأبديَّة، فيحسب ابنًا للنور. يود الله أن يكون أبناء النور عاملين بحكمة من أجل هذا الهدف: التمتع بمملكة النور، لكن للأسف أحيانًا يسقطون في التهاون، فيفقدون الحكمة السماويَّة، ليصير السالكون في هذا العالم أكثر منهم تعقلاً من جهة تحقيق غايتهم.

❖ يقصد بأبناء هذا الدهر أولئك الذين يضعون فكرهم في خيرات الأرض؛ وأبناء النور الذين ينشغلون بالكنوز الروحيَّة خلال الحب الإلهي. أحيانا في تدبير الأمور البشريَّة نسلك بتعقل منهمكين فيها حتى متى رحلنا نجد ملجأ لحياتنا، بينما ونحن نوجه الأمور الإلهيَّة لا نفكر في

[1] *In Luc. Ser. 108.*
[2] *Quaest Evan. 2:34.*

نصيبنا هناك[١].

الأب ثيؤفلاكتيوس

رابعًا: لقد سلّم الموكل أمواله في يدّي الوكيل. وهكذا نعيش نحن كوكلاء الله، كل ما هو بين أيدينا من عمل يديه أو عطيَّة من عنده، سواء مواهبنا أو قدراتنا أو دوافعنا أو عواطفنا أو ممتلكاتنا حتى جسدنا وأوقاتنا. نحن وكلاء، سنعطى حسابًا عن كل كلمة. غاية الله من هذه الوكالة ليس مكسبًا ماديًا ملموسًا، إنما تدريبنا على سمة "الأمانة"، هذه التي بها نتأهل لننال النصيب الأعظم في السماوات. الله لا يشغله في العالم شيء إلا أن يرانا أولادًا له نحمل سماته فينا التي تتمركز في "الأمانة". إن كان الله قد دعي "الأمين" (١ كو ١: ٩؛ ١٠: ١٣؛ ١ تس ٥: ٢٤؛ ٢ تس ٣: ٣، ٢ تي ٢: ١٣، عب ٢: ١٧؛ ٣: ٢؛١ يو ١: ٩، رؤ ٣: ١٤؛ ١٩: ١١) فإنه يود في أبنائه أن يكونوا أمناء على مثاله، إذ يوصينا: "كن أمينًا إلى الموت فسأعطيك إكليل الحياة" (رؤ ٢: ١٠).

إن كنا وكلاء على ما هو ليس لنا . كما يقول **القدِّيس أمبروسيوس** . يلزمنا أن نسلك بروح الأمانة، فنحمل سمة سيدنا.

❖ عندما لا ندير ثروتنا حسب مسرة ربَّنا، نُفسد أمانتنا لحساب ملذّات، ونُحسب وكلاء مذنبين[٢].

الأب ثيؤفلاكتيوس

خامسًا: دعا السيِّد المسيح ما لدينا من أموال وإمكانيات وقدرات "**مال الظلم**"، **لماذا؟** لأن توزيع هذه الأمور بين البشريَّة يسوده قانون الظلم، فيُولد طفل ليجد والديه قد أورثاه الملايين، بينما يُولد آخر ليجدهما أورثاه ديونًا ومشاكل بلا حصر. إنسان يُوهب ذكاء أو صحة أو قدرات ومواهب يُحرم منها غيره. فما نملكه وإن كنا لم نغتصبه ظلمًا، لكننا تسلمناه في عالم يسوده قانون الظلم. لذا يليق بنا أن نستغله فيما هو لبنياننا في العالم الآخر حيث لا يوجد "ظلم". لنقتنِ به أبديتنا!

في حكمة عاش الكثير من آبائنا يحرصون على تنفيذ هذه الوصيَّة الربانية: "**اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم، حتى إذا فنيتم (متم جسديًا) يقبلونكم في المظال الأبديَّة**" [٩]، ويحثوننا على ممارستها بطريقٍ أو آخر، فمن تعليقاتهم:

❖ كيف يمكننا أن نقيم لأنفسنا أصدقاء من المال، إن كنا نحب المال، ولا نحتمل فقدانه؟ فإننا بهذا

[1] *Catena Aurea.*
[2] *Catena Aurea.*

سنهلك مع فقداننا للمال أيضًا![1]

العلامة ترتليان

❖ الأمور الزمنيَّة تُدعى أمورًا خارجيَّة، لأنها خارج عنا. لنحولها إلى أمور داخليَّة؛ فإن كنا لا نستطيع أن نحمل غنانا معنا عندما نرحل من هنا لكننا نستطيع أن نحمل محبتنا. حريّ بنا إذن أن نرسلها أمامنا فتعد لنا موضعًا في المساكن الأبديَّة[2].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ إن خدمت القدِّيسين (الفقراء) فستشاركهم مكافأتهم[3].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ بالعطاء للفقراء نقتني رضى الملائكة وسائر القدِّيسين[4].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ الصدقة هي أكثر الفنون مهارة؛ لا تبني لنا بيوتًا من الطين بل تخّزن لنا حياة أبديَّة. في كل الفنون نحتاج إلى من يعيننا، أما بالنسبة لإظهار الرحمة فلا نحتاج إلا إلى الإرادة وحدها[5].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ الصداقة المجردة لا تحمينا ما لم تتبعها أعمال صالحة، ما لم ننفق ثروتنا ببرّ هذه التي جُمعت بطريقة ظالمة[6].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لقد أظهر أن كل ممتلكات الإنسان التي تحت سلطانه بالطبيعة هي ليست له، وأنه يُسمح له بممارسة أعمال البرّ المخلِّصة خلال مال الظلم هذا، إذ به يعول من لهم مسكن أبدي مع الآب[7].

القدِّيس إكليمنضس السكندري

❖ كثيرًا ما يكون الغنى لصالحنا كقول الرسول الذي يطلب من الأغنياء أن يكونوا أسخياء في

---

[1] *On Patience 7.*
[2] *In 1 Tim. Hom. 11.*
[3] *In Phil. Hom 1.*
[4] *In Luc 16:1-13.*
[5] *Catena Aurea.*
[6] *In Heber. 1:4.*
[7] *Who is the Rich Man... 31.*

العطاء، كرماء في التوزيع، مدخرين لأنفسهم أساسًا حسنًا للمستقبل لكي بهذا يمسكوا بالحياة الأبديَّة (١تي ٦: ١٨-١٩)؛ وكما يقول الإنجيل بأن هذا الغنى يكون للخير لمن يصنع لنفسه أصدقاءً بمال الظلم. يمكن أيضًا أن يوجه الغنى للشر، عندما نحشده للتخزين، أو للتنعم، غير مبالين باحتياجات الفقراء[1].

الأب تادرس

- ❖ أعطِ خيراتك لا للذين يطعمهم الفلاحون (أصحاب الحقول)، بل للذين ليس لهم سوى الخبز كطعام يقوّتهم... اهتم بالفقراء والمحتاجين.

- ❖ (يتحدَّث عن ضرورة اهتمام الكنيسة بالفقراء لا بفخامة المباني الكنسيَّة)

قدَّس ربَّنا بفقره فقر بيته، لذلك فلنفكر في صليبه ونحسب الغنى نفاية.

لماذا تعجب من قول السيِّد: "مال الظلم"؟ لماذا نطلب ونحب ما افتخر بطرس بأنه لا يمتلكه (أع ٣: ٦)؟

- ❖ (في حديثه عن السيِّدة *Proba*)

باعت ممتلكاتها واقتنت لنفسها أصدقاء من مال الظلم، فتتسلم ذلك في المساكن الأبديَّة.

حسنًا، هل يسقط خدام الكنيسة، أيا كانت رتبتهم، والرهبان الذين هم رهبان بالاسم، في العار باقتنائهم ممتلكات بينما تبيع هذه الشريفة ممتلكاتها[2]؟!

القدِّيس جيروم

هكذا يعلن السيِّد المسيح عن الصدقة كتحويل لممتلكاتنا من هذا العالم الزائل إلى رصيد أبدي في المساكن العلويَّة. وقد دعا السماء "مظالاً أبديَّة"، لأن اليهود كانوا يهتمون جدّا بعيد المظال، ويحسبونه عيد الفرح الحقيقي، فيه يسكنون مظالاً من أغصان الشجر لمدة أسبوع. هكذا تهيئ لنا الصدقة نصيبًا لعيدٍ أبديٍ مفرحٍ، فنقيم في السماء مع مصاف القدِّيسين.

سادسًا: يُعلِّق أيضًا السيِّد المسيح على هذا المثل، قائلاً:

"الأمين في القليل أمين أيضًا في الكثير.

والظالم في القليل ظالم أيضًا في الكثير،

فإن لم تكونوا أمناء في مال الظلم، فمن يأتمنكم على الحق؟!

[1] *Cassian: Conf. 6:3.*
[2] *Ep. 54:12; 52:10; 130:7.*

وإن لم تكونوا أمناء فيما هو للغير، فمن يعطيكم ما هو لكم؟!" [١٠-١٢]

❖ القليل هو مال الظلم، أي الثروة الزمنيَّة التي غالبًا ما جُمعت خلال الابتزاز والطمع. لكن الذين يعرفون كيف يعيشون الحياة الفاضلة، ويعطشون للرجاء فيما هو مخّزن، ويسحبون فكرهم عن الأرضيات، مفكرين بالحري في العلويَّات، هؤلاء يستهينون بالغنى الزمني تمامًا، إذ لا يقدَّم إلا الملذّات والانغماس في الترف والشهوات الجسديَّة الدنيئة، والبهاء الذي لا ينفع، بل هو وقتي وباطل. لذلك يعلمنا أحد الرسل القدّيسين، قائلاً: "لأن كل ما في العالم شهوة الجسد، وشهوة العيون، وتعظم المعيشة" (١ يو ٢: ٦). لكن مثل هذه الأمور لا تساوي شيئًا مطلقًا لمن يعيشون الحياة المتعقلة الفاضلة، إذ هي أمور تافهة ووقتيَّة ومملوءة دنسًا، وتثير النار والدينونة، وغالبًا ما تحطم حياة الجسد نهائيًا. لذلك انتهر تلميذ المسيح الأغنياء، قائلاً: "هلم الآن أيها الأغنياء، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة، غناكم قد تهرأ، وثيابكم قد أكلها العث، ذهبكم وفضتكم قد صدئا، وصدأهما يكون شهادة عليكم" (يع ٥: ١-٣). كيف يصدي الذهب والفضة؟ بتخزينهما بوفرة شديدة، فيكون ذلك شهادة ضدهم أمام كرسي الحكم الإلهي إنهم غير رحومين. فإنهم إذ جمعوا في كنوزهم فيض عظيم بلا ضرورة، غير مبالين بالمحتاجين مع أنه كان في قدرتهم لو أرادوا أن يمنحوا الخير بسهولة لكثيرين، لكنهم "كانوا غير أمناء في القليل".

ولكن كيف يصير البشر أمناء، هذا يعلمنا إيَّاه المسيح، وسأشرح ذلك.

سأله فرّيسي أن يأكل معه خبزًا في يوم سبت، وقد وافق المسيح على ذلك. وإذ ذهب هناك جلس ليأكل فاجتمع كثيرون آخرون يأكلون معهما. ولم يكن من بينهم من يمثل المحتاجين، بل على العكس كانوا جميعًا أناسًا عظماء ومعروفين محبين للمتكآت الأولى، ظمأى للمجد الباطل، كمن يلتحفون بكبرياء الغنى. ماذا قال المسيح للذي دعاه؟ "إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقاءك ولا إخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء لئلاَّ يدعوك هم أيضًا فتكون لك مكافأة؛ بل إذا صنعت ضيافة فادع المساكين الجُدع العرج العمي، فيكون لك الطوبى، إذ ليس لهم حتى يكافئوك، لأنك تُكافئ في قيامة الأبرار" (لو ١٤: ١٢-١٤).

هذا كما أظن الأمانة في القليل، أن يترفق الإنسان بالمحتاج، ويعين من هم في ضائقة بما لديه...

إن كنا غير أمناء في القليل بعدم تشكيلنا حسب إرادة الله، باذلين كل إمكانياتنا على ملذّاتنا وكبريائنا، فكيف نتقبل من الله ما هو حق؟ ما هو هذا الحق؟ منحنا الهبات الإلهيَّة بفيض هذه التي

تزين النفس وتشكل فيها جمالاً ربانيًا. هذا هو الغنى الروحي، لا الذي يسمن الجسد الذي يفسده الموت، وإنما الذي يخلص النفس، ويجعلها مستحقة للمباهاة والكرامة قدام الله، فتربح لنفسها المدح الحقيقي.

إذن، من واجبنا أن نكون أمناء لله، أنقياء القلب، رحماء، لطفاء، أبرارًا، مقدَّسين، فإن هذه الأمور تطبع فينا خطوط التشبه الإلهي، وتجعلنا كاملين كورثة للحياة الأبديَّة. هذا إذن ما هو حق!

هذا هو مغزى كلمات المخلِّص وقصدها، الأمر الذي يمكن للإنسان أن يتعلمه مما تبع ذلك، إذ قال: "**وإن لم تكونوا أمناء في ما هو للغير، فمن يعطيكم ما هو لكم؟**" **[١٢]**.

مرة أخرى نقول أن ما هو للغير هو الغنى الذي نمتلكه، إذ لم نولد ومعنا الغنى، بل بالعكس وُلدنا عراة، ويمكننا بحق أن نؤكد كلمات الكتاب المقدَّس: "لأننا لم ندخل العالم بشيء، وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء" (١ تي ٦: ٧). كما نطق أيوب الصبور بكلمات من هذا النوع: "عريانًا خرجت من بطن أمي، وعريانًا أعود إلى هناك" (أي ١: ٢١). إذن ليس أحد بالطبيعة غنى بذاته، ويعيش في غنى وفير. إنما أضيف إليه ذلك من الخارج كفرصة سنحت له، فإن انتهى الغنى وباد لا يضر هذا بطبيعته البشريَّة. فإننا لسنا كائنات عاقلة، ماهرين في كل عمل صالح بسبب الغنى، وإنما طبيعتنا قادرة على ذلك (الحياة الفاضلة)... الطبيعة البشريَّة هي ملكنا متأهله لكل عمل صالح، كما كتب الطوباوي بولس: "مخلوقين لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها لكي نسلك فيها" (أف ٢: ١٠).

لذلك عندما نكون غير أمناء في ما هو للغير، أعني في الأمور التي تُضاف إلينا من الخارج، فكيف نتقبل ما هو لنا؟ كيف يمكن أن نصير شركاء في الأعمال الصالحة التي يهبها الله، التي تزين النفس وتطبع عليها جمالاً إلهيًا، وتشكل فيها بطريقة روحيَّة البرّ والقداسة والأعمال المستقيمة التي تمارس بمخافة الله؟

ليت الذين يملكون منا غنى أرضيًا يفتحون قلوبهم للمحتاجين، فنظهر أمناء ومطيعين لنواميس الله، وتابعين لإرادة ربَّنا في الأمور التي هي في الخارج والتي ليست مالنا، فنتقبل ما هو لنا، أي الجمال المقدَّس العجيب الذي يشكله الله في نفوس البشر، فيجعلهم على شبهه كما كنا في الأصل[١].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ما هو للغير: كمية من الذهب أو الفضة؛ أما ما هو لك فهو الميراث الروحي، إذ قيل في موضع آخر: "فديَّة حياة (نفس) إنسان غناه" (أم ١٣: ٨)[٢].

[1] *In Luc Ser. 109.*
[2] *Ep 22:31.*

القدِّيس جيروم

❖ إن كنا لا نبالي بالأمور المنظورة (نستهين بالعطاء...) فكيف يعلن لنا الله ما هو غير منظور؟[1]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

سابعًا: يضع السيِّد المسيح حدًا فاصلاً بين قبول صداقته والارتباك بمحبَّة المال، قائلاً: **"لا يقدر خادم أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال" [١٣].**

❖ خادم المسيح الكامل ليس له شيء بجانب المسيح؛ فإن كان له شيء بجانب المسيح فهو ليس كاملاً[2].

القدِّيس جيروم

❖ "لا يقدر خادم أن يخدم سيدين"، ليس لأنه يوجد سيدان، إنما سيد واحد، إذ ليس للمال حق السيادة، إنما الإنسان هو الذي يثقل نفسه بنير العبوديَّة (للمال).

ليس للمال سلطان عادل إنما عبوديَّة ظالمة، لذلك قال: "اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم"...

لا تكن عبدًا للمال، ولا للملذّات الخارجيَّة، إذ يليق بك ألا تعترف بسيدٍ آخر غير المسيح[3].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ يستحيل على شخص بذاته أن ينقسم بين متناقضات ويعيش بلا لوم. هذا أظهره بقوله: "لا يقدر أحد أن يخدم سيدين"... لا يمكن أن نخدم الله ومحبَّة المال...

ليت كل واحدٍ منا يستبعد من ذهنه تمامًا أن يكون عبدًا للمال، فنحني رقبتنا للمسيح مخلِّصنا جميعًا بكل حريَّة بلا مانع[4].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ الوكيل الذي يسيء تدبير أمور سيِّده ويفقد ممتلكاته يخاف من مواجهته، وعلى العكس الوكيل الذي يدبر أمور سيِّده حسنًا دائما يلتقي به ببهجة[5].

---

[1] *In 1 Tim hom 5.*
[2] *Ep. 14:6.*
[3] *In Luc 16:1-13.*
[4] *In Luc Ser 109.*
[5] *In Ps. Hom 7.*

القدِّيس جيروم

❖ اظهر في القليل ما تود أن تفعله متى كان لك الكثير... قدِّم برهانًا كالأرملة التي كان لها فلسين فقدَّمتهما، قدَّمت كل ما تملكه[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

٢. الصداقة الإلهيَّة ومحبَّة المال

إذ لمس السيِّد المسيح إله الفرِّيسيِّين ووضع يده على جرحهم الحقيقي: "محبَّة المال" لم يطيقوا أن يسمعوه، فصاروا يستهزئون به، إذ قال الإنجيلي: "**وكان الفريسيُّون أيضًا يسمعون هذا كله وهم محبون للمال فاستهزأوا به. فقال لهم: أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس، ولكن الله يعرف قلوبكم، أن المستعلي عند الناس هو رجس قدام الله" [١٤-١٥]**. هذا هو داء الفرِيسيِّين "محبة المال" الذي ملك كإله في القلب، مكتسيًا بكبرياء وعجرفة واستعلاء، فعوض اعترافه بشره يتظاهر بالغيرة على الناموس والتدقيق في تنفيذ الشريعة بحرفيَّة قاتلة.

❖ إذ يكشف الرب مكرهم الخفي يؤكد تظاهرهم بالبرّ[2].

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ أخبرهم السيِّد أنه من واجبهم أن يبيعوا ممتلكاتهم ويوزعونها على الفقراء فيملكون في السماء كنزًا لا يمكن أن يُسرق، وثروة لا تُنتهك، وغنى لا يبدد، فلماذا سخروا به؟ لأن التعليم كان وقورًا، طريقًا للرجاء في الأمور المقبلة، وبابًا يقود الحياة التي بلا فساد، لأنه كان يعلمهم طرق الغنى الحقيقي وكيفيَّة نوال إكليل الدعوة السمائية، كيف يصيرون شركاء مع القدِّيسين وأبناء المدينة العلويَّة، أورشليم التي في السماء، أمنا الحرة حقًا (غل ٤: ٢٦)...

لماذا سخروا به؟ لأن هوى الطمع قد ملك على قلوبهم؛ وطغيانه سيطّر على ذهنهم، فكانوا في مذلة حتى بغير إرادة، ساقطين تحت سلطان الشر، ومقيدين برباطات لا تنحل. يقول كاتب سفر الأمثال: "بحبال خطيته يُمسك" (أم ٥: ٢٢)...

كما أن الفرس الذي يصعب أن يُلجم وأن يُدار، الثائر، لا يطيع تحركات اللجام، هكذا ذهن الإنسان الساقط تحت تأثير الأهواء والمنجرف تمامًا نحو الشر هو غير مطيع ولا يمكن اجتذابه

---

[1] *In Hebr. Hom 3:9.*
[2] *Catena Aurea.*

رافضًا الشفاء ببغضة.

❖ إذ عرض المخلِّص عليهم كلمات كثيرة، ورأى أنهم لا يريدون تغيير أهدافهم المخادعة وأهوائهم، مفضلين بالحري بقاءهم في غبائهم الفطري أخذ يوبخهم بعنفٍ... لقد أظهر أنهم مراءون وكذابون... شغوفون نحو المجد اللائق بالأبرار والصالحين دون أن يصيروا هكذا؛ لا يطلبون رضا الله، بل العكس يشغفون نحو الكرامات البشريَّة. لذلك قال: "**أنتم الذين تبررون أنفسكم قدام الناس، ولكن الله يعرف قلوبكم، أن المستعلي عند الناس هو رجس قدام الله**" **[١٥]**. وقد وُجد السيِّد في موضع آخر يقول لهم: "كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدًا بعضكم من بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه؟!" (يو ٥: ٤٤). فإن إله الكل يتّوج بالكرامة الأبرار الذين هم بالحق صالحون، أما المراءون الذين لا يحبون الفضيلة، فيسرقون خلال كلماتهم (المخادعة) مجرد السمعة كمكرمين...

"الله يعرف قلوبكم"، الديان لا يمكن أن يُخدع، إذ يعرف أعماق الذهن، يعرف المجاهد الحقيقي وسارق الكرامة التي يستحقها الغير خلال الخداع. بينما يكرم الله الأبرار الحقيقيين، إذا به يبدد عظام الذين يرضون البشر (مز ٥٣: ٥)[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ ليس فقط الزنا والدعارة هما اللذان يدنسان من يمارسهما، لكن الكبرياء أيضًا يدنس الإنسان أكثر منهما[2].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

٣. الصداقة الإلهيَّة والوصيَّة الصعبة

إذ ظن الفريسيُّون في حبهم للمال أن يسرقوا الملكوت بالخداع، فيظهرون أمام الناس غير ما يبطنون، مرتدين ثوب الرياء، أكد لهم السيِّد أن ملكوت السماوات يُغتصب خلال الوصيَّة في أعماقها. لقد فتح الفريسيُّون الباب الواسع الذي ينافي روح الوصيَّة. مثال ذلك سمحوا بالطلاق ولو لأجل الطعام، فإن لم يُعجَب الزوج بأكلة تقدِّمها له زوجته طلقها... الأمر الذي يفسد الحياة الزوجيَّة ويحطم مفهومها.

لماذا اختار السيِّد مَثَل الزواج من بين كل الشرائع أو الوصايا الكتابية؟ لعل السيِّد المسيح أراد

---

[1] *In Luc Ser 110.*
[2] *In Ioan 16:4.*

أن يربط بين الصداقة الإلهيَّة والحياة الزوجيَّة، فعلاقتنا بالله لا تقوم على تنفيذ الوصيَّة أو تتميم الشرائع في شكليَّة ظاهرة، وإنما على رباط صداقته أو قل اتحاد زوجي روحي لا ينحل. فإن كنا أمناء في علاقتنا مع بعضنا البعض، خاصة في العلاقة الأسريَّة، نلتزم بالوصيَّة في أعماقها، وصيَّة الحب الزوجي والاتحاد الذي لا ينحل، بهذا نكون أمناء في القليل فيُعطى لنا الكثير: الحب والاتحاد مع الله نفسه. هذا هو غاية الناموس، وهذا هو هدف الوصيَّة، أن نغتصب الملكوت بممارسة الوصيَّة في أعماقها الروحيَّة، فلا يسقط منها حرف واحد خلال حياتنا العمليَّة، بهذا نتذوق الحياة الزوجيَّة التي تبغض الطلاق.

يقول السيِّد المسيح: "**كان الناموس والأنبياء إلى يوحنا، ومن ذلك الوقت يُبشر بملكوت الله، وكل واحدٍ يغتصب نفسه إليه. ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس. كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني، وكل من يتزوج بمطلقة من رجل يزني**" [١٦-١٨].

❖ لم يقل الرب أن الناموس توقف وإنما صار بداية للكرازة بالإنجيل، وكأن ما هو أدنى يتوقف بمجيء الأفضل، إذن فلنغتصب بملكوت الله! لنغتصب يسوع بغيرة قويَّة وليس بفتور؛ فإن الاغتصاب في الإيمان هو تقوى، والفتور خطيَّة[1].

القدِّيس أمبروسيوس

❖ إنه يهيئهم للإيمان به، لأنه إذ جاء وقت يوحنا كملت كل الأمور. أنا هو ذاك الذي جاء![2]

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ الناموس الذي لم يكمل خلال متطلبات الحرف تحقَّق في حريَّة النعمة[3].

القدِّيس أغسطينوس

❖ "**كل من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني**". يظن البعض أن كل زواج هو من الله، إذ كُتب: "الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان" (مت ١٩: ٦). لو أن كل زواج من الله لما سُمح بالفرقة، إذ قيل: "لكن إن فارق غير المؤمن فليفارق" (١ كو ٧: ١٥)...

ليس كل زواج هو من الله، فقد أمر ألا يتزوج المسيحي بأممي كما جاء في الناموس... يتم الاتحاد عندما تتكيف الأشياء وتنسجم أوتار الآلة معًا، فتعطي شجي النغم الموسيقي... بهذا ندرك

---

[1] *In Luc 16: 19-31.*
[2] *In Matt. hom 37.*
[3] *Reply to Faustus 19:8.*

أنه لا يمكن أن يتحقَّق الانسجام في مثل هذا الزواج الذي فيه يكون العريس مسيحيًا والمرأة أممية، إنما يتحقَّق الزواج ويتم الانسجام عندما يجمعهما الرب...

لا تطلق زوجتك لأنك بهذا تعترف أن الله لم يجمعكما، فإن كنت تحتمل الآخرين وتقدِّم لهم الأعذار على تصرفاتهم فافعل ذلك مع زوجتك...

خف الله وانصت لشريعة الرب: "الذي جمعه الله لا يفرقه إنسان"؛ فإنك بالطلاق لا تهدم وصيَّة سماويَّة فحسب، إنما تهدم عمل الله...

تكلم الرب قبلاً عن ملكوت الله قائلاً أنه لا تسقط نقطة واحدة من الناموس، ثم أضاف أن من يطلق امرأته ويتزوج بأخرى يزني ومن تزوج بمطلقة من رجل يزني. ويوصينا الرسول وصيَّة مطابقة لذلك: "هذا السّر عظيم، ولكني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة" (أف ٥: ٣٢). هنا نتلامس مع زواج لا يمكن لإنسان أن يشك في أن الله قد جمعه، إذ قال: "لا يقدر أحد أن يقبل إليّ أن لم يجتذبه الآب" (يو ٦: ٤٤). إنه الوحيد القادر أن يجمع هذا الزواج، لذا قال سليمان مشيرًا للسّر: "الزوجة المتعقلة فمن عند الرب" (أم ١٩: ١٤). المسيح هو العريس، والكنيسة هي العروس والعذراء بحبها وعفتها.

ليته لا ينحرف أحد عن المسيح بسبب ضيق أو خطيَّة، وقد جذبه الآب إليه!

ليت الفلسفة لا تفسد إيماننا، وأيضا البدع!... فإن ذلك طلاق!...

ليت العريس يجد كل عروس تجدل خيوط الفضيلة الثمينة؛ ترفع يديها في الليالي (بالصلاة) (مز ١٣٣: ٢)، وتدبر عملها، وتزن عاداتها. وتنتظر مجيء عريسها متعجلة ذلك بشوق، قائلة: "العريس قد أبطأ في المجيء، لذا أسرع أنا نحوه لأراه وجهًا لوجه عندما يبدأ في المجيء في مجده. تعال أيها الرب يسوع، فتجد عروسك بلا دنس ولا غضن، لم تدنس مسكنك، ولا أهملت وصاياك". لتقل أيضًا: "وجدت من تحبه نفسي" (نش ٣: ٤)، وتدخل بك إلى بيت الخمر... تسكر بالروح، فتكشف لها السّر، وتعلمها الأسرار"[1].

القدِّيس أمبروسيوس

٤. مثل لعازر والغني

إذ تحدَّث السيِّد المسيح عن اغتصاب الملكوت بالخضوع للعريس الواحد ورفض محبَّة المال، والارتباط بناموس السيِّد أو وصيته، الآن يقدَّم لنا مثلاً فيه يكشف كيف فقد الغَني الملكوت خلال

---

[1] *In Luc 16: 16-18.*

إغراءات الغِنى بينما اغتصب لعازر المسكين الملكوت الأبدي. فيما يلي تعليقات بعض الآباء على هذا المثل:

أولاً: يرى بعض الآباء أن هذا المثل هو قصة حقيقيَّة واقعيَّة، ويدلل **القدِّيس أمبروسيوس** على ذلك بذكر اسم الفقير "لعازر". وإن كان البعض يرى في هذا الاسم رمزًا مجردًا، لأن كلمة "لعازر" تعني "إلهي معين"، كأن سرّ القوَّة في حياة هذا الفقير، ليس الفقر في ذاته، وإنما قبول آلام الفقر بشكر خلال "الله المعين".

ثانيًا: يُعلِّق **القدِّيس أمبروسيوس** على هذا المثل أو هذا الحدث كما يقول، هكذا: [ليس كل فقر بالضرورة مقدَّسًا، ولا كل غنى يكون ممقوتًا[١].] بمعنى آخر ليس الفقر غاية في ذاته ولا الغنى شر في ذاته، إنما حياة الإنسان هي التي تفسد هذا أو ذاك؛ الحياة المدللة المترفة غير المترفقة بالمحتاجين تهين الغنى، والحياة المقدَّسة الشاكرة تزين الفقر.

هذا أيضًا ما أكده **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** في أكثر من مقال، خاصة مقاله: "لا يقدر أحد أن يؤذي إنسانًا ما لم يؤذِ نفسه"، موضحًا أن الذي يسيء إلى الإنسان هو سلوك الإنسان وحياته وليس غناه أو فقره. حدثنا **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم أيضًا** عن الفقر أنه لا يقدر أن يضر إنسانًا فيجعله متذمرًا يدفعه إلى كلمات التجديف على الله، إنما النفس الدنيئة هي التي تحطم الإنسان، إذ يقول:

[ليس الفقر هو الذي يفعل بالإنسان هكذا بل دناءة النفس، لأن لعازر كان فقيرًا، نعم كان فقيرًا جدًا، ويعاني بجانب فقره من ضعفٍ جسديٍ أقسى بكثير من الفقر في أية صورة من صوره، الأمر الذي جعل فقره قاسيًا جدًا. وبجانب هذا الضعف أيضًا، كان محرومًا تمامًا من الذين يعولونه، مع صعوبة إيجاد أي مئونة لسّد أعوازه، الأمر الذي ضاعف من مرارة فقره وضعفه... فعدم وجود من يعوله يجعل ألمه أشد، واللهب أقسى، والكارثة أمرّ...

وهناك تجربة رابعة بجانب الجوانب الثلاثة السابقة، وهي عدم اكتراث الغني به بالرغم من ترفه.

وإن أردت، تجد أيضًا أمرًا خامسًا يزيد التهاب النار، أن الغني ليس فقط يعيش في حياة ترف، بل ويرى الفقير مرتين وثلاثًا بل ومرات عديدة يراه كل يوم ملقى عند بابه، إذ هو مشهد خطير لكارثة يُرثى لها. مجرد النظر إليه يكفي أن يلين القلب الحجري، ومع هذا فإن المنظر لم يدفع الرجل القاسي إلى مساعدة هذا الفقير إلى هذه الدرجة؛ إنما كان يقيم مائدته المترفة، عليها الكؤوس المزينة بالورود، والنبيذ النقي يُصب بغزارة. لديه جيوش من الطباخين والمتطفلين والمتملقين يعملون منذ الفجر المبكر،

[1] *In Luc 16:19–31.*

وفرق من المغنين وحاملي الكؤوس والمهرجين، ويقضي كل وقته منغمسًا في الملذّات والسكر والأكل بشراهة، متنعمًا بالملبس والأكل وبأمور أخرى كثيرة.

فمع أنه كان يرى هذا الفقير منكوبًا بالجوع الزائد والضعف الجسدي المرّ، وبالقروح الكثيرة والحرمان والمرض الناتج عن هذا الحال، إلا أنه لم يفكر فيه. فالمتطفلون والمتملقون كانوا يتنعمون بأكثر من احتياجاتهم، أما الفقير – الذي كان فقيرًا جدًّا ومنكوبًا بمآسي كثيرة – لم يُعطَ له حتى الفُتات الساقط من مائدته بالرغم من اشتهائه له بشوق عظيم.

رغم هذا كله، فإن شيئًا من هذه الأمور لم تؤذِ لعازر إذ لم ينطق بكلمة قاسيَّة، ولا تكلم بحديث دنيء، إنما كقطعة الذهب التي تشع ببريق أعظم كلما تنقت بنار متزايدة.

بالرغم من هذه الضيقات التي أحاطت به، إلا أنه تسامى عليها، وعلى ما تنتجه هذه الأمور من هياج.

فإن كنا نتكلم عن الفقراء عامة، وما يثور في نفوسهم من حسدٍ وما يتعذبون به من تفكير الحقد الرديء، عند رؤيتهم للأغنياء ناظرين إلى أنه لا تستحق الحياة المتسمة بالفقر أن توجد، هذا يفكر فيه الفقراء الذين يجدون القوت الضروري ولهم من يعطيهم أعوازهم، فكم يكون هذا الفقير لعازر؟ ألم يكن بحق حكيمًا جدًا، طيب القلب، إذ يرى نفسه أفقر من كل الفقراء، بل وبه ضعف، وليس له من يقيه أو يعطف عليه، مُلقى في وسط المدينة وكأنه في وسط صحراء بعيدة، يتلوى من مرارة الجوع، ويرى كل الخيرات تتدفق على الغني كما من نافورة؟ ليس له أية تعزية بشريَّة، ملقى كغذاء دائم تلحسه ألسنة الكلاب، ومن ضعفه وتحطيم جسده لا يقدر حتى على طردها!

أما تدرك إذن أن الذي لا يؤذي نفسه لا يقدر أن يؤذيه شيء؟... لأنه أي ضرر أصاب هذا من ضعف جسده أو عدم وجود من يحميه أو التفاف الكلاب حوله أو من شر مجاورته للغني ورؤيته عظم الترف والتنعم والكبرياء الذي للأخير؟ هل هذه الأمور أضعفته ليضاد الفضيلة؟ هل أوهنت هدفه؟

إنه لم يؤذه شيئًا بالكليَّة، بل كثرة أتعابه مع قسوة الغني، زودته قوَّة، وصارت بالنسبة له دعامة لنوال أكاليل النصرة غير المتناهية، كوسائل تزداد بها مكافأته، وباعث لنوال جزائه... إذ كان يحتمل تجربته بشجاعة وثبات عظيم[١].]

---

[١] من يقدر أن يؤذيك، ١٩٦٥، ص ٤١-٤٤.

ثالثًا: يرى **القدِّيس أمبروسيوس**[1] من الجانب الرمزي أن هذا الغني يشير إلى المعلمين المتعجرفين خاصةً الهراطقة، أما لعازر المسكين فيشير إلى الرعاة الكارزين خلال مسكنة الروح. كان الغني "**يلبس الأرجوان والبز، وهو يتنعم كل يوم مترفهًا**"، هكذا يختفي الهراطقة وراء الألفاظ البرّاقة والتعبيرات المخادعة كزي ثمين خارجي يخفي وراءه انحراف الإيمان. لهذا الغني خمسة إخوة يرتبط بهم خلال علاقة الجسد، وكأنهم بالحواس الخمس التي يدنسها الهراطقة، فبينما يظهرون كمتعبدين وأصحاب علم إذا بحياتهم الداخليَّة فاسدة خلال حواس جسدانية شهوانية غير مقدَّسة للرب. أما الفقير فكان يدعى "**لعازر**"، أي "إلهي معين". فالخادم الحقيقي هو الذي لا يتكئ على ذاته، وإنما على الله معينه. الذي يفيض على حياته الداخليَّة بنعمته الفائقة، ويعمل به أيضًا في كرازته ورعايته، يقول مع الرسول بولس: "لنا هذا الكنز في أوانٍ خزفيَّة ليكون فضل القوَّة لله لا منا"، "ليس أننا كفاة من أنفسنا أن نفتكر شيئًا كأنه من أنفسنا بل كفايتنا من الله" (٢ كو ٤: ٧؛ ٣: ٥).

رابعًا: يقول السيِّد المسيح: "**كان إنسان غني، وكان يلبس الأرجوان والبزّ، وهو يتنعم كل يوم مترفهًا. وكان مسكين اسمه لعازر الذي طرح عند بابه مضروبًا بالقروح" [١٩-٢٠].**

❖ أسألك أن تلاحظ بدقة كلمات المخلِّص... لقد دعاه "غنيًا" هكذا، أما الفقير فأشار إليه بالاسم. ماذا نستنتج من هذا؟ أن الغني بكونه غير رحيم كان في حضرة الله بلا اسم، إذ قيل في موضع آخر بصوت المرتل عن الذين لا يخافون الرب: "لا أذكر أسماءهم بشفتي" (مز ١٦: ٤)، أما الفقير فكما قلت فذُكر اسمه بلسان الله[2].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ أشار ربَّنا إلى اسم الفقير دون اسم الغني إذ يعرف الله المتواضع ويزكيه دون المتكبر[3].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ [عن اهتمامه بالملابس الخارجيَّة من أرجوان وبزّ]

لقد تغطى التراب والرماد والأرض بالأرجوان والحرير، أو حمل التراب والرماد والأرض عليه أرجوانًا وحريرًا. وكما كانت ثيابه هكذا كان طعامه (يأكل جسده الترابي الطعام المترف)[4].

---

[1] *In Luc 16:19–31.*
[2] *In Luc Ser 111.*
[3] *Moral 1:8.*
[4] *Catena Aurea.*

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ لننظر إلى كبرياء الغني الذي كان متعجرفًا بسبب أمور ليست بذات قيمة حقيقيَّة، إذ قيل: "**كان يلبس الأرجوان والبزّ**"، أي كان همه أن يتزين بلباس جميل، فكان ثوبه غالي الثمن. يحيا في ولائم لا تنقطع، هذا ما يعنيه بالقول "يتنعم كل يوم"، هذا بجانب القول "مترفهًا" أي مسرفًا... ماذا كانت النتيجة؟ يختلف قليلاً عن أشكال التماثيل والرسم، إذ بالحقيقة كان الغني موضع إعجاب المنهمكين في الحسيات، أما قلبه فكان مملوء كبرياءً وتشامخًا، فكان يظن في نفسه شيئًا بعجرفة، مع أنه لا يوجد في ذهنه شيء ممتاز، كان يقدَّم ألوانًا متباينة بسبب كبريائه الفارغ. كانت لذته في الولائم الباهظة التكلفة والموسيقى والطرب، له طباخون كثيرون يعملون لإثارة النهم بالأطعمة الشهية؛ يرتدي حاملو الكؤوس ثيابًا جميلة؛ لديه مغنون ومغنيات؛ يسمع أصوات المتملقين. هكذا كان يعيش الغني، لذا يحذِّرنا تلميذ المسيح، قائلاً: "لأن كل ما في العالم شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة" (١ يو ٢: ١٦).

بينما كان لعازر يعاني من المرض والفقر، مطرودًا عند باب الغني. كان الغني يسكن القاعات المرتفعة والمنازل الفسيحة الفخمة، أما الفقير فكان ملقيًا خارجًا، مُهملاً يبدو كمن لا يستحق شيئًا. إذ حُرِم من الحنو عليه والرعاية به لم يجد ما يشبع جوعه، فكان يجمع الفتات الساقط من مائدة الغني. كان أيضًا يتعذب من مرضٍ خطيرٍ بلا علاج، نعم والكلاب كانت تلحس قروحه؛ وكما يبدو أنها لم تكن تؤذيه وإنما كانت تواسيه وتحنو عليه، فبألسنتها يرطبون أتعابه وينزعون ما يؤلمه، ويلطفون من أمر قروحه.

لكن الغني كان أقسى من الوحوش إذ لم يترفق به ولا واساه، إنما كان عنيفًا[1].

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ ليس شيء أخطر من الترف. اسمع ما يقوله موسى عنه: "(يعقوب) سمن وغلظ، المحبوب رفس" (تث ٣٢: ١٥ الترجمة السبعينيَّة). لم يقل موسى أن يعقوب مشى وإنما المحبوب رفس، مظهرًا كيف صار متشامخًا وبلا ضابط.

في موضع آخر يقول موسى أنه متى أكلت وشربت: "احترز من أن تنسى الرب إلهك" (تث ٨: ١١). بهذا فإن الشبع يقود إلى النسيان. لهذا أيها الأحبَّاء، متى جلستم على المائدة تذكروا أن تنطلقوا من المائدة إلى الصلاة. املأ بطنك باعتدال كي لا تثقل فلا تقدر أن تحني ركبتيك وتدعو الله... ليتنا

[1] *In Luc Ser 111.*

بعد العشاء لا نذهب إلى السرير بل إلى الصلاة، لئلاَّ نصير أكثر غباوة من الحيوانات غير العاقلة. إني أعرف أن كثيرين ينتقدون ما أقوله، حاسبين إنني أقدِّم عادة جديدة غريبة في حياتنا.

❖ إننا لم نولد ولا نعيش لكي نأكل ونشرب، إنما نأكل لكي نعيش. في البداية لم تكن الحياة من أجل الطعام، وإنما الطعام لأجل الحياة. أما نحن فكأننا قد جئنا إلى العالم لهذا الغرض، أن نقدِّم كل شيء لكي نأكل[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

خامسًا: يرى بعض الآباء في هذا المثل صورة رمزية لليهود والأمم، فكان الغني المتعجرف يمثل اليهود الذين أنعم الله عليهم بغنى عظيم، إذ قدَّم لهم العهود والناموس والنبوات الخ. وكان يليق بهم أن يقدِّموا للعالم من هذا الغنى بطريقة روحيَّة، فيكونوا هم الكارزين بالحق والمبشرين بإنجيل الخلاص، لكنهم اعتزوا بالغنى في حرفيته، واستغلوا عطايا الله لحساب ذواتهم وكرامتهم الزمنيَّة، وأرادوا أن يلقوا بالأمم كمسكين خارج أبواب الإيمان، مملوء بالجراحات والقروح.

ازدرى اليهود بالمسكين (العالم الأممي)، فحرم اليهود الجاحدون من بركات الإيمان والتمتع بالملكوت الإلهي، بينما انفتح الباب للأمم ليمسح الله دموعهم، ويشبع نفوسهم، ويشفيهم من قروحهم الظاهرة والخفيَّة. كان اليهود كالغني الذي كان يأنف من قروح لعازر المسكين ولا يطيق رائحة قروحه في ولائمه العظيمة ليكون بين مدعويه، إذ هو يسأم حتى رائحة الهواء الطبيعيَّة كما يقول **القدِّيس أمبروسيوس.** كانوا يجدون متعتهم في بؤس الفقراء والاستهزاء بالمساكين، فأرسل الله عونًا للأمم ليحملهم إلى ملكوته.

❖ هذا الرجل الغني يرمز لليهود الذين كانوا يفتخرون باستحقاقاتهم الذاتيَّة، الذين "يجهلون برّ الله ويطلبون أن يثبتوا برّ أنفسهم" (رو ١٠: ٣).

الأرجوان والبزّ هما كرامة الملكوت، إذ كُتب في الإنجيل عن اليهود: "إن ملكوت الله ينزع منكم، ويُعطى لأمة تعمل برًا" (راجع مت ٢١: ٤٣).

الوليمة الفاخرة هكذا هي الاستخدام الفارغ (الخاطىء) للناموس لتمجيدهم، إذ كانوا يسيئون استخدامه، فيحسبونه للكبرياء الفارغ عوض الانتفاع به للخلاص.

الشحاذ الذي دُعي "لعازر"، والذي يعني "المُعان"، يعني الأمم الذين تمتعوا بعون أعظم حيث

---

[1] *Conc. Lazaro 1.*

ظهروا أقل من الآخرين من جهة الغنى... في الحقيقة كان الأمم – أو لعازر – يشتهون الفتات الساقط من مائدة الغني، إذ كانوا يشتهون نوال معرفة الناموس الروحي كملذّات سماويَّة. الفتات الساقط من المائدة هو كلمات الناموس التي أُلقيت على الأرض بسبب كبرياء اليهود عندما كانوا يتكلَّمون للشعب بعجرفة. أما القروح التي ملأت جسم لعازر فهي الاعتراف بالخطايا التي ظهرت في الخارج وكأنها قد اندفعت من الداخل كدمٍ فاسدٍ.

❖ يليق بنا أيها الأخوة الأعزاء أن نميز بين الجروح والقروح. الجروح تحل بنا من الخارج، أما القروح فتأتينا من الداخل. لذا فالقروح تعني الاعتراف بالخطايا لأنها إذ تطفح على الجلد في الخارج يكون ذلك شهادة على بدء الصحة في الداخل لذلك عندما يعترف إنسان بخطاياه في تواضع يبدو كمن صار مملوء قروحًا في الخارج، وإنه صار في صحة داخليًا. أما إذا كان كذاك الغني يزيّن جسده مستهينًا بالاعتراف بالخطايا، يكون مزّينًا في الخارج بينما الداخل مملوء قروحًا. هكذا كان ذاك الغني الذي ارتدى الأرجوان والبزّ بينما كانت نفسه موبوءة بالبرص. لهذا كانت نفس الغني في عيني الملائكة كجسد المسكين في عيني البشر، أما نفس الفقير فكانت كجسد الغني.

بعد الموت تبادلا الوضع، فقد تحلى لعازر بلآلىء الفضائل بعد قروحه، فحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، أما الغني فبعد ثيابه الأرجوانية ضُرب ببرص الخطيَّة وانحدر إلى أعماق الهاويَّة.

على أي الأحوال لم يتعذب الغني في الهاويَّة بسبب غناه، وإنما بسبب كبريائه وقسوته.

علاوة على هذا يمكن فهم الكلاب التي كانت تلحس القروح بأشر الناس الذين يحبون خطاياهم، إذ لا يتوقفون عن مدح أفعالهم الشرِّيرة بألسنتهم الطويلة.

❖ يفهم "حضن إبراهيم" على أنه راحة المطوبين الذين ينتمون لملكوت السماوات، إذ يُستقبلون هناك بعد هذه الحياة. أما الدفن في الهاوية فهي نهاية أعماق كل العقوبات التي تحلّ على المتكبرين والقساة بعد هذه الحياة.

حقيقة أنه كان في عوز إلى تبريد لسانه عندما كان ملتهبًا بكليته، إنما تعني أن "الموت والحياة في سلطان (يدّ) اللسان" (أم ١٨: ٢١)، وأن: "الفم يعترف به للخلاص" (رو١٠: ١٠). لهذا فإن اللسان سقط تحت احتراق أشد لأنه ليس فقط رفض أن ينطق بأنه يلزم إعطاء الفقير شيئًا وإنما لأنه أيضًا تفوّه بكلمات قاسية للغاية. طرف اللسان يفهم به نعمة الروح القدس كما قال الرب نفسه: "إن كنت بإصبع الله أخرج الشياطين" (لو ١١: ٢٠). بالحقيقة يُفهم بطرف الإصبع أقل عمل للرحمة الذي

به تُعطى المعونة للبشر بالروح القدس[1].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ من هم أولئك الذين يمثلهم ذاك الغني الذي يرتدي ثيابًا فاخرة والمتنعم بكل هذه الولائم اليومية؟ أليس الشعب اليهودي الذي قدَّم العبادة خلال الأمور الخارجيَّة، مستخدمًا مباهج الناموس الذي تسلموه بدوافع باطلة وليس لنفع حقيقي؟!

ومن هو لعازر هذا الذي تغطى بجراحات إلا الشعوب الأممية؟! هؤلاء الذين إذ تحولوا إلى الله لم يخجلوا من الاعتراف بخطاياهم، قل كان لهم جراحات كثيرة (داخليَّة) أُعلنت بقروح ظاهرة، وذلك كما إذا حدث تعفن داخلي في الجسد فإنه يؤثر على الجلد، فيظهر التعفن خارجيًا بقروح. هكذا عندما نعترف بخطايانا نكون كمن أظهر القروح. في الاعتراف نعلن بطريقة نافعة عن فيروس الخطيَّة الذي يختبئ سمه داخل النفس. الجراحات الظاهرة تقدَّم للسطح القروح المتغللة من تحت، هكذا أيضًا عندما نعترف بخطايانا نكشف قروحنا الخفيَّة.

اشتهى لعازر المسكين أن يأكل الفتات الساقط من مائدة الغني ولم يعطه أحد شيئًا، لأنهم شعب متكبر يرفض أن يضم الأمم إلى معرفة ناموسهم. إذ كان لهم معرفة الحق كانوا ينمون في الغرور لا في المحبَّة، يتشامخون في فساد بالغنى الذي وُهب لهم.

لقد تقبّل الشعب اليهودي كلمات المعرفة هذه بفيض، فسقطت منهم كفتات من مائدتهم، أما الكلاب فعلى العكس جاءت تلحس قروح المسكين الساقط على الأرض.

أحيانًا يقصد الكتاب المقدَّس بكلمة "كلب" معنى "الكارز"، لأنه عندما تلحس الكلاب الجراحات تشفيها، هكذا عندما يعلمنا المعلمون القدِّيسون أن نعترف بخطايانا، نقول إنهم يلحسون قروح ذهننا بلسانهم، عندما يحثوننا يخلصوننا من الخطيَّة، كما لو كانوا يعيدوننا إلى الصحة.

الله نفسه يخبرنا خلال المرتل أن لسان الكارز يعني به "الكلب"، عندما قال: "دم أعدائك، ألسنة كلابك من الأعداء نصيبهم" (مز ٦٨: ٢٣).

من وسط اليهود غير المؤمنين أُختير المبشرون القدِّيسون، الذين أن استخدمت التعبير ينبحون لتأكيد الحق، كلاب الله للحراسة ضد السارقين واللصوص. على العكس، إذ يتكلَّم عن رفض البعض نقرأ: "كلاب بُكم لا تقدر أن تنبح" (إش ٥٦: ١٠).

المبشرون القدِّيسون يدينون الخطيَّة مزكين الاعتراف بها، قائلين: "اعترفوا بعضكم لبعض بالزلات،

---

[1] *Ser. 165:1-3.*

وصلوا بعضكم لأجل بعض لكي (تخلصوا)" (يع ٥: ١٦).

تلحس الكلاب جراحات لعازر، هكذا إذ يتقبل المعلمون القدِّيسون اعترافات الأمم يشفون جراحات نفوسهم. وقد جاء اسم "لعازر" ينطبق على التفسير، إذ يعني "مُعان"، يُعان لكي يشفى بالإصلاحات والعظات.

أيضًا يمكن فهم لحسات الكلاب على أنها لسان المتملقين الناعمة، يتم ذلك عندما يمدحوننا بالتملقات الدنيئة عن أعمال يحدثنا عنها ضميرنا بأنها شرِّيرة[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

إن كان بعض الآباء يرون في لعازر المسكين رمزًا للأمم، وقد قدَّم لهم الله الكارزين – أن صح التعبير ككلاب الحراسة – يعلنون لهم الشفاء من قروحهم الداخليَّة والخارجيَّة بقبول كلمة الكرازة والاعتراف بالخطايا، فإن **للقدِّيس أمبروسيوس**[2] تفسير آخر، إذ يرى في هذا الفقير الذي تلحس الكلاب قروحه صورة رمزية لرسول الأمم بولس الذي احتمل الجلدات، فصار جسده كأنه مضروب بقروح، وقد جاءت الأمم لتتقبل تعاليمه الإيمانية خلال هذا الجسد المضروب والمهان. الأمم التي شبهت بالكلاب الجائعة لخبز البنين (مت ١٥: ٢٦) شبعت خلال جراحات الرسول بكرازته عن الإنجيل. بمعنى آخر إن كان الأبناء قد رفضوا الخبز الحيّ، إذ لم يقبلوا تحقيق النبوات في شخص المسّيا، جاءت الأمم (تحسب نفسها ولو كالكلاب) تطلب الفتات الساقط من مائدة الأنبياء لتشبع أبديًا. بهذا جاع البنون وشبعت الكلاب (حسبما دعاهم اليهود من باب السخريَّة).

يكمل **القدِّيس أمبروسيوس** حديثه، قائلاً: [إيه أيتها القروح المطّوبة الشافيَّة من العذاب الأبدي! إيه أيها الفتات (مت ١٥: ٢٧) الفائق الطارد للجوع أبديًا! إنك تشبع المسكين الذي يَقبلك غذاءً أبديًا.]

يقول أيضًا: [صار الغنى فقرًا، والفقر غنى... فقد صار الغني في عذاب إذ حُرم من الملذّات بعد أن كان مترفًا، يتوق في الجحيم أن يبّل الفقير طرف إصبعه بماء ويبرد لسانه. أنه محتاج إلى الماء غذاء الروح وقت البليَّة[3].]

سادسًا: إذ قدَّم لنا السيِّد المسيح صورة لعازر والغني في العالم، عاد ليقدَّم الصورة المقابلة عند موتهما، إذ يقول: "**فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم، ومات الغني أيضًا ودفن**"

---

[1] *In Evang. hom 40.*
[2] *In Luc 16:19-31.*
[3] *In Luc 16:19-31.*

[٢٢]. عبرت الصورة الزمنيَّة المؤقتة التي كان فيها الغني يعيش في ملذّاته الزمنيَّة ولعازر مطروحًا على الأرض يشتهي الفتات الساقط من مائدته. وحلت صورة أبديَّة مغايرة فيها يُحرم الغني من أبيه إبراهيم، إذ يراه بعيدًا جدًا عنه، هذا الذي كان يفخر قبلاً في عجرفة أنه ابن إبراهيم دون أن يحمل إيمانه العملي. بينما احتل المسكين (الأمم) الموضع أبديًا إذ صار في حضن إبراهيم يتمتع معه بالملكوت السماوي.

في نص منسوب **للقدِّيس يوحنا الذهبي الفم** جاء: [فجاة تحولت العذابات العظيمة إلى بركة. فقد حُمل (المسكين) بعد أتعابه الكثيرة إذ كان واهنًا، أو غير قادرٍ على المشي، لذا حملته الملائكة. ملاك واحد لم يكن كافيًا لحمله بل جاء كثيرون يحملونه، إذ كونوا جوقة مفرحة، كل ملاك يتهلل أن يلمس ثقلاً عظيمًا كهذا. ببهجة يفعلون هذا حاملين الثقل لكي يقدَّموا البشر لملكوت السماوات. لقد حمل إلى حضن إبراهيم لكي يحتضنه إبراهيم ويجعل مدللاً. حضن إبراهيم هو الفردوس![١]]

❖ لاحظ بدقة كلمات المخلِّص، فبالنسبة للفقير يقول أنه حُمل بواسطة الملائكة إلى حضن إبراهيم؛ أما بالنسبة للغني فلم يقل شيئًا من هذا، إنما اكتفى بالقول أنه مات ودُفن. فإن الذين **يضعون رجاءهم في الله يجدون في رحيلهم من العالم خلاصًا** من العذابات والألم. علمنا سليمان شيئًا من هذا القبيل: "في نظر الناس يبدو أنهم ماتوا، ويُظن رحيلهم ضررًا، ومُضيهم عنا خرابًا، وأما هم ففي سلام، ورجاؤهم مملوء خلودًا" (حك ٣: ٢، ٣). يُعطى لهم مقياس من التعزية يتناسب مع أتعابهم، بل ما يفوق أتعابهم ويزيد، إذ يقول المسيح في موضع ما: "كيلاً جيدًا ملبدًا مهزوزًا فائضًا يُعطون في أحضانكم" (لو ٦: ٣٨).

كما أن السفن التي تبحر تواجه الأمواج العنيفة، وتصارع الرياح الشديدة القويَّة، ولكنها إذ تبلغ المواني تستقر فلا تقذفها الأمواج، هكذا بنفس الطريقة أظن أن نفوس البشر إذ تنطلق من متاعب الأرضيات وتدخل المساكن العلويَّة كما في ميناء الخلاص...

أما بالنسبة للغني الذي سلك بقسوة لا تعرف الرحمة، فإن انفصال الجسد بالنسبة له كان موتًا، إذ يترك اللذة إلى العذاب، ويخرج من المجدٍ إلى الهوانٍ، ومن النورٍ إلى الظلمة. كان يجب أن يعاني الغني من هذه الأمور إذ كان متنعمًا، مغلق اليدين، غير مستعد لممارسة الرحمة. ومما يزيد عذابه أنه في الجحيم تطلع ليرى لعازر في حضن إبراهيم[٢].

[1] *Catena Aure*
[2] *In Luc Ser. 111.*

القدِّيس كيرلس الكبير

❖ إنني أعرف كم هو مرعب الجزاء الذي حل بفكر الغني المتكبر الذي كان يلبس الأرجوان ولم يُرد أن يساعد لعازر. الفقير الذي نحتقره ولا نستطيع حتى النظر إليه، إن تطلعنا إليه يثير معدتنا، هو إنسان مثلنا، صُنع من نفس طينتنا، وشُكِّلَ من نفس معدننا. ما يعانيه الآن يمكن أن يحلّ بنا. لننظر إلى جراحاته كجراحات لنا[١].

❖ هوذا يقدَّم البؤس عِوَض الشبع، ويقدَّم الشبع عِوَض البؤس[٢].

القدِّيس جيروم

❖ [يتحدَّث عن موت نفس الغني قبل جسده، إذ يقول:]

لنضع أمامنا الغني الذي في قصة لعازر، فنعرف ما هو موت النفس، إذ كان يحمل نفسًا ميتة كما يظهر من تصرفاته.

لم يكن يمارس عملاً من أعمال النفس، إنما كان يأكل ويشرب ويعيش في ترف فحسب. هذا هو حال الأشخاص القساة الذين بلا رحمة حتى الآن، إذ لهم نفس ميتة كما كان لهذا الغني. لقد هرب منه **الدفء الصادر عن محبَّة قريبنا**، فكانت نفسه ميتة أكثر من موت الجسد. أما الفقير فلم يكن هكذا إذ كان واقفًا على قمة الحكمة السماويَّة مشرقًا، وبالرغم من صراعه ضد الجوع المستمر ولم يكن له حتى القوت الضروري، لكنه لم يتفوه بكلمة تجديف ضد الله، بل احتمل كل شيء بنبلٍ. وهذا عمل للنفس ليس هينًا، بل يكشف عن نفس قويَّة كاملة الصحة[٣].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ يقول المسيح: "**فمات المسكين وحملته الملائكة**" **[٢٢].**

أود في هذه النقطة أن أزيل مرضًا شرِّيرا تفشى في نفوسكم، فإن بسطاء كثيرين يظنون أن نفوس الذين يموتون بطريقة عنيفة (كمقتولين) تصير شياطين. هذا أمر مستحيل، بل ومستحيل تمامًا. ليس نفوس الذين يموتون خلال العنف تصير شياطين، بل نفوس الذين يعيشون في الخطيَّة؛ لا بمعنى أن طبيعتهم البشريَّة تتغير، وإنما يكون سلوك حياتهم متمثلاً بشر الشياطين. هذا ما أوضحه المسيح حقًا لليهود عندما قال: "أنتم أبناء إبليس" (يو ٨: ٤٤). دعاهم أبناء إبليس ليس لأنهم تغيروا إلى طبيعة

---

[1] *Ep 77:6.*
[2] *Ep 48:21.*
[3] *In 2 Cor hom 6.*

إبليس، إنما لأنهم يمارسون أعماله. لهذا يضيف: "وشهوات أبيكم تريدوا أن تعملوا. بنفس الطريقة يقول يوحنا: "يا أولاد الأفاعي، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟! فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا" (مت ٣: ٧-٩)...

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ ها أنتم ترون هنا أنه يقال: "**وحملته الملائكة**".

واحد أُقتيد كسجين والآخر حمل على الأكتاف كمنتصر!

وكما في الساحة عندما يصاب المقاتل بجراحات كثيرة ويتفجر منه الدم يوضع عليه إكليل النصرة، فيحيه الواقفون أمام الساحة بهتافات عاليَّة، ويحملونه إلى بيته بالتصفيق والصياح بإعجاب، هكذا اقتادت الملائكة لعازر. أما الرجل الثاني فقد جاءت بعض القوات الشرِّيرة تطلبه، ربَّما أُرسلت لهذا الغرض (لتبكيته على تصرفاته).

[يرى **القدِّيس ذهبي الفم** أن الشرِّير عند موته تقتاد الخطايا نفسه لتكون سرّ تبكيته المستمر.]

❖ مات الغني ودفن، وقد سبق فدفن نفسه في جسده كما في قبر، إذا ارتدى الجسد كمقبرة لنفسه (خلال الشهوات الجسديَّة[1]).

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

سابعًا: يحدثنا السيِّد المسيح عن صورة الغني قاسي القلب في العذاب بينما يتنعم لعازر بحضن إبراهيم، قائلاً: "**فرفع عينيه في الهاوية وهو في العذاب، ورأى إبراهيم من بعيد، ولعازر في حضنه**" **[٢٣]**.

❖ كان ثقل آلام الفقير يزداد بوجوده ملقيًا أمام باب الغني ينظر الغنى الذي يعيش فيه. هكذا عندما مات الغني، فقد ازداد عذابه بكونه وهو في الهاوية يرى سعادة لعازر، فلا يقف الأمر عن إحساسه بعذاباته الخاصة وإنما بمقارنته لنفسه بالنسبة لكرامة لعازر تتضاعف آلامه...

رفع الغني عينيه لكي ينظر لعازر لا ليحتقره، إذ صار لعازر فوق، أما هو فأسفل. ملائكة كثيرون حملوا لعازر أما هو فأمسكت به عذابات بلا حصر...

كان بكامله في العذابات، ولم يكن فيه ما هو حُرّ إلا عيناه لكي تتطلعا إلى فرح الغير. سُمح لعينيه أن تنظرا حتى يزداد عذابه إذ يرى نفسه لا ينعم بما لدى الغير...

[1] *Conc. Lazar. 2.*

رأى الغني لعازر في حضن إبراهيم... لأن إبراهيم كان مملوءً حبًا، أما هو فكان مدانًا بجريمة القسوة. كان إبراهيم يجلس بجوار داره يترقب العابرين ليدخل بهم بيته، أما هو فكان يطرد حتى الذين عند بابه[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

مع أن الكتاب المقدَّس يشهد عن إبراهيم أنه كان غنيًا جدًا، لكنه كمحبٍ للعطاء يتقبل في حضنه الفقراء والمحتاجين كما يتقبل محبي العطاء، الحاملين سماته، أما المترفون والمدللون غير المبالين بإخوتهم فلا يجدوا لهم موضعًا فيه. يكمل السيِّد المسيح المثل، قائلاً:

"**فنادى وقال: يا أبي إبراهيم ارحمني،**
وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني،
لأني معذب في هذا اللهيب" [٢٤]

❖ واحد كان يسأل الفتات من مائدة الغني، والآخر يطلب قطرة ماء من إصبع الفقير. لكن الفقير نال الفتات بأكثر سهولة من الغني في طلبه قطرة الماء، إذ جاءه الجواب: "يا ابني أذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك" (لو ١٦: ٢٥)[2].

الأب قيصريوس أسقف آرل

❖ اللهيب الذي فيه يحترق الغني ونقطة الماء التي يطلبها ليسا ماديين، وإنما أشبه برؤيا بالنسبة للنائمين والأشخاص الهائمين (مختطفين)، إذ تظهر لهم الأمور غير الماديَّة كما لو كانت مجسمة. فمع كون هذا الشخص وهو في هذه الحالة بدون جسد، أي روح مجردة، لكنه رأى نفسه كمن هو في جسده، إذ يستحيل عليه أن يميز حاله (ويعبر عنه بغير ذلك)[3].

القدِّيس أغسطينوس

❖ لسانه الذي نطق بعجرفة عظيمة (يود أن يبرّده)، لأنه حيث توجد الخطيَّة تكون العقوبة. إذ كان لسانه قد عصى أكثر تعذّب أكثر.

❖ أراد أن يبرّد لسانه بينما كان هو بكامله في اللهيب. هذا يعني ما قد كتب: "الموت والحياة في يدّ اللسان" (أم ١٨: ٢١)، "الفم يعترف به للخلاص" (رو ١٠: ١٠). فخلال الكبرياء لم يفعل ذلك

---

[1] *Conc. Lazar. 2.*
[2] *Ser. 164:3.*
[3] *City of God, 21:10.*

(يعترف بالمسيح لخلاصه). أما طرف الإصبع فيعني أقل القليل من الأعمال التي يمارسها الإنسان بالروح القدس[1].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ يا لأحكام الله غير المنطوق بها، يا لعدل مكافأته التي يقدَّمها عن الأعمال الصالحة والشرّيرة.

لقد أخبرنا قبلاً أنه إذ كان الغني على الأرض كان الفقير يشتهي الفتات الساقط من مائدته ولم يعطه أحد شيئًا. الآن يخبرنا أن الغني في آلامه يشتهي أن يبل لعازر لسانه بماء، لعل قطرة ماء تبرّد فمه. من هذا نتعلم أيها الإخوة حزم الله الشديد. الغني الذي لم يكن يرغب أن يعطي الشحاذ الفتات القليل النازل من مائدته، الآن في الهاويَّة يتوسل طالبًا أمرًا تافهًا. أنه يصرخ من أجل قطرة ماء، ذاك الذي رفض تقديم فتات خبز!

يلزمنا أن نعرف السبب لماذا سأل الغني من أجل قطرة ماء ليبرد لسانه... لأن من يقيم ولائم كثيرة عادة يكون كثير الكلام، هكذا هذا الرجل الذي حمل أفراحه إلى الحياة المتنعمة وقد دين باللهيب صار لسانه محترقًا أكثر من أي عضو آخر. خطأه الأول هو إفراطه في الأكل الأمر الذي يرافقه كثرة الثرثرة، والخطأ الثاني هو قساوته[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ أخيرًا صار الغني شحاذًا يطلب من الفقير، ويسأل من مائدة ذاك الذي كان جائعًا وملقيًا لأفواه الكلاب. لقد تبدل الحال، وعرف كل واحد من هو الغني الحقيقي ومن هو الفقير بحق، فظهر لعازر أغنى من الكل، والآخر أفقر الجميع.

كما في المسارح يلبس الممثلون قناعات الملوك والقادة والأطباء والمعلمين والأساتذة والجنود، لكنهم هم ليسوا كذلك في حقيقتهم، هكذا الغنى والفقر هنا مجرد أقنعة، أن جلست في مسرح ورأيت إنسانًا يرتدي قناع ملك فلا تغبطه ولا تحسبه قد صار ملكًا، ولا تشتهي أن تكون مثله... هكذا الغني هنا أيضًا غالبًا ما يكون فقيرًا (في أعماقه)، أن نزعت عنه قناعه، وكشفت ضميره، ودخلت إلى فكره، غالبًا ما تجد فيه فقر الفضيلة، وتجده منتميًا إلى أدنى الطبقات[3].

القدّيس يوحنا الذهبي الفم

فقال إبراهيم: يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك،

---

[1] *Catena Aurea.*
[2] *In Evang. hom 40.*
[3] *Conc Lazar 2.*

وكذلك لعازر البلايا،
والآن هو يتعزى وأنت تتعذب.
وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت
حتى أن الذين يريدون العبور من ههنا إليكم لا يقدرون،
ولا الذين من هناك يجتازون إلينا" [٢٥-٢٦].

ويلاحظ في هذه الإجابة الآتي:

يدعو إبراهيم الغني "يا ابني"، لعله يقصد بهذا أنه لا ينكر بنوته له حسب الجسد، هذه البنوة لم تنفعه شيئًا، بل تدينه، لأنه لم يسلك بروح أبيه وإيمانه. وما نقوله هنا عن الغني ينطبق أيضًا على كل مؤمن حمل إمكانيات خلاصه ولم ينتفع منها، كمن قبل الإيمان واعتمد وصار بين يديه كلمة العهد الجديد الخ. هذه العطايا التي تؤهله لممارسة حياة الشركة العمليَّة تدينه في اليوم الأخير. فإن كان قد نال البنوة لله خلال مياه المعموديَّة بالروح القدس، تبقى هذه البنوة تبكته، وتصير بالأكثر سّر عذابه.

❖ لاحظ حنو هذا الأب البطريرك إذ يدعوه ابنه، لكنه لا يقدِّم له عونًا إذ حرم نفسه بنفسه من الشفاء. يقول له: "اذكر"، أي تأمَّل الماضي، لا تنسى أنك ابتهجت بغناك، واستوفيت خيراتك، إذ ظننت هذا خيرًا لك. لم تستطِع أن تنتصر وأنت على الأرض فلا تنتصر هنا.

يقول: "**وكذلك لعازر بلاياه**"، ليس لأن لعازر كان ينظر إلى الفقر والجوع والمرض القاسي كشرور تلحق به، إنما هكذا كانت نظرة الغني له.

عندما نسقط تحت ثقل المرض نفكر في لعازر، فنقبل هذه الأمور الشرِّيرة بفرح في هذه الحياة...

يقول "**استوفيت خيراتك في حياتك**". كأنه يقول له إن كنت قد صنعت أي عمل صالح فقد نلت مكافأتك التي تستحقها، إذ استوفيت الكل في ذلك العالم بكونك عشت مترفًا، لك غنى عظيم وتتمتع بملذّات كثيرة وفيرة. وإن كان لعازر قد ارتكب شرًا ما فقد احتمل الفقر والجوع وأعماق البؤس. كلاكما أتى عريانًا، جاء لعازر عاريًا من خطاياه فيتقبل تعزية، وأنت عارٍ من البرّ فتتقبل عقوبة بلا تعزية، لذلك أردف قائلاً: "والآن هو يتعزى وأنت تتعذب"...

قد تقول: ألا يمكن التمتع بالغفران هنا وهناك؟ (أي هل يمكن لإنسان أن يعيش في راحة جسديَّة هنا وراحة أبديَّة؟) حقًا، هذا أمر صعب بل ومن المستحيلات؛ فحيث لا يوجد فقر يثور فينا الطمع، وحيث لا يوجد مرض يلتهب الغضب، وإن لم تقاومنا تجارب تغلبنا الأفكار الفاسدة. نحتاج إلى جهاد، ليس بالهين لنلجم الغضب، ونكبح الشهوات الشرِّيرة، ونخضع كبرياء المجد الباطل، وننزع التشامخ

والتعالي، ونسلك حياة قاسية (جادة). من لا يمارس مثل هذه الأمور لا يقدر أن يخلص[1].

القدِّيس يوحنا الذهبي الفم

❖ "**يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك**"...

لقد قدَّمت خيراتك لشهواتك وللمتملقين، ولم تذكر مرة واحدة المريض والمتألِّم، لم تشفق على لعازر عندما رأيته ملقيًا عند أبوابك. لقد رأيت الرجل في بؤس لا يُحتمل، فريسة لأحزان لا تُطاق، إذ كان يعاني من أمرين، كل منهما أقسى من الآخر؛ آلام قروحه الشديدة وحاجته لضروريات الحياة. كانت الحيوانات تلطف من أتعاب لعازر، إذ كان متألِّمًا، "**لحست الكلاب قروحه**"، أما أنت فكنت أقسى من الحيوانات... يقول الكتاب المقدَّس أن الحكم بلا رحمة للذين لا يستعملون الرحمة (يع ٢: ١٣). كنت تشارك لعازر ويكون لك نصيب معه في تعزيته يهبك الله إيَّاه لو أنك جعلته يشاركك ثروتك. لكنك إذ لم تفعل ذلك فأنت وحدك تتعذب. هذا هو ما يليق بالقاسي القلب الذي لا يشارك المريض أتعابه متفكرًا فيه[2].

القدِّيس كيرلس الكبير

الآن، ماذا يعني بقوله: "**وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة**"، أو كما جاءت في بعض الترجمات: هوة ثابتة؟ ربما عني أن الوقت قد انتهى فلا مجال للتوبة بعد أو للسقوط. فما ناله الإنسان إنما يحياه أبديًا، لا يقدر شرِّير أن يترك الجحيم إلى الفردوس، ولا مجال لأبناء الملكوت بعد رحيلهم أن يسقطوا. وكما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس أن** هذا الحديث إنما يكشف عن خطأ أتباع أوريجينوس القائلين بأن الكل سيتجددوا عند مجيء المسيح الأخير ولا يهلك أحد.

لقد انتهى زمان التوبة، كما يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [هناك لا يكون بعد زمان للتوبة. كم من أمور حزن عليها الغني لكن حزنه لم ينفعه شيئًا[3].] ويقول **القدِّيس أمبروسيوس:** [يوجد بين الغني والفقير هوة عظيمة، إذ لا يمكن تغيير المكافأة بعد الموت.] ويقول **القدِّيس أغسطينوس** أن الحكم الإلهي لن يتغير ولا يمكن للأبرار أن يترفقوا بأحد حتى وإن أرادوا ذلك. يؤكد ذلك **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** بقوله: [إنه كمن يقول: نستطيع أن نرى لكننا لا نقدر أن نعبر. نحن نرى ما قد هربنا منه وأنت ترى ما قد فقدته. فرحنا يتزايد إذ نرى عذابك (الذي هربنا منه)، وعذابك يتزايد برؤيتك أفراحنا.]

"**فقال: أسألك إذًا يا أبتِ أن ترسله إلى بيت أبي.**

---

[1] *Conc Lazar 2,3.*
[2] *In Luc Ser 112.*
[3] *Conc. Lazar. 2;3.*

لأن لي خمسة إخوة حتى يشهد لهم،
لكيلا يأتوا هم أيضًا إلى موضع العذاب هذا.
قال له إبراهيم: عندهم موسى والأنبياء، ليسمعوا منهم.
فقال: لا يا أبي إبراهيم،
بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون.
فقال له: إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء
ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون" [٢٧-٣١].
ويلاحظ في هذا الحوار الذي دار بين إبراهيم أب المؤمنين والغني الآتي:

أولاً: أن كان الغني صاحب قلب ضيق فلم يقدِّم شيئًا من ممتلكاته ليعين الفقراء لكنه ارتبط بعاطفة حب لإخوته الخمسة، وقد بقيت هذه العاطفة حتى بعد رحيله، لكنها عاطفة عاجزة وغير عمليَّة، لأن الوقت قد ضاع منه. إنه يود خلاص إخوته لكن بعد أن فقد هو خلاصه ولم تعد له دالة لدى الله للعمل بالصلاة! بمعنى آخر كيف يمكن لفاقد الخلاص أن يطلب من أجل خلاص الآخرين.

❖ لقد صار الوقت متأخرًا أن يقوم الغني بدور المعلم، إذ لم يعُد هناك وقت للتعليم أو التعلم.

القدِّيس أمبروسيوس

❖ أحيانا تتعلم قلوب الأشرار ممارسة الحب خلال سقوطهم تحت العقوبة، لكن يكون ذلك باطلاً... لأنهم إذ هم ملتصقون بخطاياهم لا يحبون أنفسهم[1].

الأب غريغوريوس (الكبير)

ثانيًا: طلب الغني من إبراهيم أن يرسل لعازر لإخوته إذ حسب نفسه غير أهلٍ لهذا العمل، وكما يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [شعر أنه غير مستحق للشهادة للحق. إن كان لا يحصل على قطرة ماء تبرد لسانه، فإنه لا ينتظر أن يُسمح له بالخروج من الهاويَّة للكرازة بالحق.]

ثالثًا: رفض إبراهيم إرسال لعازر مكتفيًا بالناموس الموسوي وكتب الأنبياء ليؤكد السيِّد المسيح بهذا المثل أن العهد القديم هو أساس الإيمان المسيحي، فما يعلنه الإنجيل، إنما وضع الناموس والأنبياء أساسه. بهذا أيضًا يبكم أفواه الهراطقة مثل الغنوسيين الذين يرفضون العهد القديم ويستخفون به. هذا من جانب، ومن جانب آخر فإنه أراد تأكيد أن من يحتقر كلمة الله لا ينتفع من أحد ولو كان

---

[1] *In Evang. hom 40.*

قائمًا من الأموات. لقد احتقر اليهود الناموس ولم يسمعوا للأنبياء، لذلك إذ جاءهم ليس لعازر قائمًا من الأموات، بل السيِّد المسيح القائم من الأموات، والذي يقيم من الأموات واهبًا الحياة، لم يسمعوا له.

يقول **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم:** [حقا أن من لا يسمع للكتب المقدَّسة لا يبالي بالميت الذي يقوم من الأموات. هذا ما يشهد له اليهود إذ أرادوا مرة أن يقتلوا لعازر (الذي أقامه السيِّد من الموت)؛ ومرة أخرى ألقوا الأيدي على الرسل غير مبالين بقيامة البعض من الأموات في ساعة الصليب. لاحظ أيضًا أن أي إنسان ميت يقوم إنما هو عبد، لكن ما يقوله الكتاب المقدَّس إنما ينطق به الرب نفسه. إذن ليقم إنسان ميت أو لينزل ملاك من السماء، فإن الكتاب المقدَّس أصدق من الكل، فإن واضع الكتاب هو رب الملائكة، رب الأحياء والأموات. لو أن الله يعلم بأن قيامة ميت تفيد الأحياء لما امتنع عن العمل بهذا، مقدَّما كل شيء من أجل نفعنا[١].]

رابعًا: يمكننا أيضًا أن نلمس من هذا الحوار جانبًا إيجابيًا، وهو إن كان الغني الذي حُرم من الملكوت أبديًا، وقد فقد كل رجاء حتى في قطرة ماء تلطف لسانه إلى لحظات ينشغل بقلبه من جهة إخوته حسب الجسد الذين في العالم، أليس بالحري للكارزين والقدِّيسين الذين تدربوا في العالم على اتساع القلب والشوق لخلاص العالم كله يصلون من أجل تحقيق هذه الرسالة، مشتهين أن يتمجَّد الله في كل شيء؟!

إن كان هذا بالنسبة للكارزين والإنجيليين، فبالأحرى بالنسبة للسيد المسيح الذي لا يتوقف ينبوع حبه قط. يقول **القدِّيس أغسطينوس:** [حاشا لنا أن نقول بأن ذاك الذي لم يستطع الموت أن يحطمه، أن الموت ينهي حبه، فإن كان الغني المتكبر والشرِّير يظهر حبه لإخوته الخمسة حتى بعد موته، فهل يمكن لنا أن نظن بأن حب المسيح يتوقف عند موته؟! حاشا أيها الإخوة[٢].]

خامسًا: من هم هؤلاء الإخوة الخمسة الذين يحتاجون إلى موسى والأنبياء ليخلصوا؟ يرى **القدِّيس أغسطينوس** إنهم اليهود الذين يرمز لهم برقم خمسة، لأنهم تحت الناموس الذي سجل في أسفار موسى الخمسة، فإنهم لا يقبلون السيِّد المسيح القائم من الأموات ما لم يقبلوا الناموس والأنبياء روحيًا.

ويرى **القدِّيس يوحنا الذهبي الفم** إنهم يرمزون إلى الحواس الخمس التي لم تتقدس ما دامت تحيا في هذا العالم مترفة ومدللة، فإن ماتت مع السيِّد المسيح تتقدس به! الغني يمثل الإنسان الذي يعيش مدللاً في شهواته وملذّاته، فيفقد أقرب من له، تقدِّيس حواسه، وكأنها إخوته الخمسة.

---

[1] *Conc. Lazaro 4.*
[2] *In Ioan tr 55:2.*

سادسًا: يرى **القدِّيس إيريناؤس**[1] في مثل لعازر والغني تأكيد للنقاط التاليَّة:

أ. إذ تترك النفس الجسد لا تلبس جسدًا آخر كما يظن الذين ينادون بتناسخ الأرواح، وإلا كان الغني قد نزل إلى العالم بجسدٍ آخر عِوَض العذاب الأبدي.

ب. تعرف النفوس بعضها البعض حتى قبل أن تلبس الجسد الممجد في اليوم الأخير.

ج. أن النفوس وإن كان لها بداية لكنها تبقى خالدة، إما في الملكوت أو في جهنم.

[1] *Adv. Haer. 2:24:1.*

الأصحاح السابع عشر

الإيمان والصداقة الإلهيَّة

جاء السيد المسيح يبحث عنّا كراعٍ يطلب خروفه الضال ليحتضنه، ويرتفع به إلى سماواته، وكأب يطلب ابنه الضال ليُقيم له وليمة مفرحة، ويسأل عروسه الكنيسة أن تجدّ في البحث عنّا كدرهمٍ مفقودٍ حتى تجدنا وتغسلنا بدمه فنحمل صورته الإلهية (ص ١٥). ومن جانبنا كما رأينا في الأصحاح السابق يلزمنا لكي نقبل هذه الصداقة أن نسلك بحكمة طالبين ما هو لبنياننا في الحياة الأبدية، لا اللذة الوقتية (مثل الوكيل الظالم)، محتملين الآلام بشكر كلعازر المسكين غير ممتثلين بالغني في انغماسه بالملذات وقساوة قلبه على أخيه. الآن يقدم لنا العنصر الأساسي لهذه الصداقة وهو الإيمان، مترجمًا عمليًا في حياتنا خلال الحياة الواقعية السلوكية، والواقع الداخلي في النفس وترقب مجيء الرب.

١. تجنب العثرات في سلوكنا ١–٢.

٢. اتساع القلب للمخطئين إلينا ٣–٤.

٣. زد إيماننا ٥–١٠.

٤. الشكر والإيمان (العشرة بُرص) ١١–١٩.

٥. الإيمان بالملكوت الداخلي ٢٠–٢١.

٦. بين الملكوت الداخلي والأخروي ٢٢–٣٧.

١. تجنب العثرات في سلوكنا

تقوم صداقتنا مع السيد المسيح على الشركة الخفية داخل القلب، خلالها ننعم بالحياة الجديدة بروحه القدوس. هذه الشركة تتجلى عمليًا في سلوكنا الواقعي، خاصةً في تجنب العثرات باتساع القلب بالحب، خاصةً للمخطئين. فنعلن عن مسيحنا محب البشر الذي أحبنا ونحن بعد أعداء وصالحنا مع أبيه (رو ٥: ١٠)، بحبنا حتى للمقاومين لنا. أما بالنسبة لتجنب العثرة، فيقول الإنجيلي:

"وقال لتلاميذه لا يمكن إلاّ أن تأتي العثرات،

ولكن ويل للذي تأتي بواسطته.

خيرٌ له لو طوق عنقه بحجر رحى، وطُرح في البحر،

من أن يعثر أحد هؤلاء الصغار" [١-٢].

يؤكد السيد المسيح أن العثرة قائمة، ولكن تأكيده لا يعفي المعثرين من الدينونة أو المسئولية، إذ لا يلزم أحدًا أن يكون عثرة، إنما هو طبيب يشخِّص المرض، فيرى في البشرية من رفض منهم الطعام تمامًا برفضه الإيمان به، فينحدر إلى الهلاك ويكون عثرة للآخرين.

جاء هذا الحديث بعد أن كشف السيد المسيح عن عثرة المال، الذي عبده الفريسيون في قلوبهم الداخلية، فحملوا إلهًا غير الله، وصاروا عثرة في طريق الخلاص. وكأن السيد المسيح إذ عالج في الأصحاح السابق موضوع "محبة المال"، سأل تلاميذه أن يحترزوا من هذا الإله المعّثر للنفس، لئلا يصيروا كالفريسيين عثرة للشعب.

❖ ما هي العثرات التي يشير إليها المسيح التي لابد أن تحدث؟ يوجد نوعان من العثرات: عثرات ضد مجد الكائن الأعظم، تقاوم جوهره ذاك الذي هو فوق الكل... أما العثرات الأخرى فتحدث من حين إلى آخر ضد أنفسنا، كل ما تجلبه هو ضرر الإخوة شركائنا في الإيمان.

الهرطقات التي تظهر، والبدع التي تقاوم الحق، في الحقيقة هي عثرات تقاوم مجد اللاهوت الأسمى، إذ تسحب الذين اصطادهم (الله) لتفسد استقامة تعاليمهم المقدسة الدقيقة. عن مثل هذه العثرات يقول المخلص نفسه: "ويل للعالم من العثرات" (مت ١٨: ٧)، فلابد أن تأتي العثرات، ولكن ويل لذلك الإنسان الذي به تأتي العثرة. مثل هذه العثرات التي يبثها الهراطقة الأشرار لا توجه ضد فردٍ معينٍ، إنما يقصد بها العالم، أي سكان الأرض كلها. ينتهر الطوباوي بولس مثيري هذه العثرات، قائلاً: "هكذا إذ تخطئون إلى الإخوة، وتجرحون ضميرهم الضعيف، تخطئون إلى المسيح" (١ كو ٨: ١٢). ولكي لا تتغلب مثل هذه العثرات على المؤمنين يقول الله لسفراء كلمة الحق المستقيمة والمهرة في تعليمها: "اعبروا أبوابي، هيئوا طريق شعبي، أعدوا السبيل، نقوه من الحجارة" (إش ٦٢: ١٠ الترجمة السبعينية). وقد وضع المخلص عقوبة مُرة على الذين يضعون مثل هذه العثرات في طريق الناس[١].

القديس كيرلس الكبير

إن كان السيد المسيح يؤكد لنا: "**لا يمكن إلاّ أن تأتي العثرات**" **[١]** كحقيقة قائمة في كل عصر، إذ لا يتوقف عدو الخير عن مهاجمة المؤمنين خلال الهراطقة كما خلال أخطاء بعض الكهنة والخدام والمؤمنين من الشعب حتى يحطم النفوس الضعيفة، فإن السيد المسيح يحذرنا من جانبين: ألاّ نكون

---

[1] *On Luke hom 113- 6.*

عثرة للغير، وألا نتعثر نحن كصغار في الإيمان خلال أخطاء الغير.

في حديثنا عن هذه العبارات الإنجيلية (مت ١٨: ٦-٧؛ مر ٩: ٤٢) رأينا أنه كان من عادة اليهود حين يقطعون الأمل في إنسان ويريدون أن يجعلوه عبرة للغير، يربطون عنقه في حجر، ويلقون به في البحر، فلا يظهر بعد، هكذا يرى **البابا غريغوريوس (الكبير)** أن الخادم أو الكاهن الذي يعثر شعبه يلزمه أن يترك عمله الرعوي ويهرب لخلاص نفسه مختفيًا عن أن يُدان عن النفوس التي يعثرها في خدمته عوض أن يكون علة خلاصها بالصليب.

نكرر أيضًا مع **القديس يوحنا الذهبي الفم** قوله أن كانت هذه هي عقوبة من يعثر الصغار، فماذا تكون مكافأة من ينقذ النفوس المتعثرة والضعيفة؟ [فلو لم يكن خلاص نفس واحدة عظيم جدًا لدى المسيح ما كان يهدد بعقوبة كهذه لمن يعثر إنسانًا.]

٢. اتساع القلب للمخطئين إلينا

إن كنا نود صداقة أصيلة وعميقة مع المخلص السماوي يلزمنا أن نحمل عمله فينا وهو الاهتمام بخلاص كل نفس، فلا نسمح لأنفسنا أن نكون عثرة لصغير في الإيمان ولا أن نتعثر نحن في طريق خلاصنا بسبب ضعفات الغير، فإن العلة الأولى للعثرة هي ضيق القلب وعدم اتساعه بالحب نحو الآخرين خاصة المخطئين إلينا، لذا يقول:

"**احترزوا لأنفسكم، وإن أخطأ إليك أخوك فوبخه،**
وإن تاب فاغفر له؛
وإن أخطأ إليك سبع مرات في اليوم
ورجع إليك سبع مرات في اليوم قائلاً: أنا تائب،
فاغفر له" [٣-٤].

في اتساع قلبنا إن أخطأ إلينا أخ نوبخه، لا لنبرر أنفسنا أو نلقي باللوم عليه، وإنما لكي بالحب نربحه ونربح خلاص نفسه، لذا يقول السيد المسيح في موضع آخر: "عاتبه بينك وبينه وحدكما، وإن سمع منك فقد ربحت أخاك" (مت ١٨: ١٥). وكأن غاية هذا العتاب المملوء محبة هو "اقتناء نفسه" كربحٍ لنا ومكسبٍ فلا نفقده عضوًا في الجسد المقدس. لم يضع السيد المسيح للحب حدودًا، بل طالبنا أن نغفر لمن يخطيء إلينا ويرجع نادمًا إلى سبع مرات في اليوم، أي إلى مرات بلا عدد، لأن رقم ٧ يشير إلى الكمال.

إن كان السيد المسيح يطالبنا أن نغفر للمخطئين إلينا هكذا كل يوم، كم بالأكثر يغفر هو لنا متى

رجعنا إليه؟ بحديثه هذا يفتح لنا باب الرجاء غير المنقطع لنعود إليه بالتوبة معترفين بخطايانا.

❖ يا لحكمة الله! فبعد أن ذكر مثل عذاب الغني في موضع الآلام (أصحاح ١٦) عاد ليوصي بالغفران للراجعين بالتوبة نادمين، حتى لا ييأس أحد قط من رجوعه عن خطاياه!

يا للحكمة، فإنه لكي لا يكون الإنسان قاسي القلب في تقديم المغفرة (للآخرين) ولا أيضًا متهاونًا في رحمته، فلا يصطدم الغير بعنف التوبيخ، كما لا يسترسل متهاونًا في الخطأ، لذا قال في موضع آخر: "إن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكما" (مت ١٨: ١٥). العتاب الودّي أفضل من الاتهام العلني؛ الأول يوحي بالخجل، أما الثاني فيثير الغضب... من الأفضل أن يعتبرك من أخطأ إليك إنسانًا تنذره كصديق، ولا تهاجمه كعدوٍ. فإنه يسهل على الإنسان أن يقبل النصيحة عن أن يخضع للعنف، لذا يقول الرسول: "انذره كأخ" (٢ تس ٣: ١٥). الخوف حارس ضعيف على المثابرة أما الخجل فمعلم صالح للواجبات.

❖ حسنًا قيل: "**إن أخطأ إليك**"، فإن الوضع يختلف بين أن تُوجه الخطية ضد الله أو ضد الإنسان، لذا يقول الرسول المفسر الحقيقي للنبوّة: "الرجل المبتدع بعد الإنذار مرة ومرتين أعرض عنه" (تي ٣: ١٠)، فلا يغفر للإيمان المنحرف كما لخطأ (ضد إنسان)[1].

القديس أمبروسيوس

❖ أنت تُدعى ابنًا، فإن رفضت أن تتمثل بالله (غافرًا لأخيك) فلماذا تطلب ميراثه؟

❖ أريدكم أن تغفروا إذ أراكم تطلبون الغفران[2].

القديس أغسطينوس

إن كان قد طالبنا أن نوبخ أخانا المخطىء إلينا، فلا نقف عند التوبيخ، إنما إذ ننطلق به بالحب نغفر له. ولكن إلى أي مدى؟ إلى سبع مرات، أي بلا حدود.

❖ يقول إن كان الذي يخطئ إليك يتوب ويعرف خطأه اغفر له، ليس مرة واحدة فحسب بل مرات كثيرة.

يليق بنا ألا نظهر ناقصين في المحبة المشتركة، مهملين في الاحتمال، فإنه يمكن لكل أحد أن يضعف ويخطئ مرة ومرات. إنما بالحري يلزمنا أن نتمثل بالذين يعالجون أمراض أجسادنا، فإنهم لا

---

[1] *In Luc 17: 3, 4.*
[2] *Ser. On N.T. 64: 3, 5.*

يعالجون المريض مرة ومرتين فحسب، وإنما كلما سقط في مرض.

لنذكر أننا نحن أنفسنا معرضون للضعفات، ويمكن أن تتسلط علينا أهواؤنا، لهذا نطالب الذين لهم حق التوبيخ وفي سلطانهم أن يؤدبوننا أن يترفقوا بنا ويغفروا لنا. هكذا من واجبنا نحن أيضًا أن تكون لنا مشاعر مشتركة، فنشعر بالضعف ونحمل أثقال بعضنا البعض، بهذا نكمل ناموس المسيح (غل ٦: ٢)[1].

القديس كيرلس الكبير

يقدم لنا **القديس أمبروسيوس** تفسيرًا لغفراننا لأخينا المخطىء سبع مرات كل يوم، وهو أن رقم ٧ يذكرنا باليوم السابع الذي فيه استراح الله من جميع عمله (تك ٢: ٢)، فصار اليوم السابع مقدسًا عند اليهود، وأيضا الشهر السابع والسنة السابعة الخ. إن كان الرب استراح في اليوم السابع، بمعنى أنه وجد راحته بعد أن خلق الإنسان في اليوم السادس وأقام العالم لأجله، ففرح به، هكذا إذ يرى فينا أننا نغفر لإخوتنا بلا انقطاع يستريح فينا، إذ يجد عمله الإلهي قد كمل. هذا هو سبت الرب المفرح إذ يجد أولاده حاملين سمته كمحب للبشر، غافرين أخطاء الآخرين، متسعة قلوبهم بالحب. لم يعد سبت الرب مجرد يوم لكنه "حياة مقامة فيه"، من يحفظه إنما يعيش قائمًا به لا يخضع لموت البغض ولا لفساد الانتقام بل يحيا حرًا بحب الله الشامل!

٣. زد إيماننا

لعل الرسل أدركوا أن ما يوصي به السيد المسيح هو فوق حدود الطبيعة، لذا طلبوا عونًا إلهيًا، فيحملوا بالإيمان الطبيعة الغافرة لأخطاء الغير، إذ يقول الإنجيلي:

"**فقال الرسل للرب: زد إيماننا.**

فقال الرب: "لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل

لكنتم تقولون لهذه الجميزة انقلعي وانغرسي في البحر،

فتطيعكم" [٥-٦].

ويلاحظ في هذا الحديث الآتي:

أولاً: إن كان "الإيمان" هو سرّ قوة الكنيسة، بدونه لن ننعم بطبيعة المسيح المُقامة عاملة فينا، وبدونه لا نقدر أن نقدم الحب الحقيقي الغافر لأخطاء الغير، فإن هذا الإيمان هو عطية الله، ننعم به إن سألناه مع الرسل: "**زد إيماننا**"... هو عطية الله لكن ليس في سلبية من جانبنا.

---

[1] *On Luke Ser 113- 6.*

❖ ما يعطي بالضرورة فرحًا لنفوس القديسين ليس نوال الخيرات الزمنية الأرضية، لأن هذه الخيرات قابلة للفساد، وبسهولة نفقدها، إنما التمتع بالخيرات المكرمة الطوباوية التي للنعم الروحية وهي عطية الله. أحد هذه النعم هو "الإيمان" الذي له تقديره الخاص، أقصد به الدخول إلى الإيمان بالمسيح مخلصنا جميعًا، هذا الذي يعرفه بولس كأعظم بركاتنا جميعها، إذ يقول "بدون إيمان لا يمكن إرضاؤه" (عب ١١: ٦). هذا الذي به نال القدامى شهادتهم لله.

لاحظ كيف تمّثل الرسل القديسون بسلوك قديسي العهد القديم. ماذا سألوا المسيح؟ زد إيماننا. لم يطلبوا إيمانًا مجردًا، لئلا تظن أنهم كانوا بلا إيمان، بل بالحري طلبوا من المسيح أن يزيد إيمانهم، ويقويه فيهم.

يعتمد الإيمان علينا جزئيًا، ومن الجانب الآخر هو عطية النعمة الإلهية. ففي البدء يعتمد علينا (لنا أن نقبله أو نرفضه)، ففي سلطاننا أن نثق في الله ونؤمن به، وأما تثبيته وتقويته، فيتطلب النعمة الإلهية. لهذا السبب، إذ كل شيء ممكن لدى الله، قال الرب: "كل شيء مستطاع للمؤمن" (مر ٩: ٢٣). القوة التي تحل بنا خلال الإيمان هي من الله. إذ يعرف الطوباوي بولس ذلك يقول في الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: "فإنه لواحد يُعطى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمان بالروح الواحد" (١ كو ١٢: ٨-٩). ها أنت تراه يضع الإيمان في قائمة النعم الروحية. هذا هو ما طلبه التلاميذ لينالوه من المخلص... وقد وهبهم إيّاه بعد إتمام التدبير بحلول الروح القدس عليهم. فإنه قبل القيامة كان إيمانهم هزيلاً، كان لهم قلة إيمان – قدم القديس موقف التلاميذ عند هياج الأمواج كمثل لقلة إيمانهم – (مت ٨: ٢٦؛ ١٤: ٣١، لو٨: ٢٥، يو ٦: ١٩)... لا تعجب إن كانوا يطلبون زيادة إيمانهم من المسيح مخلصنا جميعًا. وقد أوصاهم ألا يبرحوا أورشليم بل ينتظروا موعد الآب حتى يلبسوا قوة من الأعالي (أع ١: ٤). عندما حلت بهم القوة التي من الأعالي صاروا بالحق شجعان وأقوياء، حارين في الروح، يحتقرون الموت، ولا يبالون بالمخاطر التي كان غير المؤمنين يهددونهم بها، بل وصاروا قادرين على صنع المعجزات[1].

القديس كيرلس الكبير

ثانيًا: في كلمات الرسل "**زد إيماننا**" كشف عن حقيقة الإيمان، أنه ليس أمرًا جامدًا قبلناه وتوقف، لكنه هو "خبرة حياة معاشة". إيماننا قبول لعمل الله فينا بلا توقف حتى نبلغ شهوة معلمنا بولس الرسول "قياس قامة ملء المسيح" (أف ٤: ٣). وكما يقول **القديس أغسطينوس** أن إيماننا يزداد

---

[1] *On Luke hom 113- 6.*

[عندما يعلن "حكمة الله" ذاته علانية وجهًا لوجه مع قديسيه[1].]

إيماننا ليست كلمات نرددها، ولا فلسفة نعتنقها، لكنه حياة وخبرة عمل بالله الذي يعمل فينا بلا انقطاع، ويعمل بنا لنشهد له بلا توقف فنقتني نفوسًا لحساب ملكوته.

ثالثًا: جاءت إجابة السيد المسيح: "**لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل، لكنتم تقولون لهذه الجميزة انقلعي وانغرسي في البحر، فتطيعكم**" **[٦]**، تكشف عن حاجتنا لا إلى زيادة مادية من جهة الكم، وإنما إلى زيادة من جهة النوع. فإنه لا يوجد وجه مقارنة بين حبة الخردل التي كان اليهود يعتبرونها أصغر الحبوب وبين شجرة الجميزة الضخمة، فإن إيمانًا حيًا كحبة الخردل الصغير قادر على المستحيلات أن يقلع شجرة جميزة بجذورها من الأرض ليغرسها في البحر وسط الأمواج؟ الإيمان الحيّ هو صانع المستحيلات!

رابعًا: يرى **القديسان أمبروسيوس ويوحنا الذهبي الفم** أن "شجرة الجميز" هنا تشير إلى الشيطان، فإن كانت حياتنا قد صارت أرضًا غُرس فيها العدو كشجرة جميز، بالإيمان نطرد الشيطان بكل أعماله من حياتنا فلا يكون له موضع فينا، وإنما يُلقى في البحر كما في الأعماق، وذلك كما سمح السيد للشياطين أن تخرج من الرجل الذي في كورة الجدريين وتدخل في الخنازير فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحيرة واختنق (لو ٨: ٣٣).

ويرى **البابا كيرلس الكبير** أن "شجرة الجميز" هنا تعني قدرة الإيمان على تحقيق ما يبدو لنا مستحيلاً. بالإيمان تُقتلع من الأرض رغم تأصلها بالجذور العميقة، وبالإيمان تثبت في مياه البحر المتحركة، وكأن الإيمان يصنع المستحيلات، إذ يقول: [من يثق في المسيح لا يتكل على قوته الذاتية، بل ينسب للمسيح كل ما يحققه، معترفًا أن به تتحقق كل الخيرات في نفوس البشر، وإن كان يليق بالبشر أن يهيئوا أنفسهم لقبول هذه النعمة العظيمة. للإيمان سلطان أن يحرك ما هو ثابت ومؤسس في الأرض وليس شيء على الإطلاق لا يمكن للإيمان أن يحركه متى صارت الحاجة ملزمة لتحريكه. لقد اهتزت الأرض فعلاً عندما صلى الرسل كما جاء في أعمال الرسل (٤: ٣١). ومن جانب آخر فإن الإيمان يستطيع أن يوقف ما هو متحرك، كما أوقف جريان مجرى نهر سريع (الأردن يش ٣: ١٦) وأوقف حركة نور الشمس التي لا تتوقف في السماء (يش ١٠: ١٣). لكن ما يجب ملاحظته تمامًا أن الله لا يود تقديم ما هو مُبهر وعجيب بطريقة باطلة أو بلا هدف، فإن مثل هذا بعيد عن جوهر الله الذي لا يعرف الكبرياء ولا العجرفة، إنما يعمل ما هو لخير البشرية وسلامها.

---

[1] *Quaest. Evang. 2: 39.*

أقول هذا لكي لا يتوقع أحد من الإيمان المقدس والقوة الإلهية أن تتم تغيرات بلا نفع مثل تغيير عناصر معينة وتحويلها أو تحريك جبال أو مزروعات... أنه يتحقق ذلك أن كان فيه نفع حقيقي، عندئذٍ لا ينقص الإيمان قوة للتنفيذ[١].]

إن كان الإيمان هو سرّ قوة الكنيسة، لا لممارسة أعمال خارقة بلا هدف، وإنما أولاً به ننال الحياة المقامة في المسيح يسوع. فنعيش بروح المحبة الغافرة لأخطاء الآخرين، وبه نطرد الروح الشرير وكل أعماله، فنقتلعه من حياتنا كالجميزة، لنلقى به كما في هاوية البحر وأعماق المحيطات، فإن ما يفسد إيماننا هو "اتكالنا على برنا الذاتي". فننسى أن ما وُهب لنا من بنوة، ومن أعمال مقدسة، وقدرة على تنفيذ الوصية. أنه عطية الله المجانية، وأننا في حقيقتنا عبيد بطالون، مهما كان سلوكنا. هذا ما أكده السيد المسيح، إذ قال بعد حديثه عن الإيمان مباشرة:

"**ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى يقول له إذا دخل من الحقل**
تقدم سريعًا واتكئ.
بل ألا يقول له: أعدِدْ ما أتعشى به وتمنطق واخدمني حتى آكل وأشرب،
وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت.
فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أُمر به؟ لا أظن.
كذلك أنتم أيضًا متى فعلتم كل ما أُمرتم به
فقولوا: أننا عبيد بطّالون،
لأننا إنما نعمل ما كان يجب علينا" [٧-١٠].

ماذا عني السيد المسيح بهذا المثل؟ أراد أن يؤكد لنا مركزنا الحقيقي خارج نعمته أننا عبيد بطّالون، أي عبيد لله لم نوفِ حقه كما ينبغي. فإن جعلناه الأول في حياتنا، وقدمنا كل شيء لحسابه، نبقى عبيدًا مدينون له بحياتنا، نشعر في أعماقنا أننا بطّالون، أما خلال نعمته فقد صرنا أبناء له، ما نمارسه هو من قبيل عطيته المجانية، وليس ثمنًا لجهادنا الذاتي أو فضلاً منا.

❖ إذ أراد الرب أن يظهر أنه بالرغم من إلزامنا بكل وصية، لكنه يهب البنوة للبشر في استحقاق دمه، لذلك قال: "**متى فعلتم كل ما أُمرتم به فقولوا أننا عبيد بطّالون، لأننا إنما نعمل ما كان يجب علينا**". هكذا فإن ملكوت السماوات هو هبة يعطيها الرب للعبيد المؤمنين وليس جزاءً لأعمالنا.

فالعبد لا يطلب التحرر (من العبودية) جزاء عمله، وإنما يحاول أن يقدم كل ما في وسعه كمدينٍ،

---

[1] *On Luke hom 113- 6.*

وينتظر التحرر كهبة.

"المسيح مات من أجل خطايانا" (١ كو ١٥: ٣)، وهو يهب الحرية لمن يخدمونه حسنًا، إذ يقول: "نعمًا أيها العبد الصالح والأمين، كنت أمينًا في القليل فأقيمك على الكثير، أدخل إلى فرح سيدك" (مت ٢٥: ٢٣).

❖ يظن البعض أنهم يؤمنون بالحق وهم لا ينفذون الوصايا، والبعض بينما ينفذون الوصايا يتوقعون الملكوت كجزاء عادل (لاستحقاقاتهم الذاتية)؛ كلاهما يخطئان ضد الحق.

❖ إن كان المسيح قد مات لأجلنا "كي يعيش الأحياء فيما بعد لا لأنفسهم، بل للذي مات لأجلهم وقام" (٢ كو ٥: ١٥)، فمن الواضح أننا ملزمون أن نخدمه حتى الموت؛ فكيف إذن ننظر إلى البنوة كجزاءٍ عادلٍ (لأعمالنا الذاتية)؟

نحن الذين وهب لنا الحياة الأبدية، نصنع الأعمال الصالحة لا لأجل الجزاء، بل لحفظ النقاوة التي وُهبت لنا[1].

القديس مرقس الناسك

❖ في العبارات السابقة وجه الرب إلينا حديثًا طويلاً وهامًا ليظهر لنا الطرق التي تقودنا إلى الكرامة، معلنًا أمجاد الحياة غير الملومة لكي نتقدم فيها، وننمو بغيرة إلى ما هو مدهش، فننال مكافأة دعوتنا العليا (في ٣: ١٤). ولما كانت طبيعة فكر الإنسان تتجه نحو المجد الباطل وتميل إليه... وهذه خطية خطيرة يبغضها الله؛ هذا وتقود الحية . أصل الشر . البشر إلى مثل هذا الفكر، فيظنون أن الله يهبهم الكرامات العليا من أجل حياتهم المجيدة المميزة (أي من أجل استحقاقاتهم الذاتية)؛ لذلك أراد الرب أن يسحبنا من هذه الأهواء (أفكار المجد الباطل). فوضع أمامنا فحوى هذه الدروس التي قُرأت حالاً علينا، معلمًا إيانا بهذا المثل أن قدرة السلطان الملوكي (الإلهي) تتطلب من العبيد أن يخضعوا لها كدين يلتزمون به. أنه يقول بان الرب لا يقدم شكرًا للعبد حتى وإن فعل ما وجب عليه عمله لأنه عبد.

أسألكم أن تلاحظوا هنا أن التلاميذ، نعم وكل الذين يخضعون لقضيب المسيح مخلص جميعنا يُحثون على المثابرة لكنهم لا يمارسون الخدمة كفضلٍ من جانبهم، وإنما كمن يفي دين الطاعة الذي يلتزم به العبيد. بهذا يُنزع مرض المجد الباطل اللعين.

[1] المؤلف: الفيلوكاليا، ١٩٦٦، ص ١٤٣، ١٣٦.

إن كنت تفعل ما هو واجب عليك فلماذا تفتخر؟ ألا ترى أنك إن لم تفِ دينك تكون في خطر، وإن وافيته فلا تستحق شكرًا على ذلك؟ هذه الحقيقة تعلمها حسنًا العبد العجيب بولس وأدركها تمامًا، إذ يقول: "لأنه إن كنت أبشر فليس لي فخر إذ الضرورة موضوعة عليّ، فويل لي إن كنت لا أبشر" (١ كو ٩: ١٦). مرة أخرى يقول: "إني مديون" (رو ١: ١٤) أن أكرز لليونانيين والبرابرة، للحكماء والجهلاء.

فإن صنعت حسنًا، وحفظت الوصايا الإلهية، وأطعت ربك، فلا تسأل كرامة الله كاستحقاق لك، بل بالحري اقترب منه واسأله عطايا جوده...

نعم! وإن كنا عبيدًا، لكنه يدعونا أبناء، ويكللنا بمجد الأبناء![1]

القديس كيرلس الكبير

❖ مادمنا على قيد الحياة يلزمنا أن نعمل على الدوام.

اعترف أنك عبد ملتزم بتقديم خدمات كثيرة، ولا تتكاسل لأنك دُعيت ابنًا لله!

استسلم لعمل النعمة دون أن تتجاهل الطبيعة (أنك عبد).

لا تفتخر أن كنت عبدًا صالحًا، فهذا واجب ملتزم أنت به. فالشمس تقوم بعملها، والقمر أيضا يطيع، والملائكة تخدم، والإناء المختار الذي استخدمه الرب للأمم يقول: "ليس مستحقًا أن أُدعى رسولاً لأني اضطهدت كنيسة الله" (١ كو ١٥: ٩). وفي موضع آخر إذ أشار أنه فعل ذلك بجهالة، أضاف: "ولكني لست بذلك مبررًا" (١ كو ٤: ٤).

إذًا ليتنا لا نسعى لننال مجدًا لأنفسنا؛ فلا نسبق دينونة الله، ولا نتكهن بحكم الديان إنما نترك ذلك لحينه، بكونه الديان الحقيقي[2].

القديس أمبروسيوس

❖ [يربط **القديس أغسطينوس** بين طلبة الرسل من السيد المسيح أن يزيد إيمانهم وبين هذا المثل الذي ضربه السيد، إذ يرى فيه العبد الذي ينطلق من الخدمة في الحقل كحارث للأرض أو راعٍ للخراف، لكي يدخل بيت سيده يأكل ويشرب هناك، وكأنه خلال الإيمان المتزايد ينتقل من خدمة هذا العالم إلى حياة التأمل، أو ينطلق من حياة الجهاد والعمل إلى التمتع بالملكوت الأبدي، إذ يقول:]

---

[1] *On Luke hom 113- 6.*
[2] *In Luc 16: 7- 10.*

الذين لا يفهمون هذا الإيمان بالحق يظنون أن الرب لم يستجب لطلبة تلاميذه. فإنه يبدو وجود صعوبة للربط بين طلبتهم (زيادة إيمانهم) وهذا المثل، ما لم نفترض أن الرب يقصد بهذا المثل الانطلاق من إيمان إلى إيمان؛ من الإيمان الذي به نخدم الرب إلى الإيمان الذي به نتمتع بالرب. إيماننا يزداد في البداية عندما نقبل كلمة الكرازة، ثم ننعم بعد ذلك بالحق حاضرًا، إذ ننال التأمل المفرح والسلام الكامل، هذا الذي يوهب لنا في ملكوت الله الأبدي.

ليت العبد الذي في الحقل يحرث أو يرعى، أي يمارس العمل الزمني (بأمانة) ويخدم الناس الأغبياء كقطيع، يعود بعد العمل إلى بيته، أي يتحد مع الكنيسة (يتمتع بحياة التأمل)...

❖ بينما عبيد المسيح يخدمون، أي يكرزون بالإنجيل، يأكل ربنا ويشرب إيمان الأمم واعترافهم به.

يكمل الحديث: "**وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت**" **[٨]**. وكأن السيد يقول: بعدما أتمتع بعمل كرازتكم، وأتغذى أنا نفسي بطعام توبتكم، عندئذ تأتون أنتم وتتمتعون بالوليمة أبديًا، وليمة الحكمة الخالدة[1].

القديس أغسطينوس

٤. الشكر والإيمان (العشرة بُرص)

قلنا أن الإيمان هو سرّ قوة الكنيسة، به ننعم على الصداقة الإلهية، هذا الإيمان ليس حكرًا لشعب ما أو أمة معينة إنما هو مُقدم لكل البشرية. هذا ما أوضحه لنا الإنجيلي عندما حدّثنا عن لقاء السيد المسيح بعشرة رجال بُرص يطلبون منه أن يرحمهم، عندئذ أمرهم: "**اذهبوا أروا أنفسكم للكهنة**" وفيما هم منطلقون طهروا، فعاد إليه واحد منهم يقدم الشكر له وكان سامريًا، فاستحق دون سواه أن يسمع: "**قم وامضِ إيمانك خلصك**" **[١٨]**.

ويلاحظ في قصة تطهير هؤلاء الرجال البرص الآتي:

أولاً: يقول الإنجيلي: "**وفي ذهابه إلى أورشليم اجتاز في وسط السامرة والجليل. وفيما هو داخل إلى قرية استقبله رجال برص، فوقفوا من بعيد**" [١١-١٢]. كانت أنظار السيد المسيح تتجه إلى أورشليم لكنه اجتاز عمليًا في وسط السامرة والجليل، فإن كانت أورشليم هي مركز عبادة الشعب اليهودي، فقد جاء إلى خراف إسرائيل الضالة لكي يردها لكنه دون تجاهل للسامرة، وأيضا للجليل حيث يوجد عدد كبير من الأمم، أنه يود صداقة الكل!

يبقى السيد المسيح متحركًا نحو أورشليمه، أي مدينته السماوية أو ملكوته الأبدي حيث الهيكل

---

[1] *Quaest. Ev 2: 39.*

غير المصنوع باليد، ينطلق إلى هناك حاملاً أعضاء جسده من كل أمة ولسان، من السامرة والجليل.

التقى بالعشرة رجال البرص خارج القرية، فإنه بحسب الشريعة الموسوية لا يسكن الأبرص وسط المحلة أو داخل المدينة أو القرية إنما خارج الأسوار أو وسط القبور، ويكون مشقوق الثوب، ورأسه يكون مكشوفًا ويغطي شاربيه، وينادي: نجس، نجس (لا ١٣: ٤٥-٤٦)، وقد رأينا في تفسيرنا لسفر اللاويين ما يحمله هذا الطقس من معنى، حيث يكشف عن بشاعة نجاسة الخطية وتحطيمها للإنسان وحرمانه من الشركة مع الجماعة المقدسة.

هؤلاء الرجال العشرة يمثلون البشرية التي صارت خلال الخطية محرومة من "الشركة المقدسة"، تسكن كما في خارج الأسوار في عداوة مع السماء والسمائيين، تحمل نجاستها عليها... وقد التقى بهم السيد المسيح خارج القرية إذ نزل إلينا من سماواته كغريبٍ ليلتقي بنا ويحملنا على كتفيه، ويدخل بنا إلى مقادسه السماوية.

ثانيًا: وقف هؤلاء الرجال بأجسادهم من بعيد، لكنهم اقتربوا إليه جدًا بالإيمان، إذ "**رفعوا صوتًا، قائلين: يا يسوع، يا معلم ارحمنا**" **[١٣]**. كبرصٍ حُرموا من السُكنى وسط الناس، وربما لم يشهدوا بأعينهم المعجزات التي صنعها السيد المسيح، إنما سمعوا عنها، لكنهم بالإيمان اقتربوا منه جدًا ونالوا تطهيرًا، بينما رأى كثير من الفريسيين والصدوقيين السيد المسيح وشاهدوا أعماله الفائقة وبعدم الإيمان حرموا أنفسهم من صداقته.

ثالثًا: أمرهم السيد المسيح أن يذهبوا إلى الكهنة ليروا أنفسهم لهم؛ ليؤكد أنه ما جاء لينقض الشريعة بل يكملها، وكي يعطي للكهنة اليهود دليلاً ماديًا على قدرته على الإبراء والتطهير، الأمر الذي يعجز عنه الناموس، لعلهم يؤمنون أن نعمته تفوق الناموس. وفي هذا التصرف أيضًا يوجهنا السيد المسيح للخضوع للكنيسة، كما يعلم الخدام روح التواضع. ومن جانب آخر يعطي فرصة للذين تطهروا أن يقدموا ذبيحة شكر لله[١].

رابعًا: حدث ما لم يتوقعه أحد فإن واحدًا من العشرة، إذ رأى أنه شُفي رجع يمجد الله بصوت عظيم، مقدمًا العبادة والشكر للمخلص، إذ خرّ على وجهه عند رجليه شاكرًا له، وكان سامريًا، بينما التسعة اليهود لم يرجعوا إليه، لذا قال السيد:

"**أليس العشرة قد تطهروا؟ فأين التسعة؟**

[١] الإنجيل بحسب متى، ص١٩٣-١٩٥.

ألم يوجد من يرجع ليعطي مجدًا لله غير هذا الغريب الجنس؟

ثم قال له: قم وامضِ، إيمانك خلصك" [١٧-١٩].

نال العشرة تطهير الجسد أما هذا الغريب الجنس فاغتصب بحياة الإيمان العملية المترجمة بالشكر والعبادة الحقيقية خلاص نفسه وتطهيرها.

خامسًا: يرى **القديس أغسطينوس**[1] في هؤلاء العشرة برص معنى رمزيًا، إذ يشيرون إلى الذين لم يقبلوا الإيمان المستقيم بل يسلكون كهراطقة ومبتدعين، هؤلاء يقيمون خارج المدينة، إذ يحرمون من شركة الكنيسة، فإن قدموا توبة وتلاقوا مع السيد خلال الرجوع إلى الإيمان الحق، يسألهم أن يُروا أنفسهم للكاهن، أي يعودوا إلى شركة الكنيسة لتقبلهم وتهبهم حلاً.

أما أن تسعة منهم لم يعودوا بينما واحد فقط سامري يسجد أمام السيد حتى الأرض ويقدم ذبيحة شكر ممجدًا الله، فهذا يمكننا أن نفسره بأنه لا يكفي عودة الهراطقة للإيمان نظريًا أو بالشفاة، إنما يلزم عودتهم بالقلب مع العمل. فالسامري يمثل الإنسان الجاد في خلاصه، لأن كلمة "سامري" معناها "حارس"، فمن كان يقظًا وحارسًا بالروح القدس على خلاص نفسه يتقدم للرب بروح الانسحاق فيسجد له بتواضعٍ، ويشكره على فيض محبته التي قبلته في شركة جسده المقدس أي الكنيسة.

يرى **القديس أغسطينوس** أن الشاكر له هو واحد فقط إشارة إلى أن كنيسة المسيح واحدة، يجب ألا يكون في انقسام!

سادسًا: يقدم لنا **القديس البابا أثناسيوس الرسولي** في رسالته الفصحية السادسة هذا الأبرص السامري مثلاً حيًا لحياة الشكر التي تكشف عن قلبٍ يتعلق بواهب العطية (الله) أكثر من العطية ذاتها، إذ يقول: [أحب (الرب) ذاك الذي قدم الشكر، بينما غضب من الآخرين ناكري المعروف، لأنهم لم يعرفوا المخلص، بل انشغلوا بتطهيرهم من البرص أكثر من الذي طهرهم.]

٥. الإيمان بالملكوت الداخلي

إذ حدثنا عن الإيمان كطريقٍ للتمتع بملكوت الله، محذرًا إيانا من ضيق القلب المفسد للإيمان، وأيضًا من الكبرياء الاعتداد بالذات، مطالبًا إيانا أن نتمثل بالسامري الذي حمل إيمانًا عمليًا مترجمًا خلال شهادته العلنية للسيد المسيح مع تواضعه وتقديم شكره... الآن إذ التهب قلب السامعين بالشوق نحو التمتع بهذه الصداقة صار الفريسيون يسألون لا عن كيفية تمتعهم بها وإنما عن موعد هذه

[1] *Quaest. Ev 2: 40.*

الصداقة وزمانها، فسألوه: "**متى يأتي ملكوت الله؟**" **[٢٠]**

هذا السؤال ليس بغريبٍ، فإن غاية عدو الخير أن يشغلنا عن خلاص أنفسنا بالاهتمام بالأزمنة والأوقات. هذا ما نلاحظه بوضوح في العصر الحاضر، فنجد مثلاً في الولايات المتحدة الأمريكية يهتم كثير من الدارسين بسفر الرؤيا لا كسفر السماء الذي يلهب القلب نحو مجيء العريس الأبدي، وإنما لمجرد البحث عن معرفة زمان انقضاء هذا الدهر. لذا يحذرنا السيد المسيح: "ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات".

لقد أجاب السيد المسيح تساؤلهم بتوجيه فكرهم من البحث عن الأزمنة والتعرف على الأوقات إلى الاهتمام بالتمتع بالملكوت كملكوتٍ حاضر، ملكوت داخلي في أعماق النفس. بمعنى آخر يودنا أن نهتم بعلاقتنا به على مستوى القلب الداخلي عِوَض الانشغال بالأمور الخارجية والمناقشات البحتة الفلسفية.

❖ لقد أعطى الإجابة بما فيه نفع كل البشر، أن ملكوت الله لا يأتي بمراقبة؛ انظروا، فإن ملكوت الله هو داخلكم. يقول لا تسألوا عن الأزمنة التي فيها يأتي ملكوت الله، وإنما كونوا مشتاقين أن توجدوا متأهلين له، لأنه في داخلكم، أي يعتمد على إرادتكم، وفي سلطانكم أن تقبلوه أو ترفضوه. كل إنسان يقبل التبرير بالإيمان بالمسيح ويتزين بكل فضيلة يُحسب أهلاً لملكوت السماوات[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ ملكوت الله داخلكم يعني الفرح الذي يغرسه الروح القدس في قلوبكم، بكونه أيقونة وعربون للفرح الأبدي الذي تتمتع به نفوس القديسين[٢].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ بلوغ القصر السماوي أسهل من الوصول إلى بريطانيا أو أورشليم، لأن ملكوت الله داخلكم.

أنطونيوس وطغمات رهبان مصر وما بين النهرين وبنطس وكبادوكية وأرمينيا لم ينظروا أورشليم لكن باب الفردوس انفتح لهم.

الطوباوي هيلاريون مع كونه من مواطني فلسطين وسكانها لم ينظر أورشليم سوى يومًا واحدًا، إذ لم يرغب وهو قريب من الأماكن المقدسة أن يتجاهلها، وفي نفس الوقت لم يرد أن يحصر الله بحدود

---

[1] *On Luke hom 117.*
[2] *De Prop. Sec. Deum.*

مكانية محلية[1].

القديس جيروم

❖ في داخلكم إما معرفة الحق أو جهله، الابتهاج بالفضيلة أو الرذيلة، بهذا نعد قلبنا إما لملكوت المسيح أو ملكوت إبليس[2].

الأب موسى

ليتنا بالإيمان الحيّ العامل نقبل تجلي ملكوت المسيح فينا، فيعلن في داخلنا ملكًا، يوجه عواطفنا وأحاسيسنا وأفكارنا وكل طاقاتنا الروحية والنفسية والجسدية لحساب ملكوته الأبدي. بهذا تكون حصانتنا ضد هجمات عدو الخير وضد الشر قائمة على الأعماق الداخلية في الرب التي لا يمكن أن تُغلب. هذا ما يؤكده **الأب بيامون** بقوله: [لا نقدر أن نهرب من عواصف التجارب وهجمات الشيطان إذا ما اعتمدنا في حماية صبرنا، لا على قوة إنسانا الداخلي، إنما على مجرد غلق باب قلايتنا أو مجرد التوغل في الصحراء ومصاحبة القديسين أو أي حماية خارجية من أي نوع[3].]

٦. بين الملكوت الداخلي والملكوت الأخروي

إذ وجه أنظارنا إلى ملكوته الداخلي حتى نقتنيه فينا حالاً عوض الانشغال بمعرفة الأزمنة والأوقات، عاد أيضًا ليهيئنا لمجيئه الأخير بكونه امتدادًا لمجيئه الحاضر وحلوله فينا. بمعنى آخر سكناه في داخلنا وإعلان ملكوته في أعماقنا هو عربون يلهب قلبنا لمجيئه الأخير. وكأن صداقتنا معه تبدأ الآن لكي تنمو بالأكثر حين نلتقي معه وجهًا لوجه.

جاء حديث السيد المسيح يوضح النقاط التالية:

أولاً: أظهر السيد المسيح أنه سيأتي وقت فيه يشتهي المؤمنون يومًا من أيام وجود السيد على الأرض حين يكتشفون شخصه، ويتذوقون حلاوة صداقته، إذ يقول: "**ستأتي أيام فيها تشتهون أن تروا يومًا واحدًا من أيام ابن الإنسان، ولا ترون**" **[٢٢]**.

يرى **القديس كيرلس الكبير** أن السيد المسيح إذ تحدث مع تلاميذه عن ملكوته الداخلي فيهم، أراد أن يكشف لهم عن الآلام التي تعانيها الكنيسة ويسقط تحتها المؤمنون، حتى ليحسب الكل أن أيام وجود السيد المسيح على الأرض تحسب كما لو كانت أيام بلا أتعاب أن قورنت بما سيمر به

---

[1] *Ep. 58: 3.*
[2] *Cassian: Conf 1: 13.*
[3] *Cassian: Conf 18: 16.*

المؤمنون. أنهم يشتهون الأيام التي عاش فيها التلاميذ مع المخلص حيث يحمل السيد الآلام وحده وهم مستريحون. بهذا لا يريد السيد أن يرعبهم، وإنما بالحري يهيئهم لاحتمال الضيق ومواجهة المتاعب بقوة، إذ سبق فأخبرهم بها.

❖ هل بقوله هذا كان الرب يخيف تلاميذه؟

هل كان يضعفهم مقدمًا، ويجعلهم خائرين في احتمال الضيقات والتجارب التي لا يقدرون على احتمالها؟

ليس هذا هو ما يقصده بل بالحري أراد بالعكس أن يهيئهم لقبول كل ما يحزن البشر، فيكونون مستعدين لاحتماله بصبرٍ، فيتزكون، ويدخلون ملكوت الله.

لقد سبق فحذرهم قبل مجيئه من السماء في نهاية العالم، بأن التجارب والضيقات تسبقه حتى أنهم يشتهون أن يروا يومًا واحدًا من أيام ابن الإنسان، أي يروا يومًا من الأيام التي كانوا فيها مع المسيح يتحدثون معه. ومع أن اليهود ـ حتى في هذه الأيام ـ استخدموا عنفًا ليس بقليلٍ ضده، إذ حاولوا رجمه بالحجارة، واضطهدوه لا مرة بل مرات عديدة، واقتادوه إلى تل ليلقوه من القمة، وأهانوه وصنعوا وشايات ضده، ولم يتركوا أي شكل من الشر إلا ومارسه اليهود ضده، فكيف يقول إذن أن التلاميذ يشتهون أن يروا يومًا من أيامه؟ هذا بالمقارنة بالشرور الكثيرة التي ستحل فتحسب هذه قليلة ومشتهاه[1]!

القديس كيرلس الكبير

❖ إذ كانت حياتهم في ذلك الحين بلا متاعب، لأن المسيح كان مهتمًا بهم ويحميهم، فإنه إذ يأتي الوقت ليُرفع المسيح يتعرضون لمخاطر، ويقفون أمام ملوك وولاة فيشتهون الأيام الأولى وهدوءها[2].

الأب ثيؤفلاكتيوس

ثانيًا: التحذير من التضليل

إذ حدثهم بطريقة غير مباشرة عن الآلام التي يواجهونها قبل مجيئه، صار يحذرهم عن التضليل، وهذا يمثل خطرًا أكثر مرارة، لأنه يحمل خداعًا للنفوس غير القادرة على التمييز بين مجيء ضد المسيح ومجيء المسيح نفسه.

---

[1] *On Luke hom 117.*
[2] *Catena Aurea.*

أوضح السيد التمييز بينهما بقوله:

"ويقولون لكم: هوذا ههنا أو هوذا هناك.

لا تذهبوا ولا تتبعوا،

لأنه كما أن البرق الذي يبرق من ناحية تحت السماء

يضيء إلى ناحية تحت السماء،

كذلك يكون أيضًا ابن الإنسان في يومه" [٢٣-٢٤].

مجيء ضد المسيح يكون بلا شك مملوء خداعًا، إذ يصحبه أتباع كثيرون ينادون به في كل موضع للتضليل، ويصحبه ظهور آيات مخادعة من عمل الشيطان، ويميل العالم إليه، يبحث عنه هنا وهناك. أما المسيح الحقيقي فسيأتي علانية على السحاب، كقول الرسول بولس: "لأن الرب نفسه بهتاف بصوت رئيس ملائكة، وبوق الله سوف ينزل من السماء" (١ تس ٤: ٦). يأتي ببهائه كالبرق فيراه الكل، ولا يحتاج إلى من يعلن عنه. يأتي ليدين الأحياء والأموات، مبرقًا في قلوب الكل وأفكارهم، فيصير كل شيء واضحًا أمام الجميع... تنكشف سرائر الناس الخفية!

❖ سينزل من السماء في أواخر الدهور، لا بطريقة غامضة أو سرية وإنما في مجد لاهوته، بكونه "ساكنًا في نورٍ لا يُدنى منه" (١ تي ٦: ١٦). هذا أعلنه بقوله أن مجيئه سيأتي كالبرق. حقًا لقد وُلد في الجسد من امرأة ليحقق التدبير لأجلنا، ولهذا السبب أخلى ذاته، وصار فقيرًا، ولم يظهر نفسه في مجد اللاهوت. لقد حمل التواضع من أجل الوقت نفسه ولتحقيق التدبير. أما بعد القيامة من الأموات إذ صعد إلى السماوات وجلس مع الله الآب، فإنه ينزل ثانية لكن ليس بدون مجده، ولا في تواضع الناسوت، وإنما في عظمة الآب تحرسه صحبة الملائكة الذين يقفون أمامه بكونه إله الكل ورب الجميع. أنه سيأتي كالبرق وليس سريًا[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ كما أن البرق لا يحتاج إلى من يعلن عنه ويخبر به، بل يُنظر في لحظة في العالم، فإنه حتى بالنسبة للذين يجلسون في بيوتهم سيأتي ابن الإنسان، ويُنظر في كل موضع دفعة واحدة بسبب بهاء مجده.

القديس يوحنا الذهبي الفم

---

[1] *On Luke hom 117.*

ثالثًا: رفض المسيح

إذ كان الرب يحث تلاميذه على قبول صداقته لهم على مستوى أخروي أو انقضائي، معلنًا أنه قادم لا محال، قادم كالبرق أمام الجميع في مجد لاهوته، لكن يسبق هذا المجد "رفض العالم له"، فلا طريق للأمجاد بغير الآلام، بهذا يحثنا على قبول "المسيح المرفوض" حتى يقبلنا في أمجاده. يؤكد السيد المسيح لتلاميذه: "**ولكن ينبغي أولاً أن يتألم كثيرًا ويُرفض من هذا الجيل**" **[٢٥]**.

احتمل الرأس – المسيح – الآلام الكثيرة وصار مرفوضًا، وها هو يأتي ممجدًا، ونحن أيضا جسده لن نشاركه أمجاده ما لم يرفضنا هذا الجيل ويضغط علينا بالآلام. وكما يقول الرسول بولس: "إن كنا نتألم معه لكي نتمجد أيضًا معه" (رو ٨: ١٧).

رابعًا: اليقظة والسهر

لا يكف السيد المسيح عن أن يوجه تلاميذه إلى حياة اليقظة والسهر الدائم حتى لا يكون مجيء الرب بالنسبة لهم مفاجأة محزنة، بل يكون عرسًا مبهجًا طالما تترقبه النفس بشوق داخلي حقيقي. قدّم لنا مثلين، الأول الطوفان في أيام نوح حيث كان الناس منهمكين في الملذات: "**يأكلون ويشربون، ويزوجون ويتزوجون، إلى اليوم الذي فيه دخل نوح الفلك وجاء الطوفان وأهلك الجميع**" **[٢٧]**، والثاني حرق سدوم في أيام لوط، إذ "**كانوا يأكلون ويشربون، ويشترون ويبيعون، ويغرسون ويبنون**" **[٢٨]**. ليس الأكل خطية ولا الشرب ولا الزواج أو البيع والشراء أو الغرس والبناء، إنما الخطية هي انغماس الإنسان ولهوه بعيدًا عن خلاص نفسه. كل هذه الأعمال يمكن أن تكون مقدسة ومباركة إن مارسها الإنسان الروحي وهو مقدس في الرب، مهتمًا بمجيء المخلص، منتظرًا العرس الأبدي.

❖ لكي يظهر أنه سيظهر بطريقة غير متوقعة، في وقت لا يعرفه إنسان، عند نهاية العالم قال بأن النهاية ستكون كما في أيام نوح ولوط... ماذا إذن يعني بهذا؟ إنه يطالبنا أن **نكون يقظين على الدوام**، ومستعدين للمجاوبة أمام محكمة الله. وكما يقول بولس: "لأنه لابد أننا جميعًا نُظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحدٍ ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرًا كان أم شرًا" (٢ كو ٥: ١٠). "فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار"، ثم يقول (الملك) للذين عن يمينه: "تعالوا يا مباركي أبى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم" (مت ٢٥: ٣٣)، أما بالنسبة للجداء فينطق بعبارة مرعبة، إذ يرسلهم إلى نار لا تُطفأ[1].

القديس كيرلس الكبير

[1] *On Luke hom 117.*

خامسًا: التحذير من النكوص

إذ يدعونا لقبول صداقته الحالية عربونا للصداقة الأبدية الخالدة، لا يطالبنا بالسهر فحسب، وإنما بالنمو الدائم في علاقتنا معه دون تراجع أو نكوص، مقدمًا لنا ثلاثة أمثلة:

أ. من ارتفع حتى بلغ السطح لا ينزل إلى الأطباق الدنيا يبحث عن أمتعته، بل يبقى مرتفعًا على السطح مترقبًا بعيني الإيمان العامل مجيء العريس من السماء.

ب. من انطلق إلى حقل الخدمة ليعمل لحساب مملكة الله، لا يرجع إلى الوراء يطلب الزمنيات.

ج. من يخرج من سدوم، لا ينظر إلى الوراء، كامرأة لوط فيصير عمود ملح.

هذه هي الأمثلة التي قدمها لنا السيد قائلاً:

"**في ذلك اليوم من كان على السطح وأمتعته في البيت،**

فلا ينزل ليأخذها،

والذي في الحقل كذلك لا يرجع إلى الوراء؛

اذكروا امرأة لوط" [٣١-٣٢].

وقد سبق لنا عرض المفاهيم الروحية لهذه العبارات في تفسير مت ٢٤: ١٧-١٨، مر ١٣: ١٥-١٦، وأقوال بعض الآباء فيها.

يرى **القديس كيرلس الكبير**[1] الإنسان الذي على سطح هو الغني الذي صار كمن على السطح يعرفه الجميع، ومشهورًا بين من هم حول بيته. ليته لا يضع قلبه في مخازنه التي في داخل البيت، بل يهتم بحياته الروحية، إذ يقول الحكيم: "كنوز (الشر) لا تنفع، أما البرّ فينجي من الموت" (أم ١٠: ٢). أما **القديس هيلاري أسقف بواتييه**[2] فيرى المرتفع إلى السطح هو الإنسان الكامل في قلبه، المرتفع روحيًا والمتجدد على الدوام يلزمه ألا يرتبك بأمور زمنية. ويرى **القديس أمبروسيوس**[3] فيه الإنسان الذي يرتفع مع الرسول بطرس إلى السطح ليدرك سرّ الكنيسة (أع ١٠: ٩) التي لا تنسب النجاسة لشعبٍ ما، بل تفتح باب الكرازة للجميع.

أما الذي في الحقل فيرى **القديس كيرلس الكبير** أنه الإنسان الذي كرّس حياته للجهاد والعمل من أجل الثمر الروحي؛ هذا الذي وضع يده على المحراث فلا ينظر إلى الوراء (لو ٩: ٦٢)،

أما امرأة لوط فقد خلصت بخروجها من سدوم، وعدم تعرضها للنيران، لكنها لم تكمل طريق

---

[1] *On Luke hom 118.*
[2] *In Matt. Canon 25.*
[3] *In Luc 17: 20- 37.*

خلاصها، ففقدت كل شيء برجوع قلبها إلى الوراء.

نختم حديثنا عن هذه الأمثلة بكلمات **القديس يوحنا كاسيان:** [عندما تبلغ آمان قمة سطح الإنجيل لماذا تنزل لتحمل شيئًا من البيت، من الأمور التي سبق لك الاستهانة بها؟ عندما تكون في الحقل تعمل في الفضيلة لماذا ترتد محاولاً أن ترتدي أمور هذا العالم مرة أخرى بعد أن خلعتها ونبذتها[1]؟]

سادسًا: الاهتمام بخلاص النفس

حقًا قد يعمل الإنسان، ويظن أنه مجاهد في طريق الصداقة الإلهية والتمتع بالملكوت، لكنه لا يدري أنه فقد هدفه بانحرافه عن التمتع بخلاص نفسه. هذا الخلاص ثمنه "دم المسيح الثمين" لذا يستحق أن نرفض كل شيء، ونحتمل كل شيء من أجله، إذ يقول: "**من طلب أن يخلص نفسه يهلكها، ومن أهلكها يحييها**" **[٣٣]**.

كثيرًا ما تحدث **القديس أغسطينوس** عن خبرة عاشها، ملخصها أن من يحب ذاته (*himself*) يهلك نفسه (*his soul*)، ومن يبغض ذاته أو يهلكها يحب نفسه. بمعنى آخر متى تقوقع الإنسان حول "الأنا"، وظن أنه يعيش لذاته يشبع شهوات جسده أو يطلب كرامة زمنية إنما في حقيقته يهلك نفسه، في هذا العالم وفي الدهر الآتي. قدر ما يهلك الإنسان ذاته *ego* ليحيا منطلقًا خارج الأنا، حرًا، يعمل لحساب ملكوت الله ولأجل سلام الناس وبنيانهم، يحب نفسه ويخلصها بالله المحب! لنحمل طبيعة البذل فينا، أي طبيعة صديقنا محب البشر، فننعم بالحياة الحقيقية هنا والأبدية أيضًا!

يرى **الأب ثيؤفلاكتيوس** أن الحديث هنا يخص تصرف المؤمن خاصة في أيام "ضد المسيح" حيث يتعرض المؤمنون لضيقات كثيرة وللموت. فإن كان الإنسان يطلب أن يخلص نفسه، أي ينقذ حياته الزمنية، إنما يهلك نفسه، أما إذا لم يبالِ بالأتعاب حتى الموت، ففيما هو يهلك نفسه (حياته الزمنية) يخلصها، إذا لا يخضع للطاغية "ضد المسيح" من أجل حب البقاء.

يقول **القديس كيرلس الكبير:** [يليق بالذين اعتادوا على الترف أن يمتنعوا عن هذا الكبرياء في ذلك اليوم، ويكونوا مستعدين لاحتمال المشقة. بنفس الطريقة يليق بالذين يجاهدون حسنًا أن يثابروا بشجاعة حتى يبلغوا العلامة الموضوعة أمامهم، لأن "**من طلب أن يخلص نفسه يهلكها، ومن أهلكها يحييها**" **[٣٣]**. وقد أظهر بولس بوضوح الطريق الذي به يهلك الإنسان نفسه لكي يخلصها... بقوله عن القديسين: "ولكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات" (غل ٥: ٢٤). الذين صاروا بحق للمسيح مخلصنا يصلبون جسدهم، ويقدمونه للموت، خلال الجهاد المستمر

---

[1] *Instit. 7: 27.*

والصراع من أجل التقوى وإماتة شهواته الطبيعية. لقد كُتب: "فأميتوا أعضاءكم التي على الأرض: الزنا النجاسة الهوى الشهوة الردية، الطمع" (كو ٣: ٥). أما الذين يعيشون حياة شهوانية، فربما يحسبون أنهم يربحون أنفسهم بحياة اللذة والتدليل، بينما في الواقع هم يهلكونها، "لأن من يزرع لجسده فمن الجسد يحصد فسادًا" (غل ٦: ٨). من يهلك حياته بالتأكيد يخلصها؛ هذا هو ما فعله الشهداء الطوباويون، محتملين المتاعب حتى الدم وبذل الحياة، متوجين رؤوسهم بإكليل المحبة الحقيقية للسيد المسيح. أما الذين من أجل ضعف عزيمتهم وذهنهم أنكروا الإيمان، وهربوا من موت الجسد، فصاروا قتلة لأنفسهم، إذ أنهم ينحدرون إلى جهنم ليعانوا العذابات من أجل جبنهم الشرير[1].]

هذا وقد أراد السيد المسيح أن يؤكد بأن الاهتمام بخلاص النفس غالبًا ما يكون أمرًا خفيًا لا يعرفه إلا الله والنفس ذاتها. أما الإنسان فيصعب أن يحكم على أخيه إن كان مهتمًا بخلاص نفسه أم لا، لذا يقول السيد المسيح:

"أقول لكم إنه في تلك الليلة يكون اثنان على فراش واحد،
فيؤخذ الواحد ويُترك الآخر.
تكون اثنتان تطحنان معًا،
فتؤخذ الواحدة وتُترك الأخرى.
يكون اثنان في الحقل،
فيؤخذ الواحد ويُترك الآخر" [٣٤-٣٦].

لقد قدم لنا ثلاث عينات من الناس، وفي كل عينة يوجد من هو مؤهل للتمتع بالملكوت، ومن قد حرم نفسه بنفسه من هذا الملكوت. فما هي هذه العينات الثلاث؟

أ. يرى **القديس أغسطينوس**[2] أن هذه العينات تمثل ثلاث طبقات من الناس، في كل طبقة يُوجد الصنفان: الطبقة الأولى الاثنان النائمان، وهي طبقة الذين ليس لهم أعمال لا في العالم ولا في الكنيسة (وربما يقصد الأعيان والأشراف الذين يعيشون على ريع ممتلكاتهم). هؤلاء يحبون الحياة الهادئة التي يُشار إليها بالسرير. أما الطبقة الثانية فيُرمز لها بالاثنتين اللتين تطحنان، وهما امرأتان تعملان تحت مشورة رجليهما، وهي طبقة الذين يعملون كما بحجر الرحى ويقدمون من تعب أيديهم خبزًا للمؤمنين، أي الذين يمارسون وظائفهم الزمنية بأمانة مقدمين من تعبهم صدقة للمساكين. أما

---

[1] *On Luke hom 118.*
[2] *Quaest Ev. 2: 41.*

الطبقة الثالثة التي يُرمز لها باللذين يعملان في حقلٍ واحدٍ، فهي جماعة الكهنة والخدام الذين يعملون في كرم الرب. وكأنه يوجد أبناء للملكوت بين الأغنياء كما بين المجاهدين في حياتهم اليومية وأيضًا بين خدام الكلمة، ويوجد من لا نصيب لهم في الملكوت بين هذه العينات جميعها. وكأن صداقتنا مع السيد المسيح، وتمتعنا بملكوته، لا يتوقف على ظروفنا الخارجية ونوع عملنا وإنما على حياتنا الخفية الداخلية.

ب. ربما يُقصد بالاثنين الراقدين على فراش واحد رجل وزوجته، فإنهما وإن صارا جسدًا واحدًا، وتعرفا على أسرار بعضهما البعض، لكن يبقى لكلٍ منهما حياته الخاصة مع الله، لا يدرك أسرارها الطرف الآخر، لأنه لا يقدر أن يفحص أعماق قلبه أو يدرك أسرار فكره. أما المرأتان العاملتان على حجر رحى فتشيران إلى الزمالة في العمل، بينما العاملان في الحقل فيشيران إلى الزمالة في الخدمة. ففي كل الظروف لكل إنسان حياته السرية مع صديقه السماوي. هذا ويُلاحظ أن الثلاثة أمثلة شملت: رجل وامرأة، إمرأتين، رجلين، بمعنى أن الصداقة البشرية في كل مستوياتها وبين كلا الجنسين لا تقدر أن تخترق أعماق القلب لإدراك صداقة الغير مع الله.

ج. في المثل الأول يقول: "**في تلك الليلة يكون اثنان على فراشٍ واحد، فيؤخذ الواحد ويُترَك الآخر**" [٣٤]. ستكون فترة ما قبل مجيء السيد المسيح حالكة الظلام، لذا قال "**في تلك الليلة**". ليلة مرة يظهر فيها "ضد المسيح" والأنبياء الكذبة، ويحدث ارتداد حتى إن أمكن المختارين أيضًا أن يضلوا.

يقول **القديس أمبروسيوس:** [وجود أضداد المسيح هي ساعة ظلمة، إذ يسكب ضد المسيح سحابة مظلمة على أذهان البشر عندما يعلن عن نفسه أنه المسيح، ويأتي الأنبياء الكذبة ليؤكدوا مجيء المسيح في البرية فيخدعوا القلوب المتزعزعة ويضللونها، أما السيد المسيح فيأتي كالبرق القوي يسكب على العالم شعاع نوره... يشع بضوء برقه لنرى مجد القيامة وسط هذا الليل[١].]

يقول **القديس أغسطينوس:** [إنه يقول: "**في تلك الليلة**" ليعني وسط هذا الضيق[٢].] ويرى **القديس كيرلس الكبير**[٣] أن الفراش هنا رمز للراحة، والنائمين معًا هما جماعة الأغنياء، فمنهم من هم أشرار وطماعين ومنهم من هم رحماء يترفقون بالفقراء؛ كلاهما نالا غنى لكن واحد كسب بغناه أصدقاء في المظال الأبدية، وآخر تعبد للمال والغنى.

---

[1] *In Luc 17: 20- 37.*
[2] *Quaest Ev. 2: 41*
[3] *In Luke hom 118.*

د. إن كان الأولان يشيران إلى الأغنياء، ففي رأى **القديس كيرلس الكبير**[1] أن المرأتين تشيران إلى جماعة الفقراء، فليس كل غني شرير ولا كل فقير صالح، إذ يقول: [البعض يحتمل ثقل الفقر بنضوج، ممارسًا حياة مكرمة عاقلة وفاضلة بينما يحمل آخرون شخصية مختلفة، إذ يحتالون ممارسين شرورًا وأعمالاً دنيئة.]

هـ. يرى **القديس أمبروسيوس** أن هاتين المرأتين اللتين تطحنان معًا هما الكنيسة والمجمع اليهودي، فإنهما يطحنان القمح لتقديم خبز تقدمة لله، إذ كلاهما يفسران العهد القديم بشرائعه ونبواته، لكن المجمع في جحوده يُترك بينما كنيسة العهد الجديد التي تسلمت من المجمع أسفار العهد القديم تتمتع بالعرس السماوي.

وما نقوله عن المرأتين ينطبق على الرجلين العاملين في حقل واحد، فالمجمع بفكره الحرفي لم يستطع أن يقدم ثمر الروح الذي يفرح قلب الله، أما كنيسة العهد الجديد فتقدم "رأسها" ثمرًا حقيقيًا وبكورًا يشتمه الآب رائحة رضا.

سابعًا: اجتماع النسور حول الجثة [٣٧] وقد سبق الحديث عنه بفيض في مت ٢٤: ٢٨. إذ رُفع السيد المسيح على الصليب وقبل الموت بإرادته انطلق المؤمنون كالنسور يجتمعون حوله ليجدوا فيه طعامهم الروحي واهب القيامة والحياة. وبموت ضد المسيح يجتمع الأشرار أيضا حوله كنسور يطلبون ما يناسب طبيعتهم.

❖ ما هي النسور؟ وما هي الجثة؟ تشبه أرواح الصديقين بالنسور، إذ ترتفع في الأعالي وتترك الأمور الدنيا، كما تعمر طويلاً، لذا يناجي داود نفسه، قائلاً: "يتجدد مثل النسر شبابك" (مز ١٠٣: ٥).

إذ عرفنا النسور لا يمكن أن نشك في الجثة، خاصة ونحن نتذكر أن يوسف قد أخذ الجسد من بيلاطس (يو ١٩: ٣٨). ألا ترى النسور حول الجسد؟ مريم امرأة يوسي ومريم المجدلية ومريم أم الرب وجماعة التلاميذ يحيطون بقبر الرب؟ ألا ترى النسور عندما يأتي الرب على السحاب وتبصره كل عين (رؤ ١: ٧)؟ أما الجسد فهو ذاك الذي قيل عنه: "جسدي مأكل حق" (يو ٦: ٥٥)، حوله تطير النسور بأجنحة الروح، هذه النسور هي التي تؤمن بأن يسوع قد جاء في الجسد (١ يو ٤: ٢)... هذا الجسد أيضًا هو الكنيسة، التي فيها تهبنا نعمة المعمودية التجديد الروحي فلا تكون

[1] *In Luke hom 118.*

شيخوخة إذ يتجدد الشباب والحياة[1].

القديس أمبروسيوس

[1] *In Luc 17: 20-37.*

الأصحاح الثامن عشر

الصلاة الحية والصداقة الإلهيَّة

كان جوهر الحديث في الأصحاح السابق هو "الإيمان" كطريق للتمتع بالصداقة الإلهيَّة، خلال تمتعنا بالملكوت الداخلي في القلب كعربون للملكوت الإلهي الأخروي أو الأبدي. هذا الإيمان يترجم خلال حياة الصلاة الدائمة أو العبادة الصادقة الملتحمة بروح التواضع والزهد مع قبول الألم، فتتفتح بصيرتنا الداخلية على الملكوت. هذا هو موضوع هذا الأصحاح!

١. **الصلاة بلجاجة (الأرملة وقاضي الظلم)** ١-٨.

٢. **العبادة المتضعة (الفريسي والعشار)** ٩-١٤.

٣. **العودة إلى بساطة الطفولة** ١٥-١٧.

٤. **التحرر من عبودية المال** ١٨-٣٠.

٥. **قبول الصليب** ٣١-٣٤.

٦. **الاستنارة (تفتيح عيني الأعمى)** ٣٥-٤٣.

١. الصلاة بلجاجة (الأرملة وقاضي الظلم)

سبق فأعلن السيد أن "الصليب" هو طريق الملكوت، إذ ينبغي أن يتألم ابن الإنسان ويُرفض لكي يملك فينا، هكذا ينبغي أن تتألم كنيسته وتحمل صليبه وهي تنتظر مجيئه الأخير. ربما يتساءل البعض: كيف يمكننا أن نحتمل الصليب ونقبل الآلام بفرح من أجل الملكوت؟ وقد جاءت الإجابة هنا: الصلاة كل حين! مقدمًا لنا "**مثلاً في أنه ينبغي أن يُصلى كل حين ولا يُمل**" [١].

❖ إذ تحدث ربنا عن المتاعب والمخاطر التي ستحل أضاف العلاج في الحال، أي الصلاة الدائمة بغيرة.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ إن كنت لم تنل موهبة الصلاة أو التسبيح كن لجوجًا فتنلْ... لا تمِل من الانتظار، ولا تيأس من عدم نوالك، لأنك ستنال فيما بعد[1].

القديس أوغريس

---

[1] *On Prayer 87, 88.*

❖ لم يأمرنا أن نقيم صلاة من عشرة آلاف عبارة، لنأتي إليه لمجرد ترديدها... فنحن لا نأتي لكي نعلمه وإنما لنصارع معه، ونلتصق به بالطلب المستمر والتواضع وتذكر الخطايا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ ذاك الذي فداك يظهر لك ما يريده منك أن تفعله؛ يريدك في صلاة دائمة؛ يودك أن تتأمل في قلبك البركات التي تصلي من أجلها؛ يريدك أن تسأله فتنال صلاحه الذي يشتاق أن يهبه لك.

إنه لن يبخل قط ببركاته على من يصلي، لكنه برحمته يحث البشر ألا يملوا في الصلاة.

تقبل تشجيع الرب لك بفرحٍ، ولترد أن تتمم ما يأمر به وأن تكف عما يمنعك عنه.

أخيرًا، تأمل ما يوهب لك من امتياز مغبوط، أنك تتحدث مع الله في صلواتك، مظهرًا له احتياجاتك، فإنه يجيبك لا بكلمات وإنما برحمته، إذ هو لا يستخف بالسؤالات، وهو لا يمل إلا إن توقفت أنت[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا تكن الصلاة مجرد عمل لوقت معين إنما هي حالة دائمة للروح. يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** تأكد أنك لا تحد صلاتك بجزءٍ معين من اليوم. اتجه إلى الصلاة في أي وقت، كما يقول الرسول في موضع آخر: "صلوا بلا انقطاع" (١ تس ٥: ١٧). يخبرنا الرسول أن نصلي "في الروح" (أف ٦: ١٨)، بمعنى أن الصلاة لا تكون فقط في الخارج (بكلمات مسموعة) بل وفي الداخل، فهي عمل العقل والقلب. بهذا يكون جوهر الصلاة هو رفع العقل والقلب نحو الله.

❖ كتب بولس إلى أهل تسالونيكي: "صلوا بلا انقطاع" (١ تس ٥: ١٧). وفي رسائل أخرى يوصي: "مصلين بكل صلاة وطلبة كل وقت في الروح" (أف ٦: ١٨)، "واظبوا على الصلاة ساهرين فيها" (كو ٤: ٢)، "مواظبين على الصلاة" (رو ١٢: ١٢). وأيضًا يعلمنا المخلص عن الحاجة إلى الصلاة الدائمة بمثابرة خلال مثل المرأة التي بلجاجتها غلبت القاضي الظالم بسؤالها المستمر. من هذا كله يتضح أن الصلاة الدائمة ليست أمرًا عارضًا بل سمة أساسية للروح المسيحي. حياة المسيحي – بحسب الرسول – مختفية في الله بالمسيح (كو ٣: ٣)، لذا وجب على المسيحي أن يعيش في الله على الدوام بكل فكره ومشاعره؛ وإذ يفعل هذا إنما يصلي بلا انقطاع!

لقد تعلمنا أيضًا أن كل مسيحي هو "هيكل الله" فيه "يسكن روح الله" (١كو ٣: ١٦؛ رو ٨: ٩).

---

[1] *In Matt. Hom 19: 4.*

[2] *Catena Aurea.*

هذا الروح دائمًا حال فيه، ويشفع فيه، مصليًا في داخله "بأنات لا يُنطق بها" (رو ٨: ٢٦)، وهكذا يعلمه كيف يصلي بلا انقطاع.

❖ أذكر أن **القديس باسيليوس الكبير** قد أجاب على السؤال: كيف استطاع الرسل أن يصلوا بلا انقطاع؟ قائلاً أنهم في كل شيء كانوا يفعلونه يفكرون في الله، عائشين في تكريس دائم لله. هذا الحال الروحي كانت صلاتهم التي بلا انقطاع[1].

الأب ثيؤفان الناسك

قدم السيد المسيح مثل الأرملة وقاضي الظلم ليحثنا على الصلاة الدائمة،

"**كان في مدينة قاضٍ لا يخاف الله، ولا يهاب إنسانًا.**

وكان في تلك المدينة أرملة،

وكانت تأتي إليه، قائلة: انصفني من خصمي.

وكان لا يشاء إلى زمان،

ولكن بعد ذلك قال في نفسه: وإن كنت لا أخاف الله، ولا أهاب إنسانًا.

فإني لأجل أن هذه الأرملة تزعجني أنصفها لئلا تأتي دائمًا فتقمعني.

وقال الرب: اسمعوا ما يقول قاضي الظلم.

أفلا ينصف الله مختاريه الصارخين إليه نهارًا وليلاً وهو متمهل عليهم؟!

أقول لكم إنه ينصفهم سريعًا،

ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعله يجد الإيمان على الأرض؟!" [٢-٨].

هكذا يحثنا السيد المسيح على الصلاة الدائمة بلا ملل، النابعة عن الإيمان بالله مستجيب الصلوات، لذا يعلن أنه في أواخر الدهور إذ يجحد الكثيرون الإيمان وتبرد المحبة تتوقف أيضا الصلاة، فيفقد الإنسان صلته وصداقته مع الله. هذا هو ما عناه بقوله "**ألعله يجد الإيمان على الأرض؟!**"، معلنًا حزنه على البشرية المحرومة من الصداقة الإلهية.

❖ فصل الإنجيل المقدس يبنينا في الالتزام بالصلاة والإيمان، بعدم اتكالنا على ذواتنا بل على الرب. أي تشجيع على الصلاة أكثر من مثل القاضي الظالم المُقدم لنا؟ فإن القاضي الظالم وهو لا يخاف الله ولا يهاب إنسانًا إلا أنه يصغي إلي الأرملة التي تسأله، مغلوبًا بلجاجتها وليس باللطف. إن كان قد سمع طلبتها ذاك الذي يكره أن يسأله أحد، فكم يسمع لنا نحن ذاك الذي يحثنا أن

---

[1] *Timothy Ware: The Art of Prayer, 1966, p 80-83.*

نسأله؟!

بالمقارنة العكسية إذ يعلمنا الرب أنه "**ينبغي أن يُصلي كل حين ولا يمل**" يضيف قائلاً: "**ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعله يجد الإيمان على الأرض؟!**" إن سقط الإيمان بطلت الصلاة، لأنه من يصلي لمن لا يؤمن به؟ لذلك عندما حث الرسول الطوباوي على الصلاة، قال: "لأن كل من يدعو باسم الرب يخلص" (رو ١٠: ١٣). ولكي يظهر أن الإيمان هو ينبوع الصلاة أكمل قائلاً: "فكيف يدعون بمن لم يؤمنوا به؟!" (رو ١٠: ١٤). كي نصلي يلزمنا أن نؤمن ولكي لا يضعف ذلك الإيمان الذي به نصلي فلنصلِ. الإيمان يفيض صلاة، وفيض الصلاة يقوي الإيمان. أقول، إن الإيمان يفيض صلاة، وفيض الصلاة يهب قوة الإيمان عينه. فلكي لا يضعف الإيمان أثناء التجربة قال الرب: "اسهروا (قوموا) وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" (٢٢: ٤٦)... ماذا يعني "تدخلوا في تجربة" إلا ترك الإيمان؟ فالتجربة تشتد برحيل الإيمان، وتنتهي بنمو الإيمان... ولكي تعرفوا أيها الأحباء بأكثر وضوح أن الرب بقوله: "اسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" يقصد ألا يضعف الإيمان ويهلك، يقول في نفس الموضع في الإنجيل: "هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة، ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك" (٢٢: ٣١-٣٢). ذاك الذي يحمي (إيماننا يصلي) أفلا يصلي ذاك الذي يتعرض للخطر؟

في كلمات الرب: "**ولكن متى جاء ابن الإنسان ألعلّه يجد الإيمان على الأرض؟!** [٨]، يتحدث عن الإيمان الكامل، إذ يكون نادرًا على الأرض[1].

القديس أغسطينوس

❖ ينبوع كل بركة هو المسيح "**الذي صار لنا حكمة من الله**" (١ كو ١: ٣٠)، إذ فيه صرنا حكماء وامتلأنا بالمواهب الروحية. الآن من كان متزن العقل يؤكد أن معرفة هذه الأشياء التي فيها نتقدم بكل وسيلة بالحياة المقدسة السامية والنمو في الفضيلة إنما هي عطية من الله، يتأهل الإنسان للفوز بها.

إننا نجد إنسانًا يسأل الله، قائلاً: "اظهر لي يا رب طرقك، علمني سبلك" (مز ٢٤: ٤). عديدة هي السبل التي تقودنا إلى الأمام نحو الحياة غير الفاسدة... لكنه يوجد سبيل واحد على وجه الخصوص نافع لكل السالكين فيه وهو الصلاة. لقد حرص المخلص نفسه أن يعلمنا إياه، مقدمًا لنا المثل الموضوع أمامنا كي نجاهد في الصلاة، إذ قيل: "**وقال لهم أيضًا مثلاً في أنه ينبغي أن يصلى**

[1] *Ser. On N.T. Lessons 65 (115 Ben.).*

كل حين ولا يُمل" [١].

إنني أؤكد أنه من واجب من يكرسون حياتهم للخدمة ألا يتراخوا في صلواتهم، ولا يحسبونها واجبًا ثقيلاً ومرهقًا، بل بالحري يفرحوا من أجل الحرية التي يهبها الله لهم، فإنه يريدنا أن نتحدث معه كأبناء مع أبيهم.

ألا يُعتبر هذا فضلاً يستحق منا كل تقدير؟ لو بلغ إلينا إنسان عظيم ذو سلطان أرضي وسمح لنا أن نتحدث معه بكامل الحرية، أما نحسب هذا سببًا لائقًا للفرح العظيم؟! فلماذا نشك إن كان الله يسمح لكل واحدٍ منا أن يوجه حديثه له كيفما شاء، مقدمًا للذين يخافونه كرامة عظيمة كهذه، يتأهلون لنوالها؟!

لنبطل كل كسل هذا الذي يجعل الناس يمارسون الصمت الضار عن الصلاة، ولنقترب بالحري إليه بالمديح والفرح إذ نلنا وصية أن نتحدث مع رب الكل وإله الجميع، ولنا المسيح شفيعًا يهبنا مع الآب تحقيق طلباتنا. يكتب بولس الطوباوي: "نعمة لكم وسلام من الله أبينا والرب (وربنا) يسوع المسيح" (٢ كو ١: ٢). بل والمسيح نفسه يقول لرسله القديسين: "إلى الآن لم تطلبوا شيئًا باسمي، اطلبوا تأخذوا" (يو ١٦: ٢٤). إنه شفيعنا، إنه كفارة عنا، إنه معزينا، واهبنا كل سؤالاتنا.

من واجبنا أن نصلي بلا انقطاع ككلمات الطوباوي بولس (١ تس ٥: ٧)، وكما هو معروف لنا حسنًا ومؤكد لنا ان ذاك الذي نقدم له سؤلاتنا قادر أن يحقق لنا كل شيء. لقد قيل: "ليطلب بإيمان غير مرتاب البتة، لأن المرتاب يشبه موجًا من البحر تخبطه الريح وتدفعه، فلا يظن ذلك الإنسان أنه ينال شيئًا من عند الرب" (يع ١: ٦-٧). فمن هو مرتاب يرتكب بالحق سخرية، فإن كنت لا تؤمن أنه يقترب إليك ويبهجك ويتمم طلبتك لا تقترب إليه بالكلية، لئلا تُوجد متهمًا القدير بكونك في غباوة مرتابًا. إذن لنتجنب هذا المرض الدنيء (الارتياب).

الله ينصت للذين يقدمون له صلواتهم لا بتراخٍ أو إهمالٍ بل بجديةٍ واستمرارية، هذا ما يؤكد لنا المثل الماثل بيننا. فإن كان مجيء الأرملة المظلومة قد غلب القاضي الظالم الذي لا يخاف الله ولا يهاب إنسانًا، حتى وهبها طلبتها بغير إرادته، أفليس ذاك الذي يحب الرحمة ويكره الظلم، الذي يمد يده على الدوام لمحبيه، يقبل الذين يقتربون إليه ليل نهار، وينتقم لهم بكونهم مختاريه؟[1]

❖ لكن، ربما يقول قائل: هوذا المسيح يقول لرسله القديسين: "أحبوا أعدائكم، صلوا لأجل الذين يسيئون إليكم"، فكيف نصرخ ضدهم (نطلب النقمة) دون أن نحتقر الوصية الإلهية؟...

[1] *On Luc hom 119.*

عندما تُرتكب معاصي ضدنا شخصيًا، فلنحسب ذلك مجدًا لنا أن نغفر لهم، فنمتلئ حبًا مشتركًا، ونقتدي بالآباء القديسين، حتى وإن ضربونا أو سخروا بنا. نعم حتى وإن مارسوا كل أنواع العنف ضدنا، إذ يليق بنا أن نتحرر من كل عيب، ونسمو فوق الغضب والحقد. مثل هذا المجد يليق بالقديسين ويفرح الله. ولكن إن كانت خطية موجهة ضد مجد الله (كالبدع والهرطقات ومقاومة الكرازة بالحق)، فلنقترب من الله ونسأله معونته ونصرخ ضد مقاومي مجده، كما فعل العظيم موسى، إذ قال: "قم يا رب، فلتتبدد أعداؤك، ويهرب مبغضوك من أمامك" (عد ١٠: ٣٥). كذلك الصلاة التي نطق بها الرسل القديسون... "أنظر إلى تهديداتهم"، بمعنى أبطل مقاومتهم وهب لعبيدك الحرية أن ينطقوا بكلمتك[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ إننا نجد أيضًا الشهداء في رؤيا يوحنا (٦: ١٠) يطلبون الانتقام مع أنه قد طُلب منا صراحة أن نصلي لأجل أعدائنا ومضطهدينا... لنفهم أن الشرير يهلك بطريقين: إما بتحوله إلى البرّ (فيهلك شره) أو بمعاقبته إن فقد فرصة التوبة. فإنه حتى لو تحول كل البشر إلى الله فسيبقى الشيطان مُدانًا حتى النهاية. إذن فالأبرار يطلبون الحياة العتيدة، وليس باطلاً يسألون النقمة[٢].

القديس أغسطينوس

بمعنى آخر إن كانت هذه الأرملة تمثل الكنيسة كما تمثل كل عضو فيها، فإنها لا تطلب النقمة من الأشخاص بروح البغض والانتقام، إنما تطلب هلاك الشر من حياة الأشرار بقبولهم الإيمان، أو تطلب انقضاء الدهر حيث ينال أولاد الله الميراث ويُلقى عدو الخير وجنوده في الهلاك الأبدي.

٢. العبادة المتضعة (الفريسي والعشار)

إن كان كلمة الله في حبه لنا نزل إلينا بروح التواضع ليحملنا فيه أعضاء جسده المقدس، فإنه يليق بنا لكي نثبت في هذه العطية ونحسب بالحق أحباء وأصدقاء أن نحمل روح التواضع فينا. لذلك قدم لنا مثل الفريسي والعشار، وكما قال **القديس يوحنا الذهبي الفم** في عظته الخامسة ضد أنوميانوس *Anomoeans* أن الفريسي ركب مركبة يجرها البرّ مع الكبرياء بينما مركبة العشار تجرها الخطية مع التواضع؛ الأولى تحطمت وهوت، والثانية ارتفعت وعلت بعد أن غُفرت خطايا العشار بتواضعه.

---

[1] *On Luc hom 119.*
[2] *Quaest. Ev 2: 45.*

❖ عندما أشرت أخيرًا إلى الفريسي والعشار، وافترضت أن لهما مركبتان هما الفضيلة والرذيلة، أشرت إلى حقيقة كل منهما، كم هو مفيد تواضع الروح، وكم هو مفسد الكبرياء؟!

فالكبرياء وإن لازمه البرّ والأصوام وتقديم العشور فإن مركبته تتقهقر، وأما تواضع الروح وإن لازمه الخطية، لكنه يسبق حصان الفريسي، ولو كان الذي يقوده فقيرًا (في أعمال البرّ)! لأنه من كان أشر من العشار، ومع ذلك إذ كانت روحه متواضعة ودعى نفسه خاطئًا، وهو بحق خاطىء، إلا أنه سما على الفريسي الذي كان له أن يتكلم عن أصوامه ودفع العشور...

لقد نُزعت الشرور عن العشار، إذ أُنتزعت عنه أم كل الشرور، أي المجد الباطل والكبرياء. وعلى هذا الأساس يعلمنا الرسول بولس، قائلاً: "ليمتحن كل واحد عمله، وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره" (غل ٦: ٦).

أما الفريسي فتقدم متهمًا العالم كله جهرًا، حاسبًا نفسه أفضل من جميع البشر. ومع أنه ولو فضل نفسه عن عشرة فقط أو خمسة أو اثنين أو حتى عن واحد، فإن هذا ليس بمقبول؛ لكنه لم يقف عند حدّ تفضيل نفسه عن العالم كله، بل واتهم البشرية كلها، وبهذا تخلف عن الركب كله.

وكما أن السفينة إن جرت كثيرًا بسبب الأمواج غير المحصية والعواصف الشديدة، تتحطم على الصخور في داخل الميناء وتفقد كل ما تحمله من كنوز، هكذا فعل الفريسي، إذ قدم أصوامًا، وصنع بفيض فضائله، إلا أنه لم يحكم لسانه، فتحطمت نفسه داخل الميناء، ورجع إلى بيته بعد الصلاة – أي في داخل الميناء – وقد أصابه دمارًا عظيمًا، وبدلاً من أن ينال نفعًا أدركه التحطيم!!

أيها الإخوة، إذ عرفنا هذا كله فلننظر إلى أنفسنا أننا آخر الكل، ولو كنا قد بلغنا قمة الفضيلة عينها، عالمين أن الكبرياء قادر أن يُسقط حتى السمائيين إن لم يحذروا، بينما تواضع الفكر يرفع من هاوية الخطايا أولئك الذين يعرفون كيف يسمون، وهذا ما جعل العشار يسبق الفريسي.

الكبرياء، أقصد غرور النفس، أقوى حتى من القوات غير المتجسدة، أي الشيطان، بينما تواضع النفس ومعرفة الإنسان لخطاياه التي ارتكبها جعلتا اللص يسبق الرسل إلى الفردوس...

إنني لا أنطق بهذا لكي نهمل البرّ، وإنما لكي نتجنب الكبرياء، ولا لكي نخطئ، بل نسمو بأفكارنا، إذ تواضع الروح هو ينبوع الحكمة الخاصة بنا[1].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ عندما كان الفريسي يصلي ويشكر الله من أجل فضائله لم يكذب بل نطق بالحق، ولم يُدن من

---

[1] اتضاع الفكر، طبعة ١٩٦٦، ص ١٠-١٢ (ترجمة المؤلف).

أجل هذا... لكنه عندما التفت نحو العشار وقال: "إني لست مثل هذا العشار" [١١] ارتكب الإدانة![١]

القديس دوروثيؤس

❖ مع أن الفريسي كان يصوم يومين في الأسبوع إلا أنه لم يستفد شيئًا، لأنه افتخر بذلك على العشار[٢].

القديس أثناسيوس الرسولي

❖ صلوات العشار غلبت الله الذي لا يُغلب!

❖ الكبرياء ضد التواضع، خلاله فقد الشيطان سموه كرئيس ملائكة... فكر أيها الأخ أية خطية هذه التي يقاومها الله؟![٣]

القديس جيروم

❖ في كل كلماته لم يطلب (الفريسي) شيئًا من الله، لذلك لم ينل شيئًا. صعد ليصلي لكنه لم يفكر في الصلاة لله، وإنما في تمجيد ذاته. أكثر من هذا استخف بذاك الذي كان يصلي.

❖ وقف العشار من بعيد لكنه بالحقيقة كان قريبًا من الله. بإحساس ضميره كان بعيدًا لكن بتقواه اقترب.

❖ لم يجسر أن ينظر إلى فوق، إذ كان ضميره يضغط عليه إلى أسفل، أما رجاؤه فقد رفعه إلى فوق.

❖ صار الفريسي ملومًا لكونه متكبرًا، وليس لأنه يشكر الله[٤].

❖ ليظهر دنس قلبك في اعترافك فتنتمي لقطيع المسيح، فإن الاعتراف بالخطايا يستدعي شفاء الطبيب... أَلم يصعد الفريسي والعشار إلى الهيكل؟! واحد ظن أن حالته جيدة والآخر أظهر جراحاته للطبيب... بالتأكيد لم يكن الفريسي سليمًا، لكنه ادعى ذلك، فنزل بدون شفاء. أما الآخر فأحنى عينيه إلى أسفل ولم يجسر أن يرفعهما للسماء، وقرع صدره قائلاً: "اللّهم ارحمني أنا

---

[١] توجيهات بخصوص التداريب الروحية ٣٦ [راجع الفيلوكاليا، ترجمة المؤلف].

[2] *Fest. Letters 1: 4.*

[3] *Ep 16, 12.*

[4] *Ser. On N.T. 65: 2,3.*

الخاطي". فماذا قال الرب: "**أقول لكم إن هذا نزل إلى بيته مبررًا دون ذاك، لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع**" [١٤،١٣].

كما ترون من يطلب الافتخار لا يدخل بل يسقط، أما من يتواضع فيدخل من الباب بواسطة الراعي ولا يسقط. [١]

القديس أغسطينوس

❖ لقد نطق (الفريسي) بما هو صدق، نطق به ليس في سمع إنسان، ومع هذا فقد دين... فأية عقوبة تسقط فيها النساء الثرثارات وهن يتكلمن بالكذب في كل موضع حتى في الأمور التي لا يصدقن هن إياها؟!

لنُقم بابًا ومزلاجًا على الفم (ابن سيراخ ٢٨: ٢٥)، فإن شرورًا بلا حصر تصدر عن الثرثرة، فبسببها تتحطم عائلات، وتتمزق صداقات، وتحدث مآسي. لا تشغل يا إنسان نفسك بما يخص قريبك (لا تدنه)[٢]!

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ واحد صلى فدين، لأنه لم يقدم صلاته بحكمة. قيل إن "**إنسانين**" صعدا إلى الهيكل ليصليا... فيدعو (المسيح) الذين يصلون بشرًا دون النظر إلى غناهم أو سلطانهم... إنه يتطلع إلي كل سكان الأرض كبشرٍ دون محاباة لأحد على حساب الآخر.

❖ كثيرة هي أخطاء الفريسي، أولاً لأنه كان متعجرفًا بلا إحساس، يمدح نفسه مع أن الكتاب المقدس يصرخ: "ليمدحك الغريب (قريبك) لا فمك، الأجنبي لا شفتاك" (أم ٢٧: ٢)...

❖ كن معتدلاً أيها الفريسي، وضع بابًا ومزلاجًا للسانك. أنت تتحدث مع الله العارف كل شيء، انتظر حكم الديان. ليس أحد من المهرة في ممارسة الصراع يضع الأكاليل لنفسه، وليس أحد يقبل التاج من نفسه، إنما ينتظر ما يقضي به الحكم. انحنِ بكبريائك، فالكبرياء مكروه لدى الله، ولعين في عينيه. مع أنك تصوم، فبذهنك المتعالي لا تنتفع به شيئًا. تعبك لا يُكلل، لأنك تمزج القاذورات بالروائح الطيبة. حتى حسب الشريعة الموسوية لا يمكن تقديم ذبيحة لله بها عيب، فقد قيل له إن كل غنم أو ثور يقدم ذبيحة لا يكون فيه عيب (لا ٢٢: ٢١). لذلك فكل صوم يصحبه كبرياء توقع أن تسمع عنه من الله: "أليس هذا صومًا أختاره" (إش ٥٨: ٦). أنت تدفع العشور

[1] *Ser. On N.T. 87: 4.*
[2] *In Hebr. Hom 21: 7,8.*

لكنك إذ تدين البشر عامة تخطئ إلى ذاك الذي كرمته. مثل هذا العمل غريب عن الفكر الذي يخاف الله، إذ قال المسيح: "لا تدينوا فلا تُدانوا، لا تقضوا على أحد فلا يُقضي عليكم" (لو ٦: ٣٧). ويقول أحد تلاميذه: "واحد هو واضع الناموس... فمن أنت يا من تدين غيرك؟!" (يع ٤: ١٢). ليس أحد بصحةٍ جيدةٍ يحتقر مريضًا ملقيًا على فراش، إنما يخاف لئلا يسقط هو نفسه تحت نفس الآلام...

❖ ولكن ماذا عن العشار؟ يقول إنه وقف بعيدًا، لم يجسر حتى أن ينطق أو يرفع عينيه إلى فوق. ها أنت تراه خاليًا من كل نطق جسور، كمن ليس له حق في ذلك، بل كان مضروبًا بتوبيخات ضميره، يخشى حتى من أن ينظره الله، بكونه إنسانًا أهمل في شرائعه، حياته منحلة غير طاهرة.

ها أنت تراه يتهم نفسه بطريقة منظورة... لقد كان خائفًا من الديان، يقرع صدره، ويعترف بخطاياه، ويكشف مرضه كما إلى الطبيب، ويسأل نوال الرحمة. ماذا كانت النتيجة؟ اسمع ما يقوله الديان: "نزل (هذا الإنسان) إلى بيته مبررًا دون ذاك" [١٤] [1].

القديس كيرلس الكبير

❖ صلى (الفريسي) مع نفسه وليس مع الله، لأن خطية الكبرياء ردته إلى ذاته[2].

القديس باسيليوس الكبير

❖ لم يكفه الازدراء بكل جنس البشر لكنه هاجم أيضًا العشار. ربما كان خطأه أقل لو لم يهاجمه، لكن بكلمة هاجم الغائبين، وجرح من هو حاضر[3].

القديس يوحنا الذهبي الفم

هذا وقد أراد **القديس باسيليوس الكبير**[4] في تعليقه على تصرف هذا الفريسي موضحًا الفارق بين الفكر المتعالي المملوء عجرفة وكبرياء والفكر السامي النبيل الذي يرتفع فوق الأهواء، لا يحطمه اليأس، ولا تشغله الزمنيات. بمعنى آخر التواضع لا يعني انحطاط الفكر بل سموه وارتفاعه خلال اتحاده بالسيد المسيح المتواضع، فنحمل مع الرسول بولس فكر المسيح.

أخيرًا فقد حمل هذا المثل صورة رمزية عامة، فالفريسي يمثل بوجه عام جماعة اليهود الذين حسبوا أنفسهم أبرارًا بالناموس دون سواهم، أما العشار فيشير إلى جماعة الأمم التي اشتاقت إلى الخلاص

---

[1] *On Luke hom 120.*
[2] *In Easi 2.*
[3] *De Poen hom 2.*
[4] *In Easi 2:12.*

رغم فقرها في المعرفة، وحرمانها من كل ما سبق فتمتع به اليهود من عهود ووعود وشريعة ونبوات الخ.

٣. العودة إلى بساطة الطفولة

إذ قدم لنا مثلاً عن التواضع كطريق حق به تُستجاب صلواتنا، فننعم لا بطلبات مادية، إنما ما هو أعظم الصداقة مع عريسنا السماوي المتواضع، الآن يقدم درسًا عمليًا ليكشف عن تواضعه وبساطته، موضحًا أنه يبسط ذراعيه للأطفال الصغار، أي للنفوس البسيطة المحبة للتواضع، إذ يقول الإنجيلي:

"فقدموا إليه الأطفال أيضًا ليلمسهم،

فلما رآهم التلاميذ انتهروهم.

أما يسوع فدعاهم، وقال:

دعوا الأولاد يأتون إليّ ولا تمنعوهم،

لأن لمثل هؤلاء ملكوت الله.

الحق أقول لكم من لا يقبل ملكوت الله مثل ولدٍ فلن يدخله" [١٥-١٧].

لقد جاء السيد المسيح للبشرية جميعها، لليهود كما الأممي، للرجال كما النساء والشيوخ والأطفال والشبان الخ.، جاء للكل ليقيم صداقة معهم. لقد تذوق آباء الكنيسة حلاوة صداقة المسيح، فشعروا بحقٍ أنه لا يليق أن يُمنع أحد ولو كان طفلاً عن اللقاء معه، لينعم بمخلصه – حتى وإن كان لم يرتكب خطية فعلية – وإنما ليقدس طبيعته التي تسلمها فاسدة، فتتجدد بالسيد المسيح في مياه المعمودية، ويقبل الرب صديقًا له.

❖ ليأتِ الصغار، ليأتِ المرضى إلى الطبيب، ليأتِ الذين هم مفقودون لمخلصهم، ليأتوا ولا يُمنع أحد عن المجيء.

إن كانت الفروع (الأطفال) لم ترتكب أية خطية بعد، لكنهم هلكوا بسبب أصلهم، "يبارك الرب الصغار مع الكبار" (مز ١١٥: ١٣). ليلمس الطبيب الصغار مع الكبار...

إذ كان الفقدان شاملاً هكذا ليكن الخلاص عامًا. كلنا قد ضعنا، لنوجد جميعنا في المسيح... ليته لا يُعزل أحد عن خلاصه[1].

القديس أغسطينوس

[راجع أقوال القديسين كيرلس الكبير وأمبروسيوس ويوحنا الذهبي الفم وغيرهم في تفسير الإنجيل

[1] *Ser. On N.T. 65: 4.*

بحسب مرقس ١٠: ١٣-١٦].

٤. التحرر من عبودية المال

إن كان هذا الأصحاح يركز على الصلاة كطريقٍ رئيسيٍ للتمتع بالصداقة الإلهية، فقد رأينا أن الصلاة تلتحم بالإيمان الذي يدفعنا إليها لنمارسها بلا انقطاع ولا ملل، هذا وحياة الصلاة ليست حياة تعبدية مجردة وإنما تلتحم مع سمة المؤمن الذي يلزم أن يكون بسيطًا كالأطفال في حكمة الروح. الآن يحذرنا من عدو خطير يفقدنا روح الصلاة ألا وهو التعبد للمال. لقد التقى شاب بالسيد المسيح وكان يود أن يتبعه، قائلاً له: "أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية؟"... وقد وقف حبه للغنى عقبة في تبعيته للسيد المسيح.

سبق لنا في شيء من التفصيل أن عرضنا لهذا اللقاء والحوار الذي تم بين السيد المسيح وهذا الشاب الرئيس عند دراستنا للإنجيل بحسب مرقس ١٠: ١٧-٢٥، وأوردت بعض أقوال للآباء في هذا الشأن، أرجو الرجوع إليها، مكتفيًا هنا بعرض مقتطفات أخرى لأقوال بعض الآباء القليلة مكملة للسابقة.

❖ لا أتردد في دعوة هذا الرئيس طماعًا، منتهرًا إياه مع السيد المسيح، لكنني لا أقول إنه مجرِب للسيد (كالفريسيين)[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يخبرنا أن نبيع ما لنا لأنها أشياء شريرة بطبعها، وإلا ما كانت من صنع الله. لم يأمرنا أن نلقيها عنا كأمور رديئة بل نوزعها. لا يُدان أحد لأنه يملك شيئًا وإنما لأنه يفسد ما يملكه. بهذا فإنه بحسب وصية الله نلقي عنا ما لنا لغفران خطايانا والتمتع بالملكوت[٢].

القديس باسيليوس الكبير

❖ حتى إن كنتَ غنيًا، فالطبيب قادر أن يشفيك. إنه لن ينزع الغنى، إنما ينزع العبودية للغنى ومحبة الطمع في الربح[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يستطيع الله أن يشبع الفقراء دون أن نحنو نحن عليهم، لكنه يطلب من الذين يقدمون العطاء أن

---

[1] *In Matt. Hom 63.*
[2] *Catena Aurea.*
[3] *In Matt. Hom 74: 4.*

يرتبطوا بالحب مع من يقبلون منهم العطاء[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الله صالح، كامل الصلاح وحده، وإذ أنت صورته يليق بك أن تكون صالحًا. إنه سخي مع الجميع، فينبغي عليك أن تكون كريمًا، تتجنب الجشع، ولا تبخل على قريبك بأي شيء مادي زائل، فإن هذا أعظم كارثة وجهالة.

الأب يوحنا من كرونستادت

❖ رجل الله هو من مات عن حاجاته الضرورية لرأفته الكثيرة. من يرحم فقيرًا تتلقفه عناية الله، ومن يفتقر من أجل الله يجد كنوزًا لا تفرغ[٢].

مار إسحق السرياني

والعجيب أنه حينما يخلع الإنسان عنه محبة العالم ويتحرر من قيود عبودية حب الغنى وشهوة المال يهبه الرب أضعافًا كثيرة من البركات حتى الزمنية مع المجد الأبدي. هذا ما أكده صديقنا الحقيقي بإجابته على بطرس القائل: "**ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك**" **[٢٨]**، قائلاً: "**الحق أقول لكم إن ليس أحد ترك بيتًا أو والدين أو إخوة أو امرأة أو أولادًا من أجل ملكوت الله، إلا ويأخذ في هذا الزمان أضعافًا كثيرة وفي الدهر الآتي الحياة الأبدية**" [٢٩-٣٠]. وقد سبق لنا عرض أقوال بعض الآباء وتعليقاتهم على كلمات السيد المسيح هذه في تفسير (مت ١٩: ٢٦-٢٧؛ مر ١٠: ٢٨-٣٠)، أرجو الرجوع إليها.

٥. قبول الصليب

إن كان يليق بالمسيحي أن يتحرر من عبودية محبة المال وقيود طلب الغنى الزمني لترتفع نفسه بالروح القدس متحررة نحو السماويات، تعيش مع عريسها الأبدي تحمل سماته، فإنه لا يمكن التمتع بالمسيح المصلوب في أمجاده دون مشاركته الصليب، لهذا كان السيد المسيح يوجه أنظار تلاميذه نحو صليبه وآلامه وموته كطريق حقيقي للمجد.

"**وأخذ الاثني عشر، وقال لهم: ها نحن صاعدون إلى أورشليم،**
وسيتم كل ما هو مكتوب بالأنبياء عن ابن الإنسان.

---

[1] *In 1 Cor. Hom 22.*

[٢] منشورات النور: إسحق السرياني: نسكيات ١٩٨٣، ص ٣٤.

لأنه يُسلم إلى الأمم ويُستهزأ به ويُشتم ويُتفل عليه.
ويجلدونه ويقتلونه وفي اليوم الثالث يقوم.
وأما هم فلم يفهموا من ذلك شيئًا،
وكان هذا الأمر مخفي عنهم،
ولم يعلموا ما قيل" [٣١-٣٤].

سبق لنا التعليق – بأقوال الآباء – على هذه الكلمات المقدسة في تفسير مت ٢٠: ١٧؛ مر ١٠: ٣٢-٣٤؛ مر ٨: ٣١-٣٣). على أي الأحوال إن كان السيد قد سبق فأعلن لتلاميذه عن آلامه لكي يهيئهم لقبولها كسمة رئيسية في حياة صديقهم السماوي، فإنه يعلن دومًا وبصراحة عن التزامنا بقبول آلامه لنحمل سمته فينا، فنتأهل أن ندخل شرف دائرة صليبه ونكون شركاء المصلوب!

❖ إذ سبق فرأى المخلص قلوب تلاميذه تضطرب لآلامه سبق فأخبرهم بما يحتمله من آلام ومجد قيامته[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ تحدث مع تلاميذه عن آلامه منفردًا، إذ لم يكن لائقًا أن يعلن ذلك للجماهير لئلا يضطربوا، إنما سبق فأخبر تلاميذه حتى إذ يتوقعونها يقدرون أن يحتملونها...

لقد سبق فأنبأ إشعياء عن ذلك، قائلاً "بذلت ظهري للضاربين، وخدّي للناتفين، وجهي لم أستر عن العار والبصق" (إش ٥٠: ٦)، كما أنبأ عن الصلب: "سكب للموت نفسه، وأُحصي مع آثمة" (إش ٥٣: ١٢)... لكن داود أنبأ عن قيامة المسيح: "لا تترك نفسي في الجحيم" (مز ١٦: ١٠)[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ طريق الله صليب يومي. لم يصعد أحد إلى السماء براحة. إننا نعلم إلى أين يؤدي طريق الراحة، وأين ينتهي. أما من يكرس نفسه لله من كل قلبه فلن يتركه الله بدون اهتمام، بل يجعله يهتم من أجل الحقيقة، وعندئذ يدرك أن الأحزان المرسلة إليه ليست سوى دليل عناية الله به[3].

مار إسحق السرياني

---

[1] *In Evang. hom 2.*

[2] *In Matt. Hom 65.*

[3] منشورات النور: إسحق السرياني: نسكيات ١٩٨٣، ص ٢٨.

٦. الاستنارة (تفتيح عينيّ الأعمى)

إن كان الرب قد طالبنا بالمثابرة على الصلاة بلا انقطاع لكي نبقى دومًا في حضرته ننعم بالحديث الحبّي معه، وأن حياة الصلاة يلازمها روح التواضع (كما فعل العشار) ممتزجة ببساطة الطفولة والتحرر من كل عبودية لمحبة المال، مع قبول للصليب بفرح، فإن غاية هذه الحياة هي تفتيح البصيرة الداخلية لمعاينة الصديق السماوي. هنا نسمع صلوات الأعمى الجالس على الطريق يستعطى، الفعّالة رغم قلة كلماتها، إذ "**صرخ قائلاً: يا يسوع ابن داود ارحمني**" [٣٨].

لقد رذل المحيطون بالسيد هذه الكلمات أو الناطق بها، إذ انتهروه ليسكت، لكنه في لجاجة "**صرخ أكثر كثيرًا يا ابن داود ارحمني**" [٣٩]. استطاع بصرخات قلبه المملوء إيمانًا أن يوقف الموكب كله ليجد السيد المسيح يأمر بأن يُقدم إليه، وإذ اقترب منه سمعه يقول: "**ماذا تريد أن أفعل بك؟**" [٤١]. بالصلاة الملتهبة تمتع الأعمى باقترابه من السيد وسماعه صوته ونوال نعمة البصيرة والتبعية للسيد، إذ يقول الإنجيلي: "**وفي الحال أبصر، وتبعه وهو يمجد الله، وجميع الشعب إذ رأوا سبحوا الله**" [٤٣]. انفتحت بصيرته لرؤية الرب، ولسانه لتمجيد الله، وكان علة تسبيح جميع الشعب لله.

لقد سبق لنا الحديث عن تفتيح عيني هذا الرجل في دراستنا لإنجيلي متى ٢٠: ٢٩الخ. ومرقس (١٠: ٤٦ الخ)، مكتفيًا هنا ببعض تعليقات قليلة.

❖ لقد تمم ربنا المعجزة في الطريق ليظهر أنه لا يسير حتى في الطريق دون أن يفعل صلاحًا، مقدمًا نفسه مثالاً لتلاميذه، لنكون نافعين في كل الأشياء، ولا يكون شيء باطلاً فينا.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ يرمز العمى للجنس البشري، الذي في أبينا الأول الذي لم يجد بهاء النور السماوي، فسادت الظلمة (على الجنس البشرى).

"**أريحا**" تعني "القمر"، هذا الذي يتضاءل كل شهر إشارة إلى ضعفنا كقابلين للموت. أما أن اقتراب خالقنا إلى أريحا قد وهب الأعمى بصيرة، فيعني أنه إذ أخذ ضعف جسدنا ردّ للبشرية البصيرة التي فقدتها...

الذين كانوا يتقدمون يسوع وهو قادم يمثلون الشهوات الجسدية والرذائل الكثيرة، التي تعمل في قلوبنا، وتشتت أفكارنا وتفسد صلواتنا. لكن الأعمى كان يصرخ أكثر كثيرًا، لأنه كلما هاجمتنا الأفكار التي لا تهدأ يلزمنا بالأكثر أن نصلي في حرارة[1].

---

[1] *In Evang. hom 2.*

البابا غريغوريوس (الكبير)

الباب الرابع

صديقنَا المخلص

الأصحاح التاسع عشر

صديقنا في أورشليم

جاءت قصة استضافة زكا العشار للسيد المسيح في بيته تكمل قصة شفاء عيني الأعمى، فإن كان تفتيح العينين إنما يشير إلى حاجة البشرية للتمتع بالبصيرة الروحية الداخلية حتى تقدر أن تتابع رحلته الخلاصية، فتدخل معه إلى أورشليم وتقبل صليبه وتنعم بقيامته. فإن استضافة زكا له تشير إلى رغبة الرب فينا لا أن نعاينه فحسب ونتبعه أينما وُجد، وإنما نفتح قلوبنا ليدخل فيها كما إلى بيته أو إلى أورشليمه ويعلن خلاصه فينا. يعود الإنجيلي فيقدم لنا مَثَلْ العشرة أمناء ليعلن السيد أنه وإن كان يود أن يدخل كل بيت حتى بيوت العشارين والخطاة لكنه يطلب القلوب الأمينة، يود أن نحمل سمته "الأمانة" ليهبنا ميراثًا أعظم وسلطانًا ومملكة على مستوى أبدي. يعطي لواحد عشر مدن ولآخر خمس الخ.

هكذا يود صديقنا أن يفتح بصيرتنا لكي نفتح بيوتنا الداخلية مع زكا فيملك فينا، ونملك نحن به وننعم بمواضعه السماوية. هذا هو غاية دخول صديقنا السماوي إلى أورشليم بل وغاية كل أعماله الخلاصية.

١. إضافة زكا للسيد	**١-١٠.**
٢. مَثَل العشرة أمناء	**١١-٢٧.**
٣. تقدمه نحو أورشليم	**٢٨-٤٠.**
٤. بكاؤه على أورشليم	**٤١-٤٤.**
٥. تطهير الهيكل	**٤٥-٤٦.**
٦. تعليمه في الهيكل	**٤٧-٤٨.**

١. إضافة زكا للسيد

قلنا أن تفتيح عيني الأعمى يمثل تفتيح البصيرة الداخلية، للتمتع بإدراك عمل الله الخلاصي، الذي كان الرب مزمعًا أن يتممه بدخوله أورشليم، بينما استضافة زكا للسيد المسيح ترمز إلى انفتاح البيت الداخلي لسُكنى الرب فيه، فيصير أورشليمه الداخلية التي يدخلها كما بموكب سماوي ليعلن أمجاد صليبه فيها.

يمكننا أن نقدم المقارنة التالية بين تفتيح عيني الأعمى واستضافة زكا للسيد المسيح:

أولاً: التقى الأعمى بالسيد وكان جالسًا على الطريق يستعطي (لو ١٨: ٣٥)، أما زكا فالتقى به داخل المدينة وكان صاعدًا على جميزة [٤]، وقد تمتع الاثنان بنعمة الرب، لكن كما يقول **القديس أمبروسيوس:** [الرب ينتظر الأول ليرحمه، أما الثاني فيمنحه مجدًا عظيمًا بحلوله في بيته. واحد يسأله لكي يشفيه، أما الآخر فالرب يدعو نفسه عنده دون أن يسمع كلمة دعوة إذ عرف ما في قلبه[1].]

من هو هذا الذي في الطريق يستجدي تفتيح عينيه إلا كل إنسان لم يختبر داخليًا نعمة الله لكنه آمن خلال السمع فانطلق كما في الطريق يطلب نعمة الاستنارة، فيفتح الرب بصيرته ليقوده إلى مراعي كنيسته المقدسة. أما زكا الصاعد على الشجرة فيمثل كل إنسان التحم بالكنيسة "شجرة الجميز" روحيًا، أو ارتفع بالروح القدس إلى خشبة الصليب يشارك الرب آلامه فينعم بسكنى الرب في بيته الداخلي.

ثانيًا: ترك السيد المسيح الأعمى يصرخ بل ويقول الإنجيلي: "أما هو فصرخ أكثر كثيرًا" (لو ١٨: ٣٩)، بينما لم ينتظر من زكا كلمة واحدة تخرج من فيه، إنما استضاف الرب نفسه في بيته. لماذا؟ ربما يشير الأول إلى الحياة العاملة المجاهدة التي خلال الحب تصرخ بلا انقطاع فيفتح الرب العينين لمعاينة ملكوته، بينما يشير الثاني إلى الحياة المتأملة المجاهدة أيضًا خلال عشق إلهي أعمق، المرتفعة بالروح القدس إلى الصليب لترى كما خلال شجرة الجميز عريسها يناجيها طالبًا الحلول فيها بلا انقطاع، يدخل قلبها ويحل في أعماقها وتدخل هي حجاله وتتذوق أسرار حبه الإلهي غير المنطوق به.

لست بهذا أعني ثنائية في مجتمع الكنيسة تنقسم إلى جماعة العاملين وأخرى المتأملين، إنما وإن كان لكل إنسان موهبته الخاصة التي يميزه بها الروح لكن يليق بالمؤمن في عمله الروحي الحق أن يحيا متأملاً أسرار الله، وفي تأمله الحق أن يبقى عاملاً مجاهدًا حتى النفس الأخير. إنها حياة واحدة "في المسيح يسوع ربنا"، خلالها نحيا عاملين بروحه، مرتفعين كما بأجنحته، للتمتع بشركة أسراره. بمعنى آخر ليتقدم كل منها صارخًا مع الأعمى بلا انقطاع، وصاعدًا مع زكا على شجرة الجميز، فتنفتح بصيرتنا وننعم بشركته وسكناه الدائم فينا.

[1] *In Luc 19: 1-10.*

ثالثًا: لعل هذا الأعمى الجالس على الطريق يستعطي يمثل أعضاء الكنيسة الذين جاءوا من أصل يهودي، فقد كانوا كمن على الطريق، عرفوا خلال الرموز والظلال والنبوات شخص المسّيا وعمله الخلاصي. هؤلاء كانوا تحت الناموس كمن هم عميان وجياع، غير قادرين على معاينة الأسرار الإلهية، فقراء يستعطون، إذ يعجز الناموس عن أن يرفعهم إلى الأحضان الإلهية ليروا ويشبعوا، وإنما قادهم في الطريق إلى المخلص ليفتح بصيرتهم ويعاينوه، بكونه الحق المفرح المشبع. أما زكا فيمثل أعضاء الكنيسة الذين جاءوا من أصل أممي، هؤلاء كانوا أشبه برئيس العشارين المنبوذ من اليهود. كانوا كمن هم قصيري القامة بلا خبرة روحية سابقة، لكنهم إذ ارتفعوا بالإيمان على خشبة الصليب مع فاديهم تمتعوا بالصوت الإلهي يناديهم ليحل في وسطهم ويقيمهم أهل بيته.

الأعمى كممثل لليهود المتنصرين سأل الجمع، "فأخبروه أن يسوع الناصري مجتاز" (لو ١٨: ٣٧)، هذا الجمع هو الآباء والأنبياء الذين أشاروا إليهم عن يسوع الناصري الذي يجتاز بين الأمة اليهودية ليحقق عمله الخلاصي. أما زكا فلم يسأل، لأنه كان كغريبٍ عن الآباء والأنبياء، وإنما بالإيمان ارتفع على الصليب ليعاين السيد وسط الجموع، يراه معلنًا أيضًا بالآباء والأنبياء الذين تعرف عليهم خلال المسيّا وصليبه.

نعود إلى تفاصيل قصة لقاء زكا بالسيد المسيح كما رواها الإنجيلي لوقا:

"**ثم دخل واجتاز في أريحا،**

وإذا رجل اسمه زكا وهو رئيس للعشارين وكان غنيًا.

وطلب أن يرى يسوع من هو ولم يقدر من الجمع،

لأنه كان قصير القامة.

فركض متقدمًا وصعد إلى جميزة لكي يراه،

لأنه كان مزمعًا أن يمر من هناك" [١–٤].

يلاحظ هنا الآتي:

أولاً: يرى البعض أن كلمة "زكا" تعني "المتبرر[1]"، لأن زكا يمثل الأمم المتنصرين الذين تبرروا بدم السيد المسيح.

ثانيًا: كان زكا رئيسًا للعشارين، وكما نعرف أن هذا العمل كان مرذولاً لدى اليهود، متطلعين إليه كعملٍ لحساب الدولة الرومانية المستعمرة يحمل رائحة الخيانة للأمة اليهودية، هذا مع ما اتسم به

---

[1] *Catena Aurea.*

العشارون بصفة عامة من حب لجمع المال بروح الطمع والجشع بلا رحمة من جهة إخوتهم اليهود. على أي الأحوال استطاع كثير من الكتبة والفريسيين بحكم مراكزهم الدينية ونظرة الناس إليهم أن يلتقوا مع السيد حسب الجسد، بل ويدعوه أحيانًا لولائمهم. ولم يكن يرفض لعلهم ينسحبون من عبادتهم الشكلية إلى فكره الإلهي الروحي، لكن نادرًا ما تلاقوا معه على صعيد الروح والتمتع بفكره الإلهي. أما هذا العشار أو رئيس العشارين ففي نظر الجماهير يمثل الدنس بعينه والبعد الكامل عن كل ما هو إلهي. خلال اشتياقه القلبي الخفي أن يرى يسوع من هو، وترجمة هذا الشوق إلى عمل بسيط هو صعود شجرة الجميز ليرى من يحن إليه، يفتح أبواب الرجاء لكل نفس بشرية لتلتقي مع مخلص الخطاة. وكما يقول **القديس أمبروسيوس:** [قُدم لنا هنا رئيس العشارين، فمن منا ييأس بعد من نفسه وقد نال نعمة بعد حياة غاشة![1]]

حقًا لقد كانت فئة العشارين تُضم إلى الزناة (مت ٢١: ٣١)، بكونهما فئتين مرذولتين للغاية، الأولى منهمكة في طلب الغنى على حساب الآخرين، والأخرى في شهوات الجسد على حساب تقديس الجماعة. وكأن الفئتين مخربتين للجماعة. ومع هذا فقد استطاع رئيس العشارين أن يغتصب بالإيمان دخول السيد إلى بيته، بل وإلى قلبه. وكما يقول **القديس كيرلس الكبير**: [كان زكا رئيسًا للعشارين، قد استسلم للطمع تمامًا، غايته الوحيدة تضخيم مكاسبه، إذ كان هذا هو عمل العشارين، وقد دعا بولس الطمع عبادة أوثان (كو ٣: ٥)، ربما لأن هذا يناسب من ليس لهم معرفة الله (بانشغالهم بالطمع). وإذ كان العشارون يمارسون هذه الرذيلة علانية بلا خجل، لذا ضمهم الرب مع الزناة، قائلاً لرؤساء اليهود: "**إن العشارين والزواني يسبقونكم إلى ملكوت الله**" (مت ٢١: ٣١). لكن زكا لم يستمر في عداد العشارين، إنما تأهل للرحمة بيدي المسيح الذي يدعو البعيدين للقرب منه، ويهب نورًا للذين في الظلمة[2].]

يرى **القديس جيروم** أن شجرة الجميز هنا تشير إلى أعمال التوبة الصالحة حيث يطأ التائب الخطايا السابقة بقدميه، ومن خلالها ينظر إلى الرب كما من برج الفضيلة[3]. مرة أخرى يقول: [زكا الذي تغير في ساعة حُسب أهلاً أن يتقبل المسيح ضيفًا له[4].]

---

[1] *In Luc 19: 1-10.*
[2] *Hom 127.*
[3] *Ep. 108 : 12*
[4] *Ep 71 : 2.*

ثالثًا: يذكر الإنجيلي لوقا أن زكا "**كان غنيًا**" **[٢]**، وقد "**طلب أن يرى يسوع من هو**" **[٣]**، مترجمًا هذا الشوق الداخلي إلى عمل كلفه الكثير، إذ لم يكن سهلاً على رجل ذي مكانة كرئيس للعشارين أن يتسلق جميزة كصبيٍ، ويراه الجماهير عليها. ولعل الإنجيلي قد أراد أن يؤكد بأنه ليس كل غني شرير، وإنما كل إنسان – أيا كان مركزه أو إمكانياته أو ظروفه – يحمل في داخله الناموس الطبيعي يُسحب قلبه – إن أراد – نحو رؤية كلمة الله والتمتع به. الله لا يترك نفسه بلا شاهد في حياة الإنسان، يستطيع الغني كما الفقير إن أراد أن ينطلق نحو الرب والشركة بعمل النعمة المجانية.

يقول **القديس أمبروسيوس:** [ليعرف الأغنياء أن الغنى في ذاته ليس خطية بل إساءة استخدامه؛ فالأموال التي تمثل حجر العثرة بالنسبة للأشرار هي وسيلة لممارسة الفضيلة بالنسبة للصالحين... كان زكا غنيًا لنتعلم أنه ليس كل الأغنياء طماعين[1].] ويقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [إبراهيم كان يملك حقًا غنى للفقراء، وكل الذين ملكوا الغنى بطريقة مقدسة أنفقوه بكونه عطية الله لهم[2]]، كما يقول: [لم يمنع الرب البشر عن أن يكونوا أغنياء بل أن يكونوا عبيدًا لغناهم. يودنا أن نستخدمه كضرورة لا أن نُقام حراسًا عليه. العبد يحرس، أما السيد فينفق.]

رابعًا: إن كانت شجرة الجميز وهى ترمز للصليب الذي من خلاله يلتقي المؤمن بمسيحه ويسمع الصوت الإلهي، وينفتح بيته الداخلي لقبول السيد متجليًا فيه، فمن ناحية أخرى متكاملة مع هذا الفكر ترمز الشجرة إلى الكنيسة التي تحمل النفوس الخاطئة على كتفيها، كزكا على الشجرة أو كالخروف الضال على منكبي الراعي الصالح، لتقدمه ثمرة حب صادق لعريسها. بمعنى آخر عمل الكنيسة الرئيسي هو حمل العالم كله، ولو كان كرئيس للعشارين، تحمله على كتفيها لا لتدينه أو تجرح مشاعره وإنما لتهبه إمكانية الالتقاء مع مخلصه.

تحمله بالحب واللطف فتلهب قلبه بأكثر شوق نحو العريس السماوي. لهذا بحق قيل أن الكنيسة هي لقاء حق بين المسيح والخطاة التائبين، يجد فيها السيد لذته، إذ يراها تقدم له بالحب النفوس التي مات لأجلها، ويجد الخاطىء فيها أبواب الرجاء مفتوحة على مصراعيها على الدوام والقلوب والأذرع مستعدة بالحب أن تحمله لمخلصه.

خامسًا: لعل لقاء السيد المسيح بزكا الصاعد على شجرة الجميز يحمل رمزًا لعمل السيد المسيح الخلاصي. أقول أن شجرة الجميز هنا تشير إلى الكنيسة التي تقدم البشرية الخاطئة للمخلص.

---

[1] *In Luc 19: 1-10.*
[2] *In 1 Cor. hom 24.*

والعجيب أن المخلص يترك الجموع المحيطة به والمتهللة بالالتفاف حوله، أي يترك الطغمات الملائكية والأمجاد السماوية، مخليًا ذاته لينظر إلى الإنسان الساقط رغم شره وفساده، يلتقي معه على صعيد الروح ليعلن له أنه قد استضاف نفسه بنفسه في بيته ليقدسه، قائلاً: "**ينبغي أن أمكث اليوم في بيتك... اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضًا ابن إبراهيم" [٥، ٩]**. كأن هذا العمل يمثل سرّ التجسد الذي به دخل الرب بيتنا إذ حمل طبيعتنا، لا ليقطنها إلى حين، وإنما حملها فيه، واختفى بلاهوته خلالها ليقدس طبيعتنا أبديًا.

سادسًا: يمكننا أيضًا أن نقول بأن شجرة الجميز تشير إلى بذرة الإيمان التي تنمو داخل القلب لتصير شجرة كبيرة، يأوي في داخلها الإنسان ليرى من خلالها السيد المسيح الذي لم يره من قبل، عندئذ يتمتع بسكنى الرب فيه متخليًا عن شره.

خلال شجرة الإيمان التقى زكا بالسيد رغم المعوقات الخاصة به كقصر قامته، أو الخاصة بالظروف كتجمهر الناس حول السيد فيحجبونه عنه. بالإيمان الحيّ العملي نغلب كل ضعف فينا، ونرتفع فوق كل الظروف لنلتقي بربنا يسوع، نراه ويرانا أبرارًا فيه، نسمعه ينادينا فننصت لصوته ونتجاوب مع كلماته.

يقول **القديس كيرلس الكبير**:

[أراد (زكا) أن يرى يسوع لذا تسلق شجرة جميز، هكذا نمت في داخله بذرة الخلاص. وقد رأى المسيح بعيني اللاهوت (إيمان زكا)، وبرؤيته هذه نظره أيضًا خلال عينيّ الناسوت، فبسط له لطفه وشجعه، قائلاً له: "**أسرع وانزل" [٥]**.

طلب أن يراه، فعاقته الجموع، لكن لم تعقه الجموع مثلما عاقته خطاياه. لقد كان قصير القامة لا من جهة الجسد فحسب، وإنما روحيًا أيضًا.

لم يكن له طريق آخر ليراه سوى أن يصعد فوق الأرض متسلقًا شجرة جميز هذه التي كان المسيح مزمعًا أن يمر بها.

الآن تحمل هذه القصة في داخلها رمزًا، إذ لا يمكن لإنسان أن يرى المسيح ويؤمن به ما لم يصعد شجرة الجميز، بمعنى إقماعه لأعضائه التي على الأرض، الزنى والنجاسة الخ[1].]

هذا وقد قدم **البابا غريغوريوس (الكبير)** تفسيرًا مشابهًا لفكر **القديس كيرلس الكبير** في الفقرات الأخيرة السابقة إذ رأى في شجرة الجميزة شجرة تحمل ثمرًا ضعيف القيمة؛ بهذا لا يقدر أحد أن يعاين

---

[1] *Hom 127.*

السيد المسيح ما لم يرتفع بالإيمان فوق الأمور الزمنية التافهة كشجرة جميزة، يعلو عليها بتأمله في الإلهيات وتمتعه بالحكمة السماوية[1].

سابعًا: يرى **القديس أمبروسيوس** في صعود زكا قصير القامة شجرة الجميز لرؤية السيد المسيح إشارة إلى ارتفاع المؤمن الذي بسبب الخطية صار قصير القامة محرومًا من رؤية السيد فوق حرف الناموس، فلم يعد بعد تحت الناموس بل مرتفعًا بالروح فوق الناموس ليعاين بالنعمة السيد المسيح. وكأن صعود شجرة الجميز هو انطلاق من الفكر الحرفي في تفسير الكتاب المقدس إلى التمتع بالفكر الروحي العميق خلال شجرة الصليب المقدسة.

ثامنًا: إذ دخل السيد المسيح بيت زكا سمع زكا هذه العبارة الإلهية: "**اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضًا ابن إبراهيم" [٨].**

ماذا يعني بخلاص هذا البيت:

أ. حينما يتقدس عضو في الأسرة يستطيع بالسيد المسيح الساكن فيه أن يكون سرّ بركة وخلاص بقية الأعضاء. وقد جاء سفر الأعمال يكشف بقوة كيف كان لقاء البعض مع السيد المسيح يدفع أهل بيتهم إلى اللقاء أيضًا معه والتمتع بخلاصه في حياتهم. لا نستطيع أن ننكر أنه قد يقبل عضو السيد المسيح ويرفض الآخر حتى حذرنا السيد بقوله أن أعداء الإنسان أهل بيته، وأنه يقوم الأب على ابنه والابن على أبيه الخ. هذا التحذير يكمله حديث السيد المسيح نفسه عن رسالة المؤمن كنورٍ للعالم قادر بالمسيح النور الحقيقي أن يجتذب أهل بيته لشمس البرّ!

ب. حينما يتقدس الإنسان بدخول السيد المسيح إلى حياته يتقدس أهل بيته الداخلي، أعني أنه إذ يقبل المؤمن السيد المسيح يقدم كل أهل بيته للرب، أي جسده بكل طاقاته ودوافعه وأحاسيسه ومشاعره وفكره وقدراته. فالله لا يقدس الروح وحدها وإنما معها الجسد والنفس أيضًا.

ج. يدعو البيت "**ابن إبراهيم**"، وهو بلا شك لا يقصد المبنى المادي، إنما الساكن فيه أو السكان فيه الذين تمتعوا بعمل السيد المسيح فيهم. دُعي زكا ابنًا لإبراهيم ليس لانتسابه إليه حسب الجسد، وإنما ما هو أعظم لأنه حمل ذات إيمانه الحيّ العامل. فبالإيمان ترك إبراهيم أرضه وعشيرته وأهل بيته منطلقًا وراء الدعوة الإلهية إلى أرض يجول فيها ليقدمها ميراثًا لأبنائه، وها هو ابنه زكا يحمل ذات الإيمان، فقد ترك كل ممتلكاته التي سبق فتعلق بها كأرض يعيش فيها، وكعشيرةٍ تعلق بها بل

[1] *Morals 27: 46*

وكانت كأهل بيته، ارتبط بممتلكاته بعنف، لكنه الآن ينحل من هذه الارتباطات ليقدم نفس ممتلكاته للفقراء، ويقدم الباقي لرد أضعافًا مضاعفة لمن سبق فظلمهم.

يمكننا أيضًا أن نقول بأن زكا حين كان رئيسًا للعشارين كان ابنًا لإبراهيم حسب الجسد، أما الآن إذ تعرف على السيد صار ابنًا له حسب الإيمان، بل صار ابنًا لله في المسيح يسوع.

تاسعًا: يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم**[١] أن حلول السيد المسيح في بيت زكا قد أعطى زكا فرحًا [٦]، فصار كما بجناحين منطلقًا إلى فوق الزمنيات، لذا قال: "**يا رب أعطي نصف أموالي للمساكين...**" يمكننا أن نقول بأن الخطية تجرح النفس وتفقدها فرحها، فتعيش مرتبطة بالعالم والزمنيات فاقدة رجاءها الأبدي وبهجتها الداخلية. لكن تجلي الرب في النفس وسماعها صوته يملأها رجاءً، ويرفعها فوق كل تعلق زمني، لتحيا كما بجناحي الروح، مرتفعة من مجدٍ إلى مجدٍ، ومتمتعة بنعمةٍ فوق نعمةٍ، ومنطلقة من قوةٍ إلى قوةٍ بفرحٍ حقيقيٍ.

عاشرًا: يقارن **القديس أغسطينوس** بين زكا الذي استضاف السيد بفرح وبين قائد المائة الذي حسب نفسه غير أهل أن يدخل السيد بيته (مت ٨: ٨) قائلاً له: [لا يوجد تناقض بين الاثنين... ولا يُحسب أحدهما أفضل من الآخر، فبينما تقبل الأول الرب بفرح في بيته [٦]، قال الآخر: "لست مستحقًا أن تدخل تحت سقفي" (مت ٨: ٨). كلاهما يكّرم المخلص وإن كان بطريقين مختلفين... كلاهما كانا بائسين بالخطية، ونالا الرحمة التي طلباها[٢].]

أحد عشر: إذ لم يدرك اليهود غاية المسيح وعمله "**تذمروا قائلين إنه دخل ليبيت عند رجل خاطئ**" [٧]. عوض أن يفرحوا بخلاص الخطاة تذمروا على المخلص، لأنه يفتح قلبه لهم، ويدخل بيوتهم ليملك على قلوبهم، أو حسب تعبير **القديس كيرلس الكبير** يقيمهم من الأموات، إذ يقول: [لماذا يلومون المسيح إن كان ذلك يمكن أن تقول قد سقط ودفن في الفساد الروحي، فأقامه المسيح من هوة الهلاك؟! ولكي يعلمهم ذلك قال: "**اليوم حصل خلاص لهذا البيت، إذ هو أيضًا ابن إبراهيم**" [٩]. لأنه حيث يدخل المسيح بالضرورة يوجد الخلاص. ليكن في داخلنا؛ إن آمنا يكون فينا، بالإيمان يسكن في قلوبنا، ونكون نحن مسكنه. كان يليق باليهود أن يفرحوا، لأن زكا قد خلص بطريقة عجيبة، إذ حُسب هو أيضًا من بين أبناء إبراهيم الذي وعده الله بالخلاص في المسيح بواسطة الأنبياء القديسين، قائلاً: "ويأتي الفادي إلى صهيون، وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب، يقول الرب"

---

[1] *In Matt hom 30: 3.*
[2] *Ep. 54: 3.*

(إش ٥٩: ٢٠). لقد قام المسيح ليخلص سكان الأرض من خطاياهم، يطلب من قد فُقدوا، ويخلص من قد هلكوا. هذا هو عمله، قل هذا هو ثمرة لطفه الإلهي[١].]

ثاني عشر: إذ دخل السيد المسيح بيت زكا أشرق عليه بنور بره، فطرد منه كل ظلمة دون أن يبكته بكلمة، أو حتى يقدم له وصية. كان حضرة المسيح نفسه "كلمة الله المتجسد" قوة قادرة على انتشال زكا من محبة المال إلى حبه للفقراء وشوقه لرد أضعاف مضاعفة لمن سبق فظلمهم، حتى وإن دفع كل ما يملكه ثمنًا لذلك.

في نص منسوب **للقديس يوحنا الذهبي الفم** قيل: [لم ينتظر زكا حكم الناموس بل حكم على نفسه بنفسه]، كما قيل: [أنظر هنا معجزة، فإنه يطيع دون أن يتعلم. كما أن الشمس تلقي بأشعتها على البيت فتضيئه بالعمل لا بالكلام، هكذا يلقي المخلص بأشعة بره ليحطم ظلمة الخطية، فيشرق النور في الظلمة.]

هذا، ويليق بنا أن نلاحظ أن زكا لم يقدم ماله للفقراء والمظلومين، وإنما قدم أولاً قلبه لله، عندئذ جاءت عطايا طبيعية وبلا كلفة، ومفرحة لله. يقول **القديس جيروم:** [إن قدمنا للمسيح نفوسنا كما نقدم له غنانا، يتقبل التقدمة بفرح[٢].]

ثالث عشر: يكشف ربنا يسوع المسيح عن رسالته الخلاصية، فاتحًا باب الرجاء للكل بقوله: "**لأن ابن الإنسان قد جاء لكي يطلب ويخلص ما قد هلك**" [١٠].

يستخدم **العلامة ترتليان** هذه العبارة للرد على أصحاب الفكر الغنوسي الذين يحقرون من شأن الجسد ويحسبونه لا يتمتع بالخلاص ولا يقوم في اليوم الأخير، قائلاً: [ماذا تظن في الذي هلك؟ إنه الإنسان بلا شك، الإنسان بكليته وليس جانبًا منه. بالطبع الإنسان كله... فإن كانت الخطية أهلكته بكليته، فإنه سيخلص بكليته[٣].]

ويستخدم **القديس أغسطينوس** ذات العبارة في توبيخ أتباع بيلاجيوس منكري الخطية الأصلية، لذا يخاطب السيد المسيح على لسانهم قائلاً: [إن كنت قد جئت لتطلب وتخلص ما قد هلك، فإنك لم تأتِ للأطفال، لأنهم لم يهلكوا بل ولدوا في حالة خلاص؛ اذهب إذن إلى الكبار[٤].]

---

[1] *Hom 127.*
[2] *Ep. 54: 3.*
[3] *Resur. Of Flesh 34.*
[4] *On Marriage & Concus. 2: 9.*

يحدثنا **القديس أغسطينوس** عن عمل السيد المسيح الخلاصي، ومجيئه طالبًا من قد هلك، قائلاً: [لقد وجد المفقودين أيضًا. إنهم اختفوا هنا وهناك بين الأشواك، وتشتتوا بسبب الذئاب. اختفوا بين الأشواك، فجاء إليهم ليجدهم، وقد تمزق بأشواك آلامه. جاء فعلاً ووجدهم، مخلصًا إياهم... لقد خلصوا بذاك الذي ذُبح لأجلهم[1].]

٢. مَثَل العشرة أمناء

لقاء السيد المسيح بزكا رئيس العشارين في بيته وإعلان السيد المسيح عن الخلاص لأهل هذا البيت تحقيق لملكوت الفرح الحقيقي حتى ارتفع قلب زكا فوق كل فكر أرضي، فقدم أكثر مما يطلبه الناموس بكثير، قدم نصف أمواله للمساكين وطلب أن يرد لكل من ظلمه أربعة أضعاف. هكذا يعلن السيد المسيح عن الرغبة الإلهية في تقديس كل نفس ليكون الكل ملكوتًا حقيقيًا له. والآن بعد إعلان هذا الملكوت الحاضر والعامل في حياة البشرية يود السيد أن يعلن أنه ليس إلا عربونًا للملكوت الأبدي، مقدمًا لنا مثل العشرة الأمناء لنعرف أننا وإن كنا نفرح هنا باللقاء مع السيد المسيح لكي نحيا مجاهدين نمارس الحياة الأمينة لننعم بكمال مجد الملكوت الأبدي.

"**وإذ كانوا يسمعون هذا عاد فقال مثلاً،**
لأنه كان قريبًا من أورشليم،
وكانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد أن يظهر في الحال" [١١].

يبدو أن فكرًا بدأ يسود بين اليهود عندما رأوا ما صنعه رب المجد يسوع من أعمال عجيبة أن الملكوت قد اقترب جدًا، بمعنى أن السيد يملك في أورشليم، ويقيم مملكته أرضيًا. لهذا انشغل حتى التلاميذ في بعض الأحيان عن مركز كل واحدٍ منهم في هذه المملكة المنتظرة سريعًا. وكأن السيد المسيح أراد أن يوجه أنظارهم عن التفكير في عظمة المملكة بفكر زمني إلى التهيئة للملكوت الأبدي بحمل سمة "الأمانة". وقد سبق لنا الحديث عن هذا المثل في دراساتنا السابقة مت ٢٥: ١٨، والآن نكتفي بإبراز النقط التالية:

أولاً: يقول السيد المسيح: "**إنسان شريف الجنس ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكا ويرجع. فدعا عشرة عبيد له وأعطاهم عشرة أمناء، وقال لهم: تاجروا حتى آتي" [١٢-١٣].** من هو هذا الإنسان الشريف الجنس إلا رب المجد نفسه، الكلمة الذي صار جسدًا. إنه شريف الجنس، بل "وحيد

[1] *Ser. On N.T. 39: 1.*

الجنس"، فريد في بنوته الأزلية للآب، أخلى ذاته بالتجسد لكي ينقلنا نحن الذين صرنا عبيدًا للخطية إلى البنوة لله باتحادنا معه، وثبوتنا فيه، فنصير نحن به شرفاء الجنس أو أحرارًا.

يعلق **القديس كيرلس الكبير** على تعبير "**شريف الجنس**"، بالقول:

[مجال هذا المثل إنما يمثل في اختصار عصب التدبير الذي قُدم لأجلنا، أي سرّ المسيح من بدايته حتى نهايته.

الله الكلمة صار إنسانًا، ومع كونه قد صار في شبه جسد الخطية لذا دُعيَ عبدًا (في ٢: ٧) لكنه وُلد حرًا "**شريف الجنس**" (لو ١٩: ١٢)، إذ ولد من الآب ميلادًا غير منطوق به. نعم، إنه الله الذي يعلو الكل في الطبيعة والمجد، يسمو علينا بل وعلى كل الخليقة بكماله الذي لا يُقارن.

إنه شريف الجنس بكونه ابن الله، حمل هذا اللقب ليس مثلنا من قبيل صلاح الله وحبه للبشر، وإنما لأن هذا يخصه بالطبيعة، كمولود من الآب، عالٍ فوق كل خليقة.

إذن عندما صار الكلمة الذي هو صورة الآب والمساوي له مثلنا إنسانًا "أطاع حتى الموت موت الصليب، لذلك رفعه الله أيضًا وأعطاه اسما فوق كل اسم، لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة ممن في السماء ومن على الأرض ومن تحت الأرض، ويعترف كل لسان أن يسوع المسيح هو رب المجد الله الآب" (في ٢: ٨–١١)...

بالتأكيد الابن هو الله بالطبيعة فكيف أعطاه الآب ذاك الاسم الذي فوق كل اسم؟ نقول أنه عندما صار جسدًا، أي عندما صار إنسانًا مثلنا أخذ اسم العبد، وقبل فقرنا ومذلتنا، وبعد تتميم سرّ تدبير التجسد رُفع إلى المجد الذي له بالطبيعة وليس كأمر غريب عنه لم يعتد عليه، ولا كأمر خارج عنه مقدم إليه من الغير، إنما نال المجد الذي له خاصًا به. ففي حديثه مع الآب السماوي يقول: "مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم" (يو ١٧: ٥). كان يرتدي مجد اللاهوت بكونه الكائن قبل الدهور قبل العوالم، بكونه الإله المولود من الله؛ وعندما صار إنسانًا كما قلت لم يحدث فيه تغيير ولا تبديل بل بقى كما هو عليه على الدوام بكونه المولود من الآب، مثله في كل شيء. إنه "صورة جوهره" (عب ١: ٣)، يحق له كل ما للآب بكونه واحدًا معه في الجوهر، مساوٍ له في عدم التغيير، مثله في كل شيء[١].]

يعلق أيضًا **القديس باسيليوس الكبير** على تعبير "**شريف الجنس**"، قائلاً: [إنه شريف ليس فقط من جهة لاهوته، وإنما من جهة ناسوته أيضًا بكونه من نسل داود حسب الجسد[٢].]

---

[1] *Hom 129*
[2] *Esai 13: 13.*

إن كان هذا الإنسان الشريف الجنس هو كلمة الله المتجسد، فماذا يعني بقوله: "**ذهب إلى كورة بعيدة ليأخذ لنفسه مُلكًا ويرجع**" **[١٢]**؟ لعله يقصد بالكورة البعيدة الطبيعة البشرية التي صارت بالعصيان مبتعدة عن الله، وكأنها كورة غريبة بالنسبة له، خاصة جماعات الأمم التي قاومت العبادة الإلهية وعزلت نفسها بنفسها بعيدًا عن ملكوت الله. لقد جاء إلينا نحن الذين كنا غرباء وبعيدين لكي يملك علينا مقربًا إيانا إليه كأعضاء جسده، فيحملنا فيه كرأس لنا، ويرجع بنا إلى ملكوته، لنجد لنا به موضعًا في حضن الآب. هذا ما أعلنه الرسول بولس بوضوح، قائلاً: "اذكروا أنكم أنتم الأمم قبلاً في الجسد المدعوين عزلة... إنكم كنتم في ذلك الوقت بدون مسيح أجنبيين عن رعوية إسرائيل وغرباء عن عهود الموعد، لا رجاء لكم، وبلا إله في العالم، ولكن الآن في المسيح يسوع أنتم الذين كنتم قبلاً بعيدين صرتم قريبين بدم المسيح... فلستم إذًا بعد غرباء ونزلاء بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله" (أف ٢: ١١-١٩).

يقول **القديس باسيليوس الكبير**: [ذهب إلى كورة بعيدة (لو ١٩: ١٢)، ليس خلال بعد المسافة المكانية بل بعد الحالة الفعلية. فإن الله نفسه قريب جدًا لكل واحدٍ منا متى ارتبطنا به خلال الأعمال الصالحة، ويكون بعيدًا جدًا متى تركناه وابتعدنا عنه جدًا بالتصاقنا بالهلاك. لقد جاء إلى هذه الكورة البعيدة الأرضية لكي يتقبل مملكة الأمم كقول المزمور: "اسألني فأعطيك الأمم ميراثًا لك" (مز ٢: ٨)[١].] ويقول **القديس أغسطينوس**: [الكورة البعيدة هي كنيسة الأمم الممتدة إلى أقصى الأرض. فقد جاء لكي يتم ملء الأمم، وعندئذ يرجع لكي يخلص كل إسرائيل (بقبولهم الإيمان الحق ورفضهم الفكر الصهيوني المتعصب)[٢].]

نزل الرب إلينا كما إلى كورة بعيدة بحمله ناسوتنا، وأقام مملكته فينا ليرجع حاملاً إيانا إلى سماواته كمملكة خاصة به. وكما يقول **القديس أمبروسيوس**: [وصف نفسه من جهة لاهوته وناسوته، فهو غني من جهة كمال لاهوته وقد صار فقيرًا لأجلنا. فمع أنه الغني والملك الأبدي، وابن الملك الأبدي، قال أنه ذهب إلى كورة بعيدة (لو ١٩: ١٢) بأخذه جسدنا، إذ سلك طريق البشر كما في رحلة غريبة، وجاء إلى هذا العالم ليعد لنفسه مملكة منا. إذن قد جاء يسوع إلى هذه الأرض ليتقبل لنفسه مملكة منا نحن الذين قيل لنا: "ملكوت الله داخلكم". عندئذ يسلم الابن مملكته للآب، وبتسليمه إياها لا يخسرها المسيح بل تنمو... نحن ملكوت المسيح وملكوت الآب، إذ قيل: "ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي"

---

[1] *Esai 13: 13.*
[2] *Quaest Ev 2: 40.*

(يو ١٤: ٦). عندما أكون في الطريق فأنا للمسيح، وإذ أعبر به فأنا للآب، لكن أينما وجدت فأنا خلال المسيح وتحت سلطانه[1].]

والآن ماذا يعني بالعشرة عبيد الذين وهبهم عشرة أمناء ليتاجروا حتى يأتي إليهم ثانية؟ يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن رقم ١٠ يشير إلى الكمال، وكأن السيد المسيح قدم إلى كل العبيد أي إلى جميع البشرية بلا تمييز بين جنس وآخر، أو شعب وشعب، مواهبه الكاملة المتباينة لكي يضرموها حتى يجئ فيكافئهم على أمانتهم في العمل. أعطى للعشرة عبيد فلا يستطيع أحد أن يحتج بأن رسالة الله الخلاصية لا تخصه شخصيًا. لقد وهب لكل عبدٍ واحدًا من العشرة أمناء، أي قدم عمله وعطاياه لكل من يريد أن يأخذ بلا محاباة ولا تمييز.

يرى البعض أن "المنا" يوازي ١٠٠ درهمًا، وهو رقم يمثل عظمة الكمال، فكأن السيد حين قدم الأمناء أراد في الكل أن يتاجروا في عطاياه العظيمة لينالوا كرامة ومجدًا على مستوى فائق.

يعلق **القديس كيرلس الكبير** على هذه الأمناء التي وزعت على العبيد، قائلاً: [يوزع المخلص عطاياه الإلهية المتنوعة على الذين يؤمنون به، فإننا نؤكد أن هذا هو معنى الأمناء... إنه إلى اليوم مستمر في التوزيع كما يظهر الكتاب المقدس بوضوح، إذ يقول الطوباوي بولس: "فأنواع مواهب موجودة ولكن الروح واحد، وأنواع خدم موجودة، ولكن الرب واحد، وأنواع أعمال موجودة ولكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل" (١ كو ١٢: ٤-٦). يعود فيوضح ما قاله بإبراز أنواع المواهب هكذا: "فإنه لواحد يُعطى بالروح كلام حكمة، ولآخر كلام علم بحسب الروح الواحد، ولآخر إيمان بالروح الواحد، لآخر مواهب شفاء بالروح الواحد" (١ كو ١٢: ٨-٩)، وهكذا أنه يبرز بهذه الكلمات تنوع المواهب بوضوح[2].]

ثانيًا: ميّز السيد المسيح بين عبيده الذين تسلموا الوزنات المتنوعة هؤلاء الذين يشيرون للمؤمنين منهم من يجاهد بالروح ليكسب عشرة أمناء، ومنهم من يكسب خمسة، وأيضًا منهم من يتراخى ويهمل ويضع الوزنة كما في منديل، وبين الذين رفضوه تمامًا، إذ يقول: **"وأما أهل مدينته فكانوا يبغضونه، فأرسلوا وراءه سفارة، قائلين: "لا نريد أن هذا يملك علينا" [١٤].** وكما يقول **القديس كيرلس الكبير:** [حقًا عظيم هو الفارق بين هؤلاء (الذين تسلموا الأمناء) وبين الذين جحدوا مملكته تمامًا. هؤلاء هم متمردون يلقون عنهم نير صولجانه، بينما يمارس الآخرون مجد خدمته[3].] لعله قصد بالرافضين

---

[1] *Of the Chrishian Faith 5: 12.*
[2] *Hom 129.*
[3] *Hom 129.*

مملكته شعب اليهود الذين هم "أهل مدينته"، إذ قال: "وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي" (يو ١٥: ٢٤). وكما يقول الإنجيلي يوحنا: "أجاب رؤساء الكهنة: ليس لنا ملك إلا قيصر" (يو ١٩: ١٥).

ماذا يعني السيد بقوله: "**أرسلوا وراءه سفارة**" **[١٤]**؟ يجيب **القديس أغسطينوس:** [أرسلوا سفارة وراءه، لأنهم بعد قيامته اضطهدوا رسله، ورفضوا الكرازة بالإنجيل[١].]

ثالثًا: يقول السيد: "**ولما رجع بعدما أخذ المُلك أمر أن يُدعى إليه أولئك العبيد الذين أعطاهم الفضة ليعرف بما تاجر كل واحدٍ**" **[١٥]**. ماذا يعني "بعد ما أخذ المُلك"؟ يمكننا أن نقول مع **القديس يوحنا الذهبي الفم**[٢] أن السيد المسيح ملك على كل البشر بحق الخلقة إذ هو خالق الكل، وهو ملك أيضًا بحق التبرير، إذ يملك على الأبرار، فيخضعون له طوعًا. بهذا له مملكتان، الأولى إلزامية علينا كخليقة، والثانية اختيارية، فنقبل مُلكه علينا خلال عمل نعمته، وهذه هي التي يقصدها بالقول: "أخذ المُلك".

يقول **القديس أغسطينوس:** [إنه يرجع بعدما يأخذ مُلكه، إذ يأتي بكل المجد ذاك الذي سبق فظهر لهم متواضعًا، قائلاً: "مملكتي ليست من هذا العالم" (يو ١٨: ٣٦)[٣].]

رابعًا: من هو ذاك الذي ربح بالأمناء الفضية الذي لسيده عشرة أمناء؟ وذاك الذي ربح بأمناء سيده خمسة أمناء؟ وذاك الذي استلم منا سيده الفضي ووضعه في منديل أو دفنه في التراب (مت ٢٥: ١٨)؟ بلا شك أن الأمناء العشرة الفضية التي وزعها السيد على عبيده ما هي إلا "كلمة الله" التي قيل عنها أنها كالفضة المصفاة بالنار (مز ١٢١: ٣)، خاصة الناموس الذي يرمز له بالرقم ١٠ بكونه يحوي في جوهره الوصايا العشرة! الأول أخذ الوصية الإلهية لا ليدفنها بل لتربح عشرة أمناء، أي ليبلغ الحياة الملائكية بكون الطغمات السمائية هي تسع (بما فيها الشاروبيم والسيرافيم)، فيصير هو الطغمة العاشرة. أما الثاني الذي ربح خمسة أمناء، فيشير إلى ذاك الذي بكلمة الله الحية تتقدس الحواس الخمس، أي تقديس الجسد بحواسه، أما الذي دفن الوزنة الفضية في منديله أو في أرضه، فهو ذاك الذي يدفن كلمة الله في سجن ذاته أو في حدود الجسد كما كان يفعل زكا قبلاً حين كان محصورًا داخل شهواته الذاتية (الطمع).

يرى البعض أن الرجل الأول الذي ربح عشرة أمناء يشير إلى الخادم الكارز بالحق، إذ يكسب بروح الإنجيل الفهم الروحي للناموس (رقم ١٠)، أما المكافأة فهي مُلكه على عشر مدن، وكما يقول

---

[1] *Quaest Ev 2: 40.*
[2] *In 1 Cor. hom 39*
[3] *Quaest Ev 2: 40*

القديس أمبروسيوس أن هذه المدن هي النفوس التي تعهد بين يديه بإضرامه الوزنة الإلهية أو العملة المسيحانية، كلمة الإنجيل. ليست هناك مكافأة للخادم الحقيقي أعظم من أن يرى النفوس قد قبلت الكلمة، وخضعت لروح الحق، فيحسب نفسه كمن ملك بالمسيح عليها لا ليسيطر، وإنما ليبذل بالحب. أما الرجل الثاني الذي ربح خمسة أمناء فأظن أنه يمثل الإنسان التقي الذي وإن كان ليس له موهبة التعليم والكرازة بالكلمة لكنه خلال تقديس حواسه الخمس يشهد فيكسب نفوسًا للرب، فيصير كمن يملك على خمس مدن. أما الأخير الذي وضع الموهبة في منديل، فكما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس** أن المنديل تستخدم في ربط وجه الميت... وكأن ذاك الرجل حسب موهبة الرب ميتة يدفنها ويضمرها.

أما بقية المثل فيمكن الرجوع إلى تفسيره في كتابنا "الإنجيل بحسب متى ٢٥: ١٤–٣٠" منعًا للتكرار، مكتفيًا هنا بالتعليقين التاليين:

❖ "**إن كل من له يُعطى**" **[٢٦]**. من له الإيمان يُعطى معرفة، ومن له معرفة يُعطى حبًا، ومن له الحب يُعطى الميراث[١].

القديس إكليمنضس السكندري

❖ "**وأما أعدائي أولئك الذين لم يريدوا أن أملك عليهم، فأتوا بهم إلى هنا، واذبحوهم قدامي**" **[٢٧]**.
ليته لا يهمل أحد في مقابلة الملك لئلا يُطرد من حجال العريس.
ليته لا يوجد بيننا من يستقبله بكآبة، لئلا يُدان كمواطنٍ شرير يرفض استقباله كملكٍ عليه.
لنأتِ إليه معًا ببهجة، ولنستقبله بفرح، ونتمسك بوليمتنا بكل أمانة[٢].

الأب ميثوديوس

٣. تقدمه نحو أورشليم

سبق لنا الحديث عن دخول السيد المسيح إلى أورشليم في دراستنا لإنجيل معلمنا متى البشير (٢١: ١–١١) وإنجيل معلمنا مرقس البشير (١١: ١–١٠)، لذا أكتفي هنا بعرض الآتي كتكملة للتفسيرين السابقين:

أولاً: صديقنا الأعظم فتح عيني الأعمى لكي يدرك الصداقة الإلهية، ويبصر بأعماقه محبة الله له، فيقبل صداقته (١٨: ٣٥–٤٢). ودعى نفسه بنفسه ليدخل بيت زكا ليعلن شوقه للدخول إلي بيتنا

---

[1] *Storm. 7:10.*
[2] *Orat. On Palms 1,*

الداخلي، مقدسًا إيانا مهما بلغت خطايانا. وكأنه قد سمع صوت استجابة زكا للدعوة هذا الصوت الداخلي الذي عبّر عنه عمليًا بصعوده الجميزة، ففرح به وقدم الخلاص له ولأهل بيته، معلنًا صداقته له. وقدم مثل العشرة أمناء موضحًا أن هذه الصداقة التي بادر بها السيد ليقدمها إلينا مجانًا تلتزم من جانبنا جانب الجدية، فهو يهبنا عطاياه الإلهية بلا مقابل من جانبنا سوى قبول العطايا وإضرام الموهبة، يصادقنا على أساس قبولنا التجاوب معه وحمل سماته فينا. الآن يدخل أورشليم ليعلن ثمن هذه الصداقة من جانبه ألا وهو تقديم حياته مبذولة فدية عنا. لذا يقول الإنجيلي: "**ولما قال هذا تقدم صاعدًا إلى أورشليم**" **[٢٨]**. لقد نزل إلينا لكي يصعد بنا إلى أورشليم، مقدمًا لنا صداقته وملكوته!

يكمل الإنجيلي حديثه قائلاً: "**وإذ قرب من بيت فاجي وبيت عنيا عند الجبل الذي يدعى جبل الزيتون، أرسل اثنين من تلاميذه...**" **[٢٩]**. وكما سبق فقلنا أن رقم ٢ يشير إلى الحب، إذ يجعل الاثنين واحدًا، ولأن الحب جاء في وصيتين: محبة الله ومحبة الغريب، لذلك بدأ إرساليته للتلاميذ لإحضار الأتان والجحش وهو بالقرب من قريتين، أي خلال الحب، الذي بدونه لا ننعم بدخول السيد إلى أورشليمنا.

قيل أن بيت فاجي قرية عند جبل الزيتون خاصة بالكهنة، بينما بيت عنيا ضمت بيت لعازر ومريم ومرثا وهم من الشعب، وقد تمت إرسالية التلميذين بالقرب من القريتين. هنا يمكنني أن أتجاسر فأقول أن العمل الرسولي في الكنيسة لا يقف عند بيت فاجي، أي العمل الكهنوتي وحده، أو التدبيري، وإنما يتكامل بعمل الشعب أيضًا. كنيستنا الرسولية هي جسد المسيح الذي يضم الكهنة كخدام للشعب عاملين لحساب خلاصهم وبنيانهم، كما يضم الشعب لا كمستمعين سلبيين، وإنما كعاملين مع الكهنة في وحدة الروح، كشهود حق للعمل الخلاصي. ففي الكنيسة الأولى إذ حدث "اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ماعدا الرسل" (أع ٨: ١)، انطلق هؤلاء المشتتون يبشرون بالكلمة (أع ٨: ٤). بقي الرسل في أورشليم يواجهون الاضطهاد بقوة، وانطلق الشعب لا ليهرب بل ليكرز ويشهد. أقول ما أحوج الكنيسة في كل عصر إلى كل عضو فيها أن يعمل، سواء كان طفلاً أو شيخًا، لا لعوز الجماعة إليه فحسب، وإنما ليمارس عضويته الحقيقية فيكون عاملاً حيًا، وإلا ففي سلبيته يفقد حيويته وتشل حركته ويمثل ثقلاً في عيني نفسه كما في أعين الآخرين.

ثانيًا: كان السيد المسيح منطلقًا إلى أورشليم يبذل حياته لأجل أصدقائه، مقدمًا الثمن كله، محتملاً الصليب حتى النهاية. وفي محبته الفائقة أراد أن يشرك تلاميذه في هذا العمل فطالبهم بقليل

القليل، إذ في حبه للإنسان يود أن يكون للإنسان دور، أيا كانت قيمته الظاهرة، لكنه دور حيوّي في عيني الرب محب البشر. لذا قال لإثنين من تلاميذه: "**اذهبا إلى القرية التي أمامكما وحين تدخلانها تجدان جحشًا مربوطًا لم يجلس عليه أحد من الناس قط، فحلاه وأتيا به...**" **[٣٠]**. وقد سبق لنا الحديث عن المعنى الرمزي لهذا التصرف، إنما ما نود توضيحه هنا أن الرب يطلب عملهما مهما كان في نظرنا قليل القيمة، وذلك كالأب الذي يقدم ما استطاع لابنه ثم يعود فيسأله أمرًا يبدو تافهًا جدًا حتى يرد الابن لأبيه الحب بالحب، ويتجاوب مع صداقته بالصداقة وليدربه على العمل بغيرة.

يقول **القديس باسيليوس الكبير**: [يليق بنا حتى إن أوكل إلينا أقل الأعمال أن نمارسه بغيرةٍ عظيمةٍ وحبٍ، عالمين أن ما يُصنع بالله ليس تافهًا، بل يقابله ملكوت السماوات[1].]

ثالثًا: ماذا يعني هذا الجحش المربوط الذي لم يجلس عليه أحد من الناس قط [٣٠]، الذي حله التلميذان وجاءا به إلي السيد المسيح؟ في دراساتنا السابقة لإنجيلي متى ومرقس رأينا كيف رمز الأتان والجحش إلي اليهود والأمم، إذ كان الجميع خارجًا في الطريق مربوطين بقيود العصيان، محتاجين إلي خدام الإنجيل لحلهم من الرباطات بروح الله القدوس، فيصيروا مركبة المسيح الوديعة والملتهبة أيضًا، المنطلقة إلي أورشليم الأبدية.

للقديس أمبروسيوس تفسير آخر، إذ يقول: [يشير الجحش والأتان إلى آدم وحواء اللذين طُردا من الفردوس. طُرد الجنسان، وقد دُعي الجنسان في هذين الحيوانين... يقول مرقس إنه كان "مربوطًا عند الباب خارجًا" (مر ١١: ٤)، لأن من هو ليس مع المسيح يبقى خارجًا في الطريق، وأما من كان في المسيح فيبقى داخلاً. لقد كان مربوطًا عند الباب ليس له إقامة ولا مزود ولا طعام. يربطه الآخرون ليمتلكوه، أما ذاك فيحلنا ليحفظنا في يده؛ فالنعمة أعظم من القيود[2].]

رابعًا: ما أجمل هذه العبارة: "**وأتيا به إلى يسوع، وطرحا ثيابهما على الجحش، وأركبا يسوع**" **[٣٥]!** لقد أتيا بالجحش الذي للغير لكنهما لم يقدماه للسيد ليركبه إلا بعد طرح ثيابهما عليه، فإنه وإن كان يليق بالكاهن أن يحث الكل على التقدمة للرب خلال كرازته الإنجيلية، لكنه يليق به وهو يقدم للسيد تقدمات الآخرين أن يشترك هو أيضًا في العطاء. قد لا يكون له جحش يقدمه، فليقدم ثيابه! ربما ليس له مال فليقدم إماتة جسده! بمعنى آخر الكاهن لا يأخذ لنفسه بل ليقدم للسيد المسيح لا مما هو للغير فحسب وإنما مما وهبه الله ولو كانت ثيابه الضرورية.

---

[1] *Catena Aurea.*
[2] *In Luc 19:28-38.*

يرى **القديس أمبروسيوس** ما هو أكثر من ذلك، فإن الثياب إذ هي تشير للجسد، فخلع التلاميذ للثياب إنما يشير إلي تقديم التلاميذ الشهادة للسيد المسيح ببذل أجسادهم حتى الموت.

خامسًا: بلا شك كانت ثياب التلميذين من الأنواع الرخيصة، بلا قيمة خاصة كثيابٍ مستعملة، لكنها صارت أشبه بعرش يجلس عليه الرب نفسه وهو قادم إلي أورشليم! هكذا إذ يرمز الثوب للجسد، فإن جسدنا بكل أعمال البرّ والصلاح يُحسب بلا قيمة مادام خارج المسيح، أما إن قدمناه للرب فهو يقبله عطية حب، فيقدس الجسد بأحاسيسه وعواطفه وأعماله الصالحة ويشتم في ذلك كله رائحة سرور!

يمكننا أيضًا أن نقول أنه لا قبول لعملٍ صالحٍ مادام ملتحمًا بجسدنا أو بذاتيتنا لكننا إن خلعنا عنا "ذاتيتنا" يتقبل الرب كل عملٍ صالحٍ كثوب يجلس عليه، ويباركه!

إن كان التلميذان يشيران إلي الإرسالية للأمم والإرسالية لليهود، فإن الثياب تشير إلي العمل الكرازي ذاته، فلا نجاح ولا قبول لعملٍ كرازيٍ ما لم يعمل الرسل في خضوع للسيد المسيح العامل فيهم؛ هذا ما يرمز إليه وضع الثياب تحته!

إن كان التلميذان يشيران إلى رجال العهد القديم من آباء وأنبياء ورجال العهد الجديد من رسل وتلاميذ، فإن غاية رجال العهدين أن يقدموا أعمالهم من نبوات وكرازة للسيد المسيح لتختفي فيه وتحته، فيجلس ويملك! إنهم لا يعملون لحساب أنفسهم، إنما لكي يستريح الرب بملكه علي قلوب المؤمنين في العهدين.

إن كان التلميذان يشيران إلى الحب (بكونهما اثنين) فإن وضع ثيابهما تحت السيد المسيح، إنما يشير إلي ترجمة الحب إلي عملٍ! فإن السيد المسيح يريد أن يستريح على حبنا العامل لا النظري.

سادسًا: استراح السيد المسيح علي الجحش الذي وضع التلميذان ثيابهما عليه، لكن كما يقول **القديس أمبروسيوس:** [ليس ما يفرح رب العالم امتطاؤه ظهر حيوان ما لم يحمل هذا سرًا خفيًا، وهو أن يجلس داخليًا كملكٍ يتربع علي عرشه في أعماق نفوس البشر، يجلس كفارس إلهي بقوة لاهوته يقود خطوات العقل. طوبى لمن حملوا على ظهر أرواحهم مثل هذا الفارس! حقًا طوبى لمن وضع في أفواههم لجام الكلمة الإلهية عوض النطق بالأباطيل![1]]

---

[1] *In Luc 19:28-38.*

يعود فيكمل **القديس أمبروسيوس** تعليقًا جميلاً على حملنا للسيد المسيح سريًا، فيقول: [تعلم كيف تحمل المسيح فقد حملك هو كراع يرد الخروف الضال (لو ١٥: ٦) متهللاً بتطهيره لنفسك. تعلم أن تكون تحت المسيح فيصعدك إلي فوق لله (الآب).]

سابعًا: كان السيد المسيح يقترب عند منحدر جبل الزيتون [٣٧]، وقد سبق فقلنا في تفسير إنجيل مرقس الرسول أن هذا الجبل يشير إلي الكنيسة التي فيها يغرس الرب مؤمنيه كشجر زيتون حاملاً زيت النعمة الإلهية (زيت الزيتون) متى اجتاز المعصرة مع عريسه السماوي. هذا الجبل المرتفع بالروح يدفع قلوب الكل لتعيش فوق الأرضيات، وهو جبل دائم الخضرة علامة حياة الكنيسة الدائمة.

عند الاقتراب من هذا الجبل يقول الإنجيلي: "**ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم، لأجل جميع القوات التي نظروا. قائلين: مبارك الملك الآتي باسم الرب، سلام في السماء ومجد في الأعالي**" **[٣٧-٣٨].** إذ يقترب الرب إلينا كما إلي جبل الزيتون يعلن عن صداقته الإلهية وفاعليتها في أعماقنا الداخلية، فتتهلل كل طاقاتنا الداخلية وتطرب أحاسيسنا ومشاعرنا وتبتهج نفوسنا. فيتحول كل كياننا إلي قيثارة الروح القدس التي تعزف تسبحة فائقة لا يمكن للغة التعبير عنها، فيصير كل منا وكأنه قد حمل في داخله جمهور تلاميذ للرب يفرحون ويسبحون. تنفتح البصيرة لترى القوات العجيبة، وينطلق كل الكيان ليعلن قبوله السيد المسيح ملكًا وربًا، قائلاً: "**مبارك الملك الآتي باسم الرب**"، وترتفع النفس لترى موضعها في السماء، حيث تنعم بسلام صديقها السماوي وشركة أمجاده العلوية، قائلة: "**سلام في السماء ومجد في الأعالي**".

يقول **القديس كيرلس الكبير:** [سبح التلاميذ مخلص الكل ودعوه الملك والرب وسلام السماء والأرض. ليتنا نحن أيضًا نسبحه كما بقيثارة المرتل، قائلين: ما أعظم أعمالك يا رب، بحكمة صنعتها! (مز ١٠٤: ٢٤)[1].]

جاءت التسبحة "**سلام في السماء ومجد في الأعالي**" **[٣٨].** فدخول السيد المسيح إلي أورشليم لتقديم نفسه فصحًا عنا نزع العداوة التي كانت قائمة بين الآب والبشرية، أو بين السماء والأرض، فصار سلام في السماء، إذ لم يعد الله يمثل عدوًا لنا بل صار أبًا بالحق، أما المجد الذي في الأعالي، فيعني انفتاح السماء بأمجادها علي الإنسان ليتمجد في الأعالي. سلامنا ومجدنا هو سلام ومجد للسماء في الأعالي. يمكننا أن نقول أيضا مع **القديس أغسطينوس** أن السماء هي النفس

[1] *Hom 130.*

البشرية، فعمل المسيح الفادي ردّ للنفس سلامها الداخلي، وتمتعها بأن ترتفع في الأعالي، لتمجد عريسها الأبدي.

ثامنًا: يقدم لنا الإنجيلي لوقا ردّ الفعل لدى الفريسيين، قائلاً: "**وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم انتهر تلاميذك. فأجاب وقال لهم: أقول لكم إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ**" [٣٩-٤٠]. لقد أراد الفريسيون أن يسكت هؤلاء، فأجابهم السيد المسيح أن الحجارة نفسها تصرخ شاهدة لمملكته، وكما يقول كثير من الآباء أن الأمم إذ عبدوا للحجارة صاروا حجارة من جهة الروح. هؤلاء الذين تحجرت أرواحهم وقلوبهم وأفكارهم، قبلوا الإيمان بالسيد المسيح فصاروا يصرخون. حقًا لقد سكت هؤلاء، إذ جحدته الأمة اليهودية عندما رأته مصلوبًا، سكت اليهود فصرخ الأمم بقبولهم الإيمان.

يرى **القديس أمبروسيوس** أن قول السيد تحقق أيضًا حرفيًا عندما سكت اليهود عن تسبيحه وتمجيده في لحظات الصلب، فقد نطقت الحجارة فعلاً، إذ حدثت زلزلة والصخور تشققت والقبور انفتحت الخ.

❖ ما هي هذه الحجارة إلا الذين يعبدون الحجارة؟! فإن صمت أبناء اليهود تصرخ الأمم كبارًا وصغارًا.

❖ من بين الأمم جئنا نحن، آباؤنا كانوا يعبدون حجارة[1].

القديس أغسطينوس

٤. بكاؤه على أورشليم

طلب الفريسيون أن يسكت هؤلاء، وفي مرارة قال السيد: "**إن سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ**" [٤٠]. وبالفعل سكت هؤلاء عن التسبيح رافضين العمل الخلاصي وانطلقت الحجارة (الأمم) تصرخ للرب شاهدة له بإيمانها. هذا الأمر محزن لقلب ربنا يسوع المسيح الذي جاء يمد يده بالصداقة للجميع، فإذا بخاصته لم تقبله بل عادته عوض مصادقته. لذا صار يرثيها، كما يقول الإنجيلي:

"**وفيما هو يقترب نظر إلي المدينة وبكى عليها.**
قائلاً: إنكِ لو علمتِ أنتِ أيضًا حتى في يومك هذا ما هو لسلامك؛
ولكن الآن قد أُخفى عن عينيك.

[1] *Ser. On N.T. 71:3.*

فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك،

ويحاصرونك من كل جهة.

ويهدمونك وبنيكِ فيكِ،

ولا يتركون فيكِ حجرًا على حجر،

لأنك لا تعرفي زمان افتقادك" [٤١-٤٤].

❖ أكدّ يسوع كل التطويبات التي أوضحها في إنجيله بتقديم نفسه مثالاً؛ فقد أعلن "طوبى للودعاء" ثم عاد بعد ذلك ليثبت ذلك بقوله: "تعلموا مني لأني وديع" (مت ١١: ٢٩). وإذ قال "طوبى للباكين" بكى هو أيضًا على المدينة.

❖ لست أنكر أن أورشليم الأولى قد خُربت بسبب شر سكانها، لكنني أتساءل: ألا يليق بك البكاء على أورشليمك الروحية؟!

إن أخطأ أحد بعد قبوله أسرار الحق، فإنه يُبكي عليه، لأنه كان من أورشليم ولم يعد بعد...

لِيُبكَ على أورشليمنا، لأنه بسبب الخطية يحيط بها الأعداء (الأرواح الشريرة) بمترسة ويحاصرونها، ولا يتركون فيها حجرًا على حجرٍ، خاصة لو أن هذا الإنسان كان قد سبق فمارس العفة زمانًا والطهارة سنوات طويلة، فتثور فيه شهوات الجسد ويفقد نقاوته وعفته ليسقط في الزنا ولا يُترك فيه حجر علي حجر كقول حزقيال: "كل بره الذي عمله لا يُذكر" (حز ١٨: ٢٤).

العلامة أوريجينوس

❖ أدان إرميا النبي جهل اليهود وكبرياءهم علانية، موبخًا إياهم هكذا: "كيف تقولون نحن حكماء وشريعة الرب معنا، حقًا إنه إلى الكذب حولها قلم الكتبة الكاذب. خزي الحكماء، ارتاعوا وأُخذوا، ها قد رفضوا كلمة الرب" (إر ٨: ٨-٩). لقد رفضوا كلمة الله بسبب عدم حكمتهم وعدم إدراكهم للكتب المقدسة بالرغم مما تظاهر به الكتبة والفريسيون من تمتعهم بسمعة طيبة إنهم متبحرون في الشريعة. لم يقبلوا ابن الله الوحيد عندما صار جسدًا، ولا أحنوا رقابهم بالطاعة لنصائحه التي قدمها بالإنجيل. بسلوكهم الشرير رذلوا كلمة الله، فصاروا مرذولين بحكم الله العادل. يقول الله بإرميا: "فضة مرفوضة يُدعون، لأن الرب قد رفضهم" (إر ٦: ٣٠). كما قيل: "جزي شعرك واطرحيه، وارفعي على الهضاب مرثاة، لأن الرب قد رفض ورذل جيل رجزة" (إر ٧: ٢٩)... أما ثمر ضلالهم فهو حلول النكبات عليهم، محتملين كل بؤس نتيجة تذمرهم على الرب.

سقوطهم في هذا الأسى ليس حسب إرادة الله الصالحة، إذ يريدهم أن ينالوا الطوباوية بالإيمان والطاعة... فإذ قيل: "**نظر إلى المدينة وبكى عليها**" إنما لنعلم مشاعر حزنه، إن صح هذا القول عن الله الذي هو فوق الكل. فلو لم يعلن حزنه بتصرف بشري لما أمكننا أن نلمس ذلك... هكذا بكى أيضا على لعازر لكي نفهم حزنه علي سقوط طبيعة الإنسان تحت سلطان الموت، "إذ هو خلق كل الأشياء بغير فساد، وبحسد إبليس دخل الموت إلي العالم" (حك ٢: ٢٣-٢٤)... هكذا أيضًا بكى على أورشليم إذ أراد لها الطوباوية – كما قلت – بقبولها الإيمان به وترحيبها بالسلام مع الله. هذا هو ما دعاهم إليه بإشعياء، قائلاً: "لنصنع معه سلامًا" (إش ٢٧: ٥ الترجمة السبعينية)... لنصنع سلامًا مع الله بالإيمان، كما علمنا الحكيم بولس حيث كتب: "فإذ قد تبررنا بالإيمان لنا سلام مع الله بربنا يسوع المسيح" (رو ٥: ١). أما هم فكما قلت أسرعوا نحو التمرد والاستهزاء في عنف بلا ضابط، مستخفين بخلاص المسيح ومقاومين له. لهذا يلومهم المسيح قائلاً لهم: أما تعرفون ما هو لسلامكم؟! أما تعرفون الأمور النافعة والضرورية لصنع سلامكم مع الله؟...

لقد برهن الإسرائيليون حتى قبل التجسد إنهم غير أهل لخلاص المسيح، إذ رذلوا الشركة مع الله وأقاموا لأنفسهم آلهة كاذبة وقتلوا الأنبياء مع أنهم كانوا يحذرونهم من ترك الإله الحيّ، ويوصوهم بالالتزام بوصايا الله المقدسة. ومع هذا لم يستجيبوا، بل أحزنوا الله بطرق كثيرة حتى عندما دعاهم للخلاص.

هذا ما يعلمنا إياه المخلص نفسه، بقوله: "يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا؛ هوذا بيتكم يترك لكم خرابًا" (مت ٢٣: ٣٧-٣٨).

ها أنت تراه كيف يريد حقًا أن يهبهم رحمته، لكنهم رذلوا عونه. لهذا سقطوا تحت دينونة ناموس الله المقدس، ونُزعت عنهم العضوية في رعويته الروحية. قال أحد الأنبياء القديسين للشعب اليهودي: "أقارن أمك بالليل، لأنك أنت رفضت المعرفة أرفضك أنا حتى لا تكهن لي، ولأنك نسيت شريعة إلهك أنسى أنا أيضًا بنيك" (هو ٤: ٦).

انظروا فإنه يقارن أورشليم بالليل، لأن ظلمة الجهل قد حجبت قلب اليهود وأعمت بصيرتهم، لذا سُلموا للخراب والقتل... هكذا سقطت أورشليم المدينة المقدسة الشهيرة تحت كارثة الخراب، كما يظهر من التاريخ، وقد سبق فأكد إشعياء ذلك، إذ صرخ بصوت عالٍ وسط جموع اليهود، قائلاً: "بلادكم خربة، مدنكم محرقة بالنار، أرضكم تأكلها الغرباء قدامكم، وهى خربة كانقلاب الغرباء" (إش ١: ٧).

هذه هي أجرة المجد الباطل الذي لليهود، وعقوبة عصيانهم، والألم الذي حلّ بعدل عليهم بسبب تشامخهم. أما نحن فلنا رجاء القديسين، وكل طوباوية، لأننا نكرم المسيح بالإيمان[1].

القديس كيرلس الكبير

❖ بكى المخلص الرحوم على سقوط المدينة الغاشة، هذه التي لم تكن تعرف ما كان سيحل بها، إذ قيل: "**إنك لو علمتِ أنتِ أيضًا (لكنتِ تبكين)**". ها أنتِ تفرحين الآن لأنك لا تعلمين ما قد أوشك أن يحل بك. يردف قائلاً: "**حتى في يومكِ هذا**" **[٤٢]**، لأنها إذ سلمت نفسها للشهوات الجسدية نالت في يومها ما هو فيه سلامها (الزمني). وقد أوضح ما تقدمه هذه الأمور لها، بقوله: "**ولكن الآن قد أخفى عن عينيك**" **[٤٢]**، فلو أن عيني قلبها لم يُخف عنها ما سيحل بها من شرور مقبلة لما كانت تفرح بالترف الحاضر. ولهذا أضاف في الحال العقوبة التي ستحل بها: "**فإنه ستأتي (عليكِ) أيام**" **[٤٣]**... هنا يشير إلى ما تم بواسطة القيصرين الرومانيين فسبنيان وتيطس من تدميرهما لأورشليم...

لا يكف مخلصنا عن البكاء حتى الآن خلال مختاريه متى رأى إنسانًا يترك الحياة الصالحة ويسلك في الطرق الشريرة!...

حقًا إن النفس الشريرة لها يومها، فإن كانت تفرح في الزمن العابر حيث تجد سلامها في الأمور الزمنية حاسبة أنها تنال بهجتها في الزمنيات، لكنها تتحاشى النظرة المستقبلية التي قد تربك طربها الحاضر[2].

البابا غريغوريوس (الكبير)

٥. تطهير الهيكل

جاء السيد المسيح ليقيم صداقته مع الإنسان، وإذ رفضت أورشليم صداقته عرَّضت نفسها بنفسها للتحطيم الكامل في غباوة، فلم يقف الرب مكتوف الأيدي، إنما قدم عملين: قام بتطهير الهيكل من الباعة والمشترين [٤٥-٤٦]، كما قام بالتعليم فيه كل يوم [٤٧-٤٨]. إن كان العمل الأول سلبيًا فيه طرد الشر، فالثاني إيجابي فيه أعلن الرب صداقته لسامعيه.

"**ولما دخل الهيكل ابتدأ يخرج الذين يبيعون ويشترون فيه.**

قائلاً لهم: مكتوب أن بيتي بيت الصلاة،

---

[1] *Hom 131.*
[2] *In Evang. Hom 39.*

وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" [٤٥-٤٦].

لقد سبق لنا الحديث بتوسع عن تطهير الهيكل في تفسيرنا مت ٢١: ١٢-١٣؛ مر ١١: ١٥-١٧.

❖ إذ روى الشرور التي ستحل بالمدينة في الحال دخل الهيكل ليطرد الذين كانوا يبيعون ويشترون فيه، مظهرًا أن دمار الشعب يحل بصورة رئيسية بسبب خطايا الكهنة... الذين كانوا يجلسون في الهيكل يتقبلون المال بلا شك كانوا يمارسون ضغوطًا تضر الذين لا يقدمون شيئًا[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ الله لا يريد أن يكون هيكله موضع تلاقٍ للباعة، بل مسكنًا للقداسة، مؤكدًا أن خدمة الكهنوت لا تتم خلال التجارة بالدين بل بالبذل الإرادي مجانًا[2].

القديس أمبروسيوس

يرى **القديس كيرلس الكبير** في تعليقاته على إنجيل لوقا[3] أن طرد الباعة يحمل عملاً رمزيًا، فقد جاء المسيح فصحنا ليُبذل، لذا كان يجب إبطال الذبيحة الدموية فلا حاجة لحيوانات أو طيور تُذبح... ويرى **العلامة أوريجينوس** أن البيع والشراء هنا يرمزان لتحويل الخدمة الروحية إلى عمل تجاري، خاصة بيع الحمام إذ يشير إلى بيع مواهب الروح القدس.

لماذا قال السيد عن الهيكل: "**أنتم جعلتموه مغارة لصوص**"؟ لأن اللص لا يبالي بمن حوله بل ينهب ويقتل، هكذا تحول قادة اليهود عن رسالتهم فعوض تقديم كلمة الحق واهبة الحياة صاروا يستغلون مراكزهم في الاتجار، يقتلون إخوتهم روحيًا خلال العثرة، ويقتلون الإيمان بتصرفاتهم. إن كان الإيمان بالنسبة للهيكل يمثل النفس بالنسبة للجسد فتصرفات القادة تطرد الإيمان خارجًا ليبقى الهيكل قتيلاً. هذا هو عمل اللصوصية بمفهومه الروحي.

٦. تعليمه في الهيكل

"**وكان يعلم كل يوم في الهيكل،**

وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه.

ولم يجدوا ما يفعلون،

---

[1] *In Evang. Hom 39.*

[2] *In Luc 19:45,46.*

[3] *Hom 131.*

لأن الشعب كله كان متعلقًا به يسمع منه" [٤٧-٤٨].

❖ لم يبطل مخلصنا كلمة الكرازة حتى بالنسبة لغير المستحقين والجاحدين.

البابا غريغوريوس (الكبير)

لقد تعلق كل الشعب في بساطته بالسيد المسيح بينما حُرم أصحاب المعرفة – رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب – أنفسهم من نعمة السيد المسيح وعطاياه السماوية. دخل البسطاء في الصداقة الإلهية، وفقد حكماء هذا العالم هذه العطية الإلهية. وكما يقول **القديس كيرلس الكبير** أليس هذا يزيد من عقوبتهم؟! فقد صار الذين يليق بهم أن يكرزوا عائقين للعمل.

الأصحاح العشرون

مقاومو الصداقة الإلـهيَّة

في الأصحاح السابق تقدم رب المجد يسوع إلى أورشليم ليقدم حياته المبذولة ثمنًا لصداقتنا معه، هذه الصداقة التي كلفته كل هذا الثمن قبلها البسطاء وتجاوبوا معها، أما القادة مدَّعو الحكمة فقاوموا السيد بكل وسيلة. تارة قاوموه في تعليمه مشككين في سلطانه، وأخرى باتهامه كمثيرٍ للشعب ضد السلطات ومحرض علي عدم دفع الجزية الخ. هذه المقاومة في حقيقتها إخفاء لرعايتهم لأنفسهم عوض رعاية الشعب، واهتمامهم بمصالحهم الخاصة عوض المصلحة العامة. وكما سبق فأعلن حزقيال النبي على لسان الرب: "ويل لرعاة إسرائيل الذين كانوا يرعون أنفسهم، ألا يرعى الرعاة الغنم؟ تأكلون الشحم وتلبسون الصوف وتذبحون السمين ولا ترعون الغنم، المريض لم تقووه، والمجروح لم تعصبوه، والمكسور لم تجبروه، والمطرود لم تستردوه، والضال لم تطلبوه، بل بشدة وعنف تسلطتم عليهم... هاأنذا أسأل عن غنمي وأفتقدها... أنا أرعى غنمي وأربضها يقول السيد الرب، وأطلب الضال، وأسترد المطرود، وأجبر الكسير، وأعصب الجريح، وأبيد السمين القوي وأرعاها بعدل" (حز ٣٤: ٢-١٦).

هكذا يكشف الرب للرعاة عن فشلهم التام في رعايتهم لغنمه العاقل ليتسلم بنفسه رعاية شعبه، معلنًا محبته العملية الباذلة على الصليب. هذا الخط يظهر واضحًا في الأناجيل الأربعة في الفترة ما بين دخول السيد المسيح أورشليم حتى صلبه، وفي قراءات أسبوع الآلام، حيث يكشف روح الله عن فشل الرعاية اليهودية الجاحدة وعجزها، ليتسلم الرب بنفسه رعاية شعبه خلال الصليب.

١. مقاومة تعليمه بإنكار سلطانه ١-٨.

٢. مقاومة الكرّام (مثل الكرامين) ٩-١٩.

٣. سؤال بخصوص الجزية ٢٠-٢٦.

٤. سؤال بخصوص القيامة ٢٧-٤٠.

٥. ابن داود وربه ٤١-٤٤.

٦. تحذير من الكتبة المرائين ٤٥-٤٧.

١. مقاومة تعليمه بإنكار سلطانه

قلنا أن السيد المسيح جاء يقدم صداقته للبشرية لا خلال المشاعر المجردة، إنما خلال رفع الإنسان إلى شبهه وتمتعه بحياته فيه، لذا قام بطرد الباعة وتطهير الهيكل ثم وقف يعلم. فصار يجتذب النفوس إليه بالحب الحقّ في حياة مقدسة.

أمام هذا المنظر وقف المقاومون من رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ مبهورين، فقد جذب الشعب بسلطان مع أنه ليس من سبط هرون وليس له دور رسمي في الهيكل، فصاروا يسألونه عن سرّ سلطانه، لا كاستفسار، وإنما بدافع الحسد والتخوف على مراكزهم. هذا ما قاله الإنجيلي هكذا:

"**وفي أحد تلك الأيام إذ كان يعلم الشعب في الهيكل ويبشر،**

وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ.

وكلموه، قائلين: قل لنا بأي سلطان تفعل هذا؟

أو من هو الذي أعطاك هذا السلطان؟

فأجاب وقال لهم: وأنا أيضًا أسألكم كلمة واحدة، فقولوا لي:

معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس؟

فتآمروا فيما بينهم قائلين: إن قلنا من السماء، يقول فلماذا لم تؤمنوا به؟

وإن قلنا من الناس فجميع الشعب يرجموننا، لأنهم واثقون بأن يوحنا نبي.

فأجابوا إنهم لا يعلمون من أين.

فقال لهم يسوع: ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا" [١-٨].

لقد سبق لنا الحديث عن هذا الحوار بين قادة اليهود والسيد المسيح في تفسيريّ إنجيل متى ٢١: ٢٣-٢٧ وإنجيل مرقس ١١: ٢٧-٣٣.

وإنني أكتفي هنا بعرض النقاط التالية:

أولاً: يقول **القديس أغسطينوس** إن الإنجيلي لوقا لم يذكر ذهاب السيد المسيح إلى بيت عنيا بعد تطهيره للهيكل وعودته منها، وتصرفه بالنسبة لشجرة التين العقيمة وحديثه مع تلاميذه الذين دهشوا إذ رأوا التينة قد يبست، إنما يتحدث عن هذا الحوار بين السيد المسيح وهؤلاء القادة.

ثانيًا: قدم رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ سؤالين لا للاستفسار رغبة في المعرفة وإنما للإثارة رغبة في التحطيم، إذ قالوا: "**قل لنا بأي سلطان تفعل هذا؟**" وكانوا يقصدون بهذا أنه ليس من سبط لاوي، ولا ينتمي إلى أية جماعة قيادية لها حق التعليم، فكيف يتجاسر ويعلم هكذا في الهيكل؟ وكان يمكن للسيد أن يجيبهم من كتب الشريعة عينها التي يحسبونه كاسرًا لها بتعليمه وهو من سبط يهوذا

لا سبط لاوي، وأيضًا من كتب الأنبياء. ففي كتب الشريعة (الأسفار الخمسة)، يوضح أن لاوي وهو في صلب أبيه إبراهيم انحنى لملكي صادق – الذي هو مجرد رمز للسيد المسيح – يقدم له العشور، أفلا يليق بالمرموز إليه أن يعلم أولاد إبراهيم؟ وكان يمكن أن يستعرض نبوات بلا حصر عن صدق رسالته وتأكيد أنه المسيا.

لو أن هؤلاء القادة جاءوا يستفسرون طالبين الحق لما بخل عليهم السيد بالكشف عن نفسه من كتبهم، لكنه يعلم أنهم جاءوا للمناقشات الغبية غير المجدية بقصد الانشغال بعيدًا عن الخدمة الجوهرية، لذا لم يجبهم عن أسئلتهم إلا بسؤال يفحمهم. الخادم الذي يحمل روح سيده لا يدخل في مناقشات غبية تفسد ذهنه وتسحب وقته عن العمل الرئيسي الجاد لخلاص إخوته، إنما يفعل كما صنع نحميا حينما جاءه الأعداء يطلبون معه الحوار، فأجابهم بأن اليوم هو يوم عمل (نح ٦: ٣ ،٩).

أما السؤال الثاني فهو: "من هو الذي أعطاك هذا السلطان؟" فقد سبقوا فاتهموه أنه ببعلزبول يخرج الشياطين، لذا أرادوا تشكيك الشعب فيه أنه في تعليمه لا يستمد السلطان من الله بل من الشيطان. وهنا أيضًا أفحمهم بسؤالهم عن معمودية يوحنا. فقد أعلن يوحنا بعماده عن سرّ سلطان السيد المسيح حين شهد الآب علانية عن المسيا لحظات عماده في الأردن.

٢. مقاومة الكرام (مَثَل الكرامين الأشرار)

في حوارهم أرادوا اتهام السيد المسيح أن تعليمه لا يقوم على أساس ناموس شرعي إذ هو ليس بكاهنٍ أو معلمٍ رسميٍ، وأن مصدر سلطانه مشكوك فيه، فسألهم السيد عن معمودية يوحنا ليفحمهم. الآن إذ يقدم مثل الكرامين الأشرار الذين أرادوا اغتصاب الكرم من صاحبه، فضح هؤلاء المعلمين بطريقة رمزية أدركوها حتى أرادوا قتله لولا خوفهم من الشعب. لقد أظهر لهم أنه ليس هو المتعدي على السلطان الإلهي بل هو الابن الوارث الذي يقاومه الكرامون الذين أقامهم الله في كرمه للعمل، فأرادوا اغتصاب الكرم لحسابهم الذاتي.

لقد سبق لنا دراسة هذا المثل في دراستنا لإنجيل متى ٢١: ٣٣ الخ. ولإنجيل مرقس ١٢: ١-١٢، لذا أكتفي هنا بإبراز النقاط التالية:

أولاً: "أبرز السيد المسيح تكريمه للإنسان من جانبين رئيسيين، الجانب الأول أنه شبّه الله – صاحب الكرم– بإنسان، مكرمًا إيانا بهذا التشبيه، أما من الجانب الآخر فهو حديثه عن تسليم الكرم لكرامين وسفره إلى بلد بعيد. الله لم يترك كرمه وينطلق إلى بلد بعيد مكانيًا لأنه حآل في كل موضع

فكم بالأكثر في كرمه، ولا رعويًا فإن عنايته قائمة بلا انقطاع، إنما قوله إنه مسافر إلى بلد بعيد إنما تعبير عن تقديسه للحرية الإنسانية، فقد سلم الكرم للكرامين، واهبًا إياهم كمال الحرية للتصرف كمن قد تركهم وانطلق بعيدًا لا لكي لا يسندهم،وإنما لا يلزمهم بسلوك معين في الرعاية. إنه لا يضغط على الرعاة ليسلكوا في رعايتهم لاإراديًا.

ثانيًا: ما هو الثمر الذي يطلبه صاحب الكرم من كراميه؟ يجيب **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [ماذا يربح الله منا إلا معرفته التي هي لنفعنا نحن.]

ثالثًا: من هم هؤلاء العبيد الثلاثة الذين سبقوا الوارث، الذين اضطهدوا الكرامين عوض تقديم الثمار لحساب صاحب الكرم؟

- **العبد الأول** الذي أرسله الرب ليجمع لحسابه هو الناموس الطبيعي الذي وهبه الله للبشرية حتى قبل الناموس الموسوي، وقد كسر الإنسان هذا الناموس الطبيعي، الأمر الذي وضح بقوة في قتل هابيل، فقدم قايين رائحة الحسد الملطخة بدم برئ عوض الحب الأخوي، وقد عاش رجال الإيمان قبل الناموس تحت ضيقات كثيرة من قِبل الأشرار.

- **العبد الثاني** الذي بعث به الرب هو الناموس الموسوي على يدي موسى، ومع هذا فقد عانى موسى الأمرين من قبل اليهود بتذمرهم غير المنقطع. كما عاش الناموس الموسوي مُضطهدًا من كل القيادات اليهودية بتحويله من الروح إلى الحرف القاتل. فإن كان قادة اليهود قد ظهروا كغيورين على الشريعة ومحافظين عليها، إنما في المظهر الخارجي البرّاق، أما بحياتهم وسلوكهم فقد قتلوها وأفسدوا غايتها ورسالتها بتعليمهم الحرفي.

- **العبد الثالث** الذي قدمه صاحب الكرم هو النبوة، فقد بُعث مجموعة من الأنبياء يحثوا الشعب على التوبة ويعلنوا عن مجيء المسيا المخلص، وكان نصيب الأنبياء الضيق والاضطهاد والقتل.

يمكننا أن نقول بأن السيد المسيح وهو يحدث اليهود خاصة قادتهم، فإن هؤلاء الحاضرين أنفسهم مسئولون عن قتل هؤلاء العبيد الثلاثة. فالقادة الحاضرون في عصر السيد المسيح كانوا يعملون ضد الناموس الطبيعي، كما ضد الناموس الموسوي، وأيضًا ضد النبوة. فمن جهة حياتهم وسلوكهم لم يراعوا حتى الناموس الطبيعي نفسه، ومن جهة تعليمهم قتلوا الناموس الموسوي بتطبيقه بطريقة حرفية جامدة فتمسكوا بالظل والرمز دون الاهتمام بالحق والمرموز إليه، ومن جهة النبوات رفضوها لأنهم رفضوا المخلص غاية الناموس وموضوع النبوات.

رابعًا: ربما يستصعب البعض دعوة السيد المسيح نفسه بالوارث، فهل مات الآب ليرثه الابن؟ حاشا، إنما تقدم الوارث لا ليسحب من الأب ماله، إذ ما هو للآب فهو للابن، لكنه دعي نفسه وارثًا بكونه قد ترك مجده بإرادته مخليًا ذاته ليكون ممثلاً لنا ونائبًا عنا، حتى متى مات السيد المسيح بالجسد وقام نال باسمنا ماله كميراثٍ لنا بشركتنا معه في المجد. لقد حمل هذا اللقب "**وارثًا**" كرأس للكنيسة لكي ترث باسم رأسها ومعه وفيه ما هو له. لذلك يقول **القديس أمبروسيوس:** [المسيح هو وارث وفي نفس الوقت وصي.]

خامسًا: يمكننا أن نفهم من العبارة التالية: "**فلما رآه الكرامون، تآمروا فيما بينهم قائلين: هذا هو الوارث، هلموا نقتله لكي يصير لنا الميراث" [١٤]**. أراد السيد المسيح أن يوضح لهم أن ما يرتكبوه ضده لا يتم عن عدم معرفةٍ، وإنما عن حسدٍ. إنهم خلال الناموس والأنبياء يدركون أنه المسيا، لكنه ليس حسب أهوائهم، لذا قتلوه عمدًا على الصليب.

سادسًا: يُفهم من العبارة: "**فأخرجوه خارج الكرم وقتلوه" [١٥]**، من الجانب الحرفي أنه صُلب على جبل الجلجثة خارج أورشليم، كما يمكن أيضًا أن يُفهم بأن اليهود – وهو كرم الرب – سلموا الوارث لبيلاطس والجند الرومان ليقتلوه، سلموه خارج الكرم! ويمكننا أيضًا أن نفهم أن إخراجه خارج الكرم لقتله يعني رفضه. أخرجه الجاحدون الأشرار خارج قلوبهم، كرم الرب الداخلي، فقدموا له الآلام عوض الحب! بهذا يمكننا أن نفهم عبارة الرسول بولس: "فلنخرج إذًا إليه خارج المحلة حاملين عاره" (عب ١٣: ١٣) بمعنى أننا إذ صرنا أتباع المصلوب، نُرفض نحن أيضًا من العالم، فلا يكون لنا موضع في القلوب. فنُطرد خارج قلوبهم ونُسلم لبغضتهم حاملين كل تعييراتهم ومتاعبهم من نحونا. بمعنى آخر لا ينتظر المؤمن وهو يقدم كل الحب للعالم أن يرد له العالم الحب بالحب، وإنما يرد له محبته بالطرد خارجًا ليحمل مع فاديه صليبه ويقبل عاره!

سابعًا: جاء سؤال السيد المسيح لهم: "**فماذا يفعل بهم صاحب الكرم؟!**" [١٥]، لا لينتظر الإجابة فيبرر ما سيحل بها من هلاك وانتزاعهم من العمل الرعوي، فقد كانت الإجابة واضحة تمامًا ولا تحتاج إلى نقاش: "**يأتي ويهلك هؤلاء الكرامين ويعطي الكرم لآخرين" [١٦]**، إنما قال **القديس باسيليوس الكبير** أنه أراد لهم مراجعتهم لأنفسهم وتوبتهم. كأن السيد المسيح حتى اللحظات الأخيرة قبل صلبه أراد من القيادات اليهودية مراجعتها لحساباتها الروحية، مشتاقًا إلى توبة الكل ورجوعهم إلى الحق.

أما قوله "**يأتي**"، هنا فيشير بالأكثر إلى حلول الروح القدس على الكنيسة، إذ حّل عليها ليشكلها

من جديد تحت قيادة تلاميذ الرب ورسله عوض الكرامين القدامى.

وكأن هذا المثل يقدم ملخصًا رمزيًا لعمل الله الخلاصي وتدبيره ورعايته للإنسان غير المنقطعة، فتحدث عن عطية الناموس الطبيعي، والناموس الموسوي، والأنبياء (الثلاثة عبيد الذين أرسلهم صاحب الكرم) ثم تحدث عن التجسد الإلهي (مجيء الوارث) وصلبه خارج المحلة، وطرده للكرامين القدامى، وإقامة كرامين جدد يعمل الروح القدس فيهم.

ثامنًا: إذ تحدث عن رفض الوارث وقتله خارج المحلة عاد ليعلن أنه الحجر المرفوض هو حجر الزاوية، إذ يقول: "**الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية، كل من يسقط على ذلك الحجر يترضض، ومن سقط هو عليه يسحقه**" **[١٧-١٨]**. ويلاحظ في هذا التشبيه الآتي:

أ. أنه مقتبس من العهد القديم (مز ١١٨: ٢٢) وقد تحقق الآن. فما يرتكبه هؤلاء القادة الأشرار الذين كان يلزمهم إقامة البناء الروحي على شخص المسيا – حجر الزاوية – إنما سبق فرآه المرتل وأعلنه. وكأن السيد المسيح يقول لهم ما تفعلونه الآن إنما سبق فأعلنه أنبياؤكم بحزن ومرارة.

ب. لُقب السيد المسيح "حجرًا" علامة التجسد الإلهي، والإخلاء، فقد قبل طبيعتنا الترابية، لم يأتِ كملك عظيم مجيد وإنما كإنسان أخلى ذاته فصار حجرًا مرذولاً من البنائين. هذا الحجر سبق فأعلن عنه دانيال النبي (٢: ٣٤) أنه ليس مقطوع بالأيدي، حجر صغير يصير جبلاً يملأ كل المسكونة.

ج. هذا الحجر المرذول الذي يُطرح خارج المحلة، يصير حجر الزاوية الذي تقوم عليه الكنيسة التي تضم أعضاء من اليهود وأعضاء من الأمم، يجتمعون معًا ويتحدون كما على حجر الزاوية.

تاسعًا: يرى **القديس أغسطينوس** أن الذين يسقطون عليه فيترضضون هم الذين رفضوه حين جاء مخليًا ذاته كمن هو آخر الكل، فيسقط هؤلاء الجاحدون على ذاك الحجر المتواضع كمن هو على الأرض. أما الذين يسقط عليهم فيسحقهم فيشيرون إلى الذين ماتوا في شرهم بلا توبة فيأتي رب المجد كما على السحاب من فوق يسقط عليهم، إذ يقول: [يسقطون هم عليه بكونه نزل متواضعًا، أما لكونه هو العالي فسيسقط عليهم ويسحقهم عند مجيئه في مجده، هؤلاء الذين سبق فرفضهم في إتضاعه[١].]

٣. سؤاله بخصوص الجزية

[1] *In Ioan tr 4:4.*

حاول القادة تشكيك الجمع من جهة سلطان السيد المسيح، فسألهم السيد عن معمودية يوحنا المعمدان إن كانت من السماء أم من الأرض، فارتبكوا وتحيروا ليظهروا أمام الشعب غير مدركين الحق. جاء مثل الكرامين يحثهم علي التوبة حتى ولا ينزع الكرم منهم لكنهم عوض التوبة أرادوا أن يلقوا الأيادي عليه في تلك الساعة ولكنهم خافوا الشعب [١٩]. الآن صاروا يراقبونه ليصطادوه بكلمة، وبخداع سألوه بخصوص دفع الجزية، لا ليعرفوا رأيه، وإنما لكي إذا ما نادى بدفع الجزية حُسب في أعين الشعب مجاملاً للسلطات الرومانية المستعمرة، فيفقدوا ثقتهم فيه كمخلص من الحكم الروماني، وإن نادى بعدم دفعها اشتكوا عليه لدى السلطات كمثير فتنة بين الجماهير.

يقول الإنجيلي: "فشعر بمكرهم،

وقال لهم: لماذا تجربونني؟

أروني دينارًا! لمن الصورة والكتابة؟ فأجابوا وقالوا: لقيصر.

فقال لهم أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله.

فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب،

وتعجبوا من جوابه وسكتوا" [٢٣-٢٦].

في تقديم فكر الآباء لمثل هذا النص في إنجيليّ متى ومرقس قلنا أن السيد المسيح هنا يقدم للإنسان مبدأ وطنيًا هامًا. فلكي يتمجد الله فيه يلزمه أن يقدم ما لقيصر لقيصر، يعطي للدولة حقها عليه، بل ويلتزم بإعطاء كل من يتعامل معهم حقوقهم المادية والمعنوية والاجتماعية. عبادتنا لله لا تكون على حساب الآخرين، بل حبنا وخضوعنا وعطاؤنا للغير هو جزء لا يتجزأ من حياتنا الروحية، يتكامل مع عبادتنا لله. نعطي الآخرين، ليس خوفًا منهم، ولا مداهنة لهم، ولكن شهادة حق داخلي لأمانتنا وحبنا للرب نفسه.

لنعطِ أيضًا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، بمعنى أننا نقدم للجسد ما له من التزام نحونا وما للروح للروح. فحياتنا الروحية ليست تحطيمًا لجسدنا (قيصر) وإنما هي تقديس له.

أيضًا يرى بعض الآباء مثل **العلامة أوريجينوس** أن قيصر هنا يشير إلى العالم أو عدو الخير، فإن تركنا في القلب محبة العالم يجد العالم فينا حقًا له فيغتصبنا، وهكذا إن كان لإبليس موضع فينا يقتحمنا. لذا يليق بنا ألا يجد قيصر العالم له شيء في قلبنا فلا يسحبنا إليه، بهذا نتمثل بربنا يسوع المسيح القائل إن رئيس هذا العالم آت وليس له فيه شيء! ليأتِ رئيس هذا العالم وليعمل العدو الشرير بكل طاقاته ضدنا، فإنه لا يجد في داخلنا شيئًا لحسابه فيهرب مغلوبًا منا!

سيأتي يوم الرب العظيم فيتقدم الله يأخذ من هم له، ويأخذ عدو الخير أيضًا من هم له. لنكن لله

لا لإبليس، فيقتنينا الله أبناءً لملكوته. على حدّ تعبير كثير من الآباء نحن "عملة الله" أو "ديناره" قد نقُشت صورته علينا، فإن كانت صورته قد فُقدت فينا يلزمنا أن نغتسل بمياه المعمودية لتظهر صورته على عملته من جديد، ونبقى محتفظين بهذه الصورة الإلهية فينا خلال التوبة المستمرة حتى متى جاء الرب وجدنا ديناره الحامل صورته.

❖ في كل موضع نحن أكثر استعدادًا من الناس في دفع الضريبة المفروضة علينا، سواء العادية (السنوية) أو الطارئة... نحن نرد العبادة لله، أما الأمور الأخرى فنقدمها بسرور، نخدمكم ونتعرف عليكم كملوك وولاة على الناس، ونصلي لأجل سلطانكم الملوكي لكي يكون حكمكم عادلاً[1].

القديس يوستين الشهيد

❖ لترجع صورة قيصر التي على العملة لقيصر، وصورة الله التي على الإنسان (تك ١: ٢٦، ٢٧؛ ٩: ٦؛ ١ كو ١١: ٧) ترجع لله. هكذا بالحق يُرد المال لقيصر وأما نفوسكم فلله[2].

العلامة ترتليان

❖ لنتبع كلام المخلص لا كمعنى أدبي صرف وبسيط "**أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله**"، أي ادفعوا الضريبة التي عليكم، لكن من منا يعترض على دفع الضريبة الخاصة بقيصر؟! إذن هذه العبارة تحوي أسرارًا ومعنى خفيًا.

للإنسان صورتان، صورة قبلها من الله وقت الخليقة كما جاء في التكوين: "على صورة الله خلقه" (تك ١: ٢٧)، والثانية أي صورة الإنسان الترابي (الأرضي) (١ كو ١٥: ٤٩)، أخذها خلال عصيانه وخطيته عندما طرد من الفردوس إذ أغواه رئيس هذا العالم (يو ١٢: ٣١).

كما أن العملة تحمل صورة سلطان هذا العالم، هكذا الذي يكمل أعمال ملك الظلمة (أف ٦: ١٢) يحمل صورته عليها.

يأمرنا يسوع أن نرد هذه الصورة وننتزعها لكي نحمل الأصل الذي خُلقنا عليه، فنكون مشابهين لله. بهذا نرد ما لقيصر لقيصر وما لله لله...

بنفس المعنى يقول بولس: "كما لبسنا صورة الترابي، سنلبس أيضا صورة السماوي" (١ كو ١٥: ٤٩). فالقول: "أعطوا ما لقيصر لقيصر" إنما يعني: "اتركوا صورة الإنسان الأرضي". القوا الصورة

[1] *Apology 1:17.*
[2] *In Idolat. 15.*

الأرضية لتتالوا صورة السماوي وبهذا تعطوا ما لله لله[1].

العلامة أوريجينوس

هذا وقد قدم لنا **القديس ساويرس الأنطاكي** مقالاً مطولاً ورائعًا تحت عنوان "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، قام الشماس يوسف حبيب بترجمته ونشره ونرجو الرجوع إليه. وقد أبرز القديس أن الفريق الذي جاء للسيد المسيح يحمل اتجاهين متناقضين. الأول يمثله تلاميذ الفريسيين والثاني يمثله الهيرودسيون (مت ٢٢: ١٦)، يسألونه إن كانوا يدفعون الجزية للحاكم الروماني أم يمتنعون.

يقول **القديس ساويرس الأنطاكي** أن الفريسيين كانوا يحرضون الشعب علي عدم دفع الجزية، حاسبين أنه ليس لهم ملك إلا الله وحده، وأن من يدفع الجزية يكون مقاومًا للناموس ومستبدلاً الله بقيصر غريب الجنس، معتمدين على التفسير الحرفي لبعض العبارات الكتابية مثل:

"إن قسم الرب هو شعبه، يعقوب حبل نصيبه" (تث ٣٢: ٩)

"فإنك تجعل عليك ملكًا الذي يختاره الرب إلهك؛ من وسط إخوتك تجعل عليك ملكًا، لا يحل لك أن تجعل عليك رجلاً أجنبيًا ليس هو أخاك" (تث ١٧: ١٥).

"فإن الرب قاضينا، الرب شارعنا، الرب ملكنا هو يخلصنا" (إش ٣٣: ٢٢). وكما يذكر سفر الأعمال أن "يهوذا الجليلي" (أع ٥: ٣٧) جمع شعبًا غفيرًا ورائه يقودهم للثورة علي قيصر ورفض دفع الجزية له... وكان يهوذا هذا فريسيًا.

وعلى العكس كان الهيرودسيون ينصحون إخوتهم اليهود أن يبقوا في خضوع للرومان وأن يدفعوا الجزية المفروضة عليهم من أجل تمتعهم بالهدوء والسلام.

٤. سؤاله بخصوص القيامة

في مثل الكرامين قال السيد المسيح عن الكرامين "**تآمروا فيما بينهم**" [١٤]. فإن كان الكرامون الأشرار منشقين على أنفسهم، لكنهم يجتمعون معًا بروح المقاومة للسيد المسيح والتآمر ضده. الآن إذ فشل رؤساء الكهنة والكتبة في مؤامراتهم ضد السيد حين حاولوا تشويه سلطانه في التعليم [١-٨]، وقام بعض الفريسيين وغالبًا معهم بعضًا من الهيرودسيين (مت ٢٢: ١٥-١٦). يسألونه عن الجزية وقد فشلوا، قام قوم من الصدوقيين يجربونه في أمر القيامة من الأموات. وكان هؤلاء لا يؤمنون بقيامة الجسد بل ويظنون أن النفس تموت مع الجسد فلا تقوم.

قدموا له مَثَل امرأة تزوجت ولم تنجب وبعد موت رجلها أخذت الثاني فالثالث حتى السابع ومات

---

[1] *In Luc hom 39:4.*

الكل ولم تتجب، "**ففي القيامة لمن منهم تكون زوجة؟ لأنها كانت زوجة للسبعة**" **[٣٣]**.

جاءت إجابة السيد المسيح "**أبناء هذا الدهر يُزوجون ويُزوجُّون. ولكن الذين حُسبوا أهلاً للحصول على ذلك الدهر والقيامة من الأموات لا يزوجون ولا يزوجَّون. إذ لا يستطيعون أن يموتوا أيضًا لأنهم مثل الملائكة وهم أبناء الله إذ هم أبناء القيامة. وأما أن الموتى يقومون فقد دّل عليه موسى أيضًا في أمر العليقة كما يقول: الرب إله إبراهيم وإله اسحق وإله يعقوب. وليس هو إله أموات بل إله أحياء، لأن الجميع عنده أحياء**" **[٣٤-٣٨]**.

سبق لنا تقديم تفسير آبائي لهذه العبارات في تفسير مت ٢٢: ٢٣-٣٣، مر ١٢: ١٨-٢٧، لذا أكتفي بالملاحظات التالية:

أولاً: أخطأ الصدوقيون الفهم فقد ظنوا الحياة الأبدية بفكر مادي، كل له زوجته وأولاده وحياته الجسدية المادية. لذا صحح الرب مفاهيمهم معلنًا أننا في الأبدية نعيش علي مستوى ملائكي، لا تحتاج أجسادنا إلي شبع مادي بصورة أو بأخرى، إذ تحمل طبيعة جديدة تليق بالسماء، فلا تأكل ولا تشرب ولا تمارس علاقات زوجية! كشف أيضا رب المجد أحد جوانب غاية الزواج ألا وهو الإنجاب، ففي هذا العالم توجد حاجة للزواج من أجل بقاء الجنس البشري، لكن في السماء إذ لا يوجد موت، فلا حاجة للإنجاب!

ثانيًا: يرى **القديس أمبروسيوس** أن المرأة التي تزوجت سبعة رجال ولم تنجب حتى ماتت هي المجمع اليهودي الذي التحم بالشريعة والنبوات وقُدمت له كل الإمكانيات للإثمار ولم ينجب بسبب فهمه الحرفي لكلمة الله، لذا نال العطايا الإلهية دون أن ينتفع بها بل سقط تحت الموت.

يمكننا أيضًا أن نفهم المرأة التي تزوجت بالرجال السبعة ولم تنجب حتى ماتت أنها تشير إلى الإنسان الذي ارتبط بالزمن والزمنيات أو بمحبة العالم الذي يُرمز له برقم ٧ إشارة إلى أيام الأسبوع السبعة. فإنه لا يستطيع أن ينجب ثمر الروح ويحيا ما لم يتخطى الرجال السبعة ويقبل الثامن الذي يشير إلى "الأبدية"، أو ما فوق الزمن بالمعمودية نقبل الختان الروحي الذي كان يُمارس جسديًا في اليوم الثامن. فنُدفن مع المسيح ونقوم معه في جدة الحياة (رو ٦: ٤). هذا هو الرجل الثامن: الارتباط بالمسيّا القائم من الأموات في أول الأسبوع أو اليوم الثامن من الأسبوع السابق، بحياته ننعم بالحياة المقامة ونحمل ثمار روحه القدوس فينا فلا يحطمنا الموت ولا يمسك بنا القبر، بل بقوة ننشد مع الرسول بولس: "ابتُلع الموت إلى غلبة. أين شوكتك يا موت؟! أين غلبتك يا هاوية؟! أما شوكة الموت فهي الخطية" (١ كو ١٥: ٥٤-٥٦).

ثالثًا: يقارن رب المجد بين أبناء هذا الدهر وبين الحياة في الدهر الآتي، معلنًا أنه في هذا الدهر نرتبط بأعمال جسدية مؤقتة مثل الزواج، أما في الدهر الآتي فتبطل هذه الأعمال الجسدية لتمارس حياة علي مستوى ملائكي. هذه المقارنة ألهبت قلوب الكثيرين للتدريب علي عربون الحياة الأبدية بالروح القدس وهم بعد في الجسد مثل العفة والنسك بفكرٍ روحيٍ سليمٍ؛ ففي رفضهم للزواج مثلاً أو نسكهم في الطعام لا ينظرون إلى هذه الأمور كأشياء دنسة أو محرمة، وإنما كأمورٍ زمنية تنتهي يليق بنا ضبطها ما استطعنا.

❖ ليته لا يعجب غير المؤمنين من أن الله سينزع أعمال أعضائنا الجسدية في الدهر الآتي، فإنها تبطل حتى في هذا الدهر[١].

الشهيد يوستين

❖ (في حديثه للعذارى المتبتلات)

لقد بدأتن فعلاً فيما ستكونون عليه!

لقد ملكتن فعلاً في هذا العالم مجد القيامة!

لقد عبرتن هذا العالم... إذ استمررتن طاهرات وعذارى، وصرتن علي قدم المساواة مع ملائكة الله[٢].

الشهيد كبريانوس

❖ آمن أنك وإن مت فستحيا، فإن لم تؤمن بذلك فإنك وإن عشت تموت[٣].

القديس أغسطينوس

رابعًا: إننا إذ نفكر في القيامة يلزمنا أن نترجى حياة سماوية فائقة، خلالها ننعم بصحبة السمائيين وننعم برؤية الله وجها لوجه مثلهم.

❖ عندما نصير مساويين لملائكة الله سنراه وجهًا لوجه كما يرون هم، ويكون لنا سلام عظيم نحوهم كما هم نحونا، فسنحبهم كما هم يحبوننا.

❖ إننا نتطلع إلى ما وعد به برجاء، أننا نصير مساوين لملائكة الله، ونجتمع معهم، وننعم برؤية

---

[1] *On Resurr, 3.*
[2] *On the Dress of Virgins 22.*
[3] *In Ioan 49:15.*

الثالوث القدوس أما الآن فنحن نسير بالإيمان[1].

القديس أغسطينوس

❖ [في تعزيته لأوستخيوم لنياحة والدتها باولا *Paula* يقول:]

لا نحزن لأننا خسرناها، بل بالحري نشكر الله أنها كانت لنا ولا تزال لنا، لأن الكل أحياء لله، والذين يرجعون إلى الرب لا يزالوا يُحسبون أعضاء عائلته.

لقد خسرناهم، هذا حق، لكن المساكن السماوية قد ربحتها. فإنها إذ كانت في الجسد كانت متغربة عن الرب (٢ كو ٥: ٦)، كانت تشكو بدموع: "ويل لغربتي في ماشك، لسكني في خيام قيدار، طال على نفسي رحلتها" (راجع مز ١٢٠: ٥-٦)[2].

القديس جيروم

يرى **العلامة ترتليان**[3] في حديث الرب هنا عن عدم الزواج في الدهر الآتي لا يعني أن الإنسان يفقد كيانه كإنسان أو يخسر جسده، فكما يُسمح للملائكة أن تظهر على شكل بشر دون أن يفقدوا طبيعتهم الملائكية هكذا نصير نحن كملائكة الله دون فقدان لجسدنا البشري، وإنما لا تكون له متطلبات زمنية، بل يحمل طبيعة جديدة تليق بالحياة السماوية.

هذا أيضًا ما أكده **القديس أغسطينوس** بقوله: [كل المؤمنين الذين تعينوا أن يملكوا مع المسيح سيقومون بنفس الجسد بطريقة بها يُحسبون أهلاً أن يتغيروا إلي عدم الفساد الملائكي. إذ يصيرون مساوين لملائكة الله كما وعد الرب نفسه، ولكي يسبحونه بلا أي تراخٍ أو قلق. إنهم يعيشون في الرب ومعه أبديًا، ويتمتعون بفرح وطوباوية لا يمكن لإنسان أن يعبر عنها أو يدركها[4].]

٥. ابن داود وربه

إذ وقفت كل فئات اليهود القيادية تقاوم صداقة رب المجد يسوع بطريق أو آخر، وكان السيد يرد عليهم، لا رغبة في المجادلة، ولا دفاعًا عن نفسه، وإنما شوقًا في تصحيح مفاهيمهم لعله يوجد من بينهم من يقبل صداقته ويتجاوب مع محبته. الآن وقد دخل أورشليم واقترب وقت الآلام والصلب لذا صار إمكانية ارتباكهم في فهم المسيا المخلص أكبر. لأنهم إن كانوا قد تعثروا فيه وهو يصنع أعمالاً فائقة وبلا عدد فماذا يكون حالهم حينما يرونه تحت الآلام أو معلقًا علي الصليب؟! هذا كله دفعه

---

[1] *Enchiridion 63; On Catech. Of the Uninstructed 25:47.*
[2] *Ep 108:1.*
[3] *On Resur. Of the Flesh 62.*
[4] *On Catechising of the Uninstructed 27:54.*

لإعلان لاهوته من خلال كلمات المرتل، لعلهم يتداركون الأمر ويتفهمون سره.

"**وقال لهم: كيف يقولون أن المسيح ابن داود،**
وداود نفسه يقول في كتاب المزامير،
قال الرب لربي اجلس عن يميني
حتى أضع أعداءك موطئًا لقدميك؟!
فإذًا داود يدعوه ربًا، فكيف يكون ابنه" [٤١-٤٤].

❖ لقد أعلن عن لاهوته في تواضع وليس في افتخار أو مباهاة، فقد قدم لهم السؤال وإذ صاروا في حيرة تركهم يبلغون النتيجة... لقد أبرز أنه ليس معارضًا للآب بل هو متفق معه، إذ يقاوم أعداء الابن الآب.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ بالحق داود كان الأب والعبد بالنسبة للمسيح، فهو أبوه حسب الجسد، وعبده في الروح.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لا يُفهم الجلوس هنا بوضع معين لأعضاء جسدية كما لو كان الآب جالسًا عن اليسار والابن عن اليمين، إنما يُفسر "اليمين" بمعنى السلطان الذي يناله بالآب فيأتي ليدين بعد أن جاء ليُدان.

القديس أغسطينوس

❖ يوصي الرب بالإيمان به بكونه المسيح الرب إلهنا الذي يجلس عن يمين الله، فلا يُفهم الجلوس جسديًا، إذ هو حال في كل مكان، وهو في الآب... واحد معه في القوة والقدرة.

❖ الجلوس عن يمينه لا يجعله أعلى منه، كما أن إرساله من الآب لا يحط من شأنه لأنه حيث ملء اللاهوت لا يوجد مجال للبحث عن درجات في الكرامة[1].

القديس أمبروسيوس

(راجع أيضًا أقوال الآباء في تفسير الإنجيل بحسب متى ص ٤٧٣، وبحسب مرقس ص ٢٢٠-٢٢٢).

٦. تحذير من الكتبة المرائين

[1] *In Luc 20:4144.*

صديقنا السماوي في محبته الصادقة قدم للقادة تساؤلاً أربكهم لكي يردهم إلى النبوات التي بين أيديهم ويدركوا شخصه كرب داود الذي جاء ابنًا له حسب الجسد من أجلهم. الآن بذات الحب ولنفس الغاية يتكلم مع تلاميذه في حضرة الشعب البسيط بلغة البساطة العملية، محذرًا إياهم من رياء الكتبة، لا ليدينوا الكتبة، وإنما ليعيشوا في بساطة الإيمان.

"وفيما كان جميع الشعب يسمعون قال لتلاميذه:
احذروا من الكتبة الذين يرغبون المشي بالطيالسة،
ويحبون التحيات في الأسواق والمجالس الأولى في المجامع
والمتكآت الأولى في الولائم.
الذين يأكلون بيوت الأرامل ولعلة يطيلون الصلوات،
هؤلاء يأخذون دينونة أعظم" [٤٥-٤٧].

- ❖ إذ هو يرسلهم ليعلموا العالم بحق حذرهم من الإقتداء بكبرياء الفريسيين.
- ❖ هذا (المشي بالطيالسة وحب التحيات...) هو طريق الذين يقتنصون الشهرة من أجل جمع المال.
- ❖ إنهم ليس فقط يمارسون الشر وإنما يتظاهرون بالصلوات والفضيلة ليُبرروا خطيتهم.

الأب ثيؤفلاكتيوس

(راجع أقوال الآباء في تفسير مت ٢٣، مر ١٢: ٣٨).

الأصحاح الحادي والعشرون

صديقنا السماوي ومجيئه الأخير

إذ دخل السيد المسيح أورشليم ليقدم حياته ثمنًا لصداقته معنا، لاحظ التلاميذ هياج كل القيادات اليهودية ضده، وكأن الجو قد صار ملبدًا بالغيوم. لهذا رفع السيد المسيح أنظار تلاميذه إلى مجيئه الأخير، مقدمًا لهم علامات مجيئه بما تحمله من مرارةٍ وضيقٍ شديدٍ ليوضح لهم أن كل طاقات الظلمة ومقاومة عدو الخير لن تبطل هذه الصداقة الإلهية مع بني البشر. وكأن رب المجد بحديثه في هذا الأصحاح يطمئن كل نفس تُصاب بصغر نفس بسبب ما يحل بالعالم من أتعاب خاصة بالنسبة للمؤمنين، فالرب عالم بأحداث التاريخ كله التي يسخرها كعلامات لمجيئه.

إذن نسمع من فم ربنا يسوع عن مصارعة الظلمة ضد النور، والأنبياء الكذبة والمسحاء الكذبة ضد ملكوته. هذا كله يعطينا رجاءً، بأن الله سبق فأعلمنا به وهو محقق بخطته الإلهية حتمًا، حتى يضم أصدقاؤه إلى ملكوته يشاركونه أمجاده الأبدية. هذا وقد سبق لنا الحديث عن هذه العلامات بتوسع في تفسيرنا مت ٢٤ ومر ١٣، لذا ألتزم بالاختصار الشديد ما استطعت حرصًا على عدم التكرار.

١. فِلسا الأرملة ١-٤.

٢. سؤال حول أبنية الهيكل ٥-٧.

٣. المسحاء المضللون ٨.

٤. أخبار الحروب ٩-١٠.

٥. الزلازل والمجاعات والأوبئة ١١.

٦. اضطهاد المؤمنين ١٢-١٩.

٧. حصار أورشليم ٢٠-٢٤.

٨. علامات في الشمس... ٢٥-٢٦.

٩. مجيء ابن الإنسان ٢٧-٢٨.

١٠. مَثَل التينة والصيف ٢٩-٣٣.

١١. دعوة للسهر ٣٤-٣٦.

١٢. بياته في جبل الزيتون ٣٧-٣٨.

١. فِلسا الأرملة

ربما يدهش البعض أن الإنجيلي يقدم لنا قصة قبول رب المجد يسوع لفلسي الأرملة أكثر من كل ما قدمه الأغنياء من قرابين قبل عرضه لموضوع غاية في الخطورة والأهمية ألا وهو حديث رب المجد يسوع عن علامات مجيئه. بمعنى آخر كيف يمكن أن تكون قصة هذه الأرملة أشبه بمقدمة لهذا الحديث الرباني الخطير عن علامات المنتهى؟ وأي ارتباط بين الموضوعين؟ قبل أن نجيب على ذلك نعرض ما قاله الإنجيلي لوقا:

"وتطلع فرأى الأغنياء يلقون قرابينهم في الخزانة.

ورأى أيضًا أرملة مسكينة ألقت هناك فلسين.

فقال: بالحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع.

لأن هؤلاء من فضلتهم ألقوا في قرابين الله،

وأما هذه فمن أعوازها ألقت كل المعيشة التي لها" [١-٤].

يبدو لي أن هذه القصة تعتبر أنسب مقدمة يمكن أن تناسب حديث رب المجد عن علامات مجيئه. فقد قدم لنا العلامات لا لنعرف الأزمنة ونتنبأ عنها ونهتم بحساباتها، وإنما لكي يُلهب قلبنا وسط قسوة الحياة التي نعيشها نحو مجيئه، فتكون أغنيتنا المستمرة في كل عبادتنا وسلوكنا وأحاسيسنا وأحلام يقظتنا الخ. هي "تعال أيها الرب يسوع". نترقب مجيئه فينا قبل مجيئه على السحاب في يومه الأخير. أما قصة الأرملة فنجد فيها السيد يترقب أيضًا قبولنا له، إذ يقول: "**تطلع فرأى الأغنياء... ورأى أيضًا أرملة**". إنه دائم التطلع إلينا، سواء كنا أغنياء أو فقراء، رجالاً أم نساءٍ، رعاة أم رعية، ينظر إلينا لا ليديننا أو ينتقدنا، إنما ليرى هل من مسكنٍ فينا يمكن أن يستريح فيه؟! هل من قلب فد تجاوب مع محبته؟ يمكننا أن نقول إنه مبادر بالحب والشوق إلينا، قبل أن يطالبنا بترقب مجيئه، ينظر هو مترقبًا قلبًا واحدًا بسيطًا يقبله ليبيت فيه.

لم يكن ينظر إلى العطايا أيًا كانت قيمتها، لكنه كان ينظر الأغنياء وأيضًا الأرملة، مهتمًا بالقلب لا العطية، طالبًا الثمر الروحي الداخلي لا العطاء المادي المنظور! وقد سبق لنا عرض أقوال كثير من الآباء في أمر هذه الأرملة أثناء تفسير مر ١٢: ٤١-٤٤، لذا أكتفي هنا بالتعليقات التالية:

أولاً: بينما يحذر السيد المسيح تلاميذه من الإقتداء بالكتبة لأنهم "يأكلون بيوت الأرامل" (٢٠: ٤٧)، إذا به يمتدح أرملة على سخاء قلبها. هكذا قد يُحرم بعض قادة الفكر الديني من ملكوت السماوات بسبب طمعهم، بينما يتلألأ نجم فقراء وأرامل في الملكوت من أجل انفتاح قلبهم بالحب،

وسخائهم في العطاء، لا من جهة كمية ما قدموه، وإنما من جهة ثمرهم الروحي الداخلي. لهذا يكتب القديس بولس إلى أهل فيلبي: "ليس إني أطلب العطية، بل أطلب الثمر المتكاثر لحسابكم" (في ٤: ١٧).

❖ إنها النية هي التي تجعل العطية قيّمة أو زهيدة[1].

القديس أمبروسيوس

❖ ليس الاعتبار في الكمية التي قدمتها وإنما في الكمية التي تركتها لنفسها، فإنه لم يعطِ أحد أكثر منها إذ لم تترك لنفسها شيئًا[2].

القديس أمبروسيوس

❖ كانت هذه الأرملة غنية، لأنها ألقت فلسين في الخزانة، وقد قال عنها المسيح: هذه الأرملة الفقيرة ألقت أكثر من الجميع ؛ لأن الله يطلب الإيمان لا المال[3].

القديس أمبروسيوس

❖ وُجدت أرملة في عوز من جهة الوسيلة لكنها كانت غنية في العمل. مع أن ما يُقدم يُوزع على الأرامل والأيتام لكن التي كان يليق بها أن تأخذ أعطت[4].

الشهيد كبريانوس

ثانيًا: من هم هؤلاء الأغنياء الذين ألقوا قرابينهم في الخزانة إلا اليهود الذين انتفخوا ببرهم الذاتي كحافظي الناموس. أما الأرملة الفقيرة، فهي كنيسة العهد الجديد التي جاء أعضاؤها في أغلبيتهم من الأمم الذين عاشوا كمن هم في ترمل ليس لهم معرفة بالله كعريسٍ لهم، فقراء لم يستلموا الناموس، ولا عرفوا العهود والوعود ولا قام بينهم أنبياء قديسون. لقد قدموا فلسين هما الإيمان العامل بالمحبة، جاء إيمانهم بربنا يسوع ملتحمًا بالحب العملي، وكأنهما فلسان يتقبلهما الرب رائحة سرور.

سبق أن كررنا بأن رقم ٢ يشير إلى الحب فالفلسان ليسا إلا عطية الحب التي يتقبلها ربنا يسوع بفرح... حب لله وللقريب!

٢. سؤال حول أبنية الهيكل

---

[1] *Duties of Clergy 1: 30.*

[2] *Conc. Widows 5.*

[3] *Conc. Repent. 2: 9(82).*

[4] *On Works& Alms 15.*

كان رب المجد منطلقًا نحو صليب يقدم لنا مفهومًا أعمق للصداقة الإلهية، ألا وهو تلاقي الإنسان الداخلي مع الله فيه، لذا سأل تلاميذه الهروب من رياء الفريسيين وطلب المتكآت الأولى والتستر وراء الصلوات بقلب يأكل بيوت الأرامل (٢٠: ٤٥-٤٧). إنه يطلب القلب مسكنًا له، فيجد في أرملة تقدم فلسين أفضل من أغنياء كثيرين يلقون قرابينهم في الخزانة. لكن التلاميذ لم يفهموا حتى تلك اللحظات ما قصده رب المجد فتحدث قوم منهم معه عن عظمة أبنية الهيكل (مت ٢٤: ١؛ مر ١٣: ١).

في دراستنا لإنجيل مرقس (١٣: ١)، قلنا أن الهيكل كان في دور التجديد، وقد بدأوا هذا العمل منذ حوالي ٢٠ عامًا قبل مجيء السيد. فكان هذا التجديد الضخم في نظر كثير من اليهود علامة رئيسية في أعينهم على رضا الله عنهم، حتى بعض التلاميذ كانوا مبهورين بهذه الأبنية، ولعلهم ظنوا أن السيد المسيح إذ يملك إنما يقيم مركز سلطانه في هذا الهيكل.

"**وإذ كان قوم يقولون عن الهيكل أنه مزين بحجارة حسنة وتحف، قال:**

هذه التي ترونها ستأتي أيام لا يُترك فيها حجر على حجر لا يُنقض.

فسألوه قائلين: يا معلم متى يكون هذا؟

وما هي العلامة عندما يصير هذا؟" [٥-٧].

ويلاحظ هنا الآتي:

أولاً: كانت الأنظار تتجه إلى المباني الضخمة والتحف، أما رب المجد فكان يطلب العابدين بالروح والحق. يطلب بالحري الساكنين في الهيكل، هؤلاء الذين – في عيني الله– يمثلون عظمة الهيكل وجماله إن صاروا مسكنًا له بقلوبهم، وتحولت حياتهم إلى عرشٍ ناريٍ ملتهبٍ بالحب.

ثانيًا: إذ كان المخلص قادمًا نحو الصليب، كان لابد أن يعلن عن خراب الهيكل حتى تتوقف الذبائح الدموية، إذ تحققت وكمل عملها خلال ذبيحة المسيح الفريدة.

ثالثًا: يرى **القديس كيرلس الكبير** أن التلاميذ لم يفهموا كلماته، فقد حسبوه يتحدث عن نهاية العالم، لذلك جاء تساؤلهم: "**قل لنا متى يكون هذا؟ وما هي علامة مجيئه؟ وانقضاء الدهر؟**" (مت ٢٤: ٣). كأنهم ربطوا هدم الهيكل بمجيء السيد الأخير ونهاية الأزمنة، ربما لأنه لم يكن ممكنًا في تصور يهودي أن هيكل أورشليم يخرب بعد، إنما يزداد قوة وزينة خاصة بمجيء المسيّا المنتظر ليملك خلاله، ويبقى الهيكل حتى نهاية الدهر.

٣. المسحاء المضللون

إذ أراد السيد المسيح أن يعلن عن خراب الهيكل وبالأكثر عن مجيئه الأخير قدم أولاً تحذيرًا من المسحاء الكذبة، قائلاً: "**انظروا لا تضلوا، فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: أنا هو. والزمان قد قرب، فلا تذهبوا وراءهم**" **[٨]**. كأن السيد المسيح يقدم تحذيرًا لمؤمنيه عبر كل الأجيال ألا ينشغلوا بالأزمنة بل بالحري بالفكر الروحي المتيقظ لأن العدو يقف بالمرصاد للتضليل. وكما يقول **البابا أثناسيوس الرسولي**[1] أن إبليس مخادع ينتحل لنفسه اسمًا محبوبًا للكل، يشبه رجلاً يريد أن يسرق أولادًا ليسوا له، فينتهز فرصة غياب والديهم ليجتذب نظراتهم ويسحبهم إليه بتقديم أمور يتوقون إليها. هكذا في كل هرطقة ينطق العدو مخادعًا: "أنا هو المسيح ومعي الحق".

لقد ظهر مسحاء كذبة حتى في أيام الرسل وما قبلها منهم سيمون الساحر الذي كان "يدهش شعب السامرة، قائلاً إنه شيء عظيم، وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير، قائلين: هذا هو قوة الله العظيمة" (أع ٨: ٩-١٠) وأيضًا ثوراس الذي قال عن نفسه إنه شيء والتصق به عدد من الرجال نحو أربعمائة (أع ٥: ٣٦)، ويهوذا الجليلي في أيام الاكتتاب، حيث أزاغ وراءه شعبًا غفيرًا (أع ٥: ٣٧).

٤. أخبار الحروب

"**فإذا سمعتم بحروب وقلاقل فلا تجزعوا،**
لأنه لابد أن يكون هذا أولاً،
ولكن لا يكون المنتهى سريعًا.
ثم قال لهم: تقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة" [٩-١٠].

يسبق نهاية العالم سلسلة من الحروب، حتى تقوم أمة على أمة ومملكة على مملكة ويتحول العالم إلى كتلة من الحروب لا تنقطع، وقد سمح الله بذلك لكي يدرك الإنسان أن العالم المادي غير خالد، إنما يسير في طريق الدمار يومًا بعد يوم... "**ولكن لا يكون المنتهى سريعًا**"، إذ توجد أحداث وعلامات لابد أن تتحقق قبل مجيئه.

لقد سبق فأخبرنا السيد عن هذه الأمور حتى يكون أثرها أخف، ولكي لا يفقد المؤمنون سلامهم الداخلي، إذ هم متوقعون حدوثها. ولعل إعلان السيد عن هذه الحروب كان من أجل المؤمنين لئلا يتشككوا. فقد أعلنت الملائكة يوم مجيء الرب "على الأرض السلام"، بينما الحروب تتزايد يومًا بعد

[1] *Contra Arian , Orat.1.*

يوم. لقد جاء لسلام أرضنا الداخلية، يحل فينا فيجعل من قلبنا (أرضنا) مملكة سماوية تمتلئ سلامًا فائقًا وسط اضطرابات العالم الخارجية.

٥. الزلازل والمجاعات والأوبئة

"وتكون زلازل عظيمة في أماكن ومجاعات وأوبئة،

وتكون مخاوف عظيمة من السماء" [١١].

إذ تنقسم البشرية على ذاتها، فتقوم أمة على أمة، ومملكة على مملكة، تعلن الأرض والسماء غضبهما عليها؛ فتصرخ الأرض ضد البشرية خلال الزلازل العظيمة، كما حدث يوم صلبوا رب المجد (مت ٢٧: ٥١)، وتمتنع عن إعطاء غلتها، فتحدث مجاعات، وتثور الطبيعة فتكثر الأوبئة القاتلة، وتعلن السماء أيضًا غضبها خلال المخاوف العظيمة.

إن كان الله قد خلق العالم من أجل الإنسان لينعم بسلامٍ وفرحٍ في الرب، فحين يهيج الإنسان على بنى جنسه، ويفقد غايته يثور العالم المنظور أيضًا ضده، لا ليعلن غضبه عليه فحسب، وإنما ليلجمه ما استطاع. بمعنى آخر أن الزلازل والمجاعات والأوبئة والمخاوف العظيمة التي تحل من السماء، وإن كانت أمورًا مرعبة لكنها هي اللغة التي تحذر البشرية من تهورها ضد نفسها.

هذا الإعلان الإلهي أو قل التحذير الرباني ينطبق على ثلاثة مستويات. ففي المستوى الأول على نهاية العالم كله إذ يتم ذلك حرفيًا، والثاني على مستوى دمار الهيكل اليهودي وخراب أورشليم. وقد وصف **يوسيفوس المؤرخ اليهودي** ما حلّ بأورشليم قبيل دمارها خاصة المجاعة التي أصابت السكان حتى كانوا يأكلون البذار التي في بواقي الحيوانات. وأيضًا على المستوى الشخصي، فإنه إذ يقوم في الإنسان أمة على أمة، ومملكة على مملكة. أي حين يفقد الإنسان سلامه الداخلي ووحدته بالروح القدس يضطرب فكره وقلبه حتى جسده، وكأن زلازل قد حلت به لتهدم كل كيانه، وتصير فيه مجاعات، إذ لا يجد شبعًا من العالم بكل كراماته وملذاته، فيبقى محرومًا من كلمة الله الخبز النازل من السماء كسّر شبع للمؤمنين، وتحل به أوبئة متنوعة تصيب نفسه الأمراض الروحية القاتلة، وتكون مخاوف عظيمة من السماء، أي تتحول نفسه التي كان يليق بها أن تكون سماءً إلى علة مخاوف، بمعنى سرّ قلقه واضطرابه لا يكون من الخارج بل من داخل نفسه. هكذا إذ يفقد الإنسان شركته مع الآب في ابنه بالروح القدس، يفقد كل سلام للجسد والنفس والروح، ويصير هو نفسه علة تحطيمه لنفسه!

٦. اضطهاد المؤمنين

"**وقبل هذا كله يلقون أيديهم عليكم ويطردونكم،**
ويسلمونكم إلى مجامع وسجون،
وتُساقون أمام ملوك وولاة لأجل اسمي،
فيؤول ذلك لكم شهادة،
فضعوا في قلوبكم أن لا تهتموا من قبل لكي تحتجوا.
لأني أنا أعطيكم فمًا وحكمة لا يقدر جميع معانديكم أن يقاوموها أو يناقضوها.
وسوف تُسلمون من الوالدين والإخوة والأقرباء والأصدقاء ويقتلون منكم.
وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمي.
ولكن شعرة واحدة من رؤوسكم لا تهلك.
بصبركم اقتنوا أنفسكم" [١٢-١٩].

لعل السيد المسيح أراد أن يميز بين ما يحل بالبشرية من متاعب وضيقات لأسباب طبيعية أو بسبب انحرافها وبين الضيق الذي يحل بالمؤمنين لا لسبب سوى إيمانهم بالسيد المسيح، فإن العدو لا يكف عن المقاومة بكل طريقة مستخدمًا من لهم السمة الدينية (المجامع اليهودية) وأيضًا السلطات الزمنية، بل ومن الأقرباء حسب الجسد مثل الوالدين والأخوة والأقرباء. وفي هذا كله يرى الله أن هذه المقاومة هي ضده شخصيًا، فهو الذي يعطي الكلمة والحكمة لمؤمنيه، ومسئول حتى عن كل شعرة من رؤوسهم. لكن ليس بسلبية من جهة المؤمنين، إذ يقول: "**بصبركم اقتنوا أنفسكم**" [١٩].

في اختصار نلاحظ في النص السابق الآتي:

أولا: الخط الواضح في هذا الوعد الإلهي، إن الله نفسه هو موضوع مقاومة عدو الخير، لذا فهو الذي يقوم بالمقاومة وبطرقه الإلهية اللائقة به. يقول **البابا غريغوريوس (الكبير):** [كما لو أن الرب يقول لتلاميذه: لا تخافوا، أدخلوا المعركة، فإني أنا الذي أحارب، أنتم تنطقون وأنا الذي أتكلم[١].] ويقول **القديس كبريانوس:** [عمله أن نغلب... هنا نرى الثقة العظيمة التي للمؤمنين، والخطأ الشنيع الذي يرتكبه غير المؤمنين حين لا يثقون في ذاك الذي وعد بغلبة من يعترفون به ولا يخافون من تهديداته بالعقوبة الأبدية لمن ينكره[٢].]

ثانيًا: إن كان عدو الخير يستخدم كل الوسائل خاصة العنف الجسدي على المؤمنين، فالمؤمنون

---

[1] *In Evang. hom 35.*
[2] *Ep. 76: 5.*

يتقبلون من مسيحهم فمًا وحكمة حتى يشعر المقاومون بالضعف أمام المُضطهدين.

ثالثًا: يسمح الله للمؤمنين بالضيق، لكنه كأب يعلن اهتمامه بهم فلا تهلك شعرة واحدة منهم، وكما يقول **القديس أغسطينوس:** [تأكدوا يا إخوة أنه ليس للأعداء سلطان على المؤمنين إلا بالقدر الذي يفيدهم بتجربتهم وامتحانهم[1].] كما يقول: [عندما حث الرب يسوع شهداءه على الصبر وعدهم أن ينال الجسد نفسه كمالاً تامًا في المستقبل بلا فقدان، لا أقول فقدان عضو منه، وإنما دون فقدان شعرة واحدة[2].]

رابعًا: يعلق **البابا غريغوريوس (الكبير)** على قول السيد: "**بصبركم اقتنوا أنفسكم**" [١٩]، هكذا: [وضع اقتناء النفس في فضيلة الصبر، لأن الصبر هو أصل كل الفضائل والحامي لها. الصبر هو احتمال الشرور التي تسقط علينا من الآخرين بهدوء، دون أن نحمل مشاعر سخط ضد من يسقطها علينا[3].]

٧. حصار أورشليم

"ومتى رأيتم أورشليم محاطة بجيوش،
فحينئذٍ اعلموا أنه قد اقترب خرابها.
حينئذٍ ليهرب الذين في اليهودية إلى الجبال،
والذين في وسطها فليفروا خارجًا،
والذين في الكُورِ فلا يدخلوها.
لأن هذه أيام انتقام ليتم كل ما هو مكتوب.
وويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام،
لأنه يكون ضيق عظيم على الأرض، وسخط على هذا الشعب.
ويقعون بفم السيف، ويسبون إلى جميع الأمم،
وتكون أورشليم مدوسة من الأمم، حتى تكمل أزمنة الأمم" [٢٠-٢٤].

يتحدث السيد المسيح بكل وضوح عما كان سيحل بأورشليم بعد ذلك بحوالي ٤٠ عامًا على يديّ تيطس الروماني، وكان حديث السيد المسيح أشبه بتحذير للمؤمنين الذين كانوا في أورشليم ليتذكروا

---

[1] *Ser. On N.T. 12: 15.*
[2] *On Patience 7.*
[3] *In Evang. hom 35.*

قول السيد، فيهربوا من أورشليم ولا يسقطوا تحت الحصار. وكما قلت أن يوسيفوس المؤرخ اليهودي قدم وصفًا تفصيلاً عما حدث في هذا الحصار.

ويلاحظ في هذا النص الآتي:

أولاً: يقول **القديس أغسطينوس**[1] بأن كلمات ربنا هذه كما رواها لوقا الإنجيلي تُظهر أن رجسة الخراب التي تنبأ عنها دانيال قد تحققت بحصار أورشليم.

ثانيًا: "**لأن هذه أيام انتقام**" [٢٢]، فإن كان الرب قد سمح لهم أن يصلبوه دون مقاومة من جانبه، لكن دمه الذي قُدم كفارة للعالم وخلاصًا للمؤمنين يصير علة دينونتهم. ما حدث في حصار أورشليم كان إنذارًا لليهود ليدركوا ما ارتكبته أيديهم الأثيمة لعلهم يرجعون إلى الله بالتوبة، ويقبلون المسيّا المخلص.

ثالثًا: "**ويل للحبالى والمرضعات في تلك الأيام**" [٢٣]. يرى البعض في هذا القول نبوة عما رواه يوسيفوس المؤرخ أن النساء الشريفات طبخن أطفالهن بسبب شدة الجوع.

رابعًا: ماذا يعني بقوله: "**وتكون أورشليم مدوسة من الأمم، حتى تكمل الأزمنة**" [٢٤]؟ إن كانت أورشليم هي مركز اليهود، فستبقى إسرائيل مدوسة بالجحود وعدم الإيمان حتى تكمل كنيسة الأمم، وفي أواخر الدهور يتخلى إسرائيل عن تعصبه الصهيوني، ويقبل الإيمان بالسيد المسيح الذي صلبه، كقول الرسول بولس: "إن القساوة قد حصلت جزئيًا لإسرائيل إلى أن يدخل ملء الأمم، وهكذا سيخلص جميع إسرائيل" (رو ١١: ٢٥-٢٦).

خامسًا: ماذا يعني حصار أورشليم روحيًا؟ بلا شك أن أورشليم إنما هي مركز العبادة اليهودية، تحوي الهيكل وملحقاته بما يضمه من طقوس غير منقطعة، خاصة الذبائح الدموية. فكانت المدينة تمثل الكيان اليهودي بكل قوميته وعبادته وثقافته الخ. لذا يمكننا أن نقول بأننا لا نستطيع أن ننعم بأورشليم العليَا معلنة في قلوبنا ما لم تحاصر أورشليمنا القديمة فينا. لا مجال للتمتع بنعمة الروح البنَّاءة مع التقوقع حول الحرف اليهودي القاتل، ولا لقاء بين الكيان الكنسي السماوي مع إقامة فكر ضيق يهودي! إذن لنهرب من اليهودية إلى الجبال، أي من الحرف اليهودي إلى جبال الإنجيل العالية والراسخة بالروح.

"**الذين في وسطها فليفروا خارجًا**"... إن أمسك بنا الحرف واقتنصنا في سجنه، نطلب الهروب

[1] *Ep 199.*

منه، لنحيا بحرية الروح منطلقين خارجًا!

"**الذين في الكُورِ فلا يدخلوها**"... بمعنى إن كان الروح قد أعتقنا منها وأطلقنا إلى كُورِ (مدن) الإنجيل لنحيا بروحه، فلا نشتهي العودة إلى الحرف.

"**ويل للحبالى والمرضعات**"... إذ لا يستطيعون من هم بلا ثمر روحي ناضج كأولاد لهم أن ينطلقوا من ضيق الحرف. ويل للنفوس الضعيفة التي لم تثمر بعد بل هي أشبه بالحبالى، أو ثمرها ضعيف أشبه بالمرضعات، فإنه يصعب عليها التمتع بالحرية الحقيقية في الرب.

٨. علامات في الشمس...

"**وتكون علامات في الشمس والقمر والنجوم،**

وعلى الأرض كربُ أمم بحيرةٍ، البحر والأمواج تضج،

والناس يُغشى عليهم من خوف وانتظار ما يأتي على المسكونة،

لأن قوات السماوات تتزعزع" [٢٥-٢٦].

بلا شك سيتم ذلك حرفيًا قبل مجيء السيد المسيح الأخير، إذ تحدث علامات في الشمس والقمر والنجوم، الأمور التي يتوقعها علماء الفضاء أنفسهم.

ماذا يعني بالشمس والقمر والنجوم والأرض والبحر؟

أولاً: ربما قصد بالعلامات التي تظهر قبل مجيء المسيح ظهور ضد المسيح، هذا الذي يقوم بدور خطير في حياة العالم في أواخر الدهور، فإن كانت الشمس ترمز للسيد المسيح، فستظهر علامة ألا وهو اختناق الإيمان به. وكأن الشمس تصير مختفية في حياة البشر. وقد أعلن السيد ذلك بمرارة إنه إن أمكن أن يضل حتى المختارين، كما تساءل: ألعل ابن الإنسان يجد الإيمان عند مجيئه؟!

أما **القمر** فيشير إلى الكنيسة التي تستمد نورها من السيد المسيح شمس البرّ، فستحمل أيضًا علامة خاصة بها، إذ تدخل في ضيق شديد، وتصير هاربة في البرية، يتعقبها ضد المسيح برجاله أينما وجدت.

تشير **النجوم** إلى مؤمنين بما لهم من مواهب ومراكز روحية. فللأسف سيسقط كثيرون حتى من أصحاب المواهب والمراكز في جحد مسيحهم وتكون حركة ارتداد مُرة.

تشير **الأرض** التي تمتلئ بالكوارث إلى فساد الجسد (الأرض)، إذ ينتشر الفساد، وتعم الرجاسات، ويتحول البشر إلى أفكار جسدانية حيوانية محطمة للعمل الروحي.

يشير **البحر وأمواجه** إلى الشعوب والأمم، فسيكون الضيق لا على مستوى الأفراد فحسب، وإنما على مستوى الأمم أيضًا.

ثانيًا: نستطيع أيضًا القول بأنه إذ يرفض الإنسان عمل السيد المسيح فيه تظهر هذه العلامات فيه، فيفقد استنارته بشمس البرّ، أي بالإيمان بالسيد المسيح. ويظلم قمره أي لا يمارس عضويته الحقيقية في الكنيسة كجسد المسيح المستنير به. وتتساقط نجومه حيث تنهار مواهبه وتنحل طاقاته وتتحول إمكانياته لتحطيمه عوض بنيانه ومجده. وتصير أرضه بكل أممها في كربٍ وحيرةٍ، أي يفسد جسده عوض تقديسه، وترتبك حواسه لتكون سرّ اضطراب له، ويضج بحره بأمواجه، أي يفقد سلامه ليعيش في قلقٍ غير منقطعٍ كأمواج البحر التي لا تهدأ.

ثالثًا: مجيء ابن الإنسان الأخير يدخل بنا إلى حياة سماوية جديدة، وصفها **القديس يوحنا اللاهوتي**، قائلاً: "ثم رأيت سماءً جديدة وأرضًا جديدة، لأن السماء الأولى والأرض الأولى مضتا، والبحر لا يوجد فيما بعد" (رؤ ٢١: ١). نقول لتتحطم السماء المادية الحالية والأرض أيضًا، ولتنتهِ البحار، ولتتساقط كل الكواكب بلا رجعة. فإننا ننتظر السماء الجديدة، شمسها رب المجد يسوع، وقمرها الكنيسة أورشليم العليا أمنا، وكواكبها القديسون. لننعم بأرض ليست مادية تنبت شوكًا وحسكًا، بل حياة جديدة حيث "لا يكون حزن ولا صراخ ولا وجع فيما بعد، لأن الأمور الأولى قد مضت" (رؤ ٢١: ٤). ليُمح البحر، فلا يوجد اضطراب بعد!

رابعًا: تفرح السماء بخاطىءٍ واحدٍ يتوب أكثر من تسعة وتسعين بارًا لا يحتاجون إلى توبة (لو ١٥: ٧)، فمن يستطيع أن يعبر عن ألمها حين تجد النفوس تنهار بسبب ضد المسيح؟! لذا يقول رب المجد: **"قوات السماوات تتزعزع"** [٢٦].

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [قوات السماوات تتزعزع... عندما ترى جماهير بلا عدد تسقط تحت الدينونة[1]!]

خامسًا: يقول **القديس أغسطينوس:** [قوات السماء تتزعزع، لأنه عندما يثير الأشرار الاضطهاد يرتعب بعض المؤمنين الأقوياء[2].]

٩. مجيء ابن الإنسان

---

[1] *Ad Olymp. Ep 2.*
[2] *Ep 119.*

"وحينئذٍ يبصرون ابن الإنسان آتيًا في سحابة بقوةٍ ومجدٍ كثيرٍ.
ومتى ابتدأت هذه تكون، فانتصبوا وارفعوا رؤوسكم، لأن نجاتكم تقترب" [٢٧-٢٨].

❖ سيبصره المؤمنون، وغير المؤمنين، فسيكون هو وصليبه أكثر بهاءً من الشمس ويلاحظه الكل.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ الكلمات "**آتيًا في سحابة**" تفهم بطريقتين؛ يأتي في كنيسته كما في سحابة (عب ١٢: ١)، إذ هو لا يكف عن أن يأتي الآن فيها، أما فيما بعد فيتحقق مجيئه بسلطان أعظم وجلال إذ يظهر لقديسيه بقوة ليهبهم فضيلة عظيمة حتى يغلبوا ذاك الاضطهاد المريع. كما سيأتي بجسده... الذي صعد به[١].

القديس أغسطينوس

إن كانت الأحداث كلها مؤلمة للغاية، لكن ظهور ابن الإنسان يرد للكنيسة فرحها وبهجتها ومجدها على مستوى الشركة مع عريسها في فرحه ومجده. ملاقاتنا مع ابن الإنسان تنسينا كل الأحداث السابقة المرة، بل تصير علة مكافأتنا ومجدنا بالرب. لهذا يقول: "**انتصبوا**" بمعنى اثبتوا، قفوا كرجال روحيين بلا تراخ ولا كسل. "**ارفعوا رؤوسكم**" أي ارفعوا عقولكم نحو السماويات، وانتظروا مجيئه، لأن نجاتكم على مستوى أبدي يقترب.

يأتي رب المجد لنجاتنا، ليس فقط على مستوى خلاص النفس، وإنما قيامة الجسد أيضًا، فيتمجد الإنسان بكليته!

١٠. مثل التينة والصيف

"وقال لهم مثلاً: انظروا إلى شجرة التين وكل الأشجار.
متى أفرخت تنظرون وتعلمون من أنفسكم أن الصيف قد قرب.
هكذا أنتم أيضًا متى رأيتم هذه الأشياء صائرة،
فاعلموا أن ملكوت الله قريب.
الحق أقول لكم أنه لا يمضي هذا الجيل حتى يكون الكل.
السماء والأرض تزولان، ولكن كلامي لا يزول" [٢٩-٣٣].

❖ أكد بمقارنة حكيمة الالتزام بأن نطأ بأقدامنا (محبة) العالم ونحتقرها، قائلاً: "**انظروا إلى شجرة**

---

[1] *Ep 199.*

التين وكل الأشجار، متى أفرخت (قدَّمت ثمرًا) تنظرون وتعلمون من أنفسكم أن الصيف قد قرب". كأنه يقول: كما أنه بثمر الشجرة يُدرك اقتراب الصيف، هكذا بسقوط العالم يُعرف أن ملكوت الله قد اقترب. هنا واضح أن ثمرتنا هي سقوط العالم (من قلوبنا)...

حسنًا يُقارن ملكوت الله بالصيف حيث يزول سحاب حزننا، وتشرق أيام الحياة بنور الشمس الأبدي الساطع[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

لقد أكد رب المجد "**اعلموا أن ملكوت الله قريب**" [٣١]. فالضيق يحل لكن إلى حين، أما الملكوت فأبدي.

❖ ملكوت السماوات أيها الإخوة بدأ يقترب، حيث مكافأة الحياة والفرح بالخلاص الأبدي والطوباوية الدائمة واقتناء الفردوس المفقود. هذه الأمور قادمة مع عبور العالم. ها السماوات تحل عوض الأرض، والأمور العظيمة عوض الدنيا، والأبديات عوض الزمنيات[2].

الشهيد كبريانوس

ماذا يقصد بقوله: "**الحق أقول لكم أنه لا يمضي هذا الجيل حتى يكون الكل**"؟ ما قاله الرب تحقق في جيل التلاميذ بالنسبة لخراب أورشليم ودمار الهيكل، الأمر الذي كان مستبعدًا جدًا، لذا أكده السيد بقوله: "الحق أقول لكم". وأيضًا يتحقق كل ما قاله السيد في جيل كنيسته، إذ نعلم أن التاريخ من جهة الخلاص ينقسم إلى عدة أجيال:

أ. الجيل الأول من آدم إلى نوح حيث التجديد بالطوفان.

ب. الجيل الثاني من نوح إلى موسى حيث استلم الناموس المكتوب.

ج. الجيل الثالث من موسى إلى داود حيث بدأ عهد الملوك والأنبياء.

د. الجيل الرابع من موسى إلى سبي بابل.

هـ. الجيل الخامس من سبي بابل إلى مجيء السيد المسيح.

و. الجيل السادس والأخير من مجيء المسيح متجسدًا حتى مجيئه الثاني أو الأخير. هذا هو جيل كنيسة العهد الجديد التي تعاصر كل ما نطق به السيد المسيح في هذا الأصحاح.

١١. دعوة للسهر

[1] *In Evang. hom 35.*
[2] *On Mortality 2.*

"فاحترزوا لأنفسكم لئلا تثقل قلوبكم في خمار وسكر وهموم الحياة،
فيصادفكم ذلك اليوم بغتة،
لأنه كالفخ يأتي على جميع الجالسين على وجه كل الأرض.
اسهروا إذًا وتضرعوا في كل حين،
لكي تُحسبوا أهلاً للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون،
وتقفوا قدام ابن الإنسان" [٣٤-٣٦].

بهذا الحديث الختامي يكشف لنا السيد المسيح عن غاية عرضه لعلامات مجيئه. إنه لا يريدنا أن نعرف الأزمنة وننشغل بحساباتها، بل بالحري أن نسهر بقلوبنا، مترقبين بالحياة الجادة مجيئه ليملك أبديًا.

❖ يحمل كل حيوان دوافع قُدمت له من الله لحفظ جنسه، لذلك قدم لنا المسيح هذا التحذير حتى ما يمارسه الحيوان بالطبيعة نمارسه نحن بالعقل والحكمة، فنهرب من الخطية كما تهرب الحيوانات من الطعام القاتل، ونطلب البر كأعشاب مفيدة.

يقول: "**احذروا لأنفسكم**"، أي ميزوا ما هو مميت مما هو صحّي.

لما كان هناك طريقان للحذر لأنفسنا، واحد خلال الأعين الجسدية والآخر خلال وظائف النفس، وإذ لا تستطيع العين الجسدية أن تبلغ الهدف لذا فإنه يتحدث هنا عن عمل النفس.

"**احذروا**"، بمعنى انظروا حولكم من كل جانب، بعين دائمة السهر لحراسة أنفسكم...

يوجد حولكم غنى وفنون وكل مباهج الحياة، يلزمكم ألا تهتموا إلا بنفوسكم اهتمامًا خاصًا[١].

القديس باسيليوس الكبير

❖ إذ تترك النفس الأمور السفلية المادية تنطلق نحو الأمور السماوية غير المنظورة[٢].

الأب إسحق

ما هو غاية هذا السهر الروحي واليقظة في ملاقاة الرب القادم؟ يحول هذا السهر "يوم الرب" من فخ يسقط فيه جميع الجالسين على وجه كل الأرض إلى يوم نجاة ووقوف قدام ابن الإنسان. بمعنى آخر يوم الرب بالنسبة لغير الساهرين هؤلاء الذين يحسبون كجالسين على وجه كل الأرض أي كجسدانيين وترابيين يكون لهم فخًا، أما بالنسبة للساهرين الذين لا يرتبطون بمحبة الأرض بل

---

[1] *In Illud Attende 1.*
[2] *Cassian : Conf. 9: 4.*

ينطلقون كما بأجنحة الروح في السماويات لا يقتنصهم يوم الرب كفخ لهلاكهم وإنما يتمتعون بالنجاة على مستوى النفس والجسد معًا، وينعمون بالوقوف قدام ابن الإنسان كملائكة الله. يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس**: [هذا هو مجد الملائكة أن يقفوا قدام ابن الإنسان، إلهنا، ويعاينون وجهه على الدوام[1].]

١٢. بياته في جبل الزيتون

"وكان في النهار يعلم في الهيكل،

وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدُعى جبل الزيتون.

وكان كل الشعب يبكرون إليه في الهيكل ليسمعوه" [٣٧-٣٨].

ختم الرب حديثه السابق بالسهر، وهو كممثلٍ للبشرية، ونائبٍ عنها قام بالسهر عمليًا، لا ليكون قدوة لنا فحسب، وإنما ليقدس سهرنا بسهره، كما قدس أعمالنا بعمله! في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل ينطلق للسهر على جبل الزيتون، مقدسًا الحياة العاملة المتألمة!

---

[1] *Catena Aurea.*

الأصحاح الثاني والعشرون

الصديق المتألم

في الأصحاحات السابقة نرى كلمة الله المتجسد قد جاء إلينا يقدم لنا صداقته الإلهية، كاشفًا لنا عن ملامح طريق صداقته، ومحذرًا إيانا من معوقات الطريق، والآن يقدم بنفسه ثمن هذه الصداقة، فنراه الكاهن الأعظم الذي يقدم حياته المبذولة فصحًا، ليعبر بنا من حالة العداوة إلى الشركة مع الآب؛ إنه الكاهن والذبيحة في نفس الوقت، يقدم دم نفسه كفارة عن خطايانا.

يمكننا أن نقول بكل ثقة ويقين أن معلمنا لوقا الإنجيلي إذ يصور لنا أحداث آلام الرب وصلبه إنما يقدم لنا صديقنا الذي يحملنا إلى قدس أقداسه، ليسير بنا في مقدساته السماوية بلا حجاب أو عائق.

من أجلنا افتقر فلم يكن يملك "علية" يأكل فيها الفصح مع تلاميذه، مع أنه يقدم حياته فصحًا فريدًا قادرًا على خلاص البشرية. ومن أجلنا اجتاز وادي الدموع والألم وحيدًا مع أنه والآب واحد، يضمنا بالحب إليه؛ لقد قبل أن يكون موضع خيانة أحد تلاميذه، وموضع محاكمة أمام خليقته، يُحاكم دينيًا ومدنيًا!

١. اقتراب عيد الفصح	١-٢.
٢. خيانة يهوذا	٣-٦.
٣. الإعداد للفصح	٧-١٣.
٤. الفصح الجديد	١٤-٢٣.
٥. مناقشة حول الأعظم	٢٤-٣٠.
٦. تحذيره لبطرس	٣١-٣٤.
٧. تحذير عام	٣٥-٣٨.
٨. صلاته على جبل الزيتون	٣٩-٤٦.
٩. تسليمه	٤٧-٥٣.
١٠. محاكمته دينيًا في بيت رئيس الكهنة	٥٤.
١١. إنكار بطرس له	٥٥-٦٢.
١٢. جلده والاستهزاء به	٦٣-٦٥.

١٣. محاكمته في المجمع ٦٦-٧١.

١. اقتراب عيد الفصح

"وقرب عيد الفطير الذي يُقال له الفصح.
وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه،
لأنهم خافوا الشعب" [١-٢].

كان اليهود يحتفلون بعيد الفصح في الرابع عشر من الشهر الأول "نيسان" حيث يذكرون عبور الملاك المهلك على بيوت آبائهم في مصر دون أن يمس أبكارهم، إذ يرى علامة الدم على القائمة والعارضتين. هذا وكلمة "فصح" أو "بصخة" معناها "عبور". أمّا عيد الفطير فكان يبدأ في اليوم التالي (الخامس عشر من نيسان) ولمدة ٧ أيام فيه لا يأكل اليهود خبزًا مختمرًا بل فطيرًا. وقد امتزج العيدان معًا، حتى أصبحا في عصر السيد المسيح عيدًا واحدًا يُدعى "عيد الفطير" أو "عيد الفصح".

لا أريد الدخول في تفاصيل عيدي الفصح والفطير إذ سبق لنا الحديث عنهما في أكثر من موضع خاصة في تفسير سفر الخروج (ص ١٢) وتفسير سفر اللاويين (لا ٢٣). إنما ما نقوله هنا أنه قد جاء صديقنا ليقدم نفسه فصحًا عنّا، حتى بدمه يعبر عنّا الملاك المهلك، فلا يقتل أبكار حياتنا، أو بمعنى آخر به نعبر إلى الحياة السماوية، وننتقل من الفكر الترابي إلى الملائكي.

❖ كانت أعمال اليهود ظلاً لأعمالنا. لذلك أن سألت يهوديًا عن الفصح أو عيد الفطير، فلا يقدم لك أمرًا ذا قيمة إنما يشير إلى الخلاص من مصر، بينما إذ يطلب أحد منّي ذلك لا يسمع عن مصر وفرعون، بل يسمع عن التحرر من الخطية وظلمة الشيطان، لا بواسطة موسى بل بابن الله[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إذ كانت جماهير اليهود في العالم كله تتجه نحو أورشليم لتقدم ذبيحة الفصح بطقسها الرائع الذي يصور عمل المسيح الخلاصي، إذا برؤساء الكهنة والكتبة [٢]، وهما حزبان متزاحمان في مجمع السنهدرين، يجتمعون معًا غالبًا في دار رئيس الكهنة قيافا "دار المؤامرة"، ليبحثوا كيف يتخلصون من يسوع سرًا، خشية هياج الشعب عليهم.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**[٢] أنه بحسب الشريعة الموسوية لا يوجد إلا رئيس كهنة واحد، لا يُقام آخر إلا بموته، لكنه إذ انحدر اليهود روحيًا، صار لهم أكثر من رئيس كهنة. في الواقع كان

---

[1] *Catena Aurea.*
[2] *In Matt. Hom.79.*

اليهود يقيمون في كل عام رئيس كهنة يمارس وظيفته لمدة عام، يلزم أن تكون السلطات الرومانية راضية عنه، بل وغالبًا ما تقوم باختياره مع قادة اليهود. على أي الأحوال كان يليق بهم أن يكون لهم رئيس كهنة واحد يرمز لأسقف نفوسنا ربنا يسوع، يقبل المشورة من الله وحسب وصيته، يخاف الله لا الناس، أمّا هؤلاء فكانوا رؤساء كهنة كثيرين يسلكون بمشورة إنسانية، يخافون الشعب لا الله.

يقول **القديس كيرلس الكبير:** [لننظر الدور الذي مارسه إبليس بحسده، وما هي نتائج خطته الماكرة ضد السيد. لقد غرس في رؤساء مجمع اليهود حسدًا ضد المسيح أنتج قتلاً. فإن هذا المرض (الحسد) غالبًا ما يدفع إلى جريمة القتل. هذا هو الطريق الطبيعي لهذه الرذيلة، كما حدث مع قايين وهابيل، وأيضًا ظهر بوضوح في حالة يوسف وإخوته. لهذا السبب يجعل بولس الرسول هاتين الرذيلتين متجاورتين بوضوح، كأنهما يمتان بصلة قرابة لبعضهما البعض، إذ يتحدث عن أناس مملوءين "حسدًا وقتلاً" (رو ١: ٢٩). هكذا طلب هؤلاء قتل يسوع بإيحاء من الشيطان الذي غرس الشر فيهم، وكان قائدهم في تدابيرهم الشريرة[1].]

٢. خيانة يهوذا

اجتاز السيد المسيح آلامًا من كل نوع، اشترك فيها اليهود بكل فئاتهم وأيضا اشترك واحد من تلاميذه معهم، كما اشترك الأمم. يحدثنا الإنجيلي لوقا عن خيانة يهوذا، قائلاً: "**فدخل الشيطان في يهوذا الذي يُدعى الإسخريوطي وهو من جملة الاثني عشر. فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد الجند كيف يسلمه إليهم. ففرحوا وعاهدوه أن يعطوه فضة. فواعدهم، وكان يطلب فرصة ليسلمه إليهم خلوًا من جمع" [٣-٦].**

دخل الشيطان في يهوذا ليس إكراهًا، إنما وجد الباب مفتوحًا لديه، وجد فيه الطمع بابًا للخيانة، بالرغم من كونه أحد الإثني عشر تلميذًا. نسمع في إنجيل يوحنا: "فبعد اللقمة دخله الشيطان" (يو ١٣: ٢٧)، فهل دخله الشيطان قبل الفصح أم أثناءه؟! بلا شك كان يهوذا قد سلم نفسه كإناء للشيطان مع كل فرصة ينفتح الباب بالأكثر للتجاوب مع إبليس كسيد له يملك قلبه ويوجه فكره ويدير كل تصرفاته. بمعنى آخر يمكن القول بأن يهوذا في خضوعه للعدو الشرير كان ينمو كل يوم في تجاوبه معه وممارسته أعماله الشيطانية. بمعنى آخر كما يشتاق الله أن يحل في قلوب أولاده بلا توقف ليملأهم من عمله الإلهي، هكذا يشتاق عدو الخير أن يدخل قلوب المستجيبين له بلا توقف، لينطلق بهم إلى نهاية شره، بكونهم أداته الخاصة ورعيته ومملكته.

---

[1] *In Luc hom 140.*

❖ أنتم ترون أن الشيطان قد دخل بالفعل في يهوذا؛ دخل أولاً عندما زرع في قلبه فكر خيانة المسيح، ثم جاء إلى العشاء يحمل هذا الروح فيه. وإذ أخذ الجسد دخله أيضًا الشيطان، لا ليجرب شخصًا (غريبًا عنه) مرتبطًا بآخر، وإنما ليملك على من هو له[1].

القديس أغسطينوس

❖ بالطمع صار يهوذا ما هو عليه... الطمع يولِّد أهواء شريرة، يجعل البشر مجدّفين، ويدفعهم إلى فقدان معرفة الله مع أنهم ينالون منه آلاف العطايا[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

إن كان العدو قد اصطاد يهوذا الذي تجاوب معه في حب المال، فبث فيه السرقة (يو ١٢: ٦)، ثم دفعه للخيانة، فصار أداته التي يستخدمها كيفما شاء، إذ سلّم يهوذا نفسه بنفسه له، لهذا يحذّرنا الرسول بولس قائلاً: "لئلا يطمع فينا الشيطان" (٢ كو ٢: ١١). بنفس الروح يقدم لنا **القديس مرقس الناسك** نصيحته ألا نفتح الباب ولو قليلاً للعدو، فإنه إذ يدخل يملك ويصعب التحرر منه. لنحاربه بالرب وهو خارج عنّا يحاول خداعنا، ولا نتركه يدخل ويملك!

يقول **القديس كيرلس الكبير**[3] إن الشيطان دخل في قلب يهوذا دون بطرس أو يعقوب أو يوحنا. لأن قلوبهم كانت راسخة ومحبتهم للمسيح ثابتة، لكن الشيطان وجد له موضعًا في الخائن من أجل مرض الطمع المرّ، الذي يقول عنه الطوباوي بولس: "أصل كل الشرور" (١ تي ٦: ١٠). هذا وقد أكّد الإنجيلي أن يهوذا "واحد من الإثنى عشر" ليوضح خطية الخيانة بكل جلاء. فإن الذي كرَّمه مساويًا إيّاه بالبقية، وزيَّنه بالكرامات الرسولية، وجعله المحبوب، وضمه للمائدة المقدسة صار طريقًا ووسيلة لقتل المسيح.

بماذا باع يهوذا سيده؟

باعه بالفضة، وكما يقول **القديس ديديموس السكندري** أنه يوجد نوعان من الفضة: الفضة الأصيلة المصفاة سبع مرات، وهي كلمة الله؛ والفضة الغاشة التي هي كلمة إبليس. إن كان السيد المسيح هو كلمة الله المتجسد، الفضة الحقيقية، فقد باعه يهوذا بالغاشة. هذه الخيانة يمارسها الهراطقة عبر العصور، حين يُسيئون شرح كلمة الله، مستخدمين الكتاب المقدس للتدليل على تعاليمهم الفاسدة، وكأنهم يستبدلون الفضة الإلهية الخالصة والأصيلة بفضتهم الغاشة. هذا وقول الإنجيلي

[1] *Ser . on N.T. 62: 2.*
[2] *In Matt hom 80.*
[3] *In Luc hom 140.*

"**عاهدوه أن يعطوه فضة**" [٥]، يعني أن يعطوه مالاً بوجه عام، وقد حُدد الثمن بثلاثين من الفضة كما سبق فأنبأ عاموس النبي (٢: ٦) كثمنٍ لبيع البار، وهو ثمن بخس يُدفع كدية عبدٍ إذا نطحه ثور وقتله (خر ٢١: ٣٢). ويقال أن هذه القطعة الفضية كانت تحمل على أحد وجهيها صورة غصن زيتون، رمز السلام، وعلى الوجه الآخر صورة مبخرة علامة العبادة، وفي أسفلها نُقش "أورشليم المقدسة".

٣. الإعداد للفصح

حان وقت الفصح فكان يليق بذاك الذي جاء "فصحًا عن العالم" أن يقدم جسده ودمه المبذولين ذبيحة شكر لله الآب، وسرّ حياة لتلاميذه، ذبيحة حقيقية قادرة على المصالحة بين الآب والبشرية عبر كل العصور.

اختلف الدارسون في تحديد موعد الفصح اليهودي، هل كان يوم الخميس حيث قدم السيد المسيح، نفسه فصحًا بعد الرمز اليهودي مباشرة ليعلن تحقيقه في كمال غايته، أما أراد السيد أن يقدم فصحه مسبقًا بيوم واحد ليصلب يوم الجمعة في لحظات الفصح اليهودي. ولكل فريق جهوده لتأكيد وجهة نظره. إنما ما يشغلنا أن الفصح اليهودي قد كمل وانتهى بتحقيق فصح المسيح، سواء مارس اليهود طقس فصحهم في خميس العهد أو أثناء لحظات الصلب!

"**وجاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يذبح فيه الفصح.**
فأرسل بطرس ويوحنا، قائلاً:
اِذهبا وأعدّا لنا الفصح لنأكل.
فقالا له: أين تريد أن نُعد؟
فقال لهما: إذا دخلتما المدينة يستقبلكما إنسان حامل جرة ماء،
اِتبعاه إلى البيت حيث يدخل.
وقولا لرب البيت يقول لك المعلم:
أين المنزل حيث آكل الفصح مع تلاميذي؟
فذاك يريكما عُليّة كبيرة مفروشة، هناك أعدّا.
فانطلقا، ووجدا كما قال لهما، فأعدّا الفصح" [٧-١٣].

يلاحظ في هذا النص:

أولاً: يرى البعض في القول: "**جاء يوم الفطير الذي كان ينبغي أن يُذبح فيه الفصح**" تأكيدًا أن

العشاء الأخير قد تم في يوم الفصح، وأن السيد المسيح قدم جسده ودمه بعد ذبح الخروف الرمزي. غير أن الفريق الآخر يرى أنه بحسب الطقس اليهودي كانوا يستعدون للعيد في اليوم السابق، حيث يقوم اليهود بتنظيف البيت والبحث أكثر من مرة في جوانب الحجرات لئلا يوجد خمير، فيحسبون كاسرين للناموس، ولا يُقبل الفصح عنهم. وكأن السيد قد اجتمع مع تلاميذه في اليوم السابق لذبح الخروف كما للتهيئة للفصح، لكنه عوض التفتيش في أركان العُليّة قدم الفصح الروحي غير المادي. ويُضاف إلى ذلك أنه لو كان السيد قد اجتمع بتلاميذه لممارسة طقس الفصح اليهودي فأين أصحاب البيت أنفسهم؟!

في تفسيرنا للإنجيل حسب متى تحدث عن تأسيس السيد للعشاء الأخير بعد ممارسة السيد المسيح وتلاميذه لطقس الفصح الناموسي، لكنني أكرر أن ما يشغلنا هو الفكر اللاهوتي ذاته لا تفاصيل الأزمنة.

ثانيًا: لم يحدد السيد المسيح اسم صاحب العُليّة، وكما جاء في التقليد الكنسي أنه مرقس الرسول؛ وأنه هو الشاب الذي كان يحمل الجرة. وكان يعرف السيد تمام المعرفة، لكن الرب لم يذكر اسمه ربما كما يقول **القديس أمبروسيوس** ليُظهر أنه يقيم فصحه في عُليّة لإنسان غير مشهور، فهو لا يطلب أصحاب المراكز والشهرة، أو كما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس** لكي لا يعرف يهوذا الموضع، فيخبر رؤساء الكهنة والكتبة، ويُلقوا القبض عليه قبل تقديم فصحه الإلهي.

ثالثًا: في تفسيرنا لإنجيل مرقس (١٤: ١٢-١٦)، رأينا **القديسين كيرلس الكبير وأمبروسيوس** يتطلعان إلى جرة الماء كعلامة لسرّ العماد، فإنه لا يسمح لنا بالتمتع بسرّ الإفخارستيا ما لم نكن قد التقينا أولا بسرّ المعمودية وتمتعنا بالتجديد الكامل الداخلي.

إن كانت الجرة من التراب والخزف، لكنها تحمل في داخلها ماءً، هكذا وإن كنا ترابيين لكننا نتقبل مياه النعمة الإلهية وعمل الروح القدس في داخلنا، حتى نستطيع أن نرتفع بالروح مع مخلصنا، ونقبل من يديه سرّ خلاصنا، أي جسده ودمه المبذولين عنّا.

رابعًا: ارتفع السيد بتلاميذه إلى العُليّة المفروشة، التي لا يوجد فيها خمير، والمتسعة لتحوي السيد وتلاميذه. هكذا يود الرب أن يحملنا كما إلى الأعالي "في عُليّة مفروشة، حيث نسكن في الأمجاد الإلهية الخفية، مرتفعين فوق دنس هذا العالم ورجاسات شهوات الجسد. هناك نلتقي به، حيث لا يوجد فينا خمير الخُبث والشر، بل زينة الروح الفاضلة، والمتّسعة بالحب الإلهي لنحمل في داخلنا السيد وتلاميذه.

❖ لنصعد مع الرب، متحدين معه، إلى العُليّة...

لتكن عُليّة بيوتنا متّسعة لتستقبل في داخلها يسوع كلمة الله، الذي لا يُدرَك إلا بواسطة من لهم الفهم العظيم...

لتُعد هذه العُليّة بواسطة صاحب البيت الصالح ليأتي فيها ابن الله فيجدها مغسولة ونقية من كل خبث.

❖ يلزمنا أن ندرك أنه لا يرتفع أحد إلى العُليّة ممن يهتم بالولائم والاهتمامات الزمنية، ولا يكون له مع يسوع نصيب في حفظ الفصح[1].

العلامة أوريجينوس

٤. الفصح الجديد

أولاً: يقول الإنجيلي لوقا: "**ولما كانت الساعة اتكأ والإثنا عشر رسولاً معه**" **[١٤].** لقد حانت الساعة التي حددها رب المجد ليؤسس سرّ الإفخارستيا، مقدمًا للعالم سرّ الخلاص والحياة والشبع الداخلي.

اعتاد اليهود بحسب الطقس الموسوي أن يأكلوا الفصح وهم واقفون (خر ١٢: ١١)، إذ يذكرهم بالانطلاق من العبودية التي عاشها آباؤهم في مصر، لأنه لم يكن للعبد حق الجلوس في حضرة سادته بل يقف ليخدم، أمّا السيد إذ قدّم لنا فصحه الجديد اتكأ ومعه الرسل ليُعلن انتقالنا إلى حالة "المجد". فصحه عبور إلى الحياة السماوية، لكي نتكئ معه في حضن أبيه، وننعم بشركة أمجاده.

ثانيًا: إذ حانت الساعة ليحقق خلاصنا ببذل حياته عنا يعلن أنه مقدم على هذا العمل بكامل إرادته، في شوقٍ حقيقيٍ وشهوةٍ، إذ يطلب ما قد هلك، لذا "**قال لهم: اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم**" **[١٥].**

❖ لماذا؟ لأنه كان يرحب بصليبه، إذ يتحقق خلاص العالم، وتُسلَّم الأسرار، وتزول الأمور المحزنة.

❖ هذا يعني: "إني أسلمكم الطقوس الجديدة، وأهبكم الفصح الذي أقدمه لكم روحيًا"[2].

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ قال هذا لأن الصليب يقترب بعد هذا الفصح مباشرة؛ فإننا نجده دائمًا يتنبأ عن آلامه مشتهيًا

---

[1] *In Matt 26،18.*

[2] *In Matt hom 81: 3،82: 1.*

تحقيقها[١].

القديس يوحنا ذهبي الفم

❖ كأنه يقول: إنه عشائي الأخير، أنه ثمين للغاية أرحب به، ذلك كما أن الذين يرحلون إلى مكان بعيد يقدمون لأصدقائهم كلماتهم الوداعية في غاية المحبة[٢].

الأب ثيؤفلاكتيوس

أما قوله: "**لأني أقول لكم إني لا آكل منه بعد حتى يُكمل في ملكوت الله... إني لا أشرب من نتاج الكرمة حتى يأتي ملكوت الله**" [١٦-١٨]، فقد سبق لنا تفسيره في دراستنا لسفر اللاويين (١٠: ٩) حيث رأينا السيد يشرب نتاج الكرمة الروحي، أي يفرح حينما يكمل المختارون في ملكوت الله.

ثالثًا: يلاحظ هنا وجود كأسين، الأولى تناولها السيد وشكر وقال: "**خذوا هذه واقتسموها بينكم**" **[١٧]**، والثانية بعد العشاء قال عنها: "**هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم**" **[٢٠]**. كانت عادة اليهود في طقس الفصح أن تُستخدم ثلاث كؤوس، لذا يرى البعض أن الكأس الأولى هنا إنما هي أحد كؤوس الطقس اليهودي، أمّا الثانية فهي كأس العهد الجديد، التي جاءت لا ككأس بركة عامة، وإنما تقدست لتصير دم السيد المسيح المبذول. الأولى تشير للعهد القديم، والثانية تقدم لنا سرّ العهد الجديد.

رابعًا: قدّم السيد المسيح ذبيحته الحقيقية، قائلاً: "**هذا هو جسدي الذي يبذل عنكم**"، "**هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يسفك عنكم**" [١٩-٢٠]، أمّا قوله: "**اصنعوا هذا لذكري**" فكما رأينا في كتاب "المسيح سرّ الإفخارستيا" أن "الذكرى" هنا في اليونانية "أنامنسيس" لا تعني مجرد التذكر لأمر نتطلع إليه غائبًا عنّا، بل تحمل إعادة دعوته أو تمثيله في معنى فعّال[٣]. الأنامنسيس هنا يعني تذكر المسيح المصلوب القائم من الأموات، أو تذكر ذبيحته لا كحدثٍ ماضٍ، بل تقديم ذبيحة حقيقية حاضرة وعاملة[٤]، أي ذكرى فعّالة.

❖ الإفخارستيا هو جسد ربنا يسوع المسيح الذي تألم عن خطايانا، الذي أقامه الله الآب[٥].

القديس أغناطيوس النوراني

---

[1] *Catena Aurea.*

[2] *Catena Aurea.*

[٣] قدم جريجوري دكس في كتابه "شكل الليتورجيا" أمثلة من العهدين القديم والجديد تؤكد ذلك *(Dix p. 161.)*

[4] *Jean Danielou: The Bible& The LiTurgy، p136-7.*

[5] *Ep. Ad Sym.6: 2.*

❖ الكأس الممزوج والخبز المصنوع يتقبلان كلمة الله، ويصيران إفخارستيا جسد المسيح ودمه[١].

القديس إيريناؤس

❖ الخبز قبل التقديس هو خبز عام، لكن إذ يقدسه السرّ يُدعى جسد المسيح[٢].

القديس غريغوريوس أسقف نيصص

❖ عندما نتناول جسد المسيح المقدس، مخلص جميعنا، ونشرب دمه الثمين يكون لنا الحياة فينا، إذ نصير كما لو كنا واحدًا معه، نسكن فيه ونمتلكه فينا.

❖ لا تشك في أن هذا حق، إذ قال بوضوح: "هذا هو جسدي"، إنما اقبل كلمات مخلصك بإيمان، إذ هو الحق الذي لا يكذب[٣].

القديس كيرلس الكبير

❖ فعل المسيح ذلك ليحضرنا إلى رباط صداقة حميمة، وليعلن حبه لنا، مقدمًا نفسه لمحبيه، لا ليروه ويمسكوه فحسب، وإنما لكي يتناولوه أيضًا، ويحتضنوه في كمال قلوبهم[٤].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ تعلم إذن كيف يليق بك أن تتناول جسد المسيح، أي في ذكرى طاعته حتى الموت، حتى أن الذين يعيشون لا يعيشون بعد لأنفسهم، وإنما لذاك الذي مات لأجلهم وقام[٥].

القديس باسيليوس الكبير

خامسًا: يرى **القديس يوحنا الذهبي الفم**[٦] أن السيد المسيح أعلن عن خائنه بعد تقديم الكأس واشتراك الخائن فيه، مظهرًا بأنه قد قدم له كل إمكانية للتوبة لكنه لم يرد أن يتوب. الله يفتح أبواب الرجاء للجميع، لكنه لا يُلزم أحدًا على التوبة بغير إرادته.

إذ أعلن السيد المسيح أن واحدًا منهم سيسلمه بدأ الكل يتساءل، فمع معرفتهم بحبهم الشديد له، لكنهم كانوا يثقون في كلماته أكثر من ثقتهم في أنفسهم، لذا خشي كل واحد منهم لئلا يكون هو المقصود، إذ يعرف الكل أنهم ضعفاء ومعرضون للسقوط. ليتنا نتشبه بالإحدى عشر رسولاً، فنعرف

---

1 *Adv. Hear 5: 2: 3.*
2 *Orat. de Bapt. Christ.*
3 *In Luc hom 142.*
4 *In Loan hom 46.*
5 *Catena Aurea.*
6 *In Matt . hom 82.*

ضعفنا، ولا نتكل على ذواتنا، بل على نعمة الله التي تحفظنا من السقوط.

٥. مناقشة حول من هو الأعظم

بينما كان السيد المسيح بكونه كلمة الله المتجسد يعلن عن اشتياق قلبه وشهوة نفسه أن يقدم حياته فصحًا عن البشرية، طالبًا صداقتهم على مستوى أبدي، كان قادة اليهود يتآمرون لقتل المسيّا والخلاص منه، أما التلاميذ ففي ضعف بشري كانوا يتشاحنون فكريًا على المراكز الأولى في الملكوت الجديد، حاسبين إياه ملكوتًا زمنيًا ماديًا.

"وكانت بينهم أيضًا مشاجرة، من منهم يُظن أن يكون أكبر.
فقال لهم: ملوك الأمم يسودونهم، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين.
وأما أنتم فليس هكذا، بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر، والمتقدم كالخادم.
لأن من هو أكبر، الذي يتكئ أم الذي يخدم؟!
أليس الذي يتكئ؟! ولكني أنا بينكم كالذي يخدم.
أنتم الذين ثبتّوا معي في تجاربي.
وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتًا.
لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي،
وتجلسوا على كراسي تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر" [٢٤-٣٠].

أولاً: يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن السيد المسيح ينسب طلب المراكز الأولى للأمم[1]. وكأن العلامة الأولى للانتساب للأمم هو "التشامخ" وطلب المجد الزمني، وعلى العكس علامة الانتساب لجسد المسيح هو "التواضع" والاشتياق لاحتلال المركز الأخير في وسط الكل، لكي بالتواضع المملوء حبًا يمكننا أن نحتضن الجميع. بمعنى آخر، إن كلمة الله في محبته للبشرية أخلى ذاته، محتلاً مركز العبد لكي يحمل في جسده العبيد ويرتفع بهم إلى البنوة للآب. بذات الروح اشتاق الرسول بولس أن يستعبد نفسه ليربح الكثيرين (١ كو ٩: ١٩)، بمعنى أنه اشتهى أن يتمثل بسيده، فيكون له هذا الشرف أن يحسب نفسه عبدًا للجميع، لا عن يأسٍ أو تحطيمٍ نفسيٍ، إنما عن حب حقيقي لربح الكثيرين.

❖ ليت ذلك الذي هو رئيس لا ينتفخ بسبب عمله، لئلا يهوي من طوباوية التواضع، وإنما يليق به أن

[1] *In Matt . hom 65.*

يعرف التواضع الحقيقي كخدمة للكثيرين... ليت الأعظم يكون كالأصغر.

❖ يليق بالذين يحتلون المراكز الرئيسية أن يكونوا مستعدين أن يقدموا حتى الخدمة الجسدية على مثال الرب الذي غسل أقدام تلاميذه. لذا قيل "(ليكن) **المتقدم كالخادم**[1]".

القديس باسيليوس الكبير

❖ احفظ الإيمان والتواضع داخل نفسك، لأنك بهما تجد الرحمة والمعونة، وتسمع أقوالاً إلهية في قلبك، ويرافقك ملاكك الحارس في الظاهر وفي الخفاء.

❖ التواضع وِشاح الألوهة، لأن الكلمة المتجسد تسربله، وكلّمنا عنه من خلال أجسادنا، فكل من يلبسه يتشبه حقًا بذاك الذي انحدر من علوه، وغطى فضيلة عظمته بالتواضع، وستر مجده به كي لا تلتهب الخليقة بمنظره.

❖ المتواضع لا يبغضه أحد ولا يوبخه ولا يحتقره، لأن سيده يحبه. يحب الجميع والجميع يحبونه ويشتهونه في كل مكان، وحيثما وُجد ينظرون إليه كملاكٍ نوراني، ويقدمون له الإكرام.

❖ التواضع قوة خفية يحصل عليها القديسون الكاملون بعد تمام سيرتهم، ولا تعطي النعمة هذه القوة إلا للكاملين في الفضيلة[2].

مار إسحق السرياني

❖ لقد فتح التلاميذ طريقًا للضعف البشري، فكانوا يتنازعون فيما بينهم عمن يكون الأعظم والأكبر من الباقين... هذا الضعف أُثير فيهم وسُجل لأجل نفعنا، حتى أن ما حدث بين الرسل يكون علة لكي ننعم بالتواضع. إذ انتهر المسيح المرض، وكطبيبٍ ناجحٍ نزعه بوصية عميقة مملوءة غيرة...

❖ لنوقف هذا التعالي الفاقد للشعور والباطل، هذا الذي ينبع عن حب المجد الباطل أصل الكبرياء. فإن رغبة السيطرة على الآخرين، والنزاع لبلوغ هذا الأمر، يجعل الإنسان بالحق ملومًا، مع أنه لا يخلو تمامًا مما يستحق المديح. فإن السمو في الفضيلة يستحق التقدير (التكريم)، لكن الذين يريدون بلوغ هذا يلزمهم أن يكونوا متواضعي الفكر، لهم مشاعر متواضعة، لا يطلبون أن يكونوا الأولين وذلك خلال حبهم للإخوة. هذا ما يريده فينا الطوباوي بولس، إذ كتب: "مقدمين بعضكم بعضًا في الكرامة" (رو ١٢: ١٠). هذه المشاعر يتأهل لها القديسون وبها يتمجدون، إذ تجعل

[1] *In Reg. Fus. Dis. Int 30، 31.*

[2] إسحق السرياني: نسكيات، منشورات النور ١٩٨٣، ص٧٠، ٧٧-٧٩.

تقوانا نحو الله مكرمًا، وتمزق شبكة خبث إبليس وتحطم فخاخه المتعددة، وتخلصنا من حفرة الفساد، وتجعلنا كاملين في التشبه بالمسيح مخلص جميعنا. أنصت، كيف يضع نفسه أمامنا مثالاً للفكر المتواضع وللإرادة التي لا تطلب المجد الباطل، إذ يقول: "تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب" (مت ١١: ٢٩).

❖ في العبارة التي قُرأت حالا يقول: "**لأنه من هو أكبر، الذي يتكئ أم الذي يخدم؟ أليس الذي يتكئ؟** "**ولكني أنا بينكم كالذي يخدم**". حينما ينطق المسيح بذلك من لا ينزع عنه حب المجد الباطل، ويطرد عن ذهنه محبة الكرامة الفارغة، ويبقى في عناده وتصلفه؟! لأن الذي تخدمه كل الخليقة العاقلة المقدسة، الذي يسبحه السيرافيم... المساوي مع الله الآب في عرشه وملكوته احتل مركز العبد وغسل أقدام الرسل. بمعنى آخر أخذ مركز العبودية خلال تدبير الجسد... الذي يُخدم صار خادمًا، رب المجد أصبح فقيرًا، تاركًا لنا مثلاً كما هو مكتوب (١ بط ٢: ٢١).

ليتنا إذن نتجنب حب المجد الباطل، ونخلص من عار الرغبة في الرئاسة. بهذا نصير مثله، ذاك الذي أخلى ذاته لأجلنا[1].

القديس كيرلس الكبير

ثانيًا: طلب العظمة الزمنية يسبب انشقاقًا بين الإخوة، أيا كان مركزهم، حتى وإن كانوا تلاميذ المسيح، وكأن هذا الاتجاه هو المحطم للجماعة المقدسة.

❖ إن كان التلاميذ قد تنازعوا، فهذا ليس عذرًا لك، وإنما هو تحذير. لنحذر لئلا يكون نزاعنا على المراكز الأولى هو هلاكنا.

القديس أمبروسيوس

ثالثًا: دعوة السيد المسيح لتلاميذه بعدم طلب المجد الباطل وحب الرئاسات ليس حرمانًا، وإنما هو توجيه نحو المجد الأبدي الذي نبلغه خلال الصليب. لهذا يؤكد لهم المراكز الكبرى التي ينالها الرسل بثبوتهم معه في تجاربه، أي حملهم صليبه كل يوم من أجل إيمانهم به وكرازتهم بإنجيله. يقول: "**أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي، وأنا أجعل لكم كما جعل لي أبي ملكوتًا**..." بمعنى آخر ليس فقط يدعوهم لترك المجد الباطل وإنما لحمل الصليب ومشاركة الرب آلامه ليشتركوا معه في أمجاده. وكما يقول الرسول بولس: "لأنه إن كنّا قد صرنا متحدين معه بشبه موته، نصير أيضًا بقيامته" (رو ٦:

---

[1] *In Luc hom 143.*

٥).

رابعًا: إذ يتحدث هنا عن التمتع بالملكوت الأبدي، فلا يعني بالأكل والشرب والجلوس على الكراسي المعنى الحرفي، لأن ملكوت الله ليس أكلاً ولا شربًا (رو ١٤: ١٧)، إنما يعني حالة الشبع الأبدي والسلطان في الرب. وكما يقول **القديس كيرلس الكبير** أنه يصف الأمور الروحية خلال تشبيهات من الحياة الحاضرة، إذ يُحسب ذلك امتيازًا كبيرًا أن يجلس الناس مع الملوك على مائدتهم، ويشتركون معهم في طعامهم!

يقول **القديس أمبروسيوس** أن الرسل يدينون أسباط إسرائيل لا بجلوسهم على كراسي للقضاء بصورة مادية، وإنما يكونون علة تبكيت لهم خلال إيمانهم وفضائلهم، فينفضح جحود إسرائيل وإثمه.

٦. تحذيره لبطرس

أعلن صديقنا قبوله الآلام واحتماله الصلب لتقديم حياته الفصحية لأجل خلاصنا، فقد قابل قادة اليهود الحب بالبغضة ومحاولة الخلاص منه، كما قابل تلميذه يهوذا هذه الصداقة بالخيانة في أبشع صورها، الآن إذ يعلن لتلاميذه: "**أنتم الذين ثبتوا معي في تجاربي**" [٢٨]، يؤكد أن هذا الثبوت في حقيقته هو عطية إلهية أو نعمة مجانية بدونها كان يمكن أن يفنى إيمانهم. بمعنى آخر أن كان سقوط يهوذا إلى الحضيض هو ثمرة شره الشخصي بالرغم من تقديم كل فرصة له للتوبة، فإن ثبات الإحدى عشر رسولاً هو هبة من الله، لكنهم يقبلون هذه الهبة في كمال حريتهم. هذا ما أعلنه السيد في تحذيره لبطرس الرسول.

"**وقال الرب: سمعان سمعان،**
هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة.
ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك،
وأنت متى رجعت ثبت إخوتك.
فقال له: يا رب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت.
فقال: أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات أنك تعرفني" [٣١-٣٥].

ويلاحظ في هذا الحوار الآتي:

أولاً: لعله اختار سمعان بطرس على وجه الخصوص، لأنه اتسم بالطموح والاندفاع، فربما كان أحد المنهمكين في الحديث عن "من هو الأكبر؟"، أو لأنه إذ سمع كلمات السيد: "أنتم الذين ثبتم في

تجاربي" حسبَ نفسه أول الثابتين، فأراد الرب أن يكشف فيه ضعف الطبيعة البشرية بوجه عام، فيرى كل منا فيه ضعفه الشخصي. إن كان يهوذا يمثل "الخيانة" فإن بطرس يمثل "الضعف" الذي يحتاج إلى عونٍ إلهيٍ، فيقوم ليثبت ويثبت الآخرين معه خلال النعمة الفياضة التي ينالها.

❖ قيل هذا لبطرس لأنه كان أكثر جسارة من البقية، وربما يشعر بالكبرياء من أجل الوعود التي قدمها المسيح (أن يملكوا ويدينوا أسباط إسرائيل الإثني عشر).

الأب ثيؤفلاكتيوس

ثانيًا: في هذا الحديث أبرز السيد المسيح حقيقة المعركة الروحية من أجل ملكوت الله، فإن كان قلب الإنسان هو ميدانها، لكن المعركة في حقيقتها بين الله والشيطان. هنا نرى الشيطان وقد استولى على قلب يهوذا وملك فيه بالكامل، طمع أن يملك في قلوب الآخرين، وهو لا يقدر أن يقتحم حياتنا ويجربنا دون استئذان، إذ يقول السيد المسيح: "**هوذا الشيطان طلبكم لكي يغربلكم كالحنطة**" [٣١]. فإن كانت تجاربه أشبه بالغربلة التي تفرز الزوان لحسابه ولا تقدر أن تمس الحنطة، لكن حتى هذه الغربلة لا تتم بدون استئذان من الرب.

هنا تبرز حقائق روحية هامة، أن عدو الخير يبذل كل الجهد ليغربل ما استطاع كل البشر بتجاربه، لكنه وإن نال سماحًا من الله أن يغربل تبقى عناية الله على حنطته فلا تُمس بالتجارب بل تُفرز عن الحنطة وتتزكّى لكي تكلل؟ أقول إننا حنطة الله، موضع عنايته، لن يمسنا العدو الشرير مهما غربلنا. إلا إذا سمحنا لأنفسنا أن نتحول من حنطة الله إلى زوان إبليس.

أيها الحبيب حتى وإن كنت زوانًا، فأعلم أن الرب قد جاء ليحوّل زواننا إلى حنطة، فينتزعنا من مملكة إبليس لنكون مملكته.

حرب العدو متنوعة وبلا هوادة، وكما يقول **القديس أوغريس** للرهبان: أن العدو يحاربهم في النهار خلال من هم حولهم من البشر، أمّا في الليل فيقوم بمحاربتهم بنفسه مباشرة، إذ يقول: [في الليل تطلب الشياطين أن تغربل المعلم الروحي بأنفسهم، أما في النهار فتستخدم البشر ليحيطوه بأصناف المعاكسات والافتراءات والمخاطر[١].]

ثالثًا: استخدم **القديس أغسطينوس** كلمات السيد المسيح لبطرس الرسول: "**ولكني طلبت لأجلك لكي لا يفنى إيمانك**" للرد على أتباع بيلاجيوس الذين في دفاعهم الشديد عن الحرية الإنسانية كادوا

[1] *On Prayer 139.*

أن ينكروا عمل النعمة الإلهية، حاسبين أن الإنسان قادر على الخلاص بإرادته وبجهاده الشخصي. هنا يؤكد **القديس أغسطينوس** أنه حتى الإيمان هو عطية الله، إذ يطلب الابن الوحيد الجنس من أجل رسوله كي لا يفنى إيمانه.

كان الرسول بطرس يظن في نفسه أنه قادر على مشاركة السيد المسيح كل آلامه حتى الموت، ففي غيرة بشرية لكن بقلب صادق قال: "**يا رب إني مستعد أن أمضي معك حتى إلى السجن وإلى الموت**" [٣٣]، ولم يدرك أنه كان في حقيقته عاجزًا حتى عن الصلاة والسهر معه في البستان، ولا أن يقف أمام جارية في بيت رئيس الكهنة. لقد اعتمد بطرس على ذاته، ولم يدرك ضعفه الحقيقي... الأمر الذي يعرفه عنه سيده أكثر من معرفته هو لنفسه.

- ❖ ماذا طلب السيد من أجله إلا أن يبقى مثابرًا حتى النهاية؟! بالتأكيد لو كان الإنسان قادرًا على ذلك من نفسه لما طُلب ذلك من الله لأجله. لذلك عندما يقول الرسول: "أصلي إلى الله أنكم لا تعملون شيئًا رديًا" (٢ كو ١٣: ٧)، بلا شك يصلّي إلى الله لأجلهم من أجل المثابرة[١].

- ❖ بهذا لا نظن قط أن إيماننا يتوقف على حرية إرادتنا دون حاجة إلى عون إلهي[٢].

- ❖ لقد عرف (السيد المسيح) بطرس على الدوام؛ عرفه حين كان بطرس لا يعرف نفسه. وذلك كما يحدث دومًا مع المرضى، فإن المريض لا يعرف ما يجري في داخله بينما يعرف الطبيب ذلك، حتى وإن كان الأول يتألم من المرض بينما الطبيب لا يتألم. يقدر الطبيب أن يخبرنا بما يدور في حياة الآخرين حسنًا، بينما لا يقدر المريض نفسه أن يخبر بما يدور في داخله.

- ❖ لا يعرف الإنسان ما في داخله، لكن خالق الإنسان يعرف ما بداخل الإنسان[٣].

القديس أغسطينوس

- ❖ كان يعلمنا التواضع بكل وسيلة مؤكدًا أن الطبيعة البشرية بذاتها كلا شيء[٤].

القديس يوحنا الذهبي الفم

- ❖ يعلمنا أنه يلزمنا أن نفكر بتواضع من جهة أنفسنا، إننا كلا شيء، وبحسب طبيعتنا البشرية واستعدادنا الفكري نسقط في الخطية، ولكن به وفيه فقط نتقوى، ونصير على ما نحن عليه. إن

---

[1] *On Rebuke & Grace 10.*
[2] *In loan . 53: 8.*
[3] *Ser. On N.T. Lessons 87: 3.، In loan. Tr 11: 2.*
[4] *In loan. Hom 73: 1.*

كنا نستعير منه خلاصنا، فنُحسب به فضلاء وأتقياء فأي مجال إذن لأفكار الكبرياء؟ كل ما لدينا هو من عنده، وليس شيء من عندنا. "أي شيء لك لم تأخذه؟! وإن كنت قد أخذت فلماذا تفتخر كأنك لم تأخذ؟!" (١ كو ٤: ٧)، هذا ما نطق به الحكيم بولس، كما يقول الطوباوي داود: "الله قوّتنا"؛ مرة أخرى يقول: "الله ملجأ لنا وقوتنا" (مز ٤٦: ١). كما يقول النبي إرميا: "يا رب عِزّي وحِصني وملجأي في يوم الضيق" (إر ١٦: ١٩). وأيضًا الطوباوي بولس إذ يتقدم يقول: "أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني" (فى ٤: ١٣). نعم والمسيح نفسه يقول لنا: "بدوني لا تقدرون أن تفعلوا شيئًا" (يو ١٥: ٥).

❖ يظهر المسيح أنه حتى ذاك الذي يبدو عظيمًا فهو كلا شيء وضعيف... إن كان الشيطان قد اعتاد أن يهاجم أناسًا ذوي سمو ممتاز غير عادي، فإنه يقيم معركة فريدة شرسة وبربرية ضد من لهم سمعة طيبة في الحياة التقوية[١].

القديس كيرلس الكبير

رابعًا: لقد طلب السيد المسيح من الآب لأجل بطرس، وكما يقول **القديس كيرلس الكبير**، أنه يتواضع لأجلنا، فيتحدث السيد هنا كما في حدود الإنسان، فإن كان هو الله بطبيعته، حتى وإن كان قد صار جسدًا، وهو قوة الآب الذي به يُحفظ كل شيء، ومنه ننال قدرة العمل الصالح، لكنه إذ صار إنسانًا يطلب من الآب. [كان ضروريًا، نعم كان لائقًا بذاك الذي لأجل التدبير أن يصير إنسانًا مثلنا أن يمارس أيضًا أعمالنا عندما يستلزم الأمر ذلك[٢].]

خامسًا: يرى **القديس أغسطينوس**[٣] إن طلبة السيد المسيح من أجل بطرس لم تقيد حرية إرادة بطرس، فإنه لا يلزمه بعدم السقوط. إنه يقدم العون الإلهي، ومن حق بطرس أن يقبل هذا العون أو يرفضه. في موضع آخر يؤكد ذات القديس[٤] أن الله يهتم بحرية الإنسان، وإلا كانت وصاياه بلا نفع، لكنه يحتاج إلى النعمة الإلهية لتسنده على تنفيذ الوصية.

سادسًا: يميز **القديس باسيليوس الكبير** بين سقوط المندفعين مثل القديس بطرس وسقوط الآخرين، قائلاً بأن الله يسمح للمندفعين (في الغيرة) بالسقوط أحيانًا كعلاج لهم من الاتكال على الذات، وغالبًا ما يتم ذلك خفية وعن ضعف الإنسان وليس عن جحود وإصرار، أما الآخرون،

---

[1] *In Luc hom 144.*
[2] *In Luc hom 144.*
[3] *On Rebuke & Grace 16.*
[4] *Grace & Freewill 9.*

فيسقطون عن جحود وإصرار. لهذا فالأولون يحتاجون إلى عون إلهي مع رقة لإقامتهم، أما الآخرون فغالبًا ما يحتاجون إلى توبيخ شديد وتأديب حتى يدركوا أن الله ديان، ويرتعبوا فيتوبوا.

سابعًا: يربط السيد المسيح التوبة أو الرجوع إليه بالعمل الإيجابي في خدمة النفوس، إذ يطالب السيد المسيح سمعان بطرس: "**وأنت متى رجعت ثبت إخوتك**". هذه التوصية الإلهية عاشها داود النبي في لحظات توبته، إذ كان يصرخ في مزمور التوبة، قائلاً: "فأُعلم الآثمة طرقك" (مز ٥٠: ١٣).

يقول **القديس كيرلس الكبير**[1] أن السيد المسيح وإن كان قد حذر من التجارب الشيطانية، لكنه قدم كلمة تعزية. بمعنى آخر، مسيحنا كصديقٍ حقيقيٍ وهو يحذرنا من الضعف، لكنه لا يقف عند الجانب السلبي بل يسندنا ويشجعنا لممارسة العمل الإيجابي بقوة، فلا نخف الحرب الشيطانية أو سلطان الخطية، إنما نؤمن بذاك الذي يسكن فينا ويعمل في داخلنا بسلطان للبناء الروحي.

أسلوب السيد المسيح في معاملاته معنا يدفعنا إلى "الرجاء الحيّ"، فمع التحذير يعطي قوة، ويدفعنا للعمل بلا تخوف أو تخاذل.

ثامنًا: إذ كان القديس بطرس بعد هذا الحديث لا يزال يظن أنه قادر على التبعية مع المسيح خلال غيرته البشرية، أكدّ له السيد أنه سينكره ثلاث مرات، وقد سبق لنا الحديث في هذا الأمر في تفسير مت ٢٦: ٣٤؛ مر ١٤: ٣٠.

٧. تحذير عام

إذ قدم السيد المسيح تحذيره للقديس بطرس الرسول مؤكدًا له أنه سينكره ثلاث مرات قبل أن يصيح الديك، معلنًا له أنه سيرجع عن هذا الضعف خلال عمل الله ونعمته، الآن يطلب من تلاميذه ككل أن يتسلحوا بسيفي الإيمان والجهاد الروحي، أي بالإيمان العامل بالمحبة.

"**ثم قال لهم: حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية**
هل أعوزكم شيء؟ فقالوا: لا.
فقال لهم: لكن الآن من له كيس فليأخذه، ومزود كذلك،
ومن ليس له فليبع ثوبه ويشترِ سيفًا.
لأني أقول لكم أنه ينبغي أن يتم فيّ أيضًا هذا المكتوب:
وأُحصيَ مع آثمة،

[1] *In Luc hom 144.*

لأن ما هو من جهتي له انقضاء.

فقالوا: يا رب هوذا هنا سيفان.

فقال لهم: يكفي" [٣٥-٣٨].

أولاً: في إرساله لهم لم يسألهم شيئًا سوى التخلي عن كل شيء حتى الضروريات ليكون هو سرّ شبعهم والمدبّر لحياتهم الخاصة وعملهم الكرازي، أما الآن وقد حان وقت الصليب وجّه أنظارهم للجهاد، لا ليحملوا سيفًا ويحاربوا به كما ظن التلاميذ، وإنما ليحملوا سيف الإيمان الحيّ العامل بالمحبة. لهذا عندما قالوا له أنه يوجد سيفان، قال لهم: يكفي. وقد حسبوه أنه يقصد السيفين الماديين.

يشبه **القديس يوحنا الذهبي الفم** تصرفِ المسيح هذا أشبه بمدرب السباحة الذي يضع يديه تحت جسم من يدربهم وهم في المياه فيشعروا براحة وثقة، ثم يسحب يديه قليلاً قليلاً فيجاهدوا ويتعلموا. هكذا في البداية لم يحثهم السيد عن الجهاد الروحي، إنما أرسلهم للكرازة محمولين على يديه لا يحتاجون إلى شيء، والآن يسألهم الجهاد الروحي بسيف الروح الحق، ليواجهوا الضيقات ويحتملوا الصلب معه بفرح ولا يتعثروا.

لم يتركهم السيد المسيح في عوزٍ إلى شيء، بل بفيض أشبع كل احتياجاتهم حين كان معهم بالجسد، والآن لمحبته أراد لهم أن يتركهم ليحمل هو الصليب، ويصيرون كما في عوز، لكي ينعموا بخبراتٍ جديدةٍ وسط العوز والألم. المحبة التي من خلالها عاشوا فترة من الزمن في راحة بلا عوز هي بعينها التي سمحت لهم أن يمارسوا الشركة معه في آلامه. لهذا السبب كما يقول **القديس أنبا أنطونيوس الكبير** في رسائله أن الله غالبًا ما يعطي للتائبين في بداية توبتهم تعزيات كثيرة ليرفعهم ويسندهم، لكنه يسمح فينزع هذه التعزيات إلى حين، لكي يجاهدوا وسط الآلام فيتزكون، وينالون تعزيات أعظم من الأولى.

ثانيًا: يرى **القديس أمبروسيوس** أن السيف الذي طلب السيد من تلاميذه أن يقتنوه هو "كلمة الله" التي تُحسب كسيفٍ ذي حدين.

❖ "**ومن ليس له، فليبِع ثوبه ويشترِ سيفًا" [٣٦].**

لماذا تأمرني يا رب بهذا الشراء، بينما تمنعني من الضرب (مت ٢٦: ٥٢)؟

لماذا تأمرني باقتناء ما تمنعني عن إخراجه من غمده، حتى ولو للدفاع عن النفس؟!

كان الرب قادرًا على الانتقام، لكنه فضل أن يُذبح! يوجد أيضًا السيف الروحي الذي يجعلك تبيع ميراثك لتشتري الكلمة التي تكتسي بها أعماق الروح.

يوجد أيضًا سيف الألم الذي به تخلع الجسد لتشتري بنفايات جسدك المذبوح إكليل الاستشهاد المقدس...

ربما يقصد بالسيفين العهد القديم والعهد الجديد، اللذين بهما نتسلح ضد مكائد إبليس (أف ٦: ١١)، لذا قال الرب "يكفي" حتى نفهم أن التعلم الوارد في العهدين ليس فيهما نقص[1].

القديس أمبروسيوس

هذا ويرى **القديس يوحنا الذهبي الفم** أن هذين السيفين لم يكونا سوى سكينين كبيرين كانا مع بطرس ويوحنا، أُستخدمتا في إعداد الفصح (إن كان قد قُدم يوم خميس العهد).

ثالثًا: يلاحظ أن السيد المسيح يحدث التلاميذ عن الجهاد الروحي حالاً بعد مناقشتهم بخصوص أحاديثهم عمن يحتل المركز الأول، وكأنه يريد أن يوجههم إلى الجهاد عوض الانشغال بالكرامات الزمنية. كأنه يقول لهم أنه ليس وقت لطلب المجد، وإنما للصراع ضد عدو الخير، والجهاد لحساب الملكوت، وكما يقول **القديس يوحنا كاسيان** إننا الآن في وادي الدموع الذي يعبر بنا إلى الأمجاد الأبدية.

❖ بينما كانوا يتشاحنون فيما بينهم من يكون الأكبر، قال لهم: أنه ليس وقت الكرامات إنما هو وقت الخطر والذبح. انظروا، أنا سيدكم أُقاد للموت البشع، مُحتقرًا من العصاة!

الأب ثيؤفلاكتيوس

رابعًا: إذ حلّ وقت آلامه وصلبه، تحدث عن السيف لكي يهيئ أذهانهم لما سيحل به من أتعاب، فلا تكون مفاجئة لهم.

خامسًا: بلا شك وجود سيفين في أيدي أثنى عشر صيادًا لا يساويان شيئًا أمام جماهير اليهود وجنود الرومان القادمين للقبض عليه، خاصة إن كان السيفان مجرد سكينتين، حتى إن كانا سيفين حقيقيين فإن هؤلاء الصيادين بلا خبرة في استخدام السيوف، لهذا يرى البعض أن كلمة السيد المسيح "يكفي" إنما ترجمة للكلمة العبرية "دَيِّر" التي كان معلمو اليهود يستخدمونها ليسكتوا بها جهالة بعض تلاميذهم. وكأن السيد المسيح أراد أن يسكت تلاميذه الذين انصرفت أفكارهم إلى السيف المادي لا سيف الروح.

٨. صلاته على جبل الزيتون

[1] *In Luc 22: 14-38.*

إذ أسس السيد المسيح سرّ الإفخارستيا، مقدمًا جسده ودمه المبذولين سرّ حياة لمؤمنيه قدم لتلاميذه حديثًا وداعيًا جاء في شيء من التفصيل في الإنجيل بحسب معلمنا يوحنا (ص ١٤-١٦) وأيضًا صلاته الوداعية مع الآب (ص ١٨)، ثم انطلق مع تلاميذه إلى بستان جثسيماني بوادي قدرون، يبعد حوالي نصف ميل عن أورشليم.

في هذا البستان، الذي على ما يُظن أنه ملك القديس مرقس الرسول، كثيرًا ما اجتمع السيد المسيح مع تلاميذه (يو ١٨: ٢)، لكن أحدًا من الإنجيليين لم يخبرنا عن تفاصيل هذه اللقاءات ولا ذكرياتها أو المواضيع التي دار الحديث عنها، إنما ركز الكل على الاجتماع الأخير الفريد قبيل القبض على السيد المسيح.

لقد سحب هذا البستان بأحداثه الأخيرة في ليلة الجمعة الكبيرة قلوب الكثير من آباء الكنيسة ليروا فيه مقدسًا إلهيًا، يتحقق فيه، لا عمل تاريخي فريد، وإنما عمل إلهي فائق للفكر البشري، إذ فيه التقى الابن بأبيه الذي لا ينفصل عنه، ليحمل كأس الألم، ويعلن قبوله الصليب ويمارسه بالحق، حانيًا رأسه وكتفيه ليرفع عنا ثقل خطايانا، فيردنا لا إلى جنة عدن بل إلى الفردوس السماوي.

دخل السيد المسيح البستان في هذه المرة الأخيرة كما إلى هيكله المقدس ليترك ثمانية من تلاميذه كما في الدار الخارجية، ويدخل بثلاثة إلى القدس، وأخيرًا ينطلق بمفرده ليجثو في قدس الأقداس كرئيس كهنة أعظم يقدم ذبيحة فريدة عن العالم، يقدم حياته مبذولة طاعة للآب وحبًا للبشرية.

وإنني أرجو في الرب أن أترك الحديث عن هذا البستان في هذه اللحظات العجيبة إلى دراستنا في إنجيل يوحنا إن أذن الرب وعشنا، مكتفيًا هنا بما ورد في إنجيل معلمنا لوقا البشير مع تقديم بعض التعليقات البسيطة:

أولاً: يقول الإنجيلي: "**وخرج ومضى كالعادة إلى جبل الزيتون، وتبعه أيضًا تلاميذه، ولما صار إلى المكان قال لهم: صلوا لكي لا تدخلوا في تجربة**" [٣٩-٤٠].

كلمة "جثسيماني" آرامية تعني "معصرة زيت". وكأن السيد قد دخل المعصرة بإرادته ليجتازها من أجلنا. حقًا لقد تبعه تلاميذه، لكن بقي ثمانية في موضع بعيد وثلاثة يقتربون إليه، إنما لا يجسر أحد، ولا يقدر أحد أن يحتمل لحظات قبول السيد الكأس من يدي الآب، وحمله صليبه كفارة عنا، إذ يقول: "قد دست المعصرة وحدي ومن الشعوب لم يكن معي أحد" (إش ٦٣: ٣).

نستطيع بنعمته أن ندخل معه وبه إلى جثسيماني، وندخل المعصرة، كل قدر قامته الروحية أما مع الثمانية تلاميذ أو الثلاثة، أما العمل الكفاري فمن اختصاص السيد وحده. نحن بالحب نصلب

معه ونشاركه آلامه ونقبل الدفن معه لنقوم معه، لكن يبقى الصليب في جوهره كعمل مصالحة بين الآب والبشرية من اختصاص المسيّا وحده.

هذا والعجيب أن السيد المسيح إذ قدم سرّ الفصح الجديد أخذ تلاميذه إلى البستان، وهناك حذرهم: "**صلّوا لكي لا تدخلوا في تجربة**" فإن كان الفصح الجديد يعطي سلامًا داخليًا وبهجة قلب، لكنه يجعلنا بالأكثر في موضع عداوة بالنسبة لعدو الخير، فيبذل الشيطان كل طاقاته ليدخل بنا في تجربة ويحطم شركتنا مع الله وثبوتنا في المسيح يسوع ربنا. بمعنى آخر بعد التناول يريدنا السيد ألا ننام ونستكين، بل ننطلق معه إلى المعصرة لنسهر ونصلي، لكي ننال الغلبة والنصرة على هجمات العدو التي تتزايد ضدنا بتمتعنا بهذا السرّ.

ثانيًا: "**وانفصل عنهم نحو رمية حجر وجثا على ركبتيه وصلّى**" [٤١]. وكأنه قد ترك الثمانية عند مدخل البستان والثلاثة في داخله، لكنه انطلق بعيدًا عنهم نحو رمية حجر كمن يدخل قدس الأقداس، لكي بصليبه يمزق الحجاب الحاجز، ويفتح الأبواب الدهرية لمؤمنيه.

لماذا جثا على ركبتيه وصلّى؟ أولاً، ليؤكد لنا ناسوتيته، فقد صار إنسانًا بحقٍ، وليس كما ادعى بعض الغنوسيين أنه حمل جسدًا خياليًا غير مادي. لقد شاركنا ناسوتيتنا، ودخل معنا في بوتقة الألم ليس مثلنا بسبب خطية ارتكبها، وإنما من أجل حبه لنا. كان متألما، لكنه في آلامه كان فريدًا، لأنه بلا خطية وحده. من هذا الجانب ومن جانب آخر أراد أن يعلمنا عمليًا ألا نكف عن الصلاة، خاصة وقت الضيق.

أما انفصاله "**نحو رمية حجر**" فكما يقول **القديس أغسطينوس** أن "الحجر" هنا يذكرنا بالشريعة الموسوية التي نُقشت على حجر، فقد انفصل بهذا المقدار ليعلن أن غاية الشريعة هي السير نحو المسيح الذي ليس ببعيدٍ عنهم، لكن كان يمكنهم خلال ما ورد في الناموس أن يتعرفوا عليه ويقبلوه في حياتهم.

هذا ويرى **القديس غريغوريوس أسقف نيصص** أن السيد جثا على ركبتيه وصلى بمفرده دون التلاميذ، لأنه لم يكن ممكنًا لهم أن يشاركوه هذه اللحظات التي حمل فيها ضعفنا، وشفع عنّا بدمه لدي الآب. وكأن عمله هذا كان فريدًا في نوعه.

ثالثًا: "**وصلى قائلاً: يا أبتاه إن شئت أن تجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك**" **[٤٢]**. سبق لنا ترجمة مقال **للقديس يوحنا الذهبي الفم** ونشره في كتاب "الحب الإلهي" يفسر هذه الصلاة، لذا أكتفي هنا بتعليقات خفيفة لبعض الآباء في هذا الأمر:

أ. يرى بعض الآباء أن تعبير "**تجيز**" أو "**تعبر عني**"، لا تعني امتناع السيد عن قبول الكأس، إنما يعلن أن كأس الألم تجتاز به أو تعبر دون أن يكون لها سلطان عليه. هكذا يليق بنا أن نطلب من الله أنه وإن سمح لنا بكأس الآلام، لكننا نطلب ألا يحطمنا الألم، ولا يحني نفوسنا بالضيق والتبرم، إنما يجتاز الألم كأمرٍ عابرٍ مؤقت يزكينا ويكللنا!

❖ العبارة "**لتعبر هذه الكأس**" لا تعني أنها لا تقترب منه، فإنه ما كان يمكن للكأس أن تعبر به أو تجتازه ما لم تقترب منه أولاً... فإنها إن لم تصل إليه لا تعبر عنه.

القديس ديونسيوس السكندري

ب. يرى **القديس أمبروسيوس** أن ما حدث يؤكد أن السيد المسيح حمل جسدًا حقيقيًا، وأنه جاء نيابة عن البشرية يحقق إرادة الآب[1].

جوهر هذه الصلاة هو تصحيح السيد المسيح لوضعنا، فعوض العصيان الذي مارسه آدم الأول ويعيشه البشر، جاء آدم الثاني، نائبنا ليصحح موقفنا بتسليم الإرادة للآب، مع أن إرادته واحدة مع أبيه. وكما يقول **القديس ديونسيوس السكندري**: [إذ صار إنسانًا حمل ما هو للإنسان... وها هو يسأل الأمور الخاصة بالآب (إرادة الآب) مع أنه من جهة لاهوته إرادته واحدة مع الآب... بالتأكيد لم يطلب المخلص ما هو مستحيل ولا ما هو ليس بعملي، ولا ما هو مخالف لإرادة الآب.] ويقول **القديس أمبروسيوس**: [لا توجد إرادة للآب تختلف عن إرادة الابن، بل لهما مشيئة واحدة، لاهوت واحد، ومع ذلك تعلم الخضوع لله[2].] ويقول **القديس أغسطينوس**: [أنه قادر أن يحضر جيوش من الملائكة ليهلك أعداءه، لكنه كان يجب أن يشرب الكأس التي يريد الآب أن يقدمها له. بهذا يقدم نفسه مثالاً لشرب هذه الكأس، مسلمًا إياها لتابعيه معلنًا نعمة الصبر بالكلمات كما بالعمل[3].]

يشجعنا **القديس يوحنا الذهبي الفم** على الإقتداء بالسيد المسيح، قائلاً: [إن سقطت في خوفٍ، فانطق بما قاله هو[4].]

رابعًا: "وظهر له ملاك من السماء يقويه" [٤٣]. لم يكن السيد المسيح محتاجًا إلى ملاك يقويه، لكنه كممثل للبشرية حمل صورة ضعفنا، فقبل حضرة ملاك من السماء يخدمه. ما حدث للسيد كان لحسابنا نحن الذين نحتاج إلى الملائكة الذين يخدمون "العتيدين أن يرثوا الخلاص" (عب ١: ١٤).

---

[1] *Of Christian Faith 5.*
[2] *In Luc 22: 39: 53.*
[3] *Reply to Faustus 22: 76.*
[4] *In Matt . hom 78: 4.*

❖ لكي يظهر لنا قوة الصلاة فنمارسها أثناء صراعنا، ظهر ملاك لربنا ليقويه.

الأب ثيؤفلاكتيوس

يرى البعض أن ملاكًا ظهر ليمجده، قائلاً له: "لك القوة يا رب، فإنك قادر أن تغلب الموت وتخلص البشرية الضعيفة. هذا ما قاله **الأب ثيؤفلاكتيوس**، ولعله لهذا السبب جعلت الكنيسة تسبحتها طوال أسبوع الآلام تحمل ذات الروح، إذ تردد: "لك القوة والمجد والبركة والعز إلى الأبد، آمين..."

خامسًا: "وإذ كان في جهاد كان يصلّي بأشد لجاجة، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض، ثم قام من الصلاة، وجاء إلى تلاميذه، فوجدهم نيامًا من الحزن فقال لهم: لماذا أنتم نيام؟ قوموا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة" [٤٤-٤٦]. هذا وصف يسجله لوقا البشير بلغة الطب: "**كان في جهاد**"، فقد دخل السيد المسيح في صراع حقيقي حتى صار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض. لقد صار هابيل الجديد الذي تتقبل الأرض دمه، لكن الأول تقبلته كثمرة حسد وحقد في قلب قايين أخيه، أما الثاني فتتقبله ثمرة حب حقيقي نحو البشرية كلها. دم هابيل يطلب النقمة من قاتله، أما دم السيد المسيح فيطلب النعمة لكل مؤمن به.

كان المعلم يصارع بحق، وكان التلاميذ في عجز غير قادرين حتى على مقاومة النوم، لذا جاء السيد يعاتبهم ويوصيهم بالسهر مع الصلاة حتى لا يدخلوا في تجربة.

❖ لقد حمل في نفسه آلامي، لكي يمنحني فرحه!

بثقة اذكر حزنه، إذ أكرز بصليبه،

كان يلزم أن يحمل الأحزان لكي يغلب...

لقد أراد لنا أن نتعلم كيف نغلب الموت، بالأكثر نحطم الموت القادم (الأبدي).

لقد تألمت أيها الرب لا بآلامك، وإنما بآلامي، إذ جُرح لأجل معاصينا...

ليس بعيدًا عن الحق أنه قد تألم من أجل مضطهديه، إذ يعرف أنهم يعانون العقوبة من أجل تدنيسهم للمقدسات.

القديس أمبروسيوس

❖ كان العرق يتصبب كالدم وربنا يصلي، ممثلاً الاستشهاد الذي يحل بكل جسده، أي الكنيسة.

القديس أغسطينوس

❖ فاضت قطرات العرق منه بطريقة عجيبة كقطرات دم، كما لو أنه استنزف دمه، مفرغًا ينبوع

الخوف اللائق بطبيعتنا.

❖ **(لئلا تدخلوا في تجربة)**

من يثبت في التجربة ويحتملها، فمثل هذا وإن كان بالحقيقة يُجرب لكنه لا يدخل في تجربة، ولا يسقط تحتها. هكذا اقتاد الروح يسوع لا ليدخل في تجربة، وإنما لكي يجربه الشيطان (مت ٤: ١). وإبراهيم أيضًا لم يدخل في تجربة، ولا قادة الله في تجربة إنما جربه (امتحنه) دون أن يسحبه في التجربة (أي تحتها)...

الشيطان يسحبنا بالقوة لكي يهلكنا، لكن الله يقودنا بيده ليدربنا على خلاصنا.

القديس ديونيسيوس السكندري

٩. تسليمه

"وبينما هو يتكلم إذا جمع
والذي يُدعى يهوذا واحد من الإثنى عشر يتقدمهم،
فدنا من يسوع ليقبله.
فقال له يسوع: يا يهوذا، أبقبلة تسلم ابن الإنسان؟
فلما رأى الذين حوله ما يكون، قالوا يا رب، أنضرب بالسيف؟
وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى.
فأجاب يسوع وقال: دعوا إلى هذا، ولمس أذنه وأبرأها" [٤٧-٥١].

أولاً: جاء الجمع يضم رؤساء الكهنة وقواد جنود الهيكل ومعهم بعض جند الرومان والشيوخ (يو ١٨: ١٢) تحت قيادة يهوذا. حمل قادة اليهود سلاح الكراهية والبغضة في قلوبهم، وأمسك الجند بالسيوف والعصي، أما يهوذا فتقدم بقبلة من شفتيه كانت أكثر مرارة من كل الأسلحة، قبلة غاشة من تلميذ نحو معلمه! كان يهوذا بشعًا في خطئه، فمن جانب قدم القبلة علامة الحب والولاء علامة للتسليم، قدمها في عيد الفصح حيث كان يليق به أن يكون ورعًا وتقيًا يخشى حرمة أعظم عيد يهودي، قدمها في البستان وهو يعلم أنه موضع الصلاة بالنسبة لمعلمه. انتهك التلميذ كل المقدسات، انتهك حرمة التلمذة، وحرمة العيد، وحرمة الصلاة، وبلا ثمن، إذ طلب منهم ثمن عبد!

يقول داود النبي على لسان السيد المسيح الذي خانه تلميذه: "لأنه ليس عدو يعيرني فأحتمل، ليس مبغضي تعظّم عليّ فأختبئ منه، بل أنت إنسان عديلي، ألفي وصديقي الذي معه كانت تحلو لنا العشرة" (مز ٥٥: ١٢-١٤).

❖ لم يكف يهوذا عن خيانته مع أن المسيح حذره بكل وسيلة (إذ قال له في اللحظات الأخيرة: يا يهوذا أبقبلة تسلم ابن الإنسان؟)

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ لم يقل له: "أيها الفظ"، مع أنه هو خائن فظ حقًا، هل هذا هو ما تقدمه مقابل اللطف العظيم؟ إنما في بساطة قال: "يا يهوذا"، مستخدمًا الاسم اللائق واللقب اللطيف، إذ لا ينطق بغضب، إنما يريده أن يراجع نفسه.

لم يقل له: "تسلم سيدك أو ربك أو من له الفضل عليك"، إنما في بساطة قال "تسلم ابن الإنسان"، أي تسلم ذاك اللطيف الوديع. كأنه يقول له: افترض إنني لست سيدك ولا ربك ولا من له الفضل عليك، أتسلم شخصًا بريئًا ولطيفا معك، فتقبله في ساعة خيانتك له، وتجعل من القبلة علامة الخيانة؟

مبارك أنت يا رب! يا لك من مثال عظيم في احتمال الشر، أظهرته لنا في شخصك! يا لعظم مثال تواضعك! لقد أعطانا الرب هذا المثال مظهرًا لنا أنه يجب ألا نكف عن تقديم المشورة الصالحة لإخوتنا، حتى وإن بدت كلماتنا بلا نفع نهائيًا.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ يليق بنا ألا نكف عن نصح إخوتنا حتى وإن بدت نصائحنا بلا ثمر، فإن مجاري المياه تفيض حتى وإن لم يشرب منها أحد؛ ومن لا يسمع اليوم ربما يتعظ غدًا. الصياد قد تبقى شباكه فارغة طول اليوم، وفي اللحظات الأخيرة يصطاد سمكة. هكذا ربنا مع معرفته أن يهوذا لا يرجع لكنه لم يكف عن تقديم نصائح له[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثانيًا: "**القبلة**" علامة الحب والصداقة والشوق، استخدمها يهوذا لتسليم سيده، فصارت بالنسبة له علامة الخيانة والجحود. لهذا يوصينا الآباء ألا نحمل في سلوكنا علامات لطيفة ورقيقة تخفي قلبًا قاسيًا وعنيفًا، إنما ليحمل الخارج انعكاسًا حقيقيًا للأعماق الداخلية... من أمثلة ذلك الصمت الظاهري كعلامة للصفح أو الاحتمال بينما الأعماق تغلي كراهية، أو الصمت الخارجي لا رغبة في اللطف وإنما كنوع من الإغاظة...

❖ باطلاً نلجم ألسنتنا، إن كان صمتنا يقوم بنفس الدور الذي يقوم به الصراخ[٢].

---

[1] *Conc. Lazer.1.*
[2] *Cassian: Conf. 16: 18.*

الأب يوسف

ثالثًا: إذ رأى التلاميذ هذا الهياج العام ضد سيدهم البريء، قالوا في غيرة بشرية خاطئة: "**يا رب أنضرب بالسيف؟**" [٤٨]. كان ذلك على لسان بطرس، فجاءت الإجابة واضحة وصريحة: "ردّ سيفك إلى مكانه، لأن كل الذين يأخذون السيف بالسيف يهلكون، أتظن إني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبي فيقدم لي أكثر من أثنى عشر جيشًا، فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون؟!" (مت ٢٦: ٥٣-٥٤)، "الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟!" (يو ١٨: ١١).

رابعًا: لم ينتظر بطرس إجابة السيد حين سأله: "يا رب أنضرب بالسيف؟" وربما لم يسمع الإجابة إذ كان قد أُمتص كل فكره بالمنظر المثير، أو لعله كان لم يستيقظ تمامًا. فضرب "ملخس" عبد رئيس الكهنة وقطع أذنه اليمنى.

خامسًا: السيد المسيح بطبيعته صالح ولطيف، لا يكف عن عمل الخير حتى في لحظات الضيق. بينما كان المضطهدون يظهرون كل كراهية وبغضة اهتم السيد المسيح أن يشفي جراحات هذا العبد القادم بثورة ليقتله. يعلق **القديس أغسطينوس** على شفاء أذن هذا العبد "ملخس"، قائلاً: [**"ملخس**" تعني "الذي يعين ليملك". إذن، ماذا تعني الأذن التي قُطعت من أجل الرب وقام الرب بإبرائها، إلا تجديد السمع الذي يُقطع عنه، قدمه لكي يصير في جدة الرب لا في قدم الحرف؟ من يستطيع أن يشك في أن هذا الذي يتمتع بهذا الأمر بالمسيح يُعاق لكي يملك معه؟![1]]

لماذا قُطِعَت الأذن اليمنى للعبد، وقام الرب بشفائها؟ يشير العبد للأمة اليهودية التي كانت في مركز العبودية، لم تتعم بعد بالبنوة لله. هذه الأمة أُعطيت لها الأذن اليمنى لكي تسمع الصوت الإلهي الروحي خلال الناموس، لأنه إن كانت الأذن اليسرى تعني السماع المادي، فاليمنى تعني الروحي. كان يلزمهم أن ينصتوا للناموس روحيًا بختان القلب والأذن، لكن بقسوة قلوبهم فسدت آذانهم إذ كانت غرلة غير مختونة روحيًا. لقد سمح السيد بقطع الغرلة لكي يموت السمع الحرفي، وتختن الأذن الداخلية فتسمع صوت الرب.

سادسًا: كما اهتم السيد المسيح بمحبته أن يعاتب يهوذا في اللحظات الأخيرة قبيل تسليمه لعله يرجع ويتوب، دون أن يجرح مشاعره بكلمة قاسية أو عنيفة، اهتم أيضًا بتلميذه بطرس فسأله ألا يضرب بسيفٍ مادي، كما اهتم أيضًا بملخس عبد رئيس الكهنة فشفى أذنه اليمنى كي يسمع الصوت

---

[1] *In Loan 112: 5.*

الإلهي. الآن يعلن أيضًا اهتمامه بالثائرين ضده، معاتبًا إيّاهم لأجل خلاصهم، إذ يقول الإنجيلي: "**ثم قال يسوع لرؤساء الكهنة وقواد جند الهيكل والشيوخ المقبلين عليه: كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى. إذ كنت معكم كل يوم في الهيكل لم تمدوا عليّ الأيادي، ولكن هذه ساعتكم وسلطان الظلمة**" [٥٢-٥٣].

إنه يعاتبهم لأنهم جاءوا إليه ليلاً... ليمارسوا أعمال الظلمة والشر، منقادين بإبليس "سلطان الظلمة"، مع أنه كان يليق بهم أن يكونوا أبناء النور وأبناء النهار يلتقون به في الهيكل ليتمتعوا بأشعة برِّه واشراقات محبته. لقد دعي هذا العمل "**ساعة**"، لأن أعمال الظلمة مهما امتدت فهي إلى حين وتنتهي. سُمح لهم أن يمارسوا أعمال الظلمة لكن إلى حين!

[راجع أقوال الآباء خاصة **القديسين كيرلس الكبير وأمبروسيوس** في تفسيرنا مت ٢٦: ٤٧ الخ؛ مر ١٤: ٤٣ الخ.]

١٠. محاكمته دينيًا في بيت رئيس الكهنة

سبق لنا عرض أقوال الآباء في محاكمة السيد المسيح الدينية أثناء تفسير مت ٢٦: ٥٧ الخ؛ مر ١٤: ٦٦) الخ.

لقد أُقتيد أولاً إلى حنان حما قيافا رئيس الكهنة، ومن هناك أُقتيد إلى قيافا، ليمزق رئيس الكهنة ثيابه فيتنبأ وهو لا يدري تمزيق الكهنوت اللاوي وإبطاله (مت ٢٦: ٦٣). هناك وُجه إليه اتهامان أنه قال بأنه ينقض الهيكل وفي ثلاثة أيام يبني آخر غير مصنوع بأيدٍ، والثاني إنه مجدف. كان لابد أن يحاكم أمام خاصته ليرفضوه، فيُفتح باب الخلاص للأمم.

١١. إنكار بطرس له

سبق لنا الحديث عن إنكار بطرس (مت ٢٦: ٥٧ الخ؛ مر ١٤: ٤٨ الخ)، حيث رأينا أن بطرس "**تبعه من بعيد**" [٥٤]، بهذا أنكر، ولما اقترب منه لم ينكر. إذ جلس بطرس يستدفئ بالنار بين العبيد والجواري فقد حرارة الروح الداخلي. وأخيرًا تاب وندم إذ "**التفت الرب ونظر إلى بطرس**" [٦٨]. بمعنى آخر يليق بنا لكي لا ننكر الرب أن نقترب منه ولا نتبعه من بعيد. وأن نطلب حرارة الروح الداخلي لا دفئ العالم الكاذب. وأن نطلب من الرب أن يلتفت إلينا بعين رحمته وينظر، فيلهب قلبنا بالتوبة ويهب عيوننا دموعًا صادقة مقبولة لدى الله.

❖ كانت هذه التجربة بحق درسًا لخلاصنا، فنتعلم أننا إذا استهنا بضعف جسدنا نُجرب. إن كان

بطرس قد جُرب فمن منا يمكنه أن ينتفخ؟... لقد أخبرنا عن بطرس الذي جُرب لكي نتعلم منه كيف نقاوم التجارب، وإننا وإن كنا نجرب لكن يمكننا أن نغلب شوكة التجارب بدموع الصبر[١].

القديس أمبروسيوس

ماذا يعني "**فالتفت الرب ونظر إلى بطرس**" [٦١]، سوى أنه قد أعاد إليه الوجه الذي حوله عنه منذ قليل؟! لقد صار مضطربًا لكنه تعلم ألا يثق في ذاته فكان هذا نافعًا له.

❖ لا يمكن أن يقال أنه التفت إليه (تحوّل إليه) ونظره بعينيه الجسديتين... بل تحقق هذا داخليًا؛ تمّ في الذهن، في عمل الإرادة. اقتربت إليه مراحم المسيح بصمت وسريةً، ولمست قلبه، وذكّرته بالماضي. افتقد الرب بطرس بنعمته الداخلية، وأثار فيه دموع مشاعر الإنسان الداخلي عاملاً فيه.

انظر بأية وسيلة الله حاضر بمعونته ليعمل في إرادتنا وأعمالنا، انظر كيف يعمل فينا أن نريد وأن نعمل![٢]

القديس أغسطينوس

❖ كان في عوز إلى أن يذّكره سيده، فكانت نظرته إليه عوض الصوت، فامتلأ خوفًا متزايدًا[٣].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ مراحم الله ضرورية ليس فقط عندما يتوب الإنسان وإنما لكي تقتاده للتوبة... قبل أن يبكي بطرس بمرارة يخبرنا الإنجيلي أن الرب التفت ونظر إليه[٤].

القديس أغسطينوس

يمكننا أيضًا أن نقول بأن بطرس الرسول إذ حدد نظرته إلى ما هو حوله، ومن هم حوله ارتجف أمام كلمات جارية وانهار، لكنه إذ نظر إلى الرب رآه يتحول إلية ليضمه بالحب فندم وتاب!

❖ بكى بطرس، بكى لأنه أخطأ، بكى لأنه ضلّ كإنسان، بكى دون أن يعتذر، لأن الدموع تغسل ما تخجل أن ننطق به بأفواهنا...

الدموع تعترف بالجرم دون أن تؤذي الحياء.

---

[1] *On Belief of Resur. 2: 27.*
[2] *On Rebbuke & Grace 24; On the Grace of Christ 1: 49.*
[3] *In Matt. Hom 85: 1.*
[4] *Enchiridion 82.*

الدموع لا تسأل الغفران لكنها تناله[1].

القديس أمبروسيوس

١٢. جلده والاستهزاء به

"**والرجال الذين كانوا ضابطين يسوع كانوا يستهزئون به وهم يجلدونه.**
وغطّوه وكانوا يضربون وجهه ويسألونه، قائلين:
تنبأ، من هو الذي ضربك؟
وأشياء أخر كثيرة كانوا يقولون عليه مجدّفين" [٦٣-٦٥].

❖ احتمل يسوع، رب السماء والأرض سخرية الأشرار مقدمًا لنا نفسه مثالاً للصبر.

القديس يوحنا الذهبي الفم

١٣. محاكمته في المجمع

"**ولما كان النهار اجتمعت مشيخة الشعب رؤساء الكهنة والكتبة،**
وأصعدوه إلى مجمعهم.
قائلين: إن كنت أنت المسيح فقل لنا.
فقال لهم: إن قلت لكم لا تصدقون.
وإن سألت لا تجيبونني ولا تطلقونني.
منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسًا عن يمين قوة الله.
فقال الجميع: أفأنت ابن الله؟
فقال لهم: أنتم تقولون إني أنا هو.
فقالوا: ما حاجتنا بعد إلى شهادة؟!
لأننا نحن سمعنا من فمه" [٦٦-٧١].

يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس** أن السيد المسيح كان يعلم أن الذين لم يصدقوا أعماله لن يصدقوا كلماته.

لقد سبق فأعلن عن نفسه أن المسيح، "واحد مع الآب" (يو ١٠: ٣٠)، وأوضح أنه ابن داود وربه. لكنهم كانوا يريدون فرصة للحكم عليه لا لإدراك الحق، ومع هذا أعطاهم السيد المسيح فرصة

[1] *In Luc 22: 54-62.*

للتوبة، معلنًا لهم الحق، حتى لا يكون لهم عذر فيما يرتكبوه ضده.

الأصحاح الثالث والعشرون

الصديق المصلوب

من أجل الصداقة التي يطلبها السيد المسيح احتمل الآلام، وقبل المحاكمة، وحمل الصليب، واجتاز الموت، ودفن في القبر حتى يحملنا إليه أصدقاء إلى الأبد.

١. محاكمته أمام بيلاطس	**١-٧.**
٢. محاكمته أمام هيرودس	**٨-١٢.**
٣. إصرار اليهود على صلبه	**١٣-٢٥.**
٤. الصليب وسمعان القيرواني	**٢٦.**
٥. الصليب والنائحات	**٢٧-٣١.**
٦. صلبه بين لصين	**٣٢-٤٣.**
٧. تسليم الروح	**٤٤-٤٩.**
٨. دفنه	**٥٠-٥٦.**

١. محاكمته أمام بيلاطس

جاء السيد المسيح ليصالح الإنسان مع الآب، يستر خطاياه بدمه، أما الإنسان فاتهمه أنه مثير للشغب، وصاحب فتنة، إذ يقول الإنجيلي: "**قام كل جمهورهم، وجاءوا به إلى بيلاطس. وابتدأوا يشتكون عليه، قائلين إننا وجدنا هذا يفسد الأمة، ويمنع أن تُعطى جزية لقيصر، قائلاً: إنه هو مسيح ملك" [١-٢].**

يذكر الإنجيلي لوقا الاتهام المدني بكل وضوح، ففي المجمع الديني أُتهم بالتجديف، وهنا أمام بيلاطس كان الاتهام أنه محرض الشعب على عدم دفع الجزية لقيصر وإقامة نفسه ملكًا، مع أنه إذ سُئل قبلاً، أجاب: "أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله"، وحينما أرادوا أن يخطفوه ليقيموه ملكًا، اختفى من بينهم!

يقول **القديس كيرلس الكبير:** [قادوا يسوع إلى بيلاطس، وهم أيضًا أنفسهم سُلموا للجند الرومان الذين احتلوا أرضهم واقتحموا مدينتهم حيث الموضع المقدس المكرم، وسلم سكانها للسيف والنار. لقد تحقق فيهم نبوات الأنبياء القديسين، إذ يقول أحدهم: "ويل للشرير شر، لأن مجازاة يديه تُعمل به"

(إش ٣: ١١)، ويقول آخر: "كما فعلت يُفعل بك، عملك يرتد على رأسك" (عو ١٥)[١].]

بلا شك سمع بيلاطس عن السيد أنه نادى بتقديم "ما لقيصر لقيصر"، وإذ رأى السيد المسيح إنسانًا معدمًا لا يمكن أن يقيم نفسه ملكًا سأله ربما في استخفافٍ أو كعملٍ شكليٍ:

"**فسأله بيلاطس قائلاً: أنت ملك اليهود.**

فأجابه وقال: أنت تقول.

فقال بيلاطس لرؤساء الكهنة والجموع:

"**إني لا أجد علّة في هذا الإنسان" [٣-٤].**

يقول **القديس كيرلس الكبير:** [اخترعوا عدة اتهامات، وأثاروها ضد المسيح، اتهامات كاذبة لا يمكن التدليل عليها. لكنهم بهذا أكدوا إنهم أشر من الوثني، فإن بيلاطس برّأه من كل عيب، قائلاً: "إني لا أجد علّة في هذا الإنسان"، هذا ما نطق به ليس مرة واحدة بل ثلاث مرات[٢].]

إذ لم يستطِع القادة أن يثيروا الوالي ضده بالمنطق، "**كانوا يشدّدون قائلين: إنه يهيج الشعب، وهو يعلِّم في كل اليهودية، مبتدئًا من الجليل إلى هنا" [٥].**

لعلهم بهذا أرادوا أن يهددوا الوالي بأن الموقف لا يُحد خلال منطقة نفوذه، وإنما أيضًا يمتد إلى مناطق أخرى، فإن لم يحكم هو عليه سيحكم آخر غيره، فيصير الوالي في عيني قيصر متهاونًا في حق قيصر، يترك صانعي الفتنة والشغب بلا محاكمة. ولعله لهذا السبب أيضًا أرسله بيلاطس إلى هيرودس والي الجليل حتى متى برأّه أو حكم عليه يكون معه شهادة والٍ آخر تسنده أمام قيصر. هذا وبحسب القانون الروماني يقف كل إنسان ليحاكم أمام والي منطقته، فلم يرد بيلاطس أن يتعدى اختصاصات هيرودس بالرغم من وجود عداوة قائمة بينهما. وكأن بيلاطس احترم القانون الأرضي برضا وسلمه لوالٍ آخر، بينما لم يحترم قادة اليهود الشريعة الإلهية مسلّمين السيد المسيح للصلب وحكم الموت ظلمًا.

هذا ونلاحظ أن السيد المسيح لم يدافع عن نفسه بكلمة، فقد حسب الحق الذي فيه مُعلن بصمته ولا يحتاج إلى كلمات تشهد له. هذا ما يعلنه الإنجيلي في لقاء السيد المسيح مع هيرودس كما سنرى [٩]. إنه جاء ليسحب قلوبنا بحبه لا ليدافع عن نفسه.

٢. محاكمته أمام هيرودس

---

[1] *In Luc hom 151.*
[2] *In Luc hom 151.*

"وأما هيرودس فلما رأى يسوع فرح جدًا،
لأنه كان يريد من زمان طويل أن يراه لسماعه عنه أشياء كثيرة،
وترجّى أن يرى آية تصنع منه.
وسأله بكلامٍ كثيرٍ فلم يجبه بشيء.
ووقف رؤساء الكهنة والكتبة يشتكون عليه باشتدادٍ.
فاحتقره هيرودس مع عسكره واستهزأ به،
وألبسه لباسًا لامعًا، وردّه إلى بيلاطس.
فصار بيلاطس وهيرودس صديقين مع بعضهما في ذلك اليوم
لأنهما كانا من قبل في عداوة بينهما" [٨-١٢].

يلاحظ في هذا اللقاء بين السيد المسيح وهيرودس الآتي:

أولاً: أراد هيرودس أن يتأكد مما سمعه عن السيد المسيح، لذا فرح جدًا أن يراه، لا ليتمتع به ويقتني الحق، وإنما ليشاهد آيات وعجائب، أما السيد فلم يأتِ لاستعراض آيات، وإنما لخلاص النفوس، لذا التزم بالصمت، ولم يجب حتى على اتهامات المشتكين، فاحتقره هيرودس ورجاله واستهزؤا به..

ثانيًا: في محاكمته سواء أمام رئيس الكهنة أو بيلاطس أو هيرودس اتجه إلى الصمت ليتم فيه القول: "لم يفتح فاه، كشاةٍ تُساق إلى الذبح" (إش ٥٣: ٧).

❖ شُبّه بالحمل حتى يُحسب في صمته بارًا غير مذنب[١].

القديس أغسطينوس

❖ إنه مثل رائع يدعو قلوب البشر أن تحتمل الإهانة بروح ثابتة. أُتهم الرب وصمت وكان في صمته محقًا لأنه لم يكن في حاجة أن يدافع عن نفسه[٢].

القديس أمبروسيوس

ثالثًا: يعلق **القديس أمبروسيوس** على الثوب اللامع الذي ألبسه هيرودس إياه، قائلاً: [ألبسه هيرودس ثوبًا أبيض ليشير أن الآلام التي احتملها ليست عن لوم فيه، إذ هو حمل الله الذي بلا

[1] *In Ioan 116: 4.*
[2] *In Luc 23: 131.*

عيب، يحمل بمجدٍ خطايا العالم[1].]

رابعًا: يرى الأب ثيؤفلاكتيوس في الصداقة التي قامت بين بيلاطس وهيرودس من أجل قتل السيد المسيح بعد العداوة التي كانت بينهما توبيخًا لنا، فإن الشيطان وحّد بين المتخاصمين لتحقيق هدفه الشرير، أما نحن فننقسم على أنفسنا عوض الوحدة من أجل خلاص النفوس. أما **القديس أمبروسيوس** فيرى في هذه الصداقة بين العدوين إشارة إلى الوحدة التي صارت بين شعب إسرائيل والشعوب الأممية، خلال موت المسيح بقبول الكل كأعضاء في كنيسة العهد الجديد.

٣. إصرار اليهود على صلبه

أولاً: لا نعجب إن كان السيد المسيح وهو مُتهم ظلمًا قد صمت بينما وقف الأعداء – منهم بيلاطس وهيرودس– يدافعون عنه. لقد شهد بيلاطس: "**ها أنا قد فحصتُ قدامكم، ولم أجد في هذا الإنسان علّة مما تشتكون به عليه. ولا هيرودس أيضًا**" **[١٤-١٥]**. وعندما أصروا على قتله مرة ومرتين أكدّ لهم: "**أي شر عمل هذا؟! إني لم أجد فيه علّة للموت**" **[٢٢]**، فكانوا يصرخون بإلحاح أن يُصلب!

❖ انتهرهم بيلاطس مقدمًا تبريرًا لنفسه، بالقول: "لم أجد في هذا الإنسان علّة..." هوذا الذين يعرفون الناموس الإلهي ولهم ملامح سامية، قائلين إنهم تلاميذ موسى يطلبون أن يحكموا عليه بالموت، هذا الذي هو بلا لوم بل بالحري رأس ومعلم كل تقوى، هذا الذي يهب مؤمنيه كل فضيلة بمهارة. لقد صاروا بالأكثر مستوجبين العقاب الشديد لأن (بيلاطس) الذي كان من عمله أن يحكم قد برأّه[2].

القديس كيرلس الكبير

ثانيًا: إذ كان الرب يبذل كل الجهد حتى حياته لأجل تقديم صداقته للبشرية، كانت خاصته ترفضه وتقدم باراباس عنه، إذ: "**صرخوا بجملتهم قائلين: خذ هذا وأطلق لنا باراباس، وذاك كان قد طُرح في السجن لأجل فتنة حدثت في المدينة وقتل**" **[١٨-١٩]**. أرادوا قتل البار وإطلاق مثير الفتنة القاتل. وكما يقول **القديس أمبروسيوس** أن كلمة "باراباس" تعني "ابن أب"، وكأن هؤلاء الذين قيل لهم: "أنتم من أب هو إبليس" (يو ٨: ٤٤)، قد مثلوا الآن ليفضلوا ابن أبيهم أي ضد المسيح عن ابن

---

[1] *In Luc hom 23: 131.*
[2] *In Luc hom 151.*

الله.

ثالثًا: للمرة الثالثة كانوا يصرخون بأصوات عظيمة ويتوسلون من بيلاطس أن يصلبه،

"فقويت أصواتهم وأصوات رؤساء الكهنة.

فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم.

فأطلق لهم الذي طرح في السجن لأجل فتنة،

وقتل الذي طلبوه وأُسلم يسوع لمشيئتهم" [٢٣-٢٥].

❖ هذه الصرخات القاسية غير الشرعية قد وبخ بها الرب بإشعياء النبي القائل: "إن كرم رب الجنود، غرس جديد محبوب هو رجل يهوذا، انتظرت حقًا فإذا سفك دم، وعدلاً فإذا صراخ" (إش ٥: ٧ الترجمة السبعينية). وفي موضع آخر قال عنهم: "ويل لهم لأنهم هربوا عني، تبًّا لهم، لأنهم أذنبوا إليَّ، أنا أفديهم، وهم تكلموا عليّ بكذبٍ" (هو ٧: ١٣). وأيضا: "يسقط رؤساؤهم بالسيف من أجل سخط ألسنتهم" (هو ٧: ١٦). لقد قيل أن بيلاطس أصدر الحكم بأن يحقق رغبتهم، فكان ذلك حسنًا في نظرهم، إذ انهزمت إرادة بيلاطس وصدر الحكم... لقد قاوموا وبعنف عارضوا وانتصروا... فأعدّ لهم ذلك فخًا، وكان علة هلاكهم، دفعهم إلى هلاك عنيف لا يتوقف[1].

القديس كيرلس الكبير

٤. الصليب وسمعان القيرواني

"ولما مضوا به أمسكوا سمعان،

رجلاً قيروانيًا كان آتيًا من الحقل،

ووضعوا عليه الصليب ليحمله خلف يسوع" [٢٦].

قلنا أن كلمة "سمعان" تعني "يسمع" أو "يطيع"، و"قيروان" تعني "ميراثًا"، وهي مدينة أممية في ليبيا، فإن سمعان القيرواني يشير إلى كنيسة العهد الجديد التي صارت وارثة خلال طاعة الإيمان، وقد جاءت من الأمم لكي تشارك مسيحها صليبه، وتنعم بهذا الشرف العظيم[2].

يذكر الإنجيلي يوحنا أن السيد المسيح حمل صليبه (يو ١٩: ١٧)، إذ هو علامة ملكه، كقول إشعياء النبي "وتكون الرئاسة على كتفيه" (إش ٩: ٦). وفي الطريق إذ أراد أن يجعل من كنيسته

[1] *In Luc hom 152.*

[2] الإنجيل حسب مرقس، ص ٢٨٧.

ملكة تشاركه أمجاده، سُمح لسمعان ممثل الكنيسة أن يحمله. يقول **القديس أمبروسيوس:** [آن الوقت لكي يرفع المنتصر لواءه، فوضع الصليب على كتفه... حمل الرب لواءه ثم سلمه للشهداء ليرفعوه هم أيضًا: "احمل صليبك واتبعني" (٩: ٢٣)[١].]

ليتنا نخرج مع سمعان بالطاعة النابعة عن الإيمان، منطلقين من حقل هذا العالم، لنحمل صليب ربنا يسوع المسيح فنشاركه ميراثه وأمجاده!

٥. الصلب والنائحات

"**وتبعه جمهور كثير من الشعب والنساء**
اللواتي كن يلطمن أيضًا وينحن عليه.
فالتفت إليهن يسوع وقال:
"**يا بنات أورشليم لا تبكين عليّ،**
بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن.
لأنه هوذا أيام تأتي يقولون فيها:
طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي التي لم ترضع.
حينئذٍ يبتدئون يقولون للجبال اسقطي علينا وللآكام غطينا.
لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون هذا، فماذا يكون باليابس؟!" [٢٧-٣١]

إذ كتب القديس لوقا البشير للأمم أراد إبراز مركز المرأة وتقديرها في عيني المسيحية، فإن كان الرجال قد ثاروا ضد الحق، وهاجت الجماهير تطلب صلب البار وإطلاق القاتل، فإن جمهور من النساء كن ينحن على ما حدث، يتبعن السيد في اللحظات المُرّة.

مسيحنا الصديق الحقيقي يلتفت إلى هؤلاء النسوة ليوجه دموعهن من الشفقة البشرية عليه إلى التوبة الصادقة وطلب خلاص نفوسهن ونفوس أولادهن، قائلاً: "**لا تبكين عليّ بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن**".

❖ الرب نفسه بكى على أورشليم، إذ لم ترد أن تبكي هي على نفسها... إنه يريدنا أن نبكي لنهرب (من الهلاك)...

من يبكي كثيرًا في هذا العالم يخلص في المستقبل، لأن "قلب الحكماء في بيت النوح، وقلب الجهال في بيت الفرح" (جا ٧: ٤). وقال الرب نفسه: "طوباكم أيها الباكون الآن، لأنكم ستضحكون"

[1] *In Luc 23: 131.*

(٦: ٢١). فلنبكِ إذن إلى زمان، فنفرح إلى الأبد. لنخفْ الرب وننتظره، معترفين بخطايانا، راجعين عن شرنا، حتى لا يُقال لنا "ويل لي... قد باد التقي من الأرض وليس مستقيم بين الناس" (مي ٧: ١-٢)[١].

القديس أمبروسيوس

هذا ويرى كثير من الآباء أن الحديث هنا موجه إلى كل الأمة اليهودية، إذ دعاهم "يا بنات أورشليم"، معلنًا لليهود أنه يليق بهم أن ينوحوا بالأحرى على ما سيحل بأورشليم. فإن كان قد صدر الحكم الروماني بصلب "العود الرطب" أي السيد المسيح، فسيُسلم اليهود "العود اليابس" لسيوف الرومان، حيث يتم حصار أورشليم ويحطم الهيكل تمامًا.

❖ دعى نفسه "الشجرة الخضراء" (العود الرطب)، التي تحمل أوراقًا وثمارًا وزهورًا، أما ثماره فهي تعاليمه ونصائحه وإعلان قوة لاهوته في معجزاته الإلهيَّة التي لا يُنطق بها... فقد أقام موتى إلى الحياة، وطهّر برّص، وشفى عميان، وغير ذلك من الأعمال التي مارسها تثير فينا الحمد الكلي الكمال. مع أن هذه هي أعماله فقد أدانه الرومان أو بالأحرى بيلاطس، الذي أصدر ضده حكمًا ظالمًا، وأنزل عليه استهزاءات قاسية. لهذا يقول إن كان القواد الرومان قد صبّوا عليّ مثل هذه الأمور مع أنهم رأوني مزينًا بمجدٍ عظيمٍ كهذا فماذا يفعلون بإسرائيل وقد أدركوا أنه جاف بلا ثمر؟! فإنهم لا يجدون في الإسرائيليين أمرًا عجيبًا يستحق الكرامة أو الرحمة، لذا سيحرقونهم بالنار دون رحمة، ويمارسون ضدهم قسوة عنيفة[٢].

القديس كيرلس الكبير

❖ دعى نفسه الخشبة الخضراء، ونحن العود الجاف، لأنه هو نفسه فيه الحياة وقوة الطبيعة الإلهية أما نحن البشر فنُدعى العود الجاف[٣].

البابا غريغوريوس الكبير

إن كان السيد المسيح "شجرة الحياة" لم يترك هذا العالم إلا بعد أن حمل آلامه من أجلنا وبسبب خطايانا، أفلا ننتظر نحن أن نتألم ونحن كالعود الجاف الذي بلا ثمر في ذواتنا؟! أما عن الأيام التي فيها تطوّب النساء العواقر فقد جاءت أيام حصار أورشليم، حيث أكلت الشريفات أطفالهن بسبب شدة الجوع، كما وصف يوسيفوس المؤرخ اليهودي.

---

[1] *On Rep. 2.*
[2] *In Luc hom 152.*
[3] *Mor. 12: 4.*

٦. صلبه بين لصين

قدم لنا الإنجيلي لوقا وصفًا لصلب السيد جاء فيه:

أولاً: إمعانًا في السخرية به صلبوه بين لصين، واحد عن يمينه والآخر عن يساره، فتحقق فيه قول إشعياء النبي "أُحصيَ مع أثمة، وهو حمل خطية كثيرين، وشفع في المذنبين" (إش ٥٣: ١٢). ويصف لنا الإنجيلي موقف اللصين، قائلاً:

"وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه،

قائلاً: إن كنت أنت المسيح، فخلّص نفسك وإيّانا.

فأجاب الآخر وانتهره، قائلاً: أوَلاَ أنت تخاف الله،

إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه؟!

أمّا نحن فبعدل لأننا ننال استحقاق ما فعلنا،

وأمّا هذا فلم يفعل شيئًا ليس في محله.

ثم قال ليسوع: اذكرني يا رب متى جئت في ملكوتك.

فقال له يسوع: الحق أقول لك اليوم تكون معي في الفردوس" [٣٩-٤٣].

❖ إن كنت قد صُلبت معه كلصٍ، اعرف الله بكونك لصًا تائبًا...

اسجُد لذاك الذي عُلق من أجلك، حتى وإن كنت أنت نفسك معلقًا. انتفع من شرك، واقتنِ خلاصك بموتك. ادخل مع يسوع الفردوس، لتتعلم من حيث سقطت (رؤ ٢: ٥) [١].

القديس غريغوريوس النزنيزي

❖ آمن اللص في الوقت الذي فيه فشل المعلمون أنفسهم تمامًا. فإنه لم يؤمن بكلماتهم، ومع هذا كان إيمانه هكذا أنه اعترف بذاك الذي رآه مسمرًا على الصليب ولم يره قائمًا أو ملكًا [٢].

القديس أغسطينوس

❖ المسيح نفسه جلب اللص من الصليب إلى الفردوس، ليُظهر أن التوبة لن تتأخر في عملها. لقد حول موت القاتل إلى شهيدًا [٣].

القديس جيروم

---

[1] *Oration on Easter 2: 24.*

[2] *In Ioan tr 109: 4.*

[3] *Ep. 16: 1.*

❖ لا نخجل من أن نأخذ هذا اللص معلمًا لنا، هذا الذي لم يخجل منه سيدنا بل أدخله الفردوس قبل الجميع.

❖ أنا لا أراه مستحقًا للإعجاب فقط بل أطوّبه، لأنه لم يلتفت إلى آلامه، بل أهمل نفسه واهتم برفيقه مجتهدًا أن ينقذه من الضلال، فصار بهذا معلمًا وهو على الصليب... تأمل كيف أنه تمم قانون الرسل. لم يهتم بنفسه فقط بل عمل كل الوسائط على قدر استطاعته كي ينقذ غيره من الضلال ويرشده إلى الحق.

❖ اللص اعترف فوجد أبواب الفردوس مفتوحة!

❖ اعترف فتجرأ أن يطلب الملكوت مع أنه لص!

❖ قل لي أيها اللص كيف تذكرت ملكوت السماوات؟ ماذا حدث الآن وأمام عينيك المسامير والصليب والتهمة والهزء والشتائم؟

فيقول: نعم أرى هذه كلها ولكن الصليب نفسه رمز الملكوت، فلذلك أدعو المصلوب عليه ملكًا، لأنه يجب على الملك أن يموت عن رعيته[١].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ الصليب نفسه إن تأملناه حسنًا هو كرسي للقضاء. فقد جلس الديان في الوسط: لص آمن فخلص، وآخر جدف فدين. بهذا عني أنه ديان الأحياء والأموات، نعم فالبعض عن يمينه والآخر عن يساره[٢].

القديس أغسطينوس

❖ لقد علق على الصليب الثمين، وعلق معه لصان. ماذا عن هذا؟ بالنسبة لليهود كان هذا من قبيل السخرية حقًا، لكنه كان تذكارًا للنبوة، إذ كتب: "أُحصي مع أثمة" (إش ٥٣: ١٢). من أجلنا صار لعنة، أي تحت اللعنة، إذ كُتب أيضًا أنه ملعون من عُلق على خشبة (تث ٢١: ٢٣). لكن هذا العمل بالنسبة له نزع اللعنة عنا، فبه ومعه صرنا مباركين، وإذ عرف داود الطوباوي ذلك قال: "مباركون نحن من قبل الرب خالق السماء والأرض"، إذ حلّت بنا البركة بآلامه. لقد وفى الدين عنا، وحمل خطايانا (إش ٥٣: ٦)، ضُرب عوضًا عنا، إذ بحُبره شفينا (إش ٥٣: ٥).

---

[١] المطران أبيفانيوس: الأماني الذهبية من مقالات إكليل في القديسين يوحنا الذهبي الفم، ١٩٧٢، ص ٦٢٦٥.

[2] *In Ioan tr. 31: 11.*

❖ كما قلت عُلق لصان معًا للسخرية به حتى في آلامه التي جلبت خلاصًا للعالم كله، لكن واحدًا منهم بقي في شر اليهود مستمرًا، ناطقًا بكلمات التجديف مثلهم... والآخر أخذ اتجاهًا آخر يستحق بحق إعجابنا، إذ آمن به وهو يذوق أمر العذابات. لقد انتهر صرخات اليهود العنيفة وكلمات من صلب معه. اعترف بخطاياه لكي يتبرر... حمل شهادة للمسيح بلا لوم، ووبخ عجز اليهود عن حب الله، ودان حكم بيلاطس... صار معترفًا بمجد المخلص وديانًا لكبرياء صالبيه[١].

القديس كيرلس الكبير

❖ على الصليب سُمرت يدا (اللص) وقدماه ولم يبقَ فيه شيء حر سوى قلبه ولسانه. بوحي إلهي قدم اللص كل ما هو حرّ فيه، وكما هو مكتوب: "لأن القلب يؤمن به للبرّ، والفم يعترف به للخلاص" (رو ١٠: ١٠). لقد امتلأ اللص فجأة بالنعمة، وتقبل هذه الفضائل الثلاث التي نطق بها الرسول وتمسّك بها على الصليب، فكان له الإيمان إذ آمن بالله أنه يملك مع أنه رآه يموت مثله، وله الرجاء الذي به طلب الدخول إلى ملكوته، وحفظ المحبة أيضًا بغيرة عند موته، إذ انتهر أخاه اللص رفيقه.

البابا غريغوريوس (الكبير)

❖ غفر الرب له سريعًا، لأن اللص تاب سريعًا. النعمة أغنى من الطلبة. اللص طلب أن يذكره، أمّا الرب فأجابه (بفيض): "الحق أقول لك اليوم تكون معي في الفردوس". لأن الحياة هي أن تكون مع المسيح، وحيث يوجد المسيح يوجد ملكوته.

القديس أمبروسيوس

ثانيًا: ربط الإنجيلي لوقا بين اسم الموضع الذي صُلب فيه السيد وبين صلبه بين مذنبين، إذ قال: **"ولما مضوا به إلى الموضع الذي يُدعي جمجمة، صلبوه هناك مع المذنبين، واحدًا عن يمينه، والآخر عن يساره" [٣٣].** جاء في التقليد أن الموضع دُعي "جمجمة"، لأن فيه قد دُفن آدم رأس البشرية، وكأن الصليب قد رُفع على مقبرة آدم حيث تحولت جمجمته إلى التراب خلال فسادها، وقد صُلب بين مذنبين يمثلان الفساد الحاضر. بمعنى آخر ارتفع المخلص على الصليب لينقذنا من خطية آدم كما من الخطايا الفعلية.

❖ إذ فسدت البشرية أعلن المسيح جسده، حتى حيث يظهر الفساد يوجد عدم الفساد. لذلك صلب في

---

[1] *In Luc hom 153.*

موضع الجمجمة، الذي قال عنه معلمو اليهود أن فيه قد دُفن آدم[1].

البابا أثناسيوس الرسولي

❖ رُفع الصليب في الوسط، كما يُظن فوق قبر آدم.

القديس أمبروسيوس

يرى البعض أن كلمة "**جمجمة**" مترجمة عن الآرامية "جلجثة"، وقد سميت هكذا لأن شكلها المستدير يشبه جمجمة الإنسان، أو لأنها كانت موضع الصلب فكثرت فيها جماجم المصلوبين.

هذا ويرى أيضًا بعض الدارسين أن السيد المسيح قد صلب بين لصين عوض باراباس الذي كان يجب أن يُصلب كرئيس لهما ورفيقهما ومثيرهما للقتل، فاحتلّ السيد موضع هذا القاتل.

ثالثًا: سجلت لنا الأناجيل الأربعة سبع كلمات نطق بها السيد المسيح على الصليب، منها ثلاث كلمات وردت في إنجيل معلمنا لوقا. هذه الكلمات السبع هي:

أ. ثلاث كلمات قبل حدوث الظلمة:

"يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" (لو ٢٣: ٣٤).

"الحق أقول لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس" (لو ٢٣: ٤٣).

"يا امرأة هوذا ابنك... هوذا أمك" (يو ١٩: ٢٦-٢٧).

ب. كلمة أثناء الظلمة:

"إلهي إلهي لماذا تركتني؟!" (مت ٢٧: ٤٦؛ مر ١٥: ٣٤).

ج. ثلاث كلمات بعد الظلمة:

"أنا عطشان" (يو ١٩: ٢٨).

"قد أكمل" (يو ١٩: ٣٠).

"يا أبتاه في يديك أستودع روحي" (لو ٢٣: ٤٦).

هذه الكلمات السبع التي ذكر منها الإنجيلي لوقا الكلمات الأولى والثانية والسابعة، قُدمت جميعها من أجلنا لننعم بها خلال عمله الخلاصي على الصليب. الأولى موجهة لأجل أعدائه ليهبهم الصفح، إذ جاء لينزع العداوة ويهب مصالحة. والثانية قُدمت للص بصفة شخصية، ليؤكد علاقته الشخصية مع كل نفسٍ دون النظر إلى الماضي، والثالثة قُدمت لأمه ويوحنا الحبيب ليعلن رعايته لكل نفس] وعنايته بكل أمورنا. الرابعة حملت نوعًا من العتاب ليكون لنا ملء الجرأة في عتابنا مع الله، والخامسة

[1] *In Pass. Dom.*

كشفت عن عطشه نحونا وشوقه نحو الإنسان غير المنقطع. السادسة أعلن نصرة الخلاص، والسابعة قدم لنا تمام الطمأنينة.

رابعًا: فقال يسوع: "يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون" [٣٤].

❖ قال هذا ليس لأنه غير قادر على الغفران بنفسه، وإنما لكي يُعلمنا أن نصلي من أجل مضطهدينا، لا بالكلام فحسب وإنما بالعمل أيضًا. يقول: "**اغفر لهم**" **إن** كانوا يتوبون، فإنه رحوم بالنسبة للتائبين، إن كانوا يريدون أن يغسلوا بالإيمان خطاياهم الكثيرة التي ارتكبوها.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ [كان غاية الصليب أن يخلص ويغفر، غير مبالٍ بما يحل به]
لم يتطلع أنه يموت بواسطتهم، إنما تطلع فقط أن يموت لأجلهم![1]

القديس أغسطينوس

❖ انظر كيف استمر في لطفه حتى في تعامله مع صالبيه![2]

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ اسمحوا لهم أن يتثقفوا بأعمالكم أن لم يكن هناك طريق آخر. قابلوا غضبهم بالوداعة، وعجرفتهم بالتواضع، وتجديفهم بصلواتكم... لنثبت باللطف الحقيقي إننا إخوتهم، ولنتمثل بالرب الذي احتمل الظلم فتتبارون في احتمال الظلم والإهانة والاحتقار حتى لا يكون للشيطان مكان في قلوبكم ينبت فيه عشبه[3].

القديس أغناطيوس النوراني

خامسًا: "وإذ اقتسموا ثيابه اقترعوا عليها" [٣٤].

إن كان السيد المسيح قد حمل خطايانا، فقد رُفع على الصليب عاريًا ليفتدينا من عار الخطية. قلنا في تفسير مت ٢٧: ٣٥، أن الثياب المقتسمة أربعة أقسام تشير إلى الكنيسة الممتدة إلى أربع جهات المسكونة، أما القميص الذي كان منسوجًا من فوق (يو ١٩: ٢٣) الذي اقترعوا عليه دون أن يُشق، فيشير إلى الكنيسة التي ينبغي أن تحمل سمة عريسها، فتوجد سماوية (منسوجة من فوق) وبلا

---

[1] *In Ioan 31: 9.*
[2] *In Matt 60: 3.*
[3] *Ad Ephes 10: 13.*

انشقاق أو انقسام. هذا أيضًا ما أعلنه **القديس كيرلس الكبير**[١].

يرى **القديس أمبروسيوس**[٢] أن الأربعة جنود يشيرون إلى الأربعة إنجيليين، الذين سجلوا لنا ما نتمتع به، أما القميص الذي أُلقي عليه قرعه فيشير إلى أن الروح القدس لا يُوهب حسب استحقاق الإنسان ذاتيًا وإنما هو هبة إلهية مجانية.

سادسًا: إذ ارتفع السيد المسيح على الصليب صار موضع سخرية الجميع، الشعب مع الرؤساء، واليهود مع الجند الرومان، إذ قيل: "**وكان الشعب واقفين ينظرون، والرؤساء أيضًا معهم يسخرون به، قائلين: خلص آخرين، فليخلص نفسه إن كان هو المسيح مختار الله. والجند أيضًا استهزئوا به وهم يأتون ويقدمون له خلاًّ. قائلين: إن كنت أنت ملك اليهود فخلص نفسك" [٣٥-٣٧].**

أراد الرؤساء أن يسخروا به فاعترفوا بألسنتهم "**خلّص آخرين**"، ويصير اعترافهم هذا شهادة ضدهم. حقًا لقد جاء لا ليخلص نفسه، إذ هو غير محتاج إلى خلاص، إنما كطبيب يتقدم ليشفي المرضى. وكما يقول **القديس البابا أثناسيوس الرسولي:** [بالحق أراد المخلص ربنا أن يُعرف مخلصًا لا بخلاص نفسه بل بخلاصه الآخرين. فالطبيب لا يُحسب كذلك بشفائه نفسه، بل بإبراز مهارته مع المرضى. هكذا الرب بكونه المخلص لا يحتاج إلى خلاص نفسه. فليس بنزوله من على الصليب يصير مخلصًا بل بموته. فإنه بالحق يتحقق خلاص عظيم للبشرية بموته أكثر من نزوله عن الصليب[٣].]

لقد قبل أن يشرب الخل، كما يقول **القديس أمبروسيوس**[٤]، لأنه أخذ فسادنا ليسمره على الصليب. أمّا رفضه الخمر الممزوج بالمر، فذلك ليس امتناعًا عن المرّ لمرارته، وإنما لأن المرّ يعطي نوعًا من التخدير، فلا يشعر المصلوب بكل الآلام التي اجتازها. فقد أراد أن يحمل الألم حتى النهاية. أمّا من جهة المرارة فيقول **القديس أمبروسيوس:** [بالتأكيد أخذ مرارة حياتنا في جسم بشريته.]

سابعًا: "وكان عنوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية: هذا هو ملك اليهود" [٣٨]. صارت علته تاجًا له يمثل حقيقته الخفية كملكٍ، وكما جاء في سفر النشيد "اخرجن يا بنات صهيون، وانظرن الملك سليمان بالتاج الذي توجته به أمه في يوم عرسه، وفي يوم فرح قلبه" (نش ٣: ١١).

---

[١] الإنجيل بحسب مرقس ص ٢٨٨.

[2] *In Luc 23: 3349.*
[3] *In Pass. Dom.*
[4] *In Luc 23: 3349.*

كُتب العنوان باللغات الرئيسية: اليونانية والرومانية والعبرية، ليعلن أنه بالحق ملك روحي على جميع الأمم، وليس خاصًا باليهود وحدهم كما ظنوا في المسيا المنتظر.

❖ لاحظ أن مكر الشيطان قد ارتد إليه. لقد كُتبت علّة يسوع بثلاث لغات مختلفة، حتى لا يفشل أحد من المارة به في معرفة أنه قد صلب لأنه أقام نفسه ملكًا. لقد كُتبت باليونانية واللاتينية والعبرية، هذه اللغات التي يعني بها أكثر الأمم قوة (الرومان) وحكمة (اليونان) وعبادة لله (اليهود)، جميعها تخضع لسلطان المسيح[١].

الأب ثيؤفلاكتيوس

٧. تسليم الروح

إن كانت القوى البشرية قد تضافرت معًا لتسخر بالسيد المسيح المصلوب، فإن اللص اليمين استطاع أن يغتصب الملكوت أو ينعم بالصداقة الإلهية على مستوى أبدي. الآن وقبيل تسليم السيد المسيح روحه في يدي الآب تقوم الطبيعة الجامدة بدورها لتشهد لذاك الذي جحدته الخليقة الأرضية العاقلة، حتى آمن قائد المائة الروماني وشهد أيضًا له.

"وكان نحو الساعة السادسة،
فكانت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة.
وأظلمت الشمس، وانشق حجاب الهيكل من وسطه.
ونادى يسوع بصوت عظيم، وقال:
يا أبتاه في يديك استودع روحي.
ولما قال هذا أسلم الروح.
فلما رأى قائد المائة ما كان مجّد الله، قائلاً:
بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًا.
وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر
لما أبصروا ما كان، رجعوا وهم يقرعون صدورهم.
وكان جميع معارفه ونساء كنّ قد تبعنه من الجليل،
واقفين من بعيد، ينظرون ذلك" [٤٤-٤٩].

---

[1] *Catena Aurea.*

يلاحظ في هذا النص الآتي:

أولاً: بالحساب اليهودي "**كانت ظلمة على الأرض كلها من الساعة السادسة حتى التاسعة**"، هل لأن الطبيعة قد أرادت أن تعبّر عن استنكارها لما فعله الإنسان بكلمة الله المتجسد؟ أم أرادت بهذه الظلمة أن تسدل ستارًا طبيعيًا على هذا المنظر المفجع؟ أم أرادت أن تعلن أن المصلوب هو خالقها؟! لقد سبق فشهد الأنبياء عن هذا الحدث، قائلين:

"ويكون في ذلك اليوم أنه لا يكون نور، الدراري تتقبض، ويكون يوم واحد معروف للرب؛ لا نهار ولا ليل بل يحدث أنه في وقت المساء يكون نور" (زك ١٤ :٦-٧).

"ويكون في ذلك اليوم يقول السيد الرب: إني أُغيِب الشمس في الظهر، وأُقتم الأرض في يوم نور، وأحول أعيادكم نوحًا، وجميع أغانيكم مراثي" (عا ٨: ٩-١٠).

"أُلبس السماوات ظلامًا، وأجعل المِسح غطاءها" (إش ٥٠: ٣).

❖ لقد انكسفت الشمس أمام انتهاك المقدسات، لتستر على هذا المنظر الشرير الذي ارتكبوه. عمت الظلمة لتغطي عيون الجاحدين، حتى يشرق نور الإيمان من جديد.

القديس أمبروسيوس

❖ نعم، انتحبت الطبيعة ذاتها وبها، إذ أظلمت الشمس، وتشققت الصخور، وبدا الهيكل كمن قد اكتسى بالحزن إذ انشق الحجاب من أعلى إلى أسفل[1].

القديس كيرلس الكبير

ثانيًا: انشق حجاب الهيكل من وسطه، إذ زالت العداوة التي بين الله والإنسان، فانفتح قدس الأقداس السماوي أمام جميع المؤمنين، أعضاء جسد المصلوب. وكما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [لم يعد قدس الأقداس بعد لا يمكن الاقتراب منه.]

يقول **القديس أمبروسيوس** إن الحجاب القديم قد انشق، لكي يستطيع اليهود بالإيمان أن يعاينوا السرّ المعلن لنا، فيقبلون الأمم معهم بلا انقسام إلى شعبين: يهودي وأممي، أي لتظهر كنيسة العهد الجديد.

[راجع الإنجيل بحسب مرقس ص ٢٩٣-٢٩٤.]

ثالثًا: "نادى يسوع بصوت عظيم، وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي" [٤٦].

---

[1] *In Luc hom 153.*

❖ **يستودع الابن روحه (البشرية) في يديّ الآب، إذ يستريح في أحشاء الآب.**

يستودع روحه في يديّ الآب، لكنه وإن كان في الأعالي إلا أنه أضاء الجحيم ليخلص الذين فيه...

استودع الروح في يديّ الآب حتى تتحرر السماوات نفسها من قيود الظلمة، ويكون سلام في السماء وتستطيع الأرض أن تتبعها.

أسلم الروح بإرادته... لذا أضاف "بصوت عظيم"[1].

القديس أمبروسيوس

❖ هذا الصوت يعلمنا أن نفوس القديسين لا تعود تنزل إلى الجحيم كما كان قبلاً بل تكون مع الله، لقد أحدث المسيح بداية هذا التغير.

القديس يوحنا الذهبي الفم

رابعًا: إذ رأى قائد المائة السيد المسيح يسلم روحه بقوة، وسمعه يستودعها بإرادته في يديّ الآب آمن، قائلاً: "**بالحقيقة كان هذا الإنسان بارًا**" [٤٧]، كما قال: "حقًا كان هذا الإنسان ابن الله" (مت ٢٧: ٣٩). لقد شاهد قائد المائة كثير من المصلوبين يموتون، لكن موت هذا المصلوب كان فريدًا، هزّ أعماق قلبه ليسحبه للإيمان به، خاصة وأنه أبصر بعينيه شهادة الطبيعة له. لقد تحقق قول الرب: "وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع" (يو ١٢: ٣٢). لقد ارتفع على الصليب فاجتذب اللص اليمين وقائد المائة وكثيرين ممن كانوا يشاهدونه واقفين من بعيد [٤٩].

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [عظيم هو سلطان المصلوب، فبعد سخريات كثيرة وهزء وتعييرات تحرك قائد المائة نحو الندامة، وأيضًا الجموع. يقول البعض أن قائد المائة استشهد إذ بلغ النضوج في الإيمان[2].]

٨. دفنه

تجاسر يوسف الرامي، الذي "**كان مشيرًا ورجلاً صالحًا بارًا**" **[٥٠]**، وطلب جسد السيد المسيح، وإذ كان "**ينتظر ملكوت الله**" **[٥١]**، وإذ سمح له بيلاطس "**أنزله ولفه بكتان، ووضعه في قبر منحوت، حيث لم يكن أحد وضع قط. وكان يوم الاستعداد والسبت يلوح. وتبعته نساء كن قد أتين معه من الجليل، ونظرن القبر وكيف وُضع جسده. فرجعن وأعددن حنوطًا وأطيابًا، وفي السبت**

[1] *In Luc 23: 3349.*
[2] *In Matt. hom 88.*

استرحن حسب الوصية" [٥٣-٥٦].

كان يوسف تلميذًا خفيًا للسيد المسيح، يحبه ويشتاق إليه ويسمع له، لكن بسبب الخوف لم يكن يعلن تبعيته له، وإذ حّل وقت الصليب نُزع عنه الخوف ليطلب جسد الرب بشجاعة. كثيرون يحولهم الضيق من الخوف إلى الشجاعة، فيزكيهم لدى الله والناس، ويتأهلوا بنعمة الله أن يطيبوا جسد المسيح، أي الكنيسة، بأطياب محبتهم الثمينة التي تظهر بقوة وقت الألم!

❖ إن كنت يوسف الرامي فاطلب الجسد من ذاك الذي صلبه، اجعله ملكًا لك، ذاك الذي يطهر العالم (١ يو ١: ٧)[1].

القديس غريغوريوس النزينزي

[راجع تعليق القديس أمبروسيوس في تفسير الإنجيل بحسب مرقس، ص ٢٩٥-٢٩٦.]

[1] *On Easter 2: 24.*

الباب الخامس

صديقنا القائم من الأموات

ص ٢٤

الأصحاح الرابع والعشرون

صديقنا القائم من الأموات

إن كان السيد المسيح قد تألم لأجلنا لكي يقيمنا أصدقاء له، فإنه إذ قام بقي بعد القيامة صديق البشرية، يشتاق أن يهبها حياته المقامة. نراه يقترب من تلميذي عمواس، ويمشي معهما، ويحاورهما بلطف، ويلهب قلبيهما بمحبته، ويفتح بصيرتهما للتعرف عليه. يعود فيظهر لبقية التلاميذ أيضًا ويسألهم أن يحسوه ويلمسوا حقيقة وجوده في وسطهم، بل ويأكل معهم حتى يثقوا في حقيقة معيته لهم، وأخيرًا يُخرجهم إلى بيت عنيا ليرفع يديه ويباركهم، ثم ينفرد عنهم، ويصعد إلى السماء ليعد لهم موضعًا، لذا رجعوا إلى أورشليم بفرحٍ عظيمٍ.

١. القبر الفارغ	**١–١٢.**
٢. تلميذا عمواس	**١٣–٣٥.**
٣. ظهوره لتلاميذه	**٣٦–٤٣.**
٤. إرساله التلاميذ	**٤٤–٤٩.**
٥. صعوده إلى السماء	**٥٠–٥٢.**
٦. ارتباطهم بالهيكل	**٥٣.**

١. القبر الفارغ

"ثم في أول الأسبوع أول الفجر،
أتين إلى القبر حاملات الحنوط الذي أعددنه، ومعهن أناس.
فوجدن الحجر مدحرجًا عن القبر.
فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع.
وفيما هن محتارات في ذلك، إذا رجلان وقفا بهن بثيابٍ برّاقةٍ.
وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض،
قالا لهن: لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات؟!
ليس هو ههنا لكنه قام.
أُذكرن كيف كلمكن وهو بعد في الجليل، قائلاً:

إنه ينبغي أن يسلم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة،
ويصلب، وفي اليوم الثالث يقوم.
فتذكّرن كلامه" [١-٨].

استراح النسوة يوم السبت حسب الوصية (٢٣: ٥٦)، وكان الرب راقدًا في القبر، فكان هذا خاتمة "سبوت" العهد القديم لكي بنهايته يكمل القديم، ويبدأ العهد الجديد مع قيامة الرب في أول الأسبوع، أول الفجر! كان ذلك اليوم الذي فيه انطلق الرب من القبر بمثابة بداية جديدة للبشرية في علاقتها بالرب، إذ صار لها حق الحياة المقامة في الرب، لتعيش في سبتٍ جديدٍ فريدٍ هو "راحة الحياة الجديدة في الرب" أو "راحة الحياة المُقامة فيه" أو قل: "راحة الشركة مع المسيح المقام".

ترك القبر فارغًا والحجر مختومًا، كما وُلد من العذراء وبتوليتها لم تمس، وقد أرسل ملاكه يدحرج الحجر ليجد المؤمنين في القبر الفارغ رصيد القيامة الذي لا ينتهي، وينبوع الحياة الجديدة الغالبة للموت!

كان الله يرسل نارًا من السماء ليلتهم الذبيحة علامة قبوله لها ورفعها إلى سماواته، أما وقد قدم الابن حياته ذبيحة حب عنا، فقد صار القبر الفارغ علامة رضا الآب على الذبيحة وقبوله لها، فلم يعد لجسد الرب موضع في القبر لأنه قام... هذا هو إيمان الكنيسة الذي لخّصه الرسول بولس في عبارته الموجزة: "**الذي أُسلم من أجل خطايانا وأُقيم لأجل تبريرنا**" (رو ٤: ٢٥). وكما يرى الدارسون أن هذه العبارة تمثل حجر الزاوية في قانون الإيمان الكنسي في عصر الرسول، نقله الرسول عن التقليد.

يحدثنا الإنجيلي لوقا عن ذهاب النسوة في القبر ليجدنه فارغًا، ويلاحظ في حديثه هنا الآتي:

أولاً: يبدأ حديثه بالقول "**ثم في أول الأسبوع أول الفجر أتين إلى القبر**" [١]. في الأصحاح السابق ختم حديثه بأن النساء استرحن في السبت حسب الوصية، والآن إذ بدأ الأسبوع الجديد انطلقن بالحنوط والأطياب إلى قبر السيد، ومعهن أناس.

لم يكن ممكنًا في السبت – حسب التقليد اليهودي – أن يعدِدن الحنوط ولا ينطلقن إلى القبر، فيبقين بلا عمل حتى جاء غروب السبت أو عشية الأحد ليعددن الحنوط وينطلقن مع بدء الفجر والظلام باقٍ نحو القبر. يمكننا أن نقول بأن هؤلاء النسوة يمثلن الكنيسة الواحدة الممتدة عبر العصور، عاصرت الرمز كما الحق، فبتوقفهن عن العمل يوم السبت أعلن قبولهن الرمز في العهد القديم، لكن في شوقٍ أن يكمل لينقلهن إلى فجر الأحد فيجدن الحق ذاته، بالتقائهن بالمسيح القائم من

الأموات. هكذا لم تعد راحة الكنيسة في التوقف عن العمل في السبت الرمزي وإنما في الانطلاق نحو المسيح المقام حاملة أطياب مقدسة ورائحته الذكية معلنة في حياتها وكرازتها بالحق.

لقد انطلقن ومعهن أناس... فإن كانت النسوة تمثلن رجال العهد القديم الذين التهبت قلوبهم بالمسيا المنتظر، فإن الذين جاءوا معهن إلى القبر يمثلون الأمم الذين قبلوا الإيمان بالمسيح القائم من الأموات.

ثانيًا: "فوجدن الحجر مدحرجًا عن القبر، فدخلن ولم يجدن جسد الرب يسوع" [٢-٣]. لقد قام الملاك بدحرجة الحجر (مت ٢٨: ٢)، وبحسب التقليد الكنسي، رئيس الملائكة ميخائيل هو الذي قام بالدحرجة.

جاءت الدحرجة بعد القيامة، إذ لم يكن الرب محتاجًا إلى دحرجة الحجر ليقوم، إنما قام والأختام قائمة، وقد رأى كثير من الآباء مثل **القديسين أغسطينوس وجيروم** أن هذا العمل كان نظيرًا لما تم في ميلاده من القديسة مريم الدائمة البتولية.

إذن دحرجة الحجر كانت من أجلنا لأجل التأكد من قيامة الرب، إذ يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [دُحرج الحجر بعد القيامة من أجل النساء ليؤمنوا أن الرب قام ناظرين الحق أن القبر بدون جسد[1].]

ثالثًا: "وفيما هن محتارات في ذلك إذا رجلان وقفا بهن بثياب برّاقة" [٤]. قامت النساء بدور لم يقم به سائر الرسل أو التلاميذ، فقد انطلقن والظلام باقٍ، ولم يبالين بالعقبات التي كانت تنتظرهن كدحرجة الحجر، وعندما وجدن القبر مفتوحًا لم يترددن في الدخول إليه. لهذا استحققن أن يتأهلن لرؤية ملاكين بثيابٍ براقةٍ مبهجةٍ يكرزان لهما بالقيامة.

لم ينظرن الملاكين في لهيب نار، ولا حاملين سيوفًا نارية كما رأى غيرهن في العهد القديم، إنما رأين إياهما بلباس البهجة والفرح، وكأن السماء أرادت أن تشارك الكنيسة بهجتها بقيامة السيد المسيح. بالثياب البراقة أراد الملاكان أن يكرزا للكنيسة كلها بأن السمائيين يرتدون ثياب الملكوت، منتظرين مجيء العروس المقدسة التي تزف مع عريسها السماوي في ملكوته الأبدي.

رابعًا: "وإذ كن خائفات ومنكسات وجوههن إلى الأرض، قالا لهن: لماذا تطلبن الحيّ بين الأموات؟! ليس هو ههنا لكنه قام. اذكرن كيف كلمكن وهو بعد في الجليل. قائلاً إنه ينبغي أن

---

[1] *In Matt hom 90.*

يسلم ابن الإنسان في أيدي أناس خطاة ويصلب وفي اليوم الثالث يقوم. فتذكرن كلامه" [٥-٨].

لقد ملأ الحزن قلبهن إذ رأين القبر فارغًا وكن خائفات، وفي مرارة كن منكسات وجوههن إلى الأرض، لذا عاتبهن الملاكان بلطفٍ كيف يتوقعن وجود الحيّ الغالب الموت في القبر؟! خاصة وأنه سبق فأعلن لهن مع التلاميذ عن قيامته!؟ عندئذ تذكرن كلمات المخلص!

يمكننا أن نقول بأن هذا العتاب الملائكي لازال قائمًا وموجهًا لكل مؤمن يريد أن يحصر المسيح في القبر، وكأنه غير قادر على القيامة من الأموات. بمعنى آخر حينما نظن أننا مؤمنون مسيحيون بينما لا نخرج خارج احتياجات الجسد وشهواته وارتباطات العالم وهمومه، إنما نكون كمن يطلب الحيّ بين الأموات، ونسمع الكلمات الملائكية "ليس هو هنا، لكنه قام".

من يذكر كلمات الرب عن قيامته، يجد نفسه مع مسيحه فوق حدود القبر، لا يخاف الموت ولا ينحني لعبودية شهوات الجسد، ولا يرتبك بأفكار العالم، إنما ينطلق بمسيحه الساكن فيه إلى حياة سماوية غالبة لحدود الزمان والمكان.

إن تطلعنا إلى سيّر الشهداء نجد سّر نصرتهم يكمن في اتحادهم بالرب القائم من الأموات، فلا ينحصروا في الجسد. لهذا حتى إن ضيق الأشرار على أجسادهم يرسل الرب ملائكته بل وأحيانًا يظهر بنفسه لا لينتقم لهم، وإنما ليرفعهم بقوة فوق حدود الألم، الأمر الذي جعل الولاة يتهمون المسيحيين بالسحر!

خامسًا: إذ سبقت النساء الرسل في الانطلاق إلى قبر السيد تمتعن بالكرازة للرسل عن قيامة الرب. إذ يقول الإنجيلي: "**ورجعن من القبر، وأخبرن الأحد عشر، وجميع الباقين بهذا كله**" [٩]. يقول **القديس كيرلس الكبير:** [المرأة التي أعلنت مرة خدمة الموت، الآن هي أول من تقّبل سرّ القيامة المهوب وأخبرت به. بهذا حصل جنس المرأة على الخلاص من العار ومن اللعنة.]

سادسًا: إذ سمع التلاميذ الخبر، "**قام بطرس وركض إلى القبر، فانحنى ونظر الأكفان موضوعة وحدها، فمضى متعجبًا في نفسه مما كان**" [١٢].

لقد تراءى كلام النسوة للرسل كالهذيان ولم يصدقوهن [١١]، لأن الموقف كان غير متوقع رغم تأكيدات الرب لهم قبل دخوله الآلام. هذا وتعبير"**الهذيان**" طبي كان يستخدم عمن أصيبوا بحمى ففقدوا اتزانهم... على أي الأحوال أسرع بطرس كعادته لينظر ما قد حدث إذ كان قلبه ملتهبًا بالغيرة. وكما يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [حين سمع بطرس هذا لم يتأخر، بل جرى إلى القبر، فإن النار إذ تمسك بشيء لا تعرف التأخير.]

سابعًا: أحداث القيامة كما وردت في إنجيل معلمنا لوقا البشير تمس حياة كل مؤمن حقيقي يريد أن يلتقي مع الصديق السماوي. فالمريمات ومعهن أناس انطلقوا إلى القبر وسط الظلام، إنما يشيرون إلى الإنسان بكل طاقاته الروحية ومواهبه وإمكانياته ينطلق كما في أول الأسبوع، في أول الفجر، أي يبكر نحو الله ليكون هو الأول في كل حياته. ينطلق كما من ظلمة هذا العالم إلي قبر السيد المسيح، أي إلى المذبح الإلهي ليجد الجسد المُقام من الأموات سرّ حياته وقيامته المتجددة على الدوام. ينطلق حاملاً الأطياب، أي الصلوات والعبادات الملتحمة بالحياة الفاضلة في الرب كرائحة بخور ذكية يشتمها الآب رائحة رضا. هناك عند المذبح الإلهي تجتمع الكنيسة كلها لتشاهد حجر الحرف الناموسي قد دُحرج وأسرار القيامة أو معرفة الله قد انكشفت. ترى الملائكة بفرح ترتدي ثيابًا لامعة، تشارك المؤمنين فرحهم بالخلاص وبهجتهم بالملكوت، يسبحون معنا، فنسبح نحن أيضًا تسابيحهم ونحسب جميعنا – الخليقة الأرضية والسمائية – واحدًا في الملكوت.

ثامنًا: يعلق آباء الكنيسة على وجود الأكفان في القبر، إذ يقول الإنجيلي عن القديس بطرس أنه "**نظر الأكفان موضوعة**" [١٢]، كدليل على كذب اليهود الذين اتهموا التلاميذ أنهم سرقوا الجسد المقدس من القبر، فمن كلماتهم[١]:

❖ لو كان التلاميذ قد سرقوه لما صنعوا هذا العمل، وهو أن يعروا جسده. وما احتملوا أن يأخذوا منديله ويلفونها ويضعونها في موضع واحد من القبر، لكنهم قد سلبوا الجسد بأوفر سرعة. لأنه لهذا المعنى سبق يوحنا فقال أنه حُنِّط بمر كثير ألصق أكفانه بجسده، حتى إذا ما سمعت أن المنديل في ناحية والأكفان في ناحية لا يحتمل هذا أنه سُرق.

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ اعلم أنه لو سرقه سارق (غير التلاميذ) لكانت رغبته في هذه الثياب الثمينة والحنوط الكثيرة أكثر من أخذه وحده دون القماش... وأما التلاميذ فلا يصح لهم أخذه وهو عريان!! إذ كانوا لا يودون إهانته بل إكرامه.

الأنبا بطرس السدمنتي

❖ وأما كون الرب قد ألقى الثياب في المقبرة لما قام، فلكي يعلمنا أنه في القيامة الجامعة لا يحتاج أحد إلى لباس، ولا إلى شيءٍ مما يستعمل في الدهر، بل يكونون كملائكة الله الذين في السماء

[١] للمؤلف: الحب الإلهي، ١٩٦٧، ص ٦٧٤، ٦٧٥.

كما شهد الرب.

الأنبا بولس البوشي

٢. تلميذا عمواس[١]

يروي لنا القديس لوقا الإنجيلي لقاء السيد المسيح مع تلميذين للسيد وهما في طريقهما إلى عمواس، قرية تبعد حوالي ٧,٥ ميلاً شمال غربي أورشليم، يرجح أنها في موقع قرية "الخماسية" أو "القبيبة". هذان التلميذان أحدهما "كليوباس" [١٨] وهو اسم مختصر من "كليوباتروس" أو "المجد الكامل"، أما الثاني فيرى الدارسين أنه لوقا الإنجيلي نفسه، ويرى **العلامة أوريجينوس والقديس كيرلس الكبير** أن الشخص الثاني يدعى "سمعان" من السبعين رسولاً، خلاف سمعان بطرس وسمعان القانوي.

ويلاحظ في القصة كما رواها القديس لوقا الآتي:

أولاً: كان التلميذان – وهما من السبعين رسولاً – يسيران في طريق عمواس الذي يمتد سبعة أميال ونصف، فإن كان رقم ٨ يشير للحياة الأبدية، لأن رقم ٧ يشير إلى زماننا الحاضر، فإن هذين التلميذين قد عبرا الحياة الزمنية لكنهما لم يبلغا قوة القيامة وكمالها (رقم ٨). بمعنى آخر سلوكهما في هذا الطريق يشير إلى الإنسان الذي يؤمن بالقيامة في فكره وتكون موضوع حديثه لكنه لا يتمتع بها ولا يمارسها.

كثيرون يؤمنون بالقيامة بل ويكرزون بها لكنهم لا يعيشونها. هؤلاء لا يزالوا في طريق عمواس يحتاجون إلى ظهور السيد لهم وحديثه معهم ليلهب قلوبهم في الحياة الداخلية بالحياة المقامة، فيعيشونها قبل رحيلهم من هذا العالم.

ثانيًا: يحدد الإنجيلي تاريخ هذا اللقاء، بقوله: "**في ذلك اليوم**" [١٣]، أي في يوم أحد القيامة، وكان ذلك نحو الغروب حيث قارب النهار أن يميل [٢١] وكأن التلميذين بقيا النهار كله تقريبًا في أورشليم يسمعان ويتحاوران مع بعضهما أو مع النسوة وبطرس ويوحنا الذين ذهبوا إلى القبر، كما كانا يسترجعان الذكريات عن أحاديث الرب بخصوص قيامته قبل آلامه، ومع هذا لم يحملا يقين الإيمان، إنما "**كانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث**" [١٤].

---

[١] اعتمدت في ترجمة أغلب أقوال الآباء الواردة هنا على ما ورد في الكتيب: القمص متياس فريد: مع المسيح القائم، في الطريق إلى عمواس أبريل ١٩٨٤.

ثالثًا: "وفيما هم يتكلمان ويتحاوران، اقترب إليهما يسوع نفسه، وكان يمشي معهما" [١٥]. حقًا لم يكونا على يقين الإيمان لكنهما كانا مشغولين بالسيد يتكلمان ويتحاوران، وفي ضعفهما لم يستطيعا إدراك الحق، فحّل الحق في وسطهما يعلن ذاته ويسندهما إذ سبق فأكد لنا: "**حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم**" (مت ١٨: ٢٠).

رابعًا: "ولكن أُمسكت أعينهما عن معرفته" [١٦].

ربما عجزا عن معرفته، لأنه إذ قام حمل جسده نوعًا من المجد عن ذي قبل، لذا لم يستطيعا معرفته، كما حدث مع مريم المجدلية (يو ٢٠: ١٤)، والتلاميذ على شاطئ البحيرة (يو ٢١: ٤). وربما كان علة عجزهما عن معرفته ضعف إيمانهما وتباطؤهما في الفهم الروحي، أو بقصد إلهي حتى يكشف لهما السيد أسراره الإلهية وتحقيق النبوات فيه. "**ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب**" [٢٧].

❖ إذ صار له الجسد الروحي (ذات جسده المولود به من العذراء يحمل طبيعة جديدة تليق بالحياة السماوية) لا تمثل المسافات المكانية عائقًا لحلوله (بالجسد) أينما أراد، ولا يخضع جسده لنواميس الطبيعة بل للناموس الروحي والفائق للطبيعة. لذلك كما يقول مرقس أنه ظهر لهما "بهيئة أخرى" (مر ١٦: ١٢)، فلم يسمح لهما أن يعرفاه.

قيل: "**أمسكت أعينهما عن معرفته**"، حتى يعلنا حقًا مفاهيمهما المملوءة شكًا، فينكشف جرحهما ويتقبلا الشفاء، ولكي يعرفا أنه وإن كان ذات الجسد الذي تألم قام ثانية لكنه لم يعد منظورًا للكل، وإنما لمن يريدهم أن ينظروه. وأيضا لكي لا يتعجبا أنه لم يعد يسير وسط الناس (كما كان قبل القيامة)، مظهرًا أن تحوله لا يناسب البشرية بل ما هو إلهي، مقدمًا نفسه مثالاً للقيامة المقبلة حيث نصير سائرين كملائكة وأبناء الله.

الأب ثيؤفلاكتيوس

❖ بحق حجب إعلان نفسه عنهما بظهوره بهيئة لا يعرفونها؛ فعل هذا بخصوص الأعين الجسدية من أجل ما فعلاه هم بنفسيهما داخليًا بخصوص عين الذهن. فإنهما في الداخل، وإن كانا قد أحبا لكنهما شكا. فإذ تحدثا عنه ظهر لهما، ولكنهما إذ شكا أخفى هيئته عنهما[1].

البابا غريغوريوس (الكبير)

[1] *In Evang. Hom. 23.*

إن كانت أعينهما قد أمسكت عن معرفته، لكنه تقدم بنفسه إليهما ليبدأ الحديث معهما، إذ سألهما: "**ما هذا الكلام الذي تتطارحان به، وأنتما ماشيان عابسين؟**" [١٧]. فإن كان السيد قد تألم وصلب فالموت لم يفصله عن تلاميذه، وإن كان قد قام فقيامته لم تبعد به عنهم. من أجلنا قد صلب ومات وقام لكي يقترب إلينا ويبادرنا بالحب، مشتاقًا أن يدخل معنا في حوار، لكي يقدم ذاته لنا، فنفتح أعيننا لمعاينته وقلوبنا لسكناه فينا.

على أي الأحوال، إن قصة لقاء السيد المسيح بتلميذي عمواس اللذين أُمسكت أعينهما عن معرفته هي قصة كل إنسان روحي، يرافقه الرب كل الطريق، ويقوده بنفسه، ويلهب قلبه، ويكشف له أسرار إنجيله، ويعلن له قيامته، ويفتح بصيرته لكي يعاينه ويفرح به.

يقول **القديس أغسطينوس:** [ليس غياب الله غيابًا. آمن به فيكون معك حتى وإن كنت لا تراه. فعندما اقترب الرب من الرسولين لم يكن لهما الإيمان... لم يصدقا أنه قام، أو أنه يمكن لأحد أن يقوم... لقد فقدا الإيمان ولم يعد لهما رجاء... كانا يمشيان معه في الطريق. موتى مع الحيّ، أمواتًا مع الحياة. كانت "الحياة" تمشى معهما، غير أن قلبيهما لم يكونا ينبضان بالحياة[١].]

خامسًا: "فقال لهما: ما هذا الكلام الذي تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين؟!" [١٧].

إن كنا في هذا العالم نبكي على خطايانا ونحزن لكن خلال لقائنا مع المسيح المقام يلزمنا **ألا نمشي عابسين** بل نفرح بالرب، لأن ملكوت الله هو "برّ وسلام وفرح في الروح القدس" (رو ١٤: ١٧). جاء عن **القديس أغسطينوس** في اعترافاته أن الله كان يمزج عبادته بنشوة روحية تفوق كل ملذات العالم لكي يفطمنا عن لذة الخطية.

قيل عن **القديس أبوللو**[٢] الذي التقى به **القديس جيروم** في منطقة طيبة أنه كان دائم البشاشة، وقد اجتذب كثيرين إلى الحياة النسكية كحياة مفرحة في الداخل، ومشبعة للقلب بالرب نفسه. كثيرًا ما كان يردد القول: [لماذا نجاهد ووجوهنا عابسة؟! ألسنا ورثة الحياة الأبدية؟ اتركوا العبوس والوجوم للوثنيين، والعويل للخطاة، أما الأبرار والقديسون فحري بهم أن يمرحوا ويبتسموا لأنهم يستمتعون بالروحيات.]

سادسًا: ما هو إيمان تلميذي عمواس؟

بلا شك لم يكونا بعد قد استطاعا أن يدركا لاهوته، ولا أن يقبلا سرّ الصليب، إنما كانا يتوقعان

---

[١] القمص متياس فريد: مع المسيح القائم، أبريل ٨٤، ص ٢٧ (عظة ٢٣٥).

[٢] قاموس آباء الكنيسة وقديسيها للفتيان: آبوللو وآمون.

فيه محررًا لإسرائيل أو فاديًا لليهود من الحكم الروماني. وقد حطم الصليب آمالهما، إذ قال كليوباس عن السيد المسيح:

"**كان إنسانًا نبيًا مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب.**

كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه.

ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل،

ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك.

بل بعض النسوة منّا حيرننا، إذ كن باكرًا عند القبر.

ولما لم يجدن جسده أتين قائلات:

إنهن رأين منظر ملائكة قالوا أنه حيّ.

ومضى قوم من الذين معنا إلى القبر،

فوجدوا هكذا كما قالت أيضًا النسوة،

وأما هو فلم يروه" [١٩-٢٤].

ويعلل الإنجيلي يوحنا عدم إيمان التلاميذ بقوله: "**لأنهم لم يكونوا بعد يعرفون الكتاب أنه ينبغي أن يقوم من الأموات**" (يو ٢٠: ٩). ويضيف **القديس كيرلس الكبير**[1] لتلميذي عمواس عذرًا آخر... وهو أن الأخبار التي نقلتها النسوة لم تكن كافية أن يؤمنا بالقيامة، بل كانت موضوع دهشة وحيرة: "بعض النساء منا حيرننا..." لأنها تحمل أنباء القبر الفارغ وشهادة الملائكة. ولا حتى الأخبار التي نقلها بطرس لأنه لم يرَ سوى القبر الفارغ والأكفان، كما قال التلميذان: "**وأما هو فلم يروه**" [١٢].

سابعًا: إذ أعلن التلميذان ضعف إيمانهما أو خطأه، قدم لهما تأكيدات من الناموس والأنبياء، إذ قال لهما: "**أيها الغبيان والبطيئا القلوب في الإيمان بجميع ما تكلم به الأنبياء. أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده؟! ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب" [٢٥-٢٧].**

يقول **القديس كيرلس الكبير:** [قدم الرب للتلميذين موسى والأنبياء، وكشف لهما ما غمض عليهما من معانيهما. فالناموس هو **تمهيد للطريق**، وخدمة الأنبياء هي **إعداد** الناس لقبول الإيمان. لأن الله لم يرسل شيئًا بلا فائدة، بل لكل شيء فائدته في وقته. فالأنبياء هم الخدام الذين أرسلهم السيد أمامه لتكون نبواتهم تمهيدًا لمجيئه. وكأن هذه النبوات **كنز ملكي مختوم**، ينبغي أن يفتح في الوقت المناسب

[1] *In Luc 24.*

ما فيه من رموز[1].]

ثامنًا: "ثم اقتربوا إلى القرية التي كانا منطلقين إليها، وهو تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد" [٢٨]. لم يقل لهما أنه منطلق إلى مكان أبعد، وإنما تظاهر هكذا، لكي لا يقحم نفسه بنفسه في موضعهما، إنما إذ يطلباه ويصرا في طلبه يستجيب. الله لا يقحم نفسه في حياتنا بغير إرادتنا، لكنه يطلب أن ندعوه، ونلح في الدعوة معلنًا كمال حرية الإنسان في قبوله أو رفضه. هذا من جانب ومن جانب آخر، كما قال **البابا غريغوريوس (الكبير)**[2] إنهما إذ كانا لا يزالا غريبين في الإيمان "تظاهر كأنه منطلق إلى مكان أبعد".

تاسعًا: "فألزماه قائلين: امكث معنا، لأنه نحو المساء وقد مال النهار" [٢٩]. النفس التي ذاقت ما ذاقه التلميذان لا تكف عن أن تقول مع عروس النشيد: "في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي... فأمسكته ولم أرخه، حتى أدخلته بيت آمي وحجرة من حبلت بي... شماله تحت رأسي ويمينه تعانقني... تحت ظله اشتهيت أن أجلس، وثمرته حلوة لحلقي" (نش ٣: ١، ٤، ٢: ٣، ٦).

يقول **القديس أغسطينوس:** [إن كنت تريد الحياة تشبه بالرسولين حتى تتعرف على الرب. لقد ألحا عليه بالدعوة، وتظاهر هو كأنه ينوي مواصلة الطريق... غير أنهما أمسكا به وقالا له: امكث معنا لأنه نحو المساء[3].] كما يقول: [امسك بالقريب إن أردت أن تتعرف على مخلصك، فقد أعادت الضيافة إلى التلميذين ما نزعه الشك وعدم الإيمان، وأعلن الرب ذاته عند كسر الخبز... فتعلم أين تطلب الرب فتحظى به على مائدة الطعام[4].]

عاشرًا: "فلما اتكأ معهما أخذا خبزًا وبارك وكسر وناولهما، فانفتحت أعينهما وعرفاه، ثم اختفى عنهما" [٣٠-٣١].

يرى البعض أن ما فعله السيد المسيح هنا هو "سّر الإفخارستيا"، وأن الرب يعلن ذاته خلال هذا السرّ، يفتح أعين مؤمنيه الداخلية لمعاينته، وإن كان البعض الآخر يرى أنه لم يكن "سّر الإأفخارستيا"، إذ لا نسمع عنه أنه أخذ كأسًا أيضًا وناولهما، كما لم يذكر عند كسر الخبز أنه جسده المبذول عنهما، كما فعل في العشاء الأخير.

يقول **القديس أغسطينوس:** [متى أعلن الرب عن نفسه؟ عند كسر الخبز... لذلك عندما نكسر

---

[1] *In Luc 24.*
[2] *In Evang. 22.*
[3] *Ser. 235.*
[4] *Ser. 235.*

الخبز نتعرف على الرب، فهو لم يعلن نفسه إلا هنا على المائدة... لنا نحن الذين لم نستطع أن نراه في الجسد، ولكنه أعطانا جسده لنأكل. فإذا كنت تؤمن بهذا فتعال مهما كنت. وإذا كنت تثق فاطمئن عند كسر الخبز[1].]

يقول **الأب ثيؤفلاكتيوس:** [تُفتح أعين الذين يتقبلون الخبز المقدس لكي يعرفوا المسيح، لأن جسد الرب يحمل فيه قوته العظيمة غير المنطوق بها.]

يعلل **القديس كيرلس الكبير** اختفاء السيد المسيح عنهما بقوله: [لقد اختفى الرب عنهما، لأن علاقة الرب بتلاميذه بعد القيامة لم تعد كما كانت عليه من قبل. فهم في حاجه إلى تغيير، وإلى حياة جديدة في المسيح... حتى يلتصق الجديد بالجديد وغير الفاسد بالفاسد. وهذا هو السبب الذي جعل الرب لا يسمح لمريم المجدلية أن تلمسه . كما ذكر (يو ٢٠: ١٧) – إلى أن يصعد ثم يعود مرة أخرى[2].]

أحد عشر: ختم القصة بقوله: "**فقاما في تلك الساعة، ورجعا إلى أورشليم...**" **[٣٣]**. هذا هو غاية عمل الله فينا أن يهبنا قوة القيامة، إذ يقول: "**قاما**"، بهذه الحياة المقامة نرجع إلى أورشليم العليا التي تركناها، نرجع إلى مدينة الله الملك العظيم (مت ٥: ٣٥)، إلى "أورشليم العليا التي هي أمنا جميعًا" (غل ٤: ٢٦). بمعنى آخر يحوّل الله اتجاهنا، فبعد أن كنا متجهين إلى عمواس معطين ظهورنا لأورشليم، نعطي ظهورنا لعمواس متجهين بوجهنا وقلبنا وفكرنا نحو أورشليم.

٣. ظهوره لتلاميذه

إذ قام السيد المسيح من الأموات لم يعد يمارس الحياة البشرية اليومية، ولا صار بين اليهود يكرز ويبشر ويصنع عجائب ومعجزات، فقد قام يحمل جسده بذاته، لكنه ممجد، بمعنى آخر صار وضعه الطبيعي الجديد أن يصعد إلى السماوات ينتظر عروسه المقدسة لترتفع معه. لكنه بقي أربعين يومًا من قيامته حتى صعوده، يظهر لأحبائه المشتاقين إليه ليسحب قلوبهم نحو السماء.

حقًا كان السيد المسيح ينتهز كل فرصة لكي يعلن قيامته ويؤكدها في حياة محبيه المؤمنين به. بشر النساء القادمات إلى القبر بحبٍ، يطلبن تقديم الحنوط للجسد المقدس، فأعلن لهن بملائكته عن قيامته، ومشى مع التلميذين اللذين كانا يتكلمان ويتحاوران في طريق عمواس عن أمر قيامته، والآن إذ رجع التلميذان إلى أورشليم ليخبرا التلاميذ بما حدث معهما وكيف عرفاه عند كسر الخبز.

---

[1] *Ser. 235.*
[2] *In Luc 24.*

"وفيما هم يتكلمون بهذا،
وقف يسوع نفسه في وسطهم وقال لهم: سلام لكم،
فجزعوا وخافوا، وظنوا إنهم نظروا روحًا،
فقال لهم: ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟
انظروا يديّ ورجليّ إني أنا هو.
جسّوني، وانظروا، فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي.
وحين قال هذا أراهم يديه ورجليه،
وبينما هم غير مصدّقين من الفرح ومتعجّبون،
قال لهم: أعندكم ههنا طعام؟
فناولوه جزءً من سمك مشوي وشيئًا من شهد عسل،
فأخذ وأكل قدامهم" [٣٦-٤٣].

يلاحظ في هذا اللقاء الآتي:

أولاً: إذ كانوا يتحدثون عن القيامة التهب الكل شوقًا نحو التمتع به كما تمتع بطرس الرسول وتلميذا عمواس وبعض النساء، فحقق لهم السيد شهوة قلوبهم إذ وقف بنفسه في وسطهم.

حقًا بحلوله في وسطهم تحولت العُليَّة إلى كنيسة مقدسة في بهاءٍ ومجد فائقين، أو قل صارت العُليَّة في هذه اللحظات تمثل نموذجًا حيًا لما ينبغي أن تكون عليه الكنيسة، ألا وهو التهاب أعضائها بالتمتع بالمسيّا المقام، وحلول المسيّا في وسطها كرأس حيّ يهب قوة القيامة لأعضاء جسده.

❖ جاء ذاك الذي كان مُشتهى جدًا، معلنًا ذاته لطالبيه ومنتظريه، لا بطريقة يمكن أن يُشك فيها، وإنما حّل بشهادة واضحة.

القديس يوحنا الذهبي الفم

ثانيًا: في أول لقاء للسيد القائم من الأموات بتلاميذه المجتمعين، ممثلي كنيسته، قدم لهم "سلامه" الفائق، لا كعطية خارجية، إنما هبه تمس الأعماق في الداخل، إذ "**قال لهم: سلام لكم**" [٣٦]. لقد حقق لهم ما وعدهم به في ليلة آلامه، قائلاً: "سلامًا أترك لكم، سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا" (يو ١٤: ٢٧).

❖ لنكرم عطية السلام التي تركها المسيح لنا عند رحيله... فالسلام، على وجه الخصوص يخص الله

الذي يوحّد كل الأشياء معًا في واحد، والذي إليه لا يُنسب شيء مثل وحدة الطبيعة والسلام الذي يحلّ به في الإنسان[1].

القديس غريغوريوس النزينزي

❖ لقد كشف لهم أيضًا آثار الجراحات بوضوح، وقد ثبت صوته في أذهانهم القلقة، إذ قيل: "فقال لهم يسوع أيضًا سلام لكم"، أي لا تضطربوا. وبقوله هذا ذكّرهم بكلماته التي نطق بها قبل الصلب: "سلامي أترك لكم" (يو ١٤: ٣٧)، "ليكون لكم فيّ سلام، في العالم سيكون لكم ضيق" (يو ١٦: ٣٣).

لقد "**فرح التلاميذ إذ رأوا الرب**" (يو ٢٠: ٢١). انظر كيف تحقق ذلك؟ ما قاله قبل صلبه: "**ولكنني سأراكم أيضًا فتفرح قلوبكم، ولا ينزع أحد فرحكم منكم**" (يو ١٦: ٢٢)، قد تمّ الآن في تلك اللحظة. كل هذا قد جلب فيهم إيمانًا أكيدًا ثابتًا...

هذه هي كلمات الرب الأولى التي حدثهم بها بعد قيامته... أما بالنسبة للنساء فأعطاهن الفرح (مت ٢٨: ٩)، لأن النسوة كن في حزن، لذلك وهبهن أولاً الفرح. بلياقة وهب السلام للرجال، ووهب النسوة الفرح بسبب حزنهن...

أنه يقدم ثمار الصليب أولاً، وهو :"السلام"[2].

القديس يوحنا الذهبي الفم

❖ هذا هو السلام الحقيقي وتحية الخلاص، إذ تأخذ التحية اسمها من الخلاص[3].

القديس أغسطينوس

ثالثًا: يقول الإنجيلي: "**فجزعوا وخافوا، وظنوا أنهم نظروا روحًا**" [٣٧]. لقد عاش التلاميذ مع السيد المسيح زمانًا وأدركوا أنه بالحقيقة تأنس، يحمل ناسوتًا حقيقيًا، والآن إذ سمعوا عن قيامته لم يكونوا يتوقعون أنه يحّل هكذا في وسطهم والأبواب مغلقة، لذا جزعوا وخافوا وظنوا أنهم نظروا روحًا. وكان عمل السيد المسيح بعد أن وهبهم سلامه الحقيقي أن يؤكد لهم أنه ليس روحًا مجردًا بل بالحقيقة يحمل جسدًا، مبرهنًا على ذلك بأن يلمسوه ويتناول معهم.

❖ لا نستطيع أن نعتقد بأن بطرس ويوحنا قد شكَّا (بعد تأكدهما من قيامته بدخولهما القبر)، فلماذا

---

[1] *Oration 22.*

[2] الحب الإلهي, ١٩٦٧، ص ٩٦٤، ٩٦٥.

[3] الحب الإلهي, ١٩٦٧، ص ٦٩٧، ٦٩٨.

يقول لوقا بأن التلاميذ خافوا؟

أولاً: بسبب إعلان الأغلبية (عن شكهم) الذي طغى على الأقلية.

ثانيًا: ولو أن بطرس آمن بالقيامة، لكنه دُهش إذ رأى يسوع حاضرًا فجأة بجسده، بينما الأبواب مغلقة.

القديس أمبروسيوس

ثالثًا: لقد كشف لهم السيد المسيح عن شخصه أولاً بإعلانه لهم أنه عارف بما في أفكارهم وقلوبهم، إذ قال لهم: "**ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟** [٣٨]، ثم عاد يؤكد لهم أنه المسيا المصلوب، قائلاً لهم: "**انظروا يديّ ورجليّ إني أنا هو؛ جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي**" [٣٩].

يقول **القديس أغسطينوس** إن السيد المسيح ترك آثار جراحاته بعد القيامة ليشفي بها جراحات التلاميذ، إذ لم يصدقوا قيامته عندما أظهر ذاته لهم وظنوه روحًا. فأظهر لهم يديه ورجليه، إذ يقول: [مع أن جراحاته شُفيت، فإن آثارها قد بقيت! إذ حكم هو بأن هذا نافع للتلاميذ، أن يستبقي آثار جراحاته لكي يشفي جروح أرواحهم، جراحات عدم إيمانهم! فقد ظهر أمام عيونهم، وأظهر لهم جسده الحقيقي، ومع هذا ظنوه روحًا!... وماذا قال لهم الرب؟ "**ما بالكم مضطربين؟ ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم؟**" [٣٨]، إن كانت هناك أفكار قد صعدت إلى قلوبكم فهي قادمة من الأرض. الأفضل للإنسان ألا تصعد الأفكار إلى قلبه، بل يرتفع قلبه إلى الأعالي، حيث يود الرسول من المؤمنين أن يضعوا قلوبهم هناك، إذ يقول: "فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فأطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق، لا بما على الأرض، لأنكم قد متم وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضًا معه في المجد" (كو ٣: ١-٤)، أي مجد هذا؟ إنه مجد القيامة! أي مجد؟ اسمع ما يقوله الرسول عن هذا الجسد: "يزُرع في هوان، ويقوم في مجد" (١ كو ١٥: ٤٣)[1].]

يقول **القديس أمبروسيوس** :[ظن التلاميذ في اضطرابهم إنهم يروا روحًا، لهذا فلكي يُظهر لهم الرب حقيقة القيامة قال لهم: "**جسوني وانظروا فإن الروح ليس له لحم وعظام كما ترون لي**"... كيف يمكن أن يكون ليس في الجسد وقد ظهرت فيه علامات الجروح وآثار الطعنة التي أظهرها الرب؟!... لقد قبل الرب أن يرتفع إلى السماء بالجراحات التي تحمّلها لأجلنا، ولم يشأ أن يمحوها،

[1] *Ser. on N.T. 66: 2.*

حتى يظهر لله الآب ثمن تحريرنا. بهذا يجلس عن يمين الآب وهو حامل لواء خلاصنا[1].]

السبب الرئيسي لإبقاء آثار الجراحات كما يقول **القديس كيرلس الكبير**[2] هو الشهادة لتلاميذه أن الجسد الذي قام هو بعينه الذي تألم. أما **البابا غريغوريوس (الكبير)**[3]، فيقدم أربعة مبرّرات لهذه الجراحات، وهي:

أ. لكي يبني تلاميذه في الإيمان بقيامته.

ب. تبقى هذه الجراحات تعلن شفاعته الكفارية لدي الآب عنا.

ج. لكي يتذكر المؤمنين حبه لهم ورحمته تجاههم.

د. تبقى لإدانة الأشرار في يوم الرب العظيم.

رابعًا: "وبينما هم غير مصدقين من الفرح ومتعجبون،
قال لهم أعندكم ههنا طعام؟
فناولوه جزءً من سمك مشوي وشيئًا من شهد عسل،
فأخذ وأكل قدامهم"[٤١-٤٣].

من شدة الفرح لم يصدقوا أنفسهم إنهم يرون الرب، لهذا أراد أن يؤكد لهم أنه ليس خيالاً، بطلبه طعامًا يأخذه من أيديهم ويأكله قدامهم.

❖ لم يكن جائعًا لكنه طلب أن يأكل، فأكل بسلطانه لا عن الضرورة، حتى يدرك التلاميذ حقيقة جسده، ويتعرف العالم عليه خلال كرازتهم[4].

القديس أغسطينوس

❖ وإن كان بعد القيامة العامة للكل، لا يكون أكل ولا شرب، ولا إذا كان أحد به جرح يقوم به... إنما صنع الرب هذا ليحقق لنا أجمعين أن الجسد الذي تألم ومات هو الذي انبعث من بين الأموات[5].

الأنبا بولس البوشي

❖ بحسب أمر الناموس كان الفصح يؤكل حقًا مع أعشاب مُرّة لأن مرارة العبودية كانت لا تزال

---

[1] *In Luc. 24:31-40.*
[2] *On Luke 24.*
[3] *Mor 14:55.*
[4] *Ser. on N.T. 66:3.*

[5] الحب الإلهي، ١٩٦٧، ص ٦٧٦.

قائمة، أما بعد القيامة فالطعام حلو بعسل النحل[1].

القديس غريغوريوس النيسي

خامسًا: إذ حلَّ السيد المسيح القائم من الأموات في وسط تلاميذه، وقدم لهم نفسه خلال الحواس حتى يرفعهم بالإيمان إلى ما هو فوق الحواس، فتح أذهانهم ليدركوا ما كُتب عنه في الناموس والأنبياء، خاصة عن صلبه وقيامته.

"**وقال لهم: هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم،**
أنه لابد أن يتم جميع ما هو مكتوب عني في ناموس موسى والأنبياء والمزامير.
حينئذٍ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب.
وقال لهم: هكذا هو مكتوب،
وهكذا كان ينبغي أن المسيح يتألم ويقوم من الأموات في اليوم الثالث" [٤٤-٤٦].

إن كان قد دخل إلى العُلِّيَّة والأبواب مغلقة ليعلن قيامته لهم، فإنه جاء ليدخل أذهانهم ويعلن تجليه فيها فتتمتع ببهجة قيامته وقوتها، وتدرك مفاهيم إنجيله وتختبر ملكوته في داخلها.

٤. إرساله التلاميذ

إن كان قد أعلن السيد قيامته لتلاميذه، إنما يعلن قيامة الرأس من أجل الجسد، قام ليقيمنا معه. بمعنى آخر إن كان قد قام، إنما ليرسل تلاميذه يقدمون قوة قيامته للبشرية، فيتمتعون بالعضوية الحقيقية في جسده القائم. لذا إن كان قد بدأ عطاياه هنا بمنحه سلامه، يختمها بدعوتهم للكرازة بقوة روحه القدوس ليضموا أعضاء جددًا في جسده المقدس القائم من الأموات.

جاءت وصيته لهم: "**هكذا كان ينبغي...**
أن يكرز باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم،
مبتدأ من أورشليم،
وأنتم شهود لذلك.
وها أنا أرسل إليكم موعد أبي،
فأقيموا في مدينة أورشليم إلى أن تُلبسوا قوة من الأعالي" [٤٦-٤٩].

إن كان قد قدم حياته المبذولة القائمة من الأموات، إنما لتكون وديعة ورصيدًا للكرازة بعدما تسلموا "الروح القدس" كسرّ قوتهم العلوية، في تأسيس الكنيسة جسد المسيح المقام.

[1] *De Resur. Orat. 1.*

يعلق **القديس أغسطينوس** على هذا الظهور الإلهي المختتم بإرسالية التلاميذ، قائلاً:

[أظهرَ ذاته للتلاميذ بكونه رأس كنيسته.

كانت الكنيسة منظورة فيه مقدمًا... إذ ظهر الرأس ووعد بالجسد... رأوا الرأس وآمنوا به، متلامسًا مع الجسد. أما نحن فنرى الجسد ونؤمن بالرأس... رؤيتهم للمسيح أعانتهم على الإيمان بكنيسة المستقبل، أما بالنسبة لنا فرؤيتنا للكنيسة تعيننا على الإيمان بالمسيح القائم. إيمانهم كمل، وأيضا إيماننا نحن قد كمل. إيمانهم كمل خلال رؤيتهم للرأس، ونحن إيماننا كمل برؤيتنا للجسد... هم رأوا الرأس وآمنوا بالجسد، أما نحن فرأينا الجسد وآمنا بالرأس. ليس أحد ينقصه المسيح، فهو كامل في الكل بالرغم من أن جسده لم يكمل بعد حتى اليوم[1].]

يقول أيضًا **القديس يوحنا الذهبي الفم:** [كما أن القائد لا يسمح لجنوده أن يواجهوا كثيرين ما لم يتسلحوا أولاً، هكذا لم يسمح الرب لتلاميذه أن ينزلوا للصراع ما لم يحل الروح أولاً[2].]

الآن إذ التقى السيد المسيح بتلاميذه أكثر من مرة وأكد لهم قيامته، ووعدهم بإرسال روحه القدوس عليهم انطلق إلى السماء لكي تنطلق معه قلوبهم وتحمل سمته السماوية.

٥. صعوده إلى السماء

"وأخرجهم خارجًا إلى بيت عنيا، ورفع يديه وباركهم.

وفيما هو يباركهم انفرد عنهم وأُصعد إلى السماء.

فسجدوا له، ورجعوا إلى أورشليم بفرح عظيم" [٥٠-٥٢].

قلنا أن "بيت عنيا" تعني "بيت العناء" أو"بيت الطاعة"، فإنه قد أراد أن يصعد إلى السماء عند بيت عنيا، عند جبل الزيتون، حتى كل من يود أن يرتفع قلبه إلى السماء يلزمه أن يحتمل معه "العناء" ويشاركه الألم، كما يحمل سمة الطاعة التي للابن نحو أبيه. يمكننا أن نقول بأنه من أجل عصياننا نزل من السماء، وبطاعته رفعنا إلى سماواته.

لقد رفع يديه الحاملتين لآثار الجراح ببركة صليبه، مقدّمًا دمه المبذول ثمنًا لرفعهم معه.

العجيب أن التلاميذ لم يحزنوا على صعود الرب ومفارقته لهم حسب الجسد، إنما رجعوا إلى أورشليم بفرحٍ عظيمٍ، إذ أدركوا أنه حيث يوجد الرأس تكون الأعضاء، وما تمتع به السيد المسيح إنما هو باسم الكنيسة كلها ولحسابها.

---

[1] *Ser. on N.T. 66: 4,6.*

[2] *In Acts hom 1.*

٦. ارتباطهم بالهيكل

"وكانوا كل حين في الهيكل، يسبحون ويباركون الله، آمين" [٥٣].

كانوا مرتبطين بالهيكل، لا يريدون أن يتركوه بل أن يسحبوا كل قلب لإدراك المفاهيم الروحية الإنجيلية للناموس. وكانت حياتهم تسبيحًا بلا انقطاع، حتى عندما طُردوا من الهيكل وذاقوا أمر الاضطهادات على أيدي اليهود ثم الرومان.

هذه هي نهاية السفر، فيه نجد الصديق السماوي قد ارتفع ليرفع أصدقاءه، واهبًا إياهم حياة التسبيح حتى يكملوا جهادهم بفرح داخلي ويلتصقوا به أبديًا.

المحتويات

إنجيل لوقا ٥

لوقا البشير، نسبة السِّفْر إليه، تاريخ كتابته، غايته، سماته، أقسامه.

الباب الأول

صديقنا صار مثلنا

الأصحاح الأول: البشارة بالتجسُّد ١٧

مقدَّمة السفر، البشارة لزكريَّا بميلاد يوحنا، صمت زكريَّا، البشارة بالتجسّد الإلهي، لقاء مريم بأليصابات، تسبحة العذراء، ميلاد يوحنا وختانه، نبوَّة زكريَّا الكاهن

الأصحاح الثاني: ميلاد الصديق السماوي ٥٠

ميلاد صديقنا، البشارة للرعاة، ختان السيِّد، تقديم ذبيحة، تسبحة سمعان الشيخ، تسبحة حَنَّة بنت فنوئيل، العودة إلى الناصرة، يسوع في الهيكل.

الأصحاح الثالث: الإعلان عن الصديق السماوي ٧٩

ظهور يوحنا المعمدان، الحث على التوبة، شهادة عن المسيح، عماد السيِّد، نسب السيِّد المسيح.

الباب الثاني

صديقنا جُرِّب مثلنا

الأصحاح الرابع: صديقنا يُجَرَّب مثلنا ٩٩

التجربة في البرِّيَّة، يسوع في الجليل، يسوع المرفوض من خاصَّته، يسوع العامل بسلطان، شفاء حماة بطرس، كرازته في مجامع الجليل.

الباب الثالث

صديقنا يشعر بآلامنا

الأصحاح الخامس: يسوع يسند المُتعبين ١٢٩

صيد السمك، تطهير أبرص، شفاء المفلوج، دعوة لاوي العشّار، الإعلان عن الخمر الجديدة.

الأصحاح السادس: الصديق المعلِّم ١٤٤

المسيح رب السبت، شفاء اليد اليُمنى، دعوة التلاميذ، تعاليمه [أ. حديث شخصي للمتألِّمين، ب. دعوة حب فائق، ج. الحاجة للبناء على الصخر].

الأصحاح السابع: صديق الجميع ١٧٣

شفاء عبد قائد المائة، إقامة ابن أرملة نايين، إرساليّة يوحنا للمسيح، شهادته عن يوحنا، قصة المرأة الخاطئة.

الأصحاح الثامن: الصديق العامل بلا انقطاع ١٩٦

اهتمامه بخدمة المرأة، عمله كزارع (مثَل البذار)، يهب النور، يطلب قرابة الكل له، تهدئة الأمواج، شفاء مجنون الجدريِّين، إبراء نازفة الدم، إقامة ابنة يايرس.

الأصحاح التاسع: صديقنا السماوي والتلاميذ ٢٠٧

إرساليَّة التلاميذ، اضطراب هيرودس، التلاميذ وإشباع الجموع، التلاميذ والتعرف على شخصه، التلاميذ والصليب، التلاميذ ومجد التجلي، التلاميذ وإخراج الأرواح الشرِّيرة، التلاميذ وتسليم ابن الإنسان، التلاميذ والتواضع، التلاميذ وخدمة الآخرين، التلاميذ والنار من السماء، شروط التلمذة للسيِّد.

الأصحاح العاشر: الإرساليَّة الثانية ٢٢٧

تعيين السبعين رسولاً وكرازتهم، تهلَّل السيِّد المسيح بالروح، مثَل السامري الصالح، مرثا العاملة ومريم المتألِّمة.

الأصحاح الحادي عشر: العبادة الروحيَّة ٢٥١

الصلاة الربانيَّة، الصلاة بلجاجة، وحدة الروح (اتِّهامه ببعلزبول)، الصداقة وكلمة الله، الصداقة وآية يونان النبي، العين البسيطة، التطهير الداخلي والعبادة بالروح.

الأصحاح الثاني عشر: الصديق السماوي والقطيع الصغير ٢٨٧

القطيع الجديد وخمير الفرِّيسيِّين، القطيع الجديد والخوف، القطيع الجديد والاتكال على الله، القطيع الجديد والشهادة، القطيع الجديد والطمع، القطيع الجديد والزمنيات، القطيع الجديد والسماويَّات، القطيع الجديد ومسرة الآب، القطيع الجديد والصدقة، القطيع الجديد ومجيء الصديق، القطيع الجديد والأمانة على الوكالة، القطيع الجديد ونار الروح، القطيع الجديد والألم، القطيع الجديد وروح التمييز، القطيع الجديد والحب الغافر.

الأصحاح الثالث عشر: التوبة العاملة ٣٢٧

دعوة للتوبة، الله يطلب ثمرًا، الله يحل رباطات الضعف، مثل حبة الخردل، مثل الخميرة والعجين، التوبة والباب الضيق، إعلانه عن موته.

الأصحاح الرابع عشر: أساسيات الصداقة الإلهيَّة ٣٥٣

السمو فوق الحرف، عدم اشتهاء المتكآت الأولى، اتساع القلب للمحتاجين، الاهتمام بالدعوة للوليمة، حمل الصليب.

الأصحاح الخامس عشر: صداقته للخطاة ٣٧٥

مثل الخروف الضال، مثل الدرهم المفقود، مثل الابن الضال.

الأصحاح السادس عشر: اغتصاب الصداقة الإلهيَّة ٤٠٠

مثل وكيل الظلم، الصداقة الإلهيَّة ومحبَّة المال، الصداقة الإلهيَّة والوصيَّة الصعبة، مثل لعازر والغني.

الأصحاح السابع عشر: الإيمان والصداقة الإلهيَّة ٤٣١

تجنب العثرات في سلوكنا، اتساع القلب للمخطئين إلينا، زد إيماننا، الشكر والإيمان (العشرة بُرص)، الإيمان بالملكوت الداخلي، بين الملكوت الداخلي والأخروي.

الأصحاح الثامن عشر: الصلاة الحية والصداقة الإلهيَّة ....,............ ٤٥٥

الصلاة بلجاجة (الأرملة وقاضي الظلم)، العبادة المتضعة (الفريسي والعشار)، العودة إلى بساطة الطفولة، التحرر من عبودية المال، قبول الصليب، الاستنارة (تفتيح عيني الأعمى).

الباب الرابع

صديقنَا المخلص

الأصحاح التاسع عشر: صديقنا في أورشليم ٤٧١

إضافة زكا للسيد، مَثَل العشرة أمناء، تقدمه نحو أورشليم، بكاؤه على أورشليم، تطهير الهيكل، تعليمه في الهيكل.

الأصحاح العشرون: مقاومو الصداقة الإلهيَّة ٤٩٦

مقاومة تعليمه بإنكار سلطانه، مقاومة الكرّام (مثل الكرامين)، سؤال بخصوص الجزية، سؤال بخصوص القيامة، ابن داود وربه، تحذير من الكتبة المرائين.

الأصحاح الحادي والعشرون: صديقنا السماوي ومجيئه الأخير ٥١٠

فِلسا الأرملة، سؤال حول أبنية الهيكل، المسحاء المضللون، أخبار الحروب، الزلازل والمجاعات والأوبئة، اضطهاد المؤمنين، حصار أورشليم، علامات في الشمس، مجيء ابن الإنسان، مَثَل التينة والصيف، دعوة للسهر، بياته في جبل الزيتون.

الأصحاح الثاني والعشرون: الصديق المتألم ٥٢٥

اقتراب عيد الفصح، خيانة يهوذا، الإعداد للفصح، الفصح الجديد، مناقشة حول الأعظم، تحذيره لبطرس، تحذير عام، صلاته على جبل الزيتون، تسليمه، محاكمته دينيًا في بيت رئيس الكهنة، إنكار بطرس له، جلده والاستهزاء به، محاكمته في المجمع.

الأصحاح الثالث والعشرون: الصديق المصلوب ٥٥٥

محاكمته أمام بيلاطس، محاكمته أمام هيرودس، إصرار اليهود على صلبه، الصليب وسمعان القيرواني، الصليب والنائحات، صلبه بين لصين، تسليم الروح دفنه.

الباب الخامس

صديقنا القائم من الأموات

الأصحاح الرابع والعشرون: صديقنا القائم من الأموات ٥٧٣

القبر الفارغ، تلميذا عمواس، ظهوره لتلاميذه، إرساله التلاميذ، صعوده إلى السماء، ارتباطهم بالهيكل.

صدر عن هذه السلسلة

العهد القديم

١ التكوين
٢ الخروج
٣ اللاويين
٤ العدد
٥ التثنية
٦ يشوع
٧ القضاة
٨ راعوث
٩ صموئيل الأول
١٠ صموئيل الثاني
١١ ملوك (جزءان)
١٢ أخبار الأيام الأول
١٣ أخبار الأيام الثاني
١٤ عزرا
١٥ نحميا
١٦ يهوديت
١٧ أستير
١٨ أيوب (٤ أجزاء)
١٩ المزامير
٢٠ الأمثال (٣ أجزاء)
٢١ الجامعة
٢٢ نشيد الأناشيد
٢٣ حكمة سليمان
٢٤ إشعياء
٢٥ إرميا (جزءان)
٢٦ مراثي إرميا
٢٧ حزقيال
٢٨ دانيال
٢٩ هوشع
٣٠ يوئيل
٣١ عاموس
٣٢ عوبديا
٣٣ يونان
٣٤ ميخا
٣٥ ناحوم
٣٦ حبقوق
٣٧ صفنيا
٣٨ حجي
٣٩ زكريا
٤٠ ملاخي

العهد الجديد

١ إنجيل متى
٢ إنجيل مرقس
٣ إنجيل لوقا
٤ إنجيل يوحنا (جزءان)
٥ أعمال الرسل (جزءان)
٦ رسالة رومية
٧ كورنثوس الأولى
٨ كورنثوس الثانية
٩ غلاطية
١٠ أفسس
١١ الرسالة إلى فيلبي
١٢ الرسالة إلى كولوسي
١٣ تسالونيكي الأولى
١٤ تسالونيكي الثانية
١٥ تيموثاوس الأولى
١٦ تيموثاوس الثانية
١٧ الرسالة إلى تيطس
١٨ الرسالة إلى فليمون
١٩ الرسالة إلى العبرانيين
٢٠ رسالة يعقوب
٢١ رسالة بطرس الأولى
٢٢ رسالة بطرس الثانية
٢٣ رسائل يوحنا الثلاث
٢٤ رسالة يهوذا
٢٥ رؤيا يوحنا اللاهوتي

يُطلب مِن

❖ مكتبة مارمرقس بالأنبا رويس / العباسية / القاهرة – ت: ٢٤٨٨٢٤٥٤
❖ كنيسة مارجرجس – سبورتنج / الإبراهيمية / الإسكندرية ت: ٥٩١٩٨٨٨ / ٠٣